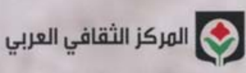
فرناندو بيسوا

كتاب اللاطمأنينة

ترجمة: المهدي أخريف





فرناندو بيسوا

كتاب اللاطمأنينة

ترجمة: المهدي أخريف



المركز الثقافي العربي

فرناندو بيسوا

كتاب اللاطمأنينة

الكتاب

كتاب اللاطمأنينة

تأليف

فرناندو بيسوا

ترجمة

المهدي أخريف

الطبعة

الأولى، 2016

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-810-7

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

تقديم

بقلم: إدمون عمران المليح

إلى المهدي أخريف يعود شرف التعهد بترجمة كتاب **اللاطمأنينة** لفرناندو بيسوا وإنجازها الجيد، مقابل مجهود صبور استأثر بكل نشاطه لمدّة شهور وشهور. وههنا أريد أن أعرب له عن إعجابي الذي أملته الصداقة الكبيرة التي تجمعنا. كما أعبّر له عن شكراني إذا صح القول، لأنه بعمله هذا يحقق توقاً رعي بعناية زمناً طويلاً. لقد اقتسمنا معاً هذا الاهتمام العميق جداً بأثر بيسوا الأدبي، الذي يُعتبر ثمرة اكتشاف حقيقي، وإن كان استحقاق هذه المبادرة يعود إليه كلّية وحده.

تكتسي هذه الترجمة أهمية تاريخية في الأدب المغربي والعربي، وذلك لسبب مزدوج: أوّله ودون تصنّع، هو أثر بيسوا الأدبي، الذي يوجد كتاب **اللاطمأنينة**، في قلب هذا الأثر الذي تنكشف من خلاله علامة أصالة إبداع أدبي ذي أهمية كونية. أمّا ثانيه، فيقتضي شروحاً مطوّلة يلزم اختزالها. بذاية، هناك حالة فريدة، خاصة بثقافتنا، يترتّب عليها أن أولئك الذين بإمكانهم القراءة بالفرنسية، هم مَن ينفذ

في المقام الأول إلى الأدب الفرنسي، ثم إلى بقية الآداب الأخرى بما فيها الأدب الإسباني، الإيطالي، الأميركي، الإنجليزي، الصيني، وغيرها عن طريق الترجمات الفرنسية. وهذا وضعٌ دام طويلاً فخلق بذلك اختلالاً في ثقافتنا وإفقاراً لها؛ كما أن جماعة قراء اللغة الفرنسية باتت تتقلص أكثر فأكثر، فراحت معرفة اللغة هي الأخرى تتناقص. ولذلك، ليس بوسع الترجمات العربية النادرة، التي تطرح جدالاً من حيث قيمتها اللّهم إلّا إذا كان هناك استثناء أو سهو من جانبي، أن تعدل هذا الاختلال الضارّ بثقافتنا. ويظهر التوجّه نفسه بهذا الخصوص، عندما ينصبّ مجهود الترجمة، برغم نقصها، على أعمال أدبية فرنسية، و(الروايات أساساً)، ذات أهمية نسبية للغاية، مجاراة للراهنية الباريسية الجارية، التي يعرف الكل تفاهتها، باستثناء أعمال وترجمات نظرية أو نقدية تتعلق بأعمال باختين، بارت، ريكور وغيرهم، كالتي أنجز بعضها د. محمد برادة وحسان بورقية...

تخوّل لي هذه الاعتبارات تحديد أهمية ترجمة كتاب **اللاطمأنينة**، خصوصاً في هذه المرحلة التي يُعتبر فيها أدبنا بحاجة إلى مواجهة مرجعيات كبرى في الإبداع الأدبي، سيما وأننا نلاحظ غياب الطموحات العظمى فيه؛ نكتب بالكاد، أحياناً بلا غد، وعندما نكتب نقنع بالقليل، كما لو أنه ليس بوسعنا أن نفعل لا أكثر ولا خلافاً لما فعلنا.

أكيد أن بيسوا يقف على قائمة تلك الأسماء التي تشكّل الصفحة الأولى لعالم الكتب وغيرها من المنشورات، إلى درجة أن هذه الملاحظات تفقد كل وثاقة صلتها بالموضوع. ماذا حدث إذن ولماذا نمنحه تبريزاً مماثلاً مع أن قيمة كونية تسمح لنا بإيراده ضمن أكبر

الأسماء الأدبية، كجويس، بروست، ليثاما ليما، ليلتحق بعد ضربٍ من الدوران الأخرق الواثب فوق القرون، بالمعرّي، النفّري، وبتقليد أدبي يتشظى فيه مفهوم المؤلف إلى مجرات متعددة؟ ماذا حدث إذن علماً بأن مهمة محاولة البوح بفاتحة جواب ما، تبدو في غاية الوعورة، إن لم تكن تحدياً تقريباً.

إن قراءة كتاب **اللاطمأنينة**، لا تعني القيام بذلك الفعل المألوف، الشائع شبه الآلي الذي نتعرف به على نص من النصوص. فنحن لا نقدِّر كما يجب، أن الأمر حين يتعلق بأعظم الآثار الأدبية، تكون القراءة إبداعاً بحق، بكل ريبها واحتمالاتها، حيث المجازفة الدائمة بالوقوع في الخيبة، تدع صميم الأثر الأدبي ذاته - الذي تحاول الإمساك به - يفلت منها. هنا تفرض نفسها تلك القراءة - الكتابة تبعاً لفكرة فالتر بنيامين، الذي قدّم عنها أمثلة عجيبة وهو يقتحم قراءة بروست، كافكا وآخرين.

المهدي شاعر قبل كل شيء، ولأنه ليس مترجماً محترفاً، فلا شك في أنه قد باشر ترجمة كتاب **اللاطمأنينة** كإبداع شعري حقيقي. كنت وأنا أهيّئ هذا التمهيد قد بدأت في إعادة قراءة بيسوا، بالمعنى الذي يعني أن إعادة القراءة امتحان للحقيقة، كما قال خوان غويتسولو. لا أعرف كيف أوضح تلك التجربة، ذلك السفر التدشيني الافتتاحي في كون بيسوا الشعري، ولعلّنا نتذكر أن السفر بالنسبة إلى الشيخ الأكبر ابن عربي، حين يكون في منتهاه، يكون وحياً وإشراقاً، لحظات نادرة من الافتتان، من السعادة التامة، من النشوة، من الوجد والارتعاش، كما لو كان المرء على وشك أن يفقد ما خال امتلاكه، ومع ذلك يفقد بالمناسبة نفسه. كنت أتمنى لو أني قدّمت بحذق يوميات تلك الرحلة البحرية: قراءة

- كتابة **كتاب اللاطمأنينة**؛ لكن يتعيّن عليَّ الآن ما هو دون ذلك الطموح، عليَّ أن أنكبّ على هذه الأسطر القليلة، لا لمحاولة تلخيص مستحيلة وساخرة حتى وإن تعلقت بخطوط **كتاب اللاطمأنينة** الأساسية، ولا لادّعاء قدرة قياس مشروع المهدي الجميل هذا، الذي يدمغ تاريخاً وحدثاً في أدبنا. كما أتمنى أن يكون هذا دعوة لبقة تتهجس القراءة، علامة قوية على اليقظة والتنبُّه كي لا يضيع واحد من أهم الآثار الأدبية الكونية؛ **كتاب اللاطمأنينة**، في هذه السلبية اللعينة، في غياب الفضول وفي عدم قدرة إدراك مكانة القيمة الحقيقية للإبداع الأدبي وفي كل هذا الأذى الذي نكابد، لكن مَن يكون بيسوا إذن؟

في فرنسا ظلّ مجهولاً إلى حدود عام 1988، التاريخ الذي شرعت فيه دار كريستيان بورجوا في نشر مجموع أعماله. ويجب أن نقول بأن **كتاب اللاطمأنينة**، الحدث النادر والاستثنائي، لم يظهر في الطبعة الأولى بلشبونة، إلّا سنة 1982 لدى دار نشر آتيكا. وقد اشتغل عليه بيسوا مدة تفوق العشرين سنة، من عام 1913 إلى وفاته عام 1935. انتظر المخطوط الأصلي طويلاً في «الحقيبة» الشهيرة التي كان الشاعر يُراكم فيها سائر أوراقه. وفي لحظة اكتشافه الغامضة، قُدِّمَ الكتاب في هيئة شذرات غير مترابطة وبلا نظام ظاهر. أسند الكل إلى برناردو سوارش، وهو أحد الأنداد الذين خلقهم بيسوا، بل أقربهم إليه. وحتى وإن كان شيئاً محموداً أن يظهر **كتاب اللاطمأنينة** باسم بيسوا، فإن خلق الأنداد هذا، الذي يوحي بمدى تعقيد أثر بيسوا وسعة نبوغه، يفرض علينا أن نتوقف عنده قبل الذهاب إلى ما هو أبعد. بيسوا نفسه، في نص صدر بعنوان «عن الأنداد» (منشورات إين)، قام بشرح أصلهم، أو ميلادهم بالأحرى،

كان ذلك أولاً في الرسالة التي وجّهها بيسوا إلى صديقه آدولفو كاسايس مونتيرو، حيث يعرض لتكوين أولئك الأنداد، ليخلص بعد ذلك إلى وضع ما يشبه الورقة البيوغرافية لكل واحد منهم، آلبيرتو كايرو، ريكاردو رييس وآلفارو دي كامبوس بالأساس، بل ويمنح كل واحد منهم وصفاً فيزيولوجياً. وإذا أضفنا إلى هذا، النصوص التي ألّفوها، فإننا سنندهش لوجودهم المستقل. وبيسوا يحلل الباعث الداخلي الذي حدا به، سواء من وجهة نظر نفسية أو أدبية صرف، إلى هذا الخلق، نصل إلى الحديث عن «أمهم»، لوصف كل هذه السيرورة كما لو كان الأمر يتعلق بولادة جسمية حقيقية. الـ«أثر الأدبي الغفل، كتب بيسوا، هو أثر المؤلف نفسه، لا ينقصه سوى توقيع اسمه؛ أما أثر الند، فهو للمؤلف خارج ذاته؛ هو أثر ذاتية مستحدثة كلية من طرفه، شأن ردود شخصية خارجة من مسرحية ألّفها هو».

من الواضح إذن أن خلق الأنداد، بعيداً عن أن يكون مجرد دهاء مؤلف ما، يكشف عن قدرات الكتابة المحمولة إلى أقصى حد. فهو يشك في نظرية المؤلف ذاتها. في السنوات الأخيرة، وقبل وفاته بقليل، وصل الفيلسوف ميشال فوكو في نهاية تأملاته حو الإبداع الأدبي الروائي، إلى إعادة طرح مفهوم الكاتب للمناقشة. موازاة مع هذه الخطوة في مجال الأدب العربي وصل عبد الفتاح كيليطو إلى خلاصات متقاربة في كتابه **الكاتب وناسخه**. ثم إن أدبنا الشفوي، الخصب والغني للغاية بمتخيّله، ينطوي على ملامح عجيبة تبطل على نحو معيّن الوهم المرجعي لمؤلف ما كقطب وحيد في الإبداع الأدبي. تدريجياً نتقدم باتجاه مجاورة أثر بيسوا، ودون أن نباشر أخلاطاً اعتباطية أو مجرَّدة من كل قيمة، كي نشاهد ما يمثّل في

نظري رأس الاكتشاف، كيف - ونص **كتاب اللاطمأنينة** يؤيدنا - يسترجع واثباً فوق القرون، إشراقات **كتاب المواقف** للنفّري في صورة أصداء عميقة ومدوّية. كنت أود لو كان بإمكاني أن أعيد ههنا بطريقة ما، يوميات إعادة القراءة تلك لـ **كتاب اللاطمأنينة**؛ قراءة جديدة تماماً، فَأُليّةٌ في الواقع، سفر حقق لدي لحظات نعمة وسعادة، ثم ذلك الصفاء، ثمرة تلك اللحظة الاستثنائية، حيث الروح والكينونة في وجودهما المطلق يسبحان في السكون والنور. لم يكن ذلك قصدي بالضبط، لكنه يتقاطع مع الانتباه ولذة الاشتغال الركينة، حتى أقرأ المهدي، الاسم العربي الند لبيسوا، وبوسع القارئ أن يقيس أثر القلق هذا. ولكن من أين السبيل وأنا كل يوم أتأكد بنفسي أكثر، من الجهل المطبق المخيم حول بيسوا، ليس حول عمله فحسب، بل حول اسمه كذلك. والأسوأ أنه حين يثار، يكون النزوع عادة إلى اعتباره كأي كاتب آخر.

لقد استعدتُ الصورةَ، صورةَ معبر يقود إلى قمة جبل ما، صورة مستعارة من فالتر بنيامين، لتشخيص كل الصعوبة الكامنة في محاولة الدخول إلى **كتاب اللاطمأنينة**. العائق الأول، العتبة التي يتعيّن عبورها إذا شئنا الذهاب أبعد، هي أن الأمر لا يتعلق بكتاب بالمعنى العادي للكلمة. في «الحقيبة» الشهيرة، وجد المخطوط، كمية من شذرات متناثرة دون رابط ولا تسلسل، تصعب قراءتها في الغالب، وفوق ذلك، جُمَل غير تامة، مع أن الكل يشكّل **كتاب اللاطمأنينة**. . مهمة ذات تعقيد مبهم. ولأنه لم ينشر في حياته إلّا القليل، كان يلزم ما ينيف على الخمسين سنة بعد وفاة فرناندو بيسوا، عام 1935، لتظهر سنة 1982، طبعة أصلية بلشبونة، وعمليات الاكتشاف مستمرة، تتوالى الطبعات كل مرة بطابع غير

تام، تغيرات ملحوظة متعلقة بنظام تقديم الشذرات والبحث عن تناغم المجموعة. هكذا تنوعت الترجمتان اللتان قام بأولاهما عن الإسبانية، الشاعر آنخيل كريسبو، سنة 1982، والطبعة الجديدة الكاملة، بالفرنسية، تحت إدارة الباحث ريشارد زينيث، الذي اشتغل على آخر طبعة برتغالية، عام 1988، من حيث نظام التقديم بشكل لافت للانتباه. وليست هذه الإيضاحات بلا طائل، بالعكس، فما نحن على صلة به، في كون عظمة المأساوي الذي لم يعرف كيف يكشف عن ذاته بنظرة واحدة أو بعد قراءة واحدة، هو كما كتب ريشارد زينيث، عبقرية بيسوا في أوجها. فقد أقام تجربته الأكثر حميمية وواقعه الأكثر انجراحاً، من غياب مركز معيّن، ومماثلة كل شيء، واختزال العالم في شذرات لا تؤلف كلّاً ما؛ ثم إن هذا الكتاب السديمي المتعلق بالقلق خير دليل على نفاذِ بصيرةٍ تامّ ودائم.

لقد استعدت صورة ذلك المعبر الضيق الذي يقود إلى قمة جبل ما، الصورة المستعارة من فالتر بنيامين. هنا عند سفح هذا الجبل الذي ينتصب في الأعالي، نحس بالصعوبة المتعذر قهرها، سيما وأن أمامنا معابر عديدة، لا معبراً واحداً؛ بل أحياناً، عندما ينال منا الدوار، لا نرى أياً منها؛ أو عندما نتورط في أحدها، نلتفت إلى الوراء فنلاحظ بهلع أننا تهنا في شساعة منذورة لعزلة أشد قساوة. لو كان ذلك ممكناً، وأقولها للمرة الثانية، لكنت تمنيت لو أني نثرت، كما تنثر الأحجار لنصب طريق ممكنة، ملاحظات موجزة، على شكل خلاصات، خلال تلك القراءة - الكتابة، لكن عليَّ أن أعدل عن هذا، لأن الغاية هي مواكبة ترجمة المهدي. كيف يقدم **كتاب اللاطمأنينة** نفسه؟ نعتبره مثل يوميات لن تحمل عمّا قريب أية إشارة

لتاريخ ما، يوميات بلا أحداث كما تشير إلى ذلك آخر طبعة للترجمة الفرنسية. غير أن الكتاب ليس كتاباً، إذ يستعصي على تصنيف للشكل أو النوع. قد يكون قصيدة مطوّلة، هائلة، تتقدم بقوة كنار جوفية تفيض فتسقي الأراضي المجهولة. أعتقد، وعندي إحساس داخلي بذلك، أنها مدى لقدر مأساوي وفريد، يتسع لبُعد الإنسانية جمعاء، موزون - ولا كلام غير هذا - حسب نفَس المقامات الوجودي، حسب الإقامات التي تنفتح فيها نفسٌ ما للحيرة وهي تذرع ليل نهار الفضاء الموجود بين الحياة والموت - كما سجل ذلك، الفيلسوف البرتغالي إدواردو لورنسو - إلى أقصى حد الفناء، وأعتقد أيضاً أن التجربة وحدها وتقشّف الصوفية، هما القادران على قياسها عند الدنوّ المسنون من النفّري، ابن عربي والحلّاج، الذين تخترق أصواتهم كتاب اللاطمأنينة بشكل مدهش.

افتحوا الكتاب دون تأخر، ليس ثمة نظام للقراءة، اقتربوا من هذه الصفحة في نسيان تام لما قيل:

«اليوم وصلت فجأة، إلى إحساس سخيف وصحيح. لقد تيقنت بنفسي، في وميض باطني، بأنني لا أحد، لا أحد البتة. حينما لمع ذلك الوميض، وهناك حيثما كنت أعتقد بوجود مدينة ما، كان ثَمَّة سهل يمتد قفراً؛ أما النورُ الكئيب الذي جَلَّاني، فلم يكشف لي عن أي سماء تمتد فوقه... أنا أرباض مدينة غير موجودة، أنا التعليق المسهب على كتاب لم يكتبه أحد. أنا لا أحد، لا أحد، لا أعرف لا الإحساس ولا التفكير ولا الإرادة. أنا شخصية في رواية لم تُكتب، أطفو خفيفَ الوزن، متناثراً من غير أن أوجد، بين أحلام كائن لم يعرف كيف ينهيني... روحي طاحونةُ هواءٍ سوداء، دوار شاسع يطوف حول الفراغ، حركة محيط لامتناهٍ حول ثقب في

اللاشيء؛ وفي كل هذه المياه التي هي تحويم، فضلاً عن الماء، تسبح كل صور الأشياء التي رأيت وسمعت في العالم - تتالى دور، وجوه، صناديق مزق موسيقى ومقاطع مبعثرة. . . ؛ وبداخلي كأنما الجحيم يقهقه. . . » إذا كان لا بدّ من التوقف، فليكن ههنا، دون أن نتقدم إلى الأمام. كأن السماء كانت تقع على رأسك، مفتوناً، مسوطاً بهذا الوميض، تنفتح هوة تحت خطواتك؛ نزول إلى الجحيم، نزول مدوخ، وروح، روح فقط، تهب نفسها للنظر في هشاشتها، في ليل عذابها وعدمها. الاستدلال غير المسموع بين الصورة وحركاتها المذهلة الترحلية من عنصر طبيعي إلى آخر، من مكان إلى آخر، وهي تحضن كوناً بكامله، كما تحضن تلك الزهرة النادرة التي توهمنا معرفتها: الشعر. . .

الصورة تحلّ مَحَلَّ التجريد، والمفاهيم التي تفرغ التجربة من معيشها، تعين المسافة التي تُصبح ضياعاً. لقد أنجز بيسوا هذا الشيء الرائع المتمثِّل في كشف الكلام الفلسفي بالتقريب، كي يقيم في طيته، فيما يعتبر القلب المفرخ: كرجل عاد، بل بوسعنا أن نقول كإنسان معين، إنسان موزيل - الروائي النمساوي - الذي لا مزايا له، أليس هو ذلك الموظف التجاري الذي تجري حياته بين مكتب العمل في شارع الدورادور الذي بات مشهوراً، وبين منزله؟ إنسانٌ إذن يكتب لمدة سنوات هذه اليوميات، ولا ينشر منها شيئاً، أو بعض الشيء، وعلى هذا النحو ويوماً تلو آخر، يجمع رأسمال ذا قيمة لا تُصدَّق، لا يقاس بالقياس الشائع في النظام المعمول به في الأدب. سيقول ذلك الإنسان، ودائماً في تلك الوثائق، وثائق ألم الوجود في العالم، بفغور مفتوح كالجرح: «الكتابة، بالنسبة إليّ، تعني أن أهين نفسي، لكن ليس بمستطاعي الإمساك عنها.

الكتابة كالمخدر الذي أشمئز منه، ومع ذلك أتناوله، كالمنكر الذي أحتقر ولكنني أنغمس فيه». . . وبهذه الصورة التي تقلب كل شيء: «هناك سموم لا غنى عنها، ومنها أخرى لطيفة جداً، مكونة من مقومات الروح، من نباتات مقطوفة من خرائب أحلامنا الخفية، من شقائق نعمان وجدت فوق مقابر تطلعاتنا، من الأوراق الطويلة لأشجار داعرة، تحرك أغصانها على الضفاف الصدئة لمياه الروح الجهنمية».

أرمدة الفلسفة، أرمدة الميتافيزيقا، وهي لا تزال مكوية بالنار التي أَتَتْ عليها، تنبعث ثانية، من تَفوُّق ما على الذات. كذلك تُكنس المتعة البرجوازية الصغيرة، التاريخ الصغير الدنيء، لذّات الاعترافات المتعطنة، الفوّاحة بالاحتقار المتبجح، كل هذا يكنس في طاحونة «القلق».

لا شيء من هذا يلوح إذا تمسَّكنا بظاهر هذا الأسلوب البسيط، هذا النثر الشعري الذي لا يعرف الانغلاق، الخالي من تعمية مصطنعة تروم الإتقان والإيهام بعمقٍ ما مُقعَّر. كان بيسوا دوماً يرفض ذلك التعارض بين النثر والشعر، معلناً إيثاره للأول لكونه يؤوي جوهر ما هو شعري، ما لا يُقال، ما لا يُختزل في محاولة تعريفٍ أو شرح. وأول ملاحظة تكشف عن سمة أصيلة عند بيسوا، هي أن فكره، جوهرياً، شعري، كما كتبت حنا آراندت بصدد فالتر بنيامين الذي يحتل عمله الدرجة الروحية نفسها. إن قراءة ما تسعى إلى امتلاك سر من الأسرار، لتعد بالعثور على سبل متعددة بإمكانها أن تقود إلى تلك الجمالية الكتابية التي يطالب بها بيسوا على مدى «لاطمأنينته»: «أكتب وأنا أركز على الكلمات كما أركز على واجهات لا أرى فيها شيئاً، فلا يتبقى لي منها سوى أنصاف معانٍ

وأشباه عبارات كألوان أقمشة أُدركتْ بالكاد، وتناغمات حدستْ ثم رُكِّبتْ في أشياء لا أعرفها. أكتب وأنا أتهدهد كما تُهدهِد أمّ مخبولة طفلها الميت». هذه الضدية، التي لا يمكن أن ننعتها بخلاف هذا، تهوي مثل ساطور وتقطع بقوة رهيبة تلك القيود التي تربطك بانغلاق ذهني ما، ثم تقذف بك تماماً باتجاه سماء من أشياء عالية تَدِقُّ عن الوصف. وبيسوا بذاته هو مَن يقول لك بأن بعض الاستعارات أكثر واقعية من الناس الذين نشاهدهم يعبرون الشارع، أو أن لبعض الجمل الأدبية حتماً هيئة بشرية. ليست هذه طريقة في الكلام. بالعكس، الصورة عند بيسوا تنتمي إلى طبيعة أخرى، بخلاف ما نراها عليه. فهي لا تضارع الرمز لكونها لا تصور شيئاً أو موضوعاً، كما لا تصور عاطفة، أو إحساساً أو حالة روحية. إنها صورة لذاتها، هي تلك الروح المجسدة في أوجاعها، أحاسيسها وأفكارها. وباستدلال لا نظير له، تنتقل وتتركز في مكان بعيد حاضر وغائب؛ وأريد أن أقدم لذلك بمثال ضمن هذا الإسراف في الصور الذي يخلق كوناً بكامله: «وألاقي نفسي عند أحواضها (الأحلام) كنرسيس ضرير استطاب ضفاف الماء، فأحس بجسمه ينحني عليه فعل رؤية بُعدية وداجية همست للأحاسيس، مجردة ومعيشة في أعمق خبايا موطن الخيال، بِهَمٍّ أمومي يؤثر نفسه على كل شيء». ههنا مثال الأليغوريا الحسن، مثلما رَدَّتْ إليها ماري سيسيل ديفور المليح الاعتبار على أتمّ وجه، تلك الأليغوريا التي تُقيم في ثنية الصورة مشهد معيش أو حكاية ما في امتلاء حضورها الراسخ، والتي لا تستطيع، للمفارقة، عبور صمت ما لا يقال. كتب صديقنا الفقيد خوسي أنخيل بالينتي متحدثاً عن سان خوان دي لاكروث، الوجه الصوفي الكبير، مؤلف «النشيد الروحي»: «بهذا

لمس (سان خوان) ذلك الحد الغريب والأقصى حيث ينطق الكلام الصمت، حيث استحالة الكلام هي إمكانيته الوحيدة، وحيث الاستحالة نفسها هي الطريقة الوحيدة التي تجعل النشيد ممكناً».
هكذا تغمر تلك الأراضي المجهولة، مناطق القربى الرهيفة الغنية بالإبداع، ومواقع السموّ والحظوة التي يُقيم بها بيسوا. ونعرف علامَ كان يقتات، حتى لا تسوّل نفس ما لصاحبها نعتنا بالاعتساف، كتب بيسوا: «لقد انتقلت إلى اهتمامات فكرية أشدّ خطورة على توازني العصبي. قضيت ليالي مروعة منحنياً على مجلدات متصوفة وقباليين لم أنجح أبداً في قراءتها عن آخرها، إلّا بطريقة متقطعة، وأنا أرتعد... لقد عانيتُ كثيراً من خَنْق ضحكات وحجج نجيمات الصليب، رموزية القبالية والأضرحة لي. فأترعَتْ حمى أيامي بتأملات سَامّة ببراهين من الميتافيزيقا، السحر والخيمياء...» كما كتب أيضاً، وهذا ما سيخلص إلى تنويرنا: «الكلمات بالنسبة إليّ أجساد حسية لنساء فاتنات وشبقيات مجسدة» على هذا النحو ينتهي بيسوا بجلاء إلى الإقامة في تلك الرؤية للغة، الممتدة من القبالة إلى الصوفية، وإلى الشيخ الأكبر ابن عربي بخاصة، يمتصّ عصارة علم حروفها، يجعل من الكلمة كائناً حياً بالمعنى الدقيق للكلمة ويرد الكلام إلى كثافة سر الطبيعة.

والكتابة نسبة إلى القباليين، هي بحق سائل نُطفي، كل ما لا يستسيغه عقل حديث. من ناحية أخرى، نندهش لِمَدى هذا القلق، بالفعل الدائم لكون الجسد إقامة ومركز انكسار الروح في أوجاعها، تيهها بين الحياة والموت، أحلامها وآلامها، ألق إشراقاتها - بالتعبير الصوفي - الباهر. لا علاقة لشعره بتلك الأبخرة الأثيرية، بتلك التجريدية الزائفة التي ندّعي تقديمها على أنها نموذج كل

شعرية. قال بيير لوري خلال محاضرة قدّمها في باريس بمعهد العالم العربي في يناير 1996، تحت عنوان: «حتى نرى صوت اللّه»: «حينما نتحدث عن هذه الرؤية للجسد، لنبالته ولأهميته في التحول الروحي للإنسان، فذلك يعني أن البدن المادي يصبح مثل لحمة شكل روحي، مثل تجلٍّ لمظهر قرآن خفي، مثل المكان الذي تتفتح فيه الحكمة والجمال الرباني». مسلَّم به أن بيسوا لا يقيم في منظور ديني ما، كما لا يرد إلى انتماء أثبته بوضوح أي تصوف كان. ثم إنه يلتحم بأحسن ما في الثقافة الغربية بعيداً إذن عن الإسلام وعن الثقافة الإسلامية لكن، وهنا بالضبط تكمن شرارة عبقريته، شعره يهوي، على غرار مزامير الجليل، على كافة الحصون ومتاريس الحجز، فاتحاً بجرأة صموت معابر غير مشكوك فيها. ولكي نستعيد ما يبرِّر التقارب المحقق، فالجسد في شعره هو عين اللحمة التي يمتح منها ميلاده ووميض قدره. وانطلاقاً من هذا، مهما تبدى هذا مذهلاً، ودون القدرة على تأكيد فاتحة لشرحه، ينفتح مسرب باتجاه العلم الروحاني والصوفية بالخصوص، من المنظور الذي أثاره بيير لوري. ودون أن أتوقف عند تحفُّظات لا أبالي بها في نهاية المطاف، أضع بيسوا تجاه النفّري، وجهاً لوجه في تعانق حداثة تقطع الأنفاس:

موقف الموت: «أوقفني في الموت فرأيت الأعمال كلها سيئات ورأيت الخوف يتحكم في الرجاء ورأيت الغنى قد صار ناراً ولحق بالنار ورأيت الفقر خصماً يحتج ورأيت كل شيء لا يقدرُ على شيء ورأيت الملك غروراً ورأيت الملكوت خداعاً، وناديت يا علم فلَمْ يُجبني وناديت يا معرفة فلم تجبني، ورأيتُ كل شيء قد أسلمني ورأيت كل خليقة قد هرب مني وبقيت وحدي».

«وقال لي الوقفة نورية تعرف القيم وتطمس الخواطر.

وقال لي الوقفة وراء الليل والنهار ووراء ما فيهما من الاقدار.

وقال لي الوقفة نار السوى فإن أحرقته بها وإلّا أحرقتك به.

وقال لي دخل الواقف كل بيت فما وسعه، وشرب من كل مشرب فما وسعه، وشرب من كل مشرب فما روى، فأفضى إليّ وأنا قراره وعندي موقفه».

توجد في هذه الأقوال الشذرية، نظرة طفيفة حول هذا المؤلف، الشاسع بوزن رسالته، مؤلف يقف في وجه الزمن، يستولي على الحداثة في اشتعال يحوّلها إلى رماد، مؤلف يسمّرك عند عتبته ويتركك مرتعشاً تائهاً في السَّدف. له نكهة فريدة والكلام الذي يقول موسوم بخاتم أصالة فألية. لماذا بيسوا إذن إذا كنا نريد الاحتماء حياء وشيناً ونحن نباشر خليطاً مريباً؟

سيكون الأمر كذلك، إذا خضعنا لامتثالية قراءة عادية وشائعة، تلك القراءة التي تدمّر نفسها في القلق وزلزال النفّري الهائل في الرجع يدق لنا فالتر بنيامين الذي استشهدتْ به ماري سيسيل ديفور في كتابها البعدي **الكتابة الأليغورية**، ساعة اليقظة: «لقد غدت الكتابة، بجانب الكلام، وثيقة تماثُلَين لامحسوسين، واتصالَين لامحسوسين». وفي مكان آخر: «قراءة ما لم يُكتب أبداً، هي القراءة الأقدم. قراءة ما قبل الكلام، في الأحشاء، في النجوم وفي الرقصات. . . الكتابة التي لن يكتبها أحد، والتي لن تكون لا تعبيراً ولا إبلاغاً». تفتح المعابر إذن: الإقامة، الموقف بتعبير بول نويبا، ليس مفهوماً مجرداً (محتمل التعريف)، بل رمز نبلغه بالمقاربات المتتالية؛ إقامة عابرة ينشر فيها، أو يفتح فيها - بتعبير أدق - لهذا وذلك على مدى سفر أولي مُحاذٍ لهوة القلق الوجودي. . التماس

المطلق الممتد في الهيجان العظيم لضدية لا حدودَ لها. يبدو الموقف شاخصاً في مطلق جوهر فرد، جوهر غير ثابت يعلن فيه اشتداد طاقة هائلة، تشظية الفكر، تفتته تفتت المزهريات، حسب القبالة، حيث تنفلت الومضات الإلهية (الحروف).

إن كنت قرأت بعكس الصواب، فلتفصل رأسي وليُلْقَ بها إلى الكلاب، لكن سيبقى مع ذلك، العمل الرائع الذي أنجزه المهدي، وتبقى اللاطمأنينة إلى نهاية الأزمنة

ترجمة: حسان بورقية

مُقدّمةُ المُترجم

لا شكّ في أنَّ كتاب **اللّاطمأنينة** لفرناندو بيسوا في طبعتهِ «الكاملة» للمرَّةِ الأولى في لُغتهِ البُرتُغاليّة الأصليّة في لشبونة عام 1982، قد سدَّ ثغرة أساسيّة[1] في معرفتنا بواحدٍ من أكبرِ شُعراءِ العالم في هذا القرن وفي كُلِّ العُصور. قبلَ هذه الطَّبعة كانت معرفتنا بهذا الكتاب الفريد جُزئيّة لا تتجاوزُ بعضَ النُّصوص والشَّذرات، وحتّى الطّبعة المشهورة من الكتاب قبل هذا التّاريخ، وهي طبعة بورتو التي ظهرت عام 1961 تحتَ عنوان «صفحات مُختارة» لم تحوِ سِوى مقاطع مَحدودة لا تُشكّل من المجموع الأصلي للكتاب سوى نسبة ضئيلة، ومع ذلك فعليها تمَّ الاعتماد في كُلّ الترجمات التي أُنجزت إلى اللُغات الأوروبية من الستينيات حتى مطلع الثّمانينيات من كتاب **اللّاطمأنينة**.

معروفٌ أنَّ بيسُوا (1888-1935) كانَ قد نَشَرَ في مجلّة *A Aguia* عامَ 1913 نصّاً نثريّاً مُعنوناً بـ«في غابةِ الانخطاف» سيُقالُ بأنهُ يكوّن جزءاً من كتاب **اللّاطمأنينة** الذي كان قيدَ الإنجاز. حينئذٍ

---

(1) فيما يخُصُّ شاعراً مثل بيسوا ستظلُّ هذه الثَّغرة قائمة دائماً.

كان بيسوا كاتباً شابّاً معروفاً على نطاقٍ محدود، ولم يكُن قد نشرَ وقتَها غيرَ سِلسِلة مقالات في مجلّة *A Aguia* حولَ الشّعر البُرتُغاليّ. وقبلَ عامٍ من ظُهورِ المقال المُشار إليه، كانَ بيسوا قد صرَّحَ باحتمالِ كتابتِهِ لسلسلة قصائد باسم شاعرٍ مُختلقٍ يُدعى ريكاردو رييس، الذي سيغدو أكبَرَ من مُجرّد اسمٍ مُستعارٍ لبيسوا. سيغدو أنا آخَرَ فيه ونديداً لهُ، أيّ شخصية تُمثّلُ دورها داخِلَ مسرحٍ من الشُّخوص بدلاً من مسرح الوقائع أو الفُصول، شخصيَّةٌ مُستقلّةٌ في تفكيرها ومزاجها عن خالقها نفسِهِ، لكن في عام 1914 لن يكتفي بيسوا بإخراجِ ريكاردو رييس وحدهُ إلى حيّز الوُجودِ الأدبيّ، بل سيخلقُ معهُ وإلى جانِبِهِ وباستقلالٍ عنهُ شاعرين نديدين مُختلفين عنه أوضح ما يكونُ الاختلاف في الشّخصيَّة والأُسلوبِ الشّعريّ هُما ألبيرتو كاييرو وألبارو دي كامبوس، ولَسوفَ يجدُ نفسَهُ مقوداً، بالقُوة الرَّمزيَّةِ الفعليّة لهذه الشَّخصيّات في داخلهِ، إلى إدارةِ لُعبةِ ظُهورِ أندادِهِ الشِّعريين هؤلاء على مسرحِ الإبداعِ الشِّعريِّ والأدبيّ، مُطَوِّراً ومُعمّقاً مَسارهُ ومساراتِهِم في الوقتِ نفسِهِ الذي حافَظَ فيه على لُعبةِ توليدِ وتعديدِ أشباهِهِ وأقنعتهِ وتوارياتِهِ المدوخة خلفَ عشراتِ الأسماءِ المُستعارَةِ.

وفي تلكَ السَنة بالذات، سنة ظُهورِ الأندادِ الثَّلاثةِ الكبار، ظلَّ بيسُوا يعتبرُ **كتابَ اللّاطمأنينة** كِتابهُ الخاصّ هو كفرناندو بيسوا. يتَّضحُ ذلك من خلال رسائله إلى الشاعر Armando Cortes الدّالة على وضعهِ النفسيّ المأزوم والكاشفةِ عن الكيفيَّة المُتقطّعة التي كان بيسوا يشتغِلُ بها بسبب ما أسماهُ «الوضع الرّاهن للّاكينونة» ذلك الوضع الذي أجبرهُ على الاشتغال كثيراً وبدونِ رغبةٍ على الكتاب، «لكن كل شيء كان عبارة عن مَقاطع، مَقاطع، مَقاطع» حسب قولِه.

ومُنذُ ذلك التّاريخ لم يتوقّف بيسوا قط عن كتابة الشّذرات والمقاطع تلوَ الأخرى من كتابهِ المُدهش وإن بِطريقةٍ مُتقطّعةٍ جدّاً. ويبدو أنَّ سنة 1929 - حسبَ أنخيل كريسبو (Angel Crespo) وآخرين، ولو أنَّ القرائن المُقدّمة غيرُ كافية - كانت السنة التي استعادَ فيها بيسوا حماسةُ لمُواصلةِ الكتابة بإيقاعٍ أكثَرَ كثافة وغزارة وفيها أيضاً اختلقَ شخصيَّة برنارد سوارش التي تسبّبَت لهُ في مشاكل وتعقيداتٍ عديدة فيما يخُصُّ نوعيَّةَ العلاقةِ القائمةِ بينهُما، هل هوَ أنا آخر له؟ هل هو نديدٌ أم نصفُ نديدٍ أم مُجرَّدُ شخصيّةٍ أدبيَّة؟ وكذلك فيما يتعلَّقُ بالأُسلوب وطريقةِ الكتابة والمنهاج المُتَّبع في الكتاب. بدونِ أن نغفِلَ الإشارةَ إلى أنَّ بيسوا الذي اعتَبَرَ دائماً كتاب **اللّاطمأنينة** كتابهُ هُو، كانَ ينوي أن يُنسَبَ الكِتابُ مُوقَّعاً من طرفه - إلى فيسنتي غيدس - كما يُوضح مقالٌ له بعُنوان «وُجوه» يعودُ إلى حوالى عام 1915 ثُمَّ فيما بعد إلى النّد الأقلّ شُهرة **بارون دي تايبي**. غيرَ أنَّهُ حتّى بعدَ أن استقرَّ رأيُهُ على برنارد سوارش ظلَّ يَعتبِرُهُ دائماً نِصفَ نديدٍ تارة (حسب رسالته إلى أدولف كاسايس مونتيرو 1935) ومُجرّد شخصيَّةٍ أدبيّة (حسب رسالةٍ لهُ إلى ج. غ. سيموسي في 28 يوليو 1932).

لقد تُوفّي بيسوا قبلَ أن يتمكّنَ من نشرِ الكِتاب، والأسوأ من ذلك - يقولُ دوبرادو كويهو وأنخيل كريسبو أيضاً - قبلَ أن يقومَ بإجراءِ التّنقيحات التي كانَ ينوي القيام بها لأغلبِ مقاطع الكتاب، بالإضافةِ إلى ما تستلزمُهُ عمليَّة النَّشر من ضرورةِ إخضاعِ الطبيعة الشّذريَّةِ المقطعيَّةِ لكتابتِهِ إلى نوعٍ من التَّنظيم والبَنْيَنَة، وهوَ الأمر الذي أدّى إلى تَأخُّرِ ظُهورِ الكِتاب في طبعته الكاملة حتّى عام 1982.

ويُقدمُ لنا أنخيل كريسبو نقلاً عن «أرنالدو سرابيا» في دراستِهِ

المُعنوَنة بـ«قصّة نشر كتاب اللّاطمأنينة» بورتو، 1979 المراحل الصّعبة التي قطعها الكتاب قبلَ ظُهورهِ مُكتملاً في التّاريخ المَذكور. فقد كانَ خورخي سينا الذي كانَ حينئذٍ أستاذاً في البرازيل أوَّلَ من شَرَعَ في مُباحثاتٍ مُعقَّدةٍ، عام 1960 مع دار نشر أتيكا من أجلِ نشر الكتاب الذي وُجِدَت أُصولُهُ في حوزة الكولونيل غايتانيو دياس صِهر بيسوا. وعلى الفور تفرَّغت ماريّا أليتي غالهوز لِفحصِ وسبرِ مُحتوى المادة التي ستوضع رهنَ إشارةِ سينا. وفي فبراير عام 1962، توصَّلَ هذا الأخير بالغلاف الأوَّل الذي ضَمَّ المخطوطات المُستنسخة التي هَيّأتها غالهوز، بعدها مُباشرة اتَّصَلَ سينا بدار النَّشر مُؤكِّداً «أنَّ كُلَّ ما أُرسِلَ إليهِ عبارةٌ عن شَذرات لكنَها على دَرَجَةٍ كبيرةٍ منَ الأهميّة، وأنَّ القِسمَ الأكبَرَ من الأصولِ تكادُ تَتعذَّرُ قراءتُهُ ممّا يتطلَّبُ القيامَ بمُجازفةٍ كُبرى في حقلِ تحقيقِ النُّصوص»..

وبعدما أمضى عَقداً مع أتيكا يلتزِمُ بموجبِهِ بتسليم الكِتاب مُحقَّقاً مع مقدِّمةٍ من كِتابتِهِ وذلك قبلَ يناير 1964 اضطُرَّ قبل الموعد المُحدَّد إلى أن يعتذرَ للدّار عن عدمِ استطاعتِهِ الوفاءَ بأحدِ بُنودِ العقدِ بسبب الصُّعوبات التي اعترضت سبيلَهُ، لذلك أعلَنَ أنَّهُ لن يتمَّكَّنَ من تسليمِ أصلِ الكتاب حتّى يونيو 1965، لكن في الوقت الذي كان سينا على وشك الانتهاء من كتابة مُقدِّمةٍ طويلةٍ للكتاب، ازدادت الأُمور تعقيداً عندما أخبرهُ جورج وردولف ليند أحدُ ناشري نثر بيسوا «أنه تمَّ العُثور على أكثر من 100 ورقة مخطوطة مُعلَّمة بـ L. do D. مُتَفرِّقة داخلَ الرُّزم النَّثريَّة المعثورِ عليها بينَ أوراقِ الشّاعِر». مُباشرة طالَبَ سينا بِأن يبعثوا إليه بنُسخٍ من الأوراق الجديدة، غير أنّهُ لم يتوصّل بعدَ عامٍ تقريباً سوى ببعضٍ مِنها، وفي عام 1969 وبعدَ سِلسِلةٍ من الصُّعوبات والعراقيل غير المُتوقعة اضطرَّ سينا إلى التَّخلّي

كُليَّة عن نشرِ الكِتاب، ممّا حدا بدار أتيكا وعائلة بيسوا إلى إناطةِ المشروع الصَّعب بآخرين. وهكذا ستتولّى ماريا أليتي غالهوز وتيريزا سوبرال كُوْنْها، جمعَ ونسخَ النُّصوص ونُسَخها المُختلفة فيما سيتولى خاسينتو برادو كوليهو عمليّات ضبط وتنظيم هذه النّصوص، وبعدَ ثلاثة عشَر عاماً من تخلّي سينا عن المشروع - أي عام 1982 - ظهرت الطَّبعة الكاملة للكتاب.

لقد تَركَ بيسوا بينَ أوراقِهِ مُلاحظات عديدة بخُصوص ترتيب مادّة **كتاب اللّاطمأنينة** لكنها ليست ذات نفعٍ أكيد بسبب بعض التَّناقُضات التي تَشوبُها بالنّظر إلى التنوُّع والاُختلافات الأُسلوبيَّة الكبيرة التي تميّزُ مقاطع ونُصوص الكتاب المؤلَّف على امتداد قُرابةَ ثلاثة وعِشرينَ عاماً، وبالنَّظر كذلك إلى الطَّبيعة «الخام» لأغلبِ الكتابات «المُشوَّشة» للعمل كَكُل تتطلَّبُ قُدرة خاصّة على البِناء وإعادةِ التَّركيب لا يستَطيعُها سوى صفوة الصَّفوةِ منَ القُرّاءِ. لذلك وكما كانَ مُتوقّعاً، وَجَدَ ناشرو الكتاب صُعوبات كُبرى في مُحاولةِ إضفاء نوعٍ من التبويب والتَّرتيب على «الوضع الفوضوي» للكتاب. فحتّى الترتيب الكرونولوجي بدا مُتعذّراً بسبب افتقار غالبيَّة المقاطع للتَّأريخ وبسبب لاجدوى اللُّجوء إلى تواريخ افتراضيّة بناء على «سياقات» النُصوص تسعى إلى إخضاع النّصّ إلى «جدولةٍ» زمنيَّةٍ جُزافيّة. ومِن ثَمَّ توقّفت مساعي مُحققي النّص الأصليّ بناء على تدقيقات الباحِث البرتغاليّ برادو دو كوليهو على تنظيمِ الكِتابِ وفقَ توجّهاتٍ ثيماتيَّةٍ عامّة تاركة لنباهةِ القارئ أن تتلمّسَ مناطق التَّجنُّس النِّسبيّ، وهي التَّوجُهاتِ ذاتها التي حرصَ المُترجِمُ الإسبانيّ على الالتزام بها في ترجمتهِ الدَّقيقة مُضيفاً إليها بعضَ الاجتهادات التَّرتيبيّة المَحدودة التي حرصَ على توسيعها وتصحيحها من طبعةٍ إلى أخرى

من طَبَعاتِ ترجمتِهِ للكتاب إلى اللُغةِ الإسبانيّة والتي وصلت إلى حدٍّ الآن إلى عشرين طبعة.

من ناحيتي حاولتُ جهدَ المُستطاع مُتابعةَ المُترجِمِ الإسبانيّ مُتابعة شبه كاملة في التَّرتيب والتَّنظيم الذي انتهجهُ «لمادّة» الكتاب. إلّا في مقاطِعَ لا يتجاوزُ عددُها ستّة مقاطِع جاريتُ فيها الأصلَ البُرتُغاليّ عملاً بتوجيهِ الباحث الإسبانيّ المُختصّ أرماندو روخاس. لكنني في الوقت نفسِه لم ألتزم بالتَّرقيم الذي نُشِرَ بِهِ الكِتاب في طبعتِهِ الأولى، بل استبدلتُهُ بعناوينَ فرعيّة مأخوذة من المقاطع والشّذرات نفسها بُغية كسر شوكة الرّتابة التي عانيتُها من مُعايشةِ «المتواليات الرقميَّة» لأجزاء الكتاب.

لا أُريدُ التَّطرُّقَ إلى المصاعِب الجمّة التي واجهتُها في سبيل ترجمةِ هذا الكِتاب الاستثنائيّ حسبي أنني عرضتُ لمُسلسَلِ المصاعِبِ الشيّق الذي اعترض طريق نشر الكتاب في لُغتِهِ الأصليّة، وحسبي كذلك الإشارة إلى ما عاناه المترجم الإسباني من قبلي من صعوبات ناجمة تارة عن تعقيدات خاصة «بالأساليب» البيسوية في العديد من المقاطع، وتارة أخرى عن التشظي والنقص الذي شابَ العديد منها وتارة ثالثة عن غموض أصلي شابَ خطوط المسودات الأصلية ذاتها...

لذلك أعترفُ أنني أُجبرتُ في مناطقَ عديدةٍ من الكتاب على تجاوزِ دور المُترجِم إلى القيام بدورِ الألعُبان بالمشي على الحبال الخطرة للُّغة، خالقاً وخارقاً في آنٍ واحد العديد من القواعد والصّيغ الصرفيّة والتركيبيّة المُرسَّخة في اللُّغةِ العربيّةِ. كلُّ ذلكَ من أجلِ الارتِقاءِ بالتَّرجمةِ إلى مُستوى يُضارِعُ الأصل.

إنَّ الطَّبيعَةَ الشَّذريَّةَ المقطعيَّة للكتاب وعدم اكتمال الكثير من

نُصوصه لم يُؤثّر على قيمتهِ الإبداعيَّة الاستثنائيَّة في الإبداع الأدبيّ الإنسانيّ برُمَّتِهِ، لذلك أعتقدُ أنَّ عبقريَّةَ بيسوا هي أظهر وأعمق وأغنى في هذا الكتاب وأكثر شُمولاً. إذ لا يتعلَّقُ الأمرُ هُنا بمُجرَّدِ يوميّاتٍ منسوبةٍ إلى ندّ أو شبهِ ندٍّ لهُ هو برنار سوارش كما حاول المُؤلِّف أن يوهمنا. إنَّهُ كتابُ يوميّات، أجل، لكنها يوميّات لا تُشبِهُ أي كتابِ يوميّاتٍ آخر، يوميات باطنية، حفريّات في الذّات أو بالأحرى الذَّوات، في لاواقعيّةِ الواقِعِ وَواقعيَّةِ الأحلامِ والأوهام، هو كتابُ نثرٍ مأهولٍ بالشّعر.. هو كتابُ الإحساسِ وهوَ كِتابُ التَّأمُّلِ الجذرِي الذي يمضي بالأفكار إلى أبعدِ من حافاتها القُصوى مُطلّاً بقهقهةٍ واهنةٍ على هاوياتٍ لم يَختبر قرارها سواه.

وبعد فقد اعتمدتُ في ترجمتي هذه على التَّرجمةِ الإسبانيَّة التي أنجزها أنخيل كريسبو عن الطّبعة الأولى لدارِ أتيكا. مع مُراعاةِ ما أدخلهُ عليها من تحويراتٍ وإضافاتٍ اعتماداً على الطّبعتين الثانية والثالثة للدّار نفسِها. والمعروف أنَّ أنخيل كريسبو ليسَ مُترجِماً عاديّاً فهوَ أوّلاً شاعرٌ كبير من جيل الخمسينيّات في إسبانيا يقفُ في المُستوى نفسِه مع خوسي أنخيل بالانتي (ت 2000) وكلاوديو رودريغيز (ت 1998) ثُمَّ إنَّهُ معروفٌ بكونهِ أَحَدَ كبارِ المُختصّين في ترجمةِ أعمالِ بيسوا الشّعريَّة والنَّثريَّة إلى جانب خوسي أنطونيو جاردينث (ت 1987) ولا شكّ عندي في أنَّ ترجمتهُ هذه لكتاب **اللّاطمأنينة**، هي واحدةٌ من أجود وأدقّ التَّرجمات المُنجَزة إلى أيّ لُغةٍ أخرى. آملُ - بالرَّغمِ من النَّقائص التي شابت ترجمتي «الكاملة» هذه - أن أكونَ قد وقفتُ إلى منحِ كتاب **اللّاطمأنينة** الحياةَ الإبداعيَّةَ المُتجدِّدة التي هو جديرٌ بها في اللُغةِ العربيَّة.

المهدي أخريف

إشارة

حافظتُ على الرُّموز نفسها المُستعملة في التَّرجمةِ الإسبانيَّة وهي على النَّحو الآتي:

// رمزٌ للمُؤلّف بخصوص كلمةٍ أو تعبيرٍ مُعيَّن.

( ) علامةُ شكّ من المُؤلّف، شكٌّ حولَ إدخالِ بعضِ الكلمات.

(. . .) فقرةٌ تُركت غير مُكتملة من طرف المُؤلّف.

[ ] كلماتٌ أُضيفت من طرفِ النّاشرين.

[. . .] كلمةٌ أو فقرةٌ غير مقروءة.

. . . نُقط دالّة على حذف.

توطئة

يوجدُ في لشبونة نوعٌ من المطاعم أو بيوتُ الأكلِ الواقعة في طابقٍ أوَّل - فوق دكّانٍ له شكلُ حانةٍ مُحتشمةٍ - ذي ملامح منزليةٍ ثقيلةٍ لمطعمٍ مُنزوٍ في مدينةٍ صغيرةٍ لا يصلُها قِطار. في ذلك الطّابق، أو الطَّوابق القليلة الرُّوّاد، باستثناء أيّامِ الآحاد، من المُتواتِرِ اللّقاءُ بنماذجَ مُستطلعةٍ، بوُجوهٍ لا تقفُ عندها العين، من النمط العائش على هامش الحياة.

خلالَ فترةٍ مُعيّنةٍ من حياتي، قادتني الرَّغبةُ في الهُدوءِ والأثمنةِ المُلائمة إلى أن أغدو واحداً من زُبناء تلك المحلّات. وقد اعتدتُ، أثناءَ تناولي وجبةَ عشائي في السابعة، اللقاء بشخصٍ أضحى مصدَرَ اهتمامي شيئاً فشيئاً بعدَ أن لم أُعرهُ أي اهتمامٍ في البداية.

في الثّلاثين من العُمر كانَ يبدو، نحيلاً، أقربَ إلى الطّول منهُ إلى القِصر. يبدو مُحدَّباً جدّاً في حالِ جُلوسِهِ أكثرَ ممّا في حالِ وُقوفه. ثمَّةَ ما يوحي بعدمِ اكتراثٍ نسبيّ لديه بهندامِه. على وجهه الشاحب الخالي من أيّ ملامحَ مُثيرةٍ أمارةُ مُعاناةٍ لم تضفِ عليه أيّ طابعٍ مُميّز، إذ بدا من الصعب تعيين نوع المُعاناة الذي تُنبِئُ عنهُ تلكَ الأمارة. رُبَّما كانت دالّة على صُنوفٍ من الحرمان والقلق وعلى تلك

المُعاناة المُتولّدة من اللّامُبالاة النّاجمة عن التَّمرُّس الطَّويل بشتّى صُنوفِ المُعاناة.

كانَ دائماً يكتفي من عشائه بالقليل، ويُنهيه بتدخينِ لُفافةٍ من تبغٍ مُليَّفٍ. كانَ يُراقِبُ الأشخاصَ الموجودينَ حواليه بطريقةٍ عجيبةٍ، غير مُريبة، وباهتمامٍ خاصّ. لم يكُن يُدقِّقُ النَّظَرَ فيهم، وإنّما يُراقبُهُم بدونِ أن يُمعنَ النَّظَرَ في ملامحهم أو يتفحَّصَ مُحلّلاً تعبيرات أمزجتهم. كان هذا الجانب الاستطلاعي الفُضولي لديه هو أوَّلَ ما أثار اهتمامي به.

أصبحتُ أراهُ بصورةٍ أفضل. تنبهتُ إلى وُجودِ سمةٍ من ذكاءٍ تزكي بكيفيَّةٍ مُلتبسةٍ أساريره. بيدَ أنَّ خُمودَ الهِمَّة والغمَّ الفاتر ظلّا يُخفيان حقيقةَ مظهرِهِ الذي يصْعُبُ أن يستشفَّ منهُ أيّ ملمحٍ مُميّز.

علمتُ بالصُّدفةِ، بواسطةِ أحد نادلي المطعم، أنَّهُ كانَ يعملُ مُستخدَماً تجاريّاً في ضيعةٍ قريبةٍ من هُناك.

ذات يومٍ جرى أسفل النوافذ مشهدُ مُلاكمةٍ بينَ شخصين. كُلُّ من كانَ موجوداً فوق، أسرعَ إلى النّوافذ، وأنا بدوري فعلتُ الشّيءَ نفسَهُ وكذلك الشَّخصُ الذي أُحدّثُكُم عنهُ. تبادلتُ معهُ جُملة عَرَضيَّة، وأجابني بالنَّبرة نفسِها. صوتُهُ كانَ مبحوحاً ومُرتجفاً، هو صوتُ أولئك الذين لا يتوقَّعونَ شيئاً لأنّهُ من غير المُجدي توقُّعُ شيء، لكن ما كان من المعقول، بفعل الصُّدفة، إيلاء اهتمامٍ خاصّ برفيقي المسائيّ في المطعم.

لا أدري لماذا بدأنا نتبادلُ التَّحيَّةَ منذُ ذلك اليوم. وذاتَ يومٍ وبفضل لقائنا الصّدفويّ على طاولة العشاء في وقتٍ مُتأخّرٍ في حوالي التّاسعة والنّصف، انخرطنا في مُحادثةٍ عفويَّة. وعند مُستوى مُعيَّن من الحديث سألني إن كنتُ أُمارسُ الكتابة. أجبتُهُ بالإيجاب. حدَّثتُهُ عن

مجلّة أورفي[1] التي لم يكن قد مضى وقتٌ طويل على صدورها. أثنى عليها، أثنى عليها كثيراً ممّا دفعني إلى مُصارحتِهِ باندهاشي لأنَّ الأدب المكتوب في أورفي مُوجَّهٌ للقِلَّةِ فقط. وأضافَ مُعلّقاً بأنَّ ذلك الأدب ينطوي حسب رأيه على جِدَّةٍ حقيقيَّة؛ وبخجلٍ قال إنَّهُ اعتادَ - لكونِهِ لا يعرِفُ أينَ يتَّجه ولا ماذا يعمل، ولانعدام أصدقاء يزورُهُم، وقلَّة اهتمامٍ بقراءة الكُتُب - اعتادَ أن يستهلك لياليه، في غُرفته المُكتراة، في الكتابةِ أيضاً.

---

(1) مجلّة أورفي كان تأثيرها حاسماً في تطوُّر الأدب البُرتُغالي الحديث، بالرّغم من صُدور عَدَدَين فقط منها عام 1915 بإشراف بيسوا ولويس مونتالبور وسا كارنيرو.

مقطعٌ استهلاليّ[1]

لقد وُلدتُ في عصرٍ فَقَدَ فيه أغلبُ الشَّباب الإيمان للسَّبب نفسِه الذي امتلكَ به هذا الإيمان مَن هُم أكبر منهم سنّاً: بدون معرفة لماذا. حينئذٍ، ولأنَّ النَّفسَ الإنسانيَّةَ تتجهُ إلى النَّقد بدافعٍ من إحساسها لا من تفكيرها. اختارَ أغلبيَّةُ الشَّبابِ الإنسانيَّة كبديلٍ لله. شخصيّاً أنتمي، مع ذلك، إلى مَن يوجدون دائماً على هامش ما ينتمون إليه، لا ينظُرون فحسب إلى الحشد الكبير الذي منهُ يتكوَّنون، وإنَّما كذلك إلى الفضاءات الكبيرة الكائنة بجوارهم. لذلك لم أتخَلَّ تماماً عن الله مثلهُم ولم أقبل البتَّة بعقيدةِ الإنسانيَّة. لقد اعتبرتُ الله ممكن الوُجود باستبعاد إمكانيَّة وُجوده، وإذن فمسألةُ عبادتهِ واردة؛ لكنَّ الإنسانيَّة - باعتبارها فكرة بيولوجيَّة محضة، ولا تخصُّ سوى النَّوع الحيوانيَّ الإنسانيّ - ليست جديرة بأيّ عبادة من أيّ نوعٍ حيوانيٍّ آخر. لقد بَدَت لي عبادةُ الإنسانيَّة هذه بشعائرها عن الحُريَّة

(1) واضحٍ أنَّ هذا «التَّمهيد» قد جرى توقيعُهُ من طرف بيسوا، تنبغي الإشارة إلى أنَّ جميع المقاطع والشَّذرات المُوالية قد وردت منسوبةً من لدن بيسوا إلى برناردو سوارش ممّا يُؤكد أنَّ هذا الأخير ليس أكثر من شخصيَّةٍ مُختلقةٍ من طرف بيسوا وليس بنديدٍ له.

والمُساواة ابتعاثاً للعبادات القديمة التي كانت الحيواناتُ فيها بمثابةِ آلهة وكانت الآلهة تبرزُ برُؤوسِ حيوانات.

وهكذا ظللتُ، لعدم معرفتي كيف أؤمن بالله، ولعدمِ إيماني بمجموعِ حيوانيٍّ مُعيَن، مثلَ غيري من الهامشيين داخل تلك المساحة المدعوَّة انحطاطاً. فالانحطاط هو الفُقدان التّام للّاوعي؛ لأنَّ اللّاوعي هو دعامةُ الحياة، فلو أمكن القلب أن يُفكِّرَ لتوقَّفَ عن الحياة. ماذا تبقّى، بالنّسبة إلى مَن هو مثلي يحيا بدون أن يعرف، امتلاكَ حياة خاصّة به. ماذا يتبقّى له إسوة بالقلّة من نظرائه سوى الانسحاب، وتأمُّل المصير؟

ولعدم توفُّرنا على المعرفة بالحياة الدّينيَّة وعلى القُدرة على هذه المعرفة لعدم امتلاكنا الإيمان إلى جانبِ العقل، ومع انعدام قُدرتنا على امتلاك الإيمان بمُجرَّدٍ إنسانيٍّ، وعدمِ معرفتنا حتّى بما يُمكِنُ أن نصنَعَ بأنفُسنا، يبقى لنا، كمُبرّرٍ لامتلاكِ الرّوح، يبقى لنا التَّأمُّلُ الجماليّ في الحياة. هكذا، نستسلمُ غُرباء عن روعةِ العوالِم كُلِّها، لا مُكترثين بما هو إلهي ومُحتقرين كُلّ ما هو إنسانيّ، نستسلمُ على نحو لا مُجدٍ، لإحساسٍ بدون غاية مُنمّى بأبيقوريَّة مُرهفةٍ مُلائمةٍ لأعصابنا الدِّماغيَّة.

لقد احتفظنا من العِلم فقط بتلك التعليمةِ المركزيَّة التي تقول بأنَّ كُلَّ شيءٍ خاضعٌ لقوانين حتميَّة لا سبيلَ إلى مُعارضتها، مُتحقِّقين من أنَّ تلكَ التعليمة تنطبقُ على الآخر، الآخر الأقدم من القدريّة الإلهيَّة للأشياء، لذلك سوفَ نتخلّى عن بذلِ الجهد مثلما يتخلّى الضّعافُ عن تدريبات العدّائين، ولسوفَ ننكبُّ على كتاب الأحاسيس بوسواسٍ علميٍّ هائل.

لن نأخُذ أيّ شيء مأخذ الجدّ، ولن نعتبر أننا قد منحنا،

بالفعل، واقعاً آخر غير إحساساتنا التي هي ملاذنا كما لو كانت بلداناً مجهولة نستكشفُها. وإذا كُنّا نستخدمُها بمُثابرةٍ، ليس فقط في التأمُّلات الإستيتيقيَّة ولكن في التَّعبير أيضاً عن أنماطها ونتائجها، فلأنَّ النَّثرَ أو الشِّعر الذي نكتبه، بمعزلٍ عن أيِّ رغبةٍ في إقناع فكرِ الغير أو تحريك همَّته، هو بالكاد أشبهُ ما يكونُ بالكلامِ بصوتٍ عالٍ لقارئ صامِت، كما لو من أجل مَنحِ الموضوعيَّة للمُتعة الذاتية للقراءة.

نعلمُ أنَّ كُلَّ كتابٍ ينبغي أن يكون موسوماً بالنَّقص، وأنَّ الأقلَّ يقينيَّة من تأمُّلاتنا الجماليَّة هو ذلك المُتعلِّق بما نكتُب. هكذا مُتأملين الجبال والتَّماثيل، نستمتِعُ بالنَّهارات مثلما بالكُتُب، حالمين بكلّ شيءٍ لأجلِ تحويلهِ إلى جوهرنا الخاصّ. مُنشئين توصيفات وتحليلات، ما أن تُصبحَ جاهزة، حتّى تصير أشياء غيريَّة بإمكاننا الاستمتاع بها كما لو أنَّها حلَّت في المساء.

ليسَ هذا بتصوُّرِ أولئك المُتشائمين من أمثال فييني (Vigny) الذي تُعتبرُ الحياة بالنّسبة إليه بمثابة سجنٍ ظلَّ يخيطُ فيه التّبن بقصد التَّسلية. التَّشاؤم هو أخذُ الأُمور بمأساويَّة. وهو موقفٌ ينطوي على مُغالاةٍ ومُضايقة. نحنُ لا نملكُ، حقّاً، تصوُّراً ذا قيمة يُمكن أن نلصقهُ بالكتاب الذي نُنتجُه، صحيح أننا ننتجه بقصد أن نتسلّى؛ لكن ليس مثل السجين الذي يخيط التّبن لكي يتسلّى بالقَدَر. وإنَّما مثل عانسٍ تظلُّ تطرزُ الوسائد لمُجرَّدِ التَّسلية ليس غير.

أعتبرُ الحياة شبيهة بنُزُلٍ عليَّ أن أبقى فيه بلا حراكٍ إلى أن تأتيني الهِمَّةُ من الهاوية. لا أدري أيّان تحملني، لأنني لا أعرفُ شيئاً. بإمكاني أن أعتبرْ هذا النُّزل سجناً، لأنني مُجبرٌ بداخله على أن أنتظر؛ بإمكاني اعتباره مكاناً للاختلاط، لأنني أوجدُ هُنا مع

الآخرين. لستُ، مع ذلك جَزِعاً ولا فظّاً. أتركُ لأولئك المحبوسين في الغُرفة أن يكونوا ما هم إيّاه. أولئك المُلقى بهم، خامدين، على السَّرير حيثُ بلا أحلام ينتظِرون؛ أترُكُ مَن يتحادثون في الصّالات لأحاديثهم هُناك حيثُ تصِلُني باستِرواحِ المعزوفاتُ والأصواتُ.

أحسُّ بالباب مُركِّزاً عيني على ألوان وإيقاعات المشهد، وأُغنّي ببُطءٍ أُغنّي لنفسي وحدها، أغاني غامضة أَنظُمُها وأنا أنتظِر.

سيحُلُّ اللَّيلُ من أجلِنا جميعاً، وستأتي الهمّة. أستمتعُ بالنَّسيم الذي منحونيه وبالرّوحِ التي لأجلِ الاستمتاع بها وَهَبونيها. ولا أسألُ المزيدَ ولا أبحث. إذا كان بإمكانِ ما تركتُهُ مكتوباً في كتابِ المُسافرين، أن يُسليَّ آخرين، مقروءاً من جديد أثناءَ عُبورهم، يكونُ ذلك أمراً طيّباً. أمّا إذا لم يُقَدَّر لهُم أن يقرؤوه ولا أن يتسلّوا بِهِ فسيكونُ ذلك طيِّباً أيضاً.

29 مارس 1930

قسمٌ أوّل

عندما جاء الجيل الذي أنتمي إليه إلى الوُجود لم يجد أيّ سندٍ عقليّ أو روحيّ. ذلك أنّ العمل الهدّام الذي قامت به الأجيال السّابقة لنا جَعَلَ العالم الذي وُلِدْنا فيه مُفتقراً إلى الأمان الدّيني، وإلى الدعم الأخلاقيّ، وإلى الاستقرار السّياسيّ. لقد وُلدنا إذن في أوج القلق الميتافزيقي، في أوجّ القلق الرّوحيّ، وفي أوجّ اللّاطمأنينة السّياسيّة. الأجيال التي سبقتنا لجأت، مُتخَمَة بالصّيغ الخارجيّة، وبالمسائل البحتة للعقل والعلم، إلى الإطاحة بأُسسِ الإيمان المسيحيّ كافّة، لأنَّ نقدها للكتاب المُقدَّس، بانتقاله من نقد النُّصوص إلى النَّقد الميثولوجيّ، حولَ الأناجيل والعهدِ القديم لليهود إلى رُكامٍ مشكوكٍ فيه من الأساطير والخُرافات ومن الأدب المحض؛ أمّا نقدُها العلميّ فقد دلَّ بالتّدرُّج على الأخطاء وعلى السَّذاجات الهمجيَّة لـ«العلم» البدائيّ للأناجيل؛ وفي الوقت نفسه فإنَّ حُريَّة الجدل التي أخرجت إلى النّقاش العلنيّ سائر المُعضلات الميتافيزيقيّة، سَحبت معها أيضاً كُلَّ القضايا والمُشكلات الدّينيّة المُنتمية إلى الميتافيزيقا. لقد انتقدت تلك الأجيال، ثَملَة ومُتيَّمَة بما أسمتهُ «الوضعيَّة» الأخلاقيّات كُلَّها، وقلبت كافَّةَ قواعِد الحياة. ومن صدمةِ تلكَ المُعتقدات لم يبقَ سوى يقينِ زوالها بالكامل. إنَّ مُجتمعاً

مُقوَّضاً في نظامِهِ وأُسُسِهِ الثَّقافيَّة لم يكُن بقادرٍ على أن يكون شيئاً آخر بالطَّبع، سوى ضحيَّة، للانظاميّة تلك؛ وكذلك جرت الأمور كما لو أننا أيقظنا عالماً مُتعطّشاً إلى الجديد الاجتماعيّ. سيمضي ذلك الجيل مُبتهجاً بِتحقيقِ حُريّةٍ لم يعرف كُنهها، وتقدُّم لم يتمّكّن قط من تحديد ماهيتِهِ.

لكن إذا كانَ النَّقدُ الابتذاليّ لآبائنا قد أورثَنا استحالةَ أن نكونَ مسيحيّين، فإنَّهُ لم يورثنا، بالمُقابِل، الرّضى بذلك. إذا كانَ قد أورثنا عَدَمَ الإيمان بالصّيغ الأخلاقيَّة المُتحقّقة، فإنَّهُ لم يورثنا اللّامُبالاة تجاه الأخلاق وتجاه قواعد العيش الإنسانيّ؛ إذا كانَ قد تَرَكَ المشكل السياسي بدونِ حلّ، فهو لم يدَع روحنا لامُبالية إزاءَ كيفيَّة حلِّ ذلك المُشكِل.

لقد قوَّضَ آباؤنا ما قَوَّضوا بفرحٍ لأنَّهُم عاشوا في لحظةٍ كانت لا تزال مُحتفظة بانعكاساتٍ من صلابةِ الماضي الذي أطاحوا منهُ بما يَهَبُ المُجتمعَ القُوَّةَ حتّى يتمكَّنوا من الهدم بدون أن يشعُروا بتشقُّقات البناء. نحنُ إنما ورثنا الهدمَ ومُخلَّفاته.

عالَمُ اليوم هو عالمُ البُلهاء وعديمي الإحساس والمُهيجين. الحقُّ في العيشِ وفي النَّجاحِ يتمُّ اليوم بالمُبرّرات نفسها التي يتمُّ بها الحجزُ في مَصحّاتِ الأمراضِ العقليَّةِ...

سُلالة النِّهاية

أنتمي إلى جيلٍ ورثَ الارتيابَ في الإيمان المسيحيّ خالقاً في ذاتِهِ الكُفرَ بكُلّ أنواع الإيمان. آباؤنا ما زالوا يمتلكون الباعث الإيماني الذي نقلوه من المسيحيَّة إلى أشكالٍ أخرى منَ الوهم. بعضُهُم كان من المُتحمّسين للمُساواة الاجتماعيَّة. بعضٌ منهُم اقتصرَ

على عشق الجمال لذاته. بعضٌ آخَر أودَعَ إيمانهُ في العلم ومَنافعه. وثمَّةَ آخرون، أكثر مسيحيَّة. مضوا يبحثونَ في مشارق الأرض ومغاربها عن أشكالٍ تديُّنيَّةٍ أُخرى لتلهيةِ الوعي الذي سيغدو مُجوَّفاً بِدونها في تجربةِ العيشِ الخالص. هذا كُلُّهُ فقدناه نحن، ومن كُلّ هذه التّعزيات والبلاسم وُلدنا يتامى. كُلُّ حضارةٍ تتبعُ الخطَّ الخاصَّ للدين الذي يُمثّلُها: الانتقال إلى أديانٍ أُخرى يُؤدّي إلى إضاعةِ هذا الدّين، وإلى إضاعةِ الأديانِ كُلّها في النِّهاية.

أمّا نحنُ فقد فقدنا هذا الدين مُنذُ البداية، ومعهُ الأديان الأُخرى بدورها. وانتهينا إلى الاستسلام لذواتنا الفرديّة، داخلَ وحشيّة الإحساس بالحياة. إنَّ المركبَ، أيُّ مركبٍ هو أداةٌ هدفُها الإبحار. بيدَ أنَّ الغايةَ الفعليَّةَ ليست هي الإبحار. وإنَّما الوُصول إلى ميناء. نحنُ وجدنا أنفُسنا مُبحرين، فاقدينَ لفكرةِ الميناء الذي علينا أن نرسوَ فيه. وهكذا أنجبنا، داخل الجِنس الإنسانيّ الموجوع، الوصفةَ المُغامرة للأبطال الأسطوريين: الإبحارُ ضَرورةٌ، العيشُ لا.

بلا أوهام نعيشُ بالكاد من الحُلُم الذي هو وهمُ مَن لا قُدرةَ لهُ على امتلاك الأوهام. وباقتياتنا من ذواتنا نزداد ضؤولة، لأنَّ الإنسانَ الكاملَ هو الإنسانُ المُتجاهل. وبافتقادنا الإيمان أصبحنا نعيشُ بدونِ أمل. وبفُقدانِنا الأمل لم تعُد حياتنا نحنُ هذه التي نحياها. ومع افتقارنا لأيّ فكرةٍ عن المُستقبل أصبحنا فاقدين لأيّ فكرةٍ عن الحاضر، لأنَّ الحاضر، بالنِّسبة إلى رجل الفعل ليسَ سوى مدخلٍ للمُستقبل. مَعَنا مَيّتةً وُلدت طاقة الكفاح، لأننا وُلدنا محرومين من حماسة الصّراع. البعضُ منّا سَجَنوا أنفُسهُم في مُجرَّد امتلاك ما هو يوميّ، مُبتذلين صغار يلهثونَ وراءَ خُبزِ كُلّ يوم، راغبين في الحُصول عليه بدونِ فعلٍ محسوس، بدون الوعي بالمجهود المبذول، بدون

نبالة ما ينال. آخرون من طينةٍ أفضل: انسحبوا أو لنقُل انسحبنا من الانشغال بالشَّأن العُموميّ، بدون أن نرغب في شيء ولا أن نطمَحَ إلى شيء، مُحاولين حملَ صليب وُجودنا إلى جلجلةِ النّسيان، مجهودٌ لا طائلَ وراءهُ بالنّسبة إلى مَن لا يملكُ، مثلَ حامِلِ الصَّليب، مُحرّكاً إلهياً داخِلَ وعيِهِ.

آخرون استسلموا، بانشغالهم بما يقعُ خارجَ الرّوح، للصَّخبِ والفوضى. يحسبونَ أنَّهُم يَحيونَ إذ يتبادلونَ الإنصات. ويحسبونَ أنَّهُم يُجرِّبونَ الحُبَّ عندما يقعونَ في قُشورِهِ. يُؤلِمُنا العيش لأننا نعلمُ أننا نعيش؛ الموتُ لا يُخيفُنا، لأنَّنا فقدنا المَفهوم المُعتاد عن الموت.

غيرَ أنَّ آخرين من سلالةِ النّهاية، الحد الروحي للسّاعة الميتة، لم يمتلكوا قسمَةَ الرَّفضِ ولا الملاذَ في ذواتِهِم، ما عاشوهُ عاشوهُ في النَّفي والإنكار والغَمّ. لكننا عشناهُ من الدّاخل، بلا إشاراتٍ مُنبِّهة، محبوسينَ دائماً، على الأقلّ فيما يتعلَّقُ بنوعِ الحياة، بينَ الجُدرانِ الأربعةِ للغُرفة والجُدران الأربعة لانعدام المعرفة بالفعل.

إرادةٌ ميتة يُهدهدُها التَّأمُّل

أحسد - لكن لا أعرف إن كنتُ أحسد حقّاً - أولئك الذين يمكن أن نكتب عنهم بيوغرافيّات، أو بإمكانهم هم كتابة سيرهم الخاصّة، في هذه الخَواطر المُفتقرة إلى التّرابُط وإلى الرَّغبةِ في أيّ ترابُط، أسرُدُ بلا اكتراثٍ سيرتي الخالية من الأفعال، تاريخي الذي بلا حياة، إنَّها اعترافاتي الخاصَّة. وإذا لم أقُل فيها شيئاً ذا قيمة فلأنَّهُ ليس لديّ ما أقوله. ما قيمة اعترافاتنا وما جدواها؟ ما حَدَثَ لنا. وما يحدُثُ للجميع أو لنا وحدنا فحسب هو مُجرَّدُ حدثٍ

عرضيّ، وليس بشيء جديد، كما أنَّهُ ليس ممّا يقبلُ الفهم. إذا كنتُ أكتب ما أحسّ فلأنني بفعل هذه الكتابة أُخفّض من حمى الإحساس. ما أحكيه لا يكتسي أيّ أهميّة. إذ ما من أهميَّة لشيء. إزاء ما أحسّهُ أخلق مشاهد عديدة، أجعل من الأحاسيس احتفالات خاصَّة. بفضل المرارة وحدها أتفهَّمُ جيّداً النّساء المُشتغلات بالتَّطريز، اللواتي يصنعنَ غرزات التَّطريز تلو الغرزات لأنَّ الحياةَ موجودةٌ. خالتي العجوز تتسلّى بلُعبةِ الورق المُنفرد إلى ما لا نهاية للسَّهرة. هذه الاعترافات الإحساسيَّة هي ألعابُ الورق المُنفرد الخاصَّة بي، وأنا لا أُدوّنها كمن يقرأ حظّه من خلال ورق اللَّعب، لأنَّ الأوراق في لُعبة الورق المُنفرد لا قيمة لها بذاتها. ألقي بنفسي على الطّاولة مثل كبة غزلٍ مُتعدّدةِ الألوان، أو أصنعُ مني أصنافاً من خُيوطٍ تشبه تلك التي تُحاك بين الأصابع الممدودة لتنتقلَ من مجموعة أطفالٍ إلى مجموعةٍ أخرى. منشغلٌ أنا فحسب بألّا يُخَبِّل إبهامي العُقدة الخيطيَّة المُتَّصلة به. بعدَ ذلك أسحَبُ يدي، فيغدو المشهدُ مُختلفاً، وأعودُ لأبدَأ من جَديد.

أن تعيش معناه أن تَضَعَ الغرزة تلو الغرزة بقصديَّة الغير نفسها. لكنَّك، ما إن تنهمك في وضعها حتّى يغدو الفكرُ حُرّاً وكُلّ الأمراء السّعداء يُمكنهُم التَّفسُّح في حدائقهم وسط غرزاتِ الإبرةِ العاجيَّة للمنقار المعكوس.. تطريزةُ الإبرة المعقوفة للأشياء.. فاصل.. لا شيء.

بالنِّسبة إلى ما تبقّى،

ما الذي بإمكاني الاعتداد به؟.. أحاسيسٌ مُروّعة - إدراكٌ عميق بما أحسّ، مع توقدٍ ذهنيٍّ حادّ مُوجَّه لتدميرِ الذَات.. ثمَّةَ طاقةُ حُلُم رغبتُها في تعزيتي تزدادُ شراهة.. ثمَّةَ إرادةٌ ميتة يُهدهدها

التَّأمُّل، بين الغرزة والغرزة، مثل طِفلٍ حيّ. . ، أجل، غرزةُ إبرةٍ معقوفة.

لو كانَ العالمُ ملكَ يديّ

رابطُ الجأش، أواجهُ حبسيَ الدّائم لحياتي في شارع Dos Douradores[1] هذا، في هذا المكتب نفسه، بين هؤلاء النّاس. حيثُ أعيش بالقليل المُتاح لي. وحيثُ المحدود من الفضاء الحُرّ المُتاح في الزّمن لي كيما أحلُم، أكتُب - أنام - ، وما الذي بإمكاني أن ألتمسهُ أنا من الآلهة أو أتوقَّعهُ من القدر؟

كانت لديّ طُموحاتٌ كبيرةٌ وأحلامٌ واسعةٌ، لكن الحمّال ومُتعلّمة الخياطة كذلك كانت لديهما الأحلام نفسها. لأنَّ الأحلام مشاعٌ للجميع: ما يجعلُنا مُتمايزين هو القُدرة على تحقيقهنّ أو قدرة تحقّقهنّ فينا. في الحُلُم نحن سواء متعلمة الخياطة والحمّال وأنا، ما يُميّزني عنهُما هو معرفتي بالكتابة التي هي فعلٌ خاصٌّ بي. على مُستوى الرّوح نحنُ سواء. حسناً أعرفُ جُزراً في الجنوب وعشقيات كونيّة كبيرة و(. . .)[2].

لو كانَ العالمُ ملكَ يديّ لغيَّرتُه، وأنا مُتيقّن، مُقابل تذكرةِ شارع Dos Douradores.

رُبَّما كانَ مُقيَّضاً لي أن أظلَّ مساعد مُحاسب إلى الأبد. أمّا الأدبُ والشّعر فهُما بمثابةِ فراشة كُلما كانت أجملَ وأبهى بدوتُ أكثر إثارة للسُّخرية بفعلِ حومانها فوق رأسي.

---

(1) أحد شوارع لشبونة.

(2) إشارة سيتكرَّرُ وُرودُها لاحقاً وهي دالّةٌ على حذفٍ موجودٍ في النَّص الأصليّ.

سأشتاق لموريرا، لكن ما الذي تعنيه الاشتياقات أمام الترقيات الكُبرى؟

أعلمُ جيّداً أنَّ اليوم الذي سأغدو فيه رئيس قسم المحاسبة[1] في إدارةِ فاسكيز سيكونُ من الأيّام المجيدة في حياتي. أعلَمُ ذلك بتكهّنٍ استباقيٍّ مريرٍ وتهكُّميّ لكنني أعلمه بالامتياز العقليّ لليقين.

المدير فاسكيز

المدير فاسكيز، أشعُرُ، أحياناً كثيرة، على نحوٍ غير قابل للتَّفسير بالنَّوم المِغناطيسيّ للمدير فاسكيز. ماذا يُمثّل ذلك الرَّجُل بالنّسبة إليّ. عدا كونهُ المُتحكّم في أوقاتي. يُعاملني بصورةٍ جيّدة. أثناء فترات نهاريّة مُعيَّنة. يُحادثني بلطف باستثناء لحظاتٍ مُفاجئة من قلقٍ مجهول يعتريه وحينئذٍ لا يُحادثُ أحداً بلُطف. أجل، لكن لماذا يُهمّني أمرُه؟ أهوَ رمزٌ، أهو باعث. ما هو؟

المدير فاسكيز. سأتذكّرهُ جيّداً في المُستقبل بالحنين الذي أعلم أنَّ عليّ أن أحسَّه حينئذٍ. سأكونُ مُطمئناً في منزلٍ صغير في ضواحي مكانٍ ما، مُستمتعاً بالطّمأنينة التي لن أقومَ خلالها بالعمل الذي لا أقومُ به الآن، ولسوفَ أبحثُ، لكي أُواصل عدم قيامي به، عن التّبريرات المُختلفة التي أتفادى بها مُواجهة ذاتي نفسها اليوم. وإلا فسأكونُ مُحتجزاً في مأوى للمُتسوّلين، سعيداً بالفشل التّام، مُختلطاً بشاكلة مَن توهَّموا أنفسهُم عباقرة وما كانوا بأكثر من شحّاذين ذوي أحلام. مع ذلك الحشد الغفل ممّن لم يمتلكوا القُدرة على النَّجاح ولا التَّنازُل الأريحيّ للنجاح المعكوس. كائناً حيثُما كُنت سأتذكَّرُ

---

(1) سوارش الآن يَشغلُ منصب مساعد محاسب.

المدير فاسكيز بنوستالجية، سأتذكَّرُ مكتَبَ شارعَ Dos Douradores ورتابةَ الحياة اليوميَّة ستغدو بالنّسبةِ إليّ كما لو كانت ذكرى غراميّات لم أحظَ بها أو نجاحات لا ينبغي أن أحظى بها.

المدير فاسكيز، من هناك أراهُ اليوم، كما أراه من هنا بالذات - قامةٌ مُتوسّطة، ربعة، عادٍ مُتَّزن وعاطفيّ، صريحٌ ومُراوغ، لطيفٌ وفظّ - إنَّهُ الرَّئيس، بِصرف النَّظر عن مالهِ، بيديه المُشعرتين والمُتمهّلتين، بأوردته المُعلَّمة كعضلاتٍ صغيرةٍ مُلوَّنة، بالرَّقبة المُمتلئة لكن غير الغليظة، والخدَّين المُلوَّنين الصّافيين في الآن ذاته، تحتَ الذَقن الحليقة دائماً في الوقت المُناسِب.

إنني أراه، أرى عينيه، عينيّ المُتسكّع النَّشيط، العينين اللتين تتأمَّلان أشياء الخارج نحوَ الدّاخل، أتلقّى بلبلةَ مُصادفته، هُنا بدونِ رغبة، فتبتهجُ روحي لابتسامته، ابتسامةٌ واسعة وإنسانيَّة، مثل تصفيق جُمهور.

ذلك يحدُثُ، ربما لأنَّهُ لا وُجودَ لوجهٍ أهم من وجه المدير فاسكيز بجانبي. ممّا جعل هذا الوجه العاديّ وحتى المُبتذل يوقعني في حبائله مراراً، ويلهيني عن نفسي ذاتها. أعتقدُ أنَّ في الأمر رمزاً أكيداً. هذا الرَّجُل مَثَّلَ في حياتي شيئاً أهمّ ممّا هو اليوم.

شارع Dos Douradores

آه، فهمت؛ المدير فاسكيز هو الحياة، الحياة الرتيبة والضَّروريّة، الهادئة والنَّكرة. هذا الرَّجُل العاديّ يُجسّد الحياة العاديَّة، خارجياً، هو كلّ شيء بالنّسبة إليّ، لأنَّ الحياة كلّها خارجٌ وحسب بالنّسبة إليّ.

وإذا كان مكتب شارع Dos Douradores يُمثّلُ الحياة عندي،

فطابقي الثّاني هذا حيثُ أعيش في شارع دورادوريس نفسه يُمثّل الفن بالنّسبة إليّ. أجل، الفنّ الذي يحيا في شارع الحياة ذاته، وإن في مكانٍ مُغاير، الفنّ الذي يُخفِّف الحياة بدون أن يُخفف العيش الرَّتيب جدّاً مثلما الحياة ذاتها. إنَّما فقط في مكانٍ مُغايرٍ. أجل، شارع Dos Douradores هذا يحوي المعنى الكلّي للأشياء، للألغاز كُلّها، عدا مُعضلةَ وُجود الألغاز التي لا يُمكن أن يوجد لها حلّ.

الزَّهو اللّامُجدي

أحياناً عندما أرفعُ الرّأس الأرعن عن الكُتب التي أُدوّن فيها حسابات الغير، مُدوّناً غياب الحياة نفسها، أشعُرُ بغثيانٍ فيزيقيّ، قد يكونُ ناجماً عن طولِ انحنائي. لكنه غثيانٌ يفوحُ بالأرقام وانجلاء الأوهام. تُقرفني الحياة مثل دواءٍ لا نفعَ فيه. أحسّ حينئذٍ من ظلال رُؤى بالغة الوُضوح كم سيكونُ سهلاً أن أبتعد عن هذا الضَّجر لو كُنتُ أمتلكُ ببساطةٍ قُوَّة الرَّغبة في الابتعاد عنه بالفعل.

بفضل الفعل نحيا نحن، أي بفضل الإرادة. والعجزُ يُؤاخينا مع مَن لا نعرف كيف نحبّ، عباقرة كُنا أم شحاذين. ماذا سيُفيدُني أن أُدعى عبقريّاً إنْ كنتُ مُجرَّد مساعد محاسب؟ عندما عَملَ ثيساريو فيردي[1] على أن يطلقوا على الطَّبيب الذي كانهُ، لا السيّد فيردي المُستخدم التّجاري، وإنَّما الشاعر ثيساريو فيردي، فقد استخدم لفظة من ألفاظ الزَّهو اللّامجديّ التي تنضَحُ برائحة الغطرسة. المسكين الذي ظلَّ مسكيناً على الدَّوام هو السَّيّد فيردي، المستخدم التّجاري.

---

(1) ثيساريو فيردي (1855-1886): أحدُ رُواد الشعر البُرتُغالي المُعاصر. كان بيسوا من كبار المُعجبين به، ونديدُهُ ألبارو دي كامبوس يُقدّم أمثلةً للتّأثر به.

أمّا الشّاعر فقد وُلدَ بعدَ موته، لأنَّ التَّقدير الخاصّ بالشّاعر إنَّما وُلدَ بعدَ موتِهِ.

الذَّكاء الحقيقيّ يتحقّق في الفعل. سأكونُ ما أرغبُ في أنْ أكون، لكن عليَّ أن أرغبَ أوّلاً، عليَّ أن أُريد أيّ شيء النّجاح يكون بتحقيق النَّجاح وليس بامتلاك مُؤهلات الحُصول على قصر.

لكن أين يوجد القصر إنْ لم يتمّ تشييده هُناك؟

حديثُ النّثر

أُفضّلُ النَّثرَ على الشّعر، كشكلٍ من أشكال الفن لسببين: الأول شخصيّ خاص وهو أنني غيرُ قادرٍ على الاختيار، وإذن فأنا عاجزٌ عن كتابة الشّعر. السَّبب الثاني عامّ، وهُو ليس - أعتقدُ ذلك حقّاً - ظلّاً أو قناعاً للأوَّل، . . . إنهُ يمسّ المفهوم الخاصّ لقيمة الفنّ بكاملها.

أعتبرُ الشّعر شيئاً وسيطاً، خُطوة من الموسيقى باتّجاه النَّثر. الشّعر، مثل الموسيقى، محكومٌ بقوانين إيقاعيّة مُحدَّدة، وحتى لو لم تكن من نمط القوانين الصارمة للشعر المنظوم، فهي قائمة، مع ذلك، كدفاعات، كإكراهات كأجهزةٍ أوتوماتيكيَّة للضَّغط والعِقاب. في النَّثر نحنُ نتحدَّثُ أحراراً. بإمكاننا أن نضمن إيقاعات شعريّة، وأن نوجد خارجها، مع ذلك. إنّ تسرّب إيقاع شعريّ مُعيَّن بصفةٍ عرضيَّة إلى النَّثر لا يعوقُ النَّثر؛ لكن تسرّب إيقاعٍ نثريٍّ عرضاً إلى الشّعر يُفسد الشّعر.

الفنُّ كله مُتضمنٌ في النَّثر. من جهة لأنه في الكلمة، الكلمة الحُرة، يتركَّزُ العالم بكامله. ومن جهةٍ ثانية لأنه في الكلمة الحُرة توجدُ الإمكانيّة الكاملة لكي نُعبّر عن العالم ونُفكّر فيه في آن. في

النَّثر نمنحُهُ كلّ شيء، بواسطة التَّحويل: نمنحُهُ اللون والشَّكل اللذين ليس بمقدور الرَّسم منحهُ إياهما إلّا على نحوٍ مُباشر أيضاً. وبدون أيّ بُعدٍ حميم؛ ونمنحُهُ الإيقاع الذي لا تمنحُهُ الموسيقى إلّا مُباشرة أيضاً، وبدون شكل مُجَسْدَن، ومُجرّداً من ذلك الجسد الثّاني الذي هو الفكرة؛ ونمنحه البنية التي إذا كان على المعماريّ أن يُشكّلها من مواد صلبة، معطاة وخارجيّة فإننا نصنعُها من إيقاعاتٍ وترديداتٍ من مُتتاليات وانسيابات؛ ثُمَّ نمنحهُ الواقعيّة التي على المثال أن يخلفها في العالم بلا ليونة ولا استحالة؛ وأخيراً نمنحُهُ الشّعر، الشّعر الذي دورُ الشاعر فيه شبيهٌ بدورِ المُبتدئ في محفلٍ سريّ، هو عبد، وإنْ طوعاً، لمقامات وطُقوس مُعيّنة.

إنني على يقينٍ من أنهُ، في عالم مُتحضّرٍ تماماً. لن يوجد فنٌّ آخر غير النَّثر. سوف نترك الغُروبَ للغُروب، معتنين بالفنّ وحده، مُستوعبينه شفويّاً، ناقلينه هكذا بواسطة موسيقى تُفهمُ بالقلب. لن نصنع نحتاً للأجساد التي سستحتفظُ، مرئية وممسوسة، برونقها مُتحرّكاً وببرودتها ناعمة. سننشئ بيوتاً، لنُقيم فيها فقط، وهو ما من أجله وُجدت البُيوت في النّهاية. أمّا الشّعر فسيبقى ليقرّب الأطفال من النَّثر المُستقبليّ، لأنَّ الشّعرَ بالفعل، طفوليّ وأوّلي وتحضيريّ.

حتّى الفُنونُ الدُّنيا، أو تلك التي يُمكن تسميتها كذلك، تظهر وشوشاتها في النثر. ثمّة نثرٌ يرقص، نثرٌ يُغنيّ، نثرٌ ينشد بذاته لذاته. ثمَّة إيقاعات شفهيَّة هي بحدّ ذاتها رقصاتٌ تتعرّى فيها الفكرة ملتوية بشهويَّة وحسوية نصف شفّافة ومُتقنة، ثمّة في النّثر أيضاً خبايا مُرتعشة. يَبُثّ فيها ممثلٌ كبير هو الفعل، بجوهره المُجسدن، عبرَ الإيقاع، سرّ الكون المُتعذّر على الإدراك المحسوس.

شهوةُ الكلمات

يحلو لي التّلاعُبُ بالكلمات. إنَّها بالنّسبة إليّ أجساد يُمكنُ لمسُها، حوريات مرئيات، شهويات لا ماديات. ذلك لأنّ الشهوة الفعلية لا تستثير أي اهتمام لديّ. سواء في الواقع أو في الأحلام. لقد استعضتُ عنها بما يولّدُ الإيقاعات الشَّفويّة لديّ أو الرّغبة في الإنصات إلى تجسُّدها عند الآخرين بحيث تتولّد الرّعشة فيَّ عندما يتمُّ التّلفّظ بها بإتقان. من ذلك مثلاً أنَّ قراءة صفحة لـ Fialho[1]، أو لشاتوبريان من شأنها أن تُصيب شراييني بالتَّنمُّل مسبِّبة لي ألماً شديداً مصحوباً بقشعريرة داخليّة هادئة بفعل المُتعة الغالية التي أجنيها من هذه القراءة.

كما أنَّ صفحة من صفحات Vieira[2] بإتقانها البارد ذي الهندسة النحوية تحملني على الارتعاش ارتعاشة غصن إزاء الريح في هذيانٍ مُنصاع لشيء نوّاس.

ومثل كل العشاق الكبار أعشق حلاوة الانفقاد في ذاتي نفسها، حيثُ مُتعةُ الاستسلام كاملةً تُعاش. هكذا أكتب، أحايين كثيرة، بدون رغبة في التفكير في أيّ هذيان خارجي، مُسلّماً أمري للكلمات تصنع احتفالاتها بي، مثل طفلٍ صغير في حضنه الأليف. جُملٌ لا معنى لها تجري ناعمة جريان مياهٍ محسوسة، جداول غفل، حيث الموجات تختلط لا متعينة متحولةً باستمرار إلى غير ما كانتهُ. .

---

(1) José Valentim Fialho (1857-1911): كان كاتب يوميّات مشهوراً وقصّاصاً بُرتُغاليّاً مُتميّزاً تأثّر بالتّيار الطبيعيّ وبالأفكار التَّقدميّة لعصره.

(2) Vieira: الأبّ أنطونيو فييرا (Antonio Vieira) (1608) توفيّ في البرازيل في نهايات القرن السابع عشر، فضلاً عن كونه عُرف كخطيبٍ كبير فقد ألَّف كتاب *Clavis Prophetarum* الذي أفادَ منهُ بيسوا في كتاباته السيبستيانيّة.

كذلك الأفكار، الصور، رعشات التعبير، من خلالي تمرّ، بمغازلاتٍ صائتةٍ لتموجاتٍ حريريةٍ خافتة. حيث مُبهماً يهتزُّ الصّفاء القمريّ للأفكار.

ما تسلبني إياه الحياة وما تهبني لا يعنيني ولا يبكيني. بالمُقابل لطالما أبكتني بضع صفحات من النثر. أتذكّر، كما لو كنت أرى ذلك الآن، في تلك الليلة، طفلاً كنت لا أزال حينما قرأت، للمرّة الأولى، في إحدى المختارات ما أورده Vieira بخُصوص الملك سُليمان:

«صنع سليمان قصراً..». وواصلتُ القراءة، حتى النهاية، مُرتعشاً، مُتحيّراً كيما أنخرط في بكاءٍ سعيد مديد، لم ولن يكون بمقدور أيّ سعادة واقعيّة أن توفِّره لي، ولا أيّ حزن من أحزان الحياة أن يدفعني إلى تقليده.

تلك الحركة الكهنوتية للغتنا الواضحة المهيبة. ذلك التّعبير عن الأفكار في الكلمات اللامناص منها. ذلك الجريان المائي بفعل انحدار المجرى، ذلك الانخطاف الصوتي حيث الأصوات ألوانٌ ذهنيّة؛ ذلك كلّه كان يُسكرني غريزيّاً كما لو باهتياج سياسيّ هائل. لذلك بكيت؛ واليوم، إذ أتذكّر، أبكي، لا حنيناً - لا - إلى الطفولة التي ليس لديّ أي حنين إليها: بل هو الحنين العاطفيّ إلى تلك اللّحظة، والحُزن المُتولّد عن العجز عن قراءة ذلك التأكيد السّنفوني.

لا أملك أيّ نوعٍ من المشاعر السّياسيَّة أو الاجتماعيَّة إلا أنني أملك، بمعنى من المعاني، شُعوراً وطنيّاً عالياً جدّاً. أما وطني فهو اللغة البرتُغاليَّة. ولن يُحزنني أن تُجتاح البُرتُغال أو تُحتلّ، طالما لم يُصبني الأذى شخصيّاً. لكنني أشعُرُ بكراهيةٍ حقيقية، هي الكراهية الوحيدة التي أستشعرها. إزاء، لا مَن يكتُبُ البُرتُغاليَّةَ سيّئاً، ولا من

يجهلُ النّحو، ولا من يكتُبُ وفق قواعد إملائية مُبسّطة. وإنما نحو الصفحة المكتوبة بشكلٍ سيئ. كما لو كان شُعوراً بالكراهية نحو شخصٍ بعينه. أكره النحو المُستعمل مغلوطاً كراهيتي لأشخاصٍ يتوجَبُ صفعُهُم، أكره الاستعمال اللامضبوط لقواعد الإملاء. كما لو أنَّ الأمر يتعلَّقُ ببصقةٍ مُباشرة.

أجل، ذلك أنَّ قواعد الإملاء هي كائنات بشريّة بدورها. الكلمة كائنٌ كامل مرئيّة ومسموعة.

أميرُ المنفى الأكبر

على الرّغم من انتمائي، روحيّاً، إلى سلالة الرومانطيقيين أكثر من غيرهم فإنني لا أجدُ راحتي سوى في قراءة الكلاسيكيين. تقشّفهم (لنقُل تكثيفهم) ذاته الذي من خلاله يتجسّد وضوحهم، يمنحني العزاء في فقداني ما لستُ أدري. لديهم أجدُ إحساساً بهيجاً بحياةٍ واسعةٍ مفتوحة، يستوعب فضاءات شاسعة بدون أن يجُوبها. لديهم أحسّ الآلهة الوثنيين أنفسهم يستريحون من السّر.

إنَّ التحليل الأشدّ إدهاشاً للإحساسات - أحياناً للإحساسات التي نفترض تملُّكنا لها - وتوافق القلب مع المشهد الطبيعيّ، الانكشاف التشريحي للأعصاب كلها، استخدام الرغبة بمثابة إرادة والطُموح كتفكير، كل تلك الأشياء تصبح مُفرطة في قرابتها إليّ، عاجزة عن إتياني بالجديد، أو إمدادي بالطّمأنينة. دائماً عندما أحسّها، أتمنّى بالضّبط لكوني أحسّها الإحساس بشيءٍ آخر. وعندما أقرأ أحد الكلاسيكيين يُصبح ذلك الشيء الآخر في مُتناولي.

أعترفُ صراحة ومن دونما خجل بألّا وجود لفقرةٍ لدى شاتوبريان أو أنشودة للامارتين - هناك مقاطع تبدو أحياناً كما لو

كانت صوت تفكيري وأغنيات تبدو أحياناً كثيرة أيضاً كأنها قيلت لأجلي - يمكن أن تخلب لُبّي وتسمو بي على نحو ما يفعل مقطع من نثر فييرا أو هذا النشيد أو ذاك لبعض كلاسيكيينا القلائل ممّن ساروا على نهج هوراس بالفعل.

متحرراً أقرأ. ناشداً الموضوعيَّة التامة. لقد تخلَّيت عن أن أكون أناي. تبدّدتُ. وبدلاً من أن يكون ما أقرؤه بدلتي الخاصّة التي بالكاد أراها رازحاً تحت ثقلها أحياناً، يصبح بمثابة الانجلاء الأكبر للعالم الخارجيّ، الشّمس المُحدقة في الجميع، القمر الذي يخضب الأرض السّاكنة بالظلال، الفضاءات الواسعة التي تنتهي في البحر، الصلابة السوداء للأشجار خالقة العلامات الخضراء في الذّرى، السكينة الصلبة لبُرك الضيعات، الطّرق المغطّاة بالكُروم في مُنحدرات الأعالي.

أُمارس القراءة كمن يتنازلُ عن العرش، وكما أنَّ التّاج والعباءة الملكيين لا يكونان أبداً في أوجّ رمزيّةِ عظمتهما إلّا حينما يتركهما الملك المخلوع ملقَيَيْن على الأرض، كذلك ألقي أنا على فسيفساء قاعات الانتظار بكلّ أوسمة الضجر والأحلام التي فُزت بها. لأصعد درج المدخل بالنبالة المُتفرِّدة للنظرة.

أقرأ مثل مَن يمرّ عابراً، ومع الكلاسيكيين المتزنين الذين إذا تألَّموا لم يُصرحوا، أشعر بأنني عابر سبيلٍ مُقدَّسٍ، مُغترب مكرم[1]، متأمّل بدون دافعٍ ولا غاية. أمير المنفى الأكبر، الذي منح، لحظة الرحيل، آخر المتسولين، الصّدقة المُتطرفة لكآبته.

---

(1) حرفياً مدهون بالزيت في إشارةٍ إلى شعيرة دهن أجساد الأبطال الإغريق بالزيت إكراماً لهم أو تتويجاً.

كتابي المُفضّل

أمقت القراءة. أشعُرُ بضجرٍ مسبق من الصفحات المجهولة. لا أستطيع أن أقرأ إلّا ما أعرف. الكتاب الذي يحتلّ الصدارة عندي هو **بلاغة الأب فيغيريدو**[1] الذي أقرأه آلاف المرات كلّ ليلة. مفتتناً بالوصف، والأسلوب المتقن لراهبٍ برتغاليّ، الصور البلاغيّة المقروءة بأسمائها آلاف المرات والتي لم أستوعبها بعد. ثم المعجم الذي يُهدهدني (. . .) وهناك الكلمات المضبوطة المكتوبة بحرف C التي إذا افتقدتها أنام على قلق.

إنني مدينٌ لكتاب الأب فيغيريدو وبمبالغاته الصفائية، بالارتياب النسبي الذي أستشعره - بكلّ ما أستطيع من شعور - وأنا أكتب اللغة التي أنتمي إليها بالخاصيّة التي. . .

وأقرأ: (مقطعاً من الأب فيغيريدو)[2]

فيمنحني ما يكفي من المُواساة لمواصلة العيش.

أو: (فقرة حول الصور)

تعود إلى الاستهلال

شاعراً بهذا كله، بدون أي مُبالغة.

وكما إن آخرين بإمكانهم قراءة فقرات من الكتاب المُقدس، كذلك أنا أفضّل قراءة فقرات من البلاغة. لديّ امتياز الفراغ والافتقار إلى الورع.

---

(1) *Retorica del Padre Figueiredo* هو كتاب للأب أنطونيو فيغيريدو وكان عالماً لغويّاً من القرن الثامن عشر.

(2) لأنّ هذا المقطع مبتور في الأصل، ليس ممكناً معرفة أيّ فقرة من بلاغة الأب فيغيريدو يشير إليها المُؤلّف.

متعة القراءة

لا أعرف متعة قراءة الكتب، وأقرأ القليل. الكتب هي تمثيلات للأحلام. ومن يدخل في حديثٍ معهنّ ليس بحاجةٍ - مع سُهولة العيش - إلى تمثيلات.. لم أتمكّن قط من قراءة أي كتاب باستسلامي كليَّة له: دائماً مع كلّ خُطوة، يأتي التعليق من الذكاء أو الخيال على المقروء ليوقف تسلسل السرد، بعد دقائق أُصبحُ أنا كاتبَ الكتاب، وما هو مكتوبٌ فيه لا يغدو موجوداً في أيّ كتاب.

قراءاتي المفضّلة هي معاودة الكتب المبتذلة التي تنام معي جنب وسادتي. ثمة كتابان لا يفارقانني البتة هما: **بلاغة الأب فيغيريدو** و**تأملات حول اللغة البرتغالية** للأب فريري[1]. لقد كنتُ ولا أزال أعاود قراءتهما باستمرار وإن كنتُ لم أقرأ أياً منهما قراءة متّصلة. وإنني لَمَدين لهذين الكتابين بنظام أكاد أخاله متعذراً بالنسبة إليّ. ألا وهو نظام الكتابة بموضوعيّة، نظام (أو بالأحرى قانون) أنَّ الأشياء قد وُجدت منكتبة أصلاً.

أسلوب الأب فيغيريدو المُتصنّع الديريّ، المُنظّم هو الذي خلق متعة فهمي الخاصّة. أما سيولة كتابة الأب فريري (Freire) الخالية من أيّ اتساقٍ تقريباً فإنها تُرجِّفُ روحي بلا كلل، وتربّيني بدون أن تجشِّمني أي مشاغل من أيّ نوع. وكلا النمطين لا يشترط ولا يتطلّب مني أي قابليّة لأكون على غرار صاحبيهما ولا لأكون مثل أيّ شخصيةٍ أُخرى.

---

(1) الأب فرنسيسكو خوسي فريري (Francisco José Freire) (1719-1773): نشر تحت اسم مُستعار هو كانديدو لوسيتانو (Candido Lusitano) كتاب فن الشعر يعرّف فيه بالمذهب الأدبي للنيوكلاسيكيين.

أقرأ وأتخلّى، لا عن القراءة، ولكن عن ذاتي نفسها. أقرأ ثم أتنوّم، مُتابعاً كما لو في قلب الأحلام صور الأب فيغيريدو البلاغية. وفي غاباتٍ مسحورة أسمع الأب فريري يعلِّمنا أنَّ الصواب هو أن نتلفظ بـ (Madalena) وليس (Magdalena) التي يتلفظُ بها العوام وحدهم.

ملكُ روما

فكّرتُ اليوم، أثناء لحظة إحساسٍ مُعينة، في شكل النثر الذي أستعمله. حقاً، لا بدّ من التّساؤل، كيف أكتب؟ لقد كانت لديّ، مثل الجميع، تلك الرغبة المُفسدة في امتلاك نظامٍ وقاعدةٍ بهذا الشأن. أكيد أنني مارستُ الكتابة قبل امتلاك أي قاعدة أو نظام. وأنا لا أختلف بهذا عن الآخرين.

وقد اكتشفت، بتحليلٍ ذاتيّ قمت به هذا المساء، أنَّ نظام الأسلوب عندي يرتكز على أساسين ينبنيان بدورهما حسب الطريقة المُثلى للكلاسيكيين الجيدين على الأسُس العامّة لكلّ أسلوب وهما: أن أعبّر عمّا أحسّ تماماً وفق ما أحسّ - بوضوح إنْ كان ما أحسّه واضحاً، وبغموض إنْ كان غامضاً، وملتبساً إنْ كان ما أحسّه ملتبساً بالفعل -؛ أن أدرك أنَّ قواعد النحو هي أداة وحسب وليست قانوناً.

لنفترض أنني أشاهد أمامكم فتاة ذات سلوك ذكوريّ إذن هناك شخص عاميّ سيقول عنها: «البنت تبدو ولداً» ثم شخص آخر سيقول، إنما بصيغةٍ أقرب إلى الوعي بأنّ الكلام هو التعبير: «هذه البنت ولد»، شخص ثالث واعٍ هو الآخر بمُتطلبات التعبير، لكنه، مدفوعاً بنزوة الاقتضاب الذي هو التجسيد الحيّ لشبقيَّة الفك، سيقول عنها: «ذلك الولد». أمّا أنا فسأقول على الفور: «تلك

الولد»، مُنتهكاً أكثر القواعد النحويّة أساسيّة وهي الملزمة بتوفُّر تطابقٍ في الجنس والعدد بين النّعت والمنعوت.

وسأقول حسناً، أنا استخدمتُ الألفاظ مُطلقة، على نحوٍ فوتوغرافيّ، خارج المألوف، خارج القاعدة، وخارج ما هو مُبتذل، وبذلك فأنا لم أتكلّم وإنما عبّرت.

إذا فحصنا الاستعمالات اللّغويّة، نجد النحو يضع تقسيمات مشروعة وزائفة. فهو مثلاً يقسم الأفعال إلى لازمة ومُتعدّية، لكن الإنسان الذي يُجيد التعبير عمّا يحسّ ينبغي عليه أحياناً كثيرة أن يحوِّلَ فعلاً مُتعدّياً إلى لازم حتى يصوّر بالضبط ما يحسّه. لو أردتُ مثلاً أن أقول «أنا موجود» «Existo» لقلت: «Soy»[1]، لو شئت أن أقول بأنني أوجد كروح مُنفصلة سأقول: «Soy yo»، لكن إذا أردتُ أن أقول بأنني موجودٌ كذاتٍ متشكّلةٍ بذاتها وتُمارسُ إزاء ذاتها الوظيفة الإلهية لخلق ذاتها (Crearse). فكيف ينبغي أن أستعمل الفعل (Ser) الدّال على الكينونة إن لم أحوّله من اللزوم إلى التّعدية؟ وحينئذٍ، وبصوتٍ عالٍ، وضدّ النّحو وبإحساسِ الظّافر، سأقول: «Me soy». وبذلك أكونُ قد عبّرتُ عن فلسفةٍ بكاملها في لفظتين صغيرتين. أَوَيُمكن أن نطلُب أكثر من هذا من الفلسفة والتَّعبير معاً؟

مَن لا يعرف كيف يُفكّر ما يحسّ هو الذي يخضع للنحو. أما الذي يخدمه بالفعل فهو مَن يعرف التحكُّم في استعمالاته التعبيريَّة. يُحكى عن سيغموند ملك روما، أنّهُ أجاب بعض من نبّهه إلى خطأ نحويّ ارتكبه أثناء إلقائه لإحدى خُطبه: «أنا ملك روما، وملك

---

(1) فضلت الإبقاء على هذه الأمثلة عن استعمالات فعل الكينونة الإسبانيّ: Ser كما هي لتعذّر الوفاء بالمقصود منها في حال ترجمتها إلى العربيَّة.

النّحو علاوة على ذلك». والتّاريخ يروي أنه عرف خلال حكمه باعتباره سيغموند «السوبر نحويّ». رمزٌ عجيب بلا شك! كلّ مَن يعرف قول ما يقول هو ملك روما بطريقته الخاصّة...

أنا المُتعدّد

منذُ أن توقّفت الأمطار الأخيرة عن النّزول، ومكثت في الأرض - سماء نقيّة أرض رطبة لامعة - عاد صفاء الحياة الأكبر، مثلما عادت الزّرقة إلى اكتساح الفضاء الأعلى، فَسَرَتْ مع طراوةِ المياه النشوة في الأسفل تاركة سماء نقيّة في الأرواح وطراوة خالصة في القُلوب.

نحنُ عبيدٌ للزمن - مع عدم رغبتنا في ذلك - ولألوانه وأشكاله، رعايا للسماء والأرض نحن. ومن يَتقَوْقَع في ذاته منّا، مُزدرياً ما يُحيطُ به، يكون وضعهُ النّفسيّ مختلفاً عندما تُمطر السّماء عن وضعه حينما تكون صافية. إنها تحوّلاتٌ غامضة تجري ربّما داخل الإحساسات المُجرّدة الأكثر حميميّة، وهي تتولّد، إمّا بسبب هُطول المطر أو بسبب انقطاع هُطوله. وهي تحسّ بغير أن تحسّ، لأنَّ الإحساس بالزّمن يُعاش بدون أن يُحسّ.

كُلُّ واحدٍ منا متعددٌ في ذاته؛ كلّ واحد عبارة عن أشخاصٍ عديدين؛ أو تمديدٍ لهم، لذلك فإنَّ مَن يحتقر المُجتمع الذي يعيش فيه ليس هو نفسهُ بالذات مَن يبتهج أو يتألّم من أجل المُجتمع نفسه. في المُستوطنة الشّاسعة لكينونتنا يوجدُ أناسٌ مُتنوّعو الأجناس، يشعُرون ويُفكّرون بطريقةٍ مختلفة، في هذه اللحظة بالذات وأنا أكتُب، في فاصل الاستراحة المشروع لهذا اليوم الخالي إلّا قليلاً من الأشغال، أنا من يكتُب بتيقّظ هذه الكلمات الانطباعيّة القليلة. أنا

هو المُبتهج بانعدام ما يدعو إلى الشّغل في هذه اللحظة. أنا من ينظُرُ إلى السّماء الموجودة في الخارج هُناك، والمُتعذّر رُؤيتُها من هنا. أنا من يُفكّر في هذا كُلّه، أنا من يحسّ بالجسد الفرحان وباليدين الباردتين بُرودة غامضة. وكلّ عالمي الخاصّ المُكوّن من أشخاصٍ مُختلفين مُتزاحمين فيما بينهُم، مثل جُمهورٍ مُتنوّع، لكن مُتراصّ، هو ظلٌّ فريد لهذا الجسد الهادئ والكاتب الذي به أنحني واقفاً أمامَ مكتب بورخيس العالي الذي أتيته باحثاً عن نُشّافتي المُعارة.

من أنا؟

كُلُّ شيءٍ يفلتُ منّي. حياتي كُلها، ذكرياتي، مُخيّلتي بما تحتويه، شخصيّتي، الكُل يتبخّر، أحسّ باستمرار أنني كنتُ شخصاً آخر، وأنني أحسستُ وفكرت بأنّني آخر. وذلك الذي أعانيه هو مشهدٌ من سيناريو آخر. ذلك الذي أعاينهُ هو أنا بالذّات.

أحياناً أعثر في الفوضى الخاوية لأدراجي الأدبيّة، على أوراق كتبتها منذ عشر سنوات، منذ خمس عشرة سنة، وربما أكثر. والكثير من هذه الأوراق يبدو لي مُنتمياً إلى رجل غريب. إذ لا أتعرّف على نفسي فيها. لا بد أنّ أحداً قد كتب هذه الأوراق. وهذا الكاتب هو أنا. أنا الذي عايشها بإحساسه، لكن ذلك حدث في حياة أخرى سبق أن استيقظتُ منها كما لو من حلم ينتمي إلى الغير.

يحدث مراراً أن أعثر على أشياء كتبتها وأنا شابّ صغير، مقاطع تعود إلى سنّ الثامنة عشرة، مقاطع تعود إلى العشرين. وبعضها يمتلك قوّة تعبير لا أتذكّر كيف كنت قادراً على امتلاكها في تلك المرحلة من عمري. ثمّة مقاطع تخصّ أموراً مكتوبة بُعيدَ مراهقتي، تبدو لي من ثمار شخصي الرّاهن الذي حَنَّكتهُ سنوات

وتجارب وأحداث. أعرفُ أنني لستُ ذلك الذي كان. ومع إحساسي بأنني أعرف تطوّراً كبيراً بالمُقارنة مع كنته. أسأل أين يوجد هذا التّطور إن كنت حينئذٍ الشخص نفسه الذي أنا اليوم.

ثمّة في هذا كلّه لغز محيّر يحبطني ويغمّني. منذ أيّام عانيتُ من إحساسٍ مرعب، بسبب نصّ مكتوب قصير لي يعود إلى الماضي. أتذكّر تماماً وسواسي البارز فيه تجاه اللغة التي تعود إلى سنوات قليلة خَلَتْ. ثم في أحد الأدراج عثرتُ على نصٍّ مكتوب لي، يعود إلى تاريخ أقدم، يبدو فيه وسواسي ذلك مُبرزاً بقوة. لم أدرك في الماضي إدراكاً إيجابيّاً، كيف أمكنني أن أتطوّر لأصبح ما كنته بالفعل حينئذٍ؟ كيف عرفت ما كنت أجهله بالأمس؟ والكلّ متداخل عندي داخل متاهة أنا التائه في ذاتي فيها.

مفكّراً أغرق في الهذيان، موقناً بأنَّ ما أكتبه الآن قد كتبته بالفعل من قبل. أتذكر ذلك. وأسأل هذا الموجود المزهوّ فيّ أين يوجد إنْ لم يكن في أفلاطونيّة الأحاسيس ذاكرة أخرى، ذكرى أخرى من حياةٍ سابقة تنتمي بالكاد إلى هذه الحياة...

يا إلهي.. يا إلهي. مَن أكون؟ كم من ذواتٍ أنا؟ ما هو هذا الفاصل الموجود بيني وبيني؟

في أيّ ضفّةٍ أنا

مرة أخرى عثرتُ على مقطعٍ مكتوب لي بالفرنسيّة مرّت عليه خمس عشرة سنة. لم أزُر فرنساً قط. ولم تكن لديّ نزاعات مع فرنسيين، ولم يسبق لي، إذن، أن لجأت البتّة إلى استخدام هذه اللّغة التي كنت قد تركتها. أنا اليوم أقرأ الفرنسيّة كثيراً كما كنت أفعل دائماً. أنا أكثر كهولة، أكثر حنكة من حيث التفكير، كان عليّ أن

أتطوّر. بَيْدَ أنّ ذلك المقطع من ماضيّ البعيد يشفّ عن وثوقيّةٍ أفتقر إليها اليوم في استعمال الفرنسيّة؛ فالأسلوب سلسٌ سلاسة لست قادراً على تملّكها اليوم في تلك اللغة؛ ثمّة فقرات كاملة، جُمل، صيغ، وأشكال تعبيرٍ تدلّ على تمكّنٍ تامّ من تلك اللّغة التي ضيّعتُها بدون حتى أن أتذكر بأنني قد امتلكتها ذات يوم. كيف نفسّر هذا كلّه؟ مَن هذا الذي حللتُ محلّه بداخلي؟

حسناً أعرف أنَّ من السّهل تلفيق نظريّةٍ مُعيّنة عن سيولة (انفلات) الأشياء والأرواح. وأنَّ من اليسير أن نفهم أننا عبارة عن مرورٍ جوّانيّ للحياة، ونتخيّل بأننا عبارةٌ عن كمٍّ هائل، وأننا كنّا كثيرين... إلخ، لكن ها هنا شيء آخر ليس بالانتقال المحض للشخصيّة بين هوامشها الخاصّة: ها هنا يوجد الآخر المُطلق، كائنٌ غيري كان بحوزتي. لقد فقدت، بتقدّمي في السن، التّخيّل والعاطفة، فقدت نمطاً من الذكاء، من الإحساس، وهذا كلّه، لا يدهشني، وإن سبَّب لي الحزن، لكن بحضرة مَن أكون عندما أقرؤني كمن يقرأ أجنبيّاً عنه؟ في أيّ ضفّة أنا إنْ كنت لا أرى نَفْسي إلّا في القعر؟

أحياناً أخرى ألتقي بمقاطع لا أذكر أنني كاتبها - وهو ما يثير القليل من العجب - بل إنني لا أتذكّر حتى إمكانية أن أكون أنا كاتبها، وهو ما يرعبني، ثمّة عبارات معينة تنتمي إلى ذهنية أخرى. كما لو أنني عثرت على صورةٍ فوتوغرافيةٍ قديمة، هي صورتي بلا ريب، بقامةٍ مختلفة، بملامح منكرة، لكنها ملامحي بلا مراء. إنّها أنا يا للهول.

عُمَر الخيّام

عُمَر الخيّام كانت له شخصيّة معيّنة، أمّا أنا، فلا أملك، لحُسن الحظ أو لسوئه، أيّ شخصيّةٍ على الإطلاق. ما أكونه في لحظةٍ مُعيّنة، أنفصل عنه في اللّحظة المُوالية؛ ما كنتهُ ذات يوم، أنساه في اليوم الذي يليه. لا يشبه عمَر الخيّام إلّا ذاك الذي يعيش في عالم واحد، هو العالم الخارجيّ، أمّا من هو مثلي فيحيا في عالمٍ داخليٍّ مُتعاقبٍ مُتنوّع. وحتّى لو رغب في أن تكون له فلسفة عُمَر الخيّام نفسها فلن يستطيع ذلك حتماً. هكذا أمتلك فيّ، ولو لم أرغب في ذلك حقّاً، الفلسفات التي أنتقدها كما لو كانت أرواحاً مُقيمة بداخلي؛ بإمكان عُمَر الخيّام أن يستبعدها لأنها شيءٌ خارجي بالنسبة إليه، أما أنا فلست بقادرٍ على ذلك، لأنّها أناي.

تبعثُرٌ مُوحد

إنَّ دَيدني الدّائم المتمثّل في عدم الإيمان بشيء، وخاصّة بالغريزة، وموقفي الإنكاري الطبيعي، إنّما هو رفضٌ للحواجز التي تحت وطأتها أضع هذا كله بشكلٍ ثابت.

ما يحدُث، في العمق، هو أنني أصنع من الآخرين أحلامي، مضاعفاً آراءهم كيما أجعل منها، بتمديدها بواسطة منطقي وحدسي، آرائي الخاصّة (بإمكاني بسبب افتقاري لرأيٍ خاص بي، امتلاك آراء الغير تماماً مثل آراءٍ أخرى) وكيما أضاعفها وفق رغبتي جاعلاً من آرائهم أصهاراً لأحلامي.

إلى حدّ أنني أفضّل الحُلم على الحياة التي بين يديّ، مُواصلاً، بالألفاظ (لا أملك سواها) الحلم مُتشبّثاً، من خلال آراء الآخرين وعواطفهم. وفي خطّ الحياة السيّال، بشخصيّةٍ عديمة الشّكل.

الآخر، عبارةٌ عن قناةٍ أو جدول وفقاً لرغبته فحسب يجري ماءُ البحر، واسِماً المجرى المُنحني لاتجاهه، بلمعان المياه الموجّه إلى الشّمس بأكثر ممّا تستطيع أن تفعله، واقعيّاً، حالات جفافه وانحساره. وإذا ما تبيّن أحياناً لتحليلاتي السّريعة، تطفّلي على الآخرين، فإنَّ ما يحدث بالفعل، هو أنني أجبرهم على أن يكونوا هم المُتطفلين على انفعالي اللّاحق. تلك عادة معايشتي لقُشور ذواتهم الفرديّة. أنحت أثر خطواتهم في صلصال روحي، وبذلك، بإيصالهم بوعيي، أكون قد مُنِحْتُ خطواتهم وسلكت طرقات (هم)[1].

على العموم وبالنّظر إلى تعوّدي على مضاعفاتي لذاتي، بمواصلة عمليتين ذهنيتين مختلفتين في آنٍ واحد، فإنني إذْ أمضي متكيّفاً بغلوّ وحدَّة وعيٍ مع إحساساتهم، أمضي في الآن نفسه محللاً بداخلي الحالة المجهولة لأرواحهم مضفياً موضوعيَّة خالصة على تحليلي لما يفكّرونه ولما هم إيّاه. هكذا، وسط الأحلام، وبدون أن أكفّ عن هذياني اللّامُنقطع، أمضي متقمّصاً لا الجوهر المنقّى لانفعالاتهم الميتة أحياناً وحسب، ولكن، مدركاً، ومصنّفاً الرّوابط المنطقيّة للقوى المُختلفة لنفسهم الرّاقدة ببساطة أحياناً داخل روحهم. ووسط هذا كلّه ثمّة هيآتهم، ألبستهم، إشاراتهم التي لا تفلت منّي. ثمّ أحيا في الآن ذاته أحلامهم، روح الغريزة والجسد وأوضاعهم ذاتها. وفي حالةٍ كبرى من تبعثرٍ موحّد أحلّ أنا محلّهم، وأصير في كلّ لحظة تخاطب جمهرة من الموجودات الواعية واللّاواعية، محلِّلة ومجلَّلة مجتمعة في مروحةٍ مفتوحة.

---

(1) وردت كذلك في الأصل.

المُجتمع الذي فيه أحيا

المجتمع الذي أحيا فيه
من أحلام كله، أصدقائي محلومون، عائلاتهم، عوائدهم، مهنهم و(. . .)

روحي

روحي عبارةٌ عن أوركسترا خفيّة: لا أدري أيّ الآلات تعزف فيها أو تصرّ، أوتارٌ وقياثير، نقّاراتٌ وطبول، بداخلي. لا أتعرّف على ذاتي إلّا كسنفونيّةٍ وحسب.

لا أحد

توصّلت اليوم، إلى إحساسٍ لا معقول وصحيح في آن، لقد تنبّهت، بوميض برقٍ باطنيّ، إلى أنني لا أحد. لا أحد، على الإطلاق لا أحد. حينما أضاء البرق، هناك حيث المدينة المُفترضة لم يكن ثمة غير سهلٍ قاحل، أمّا النّور الذي أسفر عنه فلم يكن ليكشف أيّ سماءٍ فوقه. لقد سُرقت منّي قدرة أن أوجد قبل وجود العالم. وإذا كان عليّ أن أعاود التّجسّد، لقد عاودت التّجسّد بدوني، بغير تجسّد أناي.

أنا هوامش مدينةٍ ليس لها وجود، أنا التّعليق المسهب على كتابٍ لم يُكتب، لستُ بأحدٍ أنا، لا أحد. لا أعرف كيف أحسّ، لا أعرف كيف أفكّر، لا أعرف أن أرغب، أن أريد. أنا نموذج (شخص) في روايةٍ ينبغي أن تُكتب، يمرّ مرور الأثير، ويتوارى، بدون أن يكون قد وُجد، في أحلام مَن لا يعرف منحي الاكتمال.

دائماً أفكّر، دائماً أحسّ، لكنّ تفكيري لا يحوي أيّ منطق.

وعاطفتي خالية من أيّ عواطف. أحسّ بأنني أسقط، عبر الفخّ المنصوب هناك في الأعلى، في الفضاء اللّانهائيّ بتمامه، سقوطاً ليس له اتّجاه، سقوطاً لامتناهياً وفارغاً، روحي تيّارٌ بحريّ أسود، دوّار أسود حول الفراغ، حركة مُحيطٍ لانهائيّ حول ثقبٍ من هباء، وفي المياه الدوار، تطفو جميع صور ما رأيت وما سمعت في هذا العالم - منازل تمرّ، وجوه، كتب، صناديق، مخلّفات موسيقيّة، مقاطع أصوات في دوّامةٍ ليس لها قرار.

وأنا، أنا بالفعل، أنا المركز اللّاوجود له إلّا بهندسة الهاوية؛ أنا الهباء الذي حوله تدور هذه الحركة بدون أن يكون لذلك المركز من وجود سوى لأنّه دائرةٌ كلّه دائرة. أنا حقّاً، أنا البئر بلا حيطان، إنّما بكلّ اللّزوجة التي تملكها الحيطان. أنا مركز الكلّ مُحاطاً بالهباء.

ذلك أنّه، فيّ أنا، كما لو أنّ الجحيم نفسه مع إنسانيّة الشّياطين يضحكان فيّ أنا يثوي الجنون النّعّاق للكون الميت، الجثة الدوّارة للفضاء الفيزيقيّ، نهاية العوالم كلّها وهي تتقلّب مسودّة أمام الرّيح، مشوّهة، مهجورة، بدون الله الذي قد يكون خالقها، بدونه هو ذاته متدحرجاً في غياهب الغياهب، مستحيلاً، فريداً - كلّ شيء.

أن أعرف كيف أفكّر! أن أعرف كيف أحسّ!

في فترةٍ مبكراً جدّاً توفّيت أمي، وأنا لم يُتَح لي التّعرّف عليها.

1931-12-1

وسواس

فلأمنح كلّ عاطفةٍ شخصيّة خاصّة بها، كلَّ وضعٍ من أوضاع الرّوح روحاً مستقلّة.

ما يُرى من الدّاخل

لأنني لا أملك ما أفعل؛ ولا حتّى التفكير فيما عليّ أن أفعل، سأضع على هذا الورق خطاطة وصف لحاشيةٍ نموذجيّة؛ أريد حساسية مالارمي داخل أسلوب فييرا، الحلم على طريقة فرلين بجسد هوراس؛ أن أكون هوميروس على ضوء القمر.

أريد أن أحسّ كل شيء بكلّ الأشكال الممكنة وغير الممكنة؛ أن أعرف كيف أفكّر بالأحاسيس وأحسّ بواسطة الأفكار، ألّا يكون لي طموحٌ إلّا بواسطة الخيال؛ أن أتألّم بدلائل؛ أن أرى ما أراه بوضوح كيما أكتب بطريقةٍ صحيحة؛ أن تكون معرفتي ممنهجة ومداجية، . . وبالجملة أن أستخدم من الدّاخل الأحاسيس كلّها، نازعاً عنها القشور قشرة قشرة، حتّى أصل إلى الله، لكن مع تغليفها من جديد وإعادتها إلى الواجهة الزّجاجيّة على نحو ما يفعل ذلك البائع الذي أراه من هنا بعلب زفتٍ صغيرة من النوع الجديد.

كلّ هذه الرّغبات المثاليّة الممكنة أو المستحيلة تتبخّر الآن، ثمّة الواقع أمامي: ليس البائع ما أرى، إنها يده (البائع لا أراه)، وهي ملمسٌ لا معقول لروح ذات عائلةٍ وحظّ. يصنع تعرّجاتٍ لعنكبوت لا نسيج له عبر تمدّد استعادة الهناك الذي قبالتي.

1930

عبارة

«الإحساس تَحمُّص». عبارةٌ عرضيّة وردت في محادثةٍ عرضيّة مع مجهول شاركني الأكل، ظلّت متوهّجة على الدّوام في أرضيّة ذاكرتي. الصّيغة العاميّة ذاتها للعبارة هي التي منحتها الملح والبهار.

يبقى الحُلُم

أريد أن أخلق فيّ، وضعاً سياسيّاً كاملاً، بأحزابه وثوراته، وأن أكون أنا كلّ ذلك، أن أكون إلهاً للحلوليّة الواقعيّة لشعبي ذاك، جوهر وحركة أجسادهم وأرواحهم، والأرض التي يطؤون والأفعال التي يأتون، أن أكون الكلّ، أن أكونهم ولا أكونهم. يا ويحي! لم أصل بعد إلى تحقيق هذا الحلم، لو تمكّنت من تحقيقه لربّما متّ. لا أدري لماذا؟ لكن لا ينبغي أن أعيش بعد هذا. فادحٌ جدّاً هذا الانتهاك المُقترف ضدّ الله. فادحٌ جدّاً هذا الانتهاك لقدرة الله برغبتي في أن أكون الكلّ. يا للمتعة التي ستتيح لي خلق يسوعيّةٍ خاصّةٍ بالإحساسات!

يوجد من الاستعارات ما يفوق عدد النّاس السائرين في الشارع. ثمّة صورٌ في خبايا الكتب تملك من صفاء الحياة ما لا يملك الكثير من الرّجال والنّساء. ثمّة عبارات أدبيّة تمتلك فردانيّة مطلقة الإنسانيّة. هناك مقاطع من إنشائي تجمِّدني من الرّعب. أحسّها بوضوح كما لو كانت أناساً أحياء مرسومين على جدران غرفتي في اللّيل، في الظّل، (...). لقد كتبت جملاً يبدو إيقاعها - يستحيل إخفاء إيقاعها - ممتلكاً، فيما لو قُرِئت بصوتٍ عالٍ أو خفيض، كياناً برانياً مطلقاً وروحاً كاملة.

لماذا أتصرّف بطريقةٍ متناقضة تتأبّى على الحلم وعلى الترويض في الأحلام؟ لماذا اعتدتُ، غالباً، أن أحسّ بالزائف إحساسي بالحقيقي، بالمحلوم واضحاً تماماً كالمرئي. لقد فقدت حاسّة التمييز الإنسانيّ الزّائفة في اعتقادي، بين الحقيقة والكذب.

حسبي أن أرى الأشياء بوضوح، بالعينين أو الأذنين، أو بأي حاسّةٍ أخرى، كيما أحسّ بواقعيّتها؛ بإمكاني الإحساس بشيئين غير

قابلين للتعريف في الآن نفسه، لا يهمّ. ثمّة مخلوقات قادرة على أن تتألّم ساعاتٍ طويلة لانتفاء إمكانيّة أن تكون وجهاً في إطار أو ورقة من أوراق اللعب. هناك أرواحٌ معاصرة تُقاسي، كما لو أنَّ لعنة حلّت بها، من استحالة أن توجد اليوم ككائناتٍ بشريّة من العصر الوسيط. هذا النّوع من الأحاسيس كان يعتريني في أزمنةٍ سابقة. اليوم لا. لقد تنقّيت باتّجاه ما هو أبعد. لكن، يؤلمني، مثلاً، ألّا أستطيع الحلم بأن أكون ملكين على مملكتين مُختلفتين، منتميتين، على سبيل المثال، إلى كونين يحويان أنواعاً من الفضاءات والأزمنة. عدم قدرتي على تحقيق هذا الحلم يغمّني بالفعل، ويُمِضّني جوعاً.

الأهمّ هو الوصول إلى القدرة على الحلم، بسهولة، باللاامتلائم، كواحدٍ من الإنجازات الكُبرى التي لم أتمكّن أنا نفسي، على عظمتي، من الظّفر بها إلّا في حالاتٍ نادرة. أجل، أريد الحلم بأنني مثلاً، وعلى نحوٍ متزامن، منفصلٍ وواضح، بأنني النزهة التي يقوم بها رجلٌ وامرأة على ضفّة نهر. أريد أن أرى نفسي، في آنٍ واحد، بالوضوح نفسه، الصورة نفسها وبغير اختلاط، الشيئين ذاتيهما بالتّكامل نفسه بينهما: مركباً في تمام وعيه يمخر بحراً من بحار الجنوب وصفحة مطبوعة من كتابٍ قديم. لَكَمْ يبدو هذا لا معقولاً! لكن لا معقول هو كلّ شيء، ويبقى الحلم، مع ذلك، أقلّ الأشياء لا معقوليّة.

الصّدى والهاوية

بالتّفكير خلقتُ صَدى وهاوية، بتعمّقي ذاتي تكاثرت. الحادث العرضيّ، الصغير جدّاً ما - ينبثق عن الضوء من تغير، السقوط

الملفوف لورقةٍ جافّة، البتلة المنتزعة مصفرّة، صوت الجانب الآخر من الجدار أو خطوات المتلفّظ بالصوت جنب خطوات من ينبغي أن يسمعه، البوابة المواربة للضيعة القديمة، الساحة المنفتحة على قوس البيوت المتجمّعة تحت ضوء القمر - كلّ هذه الأشياء التي لا تنتمي إليّ، تُثبّتُ فيّ التأمل الحسّاس بأواصرٍ من رنينٍ وحنين. في كلّ إحساس من تلك الإحساسات أشعر أنني آخر، متألّماً أتجدَّد في إحساسٍ لا مُحدّد.

من أحاسيس لا تنتمي إليّ أحيا، غير عابئٍ بالتّنازلات، آخر أغدو في الشّكل مثلما أنا بالفعل.

أنا المسرح الحيّ

خلقتُ فِيَّ شخصيّاتٍ متعدّدة، باستمرار أخلق شخصيّات بداخلي. كلّ حلمٍ من أحلامي، يتجسّد لحظة ظهوره كحلم، في شخصٍ آخر يصبح هو حالم الحلم وأبقى أنا خالي الوفاض.

لكي أبني، كان عليّ أن أتهدّم: كثيراً ما كنت برّانيّاً داخل ذاتي. لأنني لا أوجد داخل ذاتي إلّا خارجيّاً. أنا المسرح الحيّ الذي تتعاقب عليه أدوار ممثلين متنوعين يشخِّصون أعمالاً دراميّة شاسعة التّنوّع.

بين الرّؤية والحلم

قال إميل إنَّ المشهد الطبيعي هو وضعٌ من أوضاع الروح. إنها عبارةٌ تنمّ عن سعادةٍ خاملة لحالمٍ ضعيف. المشهد ما إن يكون طبيعيّاً حتى يكف عن أن يكون وضعاً روحيّاً. أن نوضِّع هو أن نُبدع، وما من أحدٍ يزعم أنَّ قصيدة مكتملة الإنجاز هي وضعٌ من

أوضاع التَفكير في صنع قصيدة. أحياناً تكون الرّؤية بمثابة حلم، لكننا إذ نسمّيها رؤية بدلاً من حلم فلأننا نميّز بين الحلم والرّؤية.

بالنّسبة إلى ما تبقّى، ما فائدة هذه التّأملات ذات النمط السيكولوجيّ الحرفيّ؟ باستقلالٍ تامّ عنّي ينمو العشب ويهطل المطر على العشب النّامي، والشّمس تُذهِّب تمدد العشب الذي نما أو سوف ينمو، تنتصب الجبال شامخة منذ القدم، والريح تمرّ مثلما مرّ هوميروس الذي سمع صوت الرّيح، وإن لم يكن موجوداً.

سيكون أقرب إلى الصواب إذا قلنا إنَّ وضعاً ما من أوضاع الرّوح هو بمثابة مشهدٍ طبيعيّ، سيكون للعبارة امتيازُ خلوّها من الكذب المتضمّن في نظرية إميل واشتمالها على صدق استعارةٍ ما فقط.

هذه العبارات العرضيّة أملاها عليّ اتّساع المدينة الهائل. مرئيّة على ضوء الشّمس الكونيّ من أعالي ساو بيدرو دي ألكانتارا[1]. كلّما تأملتُ امتداداً واسعاً كهذا الامتداد من خلال قامتي ذات المتر وسبعين سنتميتراً وكيلواتي السّتّين، ظفرت بابتسامةٍ ميتافيزيقيّةٍ هي امتياز مَن يعرفون قيمة الأحلام. وأعشق حقيقة الأشياء الخارجيّة بشكلٍ مطلق مع الفضيلة النبيلة للفهم.

نهر التّاج[2] في العمق، بحيرة زرقاء. أمّا جبال الشريط الآخر فهي تنتمي إلى طبيعةٍ سويسريّةٍ مسطحة. مركبٌ صغير يمضي - بخار شحنٍ مسود - من جهة بئر الأسقف باتجاه مدخل المرفأ الذي لا أراه. فلتحفظني الآلهة أجمعين حتّى يكفّ هذا المشهد عن الظّهور،

---

(1) Sao Pedro de Alcantara: مكان في لشبونة.

(2) Tejo.

المفهوم الواضح والشّمسيّ للواقع الخارجيّ، إحساسي بلا أهميّتي، عزائي في أن أكون قادراً، على ضؤولتي، على التفكير في أن أصير سعيداً.

الخريف الذي ضيّعت

منذ أن تخلّت آخر ألوان الصّيف عن صرامتها تجاه الشّمس المكدّرة، كان الخريف قد بدأ قبل الأوان، عبر كآبة خفيفة غامضة بدت كما لو أنها رغبةٌ من السماء في عدم الابتسام، كانت ذات زرقة أشدّ صفاء تارة، وأشدّ اخضراراً تارة أخرى، هي زرقة انتفاء جوهر اللون العلويّ ذاته؛ كانت شكلاً من أشكال النّسيان في الغيوم الأرجوانيّة واللّامبالية... كانت، لا خدراً أو سباتاً، بل ضجراً عمَّ العزلة الهامدة حيث ممرّ الغيوم.

كان الدّخول الفعليّ للخريف قد أعلن عن نفسه من خلال البرودة الدّاخليّة للهواء العديم البرودة. ومن امتقاع عرا الألوان التي لم تكن قد امتقعت بعد، ومن خلال قليلٍ من العتمة ومن الذَّوبان في الصبغة التي لبستها مشاهد الطبيعة. والملمح المتبدِّد للأشياء. لم يكن أوان الذّبول قد حلّ بعد، لكن كلّ شيء كان قد تحوّل، كما في ابتسامةٍ كنّا بحاجةٍ إليها، إلى اشتياق (عارمٍ) للحياة.

أخيراً، جاء الخريف الحقيقيّ، الهواءُ أصبح بارداً بفعل الرّيح، حفيف الأوراق اكتسى نبرة يبوسة، وإنْ لم تكن الأوراق قد يبست بعد؛ الأرض بكاملها اكتسبت اللون والشكل اللامحسوسين لمستنقع بَيْن بَيْن. كلّ ما كان عبارة عن ابتسامةٍ أخيرة ذاب في تعب الجفون، في لااكتراثيّة الإشارات. وهكذا كلّ ما يحسّ أو ما نفترض أنّ به إحساساً، كان يشدّ إلى الصّدر، بألفة، وداعَه الخاصّ. صوتُ دوامةٍ

في إحدى الرَّدهات من خلال وَعينا بتقلّب أدقّ الأشياء. حقّاً لقد راقني أن أتنقّه، كيما أحسّ بالحياة.

غير أنَّ أمطار الشّتاء الأخيرة، التي حلّت أيضاً في الخريف الذي غدا الآن قاسياً، قد غسلت هذه الحبريّات. كما لو بدون أدنى مراعاة، رياح عاتية تُصدر صريرها من داخل الأشياء الحبيسة، مخلّة بترتيب أشياء، ساحبة أشياء متحرّكة. رافعة وسط الصّخب غير المنتظم للأمطار، كلمات غائبة لاحتجاجاتٍ مجهولة، أصوات حزينة وحانقة ليأسٍ عديم الرّوح.

وأخيراً تناقص الخريف، بارداً ورمادياً. كان خريفاً شتائيّاً ذاك الذي جاء دوره الآن، كان غباراً من وحل كلّه. لكن، في الوقت نفسه ثمّة شيء طيّب حملته برودة الشتاء: انتهاء صيفٍ قاسٍ، ربيعٌ على الأبواب، خريفٌ يقاوم في قلب الشتاء، أخيراً. وفي الهواء العلويّ، حيث الطّبقات المغشّاة بالبخار المجرّد من ذكرى اللون أو الكآبة، الكلّ بدا ميّالاً إلى الليل وإلى التأمّلات اللامحدودة.

هكذا كان كلّ شيء بالنسبة إليّ قبل أن أفكّر فيه. وإذا كنت أكتبه اليوم، فلأنني أتذكّره. ما ضيّعته هو الخريف الذي أملك.

1932-1-29

(هزّ الكتفين)(1)

عموماً اعتدنا أن نُضفي على تصوراتنا حول ما نجهله لون مفاهيمنا المتعلقة بما نعلمه: إذا أطلقنا على الموت تسمية الحلم. فلأنّه يبدو بالفعل حلماً من الخارج، إذا كنّا نسمّي الموت حياة

---

(1) العناوين الموضوعة بين قوسين من وضع المؤلف.

جديدة، فلأنّه يبدو شيئاً مختلفاً عن الحياة. بأشكالٍ صغيرة من سوء التفاهم مع الواقع نبني المعتقدات والآمال، ونعيش من قشور نسمّيها خبزاً، مثل الأطفال الفقراء الذين يجعلون من اللعب سعادتهم المطلقة.

لكن هكذا هي الحياة كلّها؛ هكذا، بالأقلّ، ذلك النّظام الحياتيّ الخاصّ المدعوّ حضارة. الحضارة إنما تقوم على منح الشيء اسماً لا يطابقه، ثم الحلم فيما بعد بالنّتيجة. والواقع أنّ الاسم الزّائف والحلم الحقيقيّ هما اللذان يخلقان واقعاً جديداً. يتحوّل الموضوع فعليّاً إلى موضوع آخر. نحن نخلق أمثولات. المادة الأولى تظلّ هي نفسها، لكن الشكل الذي يخلعه الفن عليها، يجعلها غير ما هي بالفعل. طاولة من صنوبر هي الصنوبر لكنها أيضاً طاولة. نحن نجلس إلى طاولة وليس إلى صنوبر. الحبّ عبارةٌ عن غريزةٍ جنسيّة، غير أننا لا نحبّ بالغريزة الجنسيّة، بل بدافعٍ عاطفيّ من طينةٍ أخرى، وذلك الدّافع هو إحساسٌ آخر مختلف بالفعل.

لا أدري من أيّ مؤثّرٍ ضوئيّ مرهف، ولا من أي ضوضاء غامضة ولا من أيّ ذاكرةٍ عطريّة أو موسيقيّة جاءتني، وأنا ماضٍ في الشارع، هذه الهذيانات التي أدوّنها على غير عجلة أثناء جلوسي شارد الفكر في المقهى. لست أدري إلى أين سأتجه بأفكاري ولا إلى أين سأفضّل الاتّجاه بها. النّهار مصطبغ بضبابٍ خفيف رطبٍ ودافئ، حزينٍ بلا وعيد أو وعود، رتيبٍ من غير داعٍ. ثمّة إحساسٌ مؤلم أجهل كنهه ينتابني، تنقصني أداة أو وسيلة أجهل بماذا تتعلّق. لديّ خمود في الأعصاب حزين، حزناً ممتدّاً تحت مستوى الوعي، وأكتب هذه الأسطر المدوّنة بشكلٍ سيّئ في الحقيقة، لا لكي أقول

هذا الذي أقوله ولا لأقول أيّ شيء، ولكن من أجل أن أشغل لهوي. أمضي مائلاً، ببطء، بجرّاتٍ واهنة لقلم رصاص - لا عاطفيّة لدي لأتمكّن من بريه جيّداً - الورق الأبيض الخاصّ بتلفيف السّندويشات، الذي أعطونيه في المقهى، لأنني لم أكن بحاجةٍ إلى ورقٍ أفضل، ولأن أي نوعٍ منه صالحٌ للكتابة ما دام ورقاً أبيض. وأمنح الانطباع بأنني في حالة ارتياح. أنحني بعض الانحناء. والمساء يحلّ رتيباً بلا مطر، ببارقة ضوء مؤنسة مشكوكٍ فيها. . . وأكفّ عن الكتابة لأنني أكفّ عن الكتابة.

أغنية بلدٍ بعيد

كان يغنّي، بصوتٍ شديد النّعومة، أغنية بلدٍ بعيد. وكانت الموسيقى تجعل الكلمات المجهولة أليفة حميمة، يبدو أنها كانت أغنية روحيّة من أغاني الفادو، لكن بغير أيّ شبه بالفادو.

كانت الأغنية تعبّر، بالكلمات الكتيمة والنّغم الإنسانيّ، عن أشياء كائنة في أرواح الجميع وما من أحدٍ يعرفها. وكان هو يؤديها بنوعٍ من التوهيم، متجاهلاً المستمعين بنظره، بانتشاءة متسكّع شوارع.

النّاس المتجمّعون كانوا ينصتون إليه بلا جلجلٍ مرئيّ كانت الأغنية أغنية العالم كلّه، والكلمات تتحدّث إلينا عن السّر الشرقيّ لجنسٍ مفقود.

ضوضاء المدينة ما كانت لتنفذ إلى مسمعي، والسيارات كانت تمرق عن قرب إلى حدّ أنَّ إحداها لامست طرف بدلتي. لكنني كنت أحسّها بدون أن أسمعها. كان هناك في أغنية المجهول امتصاصٌ مريح لذلك المحلوم المتعذر فينا. الحادث كان حادثَ متسكّع عابر،

وكلّنا ركّزنا نظرنا على الشّرطيّ الذي دار حول زاوية الشّارع على مهل، ثمّ دنا متوقّفاً للحظةٍ خلف حامل المظلّات، كمن يتفرّج على مشهد، في تلك اللحظة. كفّ المغنّي عن الغناء، لم ينبس أحدٌ بشيء، وحينئذٍ تدخّل الشّرطي.

سأموت مثلما عشت

لقد حاولت مراراً، في الأحلام، تقمّص نموذج الشّخص الفردانيّ والمهيب الذي تخيّله الرّومانطيقيون في ذواتهم، وفي كلّ محاولة وجدتُ نفسي أقهقه قهقهات عالية من فكرتي عن تقمّص ذلك النموذج. إنَّ الإنسان القدريّ، (المشؤوم) في النهاية، موجودٌ في الأحلام الخاصّة لجميع النّاس العاديين، والرومانطيقية ليست سوى وضع الهيمنة اليومية لذواتنا نحن في وضعٍ معكوس. كلّ الرجال تقريباً يحلمون، داخل الحدائق السّريّة لكينونتهم، بامبرياليّةٍ خاصّةٍ بهم، بإخضاع النّاس أجمعين، باستسلام كافّة النّساء، باستعباد جميع الشّعوب، وجميع الحِقب لدى مَن هم أكثر نبالة. . قلّةٌ قليلة فقط ممّن اعتادوا، مثلي، على الحلم، يمتلكون، لذلك ما يكفي من الوعي للضحك من الإمكانيّة المبدئيّة للحلم على هذا النّحو.

التّهمة الكبرى التي يمكن أن توجّه إلى الرومانطيقية لم تُصَغ بعد: وهي تلك التي تقدّمها الحقيقة الجوّانيّة للطبيعة الإنسانيّة. إنَّ مبالغتها، سخافتها، قدراتها المتعدّدة على استثارة المشاعر وعلى الإغواء، تكمن في كونها تمثّل التصوير الخارجيّ لما يوجد في أعمق مناطق الرّوح، وللحالات الأكثر واقعيّة، والأكثر عيانيّة، حدّ الاستحالة، إنْ كان الوجود الممكن متوقّفاً على شيءٍ آخر غير القدريّة.

كثيرةٌ هي المرّات التي وجدتني فيها، ضاحكاً من إغواءاتٍ تسلويةٍ مشابهة، أفترض أنه سيكون من المفرح أن أصبح مداجياً، أو صاحب انتصاراتٍ كبرى. غير أنني لا أتمكّن عيانيّاً، في أوراق القمّة هذه سوى من إطلاق قهقهةٍ آتية من الشّخص الآخر المقيم دوماً بجانبي كما لو كان شارعاً من شوارع Baixa[1]. هل أعتبر نفسي مشهوراً؟ أجل، لكن كرجل حسابات. هل أشعر بأنني مرفوعٌ فوق عروش الكينونة الذّائعة الصيت؟ لكن ما يحدث إنما يحدث في مكتبٍ من شارع Dos Douradores. والصّبية هنا هم أحد الحواجز. أَوَ أسْمَعُ تصفيقات حشودِ الجماهير لي؟ التّصفيق يصل إلى الطّابق الرّابع حيث أعيش ويتعثّر بالأثاث الخشن لغرفتي الرخيصة، وبما يحيط بي، ويُمعن في تحقيري في غرفة المطبخ (. . .) إلى الحلم. لم أمتلك ولا مجرّد قصورٍ حقيرة في إسبانيا، مثل الإسبانيين الكبار من الأوهام كافّة. أوهامي (أحلامي بالأحرى) كانت ورق اللعب، ورق لعب، متّسخ، قديم لم يعُد صالحاً للعب؛ كان عليّ أن، أحطّمهن (الأوهام) بإشارةٍ من اليد، بإلحاحٍ متعجّلٍ من الخادمة العجوز التي كانت تريد تغطية المائدة بكاملها بالمنديل الموضوع على الجهة الأخرى، لأنّ ساعة الشاي قد دقّت مثل لعنةٍ من القدر، لكن هذا نفسه ينطوي على رؤية غير ذات جدوى. إذ إنني لا أملك منزلاً ريفيّاً، مع العمّات العجائز اللّائي أتناول على مائدتهن، بعد سهرةٍ عائليّةٍ شاياً مريحاً. لقد مُني حلمي بالفشل الذريع حتى في الاستعارات والصّور والأشكال. إمبراطوريّتي لم تَصِلْ حتى إلى أوراق اللعب العتيقة. وظفري باء بالخسران بدون أن

(1) أحد أحياء لشبونة.

يظفر بحلمة رضاعة أو بقطّ من عهدٍ بائد. سأموت مثلما عشتُ داخل دكّان خُردوات من دكاكين الضّواحي، بالسّعر المقنَّن للأشياء المحظورة والمفقودة.

أشياء تمرّ بدون أن تحدُث

الحالمون بالممكن، والمنطقيّ القريب يثيرون شفقتي أكثر من الحالمين بالبعيد والغريب. الحالمون بالكبير، هم إمّا مجانين يؤمنون بما يحملون محقّقين بذلك سعادتهم الخّاصة، وإمّا هذيانيّون بسطاء ممّن يمثّل الهذيان بالنّسبة إليهم موسيقى روحيّة تهدهدهم بدون أن تقول لهم شيئاً، لكن مَن يحلم بالممكن لديه دوماً الإمكانيّة الواقعيّة لخيبة الأمل الحقيقيّة. لا يمكن أن يؤثّر فيّ كثيراً لو تخلّيتُ عن أن أكون إمبراطوراً رومانيّاً، لكن يمكن أن يؤلمني عدم قدرتي على محادثة الخيّاطة التي تجتاز، حوالي السّاعة التّاسعة صباحاً، الزّاوية اليمنى من الشّارع. الحلم الذي يعدنا بالمستحيل يحرمنا منه بمجرّد الاستسلام للحلم، لكن الحلم الذي يعدنا بالممكن يندرج في الحياة الفعليّة ويُفَوِّضُ لها إمكانيّة تحقّقه، الأول يحيا منفصلاً ومستقلّاً؛ الثّاني خاضعاً لاحتمالات الحدث.

لذلك أحبّ المشاهد الطّبيعيّة المستحيلة والفيافي الشّاسعة التي لن أطأها أبداً. إنَّ للحقب التّاريخيّة الماضية روعة خالصة، لذلك، لا يمكنني بالطبع التفكير في إمكانيّة العيش فيها. لا أنام إلّا عندما أحلم بما لا وجود له، وأستيقظ عندما أحلم بما يمكن أن يوجد فقط.

أطلّ، من إحدى نوافذ المكتب الخالي في منتصف النّهار، على الشّارع الذي يُحِسُّ فيه شرودي بحركات الناس في العيون، بدون أن يراهم، من خلال المسافة الفاصلة لتأملاتي. أنام على المرفقين،

حيث يؤلمني الدّرابزين. . . تفاصيل الشّارع الخامل حيث يسير الكثيرون، تفصلني بعيداً، ذهنيّاً: الصناديق المكدّسة في العربة، الأكياس الموضوعة عند باب المخزن، وفي الواجهة الزّجاجيّة البعيدة للمتجر الكائن في الزاوية. بمعروضات ما وراء البحار، ألمح قنينات خمر أوبرتو التي أتخيّل ألّا أحد يستطيع شراءها. ينفصل عني جوهر الصف الآخر من المادة. أتفحّص وأنقّب بالتخيل وحده. الناس الذين يمرّون عبر الشّارع هم دائماً الناس أَنْفسُهم الذين مرّوا منذ قليل، إنه المظهر المتقلّب لأحدٍ ما، بُقَعٌ بلا حركة، أصواتٌ مرتابة، أشياء تمرّ بدون أن تكون قد حدثت بالفعل.

التفسير بواسطة الواعي الحواسيّ، قبل الحواس ذاتها. . . إمكانية أشياء أخرى. . . و، بغتة، يرنّ، من ورائي، في المكتب، نداء الصبي المُستخدم كما لو من هاويةٍ ميتافيزيقيّة. أشعرُ بأنني قادرٌ على قتله لأنه قطع عليّ حبل ما لم أكن أفكر فيه. أنظر إليه، بصمتٍ مفعم بالكراهية، أنصت مسبقاً، بنيّة قتلٍ دفينة، إلى الصوت الذي سَيَهُمُّ بأن يقول لي شيئاً. يبتسم من داخل البيت ويقدّم لي تحيّة المساء بصوتٍ عالٍ. أكرهه مثلما أكره الكون. عيناي مثقلتان بالنّعاس.

حنانٌ بارد

إنني أمتلك على الأقل، ما دمت مفتقراً إلى أيّ مزيةٍ أخرى، الجدّة الدّائمة للإحساس الحرّ.

أثناء انحداري اليوم من شارع ألمادا[1]، وجدتني أحدّق فجأة

(1) Almada: أحد شوارع لشبونة.

في ظهر الرّجل الذي كان ينزل قدّامي، كان ظهراً غوغائيّاً لرجلٍ نكرة، بسترة بدلةٍ بسيطة على كاهل عابر سبيلٍ عرضيّ. كان يحمل حافظة عتيقة تحت ذراعه الأيسر، ويطأ الأرض، بإيقاع السائر مشياً، مستعملاً مطريّة مقفلة، بواسطة قبضة يده اليمنى.

أحسست فجأة بما يشبه الحنوّ تجاه ذلك الرّجل. أحسستُ نحوه بالحنوّ الذي يُستشعرُ نحو عموم العوام، نحو الدور اليومي المبتذل لعائل أسرةٍ في طريقه إلى عمله، والحنوّ تجاه مسكنه المتّضع والسعيد، تجاه المُتع المفرحة والمحزنة التي تتشكّل منها حتميّاً حياته، تجاه سذاجة العيش بدون تأمّلٍ ولا تحليلٍ للمعيش، تجاه الطبيعة الحيوانيّة لذلك الظهر الكاسي.

حوّلت عيني صوب ظهر الرّجل، النّافذة التي من خلالها تراءت لي هذه التداعيات الذهنيّة.

كان الانطباع مطابقاً تماماً لذلك الذي يهجم علينا عندما نكون إزاء شخصٍ نائم. كلّ ما ينام يغدو طفلاً من جديد. ففي الحلم تنتفي، ربّما، القدرة على اقتراف الشّر وينتفي الإحساس بالحياة اليوميّة، فالمجرم الأكبر، والأنانيّ الأكثر دهاء ودناءة، يغدو مقدّساً بفعل سحرٍ طبيعي، أثناء استغراقه في النوم. كله هو، هذا الذي يمشي أمامي بخطواتٍ مماثلةٍ لخطواتي، ينام. لاواعياً يمضي. لاواعياً يعيش. ينام، لأننا جميعاً ننام. الحياة كلّها عبارةٌ عن منام. لا أحد يعرف ما يفعل، لا أحد يعرف ما يريد، لا أحد يعرف ما يعرف. نحن ننام الحياة، نحن أطفال القدر الخالدون. لذلك أحسّ، إذ أفكّر من خلال هذا الإحساس، بحنوٍّ هائلٍ وهلامي نحو الإنسانيّة الطفلية، نحو كلّ حياةٍ مجتمعية في حالة نوم، نحو الجميع، نحو الكلّ.

إنها إنسانونيّة مباشرة، هذه التي تهجم على إحساسي اليوم، لا نتائج تتغيا وليس لها غايات. إنني أعاني من حنانٍ عارم كما لو أنني إله يرى خلقه من علٍ. أرى الجميع من خلال شفقة واعٍ متوحّد، أرى شياطين الإنسان المساكين، شيطان الإنسانية المسكين. ما الذي يفعله هنا هذا كلّه؟

إنني أعتبر كل حركات الحياة ومقاصدها من الحياة البسيطة للرئتين إلى تشييد المدن ورسم حدود الإمبراطوريّات، عبارةٌ عن إغفاءة، أشياء كالمنامات أو الاستراحات، تحدث بلا قصديّة ما بين واقعٍ وآخر. بين يومٍ وآخر من أيّام المطلق، ومثل من ابتلي بأمومةٍ مجرّدة، أنحني في الليل على الأطفال الشريرين كما على الأطفال الطيبين، يجمعهم النوم الذي هم فيه أطفالي. وأتسلى بطول شيءٍ لا نهاية له.

أحوّل نظري عن ظهر الرجل الذي يتقدَّمني، ويتجاوزني لكلّ مَن يسير عبر هذا الشارع، أحيط الجميع بالحنوّ اللامعقول والبارد نفسه الذي وصلني من كتفيّ الرجل الفاقد الحسّ الذي أتبعه. كل هذا الذي أراه يشبهه تمام الشبه؛ جميع هؤلاء الفتيات المتبادلات الحديث في طريقهن إلى المعمل، هؤلاء المستخدمون الشبان المتضاحكون في الطريق إلى المكتب، هؤلاء الخادمات الناهدات العائدات بالمشتريات الثقيلة، فتيان حافلات النقل الأولى هؤلاء: جميعاً هم من اللاشعور المنوَّع نفسه من خلال الوجوه التي تتمايز تمايز دمى محرَّكة بالحبال التي ستوضع بين أصابع الشخص اللامرئي نفسها. إنهم يمرون بجميع الأوضاع التي يتعين بها الوعي، ولا يملكون الوعي بأيّ شيء. لافتقارهم إلى الوعي بضرورة امتلاك الوعي. بعضهم أذكياء، بعضٌ آخرون أغبياء وهم جميعاً أغبياء

بدرجةٍ متساوية. بعض شيوخ، بعض شباب وهم من سنٍّ واحدة. بعض رجال، آخرون نساء، وينتمون إلى الجنس نفسه الذي ليس له وجود.

(يوميّاتٌ اعتباطيّة)

كلّ يوم تعاملني المادّة سيئاً. حساسيّتي شعلةٌ أمام الريح.

أمرّ بأحد الشوارع وأنا أرى على وجوه العابرين، لا التعبير الذي لديهم في واقع الأمر، وإنما التعبير الذي ينبغي أن يكون لديهم معي لو كانوا على معرفةٍ بحياتي الخاصة، وكيف هي حقيقة كينونتي، لو تجلّى في إشارتي وقسماتي شذوذ روحي المضحك والحَيِي. في العيون اللامبصرة، أرتاب في سخرياتٍ أجدها طبيعيّة. موجهة ضدّ الاستثناء الرث الذي أمثّله بين أكداسٍ من الناس الذين يعملون ويستمتعون؛ وفي العمق المفترض للأوجه العابرة، هناك قهقهةُ التومئة الحية لحياتي، ببعضٍ من وعيي المضاف والموسط. عبثاً وبعد التفكير في هذا كله، أحاول إقناع نفسي بأنّ فكرة الهزء المخزية الماكرة إنما انطلقت مني، ومني فقط تولَّدت، ليس بمقدوري تمييز صورتي مرئيّاً كموضوعٍ للسخرية، طالما أكون خارج ذاتي مدمجاً في الآخرين. أحسّني، فجأة، مختنقاً مرتاباً داخل مدفأةٍ عامرةٍ بالتهكّمات والعداوات. جميعهم يشيرون إليّ بالأصابع من عمق أرواحهم. كلّ الذين يمرون بجانبي يرجمونني بسخرياتٍ مبتهجةٍ محتقرة. أمشي وسط أشباحٍ معادين لي نسَجتهم مخيلتي المريضة وحوَّلتهم إلى أشخاصٍ واقعيين. كلّ ما هو حولي يصفعني ويسخر منّي. وأحياناً، في وسط الشارع - غير مراقب، في النهاية - أتوقّف، مرتاباً، أبحث هكذا عن بُعدٍ فجائيٍّ جديد، عن منفذٍ إلى

دواخل الكون، حيث يمكنني الفرار بدون إبطاء من وعيي بالباقين. من حدسي المفرط في موضوعيته تجاه واقع الأرواح الحيّة للغير.

هل سيكون من شأن عادة وضعي لذاتي داخل روح الغير أن تقودني إلى أن أرى نفسي كما يرى بقيّة الناس أنفسهم، أم أنهم سيرونني حالما يحدّقون فيّ مليّاً؟ أجل. وما إن أتنبّه مرة واحدة إلى ما يحسونه نحوي من احترام لو تعرّفوا عليّ، حتى يغدو ما أتخيّله كأنما هو إحساسهم بالفعل، كما لو كانوا يحسّونه حقيقة معبّرين عنه في تلك اللحظة. التعايش مع الآخرين تعذيبٌ بالنسبة إليّ. والآخرون مقيمون دائماً بداخلي. حتى وإنْ كنت بعيداً عنهم فأنا مجبرٌ على معايشتهم... لا أملك ملاذاً أفرّ إليه، مع عدم قدرتي على الفرار من ذاتي.

يا للجبال الشامخة إزاء الغروب. يا للشوارع التي تكاد تبدو ضيقة تحت ضوء القمر، ليكن لاوعيكم بـ (...) روحيّتكم الماديّة وحدها، بلا معيار، بلا حساسية، بدون مستقرٌ للعواطف والأفكار، وبلا قلق روحي! ثمّة أشجار، أشجارٌ وحسب مبهجةٌ جدّاً للعيون، خارجيّةٌ جدّاً بالنسبة إلى همومي وأحزاني، معزية لقلقي المتفاقم لأنكم لا تملكون أعيُناً ترونها بها، ولا روحاً إن كانت قابلة لكي ترى بتلك الأعين، بالإمكان ألّا تفهموها وأن تسخروا منها! يا أحجار الطّريق، يا جذوعاً مقطوعة، يا أرضاً مجهولة بتراب الجهات كلّها، توأم ذاتي أنت لأنّ لاحساسيتك اتجاه روحي هي مداعبةٌ وراحة (...) إزاء الشمس أو تحت قمر الأرض، أمي، البالغة الحنوّ. أنت، لأنك لا تستطيعين حتى توجيه النقد إليّ، كما تستطيع ذلك أمي الإنسانيّة، لأنك لا تملكين روحاً لتحلليني، ولا نظرات سريعة تستدعي ما بداخلي من أفكار ولا أنت في ذاتك تقرين بها.

أيها البحر الهائل، يا رفيق الطّفولة الهادر، فَلْتُرحني ولتُهدهدني، لأنّ صوتك ليس إنسانيّاً وليس بمستطاعه ذات يوم أن يحدّد بصوتٍ خفيض أمام أسماع بشريّة ضعفي ونواقصي. أيتها السماء الشاسعة، السماء الزرقاء، السماء القريبة من أسرار الملائكة أنت لا تنظرين إليّ بعيونٍ زرقاء، أنت إذْ تضعين الشمس على الصدر، لا تفعلين ذلك لكي تجذبينني، ولا إذ (. . .) بالنجوم فلكي تحتقريني. . يا سلامَ الطبيعة الممتدّ، والأموميّ لجهله بوجودي؛ أيتها السكينة المنعزلة (النائية)، الأخويّة في عدم قدرتها على معرفة أي شيءٍ عني. . . أنا أريد أن أصلّي لوحدتكنّ وهدوئكن، كتعبيرٍ عن الامتنان الذي تجلبه إلينا القدرة على الحب بدون شبُهات ولا شكوك؛ أريد أن أعير السمع لعدم قدرتكن على استخدام السّمع، (. . .) أمنح عينيّ لسموّ (. . .) وأن أكون موضوعاً لاهتماماتكنّ لأجل تلك الأبصار والأسماع المُفترضة، وعزائي هو أنني أوجد إزاء اللاشيء الذي تُجسِّدْنَ، صاحياً كما لو من ميتةٍ نهائيّة، بدون أملٍ في أيّ حياةٍ أخرى، بعيداً، أبعدَ من الله ومن إمكانيّة الشّيخوخة ومن الصّبغة الروحيّة لكل الماديّات.

قُمامةُ الغير

ثمّة أيام يأخذ فيها كلّ من ألتقي بهم من أشخاص، لا سيما أولئك الذين أعايشهم مُجبَراً، مُعايشة يوميّة، ملامح من رموز، ويشكّلون، منفردين أو مجتمعين، شكل كتابةٍ تنبئية أو سريّة، موصوفة بظلال حياتي الخاصّة. يتحوّل المكتب إلى صفحة بكلماتٍ من كائناتٍ بشريّة؛ الشارع يغدو كتاباً؛ الكلمات تُستبدل بالعادات المألوفة، وغير المألوف يتحوّل عندي إلى طرائق قولٍ لا وجود لها

في القاموس وليست كلها ممّا يمكن فهمه. كائنات، رموزٌ تتكلم، تعبّر، لا عن ذواتها هي تتحدث، ولا إلى ذواتها يتّجهُ تعبيرها؛ إنها كلمات، قلت ذلك، لا تعبِّر أو تعرض وإنما تشف. لكن، من خلال رؤيتي الغسقيّة، أميِّز على نحوٍ مبهم فقط، ما يُسمحُ به من داخل ما تحجبه وما تُظهره تلك الواجهات الزجاجيّة المباغتة، المكشوفة على سطح الأشياء. أُدرك ما أدرك بلا معرفة، مثل أعمى يحدّثونه بالألوان.

أثناء مروري بالشارع أحياناً أستمع إلى مقاطع من محادثاتٍ حميميَّة، كلها تقريباً صادرةٌ عن تلك المرأة، عن ذلك الرّجل، ذلك الصبيّ.. عشيق تلك..

بسبب سماعي لظلال ذلك الحديث الإنسانيّ الذي هو الشّغل الشّاغل، في نهاية المطاف، لغالبيّة الحيوات الواعية، ينتابني ضجرٌ مقرف، قلقُ المنفيّ وسط العناكب ووعيي المُباغت بتقوقعي وسط بشرٍ واقعيين؛ وضعي الرّاهن كجار، أمام السّلطة والمكان، للمُستأجرين الآخرين مع الجمع الغفير النّاظر، باشمئزاز، من وسط الحواجز الشبّاكيّة الخلفيّة لمعمل الطّابق المسروق، إلى قمامة الغير التي تتراكم بفعل المطر في الدّهليز الذي هو حياتي.

انفراج

ثلاثة أيّامٍ متواصلةٍ من الحرّ، بعاصفةٍ كامنةٍ في الهدوء المزعج لكلّ شيء، حملت معها، لأنَّ العاصفة كانت قد انزلقت صوب مكانٍ آخر، هواء خفيفاً فاتراً إلى السّطح اللامع للأشياء. هكذا أحياناً تحسّ الروح التي عانت من ثقل الحياة، فجأة بنوعٍ من الانفراج. بدون أن يكون قد حدث لها أي شيء يبرِّر هذا الانفراج.

أشعرُ أننا بمثابة أجواءٍ فوق أولئك المُنجذبين إلى تهديدات العاصفة، الواقعة في مكانٍ آخر.

الشسوع الفارغ للأشياء، النّسيان الأكبر الكائن في السّماء وفي الأرض.

«مُحاولةُ عيش»

منذُ أن انتقلت الأمطار الأخيرة نحو الجنوب، وبقيت، وحدها الريح، التي كنستها، عادت إلى تجمّعات المدينة بهجة الشّمس الأكيدة وظهرت ثيابٌ بيضاء كثيرة معلّقة على الحبال الممدودة بواسطة القضبان في النّوافذ العالية للمنازل المُتعدِّدة الألوان.

بدوري أصبحتُ فرحاً، لأنني موجود. لقد خرجتُ من البيت تحدوني غايةٌ كبرى، هي في النّهاية، الوصول إلى المكتب في الوقت المُحدّد، لكن في هذا اليوم، يبدو أنَّ القسر المحض للحياة قد انصاع لذلك القسر الآخر المحبَّب الذي جعل الشمس تأتي في ساعات التقويم مُتطابقة مع عرض وطول الأمكنة الأرضيّة. لقد أحسستُني سعيداً لأنه لم يكن بمستطاعي أن أحسّني تَعِساً. نزلت الشارع مرتاحاً، مفعماً باليقين، لأنَّ المكتب المعروف، في آخر المطاف، والناس المعروفين الموجودين بالمكتب، كانوا من اليقينيّات. ما كان ليُدهشني إحساسي بأنني حرّ، بدون أن أعرف لماذا. في السّلال الموضوعة على جوانب أرصفة شارع La Plata[1] كانت أعذاق الموز المعروضة للبيع، تحت الشّمس، فاقعة الصّفرة.

أنا فرِح، فوق كل شيء، بالقليل: بتوقّف المطر، بوجود شمسٍ

---

(1) شارع متفرّع عن شارعٍ كبير تكررت الإشارة إليه هو Dos Douradores.

طيّبة في هذا الجنوب السّعيد، بالموز المتجاوز حدّ الاصفرار بما يعروه من بقعٍ سوداء، بالنّاس الذين يبيعونه لأنهم يتبادلون الحديث، بأرصفة شارع La Plata، بنهر التاج في العمق، أزرق مخضرّاً ضارباً إلى الذهب، وبكلّ هذا الرّكن الأليف من نظام الكون.

سوف يأتي اليوم الذي لن يكون بمقدوري أن أرى فيه هذه الأشياء، اليوم الذي ستستمرّ فيه حية أعذاق الموز بجانب الرّصيف، وأصوات البائعات الفطنات، والصّحف اليوميّة التي نشرها الصّبيّ الصغير في زاوية الرصيف الآخر من الشارع. حسناً أعلم أنَّ الموز سيكون موزاً آخر وكذلك البائعات، وأنَّ الصّحف سيكون لها، بالنسبة إلى مَن سينحني لرؤيتها، تاريخٌ آخر ليس هو اليوم، لكنهم، لكونهم لا يحيون، يستمرّون وإن كانوا آخرين؛ أمّا أنا، الذي أعيش، فعابرٌ ولو كنت نفسي.

هذه اللحظة يمكن الاحتفال بها بشراء الموز، إذ يبدو لي أنه في هذا الموز قد تركّزت كلّ شمس هذا اليوم مثل فانوسٍ بلا بطّاريّة. لكنني أخجل من الطّقوس، من الرّموز، من شراء أشياء في الشّارع. بإمكانهم ألّا يلففوا الموز جيّداً، ألّا يبيعونيه كما يجب أن يُباع لعدم معرفتي بشرائه كما يجب أن يُشترى، يمكنهم أن يستغربوا صوتي عند سؤالي عن الثّمن. أنْ أكتب خيرٌ لي من أن أجازف بأن أعيش، حتى ولو كانت محاولة العيش مجرّد شراء موزاتٍ تحت الشّمس، طالما ثمّة شمسٌ وموزٌ معروضٌ للبيع.

فيما بعد، ربما... أجل، فيما بعد... آخر.. يومٌ آخر، ربما.. لا أدري...

بانتظار السّاعة

عندما أنام على أحلامٍ كثيرة، أخرج إلى الشارع، بالعينين المفتوحتين نفسيهما وبملمح ويقينيّة ما نمت من أحلام أيضاً.

وأندهش من تلقائيتي التي لا يتعرف عليّ من خلالها الآخرون. لأنني أعبر الحياة اليومية بدون أن أطلق يدي من المرضعة النجميّة، ولأنَّ خطواتي عبر الشارع تمضي بتوافقٍ وتناغم مع المقاصد الغامضة للأحلام. وعبر الشارع أمضي واثقاً، لا أتذبذب؛ أجيد الإجابة؟ معلناً عن وجودي، لكن عند حدوث مُشوِّشٍ ما، وعندما لا أكون مجبَراً على مراقبة سيرورة خطواتي، لتفادي السيارات وعدم مضايقة المارّة، عندما لا أكون مُرغماً على محادثة شخصٍ ما، ولا مهتمّاً بمدخل بابٍ قريب، حينئذٍ يحلو لي المضيّ عبر مياه الحلم، مثل زُويْرقٍ من ورق، ومن جديد أعود إلى الوهم الشّاحب الذي يُهدهدني به وعيي المُبهم بالصباح الطالع من ضوضاء عربات الخضر.

وحينئذٍ، وفي غمرة الحياة الممتلئة، يكتسبُ الحلم الوظائف الكبرى للسينما. أنحدر عبر شارعٍ مُتَخَيَّلٍ من شوارع Baixa[1]، بينما واقع الحيوات العديمة الوجود يشدّني، بِحُبّ، إلى شارعٍ أبيض من تذكراتٍ زائفة، إنني ملّاحٌ مُبحرٌ في مجاهيل ذاتي. لقد غلبتُ الكلّ حينما لم أكن قط في أيِّ مكان. وإنها لنسمةٌ جديدة هذه التهويمة التي بها يمكنني السير، مائلاً نحو الأمام في مسيرةٍ مُستحيلةٍ تقريباً.

لكلّ واحدٍ كحولهُ الخاصّ، لديّ ما يكفي من الكُحول مضافاً إلى وجودي. ثملٌ من إحساسي بذاتي، متسكّعٌ وأمضي واثقاً مع ذلك من خطواتي، إذا حلّت السّاعة، خلوتُ إلى نفسي في المكتب

---

(1) أحد أحياء لشبونة.

مثل أيّ مثيلٍ آخر. إذا لم تكن الساعة قد أزفت بعد، أمضي حتى النهر لأحدّق في النّهر مثل أيّ شخصٍ آخر. ووراء هذا لي سمائي الخاصّة، أرصّعها خفية بالنّجوم ولي كوني اللّامتناهي.

1930-7-20

مُلوك الواقع، ملوك الحلم

ما يُدهشني أكثر من غيره ليس هو البلادة التي يحيا بها أغلب النّاس حياتهم: وإنما الذكاء الموجود في تلك البلادة.

إنّ رتابة الحيوات العاميّة تبدو، مرعبة، في الظّاهر. في هذا المطعم الشّعبيّ أتناول غذائي، وأنظر، فيما وراء الحاجز الخشبيّ، إلى هيأة الطباخ؛ وهنا، بجانبي، واقفاً يوجد النادل الكهل الذي يخدمني، كما كان يفعل منذ ثلاثين عاماً في هذا المطعم، تُرى إلى أيّ نوعٍ من الحياة تنتمي حياة هذين الرجلين؟ منذ أربعين عاماً ظلّ ذلك الرّجل يعيش حياته كلّ يومٍ تقريباً داخل مطبخ؛ العُطَل المُتاحة له قصيرة؛ ينام نسبيّاً ساعاتٍ قليلة؛ يذهبُ من حينٍ إلى آخر إلى بلدته، التي يعود منها بلا تردّدٍ ولا حسرة؛ يدّخر ببطء مالاً لا ينبغي إنفاقه؛ سوف يغدو مريضاً إذا ما أجبر على ترك مطبخه (بصفةٍ نهائيّة) قصد التوجّه إلى الحقول التي اشتراها في غاليسيا[1]، إنه مقيمٌ في لشبونة منذ أربعين عاماً. ولم يسبق له قط الذهاب، حتى إلى روتوندا[2]. ولا إلى مسرح، ولديه يومٌ واحدٌ فقط مخصصٌ لسيركه

(1) لعلّ المؤلّف يُشير إلى منطقة Mino البرتغاليّة.

(2) Rotonda: هو الاسم الشّعبي لساحة المركيز De Pombal وهي قريبةٌ جدّاً من المطعم المعنيّ بالحديث وإذن فالمبالغة هنا من المؤلف ذات قصدٍ تهكّميٍّ واضح.

الخاصّ: مهرّجون في الظّلال الباطنيّة لحياته. لقد تزوّج لا أدري كيف ولا لماذا، لديه أربعة أبناءٍ وبنتٌ واحدة، أمّا ابتسامته، عند انحناءته، من الجانب الآخر للعارض الخشبيّ نحو الجانب الذي يوجد فيه، فهي تنمّ عن سعادةٍ عظيمة، بهيجة، رائعة. وهو لا يتظاهر، ولا مبرِّر لديه لكي يتظاهر، فإذا كان يحسّ بهذه السّعادة فلأنّه يمتلكها بالفعل.

وماذا عن النادل الكهل الذي يخدمني، والذي وَضَعَ أمامي كأس قهوة لعلّه الكأس المليون منذ امتَهَنَ وضع كؤوس القهوة على الطاولات؟ إنه يحيا حياة الطّباخ نفسها، مع فارقٍ بالكاد يصل إلى أربعة أو خمسة أمتار: هي المسافة الفاصلة بين المطبخ الذي يوجد فيه أحدهما عن القسم الخارجي من المطعم الذي يشتغل فيه الثاني. هذا الكهل لديه ولدان فقط، لكنه يذهب مرّات أكثر لزيارة غاليسيا. كما أنه يعرف لشبونة أكثر من زميله، ويعرف أوبرتو حيث كان هناك منذ أربع سنوات. أما من حيث السعادة فما من فارقٍ بينه وبين الأوّل.

أتفحّص، باستغراب بانوراما هاتين الحياتين، فأكتشف، حالما أكون موشكاً على الإحساس بالرّعب، والحزن، والحنق اتجاههما، أنهما بالذات من ينبغي أن يحسّ بهذا الإحساس، هما بالذات اللذان يعيشان تلك الحياة. إنه الخطأ المركزيّ الجسيم للتّخيّل الأدبيّ: افتراض أنَّ الآخرين هم نحن وأنَّ عليهم أن يحسّوا إحساسنا، لكن لحُسن حظّ الإنسانيّة، كلُّ إنسانٍ هو مَن هو فقط، إلّا في حالات تعدّدٍ محسوبة تحديداً على العبقريّة.

الكلّ، في النّهاية، يتحدّد بالعلاقة مع ما يتحدّد به. حادثٌ عرضيّ صغير في الشارع، يجذب إلى الباب طبّاخ هذه الدار، يهبه من التسلية أكثر ممّا يمنحني تأمّل أكثر الأفكار أصالة، وأكثر ممّا تمنحني

قراءة أفضل الكتب وأكثر الأحلام اللامُجدية غرابة. وإذا كانت الحياة رتيبة بصفةٍ جوهرية، فذلك لأنه هو (الطباخ) قد تحرَّر من الرتابة بسهولةٍ أكبر مني. الصواب ليس معه ولا معي. لأنّ الصواب ليس بجانب أيٍّ كان. غير أنَّ السهولة موجودةٌ حقّاً بجانبه هو.

الحكيم هو مَن يُضفي الرتابة على الوجود، بحيث يكتسب، حينئذٍ، كلّ حادثٍ مَهما صغُر شأنه ميزة الأعجوبة. بعد الأسد الثالث تفقد مغامرة صيّد الأسود كلّ إثارتها. بالنسبة إلى طباخي الرتيب الحياة يظلّ مشهد مصافحاتٍ في الشارع ممتلكاً، على الدوام، شيئاً من جاذبيةٍ قياميّةٍ مُتواضعة. مَن لم يغادر لشبونة قط يحسّ أنه مسافرٌ صوب اللّانهائي في الترام عندما يمضي إلى بمفيكة[1]، وإذا ما أتيح له الذهاب إلى سينترا[2]، يحسّ أنه ذهب إلى المرّيخ. المسافر الذي قطع الأرض كلّها فيما يتجاوز الخمسة آلاف ميل، لا يصادف الجديد، لأنه يصادف أشياء جديدة فقط؛ الجديد مرة أخرى، شيخوخة الجديد الدائم، لكن المفهوم المجرّد للجديد يظلّ كامناً في البحر على الدوام.

بإمكان أيّ شخص، إذا كان ممتلكاً للحكمة الحقيقيّة، أنْ يستمتع بالمشهد الكامل للعالم، من خلال كرسيّ، بدون معرفةٍ بالقراءة، بدون حاجة إلى الحديث مع أيّ كان، فقط بواسطة الاستخدام السليم للحواس وبروحٍ لا تعرف كيف تكون حزينة.

إضفاء الرّتابة على الوجود، لكي لا يكون رتيباً. تَتْفيهُ اليوميّ،

---

(1) Bimfica : كان وقتها حيّاً نصف مأهول على أطراف لشبونة، قبل أن يندمج فيما بعد في الفضاء العمراني للمدينة.

(2) مدينة أثريّة قريبة من لشبونة.

كيما يغدو أقلّ الأشياء أهميّة مجلبة لأكبر التّسليات. وسط عملي اليوميّ، الشاحب، الرّتيب واللامُجدي. تُباغتني رؤى هروبيّة. آثارٌ حلميّة لجزرٍ قصية، احتفالاتٌ في حدائق حقبٍ أخرى، مشاهد طبيعيّة أخرى، أحاسيس أخرى، أنا آخر. غير أنني اكتشفتُ، بين مقعدين، أنْ لو كان ذلك كله لي، لن يكون أيّ شيء منه من نصيبي. المدير فاسكيز أنفع لي، في الواقع، من ملوك الحلم، شارع Dos Douradores، يساوي أكثر بكثير ممّا تساويه كبريات الساحات في حدائق المُستحيل. بامتلاكي شخص المدير فاسكيز، أستطيع التّمتّع بحلم مُلوك الأحلام؛ بوجودي في مكتب شارع Dos Douradores أستطيع الاستمتاع بالمشاهد الباطنيّة للمناظر الطّبيعيّة التي ليس لها وُجود، لكن لو امتلكت (بالفعل) ملوك الحلم. ماذا سيتبقّى لي من أحلام؟ لو امتلكت المناظر الطبيعية المستحيلة، ماذا سيتبقّى لي من مستحيل؟

الرّتابة، تماثل الأيام الخالية من أيّ بريق، انعدام الفارق بين اليوم والأمس - هو ما يبقى لي على الدوام، مع الروح المتيقظة لأجل الاستمتاع بالذّبابة التي تسلّيني، عندما تمرُقُ مُصادفة أمام عيني، بالقهقهة القادمة متقلّبة من شارعٍ غير مُحدّد، بإحساس التّحرّر الفسيح لكون الساعة ساعة إقفال المكتب، بالاستراحة اللانهائية ليوم عيد.

بإمكاني أن أتخيّل الكلّ، كل شيء، لأنني لا شيء، لو كنت شيئاً لما كان بإمكاني أنْ أتخيّل. مساعد محاسب بإمكانه أن يحلم بنفسه إمبراطوراً رومانيّاً؛ ملك إنجلترا محرّمٌ عليه أن يكون، في الأحلام، ملكاً آخرَ مُختلفاً عن الملك الذي هو إيّاه. الواقع لا يترك له مجالاً للإحساس.

لحظات

هذا الهواء تحت غيومٍ ثابتة. زرقة السماء معكّرةٌ ببياضٍ شفاف.
في عمق المكتب يعلق الصبيّ المستخدم، الحبل المحيط «بالشبح» الخالد.

«ماذا [. . .] يفعل» يقول معلّقاً.

سكون بارد. ضوضاء الشّارع تبدو كما لم كانت مقطّعة بالسكين. ثمّة إحساسٌ يسود ممدّداً، كما لو بانزعاجٍ من كلّ شيء، بتعطيل كوني للتنفّس. لقد تعطّل الكون بكامله. لحظات، لحظات، لحظات. . الغمامة تفحّمت من هيمنة السُّكون.

بغتة، فحمٌ حي (. . .)

لَكَم هو إنسانيّ جرس الترامويات المعدني!

كم هو بهيجٌ المشهد الطبيعيّ للمطر في الشارع المبعوث من الهاوية!

أوه لشبونة، يا منزلي!

رؤيا

ها أنا فريسةٌ لقلقٍ غامض. فجأة، كفّ السّكون عن التنفّس.

فجأة، نهارٌ لانهائيّ، من فولاذ، تشظّى، تأهّبتُ مثل حيوان، في مواجهة المائدة، باليدين المخلّبين اللامجديين فوق اللّوحة الملساء. ثمّة ضوءٌ بلا روح نفذ إلى الزوايا وإلى الأرواح، وصوت جبلٍ قريب هوى من الأعالي، ممزقاً بصيحة حجاب الهاوية الصّلب. توقّف قلبي. خففت حنجرتي. لم يبصر وعيي سوى لطخة حبر على ورق جاف.

ضوضاء

هو أولاً صوتٌ مكوّنٌ من صوتٍ آخر، في التجويف الليلي للأشياء. وهو ثانياً عواءٌ مبهم، مصحوبٌ بالاهتزاز المخدوش للافتات الشّارع. ثم هناك من بعد، علوّ مباغت، لا يزال في الصوت المغسول للفضاء، والكلّ يرتعش بلا تذبذب وثمّة سكونٌ كامنٌ في رعب هذا كلّه مع خوفٍ أصمّ فقط [. . .] عندما مضى.

ما من شيءٍ بَعْدُ سوى الريح. حالِماً، أنتبه إلى أنَّ الأبواب تهتزّ والنوافذ تُحدث صوتاً من زجاجٍ مقاوم.

لا أنام. أتناوم

لديّ بقايا ممّا لست أدري داخل الوعي. يثقل عليّ الحلم بدون أن يثقل اللاوعي. . . ما من أحدٍ أنا. الريح. . . أستيقظ وأعاود النّوم، لم أنَم بعد. ثمة مشهد ضوضاءٍ عالٍ أبعد ممّا أجهل. أستمتع، حذراً، بإمكانية النوم. أنام بالفعل، لكن لا أعرف إن كنت فعليّاً أنام. ثمّة دائماً فيما نعتقد أنه الضوضاء ضوضاء نهاية كلّ شيء، الريح في العتمة، وأواصل، الإصغاء إلى ضوضاء الرّئتين، ضوضاء القلب.

خطأٌ ما

الريح تستيقظ. . في البداية كانت مثل صوت فراغ. . . ثم هبوب الفضاء داخل ثقب، خطأٌ ما في سكون الهواء. بعد ذلك ارتفع النشيج، نشيجُ العالم، من الإحساس بارتعاش الواجهات الزجاجية وبكون الريح وحدها هي ما يوجد بالفعل. وفيما بعد دوّى

أعلى فأعلى، أصم هادراً، عزيف بلا [. . .] طقطقة أشياء، سقوط قطع، ذرة من نهاية العالم. بعد ذلك بدا أن. [. . .]

عابرٌ أقل

دخلتُ إلى صالون الحلاقة بالمتعة نفسها التي أجدها في ارتياد المنازل التي سبق لي ارتيادها من قبل. لديّ حساسيّة مقلقة تجاه ما هو جديد: لا أكون مرتاحاً إلّا حيث أَلفت أن أكون.

عندما استويت على المقعد. سألت الفتى الحلّاق الذي كان يضع على عنقي قماشاً بارداً ونظيفاً، عن حال رفيقه الكهل والذكي حلاق المقعد الأيمن، فقد كان مريضاً. سألته بدون أن يجبرني هو على طرح السؤال: المكان والتّذكر قاداني إلى ذلك. «مات أمس»، أجابني بدون تنغيم الصّوت، بينما أصابعه تنتهي من إدخال الثوب بين قذالي وياقة القميص. كل حماسي مات على الفور، تماماً مثلما غاب إلى الأبد حلّاق المقعد المُجاور. سَرَت البرودة في كلّ ما فكَّرت فيه. لم أقُل شيئاً.

الاشتياقات! لديّ منها الكثير حتى ممّا لا يمت إليّ بصِلةٍ بسبب قلق الهروب من الزمن وداء الحياة الملغَّزة. الوجوه التي اعتدتُ رؤيتها في شوارعي المعتادة، يعتريني الحزن حين لا أراها وهي ليست مني في شيء إن لم تكن رمزاً للحياة بكاملها.

العجوز ذو القماطين المتّسخين الذي كان يتقاطع معي باستمرار في التاسعة والنصف صباحاً؟ بائع اليانصيب الأعرج الذي كان يضايقني بلا فائدة؟ العجوز المدور بالسيجار عند باب دكان الطبكيرية؟[1] صاحب الطبكيرية الشاحب؟ ماذا فعل الله بهم جميعاً،

---

(1) طبكيرية: دكان التبغ الذي يبيع بضائع ومواد أخرى.

هم الذين أصبحوا جزءاً من حياتي لأنني اعتدتُ رؤيتهم مراراً؟ غداً سأختفي أنا أيضاً من شارع La Plata من شارع Dos Douradores، ومن شارع Los Lenceros غداً أنا أيضاً - الروح التي تحسّ وتفكر، الكون الذي أنا إياه بالنسبة إلي - أجل، غداً أنا أيضاً سأصبح ذلك الذي كفّ إلى الأبد عن المرور بهذه الشوارع، والذي سيستحضره الآخرون من خلال «ماذا سيكون منه؟» وكل ما أفعل، كل ما أحس، كل ما أعيش، لن يكون سوى عابرٍ أقل اختفى من الحياة اليومية لشوارع مدينةٍ ما.

عادات

كلّ تغيير في الساعات والمواقيت المعتادة يجلب للروح جدة باردة، متعةٌ محزنة بعض الشيء. مَن اعتاد الخروج من المكتب في السادسة ثم وجد نفسه مصادفة في الشارع في الساعة الخامسة، عليه، من ثم أن يمر بفترةٍ من عطالةٍ ذهنيّة وكذا بما يشبه الحزن من عدم المعرفة بما يفعل بنفسه.

بالأمس، خرجتُ من المكتب في الرابعة، لأنه كان عليّ أن أُصفي بعض الشؤون وفي الخامسة كانت مهمتي البعيدة قد انتهت. لم أعتد أن أكون في الشارع في تلك الساعة. ولذلك وجدتُ نفسي في مدينة مغايرة. المسحة البطيئة للضوء في الواجهات المألوفة كانت من عذوبةٍ لا مجدية، وعابرو كلّ يوم، كانوا يمرون بجانبي في المدينة المجاورة، مثل ملّاحين أنزلوا من أسطول ليلة أمس.

كانت الساعة تدلّ على أنَّ المكتب لا يزال مفتوحاً. عدتُ إليه أمام الاندهاش العام للمستخدمين الذين كنت قد ودّعتهم. هل عدت؟ أجل عدت، كنت هناك متحرّراً من الإحساس، إلا بمَن كانوا

بصحبتي، بدون أن يكونوا، روحيّاً، موجودين هناك بالفعل بالنسبة إليّ. . . لقد كان ذلك بمعنى من المعاني المكان الذي لا يُحَسُّ فيه بشيء.

بيني وبين الليل

في أماسي الصيف المتأخرة، أحبّ هدوء الجزء الأسفل من المدينة، وخاصّة ذلك الهدوء الذي يبرزه الوجه المناقض للنهار الذي يغرق في صخبٍ عالٍ. شارع Arsenal، شارع Aduana، امتداد الشوارع الحزينة المنجذبة نحو الشرق بدءاً من حيث ينتهي شارع Aduana، الخط المنعزل للأرصفة الهادئة. هذا كله يمنحني العزاء على نحوٍ حزين، لو نظّمت، تلك الأماسي، في عقد عزلتها الجامحة.

أعيش حقبة سابقة لتلك التي أحيا فيها؛ أستمتع بإحساسي شريكاً لثيساريو فيردي. وأملك بداخلي، ليس أشعاراً مماثلة لأشعاره فقط، وإنما المادة نفسها التي تشكّلت منها الأشعار التي كانت أشعاره.

أسحب إلى هناك، إلى أن يحلّ الليل، حياة شبيهة بحياة تلك الشوارع، الممتلئة في النهار بضجيج لا يريد أن يقول شيئاً؛ والممتلئة في الليل بانعدام ضجيج لا يريد أن يقول أيّ شيء. أنا في النهار لا شيء. وفي الليل أكون أنا. لا يوجد فرقٌ بيني وبين شوارع تلك الجهة من Aduana. باستثناء كونهنّ شوارع وكوني روحاً، وهو ما لا يعني شيئاً إزاء ما يمثّله جوهر الأشياء. ثمّة قدرٌ مُشتركٌ واحد، مجرّدٌ بالنسبة إلى الإنسان وبالنسبة إلى الأشياء. إشارةٌ لامبالية ضمن علم جبر الألغاز.

لكن ثمة شيءٌ إضافيّ... في هذه الساعات البطيئة والخاوية، يصعد من الروح إلى الذهن حزن الكينونة كلها، مرارة أن يكون هذا الإحساس يخصّني وشيئاً خارجيّاً في الآن نفسه ليس تغييره في متناولي. آهٍ كم من مرات تفرض أحلامي ذاتها نفسها عليّ كما لو كانت أشياء، لا لتستبدلني بالواقع، ولكن لتجعلني كارهاً لمثيلاتها، لتبرز لي من الخارج مثل الترام الذي يقوم بلفّةٍ في منعطف طرف الشارع. أو مثل صوت المنادي (الدلّال) الليلي بما لست أدري من أشياء، والذي يثير الانتباه، بنغمته العربيّة، مثل فورانٍ مفاجئٍ لرتابة المساء[1].

يمرّ أزواجٌ مستقبليّون، تمرّ خياطاتٌ مبتدئات، اثنين، اثنتين، يمرّ شبّان على عجلةٍ من لذّتهم، في منتزه كل يوم متقاعدون من كل صنف يدخنون، بهذا الباب أو ذاك يحتمي العاطلون الكسالى الذين هم أصحاب الدكاكين. مجنّدون، يروبصون، بطيئين. أقوياء، واهنين، جماعات جماعات تارة بصخبٍ عال وتارة بأعلى من الصخب العالي. أناسٌ عاديون يظهرون من حينٍ إلى آخر. هناك، ليس من المعتاد مرور السيارات بكثرةٍ في مثل هذه الساعات [...] في قلبي سلامٌ من قلق، وسكينتي مصنوعةٌ من محض استسلام. كل هذا يمضي، ولا شيء من هذا كله يقول شيئاً، كل شيء لا يمت بصِلة إحساسي، [...] عندما المصادفة تقذف أحجاراً، أصداء أصواتٍ مجهولة - كشكول الحياة الجماعيّة.

تعب الأوهام كلّها وكل ما يوجد في الأوهام: فقدانها، لا

---

(1) تمّ نشر هذا الجزء إلى هذا الحد في: *Saluçao*, Editora no 2, 1929, p. 25 موقّعاً باسم فرناندو بيسوا.

جدوى امتلاكها. . . التعب القبلي الناجم عن ضرورة امتلاكها من أجل إضاعتها، مرارة الإحساس بأنها كانت ممتلكة ذات يوم، العار الذهني لكونها كانت بحوزتنا مع علمنا بمثل هذه النهاية التي ستؤول إليها.

الوعي بلا وعي الحياة هو الضريبة الأقدم للعقل. ثمة عُقولٌ لاواعية. . بوارق الروح، سلاسل الفهم، أصوات [. . .] وفلسفاتٌ لها الفهم نفسه الذي للسطوع الجسدي، وللإرادة التي تصنعها الكبد والكليتان من إفرازاتهما.

فترات الظل

لديَّ حُبساتٌ كبرى ليس بسبب أنني، مثل الجميع أصرف أياماً وأياماً في الجواب بواسطة بطاقةٍ بريدية على الرسالة المستعجلة التي كتبت إليّ. وليس لأنني، أؤخر ما هو سهل لأنه الأفيد لي، أو الأفيد لأنه يمنحني البهجة. ثمة قدرٌ كبير من الرهافة في انعدام فهمي لذاتي نفسها. أنحبس في الروح ذاتها. يتولّد فيّ تعليق للإرادة، للانفعال، للتفكير، وهذا التعليق يستمرّ أياماً عظيمة، وحدها الحياة النمائية للروح - الكلمة، الإشارة، العادة تعبّر عن أناي للآخرين، ومن خلالهم، لي.

أثناء فترات الظّل هذه، أكون عاجزاً عن التفكير، عن الإحساس، عن الرغبة. لا أعرف كتابة أكثر من الأرقام والخطوط. لا أحسّ، وموت مَن أحببتُ يمنحني الانطباع بحدوثه في لغةٍ أجنبيّة. لا أستطيع شيئاً. كما لو أنني نمت فيما حركاتي، كلماتي، أفعالي الملائمة لم تكن بأكثر من تنفّسٍ خارجيّ، مجرّد سليقةٍ إيقاعية لجسمٍ ما.

هكذا تمضي أيام وأيام؛ لا أدري كم عددها لو كنت عَدَدْتُها لما أمكنها أن تمضي هكذا. أحياناً يحدث لي، عندما أتعرّى من هذا الشلل. ألّا أعثر عليّ في التعرّي المفترض، إذ تبقى بعض الثياب اللامحسوسة مغطية الغياب الأبديَّ لروحي الحقيقية؛ إنَّ التفكير، الإحساس، الرغبة بإمكانها جميعاً أن تكون عبارة عن توقّفات، أمام تفكيرٍ آخر أكثر باطنية، أمام إحساسٍ أشد انتماء إليّ، أمام إرادةٍ مفقودة في جهةٍ ما من المتاهة التي هي أناي في الواقع.

كائناً ما أكون، أتخلّى عمّا أكون، أتخلى، للإله أو الآلهة الموجودين، عمّا انا إياه، راضياً بما يقسمه الحظ وما تصنعه المصادفة، وفيّاً لتعهدٍ منسيّ.

سريرٌ ناعم

أجد نفسي في يوم أنوء فيه، كالدخول إلى السجن، بثقل رتابة كلّ شيء. ورتابة كل شيء ليست، مع ذلك، غير الرتابة النابعة مني. كل وجه، ولو كان وجه مَن رأيناه أمس، هو اليوم وجهٌ آخر، لأن اليوم هو أمس. كل يوم هو ما هو، ولم يوجد قط في هذا العالم يومٌ يشبه آخر. داخل روحنا فقط يوجد التماثل - التماثل المحسوس بذاته، ولو أنه زائف - الذي بواسطته الكل يتوحّد ويتبسط، لكن لأننا قصيرو النظر يبدو العالم عبارة عن أشياء بارزة ونتوءاتٍ متباينة.

أرغب في الهروب. أرغب في الرحيل - لا إلى جزر الهند المستحيلة، أو إلى الجزر الكبرى لجنوب الكل، وإنما إلى أي مكانٍ آخر - ضيعة كان أم قفراً - يملك في ذاته عدم كونه هذا المكان نفسه. أريد ألّا أرى بَعْدُ هذه الوجوه، هذه العوائد وهذه الأيام. أريد أن أستريح، بعيداً عن ذاتي، من مداجاتي الجسديّة. أريد أن

أحسّ بالنوم واصلاً إليّ مثلما الحياة. لا مثل استراحة. بإمكان أيّ كوخ عند ضفة البحر، أو حتى مغارةٍ في سفح جبل ما أن تمنحني هذا. وحدها، مع الأسف، وحدها إرادتي لا تستطيع منحي هذا المتبغى.

العبوديّة هي قانون الحياة، وليس ثمّة قانونٌ آخر، والقانون ينبغي احترامه، وما من إمكانية هناك لأيّ تمرّد وما من ملجأ يمكن اللّوذ به. البعض يولدون عبيداً، آخرون يتحوّلون إلى عبيد، وآخرون مُنحوا العبوديّة. العشق الجبان الذي نكنّه جميعاً للحريّة - التي لو امتلكناها، لاستغربناها، لأنها جديدة ولرفضناها - هو العلامة الحقيقية لثقل عبوديتنا. أنا نفسي، الذي أعلنتُ عن رغبتي في كوخ أو مغارة حيث أستطيع التحرُّر من رتابة كلّ شيء، رتابة أناي قبل أيّ شيء، هل أجرؤ على الذهاب إلى ذلك الكوخ أو تلك المغارة، عارفاً، بالخُبْرِ، أنه محكومٌ عليّ بتحمّل الرتابة على الدوام، طالما هي مني وإليّ؟ أنا نفسي، المختنق حيث أوجد، المختنق لأنني موجود، أين بإمكاني التنفّس أفضل إنْ كان الدّاء موجوداً في رئتي وليس في الهواء المحيط بي؟ أنا التّواق إلى الشمس الخالصة والحُقول الطّليقة، والبحر الملموس والأفق بكامله، من يضمن ألّا يثير استغرابي، السرير، أو وجبةُ الأكل، وألّا يستبد بي النفور من ضرورة نزول الدرج الثمانية للسلم الخشبي المؤدية إلى الشارع. أو من الحاجة إلى دخول طبكيرية تلك الزاوية. أو تأدية تحيّة الصباح للحلاق المتعطل؟

كلُّ ما يحيط بنا يتحول إلى جزءٍ من ذواتنا. يتسرّبُ إلى الإحساس باللحم وبالحياة. ونسيج العنكبوت الأعظم، يربطنا بلطافةٍ بما يُحيطُ بنا، موقعاً إيانا، في السرير الناعم لموتٍ بطيء، حيث

نرجح الريح. الكل هو نحن، ونحن هم الكل، لكن ما نفع هذا إنْ لم يكن يعني شيئاً؟ ثمة شعاع شمس، ثمة غيمةٌ ظلّها يقول إنها عابرة، ثمة نسيم ينهض، السكون الذي يصل آن توقفه، ذلك الوجه أم سواه، بعض الأصوات التي تتكلّم، الضحكة العَرَضيّة بينهنّ، وبعدها الليل الذي تظهر فيه بلا معنى الهيروغليفيات المُهشّمة للنجوم.

1931-6-20

ذات أحد

أكتب ذات أحد، صباحٌ متأخر من نهارٍ رحيب ذي ضوءٍ ناعمٍ حيث، زرقة السماء المجهولة دوماً تحبس في النسيان الموجودَ الملغز للنجوم...

بداخلي كذلك اليوم هو يوم أحد...

كذلك قلبي يذهب إلى الكنيسة التي لا يعرف أين توجد، ويذهب مرتدياً بدلة طفولية من مُخمَل، بالوجه الملون بالانطباعات الأولى مبتسماً بدون عينين حزينتين من فوق الطوق الكبير جدّاً.

(بعد 1923)

الفتى المصغي

في مواجهة المرآة يجلسون دائماً كلما أمكنهم ذلك. يكلّمونا ويغازلون بالأعين ذواتهم. أحياناً، وكما يحدث في الخطوبات، يتسلّون بالمحادثة. دائماً بدوت لهم ظريفاً لأنَّ نفوري من مظهري حثّني دائماً على إدارة الظّهر للمرآة. هكذا كنت، وهو ما استكشفوه غريزياً مُعاملين إياي مُعاملة طيبة على الدوام، هكذا كنت الفتى المُطيع الذي ترك لهم دائماً منصّة الزّهو خالية.

على العموم لم يكونوا فتياناً سيئين؛ على الخصوص كانوا جيدين ورديئين. كانوا على أريحِيَّةٍ ورِقَّةٍ لا يرقى إليهما الشك بالنسبة إلى مساعد محاسب، وعلى دناءات وقذارات يصعب أن يتكهن بها أيّ إنسانٍ سويّ. بخل، حسد وغرور. بهذه الصفات يمكن اختزالهم، وبها سأختصر قسماً من ذلك الوسط الذي تسرّب إلى مؤلّف الرجال الأفذاذ الذين جعلوا، ذات مرّة، من تلك الإقامة الانجذارية أرضاً للمخدوعين (أعني مؤلف فيالهو (Fialho)، حيث الحسد الجليّ، الفظاظة الحقيرة، الرثاثة المُقزّزة. . .).

مضيت، رأيت، وبعكسهم هم، ظفرت لأنَّ ظفري قوامه النّظر. اكتشفت تماثُل الحشود الدنيا: جئت كي أعثر هنا، في الدار التي لدي غرفة بها، الروح الخسيسة التي أظهرتها لي المقاهي نفسها، ما عدا، شكراً لجميع الآلهة، ما عدا مفهوم الظّفر في باريس. مالكة هذه الدار تجرؤ على الخروج إلى Avenida Nueva في بعض لحظات وهمها لكنها لا تعثر سوى على الرجل الأجنبي، فيترَقَّقُ قلبي.

أحتفظ من مروري هذا بجثوة الإرادة بذاكرة ضجرٍ مغثّ وببعض الطرف الحاذقة. إنهم يمضون بجنازة، ويبدو الآن أنَّ الماضي، في الطريق إلى المقبرة، قد تمّ نسيانه في المقهى، لذلك يمضي الآن صامتاً. والسّلالة لن تعرف عنهم أبداً أيّ شيء، لقد اختفوا عنها إلى الأبد تحت الرصيف الأسود للرايات التي أحرزوها في انتصاراتهم.

عطشٌ زائد

الكل هناك مكسورٌ وغفلٌ وغير مُناسب. هناك رأيت أمارات كبيرة من رأفةٍ بدت لي كاشفة عن عمق أرواحٍ بائسة حزينة؛ لقد

اكتشفت بأنّ تلك الأمارات لا تدوم أكثر من اللحظة التي كانت فيها مجرد كلمات، وبأنَّ لها جذرها - كم مرات لاحظت ذلك بألمعية السكينات - في تشابه شيءٍ بشفقةٍ ما، يضيع مع سرعة حدّة التعليق، وأحياناً يضيع في خمر عشاء المحنَّن، لقد وجدتُ دائماً علاقة منظمة بين الإنسانوية وعرق العنب، وكثيراً جدّاً هي الحركات الكبرى التي عانت من الكأس غير الضرورية ومن العطش الزائد.

والأكثر غرابة في كلّ أولئك الناس هو انعدام أيّ قيمة وأيّ معنى لهم جميعاً. بعضهم كانوا محرّرين في الصحف الرئيسة فنجحوا في الإقلاع عن الوجود؛ آخرون كانوا يحتلون مواضع عمومية في الدليل السنوي فأفلحوا في عدم الظهور في أيّ مكان في الحياة؛ وآخرون كانوا شعراء مكرسين، لكن غبرة الرماد نفسها جعلت وجوههم المغفلة شاحبة ممتقعة، فكانوا جميعاً رفات محنطين متصلين، باليد عند الظهر في أوضاع حيوات مصطنعة.

أحتفظ من الزمن القليل الذي أغرقني في ذلك المنفى من الحيوية الذهنية بذكرى لحظات طيبة من الظرف الحر، ولحظات كثيرة رتيبة حزينة. وببعض الصور المتقطّعة في مواجهة العدم، ببعض الإشارات المهداة إلى خوادم المصادفة، وبالإجمال، بضجر غثيانٍ فيزيقي وبذاكرة بعض النوادر البارعة.

بداخلهم هم يندرج، كفضاءات، رجالٌ أكبر سناً، بعضٌ منهم بأقوال روح غابرة، تتفوه شراً كالآخرين، وللأشخاص أنفُسهم.

لم أشعر قط بقدرٍ كبير من التعاطف نحو أدنياء المجد الشعبي مثلما شعرت به كلما رأيتهم ينتقدون من لدن هؤلاء الأدنياء بدون أي رغبةٍ في ذلك المجدْ البائس. لقد عرفت حقيقة الظفر لأن المنبوذين الكبار حققوا ظفرهم بالعلاقة مع هؤلاء، وليس بالعلاقة مع الإنسانيّة.

يا للشياطين المساكين! جوعى على الدوام، إما جوعاً للغذاء، أو جوعاً للشهرة، أو جوعاً لفواكه الحياة. من يسمعهم بدون أن يعرفهم، يظنّ أنه يستمع إلى معلمي نابليون أو مثقفي شكسبير.

ثمة من يحققون النجاح في الحب، ثمة من ينتصرون في السياسة. ثمة من ينتصرون في الفن. الأولون يملكون امتياز السرد، إذ يمكن النجاح بشكلٍ باهرٍ في الحب بدون توفر معرفةٍ بالوقائع. أكيد، أن ارتياباً مبهَماً سيخامرنا لدى سماعنا حكاية الافتضاض السابع، من لدن واحد من هؤلاء وهو يحكي عن ماراتونياته الجنسيّة. عشاق سيدات الجاه واللقب، أو المعروفات على نطاقٍ واسع (هنّ جميعاً كذلك تقريباً)، يستهلكون من أسماء الكونتيسات - في حكاياتهم بالطبع - ما يجعل إحصائية غزواتهم لا تستثني حتى والدات جدات سيدات يومنا هذا على رصانتهن واتِّزانهن.

آخرون يختصون في العراك الجسدي، فقد صرعوا كلّ أبطال الملاكمة في أوروبا في ليلة عربدة، في أحد أركان Chiado[1]. آخرون لهم نفوذٌ واسع لدى وزراء كلّ الوزارات. وهم أقل عرضة للشك. لأنهم ليسوا موضع نفور.

بعضٌ آخرون هم من كبار الساديين، بعضٌ من كبار اللواطيين، آخرون يعترفون، بحزنٍ ذي صوتٍ عالٍ، بأنهم متوحشون مع النساء. لقد سحبوهن إلى هناك، بالسياط، على طريق الحياة...

هناك الشعراء، هناك الـ (...)

---

(1) ساحة Chiado (Largo do Chiado) تقع في قلب لشبونة، كانت مكاناً يجتمع فيه الكتاب والفنانون. لا تزال إلى اليوم مكاناً للمواعد واللقاءات ففي مقهاها A Brasileira يتصادف أن يلتقي هواة الأدب والمهتمون به.

لا أعرف علاجاً لطحالب الظلال هذه، أفضل من المعرفة المباشرة بالحياة الإنسانية العادية، في واقعها التجاري، مثلاً، تلك التي تظهر في مكتب شارع Dos Douradores بأيّ تسلية سأعود أنا من مستشفى مجانين الكراكيز ذاك إلى الحضور الواقعي لموريرا، رئيسي، رجل الحسابات الحقيقي والمطّلع، الزَرِيّ المَلبس، والمُعامَل سيئاً...

بدون أن نعرف لماذا!

تتخذ الوجوه المقهوية تلك، بمقارنتها بالرجال البسطاء والحقيقيين، الذين يمرون بشوارع الحياة، بأهداف طبيعية مسكوتٍ عنها، تتخذ مظهراً لا أعرف كيف أحدِّده ما لم أقارنها ببعض عفاريت الأحلام، هي أوجهٌ ليست من الكوابيس ولا ممّا يبعث على النفور، لكن تذكرها، عند استيقاظنا، يخلف لنا، بدون أن نعرف لماذا، مذاقَ قرفٍ بائت، مذاق اشمئزازٍ من شيءٍ مركوزٍ فيهم، لكن لا يمكن تعيينه طالما هو منهم.

أرى وجوه العباقرة والظافرين الواقعيين، حتى الصغار منهم، وهي تمخر ليل الأشياء بدون أن تعرف ما شقّته سفنهم المتغطرسة، في ذلك البحر ذي السراغس من التبن الملفف ونشارات الفلين.

هناك يُختصر كلّ شيء، كما في أرضية دهليز المكتب، الذي يبدو مرئيّاً من خلال شبابيك نافذة المصنع، مثل خليّةٍ للقمامة.

تحت القمر الناصع

في الأسفل، تنام المدينة بكاملها تحت القمر الناصع وأنا في اختلالات الظلّ أتجنّب العلو الذي أنا فيه.

(ثمة قنوط من الوعي، قلقٌ ناجم عن وجودي مشدوداً إلى ذاتي نفسها، يتجاوز كلّ ما لست متجاوزه، جاعلاً منّي كائناً من حنوّ، وخوف، ألم وحزن).

ثمة إفراطٌ لا مبرر لقلقٍ لا معقول، ثمة ألمٌ شديد اليتم وهو ميتافيزيقيا، شديد الانتماء إليّ، (. . .).

قدحٌ تحت المطر

إنها تمطر كثيراً، أكثر فأكثر.. ثمة ما يشبه (. . .) سوف ينهار في الخارج الأسود كلّ التكدّس الفوضوي والجبلي للمدينة يبدو لي اليوم سهولاً من مطر. حيثما وجَّهت بصرك كل شيء يبدو بلون المطر، أسود شاحباً.

لديّ إحساساتٌ شاذة باردة كلها. الآن يبدو لي أنَّ المشهد الرئيس عبارة عن ضباب وأنَّ الأشياء في هذا الضباب الذي يحجبها. . .

شيء من ذكرى موتي المُقبل يبعث فيّ قشعريرة من الداخل، وفي ضبابةٍ من حدس أحسّ أنني مادةٌ ميتة، قدحٌ تحت المطر، أنّة ريح. وبرودة ما لن أحسَّه أبداً تنهش قلبي الراهن.

مشهد المطر

في كلّ قطرة مطر تبكي حياتي الفاشلة في الطبيعة. ثمة شيء من قلقي في كلّ ما يتقطر، في الوابل تلو الوابل ممّا تصبُّه كآبة النهار بلا جدوى على الأرض.

مطرٌ كثير، كثير، من سماعه تغلغلت الرطوبة إلى روحي. لحمي أضحى سائلاً ومبللاً إزاء انطباعي عنه.

ثمة برودةٌ قلقة تحطّ يدين متجمدتين على قلبي المسكين. الساعات الرمادية و(. . .) تتمدد، تتعبّد في الزمن؛ اللحظات تتجرجر.

يا له من مطر!

القنوات تستفرغ سيولاً صغيرة من مياه مفاجئة دائماً. ضجيجٌ مزعج لانحدار المياه. المطر الكسول متأوهاً يضرب النافذة. ثمة يدٌ باردة تضغط على حنجرتي وتمنعني من أن أتنفّس الحياة.

الكل يموت فيّ، بما في ذلك معرفتي بقدرتي على أن أحلم! لست على ما يرام، فيزيقيّاً بأيّ شكلٍ من الأشكال.

كل ما أستند إليه من لُدُونات يرسل شواظاً إلى روحي. كل النظرات المتجهة إلى حيث أمعن النظر مغشاة بضربات هذا الضوء الفقير للنهار الذي يُحتضر بدون ألم.

أحلام منتصف النهار

اليوم في واحدةٍ من نزواتي المجرّدة من المقصد والقيمة والتي تكوّن قسماً كبيراً من الجوهر الروحي لحياتي. تَخَيَّلْتُني متحرراً إلى الأبد من شارع Dos Douradores، من المدير فاسكيز، ومن موريرا رئيس قسم المحاسبة، ومن جميع المستخدمين، من الخادم، والولد والقط. لقد عشت في الأحلام تجربة انعتاقي. كما لو أنَّ بحار الجنوب عرضت أمامي جزراً مدهشة قصد استكشافها. حينئذٍ كانت الراحة في متناولي والفن متحققاً مع الاكتمال الفكري لكينونتي.

لكن بغتة، وعلى صعيد التخيُّل ذاته الذي كنت أمارسه في أحد المقاهي أثناء الاستراحة القصيرة لمنتصف النهار، هجم عليّ في حلمي إحساسٌ بالاستياء: سيُحزنني ذلك. أجل، فالمدير فاسكيز

وموريرا رئيس قسم المحاسبة، وأمين الصندوق بورخيس، والولد المرح حامل الرسائل إلى مكتب البريد، والخادم الذي يتحمَّل كل أنواع الشحن، والقط الودود، كل هؤلاء أصبحوا جزءاً من حياتي؛ لا أستطيع التخلي عنهم جميعاً بدون أن أنخرط في البكاء، وبدون أن أدرك رغم الصورة السيئة التي يبدون لي بها، أنَّ ما سأتركه بينهم إنما هو قطعةٌ من ذاتي، وبأن الانفصال عنهم هو توأم الموت.

فضلاً عن ذلك، لو رحلت عنهم جميعاً غداً، ونزعت عني بدلة الـ Dos Douradores هذه، فأيّ شيءٍ أو مكانٍ آخر سأقارب طالما أنَّ الوصول إلى مكانٍ آخر لا مندوحة لي عنه؟ وأيّ لباس سأرتدي لأن بدلةً أخرى لا بد لي من ارتدائها؟ المدير فاسكيز موجودٌ لدى الجميع، مرئي لدى البعض هو، غير مرئيٍّ لدى الآخرين. بالنسبة إليّ يدعى واقعياً فاسكيز، وهو رجلٌ لطيف، خدوم، وأحياناً هو على فظاظة لكن بدون سوء نيّة، طموعٌ لكنه في العمق نزيهٌ منصف، إنصافاً يفتقر إليه الكثير من الرجالات الكبار والكثير من النماذج البشرية الخارقة في هذه الحضارة بيمينها ويسارها. هو بالنسبة إلى آخرين رمز الزهو والطمع في المزيد من الثراء، المجد، والخلود... أفضِّل فاسكيز الرجل، مديري، الأكثر قابليةً للمعاملة، في اللحظات الصعبة، من جميع المدراء المجرّدين في العالم.

في يومٍ سابق، قال لي صديق شريك في مزرعةٍ مزدهرة بفضل علاقتها التجارية مع الدولة، معتبراً أنَّ ما أربحه قليل: «أنت مستغل، يا بورخيس»[1]. وقد ذكَّرني هذا القول بما أنا عليه؛ لكن

(1) يبدو أنَّ الأمر يتعلق بسهوٍ من المؤلف، لأن «بورخيس» مستخدمٌ تمت الإشارة إليه في أسطرٍ سالفة.

بما أننا جميعاً - كما هو مفترض - ينبغي أن نكون مستغَلّين في الحياة، فإنني أتسائل أيهما يستحق عناءً أقل أن تكون مستغَلاً من لدن فاسكيز رجل حسابات الأقمشة أم من الزهو الفارغ، من المجد أم من المكتب، من الحسد أم من المستحيل؟

دائماً ثمة مستغلون حتى من الله نفسه، ومنهم الأنبياء والقديسون في سراب هذا العالم.

ومثلما إلى المسكن الذي يملكه آخرون، في المنزل الخاص بهم، أخلو إلى المكتب الواسع، في شارع Dos Douradores أدنو إلى مكتبي، مثلما إلى حصنٍ مقام ضد الحياة. أشعر بحنان، بحنانٍ جارفٍ حدّ البكاء، تجاه كتبي: كتب الآخرين التي أكتب فيها، تجاه الدولة العتيقة التي تسعفني، تجاه الظهر المقوّس لسيرجيو المنهمك في إعداد بعض الإرساليات على مبعدةٍ مني. أشعر بحنوٍّ تجاه هذا كله، أو لربما، أيضاً لأن حنان الروح لا يساوي شيئاً. وإذا كان علينا أن نهبه بواسطة الإحساس، فليكن ممنوحاً بِحيرَتي هذه مثلما للامبالاة الكبرى للنجوم.

غثيان

أحسّ بغثيانٍ فيزيقي من الوجود الإنساني المبتذل الذي لا يوجد غيره. وأصرّ، مع ذلك، أحياناً. على تعميق ذلك الغثيان، كمَن يستثير حالة تقيؤ للتخفُّف من الرغبة في التقيؤ.

من النزهات المفضّلة لدي، في الصباحات الباكرة التي أخشى فيها ابتذالية اليوم الذي سيأتي كمن يخشى السجن، أن أسير بتمهّلٍ عبر الشوارع، قبل أن تفتح الدكاكين والمخازن، منصتاً إلى فتات العبارات المتساقطة من طرف جماعات الفتيان والفتيات، مثل

صدقاتٍ استهزائيةٍ في المدرسة اللامرئية لتأملاتي المفتوحة.

ودائماً التعاقب نفسه، التتاليات نفسها للعبارات نفسها..

«وحينئذٍ قالت هي...» النبرة تتحدث عن دسيستها هي. «إنْ لم يكن هو، كنت أنتِ إذن...» ويعلو الصوت المجيب محتجاً احتجاجاً لا يصل إلى مسمعي. «لقد قلت ذلك، أجل، قلته...» يقول صوت الخياطة مؤكداً بلهجةٍ زاعقة: «أمي تقول إنه لا يريد..» «أنا؟» يرد الشاب الذي يحمل معه وجبة الغذاء ملفوفةً في البرافين، باستغرابٍ لا يقنعني، ولا ينبغي أن يقنع الشقراء القذرة. «ربما كان...» ثم ضحكات الفتيات الثلاث على مقربةٍ من مسمعي، والبذاءة (...). «وحينئذٍ اندسست حيال الشخص، وهناك بالذات. في وجهه صحت: إيه، بيبي..» ولأن الشيطان المسكين يكذب دائماً، فإن رئيس المكتب - أعرف من الصوت أنَّ الخصم الآخر كان رئيساً للمكتب الذي أجهله - لم يستقبله في السيرك، بين السكرتاريات، إشارة مصارع الكلمات[1]. «وحينئذٍ ذهبت لأدخن «في» المرحاض...» يقهقه القزم ذو الأقمطة الداكنة.

ثمه آخرون يمرون فرادى أو جماعات، صامتين أو متكلمين وأنا لا أسمعهم، بَيْد أنَّ جميع الأصوات بالنسبة إليّ تبدو واضحةً من خلال شفافيةٍ حدسية ومبتورة. لا أتجاسر على التعبير - لا أجسر على أن أقوله لنفسي ذاتها عبر الكتابة، رغم أنني أخللت بذلك من بعد - عمّا رأيته في النظرات العرضية القذرة. لا أجرؤ - إذ عندما يُستثار التقيؤ يستثار فقط دفعةً واحدة.

«كان شخصاً من البدانة بحيث لم ينتبه إلى أنَّ للسلّم درجاً

(1) التعبير هنا مجازي.

عديدة». أرفع الرأس. هذا الولد يقدِّم، وصفاً على الأقل. فهذا الصنف أفضل ممّا يمارس الإحساس، لأنه ينسى ذاته أثناء الوصف. أتخطى حالة الغثيان. أنظر إلى الشخص. فوتوغرافياً أراه. حتى الرطانة الساذجة تتشظى. مباركٌ هذا الهواء الذي يلفح وجهي - يبدو الشخص من البدانة بحيث لا يرى أنَّ للسلم درجات - ربما السلم لأن الناس تصعد بالتدرج، متحسسة ودائسة على الأكذوبة المنسقة لهذا الدهليز.

المكيدة، النميمة، التبجُّح المعلن بما لم يُتجرَّأ على فعله، رضا كل دويبةٍ مسكينة متدثرةٍ بالوعي اللاوعي بروحه ذاتها، الجنس الوسخ، النكات مثل دغدغات قرد، الجهل المرعب بالافتقار إلى... كل هذا يزرع فيَّ إحساس حيوانٍ وحشي ومحتقر، مصنوع، في عالم لاإرادية الأحلام، من القشور الرطبة للرغبات، من البقايا المفتَّتة للأحاسيس.

1930-4-10

كيما تكون الاستراحة أكبر

كم مرّ من الوقت دون أن أكتب شيئاً! اجتزت، في أيامٍ معدودة، قروناً من التخلي القَلِق عن الكتابة. لقد أَسِنْتُ مثل بحيرةٍ مقفرة، وسط طبيعةٍ لا وجود لها.

في أثناء ذلك، راقتني الرتابة المتنوعة لتوالي الأيام، للتوالي اللامتماثل للساعات المتماثلة، للحياة. لو كنت خلدت للنوم لما توالت على نحوٍ غير هذا النحو. لقد أسنت، مثل بحيرةٍ مقفرة، وسط مشاهد طبيعيةٍ مقفرة.

جهلي بذاتي هو حدثٌ متواتر وهو ما حدث باستمرار لأولئك

الذين يعرفون جيداً ذواتهم. . . أتّخذ رُفقتي من التنكُّرات المتعدِّدة التي من خلالها أحيا.

أتذكَّر، بعيداً في دخيلتي، كما لو سافرتُ صوب دواخلي، الرتابة، مختلفةً لا تزال عن ذلك البيت الريفي. . . هنالك أمضيت الطفولة لكنني لن أعرف التعبير، لو رغبتُ في ذلك، عمّا إذا كنت أمضيتها بسعادةٍ أقلّ أو أكثر من الحياة التي أمضيها اليوم. لقد كان شخصاً آخر أنا الذي عاش هناك: إنهما حياتان مختلفتان، متمايزتان، غير قابلتين للمقارنة. الرتابتان نفساهما اللتان قَرَّبْتُهُما من الخارج كانتا بلا شكّ مختلفتين من الداخل. ما كانتا برتابتين، بل كانتا حياتين اثنتين.

لأيّ غايةٍ أتذكر ذلك؟

إنّه العياء. التذكر استراحة لأنه ليس بفعل.

كم مرات، كيما تكون الاستراحة أكبر أتذكر ما لم أكنه، بدون أن يكون ثمة أي وضوح أو اشتياق في تذكراتي للمناطق التي كنت بها مثل مَن يقيمون فوق الأرضية الخشب، أتناوس في الصالات الواسعة التي لم أعِشْ فيها قط. لقد تحوّلت إلى خيالٍ لذاتي نفسها حيث إنَّ كل عاطفةٍ طبيعية لديّ قد تحولت، من ثم، بمجرّد نشوئها، إلى عاطفةٍ ملحقةٍ بالخيال: الذاكرة محوّلةٌ إلى أحلام، الحلم بنسياني الحلم، تعرّفي عليّ بعدم التفكير فيّ.

تجرّدتُ من كينونتي ذاتها، تجردتُ، من وجودي مرتدياً ذاتي. أكون متنكّراً فقط عندما أكون أنا ذاتي، و، حولي أنا كلّ المصادفات المجهولة ستُذهِّبُ، عند الموت، المشاهد الطبيعية التي لن أشاهدها أبداً.

1934-3-31

أرعى كراهية الفعل مثل وردةٍ مدفأة، أمتدح مع ذاتي بصيرتي بالحياة.

قناعُ بائعٍ متجوّل

في الضباب الخفيف للصباح نصف الربيعي، تستيقظ La Baixa مخدّرةً بينما الشمس تولد كما لو بنوعٍ من البطء. ثمة بهجةٌ هادئة في الهواء نصف البارد، فيما الحياة، ترتعش بتكاسل، لدى الهبّة الخفيفة للنسيم الذي لا وجود له، للريح التي مرّت، لذكرى البرد أكثر ممّا للبرودة، للمقارنة بالصيف المُقبل، أكثر ممّا للفصل القائم فعلياً.

لم تفتح الدكاكين أبوابها بعد، ما عدا المَلبَنات والمقاهي، إنها الاستراحة ليس بفعل التراخي مثلما في أيام الأحد؛ الاستراحة وحسب. ثمة أثر لونٍ أشقر يتقدّم في الهواء الذي ينكشف، بينما الأزرق يتلوّن بشحوب من خلال الضباب الذي ينطفئ. شيئاً فشيئاً تسري الحركة في الشوارع، ويسترعي التباعد بين المارة الانتباه، ومن النوافذ القليلة المفتوحة تلفت الانتباهَ أيضاً الإطلالات المبكرة. الترامويات تخطّ في «منتصف - الهواء»[1] خطّها المتحرك الأصفر المعدود. ودقيقة تلو الدقيقة تكتظّ الشوارع بالحياة.

منتبه الحواس وحدي، أتقلّب، بلا تفكيرٍ ولا انفعال. لقد استيقظت باكراً؛ خرجتُ إلى الشارع بدون أفكارٍ مسبقة. أفحص الأشياء كمن يتأمّل. أرى مثل مَن يفكّر. فيما ضبابة انفعالٍ خفيفة

---

(1) ترجمة تقريبية لجملة ملتبسة الإيحاء في الأصل بسبب غرابة تركيبها.

تنتصب أمامي على نحوٍ لا معقول؛ يبدو أنَّ الضبابة التي تشرع في الانتشار من الخارج تتسرب على مهل إلى داخلي.

أحسّ، بدون أن أرغب، أنني كنتُ أفكر في حياتي. لم أُعِر انتباهاً، لكن هكذا كان. حسبت أنني لم أكن أرى وأسمع، في هذا المجرى العاطل، سوى عاكس صور، سوى ساترٍ أبيض يعكس الواقع عليه ألواناً من النور بدلاً من الظلال. بيْد أنَّ الأمر كان أكثر من ذلك، وما كنت لأعرف، كانت هناك الروح أيضاً، روحي الرافضة، وملاحظتي المجردة كانت رفضاً بدورها.

الهواء يتغطى بانعدام الضباب، يتغطى بنورٍ شاحب يبدو أنه قد امتزج بالضباب. أتنبه فجأةً إلى أنَّ الصخب أكثر بكثير مما توقعت، وأنَّ أناساً كثيرين يوجدون هناك. خطوات المارّة تبدو أقلّ استعجالاً. اللهم إلّا من هرولة بائعات السمك، وحركة الخبازين حاملي السلال، التي تكسر من السرعة الدنيا للجميع، والمساواة المتباينة لبائعات الأشياء الأخرى تتمايز فحسب في محتويات السلال، حيث الألوان مختلفة أكثر من الأشياء. بائعو اللبن المتجولون يطنطنون بعلبهم المختلفة، مثل صرير مفاتيح لا تصلح لشيء. شرطيو المرور يوقفون المرور في المفترقات، تكذيبٌ موحدٌ من الحضارة اللامرئية لطلوع النهار. ليتني، أحسّ هذا كله في هذه اللحظة، ليتني كنت شخصاً آخر قادراً على رؤية هذا المشهد بدون أن تربطه به علاقةٌ عدا علاقة النظر: شخصاً يتأمل المشهد بتمامه كما لو كان المسافر الراشد القادم هذا اليوم إلى سطح الحياة! ليتني لم أتعلّم، بدءاً من الولادة فصاعداً، منح معاني ممنوحة أصلاً لهذه الأشياء، ليتني أستطيع رؤيتها بالتعبير الذي تملكه بالفعل منفصلاً عن التعبير الذي فُرض عليها. أرغب في أن أمتلك القدرة على أن أعرف

في بائعة السمك حقيقتها الإنسانية مستقلةً عن تسمية بائعة السمك التي أناديها بها، وأن أعرف أنها موجودةٌ بالفعل وتبيع السمك فعلاً. أرغب في أن أرى الشرطي كما يراه الله. أن أحدّق في كلّ شيء للمرة الأولى، لا تحديقاً رؤيوياً نبوئياً، كما لو كان الأمر يتعلق بانجلاءاتٍ للسرّ، وإنما تحديقاً مباشراً، كما لو كان إزهاراً طبيعياً للواقع فحسب.

هي ذي - ينبغي أن تكون الساعة التي لا أعدّها تمام الثامنة - دقات ساعات جرس برجٍ أو ساعةٍ كبيرة. أستيقظ من ذاتي بسبب الابتذال: ابتذال تقسيم الزمن إلى ساعات، إنه المحبس[1] الذي فرضته الحياة الاجتماعية على تعاقب الزمن، بمثابة حاجزٍ للمجرّد، حدٌّ للمجهول. أستيقظ مني، ناظراً إلى الأشياء كلها، وقد امتلأت الساعة بالحياة وبالاعتيادي الإنسانيّ، أرى الضباب وقد انسحب من السماء كلها، ما عدا ما يطفو في الزرقة ممّا ليس بزرقةٍ كافية حتى الآن، أراه قد نفذ فعلاً إلى الروح، وتغلغل في الوقت ذاته في الجزء الباطني من الأشياء كلها وهو الجزء الذي به تمتلك الأشياء اتصالها بروحي، ها أنا أحسّ الآن بابتذالية ما أعرف. هذا ليس هو الواقع، الساعة، إنه ببساطة الحياة.

. . . أجل، الحياة التي أنتمي أنا إليها، وهي أيضاً تنتمي إلي؛ لا، الواقع لا. إذ هو ينتمي إلى الله وحسب، أو ربما إلى ذاته، وهو لا يحوي سراً ولا حقيقة، فلأنه واقعي أو لأنه يتظاهر بأنه كذلك، فلسوف يوجد وجوداً ثابتاً في مكانٍ ما، متحرراً من أنْ يكون مؤقتاً أو خالداً، صورةٌ مطلقة، فكرةٌ لروحٍ كانت خارجية.

---

(1) مكانٌ في ديرٍ محرمٌ دخوله لغير الإكليروس.

أعود بطيء الخطوات أسرع ممّا أظن نحو الباب الذي سأصعد منه من جديد إلى المنزل. لكنني لا أدخل؛ أواصل السير إلى أمام. ساحة فيغييرا[1]، وهي تتثاءب بمعروضاتها المتنوّعة الألوان، تُلبِسُني، وقد أخْلَتِ الأفق من الزبائن، لباس بائعٍ متجوّل. مَيْتاً أتقدّم على مهل، ورؤيتي الآن لا شيء: إنها فحسب رؤية الحيوان الإنساني الذي ورث بدون رغبةٍ منه الثقافة الإغريقية. النظام الروماني، الأخلاق المسيحية، وبقية الأوهام الأخرى التي تشكل الحضارة التي من داخلها أمارس الإحساس.

الأحياء أين سيكونون؟

محاولة

أنْ نُلَفِّف العالم حول أصابعنا، مثل خيط أو مثل الشريط الذي تتلاعب به المرأة الحالمة إزاء النافذة.

الكل يتلخّص، في النهاية، في تجريب الإحساس بالضجر بطريقةٍ غير مؤلمة.

سأحقق إنجازاً هاماً إن استطعت أن أكون ملكين اثنين في وقتٍ واحد (أن أكون لا مجرد روحٍ واحدةٍ منهما، وإنما الروحين الاثنتين مجتمعتين).

أستنطق الحياة

لم أطلب سوى القليل من الحياة، وحتى ذلك القليل رفضَت الحياة منحي إياه. طلبت حزمة ضوء من الشمس، حقلاً [...]،

---

(1) Praça da Figueira: ساحة في قلب لشبونة في المنطقة الواطئة منها.

القليل من السكينة مع قليلٍ من الخبز، ألّا تثقل عليّ كثيراً معرفتي بأنني موجود، وألا أطلب من الآخرين شيئاً وألّا يطالبونني هم بأي شيء. هذه الرغائب ذاتها تمّ تجاهلها، كمن يتجاهل الظلّ لا بسبب الافتقار إلى المشاعر الطيبة، وإنما لكي لا يتحتم عليه أن يفكّ أزرار السترة [...].

أكتب مكتئباً، في غرفتي الهادئة، وحدي مثلما كنت، وحدي مثلما سأكون. وأفكّر إنْ لم يكن صوتي، على ضآلة شأنه ظاهرياً، يجسّد جوهر آلاف الأصوات، والحاجة إلى التعبير لدى آلاف الحيوات، صبر آلاف الأرواح المذعنة مثل روحي، تحت شمس القدر اليومي، متشبثةً بالحلم اللامُجدي، والأمل الذي بلا بارقة. في هذه اللحظات ينبض قلبي نبضات أعلى بسبب إحساسي الحاد بنبضاته. أحيا زيادةً على اللزوم لأنني أحيا على نحوٍ أكبر وأعمق. أشعر في شخصيتي بقوّةٍ دينية، أشبه بنوعٍ من الصلاة، أشبه بالشكوى، لكن ردّ الفعل ضدي من الذكاء يأتي... أراني في الطابق الرابع من شارع Dos Douradores، حالما أمارس الإحساس؛ أبصر فوق الورق نصف المكتوب، الحياة الباطلة الخالية من الجمال والسيجارة الرخيصة [...] فوق النشاف العتيق. هنا أنا، في هذا الطابق الرابع، أستنطق الحياة، صانعاً نثراً [...].

(سنفونية ليلةٍ قلقة)

الكلّ غطّ في النوم كما لو أنَّ الكون مجرد غلطة كان، كانت الريح، تتقلب مترددةً مثل راية منشورة فوق ثكنةٍ لا وجود لها. وإطارات النوافذ تزعزع الزجاجات كي يصل صوتها إلى الجهة التي هناك. في عمق الأشياء كلها، كان الليل، بسكونه، ضريح الله

(والروح تعاني من العقاب الإلهي). وفجأةً - تحرك نظامٌ آخر للأشياء الكونية فوق المدينة - أعْوَلَت الريح في مدى الريح، وكانت هناك صورةٌ نائمة لاضطراباتٍ عارمةٍ في الأفق. ثم، انغلق الليل مثل بويبة خفية، فحلت سكينةٌ هائلة رغّبتْني في أن أكون غارقاً في النوم لحظتئذٍ.

(بعد 1923)

حلول الربيع

أنا لا أشاهد حلول الربيع في الحقول الواسعة أو في كبريات الحدائق، وإنما على الأشجار القليلة لسويحةٍ من ساحات المدينة. هناك، يبرز الاخضرار مثل هديةٍ من السماء، بهيجاً مثل كآبةٍ طيبة. أحبّ هذه السويْحات المعزولة، المحشورة بين شوارع شبه خالية، هذه السويحات الخالية أكثر من الشوارع، من حركة المارة. أشياء لامُجدية تنتظر، بين جثواتٍ بعيدة. صوت قريةٍ في المدينة.

أمرّ بتلك الساحات، أصعد[1] أيّ شارعٍ يؤدي إليها، ثم أهبط من جديد ذلك الشارع نفسه، كيما أعود إليها. إنها تبدو مختلفةً إنْ شوهدت من الناحية الأخرى، لكن السكينة نفسها تذهّب بحنينٍ مفاجئ - الشمس آيلةٌ إلى المغيب - الجهةَ التي لم أشاهدها لدى العودة.

الكل لا جدوى منه وأنا أحسّه كما هو، لقد نسيت كم عشت من حياة. . . ولا أتذكر ما سأكون كما لو أنني عشته ونسيته.

ثمة قلقٌ خفيف يطفو غامضاً حواليَّ. كل شيءٍ تعروه البرودة،

---

(1) لأنَّ قسماً كبيراً من لشبونة عبارة عن مرتفعٍ كبير.

لا لشيءٍ سوى لأنني دخلت شارعاً ضيقاً بينما الساحة توارت عن الأنظار.

1932-5-31

مرارة

تجاوزتُ منعطف الطريق، كنَّ فتياتٍ كثيرات. مغنيات أتين عبر مسيرهن، سعيدات كُنَّ من خلال نبرة أصواتهن. لا أدري ماذا سيصرن. أصغيتُ للحظةٍ إليهن من بعيد، بدون إحساسٍ خاص. أحسستُ بمرارةٍ في القلب لأجلهنّ.

أَلِلمُستقبل الذي ينتظرهن؟ أَلأجل لاوعيهن؟ لا ليس لأجلهن مباشرة، من يدري؟ ربما لأجلي أنا فحسب.

(بعد 1923)

ذلك الحلم المديد

المأساة المركزية لحياتي، مثل كل المآسي، هي سخرية القدر. أرفض الحياة الواقعية كمَن يشجب إدانة؛ أرفض الحلم باعتباره تحرراً شائناً. لكنني أعيش أكثر الحالات حساسيةً وأكثرها يوميةً في الحياة الواقعية، وأعيش الأكثر حدةً واستمراريةً من الأحلام. إنني أشبه عبداً يسكر في القيلولة من شقاءين في جسمٍ واحد.

أجل، أرى بجلاء بروقَ القلب الكاشفة عن الأشياء القريبة المشكّلة لوجودنا ممّا تحويه سوداوية الحياة، والكاشفة عمّا ثمة من خِسَّة، وتعب، وزيفٍ في شارع دورادوريس هذا الذي هو الحياة بكاملها بالنسبة إليّ - هذا المكتب القذر حتى النخاع الشوكي لرجاله، هذه الغرفة المكتراة شهرياً حيث لا يحدث شيء أكثر ممّا

لحياة ميت، دكان المأكولات هذا عند زاوية الشارع الذي أعرف صاحبه كما يعرف الناس الناس، خادمو باب هذه الحانة العتيقة، هذه اللاجدوى الشغّيلة في كل الأيام المتماثلة، هذا التكرار الثابت للشخصيات نفسها، مثل مسرحيةٍ تمَّ تأليفها على خشبةٍ موضوعة بشكلٍ معكوس. . .

لكنني أرى أيضاً أنَّ الهروب من هذا كله سيكون إما بالسيطرة عليه وإمّا برفضه، وأنا لست بمسيطرٍ عليه، لأنني لا أتجاوزه داخل ما هو واقعي، كما أنني لا أرفضه، لأنني، مهما يكن من أمر، سأبقى دائماً حيث أنا موجود.

وماذا عن الحلم، عن عار الهروب إلى ذاتي، عن جبن امتلاك تلك الزبالة، (باعتبارها حياة) أعني زبالة الروح التي يمتلكها الآخرون في المنام فقط، في صورة الموت الذي يغطون فيه، بالهدوء الذي يبدون معه مثل نباتاتٍ حققت بعض النموّ.

ألا أمتلك أيّ إشارةٍ نبيلةٍ لا تكون أبوابها باتجاه الداخل، ولا رغبة لا مجدية لا تكون حقاً كذلك!

لقد عرَّف قيصر قامة الطموح لمَّا نطق بتلك الكلمات:

«الأوّل في الضاحية قبل الثاني في روما!» أنا لست بشيء لا في القرية ولا في أيّ روما على الأقل، حانوتيُّ تلك الزاوية يحظى بالاحترام، من شارع Asuncion حتى شارع Victoria[1]، إنه قيصر تفاحة. أأنا متفوقٌ عليه؟ بماذا، طالما أنَّ اللاشيء المتاح لي لا يسمح بتفوق، ولا بدونية، ولا بمقارنة؟

إنه قيصر تفاحةٍ بكاملها ملائمةٍ للنساء.

---

(1) شارعان يوجدان متعامدين مع شارع Dos Douradores.

هكذا أجرجر ذاتي مزاولاً ما لست أريد من أعمال، حالماً بما لا أستطيع امتلاكه، حياتي (. . .)، باطلة مثل ساعةٍ عموميةٍ معطلة.

تلك الحساسية الواهنة، لكن الثابتة، ذلك الحلم المديد إنما الواعي (. . .) الذي يكوِّنُ في مجموعه امتيازي الظِّليّ.

(بعد 1923)

فلسفات

بعد أن كسا رحيلُ النجوم السماء الصباحية بالبياض، وبعدما أصبح الهواء أقلّ برودةً في صفرة النور الضاربة للبرتقالي، فوق الغيوم القليلة المنخفضة، تمكَّنت في النهاية من الرفع التدريجي للجسد المستنفد من السرير الذي منه كنت أفكر في الكون.

دنوت من النافذة بعينين دافئتين لكونهما غير مطبقتين. فوق السطوح الثقيلة، يصنع الضوء فروقاً من أصفر شاحب. مكثتُ متأملاً كلّ شيء بالتبلد الناجم عن نقصٍ في النوم. في الأشكال المنتصبة للمنازل العالية، كان الاصفرار هوائياً منعدماً. إلى الغرب صوب المكان الذي كنت فيه، كان الأفق من بياضٍ مخضرّ.

أعلم أنَّ النهار سيكون بالنسبة إليّ ثقيلاً. . . أعلم أنّ كلّ ما أفعله اليوم سيساهم، لا في عناء النوم الذي لم أستمتع به، ولكن في السهاد الذي كابدتُ. أعلم أنني سأعيش سرنمةً أشدَّ، وأقوى بشرية[1]، ليس لأنني لم أنم فقط، ولكن لأنني لم أقدر البتة على النوم.

ثمة أيام هي بذاتها فلسفات، أيام تُودِعُ فينا فلسفات الحياة،

---

(1) من البشرة Epidermis.

أيام هي ملحوظات هامشية، مفعمة بأعظم نقدٍ في كتاب قدرنا الكوني. هذا يومٌ أحسّه شبيهاً بتلك الأيام. يبدو لي، غير معقول، أنْ يتمَّ بعينيّ الثقيلتين ودماغي الباطل، بالقلم الفارغ، خَطُّ حروف التعليق اللامُجدي والعميق[1].

عن الجهة الأخرى من ذاتي

من الساعة التي هنالك في الخلف، في الدارة الخالية، لأنّ الكل مستغرقٌ في النوم، تتنزّل ببطء الدقات الأربع الواضحة للرابعة ليلاً. لم أنم بعد، ولا أتوقّع النوم. بدون أن يشغل انتباهي شيء، وبذلك لا أنام، أو يثقل على جسدي شيء، ولذلك أحسُّ بالاطمئنان، أرقُدُ في الظل حيث يغدو المكان الغامض لفوانيس الشارع أكثر مبارحةً للسكون المغمى عليه لجسدي الشاذّ. لا أعرف التفكير على كثرة ما لديّ من أحلام؛ لا أحسن الإحساس، على كثرة الأحلام التي لم أتمكن من امتلاكها.

الكون كلّه من حواليّ، يبدو عارياً، مجرَّداً، مصنوعاً من مفاوضات ليلية. أنشطر إلى شطرين: منهوك وقلق. وأصل بإحساس جسدي إلى ملامسة معرفةٍ ميتافيزيقيةٍ لغوامض الأشياء. أحياناً تترقرق روحي، وحينئذٍ تطفو على سطح وعيي التفاصيل الهلامية للحياة اليومية، وأنا أقوم بإنزال السفن على سطح عجزي عن النوم.

أحياناً أخرى أستيقظ من داخل منتصف النوم الذي توقفت فيه، فيما بعض الصور المبهمة، لتلوينٍ شاعريّ ولاإرادي، تترك فرجتها

(1) في بداية هذا المقطع ثمة ملاحظةٌ من المؤلف تقول: «كتب متقطعاً، بحاجة إلى كثير من التعديل».

التي بلا ضوضاء تنزلق فوق سطح تسليتي. عيناي ليستا مغمضتين بالكامل. تسيجني الرؤية الواهية لنورٍ آتٍ من بعيد؛ إنها المصابيح العمومية المُضاءة هنالك في الأسفل، في الحدود المهجورة للشارع.

أن أتوقَّف عن الوجود، أن أنام، أن أستبدل هذا الوعي بأفضل الأشياء الكئيبة، مقولة بالسر لمن يجهلني... أنْ أتوقف، أن أعبر السيّالَ والساكنَ، مدَّ وجزرَ بحرٍ شاسع! أنْ أتخلى، أن أكفّ...، أن أكون مجهولاً وخارجياً، حركات أغصانٍ في متنزهاتٍ منعزلة، سقوطاً واهياً للورقات، متعرفاً بالصوت أكثر ممّا بالسقوط ذاته، بحر المموِّنين العالي في الأقاصي، وكل لا محدودية الحدائق الليلية الضائعة في تشابكاتٍ متوالية، المتاهات الطبيعية للظلمات!... أن أتوقّف، أن أنتهي أخيراً، لكن مع بقائي قيد حياةٍ مجازية، أنْ أكون صفحةً من كتاب، خصلة شعرٍ مشعث، ارتعاشة اللبلاب جنب النافذة الموارِبة، الخطوات الغفل على الحُصيَّات الدقيقة للمنعطف، آخر دخانٍ متصاعد في القرية النائمة، السوط المنسي للبغَّال على الجانب الصباحي للطريق.. اللامعقول، الملتبس، الانطفاء - كل ما لم يكن حياة...

وأنام على طريقتي، بلا حلمٍ ولا راحة، هذه الحياة النمائية المفترضة، وتحت جفنيّ المحرومين من السكينة، يطفو، مثل زبدٍ آسنٍ لبحرٍ قذر، الانعكاس القصي لمصابيح الشارع الخرساء.

أنام وأخاصم النوم.

في الجانب الآخر مني، هنالك فيما راء الموضع الذي فيه أقيم، سكون المنزل يحاذي اللانهائي. أنصت إلى سقوط الزمن، قطرةً قطرة، وما من قطرةٍ تسقط يُسمع صوت سقوطها. أحسّ

بالرأس موضوعاً، على نحوٍ مادي، فوق الوسادة التي تُكوِّنُ وادياً[1] عندي، لغطاء الوسادة، مع جلدي، احتكاك شخصٍ بالظلّ. الأذن ذاتها التي أضطجع عليها تنحفر، رياضياً، في مواجهة الدماغ. أرمش من تعبٍ مرة وأخرى، وأهدابي تُحدث ضجةً غير مسموعة متناهية الصغر في البياض الحساس للوسادة المنصوبة. أتنفس، متنهداً، وتنفسي عبارةٌ عن حدثٍ لا ينتمي إليّ. أتألم بدون أن أحسّ أو أفكر. ساعة المنزل الآمن هنالك في منتصف اللانهائي، تعلن عن نصف الساعة اليابس الفارغ؛ كثيرٌ هو كلّ شيء، كل شيء مفرط في العمق، الكلّ شديد السواد كثير البرودة!

أعبر أزمنةً، أشكالاً من السكون، عوالمَ بلا شكل تعبُر من خلالي. فجأة، ديكٌ يغني، مثل مخلوقٍ من عالم السر، يغني وهو لا يعرف الليل. بإمكاني أن أنام، لأنَّ الصباح حلَّ بداخلي. أشعر بفمي يبتسم، مُزيلاً تجاعيد الوسادة الممسكة بوجهي. أستطيع التخلي عن الحياة، أستطيع النوم، أستطيع أن أتجاهل ذاتي... و، من خلال الحلم الجديد الذي يتعتَّم، يبدو، إما أنني أتذكر الديك الذي غَنَّى، أو أنه هو حقاً، من غنى مرةً ثانية.

(1929؟)

(1) الرأس يصنع تجويفة في الوسادة وهو ما يسميه المؤلف «وادياً» «Valle»، هذه الصورة تبدو مستوحاةً، ربما، من التعبير البرتغالي (وادي الملاءات) الذي يدل أحياناً، عائلياً، على السرير.

لكن آه، حتى المخدع ليس حقيقياً: المخدع القديم لطفولتي المفقودة! لقد نأى مثل غيمة، اجتاز مادياً، الجدران البيضاء لغرفتي الواقعية، التي برزت من الظل واضحة وصغيرة، مثل الحياة والنهار، مثل خطوة الحوذي والطقطقة الغامضة للسوط وهي تصنع عضلات من نزوله على جسد الدابة الوَسْنَى.

(1930)

اشتياقاتٌ مجهولة

أن تعيش معناه أن تكون آخر. لو أحسستُ اليوم على نحوٍ ما أحسستُ بالأمس فليس ذلك بإحساس، أن تحسّ اليوم بما أحسست به أمس لا يعدّ إحساساً: إنه يعني أنك تتذكر اليوم ما أحسستَ به أمس، وأنك اليوم الجثمان الحي لما كان بالأمس الحياة المفقودة.

باستقبالك ليومٍ جديد عليك بدفن كلّ ما يتعلّق باليوم الذي سبقه، كن جديداً فيٍ كلّ صباحٍ جديد، في عملية تجديدٍ مستديمةٍ لبكارة الإحساس: وهذا، وحده فقط، ما يستحق أن يمتلك بالنسبة إلى كينونتنا الناقصة.

هذه الصبيحة، هي الصبيحة الأولى في العالم. لم يسبق قط أن استقرّ هذا اللون الوردي ذو الصفرة الضاربة إلى البياض هكذا على الوجه الذي تجابه به قرية الغرب مكتظة بالعيون المبرنقة السّكونَ الآتي في النور المتنامي. هذه الساعة لم توجد قط، ولا هذا النور، ولا كينونتي هذه. غداً، كل شيء سيكون شيئاً آخر وما أراه أنا سيكون مرئياً بعينين أُعيد تركيبهما، مفعمتين برؤيةٍ جديدة.

أيتها الجبال الشامخة للمدينة! العمارات الشاهقة المدعومة

والمضخَّمة بمرتقياتٍ شديدة الانحدار، انزلاقات الأبنية المتراكمة بأشكالٍ شتى ممّا ينسجه الضوء من ظلالٍ وحرائق، أنتنَّ هن اليوم، هذا اليوم، أنتن أنا، لأنني أراكنّ ما [. . .] وأحبكن من الداخل مثل مركبٍ يمرّ بجانب مركبٍ آخر وهو يحمل حنيناً مجهولاً للمشهد.

1930-5-18

محض ابتذال

من ظلال سطيحة مقهاي أنظر بارتجافٍ إلى الحياة. أبصر منها القليل - الجلبة - في سويحتي النقية هذه. ثمة ضوءٌ مثل بداية سكر يوضح لي روح الأشياء. خارج ذاتي في خطوات العابرين تمضي الحياة الواضحة المتفق عليها.

في هذه اللحظة، شُلَّتْ حواسي والأشياء كلها تبدو لي شيئاً آخر: انطباعاتي تبدو خطأً غامضاً وجلياً. أفتح الجناحين لكنني لا أتحرك، مثل نسرٍ متخيل.

من يدري، بالنسبة إلى رجل المثاليات الذي أنا هو، إذا لم يكن أبعد طموحاتي في الواقع لا يتعدى احتلال هذا الموضع في هذه الطاولة من هذا المقهى؟

الكلّ باطل، مثل تقليب الرماد، وغامضٌ مثل اللحظة التي لمّا تَتحوَّلْ إلى فجر.

وينبجس النور، ما أصفاه وأكمله في الأشياء! يا للواقعية المبتسمة والكئيبة التي يذهّب بها الأشياء! كل غوامض العالم تتنزَّل حتى تقف أمام عيني لتُنحَت من محض ابتذال وشارع.

آه، يا للطريقة التي تلامس بها الأشياء اليومية الغوامض لأجلنا

نحن، والطريقة التي تصعد بها، إلى السطح الملامس من النور لهذه الحياة المعقدة لفرط إنسانيتها، الساعة، ابتسامةٌ غير أكيدة، إلى شفاه السر! يا للحداثي الذي يشوش بهذا كلّه! وهو في العمق من القدم، والخفاء، بحيث يكتسي معنى آخر يشعّ في هذا كله.

عُزلتي

لأنني أعرفُ كيف تمتلك الأشياءُ الأشدُّ صغراً فن تعذيبي بسهولة، لذلك أتفادى ملامسة أصغر الأشياء. مَن يتألّم مثلي لمرور غيمةٍ أمام الشمس، كيف لا يكون عليه أن يتألّم لعتمة النهار المغطى على الدوام بغيمة حياته هو؟

عزلتي ليست بحثاً عن سعادةٍ لا أملك روحاً لتحقيقها؛ ولا عن طمأنينةٍ لا يمتلكها أحدٌ إلّا عندما لا يفقدها أبداً، وإنما عن حلم، عن انطفاء، عن تنازلٍ صغير.

الجدران الأربعة لغرفتي هي بالنسبة إليّ، في آنٍ واحد، زنزانةٌ ومسافة، سريرٌ وتابوت. ساعاتي الأكثر سعادةً هي تلك التي لا أفكر فيها في شيء، ولا أرغب في شيء، ولا أحلم بالرغبة في شيء، ضائعاً في سباتٍ نباتي/ ملتبس/ من طحلبٍ محض ينمو في سطح الحياة. أستمتع بلا مرارة، بالوعي الباطل بكوني لا شيء، بالطعم المسبق للموت والاختناق.

لم يكن لديّ أبداً في أيّ وقتٍ من الأوقات مَن يمكن تسميته بـ«المعلم». لم يمت لأجلي أيّ مسيح. لم يدلني أي بوذا على الطريق. في أعالي أحلامي، لم يتجلَّ أي أبولو أو أثينا/ كي ينير لي الروح.

1920؟

خيط الشمس

الكلّ أضحى غير قابلٍ للاحتمال عندي، ما عدا الحياة: المكتب، البيت، الشوارع؛ حتى ما هو معاكس،/ لو كان في متناولي/ ، كلها تروعني وتضيّق عليّ الخناق؛ ما هو بجانبي يخفف عني فقط. أجل، بعضٌ من هذا كله كافٍ لتعزيتي. خيط الشمس النافذ بتمامه إلى المكتب الميت؛ مناداةٌ معلنة تصعد بسرعةٍ إلى نافذة غرفتي؛ وجود الناس؛ وجود المناخ وتبدلات الطقس، الموضوعية المدهشة للعالم.

شعاع الشمس تسرَّب نحوي فجأةً، فجأةً أبصرته... غير أنه كان خطاً من نور حاداً، بلا لونٍ تقريباً قاطعاً بسكين عارٍ الأرضية السَّوداء والخشبية، مؤججاً من حوله، المسامير العتيقة وتلمات الموائد، والخطوط السوداء لما لا بياض له.

الصناعي والطبيعي

ثمة براعةٌ تحلّ، متباعدةً، محل ذاتها. الحقل، في الفضاء المعتم، بحاجةٍ كبيرة إلى صخبٍ ملائم. سكون كل شيء يؤلم ويثقل على النفس. ثمة ضجر هلامي يخنقني. قلَّما أذهب إلى الحقل، لم يسبق لي أن أمضيت يوماً بكامله هنالك. لكنني اليوم بفضل هذا الصديق الذي أوجَدُ في بيته الآن، والذي لم يترك لي أي إمكانية لِعدم قبول دعوته، جئت مفعماً بالضيق - مثل خجولٍ يحضر إلى حفلٍ كبير - ثم وصلت إلى هنا فرحاً، راقني الهواء والمشهد الرحيب، تغذيت وتعشيت جيداً، والآن وقد تغلغل الليل، في غرفتي الخالية من النور، فإنَّ هذا المكان المبهم يملؤني غماً.

نافذة الغرفة التي سأنام فيها تطلّ على الحقل المفتوح لحقلٍ

لامحدود هو كل الحقول، وعلى الليل الهائل الغامض حيث يُحَسُّ النسيم اللامسموع. جالساً جنب النافذة، أتأمل بالحواس كل هذه الأشياء الوهمية من الحياة الكونية الموجودة هناك في الخارج. تبدو اللحظة ملائمةً لإحساسٍ مقلق بانتفاء رؤية كل شيء، حتى الخشب الخشن بسبب اندلاق الصباغة العتيقة للحاجز المُبيَّض، وانتشارها بدعمٍ من جانب يدي اليسرى.

رغمَ كلّ شيء، كم مرات، لم أتُقْ بصرياً إلى هذه السكينة التي تقريباً أفرُّ منها الآن، لو كانت يسيرة وملائمة. كم مرات مِلْتُ إلى الاعتقاد - هناك، بين الشوارع الضيقة للمنازل العالية - بأن السكينة، الكتابة، والنهائي موجودةٌ هنا وسط الأشياء الطبيعية قبل أن توجد هناك حيث بساط الحضارة يجعلنا ننسى الصنوبر المصور فوق المقاعد المُعَدَّة للجلوس! والآن أحسّ هنا، مع شعوري بأنني على ما يرام، باللاطمأنينة، وبأنني أسيرٌ ومشتاقٌ إلى مكانٍ آخر.

لا أدري إنْ كان هذا، إنما يحدث لي أنا أم لكلّ أولئك الذين جعلتهم الحضارة يولدون مرةً ثانية، لكن يبدو لي، سواء تعلَّق الأمر بي أو بمَن يحسون على شاكلة إحساسي نفسه، أنَّ ما هو مصطنع قد أصبح هو الطبيعي، وأنَّ الطبيعي أضحى غريباً وشاذاً أو بالأحرى: أنَّ المُصطنع لم يحلّ محلّ الطبيعي؛ وإنما الطبيعي أصبح مختلفاً. أصرف نظري عن هذا، وأكره المركبات، أكره منتجات العلم، التليفون، التلغراف - التي تجعل الحياة أسهل - أو منتجات الفانتازيا - الغرامافونات، الرادارات... إلخ التي تحقِّق التسلية لمن يريد التسلي. لا شيء من هذا يهمني، لا شيء من هذا يثير رغبتي، غير أنني أحب نهر التاج لأنَّ هناك مدينة كبيرة عند ضفته، أستمتع بالسماء لأنني أراها من خلال طابقٍ رابع في حي

Baixa، لا شيء ممّا يمنحه الخيال أو الطبيعة بإمكانه منحي ما يساويه الجلال الشاذ للمدينة الهادئة، تحت القمر، مرئيةً من La Garcia أو من Sao Pedro de Alcantara، لا توجد بالنسبة إليّ زهورٌ تماثل تلك التي توجد تحت الشمس، تلك التلوينات الشديدة التنوع للشبونة.

لا يحسّ بجمال جسدٍ عارٍ إلا السلالات الكاسية. الحياة بالنسبة إلى الشهوة تعادل ما يساويه العائق في وجه الحيوية.

الاصطناعي هو الطريقة المبتكرة للاستمتاع بالطبيعي. ما استمتعتُ به في هذه الحقول الشاسعة، إنما استمتعتُ به لأنني لا أعيش هنا. مَن لم يضطهد قط لا يشعر بالحرية. الحضارة هي تهذيبٌ للطبيعة، المصطنع هو طريقٌ لأجل الدنو ممّا هو طبيعي.

لكن ما هو صحيح، مع ذلك، هو أننا لا نملك الاصطناعي البتة وفقاً للطبيعي. ذلك أنه في التناغم القائم بين الطبيعي والصناعي تتكون طبيعة الروح الإنسانية العليا.

نظرةٌ قصيرة إلى الحقول من فوق سورٍ من أسوار الضواحي تحررني تماماً أكثر ممّا يحرِّر سفر كامل غيري من الأشخاص. كل زاوية نظر هي رأس هرمٍ مقلوب لا يمكن تحديد قاعدته.

شاي العاشرة

في الأيام الأولى للخريف الذي حلّ فجأةً، عندما تُبْرِزُ العتمة جلاء شيءٍ سابق لأوانه، ويبدو أننا نتأخر كثيراً في ما نقوم به من أعمال اليوم، يحلو لي أن أستمتع، مع ذلك، وسط الشغل اليومي، بعدم القيام بأي عملٍ كاستباقٍ يحمله معه، الظل نفسه، لكون الليل قد حلّ والليل معناه، الأحلام، والبيوت والتحرُّر من الأعمال.

عندما تشعل الأضواء في المكتب الواسع الذي لم يعُد مظلماً، وننخرط في الأحاديث بدون أن نتخلى عن العمل نهاراً، أحس بعزاءٍ غريب مثل ذكرى تخصّ شخصاً آخر، متمتعاً بالهدوء بفعل ما أكتب كما لو كنت مستغرقاً في القراءة حتى الشعور بأنني على وشك النوم.

نحن جميعاً عبيدٌ لظروفٍ خارجية: مجرد نهار الشمس يفتح لنا حقولاً واسعة وسط مقهى أحد الأزقة؛ ظل في حقل ما يجعلنا ننكمش نحو الداخل، ونلوذ سيئاً بالبيت العديم الأبواب لذواتنا نحن، مجرد حلول الليل، حتى وسط أشياء النهار، يُوسِّعُ مثل مروحةٍ تنفتح ببطء، الوعيَ الحميمَ بضرورة الراحة.

لكن، مع هذا، لا يتمّ تأخير العمل، إنما يتم تحفيزه. ما من عملٍ لدينا الآن، نحن نستريح بما نحن محكومون به. الدار القديمة للخالتين العجوزين، مغلقة في وجه العالم، شاي العاشرة صحبة إغفاءتهما، والمصباح النفطي لطفولتي المفقودة إذ يضيء المائدة الكتان، يُعتّم، بنوره، رؤية موريرا مضيئاً بكهرباء سوداء، لا نهائيات أبعد من ذاتي. يأتيني بالشاي - إنها الخادم الأسَنُّ من الخالتين تحمل لي الشاي مع بقايا الحلم والخليط السيئ لحنان الخضوع القديم - وأنا أكتب بدون أن أخطئ في أي وثيقةٍ أو حصيلةٍ حسابية على امتداد كل ماضيّ الميت. أجترني ثانية، أضيع في ذاتي، أتناسى الليالي البعيدة، المنقاة من الواجب ومن العالم، من السر ومن المستقبل.

وإنه لإحساسٌ شديد النعومة هذا الذي يذهلني عن المطلوب مني، وهذه الطريقة الناعمة التي ينبغي عليّ أنْ أجيب بها فيما لو طرح أحدٌ الأسئلة، لو أنَّ كينونتي قُدَّت من أثير كما لو لم أكن بأكثر من الآلة الكاتبة التي أحملها معي، لا يصدمني انقطاع أحلامي:

لشدة نعومتهن، أواصل الحلم بهن وراء الكلام، الكتابة، الإجابات، وحتى الحديث. وبعد كل شيء يَنْفَدُ الشاي المفقود. والمكتب في طريقه إلى الإغلاق. . . أرفع الكتاب، الذي أغلقه بتمهُّل، عيناي منهكتان ببكاءٍ لم تذرفاه، وعبر اختلاط مجموعة أحاسيس، أعاني من كون حلمي سوف يجهض لحظة إغلاق المكتب، ومن أنَّ حركة اليد التي أغلق بها الكتاب، تحجب الماضي المتعذّر إصلاحه؛ ومن أنني آوي إلى فراشي بدونما حلم، بدون رفقة، بدون طمأنينة، بمدٍّ وجزر وعيي المشوش مثل اختلاط بحرين في الليلة السوداء، عند نهاية غايات الشوق الأسمى.

1929؟

ضبابٌ أم دُخان؟

ضبابٌ أم دُخان؟ من الأرض تصاعد أم تَنَزَّلَ من السماء؟ لا أحد يدري: لقد كان أشبه بمرضٍ أصاب الأجواء أكثر منه نزولاً أو انبثاقاً. أحياناً يبدو أنَّ الأمر يتعلَّق بمرضٍ في الأعين أكثر ممّا بواقعٍ طبيعيّ.

كائناً ما كان الحال، ثمة قلقٌ معتكر يسري في المشهد بكامله، مصنوعٌ من نسيانٍ ملطّف. كما لو أنَّ سكون الشمس الكدرة يحسب نفسه جسداً ناقصاً. سيقال إنَّ شيئاً ما على وشك الحدوث وإنَّ ثمة عبر كل الجهات، حدساً بموجبه ستنحجب المرئيات.

لقد كان من العسير تحديد ما إذا كان في السماء غيوم أم مجرد ضباب. كان هناك خَدَر مُغشًّى بالبخار، بتلويناتٍ هنا وهناك، برماديٍّ ضاربٍ للاصفرار، ما عدا المناطق التي تحول فيها إلى لون وردي زائف، أو حيث انحبس ميالاً إلى الازرقاق، لكن هناك لا

يمكن تمييز ما إذا كانت السماء هي التي انكشفت، أم أنَّ زرقةً أخرى هي التي حجبتها.

لم يكن هناك شيء محدَّد، ولا حتى لا المحدد ذاته. لذلك أحببت تسمية الضباب دُخاناً، لأنه لا يبدو ضباباً، حرارة الجو نفسها ساهمت في الارتياب. لم تكن حرارة، ولا برودة ولا هواء رطباً؛ يبدو أنَّ درجاتها مكوّنة من عناصر مستخلصة من أشياء أخرى غير الحرارة. سيقال، حقاً، إنَّ ضباباً بارداً أمام الأعين كان ساخناً عند اللمس، كما لو أنَّ اللمس والنظر كانا طريقتين محسوستين للحاسّة نفسها.

لم يكن هناك حول محيط الأشجار، أو في زوايا المكاتب، ظلال النتوءات أو الزوايا الحادة التي يجلبها الضباب الحقيقي، عند إناخته، أو يفتحها ويعتمها قليلاً الدّخان الحقيقي الطبيعي. كان ذلك كما لو أن الأشياء تعكس ظلاً نهارياً مبهَماً، في جميع الاتجاهات، بدون ضوءٍ يفسِّرها كظلال، بدون مكان يأتي منه الانعكاس الذي يبرِّرها كظلالٍ مرئية.

لم تكن حتى مرئية: كانت أشبه ببداية المضيِّ إلى رؤية شيء، شيء متماثل في كلّ الجهات، كما لو أنه بانكشافه يرتاب في كونه متماثلاً بالفعل. ثم أيّ إحساسٍ كان؟ استحالة امتلاك إحساسٍ محدد، القلب مهشمٌ في الرأس، الإحساسات متداخلة، سبات وجودٍ يستيقظ، شيءٌ حيوي كالمسموع يتصفى، باتجاه انكشافٍ نهائي، لا مُجدٍ، دائماً بصدد البروز مثلما الحقيقة، دائماً، كالحقيقة توأمُ ما لا يتبدّى أبداً.

حتى الرغبة في النوم، المذكّرة بالتفكير، استبعدتها، لكون التثاؤب المحض والضروري لتحقيقها بدا لي بحاجةٍ إلى مجهود.

حتى الكفّ عن النظر يؤلم العينين - ناهيك بالنظر - وفي التنازل العديم اللون للروح بكاملها، وحدها الضوضاء الخارجية، القصيَّة، تمثل العالم المستحيل الذي ما زال موجوداً.

آه، عالمٌ آخر، أشياءُ أخرى، روحٌ أخرى للإحساس بالأشياء، فكرٌ آخر لمعرفة هذه الروح! الكل، كلّ شيء، حتى الضجر، إلا تَعَتُّمَ الروح والأشياء، وهذا التخلي المُزرَقّ للاتَحَدُّدِ الأشياء كلها.

1932-11-2

غوامض وشرفات

بعد كل الأيام الممطرة، تعيد السماء زرقتها المختفية إلى الفضاءات الواسعة للأعالي. وسط الشوارع، حيث ترقد البرك مثل مستنقعات الحقول، وحيث الفرح الناصع المتجمِّد في العلوّ، ثمة تعارضٌ يجعل الشوارع القذرة لطيفة وسماء الشتاء المكدرة ربيعية. إنه يوم أحد وليس لديّ ما أفعله، ولا حتى الرغبة في الحلم تراودني. أستمتع بالمشهد مع اللطافة الفائقة لهذا اليوم بصدق حواسّيٍّ تخلت عنه البصيرة. أتجول مثل مستخدمٍ طليق. أحسني شائخاً، لأجل الحصول على لذة إحساسي بعودة شبابي فقط.

في الساحة الأحدية الكبرى تجري حركةٌ احتفاليةٌ لشاكلةٍ أخرى من النهار. في كنيسة سانت دومينغو ثمة قداسٌ ينتهي وآخر سيشرع فيه. أرى بعض الخارجين من القداس ومَن لم يدخلوا بعد، منتظرين بعض الذين لا يرون مَن يخرج منها.

كلّ هذه الأمور تفتقر إلى الأهمية. إنها مثل كلّ أشياء الحياة المبتذلة. حلم الغوامض والشرفات وأنا مثل رسولٍ عبَّر عن مقصد رسالته، أحدِّق في سهل تأملاتي الخاصة.

لطالما ذهبت في الماضي، وأنا طفل، إلى هذا القداس، مرتدياً أفضل بدلةٍ لي، كيما أستمتع بكل شيء، حتى بما لم يكن من حقي الاستمتاع به. كنت أعيش خارجياً، والبدلة كانت نظيفةً وجديدة. مَن عليه أن يموت بدون أن يعرف ذلك من أمه ماذا يريد أكثر من هذا.

في الماضي استمتعت بهذا كله، لذلك، ربما في هذه الساعة فقط، أدرك كم كانت متعتي كبيرة. كنت أدخل لسماع القداس كما لو لاكتشاف سرٍّ كبير، ثم أخرج منه كما لو صوب الجلي المعلن. وهكذا كانت الحقيقة، ولا تزال هي الحقيقة. بالنسبة إلى الكائن غير المؤمن فقط. والراشد تبدو هذه الأشياء محض خيال واختلال، إهمالاً، ومكيدةً باردة.

أجل، ما كنت لأتحمل كينونتي الراهنة لو لم أكن قادراً على تذكر ما كنته من قبل. وهذا الحشد الذي لا يزال يواصل الخروج من القداس، ثم طليعة الحشد المحتملة التي بدأت في الوصول قصد الدخول في حشدٍ آخر. كل هذا أشبه بمراكب تمرّ بجانبي، على نهرٍ بطيء، تحت النوافذ المفتوحة لمسكني المقام على الضفة.

ذاكرات، آحاد، قداسات، متعةُ أن أكون موجوداً، معجزة الزمن الذي تبقى لكونه مضى، ولم ولن أنسى أبداً لماذا كان زمني الخاص... انحرافٌ لامعقول للأحاسيس المحتملة، ضجيجٌ مباغت لعربة الساحة بصوت عجلاتها في عمق الصمت الصاخب للسيارات، وكيفما كان الأمر، وبفضل مفارقةٍ زمنية أمومية، أستمر اليوم، وهنا بالذات، بين ما أنا وما أضعته...

ما مبلغ معرفتي؟ عمّ أبحث؟ ماذا أحسّ؟ ماذا سأطلب لو كان عليّ أن أطلب شيئاً؟

1931-2-1

بفضل النسيان

بين كاسكايس[1] ولشبونة أهذي. ذهبت إلى كاسكايس لأداء ضريبةٍ للمدير فاسكيز تخصّ منزلاً يملكه في إستوريل. استمتعت مسبقاً بلذّة التسكُّع هنا وهناك، ناظراً إلى الأوجه المختلفة دائماً للنهر العظيم[2]، وإلى مصبه الأطلنتيكي. في الحقيقة، ما إن ذهبتُ إلى هناك حتى وجدتني ضائعاً في تأملاتٍ مجردة، ناظراً بدون نظر إلى المشاهد المائية التي طالما أبهجني الذهاب لرؤيتها، ولدى عودتي وجدتني ضائعاً في تأمل هذه الانطباعات. لن يكون بمقدوري وصف أضأل تفصيلٍ من تفاصيل السفر، ولا أقصر لحظة ممّا شاهدت. لقد ربحت هذه الصفحات بفضل النسيان والتناقض وحسب. لا أدري إن كان ذلك أحسن أو أسوأ من العكس الذي أجهل أيضاً ما هو.

القطار يتراخى. إنه Cais do Sodré[3]، لقد وصلت إلى لشبونة، لكن لم أصل إلى أي نتيجة.

أخويات

بسبب ما أحدثه لديّ الإحساس الجسدي من ضيقٍ وقلقٍ قديم يصل أحياناً إلى حدّ الانفجار، لم آكل، اليوم، جيداً، ولا شربت ما أشرب دائماً، في المطعم، أو في بيت الوجبات الطعامية، الذي في

---

(1) Cascais : مدينة معروفة كمنتجعٍ استحماميّ واقعة عند الجنوب الغربي من لشبونة وقريبة جداً منها.

(2) نهر التاج.

(3) رصيف على نهر التاج، إلى الغرب وقريبٌ جداً من Praça do Comércio.

طابقه الوسيط تتأسَّس استمرارية وجودي. ولأنَّ النادل لاحظ، عند خروجي، أنَّ قنينة النبيذ تركت مملوءةً للنصف، فقد اتجه نحوي قائلاً: «إلى اللقاء، يا سيد سوارش، أتمنى أن تتحسن حالتك».

ما إن تلفظ بهذه العبارة البسيطة حتى انفرجت روحي كما لو أنَّ غيوماً في سماء أزيحت فجأةً بفعل الريح. وحينئذٍ اكتشفت ما لم أتمكن قطّ من اكتشافه بوضوح: ذلك أنني وجدتُ في نُدُل المطاعم والمقاهي هؤلاء، في الحلاقين، في حمالي الزوايا لطافةً تلقائية، وطبيعية، لا أستطيع أن أزهو بتلقيها ممّن يعاملونني بكثيرٍ من الحميمية.

إنّ للأخوة لطافتها.

بعضٌ يحكمون العالم، آخرون هم العالم. بين مليونيرٍ أميركي له أموالٌ في إنجلترا أو سويسرا، وبين الرئيس الاشتراكي لأيّ قرية، لا توجد فوارق في الكيف، بل في الكمّ. أسفل [. . .] هؤلاء، نحن، الخاملون، المؤلف المسرحي الغافل وليم شكسبير، معلم المدرسة جون ميلتون، المتشرّد دانتي أليجيري، الحمال الذي قام بخدمتي أمس، الحلاق الذي يحكي لي النوادر، النادل الذي تصرف معي بأخويةٍ متمنياً لي ذلك التحسن لأنني شربت فقط نصف قنينة نبيذ.

عشاء

الرجل النحيف ابتسم بخمول. نظر إليّ بارتيابٍ خالٍ من سوء النية. ثم ابتسم من جديد، لكن باكتئاب. ثم غضّ، مرة أخرى، عينيه، صوب الصحن وواصل عشاءه في سكونٍ ومصمصة.

1917-9-18

هيأة شخصٍ مجهول

لقد اكتشفتُ أنني دائم التفكير، ودائم التنبُّه إلى كل الأشياء في آنٍ واحد، أفترض أنَّ الجميع مثلي إلى حدٍّ معيّن. ثمة بعض الانطباعات لا نعرف إلّا فيما بعد، لالتباسها الشديد، وتذكُّرنا لها، أننا امتلكناها بالفعل؛ من تلك الانطباعات، سيتكون قسم - هو القسم الباطني، ربما - من التنبُّه المزدوج لسائر الناس. يحدث أنَّ الواقِعَيْن موضوع انتباهي يملكان الملامح نفسها. وفي هذا، ربما تكمن مأساتي وملهاتها.

أكتب بتنبُّه، منحنياً على الكتاب الذي أدوّن فيه بقعودي التاريخ اللامجدي لتوقيعٍ غامض؛ بينما يتابع فكري، في الوقت نفسه، بالتنبه نفسه طريق سفينةٍ لا وُجود لها عبر مشاهد شرقٍ ليس له وجود. الشيئان معاً جليان بالدرجة نفسها، وبالدرجة نفسها مرئيان بالنسبة إلي: الورقة التي أكتب عليها باحتراس، بالخطوط المسطرة، أبيات الملحمة التجارية لـ فاسكيز وسيا... والـ Convés الذي أنظر إليه بحذر، الواقع بجانب القاعدة المطلية بالقطران لفجوات الطاولات، الكراسي الطويلة المصفوفة، وقوائم الأرجل البارزة للمستريحين من السفر.

(لو كنت صُدمت من طرف دراجة طفل، لصارت تلك الدراجة الطفولية جزءاً من تاريخي)...

يتدخل الخارج من صالة التدخين، لذلك، لا يظهر منه سوى قدميه.

أضع الريشة في المحبرة فيما باب قاعة التدخين - [...] حتى بمحاذاة المكان الذي أجلس فيه - تخرج هيأة شخصٍ مجهول. يُدير لي ظهره ويتقدَّم نحو الآخرين. طريقة مشيه بطيئة والمؤخرة لا تعني

الكثير. أغيّر المقعد، أحاول أن أرى كيف حصل مني الخطأ. إنه منّي وليس في حساب ماركيزٍ أراه بديناً، لطيفاً، فكهاً، وفي لحظةٍ ما يختفي المركب[1].

من قبل كنت من هنا

من خلال تسريبات الضوء والظلّ، في القرية - أو النور، بالأحرى - حلَّ الصباح بالمدينة. يبدو أنه لم ينبع من الشمس، بل من المدينة. من الجدران ومن السطوح انبعث النور من الأعالي. . .

أحسّ، مع هذا الصباح، بأملٍ كبير غير أنني أعرف أنَّ الأمل مخلوقٌ أدبي. الصباح، الربيع، الأمل عناصر توجد متّحدة موسيقياً للمقصد النغمي نفسه؛ متحدةً في الروح بفعل التذكر نفسه وللغاية ذاتها. لا: لو راقبت ذاتي، كما أراقب المدينة، لعلمتُ أفضل أنَّ ما ينبغي أن أتوقعه هو أن ينتهي هذا اليوم مثلما انتهت كلّ الأيام. العقل بدوره يرى الفجر. الأمل الذي علقته عليه، لم يكن يخصني ولو ظفرت به: كان من نصيب الرجال الذين يحيون اللحظة الماضية، والذين من خلالهم، جسَّدتُ، بدون إرادةٍ مني، الإدراك الخارجي لهذه اللحظة.

أن أتوقع؟ ماذا لي أن أتوقع؟ النهار لا يعدني بأكثر من النهار. وأنا أعلم أنه عابرٌ ومنتهٍ، النور ينشطني لكنه لا يجعلني أفضل. إذن سأمضي من هنا مثلما جئت إلى هناك، أكثر شيخوخةً زمنياً، مع إحساسٍ أكثر فرحاً، وتفكيرٍ أشدّ حزناً. بإمكاننا أن نحس كثيراً بما يولد مثلما بإمكاننا التفكير فيما سيموت. الآن، مع النور الشاسع

---

(1) عبارةٌ غير واضحةٍ في الأصل.

والعالي، يبدو مشهد المدينة مثل مشهد حقلٍ مؤثثٍ ببيوتات، يبدو طبيعياً، فسيحاً، مركباً، لكن هل أستطيع حتى في رؤيتي لهذا كله، نسيان أنني موجود؟ أنَّ وعيي بالمدينة، من الداخل ليس سوى وعيي بي.

أتذكرني فجأةً عندما كنت طفلاً يرى - كما لا أستطيع أن أرى اليوم - الصباح ينشر أشعته على المدينة. حينئذٍ لم يكن ليُشيع ضوءه لأجلي، بل لأجل الحياة، لأنني حينئذٍ (ليس بفعل الوعي) كنت أرى الصباح فأحس بالبهجة[1]؛ واليوم أرى الصباح، فأحسّ بالبهجة، ثم تعتريني الكآبة. لقد بقيت الطفل نفسه، لكنه الآن أبكم. أرى مثلما كان يرى، لكن من وراء العينين أراني رائياً إلى الأشياء؛ وبذلك فقط تتعتم الشمس لديّ ويشيخ اخضرار الأشجار والأزهار تذبل قبل ظهورها. أجل، أنا من قبل كنت من هنا، واليوم، أصبحتُ، بالنسبة إلى أي مشهدٍ طبيعي، مهما كان جديداً علي، غريباً، يتيماً، أجنبياً عمّا أراه وأسمعه، عجوزاً بالنسبة إلي.

لقد رأيتُ كل شيء حتى ما لم أره قط وما لن أراه أبداً. في دمي يجري أفضل المشاهد المستقبلية، بينما ضجرُ ما لا بدَّ لي من رؤيته من جديد هو بمثابة رتابةٍ مسبقة أضجر وأغمّ.

ومطلاً من مسند النافذة، مستمتعاً بالنهار، على المدينة بكاملها، ثمة تفكيرٌ واحد يملأ الروح: الرغبة الحميمة في الموت، في الانتهاء، في عدم رؤية مزيدٍ من النور فوق أي مدينة، في عدم

---

(1) بدلاً من: فأبتهج أو أفرح لأننا نصر عن قصد في كل السياقات على الأمانة الحرفية في أداء بعض الصيغ والأفعال المركزية في الكتابة البيسوية كما هو الحال بالنسبة إلى فعل: أحسّ هنا.

الإحساس، في أن أترك ورائي مثل ورق التلفيف، مجرى الشمس والأيام، في أن أنتزع، مثل بدلةٍ ثقيلة، على حافة السرير الأكبر، المجهود اللاإرادي للكينونة.

1932؟

أحلُم لأنني أحلم

الابتذالية مسكن. اليومي أمومي. بعد غارةٍ مطولةٍ للشعر العظيم، صوب مرتفعات الإلهام السامي، صوب مرتفعات المتعالي والمحجوب، أعرف جيداً كم سيكون مؤثراً في الحياة، أن أعود إلى ذلك المسكن حيث البلهاء السعداء يقيمون ضاحكين، وأن أقاسمهم الشراب، أبله مثلهم، مثلما خلقنا الله، فرحاً بالكون الذي مُنِحْنَاهُ وتاركاً ما سوى ذلك لمن يتسلقون الجبال لكي لا يصنعوا شيئاً هنالك في الأعالي.

لا شيء يمكن أن يغيِّر قناعتي بخصوص ما يمكن أن يُقال عمّن أعتبرهم مجانين أو بلهاء، ذلك أنَّ بإمكانهم أن يتفوقوا على الناس العاديين في الكثير من حالات ورهانات الحياة. المصابون بالصرع، أقوياء جداً لحظة الهجوم، الذهانيون قادرون على المماحكة بقدرة بعض الناس العاديين على التفكير نفسها؛ الهذيانيون قادرون بهوسٍ ديني على تجميع حُشودٍ من المؤمنين بقوةٍ باطنية لا يتوفر عليها أعتى الديماغوجيين في تجميعهم للأتباع والمريدين. وهذا كله ما هو إلا دليلٌ على أنَّ الجنون جنون. أفضّل أن أتكبد الهزيمة مع المعرفة بجمالية الأزهار على النصر في وسط القفار، ممتلئاً بعمى الروح وهي وحيدة رفقة خوائها المنعزل.

أحياناً يخلق فيَّ الحلم الفارغ رعباً من الحياة الباطنية، غثياناً

فيزيقياً تجاه التأملات وأشكال التصوف. بسرعةٍ كبيرة أبتعد مهرولاً عن المنزل الذي كنت أحلم فيه، نحو المكتب؛ فإذا بي ألتقي بوجه موريرا كما لو أنني رسوت أخيراً على مرفأ. سأفضّل، لو اعتبرنا الكل على ما يرام، موريرا على عالم النجوم؛ أفضّل الواقع على الحقيقة؛ أفضل الحياة، لمَ لا، على الله الذي خلق الحياة. هكذا وهبني إياها، هكذا سأعيشها. أحلم لأنني أحلم، لكنني لا أعاني من ضرر منح الأحلام قيمةً أخرى غير كونها مسرحي الباطني، مثلما لا أمنح الخمر، الذي لم أمسك عنه بعد، تسمية غذاءٍ أو ضرورةٍ من ضرورات الحياة.

لست إياي

لقد رفضتُ دائماً أن يفهمني الآخرون. أن أكون مفهوماً معناه أن أتعهّر. أفضل أن أُعامَل جدياً كمن لستُ إياي، متجاهَلاً إنسانياً، بلباقةٍ وعفوية.

لا شيء بإمكانه أن يغيظني أكثر من أن أصبح موضع استغرابٍ من طرف العاملين في المكتب، أرغب في أن أستمتع لحسابي الخاص، بالسخرية الناجمة عن عدم استغرابهم إيَّاي، أريد أن أرتدي المسح الذي يوهمهم بمماثلتي لهم. أريد الصَّلْب الذي يَحُول دون تعرُّفهم عليّ. ثمة شهداءُ أشد خفاءً من أولئك المذكورين في زمرة القديسين والنسّاك. هناك أنواعٌ من التعذيب للذكاء مثلما للجسد وللرغبة، من بينها التنعُّم.

عندما أرى هِرّاً تحت الشمس

حقيرٌ مثل نهايات الحياة التي نعيشها بدون أن نرغب في مثيلاتها.

أغلب الرجال، إنْ لم يكن جميعهم، يحيا حياةً حقيرة، حقيرة في كل أفراحها، حقيرة في كل آلامها تقريباً، باستثناء تلك المتعلقة بالموت، حيث يتدخَّل السر والحياة ذاتها تفقد حقيقتها.

أستمع، إلى الجلبات الصاعدة/ سيالةً ومتفرقة، مصفاةً عبر تسليتي في موجاتٍ سيالة داخلياً بلا قصد ومن الخارج، كما لو أنها قدمت من عالمٍ آخر: صيحات باعةٍ يبيعون أشياء طبيعية، مثل الخضروات، أو اجتماعية، مثل ورق اليانصيب، المرور المدور للعجلات - عربات وثابة - سيارات مسموعة من خلال الحركة أكثر من الدوران؛ اهتزاز أيّما قماش في أيما نافذة؛ صفير الصبي؛ قهقهة الطابق العالي؛ أنين الترام المعدني في الشارع الآخر؛ ما ينشأ عن العرضي من خليط؛ تصعيدات، انحدارات، أشكال الصمت المتولِّدة عن المتنوع؛ أصوات النقل الرعناء؛ بضع خطوات؛ بدايات أوساط ونهايات أصوات. وهذا كله موجود بالنسبة إلي، أنا الذي أنام مفكِّراً فيه، مثل حجرٍ وسط العشب، ومراقباً، كل شيءٍ من خارج أيّ مكان.

بعدئذٍ، داخل البيت بالقرب من المكان، تلتقي الجلبات بمثيلاتها: بالخطوات، الصحون، المكانس، الغناء المُوقَف - (نصف فادو) - العشية المتفق عليها في الشرفة؛ صوت الغضب ممّا ينقص المائدة؛ طلب السجائر التي تُركت موضوعةً فوق المائدة. هذا هو الواقع، الواقع المعنِّن[1] الذي لا يدخل في حساب تخييلي.

---

(1) من العنة.

الخطوات الرشيقة للفتاة، خُفّاها المزدانان بشريطٍ أحمر وأسود، هكذا أستعيد رؤيتهما، صوتها يستعير بعضاً من ذلك الشريط الأحمر والأسود، الخطوات الواثقة، الثابتة لجزمة ولد العائلة وهو يخرج مودِّعاً بصوتٍ عالٍ، صافقاً باب المنزل قاطعاً بذلك الصدى الذي يأتي حتى بعد. . . ؛ ثمة سكونٌ يحلّ، كما لو أنَّ العالم قد انتهى في هذا الطابق الرابع العالي؛ صوت آنية الخزف في طريقها إلى التنظيف؛ جريان الماء «وإذن ألم أقل لك إن. .». . . ويصفر السكون من خلال النهر.

لكنني وسنان، وخلاق خيالات. . . وإنه لَعجيبٌ أن تفكر في أنني لست راغباً، لو طرح عليّ السؤال في هذه اللحظة، في تفضيل حياةٍ قصيرةٍ، على هذه الدقائق البطيئة، وهذا التفكير الباطل، وهذه العاطفة، وهذا الفعل المبدّد للإرادة. وإنني لأتأمَّل تقريباً بدون تفكير، كيف أنَّ غالبية الناس، بل مطلقهم، في أعلى الهرم كانوا، أم في أسفله، واقفين أم راجلين، يحيون بالدوار نفسه في الغايات الأخيرة، التخلي نفسه عن الأهداف المرسومة، الإحساس نفسه بالحياة. دائماً عندما أرى هراً تحت الشمس أذكر الإنسان. دائماً عندما أراه نائماً أتذكر أنَّ كل شيء منام. دائماً عندما يحدّثني أحدهم عن أحلامه، أفكِّر فيما لو لم يكن قد فعل شيئاً آخر غير الحلم.

صخب الشارع يزداد، كما لم أنَّ باباً قد فتح، فشرع في دقّ الباب.

ما حدث ليس بشيء لأنّ الباب أغلق على الفور. الخطوات تتوقف عند نهاية الممر، الصحون المأخوذة للتنظيف تُعلي من صوت الماء وآنية الخزف [. . .].

أنهض من الكرسي بمجهود هائل، لكنني أملك انطباعاً بأنني أحمل الكرسي معي، وبأنه أثقل ممّا هو بالفعل، لأنه كرسي الذاتية.

نجمع ونمضي

أشياء اللاشيء، طبائع الحياة، تفاهات الاعتيادي والمبتذل، غبار يشدِّد بخطٍّ منطفىء ومضحك على قذارتي وخساسة حياتي الإنسانية.

كتاب الصندوق[1] مفتوح أمام العينين الحالمتين بكلّ المشارق؛ النكتة اللامؤذية لرئيس المكتب الذي يؤذي الكون برمّته؛ إشعار المدير أنّ عليه أن يتلفن لصديقته [...]. وسط لحظة التأمل الأكثر عمقاً في نظرية إستيتيقية وذهنية.

لدى الجميع رئيس مكتب يحكي نكتاً غير ملائمة على الدوام، ولديه روح خارج الكون بتمامه. لكل واحد مديره وصديقة المدير، والمكالمة الهاتفية في اللحظة غير الملائمة دائماً عند نزول المساء العذب، وحينما تخاطر العشيقة [...] بالتحدث إلى صديقها الذي يقضي حاجته في المرحاض كما نعلم جميعاً.

لكن جميع الذين يحلمون، ولو لم يكونوا يحلمون في مكاتب Baixa، ولا أمام كناش مخزن الأقمشة يملكون جميعاً كتاب الصندوق أمامهم - سواءٌ كانت المرأة التي تزوجوها، أو [...] من مستقبل حصل عليه بالوراثة، كائناً مَن كان ذلك...

بعدئذٍ يأتي الأصدقاء، فتيان طيبون، من المفرح جداً التحدث معهم، وتناول العشاء معهم، وكل شيء، لا أدري كيف، دائماً في مخزن الأقمشة دائماً، بالغ الحقارة، والقصر والصغر، دائماً في مخزن الأقمشة حتى وأنا في الشارع، دائماً أمام كتاب الصندوق

---

(1) يقصد الصندوق المالي باعتباره مساعد محاسب في المؤسسة التجارية التي يعمل بها.

ولو كنت في الخارج. دائماً مع المدير حتى ولو كنت في اللانهائي.

كلنا نحن الحالمين، المفكرين كلنا مجرد مساعدي محاسبين في مخزن أقمشة أو في أي Baixa أخرى. نسجِّل الأرباح ونحن الخاسرون؛ نجمع ونمضي؛ نغلق الميزانية والرصيد الخفي دائماً علينا.

أكتب متباسماً مع الكلمات، بَيْدَ أنّ قلبي يبدو كما لو بإمكانه الرحيل، الرحيل مثل الأشياء التي تتحطَّم إلى أجزاء، إلى قطع، إلى قمامة تأخذها بإشارة من فوق الكتف عربة لانهائي البلديات كافة والكل كل شيء، مفتوحاً رمزياً، ينتظر الملك الذي سيأتي وقد وصل الآن، غبار الموكب عبارة عن ضباب شرق بطيء والرماح تسطع في المسافة بفجرها الخاص.

تقاطعات

كلما سما مقصدي، بتأثير من الأحلام، فوق قمة المستوى اليومي لحياتي وخلال لحظة إحساسٍ بعلوٍّ قامتي، مثل الطفل في أرجوحة، إلّا وكان عليّ أن أنزل مثله (الطفل) إلى الحديقة العمومية وأن أتعرف على هزيمتي من غير حرب ولا سيف يحتاج إلى القدرة على من يسلّه من غمده.

أفترض أن غالبية من أتقاطع معهم في مصادفات الشوارع يحملون معهم - ألاحظ ذلك من الحركة الصامتة للشفاه ومن التردُّد الغامض للأعين أو من رفعهم الصوت أثناء صلاتهم الجماعية - القذيفة نفسها المُعَدة للحرب اللامجدية لجيش بلا رايات. وهم جميعاً سيتكبدون - أرجع إلى الوراء متأملاً أظهرهم، أظهر

المهزومين المساكين - مثلي تماماً، الهزيمة السافلة الكبرى بين الطمي والأسل، بدون ضوء قمر في الضواحي، ولا أشعار في المستنقعات.

لدى الجميع مثلما لديّ، قلب متحمس وكئيب، أعرفهم جيداً: بعضهم مستخدمو دكاكين، بعض مستَخدَمون في مكتب، آخرون يتاجرون في أشياء صغيرة؛ آخرون يعيشون من أرباح المقاهي ومحلات القمار... [...] لكنهم جميعاً، يا للمساكين، شعراء، ويجرجرون، أمام عيني، كما أجرجر أنا أمام أعينهم، بؤس لانَفْعِنا المشترك نفسه. وهم جميعاً مثلي تماماً يملكون المستقبل في الماضي.

والآن بالذات وأنا أترك المكتب وكُلِّي خمود، بينما الجميع إلّاي، قد ذهب لتناول الغذاء، أنظر من النافذة المغشاة بالبخار إلى العجوز المترجف الذي يجتاز ببطء رصيف الجانب الآخر من الشارع. ليس بسكران؛ بل حالماً يسير. إنه متنبِّه إلى ما ليس له وجود؛ ربما لا يزال يتوقع ما يتوقع... لو كان الآلهة عادلين في لاعدالتهم لظلّوا محتفظين لنا بالأحلام المستحيلة ووهبونا أحلاماً طيبة، ولو كانت خفيفة. اليوم، بإمكاني ما دمت لم أشخ بعد، أن أحلم بجزر الجنوب وببلدان هند مستحيلة؛ غداً ربما أُمنَح من لدن الآلهة نفسها حلم أن أكون رَبَّ طبكيرية صغيرة أو مبتهجاً في أحد منازل الضواحي. الأحلام كلها عبارة عن حلم واحد، لأنها جميعاً أحلام. للآلهة أن تغيِّر أحلامي لا فعل الحلم ذاته.

أثناء هذا الفاصل من التفكير انسحب العجوز من مجال انتباهي. لم أعُد أراه. أفتح النافذة كي أراه. لا أراه، لقد اختفى. القيمة البصرية للرمز كانت في متناولي؛ اختفى متخطياً زاوية

الشارع. لو قيل لي إنه قد تخطى الزاوية المطلقة ولم يكن له أي وجود هنا لوافقت بالإشارة نفسها التي أغلق بها النافذة الآن.

الحصول؟

الحصول على ماذا؟

يا لأنصاف الآلهة المساكين الذين يفتحون إمبراطوريات بالكلمات والنوايا الحسنة مع احتياجهم إلى المال لتغطية مصاريف الإقامة والأكل! إنهم أفواج جيشٍ فارّ كان لقواده حلمٌ بالمجد فلم يبقَ منه، بعد سقوط الجنود في طمي المستنقعات، سوى صورة عظمة جيشٍ لم يعُد له وجود، وفراغٍ ناجمٍ عن الجهل بما كان يفعله القائد الذي لم يحظَ الجنود بوجوده قط بينهم.

هكذا، سيحلم كل واحد، للحظة، بفرار قائد مؤخرة الجيش. هكذا بإمكان أيٍّ كان، وسط وحل المستنقعات، أن يلوح بالتحايا إلى النصر الذي لم يتمكّن أحد من تحقيقه، والذي فَضَل منه بعض فتات وسط لطخات شرشف المائدة الذي أهملوا تنفيضه.

إنهم يملؤون فجوات الفعل اليومي كما يملأ الغبار فجوات الأثاث حينما لا يتمّ تنظيفه جيداً. في الضوء المُشاع للنهار يبدو أنّ هذه الفجوات تسطع مثل دوداتٍ من رماد في الأكاجو المحمَرّ. بالإمكان سحبها بواسطة مسمارٍ عتيق، لكن ما من أحدٍ يُسارع إلى ذلك.

يا لرفاقي المساكين الحالمين بصوتٍ عالٍ، لَكَم أحسدكم باستهانة[1]. معي يوجد الآخرون - الأشد بؤساً، الذين ليس لهم

(1) أو بحياء: العبارة في الأصل غير واضحة.

إلّا ذواتهم كي يحكوا لها عن أحلامهم ويصنعوا منها أشعاراً، إن قُدّر لهم أن يكتبوها - الشياطين المساكين الذين لا أدب[1] لديهم سوى روحهم ذاتها، [. . .] الذين يموتون مختنقين بفعل أنهم موجودون.

بعضهم أبطال يصرعون خمسة رجال في زاويةٍ من زوايا الأمس. آخرون فاتنون إلى حدّ أنَّ النساء الوهميات لا يجرُؤْنَ على مقاومة إغرائهم. وهم يؤمنون بما يقولون عندما يتحدثون بما يقولون لأنهم مؤمنون (بأوهامهم)[2]. آخرون [. . .] لأجلهم جميعاً. . .

والجميع، مثل الإنقليس في آنية، يتقوقعون على أنفسهم ويتقاطعون بعضهم مع بعض ولا يخرجون من البراني. أحياناً تتحدث عنهم الصحف [. . .] لكن الشهرة، لا، أبداً.

هؤلاء سعداء، لأنهم مُنحوا نعمة الحلم [. . .] من البلادة، لكن بالنسبة إلى مَن يملكون مثلي أحلاماً بلا أوهام.

طفلٌ في السيرك

مرات كثيرة، أحسني رجلاً، تحت تأثير السطحي والمصطنع، حينئذٍ أحيا طافياً، بفرحٍ وصفاء. ويصبح التوصل بالأجرة ثم التوجّه إلى البيت مفرحاً بالنسبة إليّ. أحسّ الزمن بدون أن أراه، وأحبّ كلّ ما هو عضوي. حينما أمارس التأمُّل، أعجَز عن التفكير. أحبّ الحدائق كثيراً هذه الأيام.

لا أدري ما يحويه الجوهر الباطني للحدائق العامة، من عجيبٍ

---

(1) Literatura.

(2) الزيادة عندي للتوضيح.

وبئيس، ممّا لا يمكن أن أحسّه جيداً إلّا عندما أحسّ جيداً بنفسي. الحديقة، أيّ حديقة تختصر الحضارة بكاملها، إنها تعديل غفل للطبيعة. هنالك النباتات، لكن ثمة شوارع. أشجار تنمو، ثمة أبناك تحت الظلّ. في الاصطفاف المرتدّ نحو الجهات الأربع للمدينة، توجد الساحة وحدها، الأبناك الكبيرة ممتلئةٌ دائماً تقريباً بالناس.

لا أبغض تناسق أزهار الأحواض، أبغض، على العكس، الاستعمال العمومي للأزهار. لو أنَّ الأحواض وجدت في حدائق مغلقة، لو أنَّ الأشجار نَمَت في زوايا إقطاعية، لو أنَّ الأبناك لم تكن في مُلك أحد، لوجدتُ تسليتي في التأمل اللامجدي للأزهار. هكذا هي الحدائق المنسَّقة بلا فائدة في المدينة بالنسبة إليّ هي عبارةٌ عن أقفاصٍ لا تمتلك فيها التلوينات العفوية للأشجار والأزهار فضاء، ولا مكاناً تنحبس فيه. وحيث الجمال الطبيعي نفسه مجرّدٌ من الحياة التي ينتمي إليها.

لكن ثمة أيام يغدو فيها هذا المشهد منتمياً إليّ، فأدخل إليه مثل ممثلٍ صامت في مأساةٍ هزلية. في تلك الأيام أكون تائهاً، لكنني، على الأقل أكثر سعادة، على نحوٍ من الأنحاء. يبدو لي حينما ألهي نفسي، أنني أملك بالفعل بيتاً. مأوى آوي إليه وأنني شخصٌ سويّ. مدخرٌ لغايةٍ ما، أنظف بدلةً أخرى وأقرأ صحيفةً بكاملها.

بيْد أنَّ الوهم لا يدوم طويلاً مثلما يحدث في الليل. فلون الأزهار، ظِلّ الأشجار، تناسق الممرات، والأحواض تضمحل وتتقلص. ينفتح بغتةً من وراء خطأ اعتقادي برجولتي، كما لو أنَّ ضوء النهار كان ستارة مسرحٍ أخْفَتْ عنّي، المشهد الأعظم للنجوم. وحينئذٍ أنسى بالرؤية، المقعد الأمامي وأنتظر ظهور الممثلين الأوائل بانتفاضة طفلٍ في السيرك.

حرٌّ أنا وضائع.
أحسّ بزكام وحمى، أنا أناي.

1930-4-12

(نثر أيّام العُطل)

كان الشاطئ الصغير الذي يشكّل خليجاً متناهياً في الصغر، والمعزول عن العالم بواسطة مرتفعين صخريين منمنمين، يمثل، خلال الأيام الثلاثة تقاعدي المؤقت عن ذاتي نفسها. النزول إلى الشاطئ كان يتمّ عبر سلم خشن، يبتدئ، من أعلى، بدرجٍ من خشب، ثم يتحول في منتصفه إلى درجاتٍ منحوتةٍ في الصخر ببريمٍ من حديد، ودائماً، عندما كنت أنزل السلم العتيق، وخاصةً السلمَ الحجري بالقدمين نحو الأسفل، كنت أخرج من ذاتي، فأعثر عليّ.

يتحدث علماء الباطن، أو بعضهم بالأحرى، عن لحظاتٍ سامية للروح تتذكر فيها بالإحساس، أو بجزءٍ من الذاكرة، لحظة، أو ملمحاً، أو ظلاً لتجسُّدٍ سابق. وحينئذٍ، ولأنها تعود إلى زمنٍ أقرب من حاضرها إلى الأصل وإلى بداية الأشياء، فإنها تحسّ، على نحوٍ معين، بالطفولية والانعتاق.

يمكن أن يُقال بأنني، في نزولي من ذلك السلَّم القليل الاستعمال اليوم، للدخول رويداً رويداً في الشاطئ الصغير المقفر دائماً، قد استخدمتُ طريقةً سحرية كيما أعثر عليّ أقرب إلى الجوهر الفرد الممكن الذي أنا إياه.

ثمة أشكالٌ وملامح ثابتة من حياتي اليومية - ممثلةً في كينونتي الثابتة عبر رغباتٍ وكراهيات وانشغالاتٍ معينة - تختفي من ذاتي اختفاء كمائن دورية الشرطة، تتلاشى في الظلال حتى ليتعذَّر

الإحساس بما كانته، فيما أكون أنا قد أدركتُ منزلةً من مسافةٍ باطنية يصعب عليّ فيها تذكُّر الأمس، أو التعرف على الكائن الذي يحيا بداخلي كل يوم باعتباره كائناً ينتمي إليّ. أحاسيسي، انفعالاتي الثابتة، عاداتي اللامنتظمة بشكلٍ منتظم، محادثاتي مع آخرين، تلاؤماتي مع قوانين العالم الاجتماعية، هذا كله يبدو لي عبارة عن أمورٍ مقروءة في جهةٍ ما، صفحات هامدة لبيوغرافيةٍ مطبوعة، تفاصيل روايةٍ ما، في تلك الفصول الاستراحية التي نقرؤها مفكرين في شيءٍ آخر، فيما خيط السرد يتراخى حتى ليتلوّى على الأرض.

كان يحلو لي حينئذٍ، في الشاطئ الضاجّ فحسب بأمواجه الخاصة، أو بالريح المارة بالأعالي، مثل طائرةٍ ليس لها وجود، أن أسلم نفسي لنوعٍ جديد من الأحلام: أشياء ناعمة عديمة الشكل، أعاجيب الانطباع الباطني النقية، من غير صورٍ ولا أحاسيس مثل السماء والمياه، والمصوتة مثل الحلزونيات عند حلولها في البحر الناهض من عمق حقيقةٍ عظمى؛ مرتجفاً من زرقةٍ منحرفةٍ صوب البعيد، مخضرَّةٍ عند الوصول بشفافيات تلوينات اخضراراتٍ أخرى قذرة، وبعد تهشيم آلاف الأذرع المهشّمة، مطقطقةً، وتفكيكها في الرمل الأدكن، والزبد المنزوع الرغوة الذي تتجمع فيه الانجذارات كافة، فيوض العودة إلى حرية الأصل، الاشتياقات الإلهية، الذاكرات، مثل هذه الذاكرة غير المؤلفة لهلاميتها، ذاكرة حالةٍ ماضية، جسدٌ من حنينٍ بروحٍ من زبد، الراحة، الموت، الكلّ أو اللاشيء المحيط مثل بحرٍ بجزيرة الغرقى التي هي الحياة.

وأنا نمتُ بدون حلم، مبعداً عمّا أشاهده بإحساسي، غروبَ ذاتي نفسها، صخب المياه بين الشجر، سكون الأنهار الكبرى،

طراوة الأماسي الحزينة، لهاث الصدر الأبيض للحلم: الحلم الطفولي للتأمل.

فقط في المكتب

كلما سَمَت الحساسية، وترقّقت القدرة الإحساسية، أضحت أكثر اهتزازاً وتأثُّراً بالأشياء الصغيرة. من الضروري التوفُّر على قدرٍ كبير من الذكاء للإحساس بالضجر إزاء النهار المعتم. الناس الضِّعاف الحساسية، لا يضجرون من الزمن، لأنّ الزمن حاضرٌ على الدوام؛ لا يحسون بالمطر إلا عندما ينهمر على رؤوسهم.

النهار الكدر والفاتر يتغشى برطوبةٍ حارة. في المكتب فقط. أتفحَّص مجلة حياتي، وما أشاهده فيها يشبه النهار الذي يضجرني ويملؤني برماً وضيقاً. أراني طفلاً مبتهجاً للاشيء، مراهقاً يطمح إلى كلّ شيء، راشداً بلا فرحٍ ولا طموح. وهذا كله قد حدث في مجرى فاتر ومكدَّر كهذا اليوم الذي يجعلني أراه وأتذكره.

مَن منا يستطيع، عائداً من الطريق الذي لا عودة منه، أن يتحدث عمّا واصله في سيره وِفق ما ينبغي أن تكون المواصلة؟

عسر هضمٍ في الروح

من يريد أن يصنع قائمةً بكائناتٍ مسوخية لن يكون عليه سوى أن يصور فوتوغرافياً تلك الكلمات التي يحملها الليل إلى الأرواح الوسنانة العاجزة عن النوم. إنها لتطير كالخفافيش فوق خضوع الروح، أو مثل عوالِق تمصّ دم الخضوع.

إنها يرقانات السقوط والضياع، الظلال التي تملأ الوادي، الآثار المتبقية من القدر، هي أحياناً ديدانٌ مغثية للروح التي تغذيها

وتتعهّدها؛ وهي أحياناً أشباحٌ تحوم، يساراً حول لا شيء، وأحياناً أخرى، هي، كذلك، حنشات، تولد من المغارات الخرافية للانفعالات المفقودة.

صابورات الباطل هي، لا تفيد إلّا فيما يجعلنا لا نفيد في شيء. هي شبهات الهاوية مدسوسةٌ في الروح، تجرّ تجاعيد وسنانة وباردة. دخانٌ يبقى، آثارٌ تمرّ، وليس ثمة غير وجودها في الجوهر العقيم لإمكانية امتلاك وعي بها[1]. الواحد منها مثل قطعةٍ حميمةٍ من نارٍ صناعيةٍ تتفرقع لحظة بين الأحلام، وما يبقى هو لاوعي الوعي الذي نحيا به.

الروح، مثل شريطٍ محلول لا توجد في ذاتها. المشاهد الطبيعية الكبرى موجّهة إلى الغد، نحن عشنا ما عشناه. الحديث المقطوع باءَ بالإخفاق. مَن قال إنَّ الحياة كان ينبغي أن تكون هكذا؟

إذا ما عثرت عليّ أفقد ذاتي، إن رأيتُ رأياً أتشكّك، معدماً أصير إن امتلكتُ. وكما لو كنتُ أتنزه، أنام، لكن مستيقظاً أبقى. كما لو كنت نائماً. أستيقظ، ولا أتعلق بشيء. الحياة، بذاتها، في النهاية، أرقٌ هائل، وثمة سباتٌ متواصل ثاقبٌ في كلّ ما نفكره ونفعله.

سأكونُ سعيداً إنْ استطعتُ النوم. هذا رأيٌ يخصّ هذه اللحظة لأنني لا أنام. الليل ثقلٌ شاسع من وراء اختناقي باللحاف الأخرس لما أحلم به. لديّ عسر هضم في الروح. دائماً، فيما بعد بعد، سيأتي النهار، سيأتي متأخراً، كما يحدث دائماً. الكل ينام، الكل سعيد، إلّا أنا. أستريح قليلاً، بدون أن أتجاسر على النوم. ورؤوسٌ

---

(1) فقرة ملتبسة في الأصل.

هائلة لمسوخٍ بلا كينونة تبرز مبهمةً من عمق كينونتي. إنها تنينات شرق الجحيم، بألسنةٍ مجسّدة على هامش المعقول، بأعينٍ تنظر إلى حياتي الميتة التي لا تراها.

دثروني، بربكم، دثّروني! ثمة لحسن الحظ خيطٌ كئيب من ضوءٍ شاحب، عبر النافذة الباردة، بالبويبات المفتوحة إلى الوراء، يشرع في إخراج الظلال من الأفق. لحسن الحظ، ما سيبزغ هو النهار. طمأنينةٌ تكاد تتخلق من تعب اللاطمأنينة. ديكٌ يصيح، في وسط المدينة. النهار الداكن يبتدئ رحلته في نومي الغامض. ذات مرة سأنام. ضجيج عجلات يصنع عربة. جفوني، لا أنا، تنام. الكل، في النهاية. القدر.

1931-11-4

فكرة السرعة

للإحساس بلذة ورعب السرعة لا أحتاج إلى سياراتٍ سريعة ولا إلى قطارات سريعة. حسبي الترام وقدرة التجريد الرهيبة التي أمتلكها وأرعاها.

أعرف، دخل ترام متحرك، وبفضل موقفٍ تحليليٍّ ثابت وخاطف، كيف أفصِل فكرة الترام عن فكرة السرعة، فصلاً تاماً عن كلّ ما سواها، حتى أحوِّلها إلى شيئين - واقعيين مختلفين. بعدئذٍ، يمكنني أن أحسّني متتبعاً، ليس داخل الترام، وإنما داخل سرعته - الخالصة. ولو شئت، بالمصادفة الحصول على هذيان[1] السرعة القصوى أستطيع نقل الفكرة إلى المحاكاة المحضة للسرعة مضاعفاً

(1) Delirio: هي ترجمة لكلمة غير واضحة في الأصل البرتغالي.

إياها وفق هواي، أو مقلِّلاً منها، موسِّعاً إياها إلى مدى يتجاوز السرعات الممكنة للقطارات.

إنَّ التعرّض لأخطارٍ واقعية يؤدي، بالإضافة إلى ما يثيره فيّ من رعب، إلى تشويش التيقُّظ الكامل لأحاسيسي، ممّا يضايقني ويفقدني تَشَخْصُني.

لا أمضي أبداً إلى حيث يوجد الخطر. لديّ خوفٌ تجاه ضجر الأخطار.

الغُروب هو ظاهرةٌ ذهنية قبل كلّ شيء.

كم من قياصرةٍ كنت

الحياة بالنسبة إلينا هي ما نتصوره فيها. حقل الفلّاح وهو الكل بالنسبة إليه، هو بمثابة إمبراطورية. الإمبراطورية بالنسبة إلى القيصر غير كافية. وهي ليست بأكثر من حقل. المسكين يمتلك إمبراطورية؛ العظيم يمتلك حقلاً. في الحقيقة، نحن لا نملك أكثر من أحاسيسنا الخاصة، ففيها، إذن، وليس فيما تراه هي، علينا أن نوطد واقع حياتنا.

/هذه الخواطر لم تأتِ بمناسبةٍ معينة/

لقد حلمتُ كثيراً، إنني متعبٌ من وجودي حالماً، ولست متعباً من فعل الحلم. لا أحد يتعب من الحلم، أن نحلم هو أن ننسى، والنسيان لا يُحزن وهو نومٌ بلا أحلام نكون فيه مستيقظين. في النوم حقّقت كل شيء. كنت أستيقظ أيضاً، لكن ما أهمية ذلك؟ كم من قياصرةٍ كنت! كم من مشاهير وكم من مساكين! القيصر، وقد أنقذ من الموت، بفضل أريحية أحد القراصنة، يرسل منقذه إلى الصلب، بعد اعتقاله إثر بحثٍ طويلٍ عنه. نابليون، يوصي، في الوصية التي

أعدّها في سانتا هيلينا، بتركه لمجرمٍ حاول اغتيال ولينغتون[1]. أوه لجلائل الأعمال المعادلة لروح الجارة الحولاء، أوه للرجال العظام، رجال طباخة العالم الآخر! كم من قياصرة كنت، وما أحلم أن أكون.

كم من قياصرةٍ تقمصتُ، لكن قياصرة الحلم لا قياصرة الواقع. إمبراطورياً حقاً كنت كلما حلمت، لذلك لم أكن شيئاً قط. جيوشي تكبَّدت الهزيمة، لكنها هزيمةٌ رخوة فما من أحدٍ مات. لم أفقد رايات. لم أحلم حتى نقطة الوصول إلى امتلاك جيش، حيث تظهر تلك الرايات ذات الزاوية الحلمية أمام بصري. كم من قياصرةٍ صرت، هنا بالذات، في شارع دورادوريس. والقياصرة الذين كنتهم ما زالوا يعيشون في مخيلتي؛ لكن القياصرة الذين كانوا بالفعل ماتوا، وليس باستطاعة شارع Dos Douradores، أي الواقع، معرفتهم.

أرمي بعلبة الثقاب الفارغة إلى الهاوية، حيث الشارع الأبعد من مسند نافذتي الذي بلا جليةٍ معمارية. أنهض من الكرسي وأصيخ السمع. وبجلاء، تُصدر علبة الثقاب صوتاً - كما لو كان يعني شيئاً في الشارع شبه الخالي. لا صوت البتة بعد، عدا أصوات المدينة بكاملها. أجل، أصوات مدينة يوم أحدٍ تام -...

يا لقلّة ما يمثله، في العالم، حامل أفضل التأملات. الوصول متأخراً لتناول الغذاء، نفاد أعواد الثقاب، إلقائي بالعلبة إلى الشارع، الوضع السيئ بسبب الأكل في وقتٍ غير مناسب، كون الأحد وعداً

(1) Wellington.

هوائياً بغروبٍ سيئ، كوني لا أحد في العالم هو الميتافيزيقيا برمتها.

لكن كم من قياصرةٍ كنت!

1930-6-27

هكذا أمضي

أحياناً كثيرة، أفكر، في الوضع الذي كنت سأؤول إليه لو لم أُحمل، محمياً بريح الحظ من لدن حاجبة الثراء، إلى مكتبٍ في لشبونة بفضل اليد البيضاء لخالي، ولو لم أتمكن من الارتقاء منه إلى مكاتب أخرى، وصولاً إلى تلك القمة الرخيصة، قمة مساعد محاسب مع عمله الشبيه بنوعٍ من أنواع القيلولة، وبأجرته التي تتيح له بالكاد مواصلة العيش.

أعرف جيداً، أنَّ ذلك الماضي المفتَرَض العديم الوجود لو قيِّض له أن يتحقق، ما كنت لأستطيع اليوم كتابة هذه الصفحات، التي تبقى أفضل من الصفحات الأخرى الوهمية التي ما كنت بقادرٍ، في أحسن الأحوال، على أكثر من أنْ أحلم بها. ذلك أنَّ الابتذال ذكاءٌ وفطنة، أما الواقع، خاصةً إذا ما كان بليداً وفظاً فهو تكملةٌ طبيعيةٌ للروح.

إنني مدينٌ لمهنتي كمساعد محاسب، بقسطٍ كبير من قدرتي على الإحساس والتفكير في أمور مثل الرفض والنفي والهروب من الوظيفة.

لو تحتَّم عليّ أن أسجّل في الموضع المخصص للإجابة عن استمارةٍ معينة، التأثيرات الأدبية التي أنا مدينٌ لها في تكويني الروحي، لاستهللتُ الفضاء المعلّم باسم ثيساريو فيردي، لكنني لن أختمه بدون أن أسجل أسماء، المدير فاسكيز، المستخدَمان فييرا

وأنطونيو، وخادم المكتب. واضعاً بالنسبة إلى الجميع، بأحرفٍ كبيرة، العنوان الرئيس: لشبونة.

لقد مثَّل ثيساريو فيردي مثله مثل هؤلاء انطلاقاً من رؤيتي الخاصة للعالم معاملات تصحيحية، أجهل مدلولها المضبوط الواضح الذي يحدّد به المهندسون المعاملات الممنوحة للرياضيات كيما يتمكنوا من السير حتى الحياة. إذا كان الأمر هكذا، فكذلك كان، وإنْ لم يكن هكذا، فهو ما يمكن أن يكون...

علاوةً على ذلك، يتعلق الأمر، وبكامل الوضوح، بما كانت عليه حياتي ظاهرياً، إنني أراها مثل شيءٍ ملون - كيس شوكولاتة أو معيار سيجار - منكوس بالفرشاة الخفيفة للخادم المتنصتة في الفوق، للشرشف المعدّ لمجرفة بقايا الفتات، وسط قشور الواقع بحصر المعنى. ما يلفت الانتباه. في الأشياء هو أنَّ مصيرها متماثل بالنظر إلى... ميزة ستجد من يقطفها. أما محادثات الآلهة فتتواصل من على ذروة التنظيف الفرشاتي، غير آبهةٍ بحوادث خدمة العالم هذه.

لو، لو كنت غنياً، محمياً، منظفاً، مزخرفاً، ما كنت لأكون ولا حتى ذلك الحادث العرضي القصير من الورق الجميل وسط فتات الخبز؛ لو كنتُ غنياً محمياً، لمكثتُ في صحن الحظ - «ليس، بكبير امتنان» - ولاستررددتُ الصوان كيما أمعن في الشيخوخة. هكذا أمضي، منبوذاً بعدما التهمت النخاع العملي، بالغبار المتبقي من جسد يسوع في سطل القمامة، بدون أن أتخيل ما سيأتي بعدئذٍ، وبين أية نجوم؛ لكن ما سيأتي هو المواصلة دائماً دائماً.

نهاية العالم

كان المستخدم يربط رُزَمَ كل يومٍ في المنتهى الشفقي للمكتب الفسيح. «يا له من رعدٍ هائل» قال قاطع الطرق الشديد الفظاظة، للاأحد، بنبرة «صباح الخير» عالية. شرع قلبي في الخفقان من جديد. نهاية العالم مرت/ كانت بمثابة وقفة.

ولكم هو مخفَّفٌ هذا الدوي القريب - ضوءٌ ناصعٌ جبار، فضاء، رعدٌ قاسٍ - المبتعد الآن كم يخفف عنّا ما كانه منذ قليل. الله انتهى. أحسستني أتنفس بتمام رئتي. أنتبه إلى أنَّ الهواء كان قليلاً في المكتب. لاحظتُ أنَّ أناساً آخرين كانوا هناك، لا المستخدم، كلهم كانوا صامتين. دوى شيءٌ مرعدٌ مهيج: كانت الورقة السميكة للكتاب الأكبر الذي وضعه موريرا فجأة، أمامه بقصد الاختبار.

؟1930

صوت

ما زال المطر يهطل كئيباً، لكن أكثر نعومة، كما لو في لحظة تعب كوني؛ ليس ثمة برق، وبالكاد، يقصف من حينٍ إلى آخر رعدٌ قصيرٌ جاف، بالصوت الذي أضحى الآن بعيداً، والذي يبدو كما لو أنه يتوقف، متعباً بدوره. والمطر فجأةً بدوره يتناقص أكثر فأكثر.

أحد المستخدمين فتح نافذة شارع Dos Douradores. هواء بارد، ببقايا دفءٍ ميت، تغلغل في الغرفة الكبيرة، صوت المدير فاسكيز علا مجيباً على هاتف المكتب. «أكان ما زال يتحدث حينئذٍ؟». وكان ثمة صوتٌ جديد جافّ ومعزول - تعليق، داعر على السيدة البعيدة.

غبار حاجز الشرفة

ثمة سكيناتٌ ريفيةٌ في المدينة. ثمة لحظات، خاصة في منتصف نهارات الصيف، يجتاحنا فيها الريف، مثل هبوب ريح، في هذه المدينة الوضّاءة. وهنا بالذات، في شارع دورادوريس، لدينا ما يكفي من الحلم الطيب.

كم هو طيبٌ بالنسبة إلى الروح، تحت شمسٍ عاليةٍ هادئة رؤية دخول عربات التبن هذه، وهذه الصناديق، وهؤلاء المارة المتباطئون في القرية المستبدلة! أنا بنفسي، إذ أنظر إليهم، عبر نافذة المكتب، حيث أوجد بمفردي، أتحوّل معهم: إنني وسط شعبٍ هادئ من الضواحي، ألوذ بضيعةٍ مجهولة، سعيداً لإحساسي بكوني آخَرَ.

أعرف ذلك جيداً: أمامي، إذ أرفع عيني، خط المنازل القذر، النوافذ المغبرة لكلّ مكاتب Baixa، النوافذ التي بلا معنى للطوابق العليا حيث العيش بها لا يزال مستمراً، وفي الأعلى، في زاوية الرَّوْزَنات، هنالك الثياب اليومية، معرّضة للشمس بين الأصص والنباتات. أعرف جيداً، غير أنَّ الضوء الذي يذهّب هذا كله هو من النعومة وكذلك الهواء الساكن المحيط بي هو من اللامحسوسية بحيث لا أملك أي مبرر ولا حتى بَصَريٌّ لأتنازل عن ضيعتي المزيفة، عن قريتي الريفية حيث التجارة عبارةٌ عن سكونٍ شامل.

أعرف ذلك، أعرف... ولو أنَّ الحقيقي هو أنَّ الساعة الآن ساعة تناول الغذاء، أو ساعة الاستراحة، أو التوقف عن العمل. الكلّ يسير على ما يرام على سطح الحياة. أنا نفسي أنام، بالرغم من إطلالتي من الشرفة، كما لو كانت جانب مركبٍ مطلٌّ على مشهدٍ جديد. أنا ذاتي أفكر، كما لو كنت في الضاحية. و، فجأة، ينبعث شيءٌ آخر، يلفني، يسيطر علي: أرى من وراء منتصف نهار

القرية، كل حياة القرية بكاملها؛ أرى السعادة البليدة الكبرى للاطمئنان إلى القذارة. أرى، لأنني أرى. لكنني لم أر شيئاً. أستيقظ. أنظر إلى ما حولي، باسماً. وقبل كل شيء، أنفضُ عن كوعيّ البدلة الداكنة وكل غبار حاجز الشرفة الذي لم ينظّفه أحد، جاهلاً أنَّ عليه أن يكون في يومٍ من الأيام، ولو للحظةٍ واحدة، الحاجز الخالي من الغبار المحتمل لمركبٍ يمخر العباب في سياحةٍ لانهائية.

1933-8-29

تأملاتٌ اعتباطية

أمس رأيتُ وسمعتُ رجلاً عظيماً، لا أقصد رجلاً مدَّعِياً، ولكن رجلاً هو كذلك بالفعل. رجلاً ذا قيمة، إن كانت ثمة قيمة للرجال بعد في هذا العالم! وهم يعرفون أنَّ له قيمة؛ وهو يعرف أنهم يعرفون. إنه.. يملك، إذن، كلّ الشروط التي تسمح لي بأنْ أنعته بالرجل العظيم. وهو بالفعل مَن هو.

مظهره الفيزيقي مظهر تاجرٍ متعب. وجهه يبرز خطوط تعبٍ بارز، لكنها يمكن أن تكون ناجمةً عن الانخراط في التفكير كما عن انعدام الشروط الصحية للعيش. حركاته عادية. الصوت مشوشٌ نسبياً كما لو أنَّ بداية شللٍ عام قد أفسدت هذا البثّ الروحي. والروح المبثوثة تندلق فوق سياسة الأحزاب، فوق ارتفاع وهبوط العملة، وفوق التُّفهاء المندسّين بين رفقاء العظمة.

لو لم أكُن أعرف مَن هو، ما كنت لأحْزَرهُ من الصورة. أعرف جيداً أننا لا ينبغي أن نخلق من الرجال العظماء تلك الفكرة البطولية التي يكوّنها البسطاء: كأنَّ الشاعر الكبير لا بد أن يكون أبولو أو

نابليون التعبير؛ أو أن يكون، حسب متطلباتٍ أقل، رجلاً متميزاً وذا ملامح معبِّرة. أعرف أنَّ هذه أمورٌ إنسانية طبيعية ولامعقولة، لكن إذا لم يكن ممكناً أن نتوقع الكمال أو ما يقارب الكمال الكلي، فليكن الرهان على النسبي والممكن. وعندما يتمّ الانتقال من الصورة المنظورة إلى الروح المتكلمة، لا ينبغي ولا ريب، أنْ نتوقع، عبقريةً أو حيوية، لكن ينبغي على الأقل المراهنة على الذكاء، وعلى السمو.

هذا كله - هذه الأوهام الإنسانية - يجعلنا نفكر فيما يمكن أن يحويه بالفعل التصور العامي عن الإلهام. يبدو أنَّ هذا الجسد المكرّس للتاجر وهذه الروح الموجّهة للإنسان المهذَّب يغدوان، حال وجودهما معزولين، مقلدين، على نحوٍ غامض بشيءٍ داخلي هو فيهما موجودٌ خارجياً، ومن خلالهما يتكلم، بدون أن يتكلما، أما الصوت فيتلفظ بالكذب الذي سيتحول إليه ما قالاه.

إنها تأملاتٌ اعتباطية ولامُجدية، أشعر بالحزن من صوغها. معها لا تتناقص قيمة الإنسان؛ ولا يزيد معها تعبير جسده، لكن في الحقيقة، لا شيء يبدل شيئاً، وما نقوله أو نفعله يلامس فحسب قمة الجبال التي على سفوحها ترقد الأشياء.

عينان

إنها معروضة في الواجهة الزجاجية. أنظر إليها بدون أن أعرف أنني أراها. معروضة لا علاج لها ثمة أخريات بجانبها. إنها موجودةٌ في قلب الواجهة في النقطة التي تحول دون رؤيتي السلم.

بصدرها الضيق في الربيع، عيناها اللتان تنظران إليّ بهما حزينتان. تبتسم بلمعان الورق وألوان وجهها حمراء. السماء من خلفها زرقاء ذات قماشٍ ناصع. لها فم مزوقٌ صغير من فوق تعبيره

المصور، تنظر عيناها إليّ دائماً باكتئابٍ كبير. الذراع الحاملة للأزهار تذكرني بأحدٍ ما. الثوب أو البلوزة مفتوحةٌ من تقويرةٍ محرفة. العينان حزينتان بالفعل: تحدقان فيَّ من عمق الواقع الطباعي بحقيقةٍ من الحقائق. هذه المعروضة وصلت مع حلول الربيع. عيناها الحزينتان كبيرتان. أنفصل عن مواجهة الواجهة بعنفٍ كبير فوق القدمين. أجتاز الشارع وأتلفت بتمرّد عاجز. إنها لا تزال تحمل الربيع الذي منحوها وعيناها حزينتان حزناً مماثلاً لما أنا محرومٌ منه في الحياة. تبدو منظوراً إليها من مسافةٍ معينة محتوية ألواناً أكثر. للصورة شريطٌ وردي يحيط بأعلى الشعر؛ لم أُنعِم النظر. ثمة في بعض العيون البشرية، وإن كانت، مطبوعةً على الحجر، شيءٌ مرعب: إعلان الوعي عن ذاته إعلاناً لا يمكن تفاديه، الصرخة السرية الدالة على وجود روح. بكثيرٍ من الجهد، أنهض من الحلم الذي يبلّلني وأنفّضُ، مثل الكلب، نداوات ظلمة الضباب. ومن فوق قمة إفاقتي، وبحركةٍ وداعية، بواسطة هذه الأوليوغرافية (Oleografia) التي نتأملها عن بُعد، ترنو إليّ العينان الحزينتان كما لم كنت أعرف الله. للأوليوغرافية المطبوعة روزنامة عند القاعدة، معلَّمَة بعارضتين سوداوين مع تحدّبٍ مرسومٍ بشكلٍ سيئ، وبين الأعلى والأسفل العائد إلى حوالى عام 1929 بزخرفٍ خطيٍّ مهجور يغطي الأول من يناير، تبتسم العينان الحزينتان لي، باستهزاء تبتسمان.

من الطريف، أن نعرف، في النهاية، كيف عرفت الصورة. في المكتب، في الركن الأقصى، ثمة روزنامةٌ مصورة رأيتها مراراً، لكن بسبب سرٍّ يخصّ الأوليوغرافيا أو يخصني شخصياً، لم تكن لصورة الروزنامة عينان حزينتان، ذلك أنها مجرد صورةٍ مطبوعة (هي من ورقٍ لامع يرقد على قمة رأس ألفيس الأعسر. . .).

أريد أن أبتسم لهذا كله، غير أنني أحسّ بتوعكٍ فظيع. أحسّ ببرودة مرضٍ مفاجئ في الروح. لا أملك القوة لكي أتمرَّد على هذا اللامعقول. إلى أيّ نافذة وإلى أيّ سرّ إلهي أستند أنا بدون رغبةٍ مني؟ إلى أين تؤدي واجهة السلم اللامجدي؟ أيّ عينين تنظران إليّ في الأوليوغرافيا؟ إنني أكاد أرتجف. أرفع لاإرادياً عيني صوب الزاوية البعيدة للمكتب حيث توجد الأوليوغرافية الحقيقية. هاأنذا أرفع عيني نحوها بثبات.

؟1929

على غير توقع

أحياناً، على غير توقع أو من غير ما ضرورة للتوقع، تنتابني حالة اختناق ممّا هو مبتذل ممسكةً بحنجرتي فأحس بغثيانٍ فيزيقيّ تجاه صوت وحركة ما يسمى بالمتشابه. الغثيان الفيزيقي المباشر المحسوس مباشرةً في المعدة، وفي الدماغ.. الأعجوبة البليدة للحساسية تستيقظ... كل شخص يحادثني، كل وجهٍ ينظر إليّ بعينيه، يسيء إليّ مثل شتيمة أو نجاسة. أطفح بالرعب من كلّ شيء. أتخبَّل من إحساسي بما أحسّ نحوهم.

ويحدُث دائماً، في مثل حالات الحزن المُعدي هذه، أن يتجسَّد مثل ممثلٍ واقعيّ للسوقية التي تقلقني، رجل، امرأة، وحتى طفلٌ من الأطفال. ممثلٌ للسوقية لا بسبب انفعالٍ خاص بي، ذاتيّ ومفكرٍ فيه، وإنما بسبب حقيقةٍ موضوعية، متوافقة واقعياً من الخارج مع ما أحسّه منبعثاً من الداخل بفعل سحرٍ لطيف حاملاً إليّ النموذج المثالي للقاعدة التي أفكرُ فيها.

«أنا بحجم ما أراه!»

أعاود بلا اكتراث قراءة تلك العبارات البسيطة لكاييرو[1] متلقياً ما أحسّه كإلهام وتحرير للنفس، ضمن المرجعية الطبيعية للتأثير الخاصّ لصغر حجم قريته. من هنالك، ولأنها صغيرة، يقول كاييرو، يمكن أن يُرى العالم أكثر مما يُرى من المدينة؛ لذلك كانت القرية أكبر حجماً من المدينة.

«لأنني بحجم ما أراه
لا بحجم قامتي»

عبارتان كهاتين، متناميتان خارج إرادة التعبير التي أوجدتهما، تنقياني من كل الميتافيزيقيا العفوية التي أضيفها إلى الحياة. بعد قراءتهما، أقترب من نافذتي المطلّة على الشارع الضيق، أنظر إلى السماء الهائلة، وإلى النجوم الكثيرة، وأنا حرٌّ مثل إشراقة مجنحةٍ يرجِّف اهتزازها سائر جسدي.

«أنا بحجم ما أراه!» كلما فكرت في هذه الجملة بكل تنبهي العصبي، بدت لي موجهةً إلى إعادة بناءٍ أعلى للكون. «أنا بحجم ما أراه!» يا لعظمة هذا التموقع الذهني الذي ينتقل من بئر الانفعالات العميقة إلى النجوم العالية المنعكسة فيه، والموجودة بداخله، بشكلٍ من الأشكال.

والآن، وأنا واعٍ بالطريقة التي أرى بها الأشياء، أنظر إلى الميتافيزيقا الموضوعية لكلّ السماوات بثقةٍ تمنحني الرغبة في أن أموت مغنياً. «أنا بحجم ما أراه!». ويشرع غموضُ القمر المضيء

---

(1) ألبرتو كاييرو: النديد الأول الذي ابتكره بيسوا عام 1908 توفي سنة 1915.

الذي هو الآن في ملكيتي كلية، في تعكير زرقة الأفق نصف المسودة بالغموض.

لديَّ رغبةٌ في أن أرفع ذراعي وأصرخ منادياً بأشياء ذات وحشيةٍ مجهولة، وأوجّه الكلمات للخبايا العليا، بانياً شخصيةً جديدة شاسعةً للفضاءات الكبيرة للمادة الفارغة.

لكنني أنكبح فأهدأ، «أنا بحجم ما أراه!» عبارةٌ ستبقى هي الروح بتمامها بالنسبة إليّ. إليها ترتكز كل أحاسيسي، وعليّ أنا من الداخل، مثلما على المدينة، من الخارج، تنزل السكينة الملغزة من النور الناصع للقمر الذي يبدأ في الاتساع مع نزول المساء.

1930-3-24

سماءٌ أخرى

كانت السماء السوداء في عمق جنوب التاج، علامة شؤم في مواجهة الأجنحة البيضاء لنوارس الطيران القلق. النهارُ، مع ذلك، ليس عاصفاً. كلّ الكتلة المنذرة بالمطر كانت قد اتجهت صوب الضفة الأخرى، والمدينة المنخفضة التي لا تزال بها بقية من رطوبة الأمطار القليلة ليوم أمس، كانت تبتسم من الأرض إلى السماء التي كان شمالها لا يزال مصطبغاً بزرقةٍ ميالةٍ نحو البياض نسبياً. فيما طراوة الربيع لفّتها برودةٌ خفيفة.

يحلو لي، في ساعةٍ كهذه، فارغة وعديمة الوزن أن أقود التفكير إرادياً نحو تأملٍ غير ذي شأن، لكنه يمسك، في صفائه الذي من هباء، بعضاً من البرودة القاحلة للنهار المُضاء، مع العمق الأسود من بعيد، وبضعة حدوس، مثل نوارس، تستدعي بتعارض، لغز الكلّ من خلال سوادٍ هائلٍ.

لكن، بغتةً، وضدّ مقصدي الأدبي الباطني، يستدعي العمق المسود لسماء الجنوب، بفعل ذكرى حقيقية أو زائفة، سماءً أخرى، ربما شوهدت في حياةٍ أخرى، في شمال نهرٍ أصغر، بمأسلاتٍ[1] حزينة وبدون أيّ مدينة. بدون أن أعرف كيف أمكن لمشهدٍ يلائم بطأً وحشياً أن ينجذب نحو مخيلتي، لأحسَّني، بجلاء حلمٍ نادر، قريباً من الشسوع الذي أتخيَّل.

أرض مأسلاتٍ على ضفاف الأنهار، أرض ضجرٍ وقناصين، الهوامش العشوائية، تلج، مثل أطرافٍ صغيرةٍ قذرة، المياه ذات اللون الرصاصي الأصفر، وتتعرج في خلجانٍ غرينية لمراكب تقريباً من دمى، في ضفاف ذات ماءٍ لامع بمحاذاة طميٍ مغمور وسط السيقان المخضرة المُحْلَوْلِكَة للأسلات، حيث لا يمكن السير.

الحزن المخيّم مشتقٌّ من سماءٍ رمادية ميتة تتغضَّن هنا وهناك بسحب أكثر سواداً من سحنة السماء، لا أحسّ بالريح، لكنها تهبّ، والضفة الأخرى، في النهاية، جزيرةٌ مديدة تلمح من ورائها - يا للنهر الكبير المهجور! - الضفة الأخرى الحقيقية، الملقاة في المدى بغير بروز.

لا أحد يصل إلى هناك، ولا أحد سيصل. ولو أنَّ بإمكاني، بواسطةٍ هروبٍ مضادّ للزمن والفضاء، الفرار من العالم صوب ذلك المشهد الذي لا أحد سيصل إليه. سأنتظر، بلا جدوى، ذاك الذي لن أعرف أنني أنتظره، ولن يكون هناك، في النهاية، سوى نزولٍ بطيءٍ لليل، وقد اكتسى الفضاء بكامله، بلون السحب الأشد حلكة وهي تغرق تدريجياً في السماء المتوارية.

---

(1) Juncares : منابت الأسل.

وفجأة، أحسّ هنا ببرودة الهُناك، تمسّ جسدي، آتيةً من العظام. أتنفس عالياً وأستيقظ. الرجل الذي مرَّ بجانبي تحت La Arcada[1] بمحاذاة La Bolsa[2] ينظر إليّ بارتياب مَن لا يعرف التفسير. السماء المُخْلَوْلِكَة هبطت، ضاغطةً بقسوةٍ أكبر فوق الجنوب.

1930-4-4

قراباتٌ باطنيّة

من الانشغالات الثابتة المُستحوذة على تفكيري سعيي إلى أنْ أفهم حقيقة وجود أناسٍ غيري، وكيف أنَّ هناك أرواحاً غير روحي، وضمائر غريبة عن ضميري الذي لا بدّ، باعتباره وعياً، أنْ يكون متفرِّداً - وِفق تصوري -. أدرك جيداً أنّ الرجل الموجودَ أمامي، والمتحدّث إليّ بكلماتٍ مماثلة لكلماتي، والمستخدم لإشاراتٍ شبيهةٍ بتلك التي أستخدمها أو يمكن أنْ أستخدمها، هو شبيهي بشكلٍ من الأشكال. الشيء نفسُه، مع ذلك، يحدث لي مع الرسوم التي أحلم بها، مع الشخوص التي أراها في الروايات، مع الشخصيات الدرامية التي تمرّ أمامي في المشهد المسرحيّ من خلال الممثلين الذين يجسّدونها.

لا أحد، فيما أفترض، يوافق حقاً على الوجود الواقعيّ لشخصيةٍ أخرى مطابقةٍ له. يمكن أن يقبل بأن تكون تلك الشخصية على قيد الحياة، بأن تحس وتفكّر على نحوٍ مطابقٍ له، لكن سيبقى هناك عنصر

---

(1) مكان في لشبونة.
(2) مكان في لشبونة.

اختلافٍ مجهول، على الدوام، وتباينٍ مجسّدٍ أكيد. ثمة وجوهٌ من أزمنةٍ سالفة، صور أرواحٍ في كتب، هي بالنسبة إلينا واقعٌ أكبر من تلك اللامبالاة المجسّدة التي تتحدّث إلينا من أعلى العوارض الخشبيّة في الحانات، أو تنظر إلينا مصادفةً في الترامويات، أو تلامسنا مارة، في المُصادفة الميتة للشوارع. الآخرون ليسوا بالنسبة إلينا بأكثر من مشهد، دائماً تقريباً، خفيّ لشارعٍ معروف.

لديّ قرابة انتماءٍ باطنيّة مع وجوهٍ معينة موصوفةٍ في كتب، ومع صورٍ تعرّفتُ عليها مطبوعة، أكبر وأقوى ممّا لدي مع كثيرٍ من الأشخاص ممّن ندعوهم واقعيين، ممّن ينتسبون إلى اللاجدوى الميتافيزيقية المدعوّة لحماً وعظماً. وبالفعل فعبارة «لحم وعظم» نعتٌ مُناسبٌ لهم: فهم يبدون أشياء مقطوعة موضوعة على السطح المرمي لدكان لحام، موتى ينزفون على هيأة أحياء، كوارع وأضلاع القدر.

لا أخجل من الإحساس على هذا النحو لأنني رأيت الجميع يفعلُ ذلك. وما يبدو من احتقارٍ بين رجلٍ وآخر، ومن لااكتراث يسمح بأن يَقتُلَ أناس بدون إحساس بأنهم يَقتُلون، كما يحدث بين المجرمين، أو بدون تفكيرٍ في أنَّ ثمة قتل، كما يجري بين الجنود، فذلك لأنَّ لا أحد يعير انتباهاً للفعل ذاته؛ يبدو أنَّ من العسير إدراك أنَّ للآخرين أيضاً أرواحاً خاصةً بهم.

في أيّام، في ساعاتٍ معلومة، محمولةٍ إليَّ عبر نسيم أجهلُ كنهه، مفتوحة لي انفتاحة ما لستُ أدري من أبواب، أحسّ فَجأةً بأنَّ صاحب دكانٍ في زاوية الشارع كائنٌ روحانيّ، وأنَّ صبيّة الدكان التي تنحني في هذه اللحظة قرب الباب، على كيس البطاطس، هي بالفعل، روحٌ قادرةٌ على أن تتألّم.

عندما أخبروني أمس بانتحار صاحب الطبكيرية، لم أصدّق، يا

للمسكين! كان موجوداً بدوره! لقد تناسيناه، جميعاً نحن، [...] جميعنا نحن الذين عرفناه بنفس طريقة كلّ الذين لم يعرفوه. غداً سوف ننسساه بشكلٍ أفضل، لكن الروح كانت لديه روح، فلماذا قتل نفسه، أبسبب الحبّ، الضجر؟ لا شكّ... لكن بالنسبة إليّ، كما بالنسبة إلى الناس جميعاً، أحتفظ منه فقط بذكرى ابتسامةٍ بلهاء من أعلى سترة نسيجٍ وسخة، متفاوتةٍ من الكتفين. هذا ما أحتفظُ به من الرجل الذي انتحر. لشدّة ما عانى من أحاسيس ذلك أنه لا ينبغي، في النهاية، أن يقتل أحدٌ نفسه بسبب شيءٍ آخر غير هذا... فكرت ذات مرة، لدى شرائي سجائر من دكانه أنه سيغدو أصلع في النهاية في القريب العاجل، لم يجد الوقت الكافي ليصبح أصلع. تلك واحدةٌ من الذكريات التي بقيت لديَّ عنه. فأيّ ذكرى سأحتفظ بها عنه، طالما أنَّ هذه، بعد كلّ شيء، ليست بذكراه هو، وإنما هي من اختراع تفكيري الخاصّ؟

أمتلكُ فجأةً، منظور الجثة، منظور التابوت الذي وضعت فيه في القبر الغيريّ الذي كان ينبغي أن تُحمل إليه. وأرى، على حين غرّة، أنَّ صاحب الطبكيرية، كان بالسترة الملوية، يُمثِّل الناس جميعاً.

تلك كانت لحظةٌ وحسب. الآن، بالطبع، أنا حيّ وهو قد مات، لا أكثر ولا أقل.

أجل، الآخرون لا وجود لهم.. فلأجلي بالذات ينشر هذا الغروب، بثقلٍ مجنّحٍ، ألوانه الضبابية والقاسية. لأجلي، يرتعش النهر الكبير، تحت الغروب، بدون أن أرى جريانه. لأجلي أنا شيدت هذه الساحة المفتوحة على النهر بحركة مدّه وجزره الوشيكة. أو تمَّ اليوم دفنُ صاحب الطبكيرية في المقبرة العامة؟ غروب هذا

اليوم ليس موجّهاً إليه. لكنه، وبدون أنّ أفكّر في الأمر أو أرغب فيه، قد كفَّ كذلك عن أن يكون موجهاً إليّ.

1932-1-26

من بعيد

المدينة المتقلّبة تمتدُّ أمام عيني المُلتاعتين.

المنازل تتميز بكتلةٍ صخريةٍ محبوسة، وضوء القمر، بلطخاتٍ مُبهمة، يجمد بعرقِ اللؤلؤ رجات التشوش الميت. ثمة سطوحٌ وظلال، نوافذ وعصورٌ وسطى. ليس هنالك ما يدعو إلى وجود ضواحٍ. أقضي الليل كله فيما يبدو من لمعانٍ خاطفٍ من بعيد.

لو فتحت العينين

في ضوء الليلة البطيئة، تُرجِّفُ الريح ببطءٍ في الخارج أشياء تخلق ظلالاً أثناء تحرّكها. ربما ليست بأكثر من ثيابٍ منشورةٍ في الطابق الأعلى، بَيْدَ أنَّ الظلّ لا يعرف شيئاً عن القمصان، فهو يتقلّب لامحسوساً في تواؤمٍ أخرس مع الأشياء كلّها.

لكي أستيقظ باكراً، تركت درفتيّ النافذة مشرَّعتين، غير أنني حتى اللحظة، والليل جدّ متأخّر حتى لا يكاد يُسمع منه شيء، لم أستطِع أن أتخلى عن النوم ولا أنْ أكون في وضع إفاقةٍ حقيقية. ثمة ضوء قمرٍ بعيد عن ظلال غرفتي، لكنه لا يمر عبر النافذة. إنه موجود، مثل يومٍ من فضةٍ جوفاء، فيما سطوح الدارة المُقابلة، التي أراها من السرير، عبارةٌ عن سوائل من بياضٍ مسودّ. مثل تهاني من الأعالي موجهةٍ إلى مَن لا سمع له، ثمة سكينةٌ كئيبة في الضوء القاسي للقمر.

وبغير ما رؤية، بدونما تفكير، بالعينين مغمضتين على الحلم الغائب، أتصوّر بأيّ كلماتٍ حقيقية يمكن وصف ضوء القمر. القدماء سيقولون إنَّ ضوء القمر أبيض، أو هو من فضّة. غير أنَّ البياض الزائف للون القمر مكوّنٌ من ألوانٍ شتى. لو نهضت من السرير، ونظرت من وراء الزجاج البارد، لعرفت جيداً أنَّ الضوء القمري، في الهواء العالي المُنعزل، هو من بياضٍ رماديٍّ مزرقّ ذي اصفرارٍ مظلّل؛ هو الآن، على السطوح المتباينة الحلكة، يذهِّبُ بالأبيض المسودّ المنازل المستسلمة، هو الآن يكسو بلونٍ عديم اللون الكستنائيَّ الأحمر للقرميد العالي. في عمق الشارع، حيث الأحجار العارية تبدو متفاوتة في أشكالها المُدوَّرة، ثمَّة هاويةٌ ساكنة لا لون لها عدا زرقةٍ آتية ربما من رماديّ الأحجار. عمق الأفق سيصطبغ تقريباً بزرقةٍ معتمة، مغايرة للزرقة السوداء في سماء الأعماق، أما على النوافذ المطلة فهو من صفرةٍ حالكة.

من هنا، من السرير، لو فتحت العينين المثقلتين بالنوم الذي لا أحسّه، لوجدتُ الهواء تحوَّل من ثلج إلى لونٍ تطفو عليه قُشورُ محارٍ فاتر. ولو فكّرت فيه بما أحسّه، لألفيتُه ضجراً تحوَّل إلى ظلٍّ أبيض، يتعتَّم كما لو أنَّ العينين أغمضتا على ذلك البياض الغامض.

رمادٌ على السرير

اليوم استيقظتُ باكراً جداً، في لحظةٍ مشوَّشة، ثمَّ نهضتُ من السرير على الفور تحت ضغط ضجرٍ غامض لم يتمخَّض عن أيّ حلم، ولا كان صنيعة أيّ تجربةٍ واقعية. كان ضجراً مُطلقاً وتاماً، لا بُدّ أنه كان مُستنداً إلى شيءٍ ما. في العمق المُعتم لروحي، هناك قوى لامرئية مجهولة شرعت في قتالٍ كانت كينونتي ساحته، وأنا كلي

كنت أرتعش للقتال المجهول. قرفٌ فيزيقي من الحياة بكاملها ولد مع استيقاظتي. رُعْبُ ضرورة مواصلة العيش نهض معي من السرير. خاوياً بدا لي كلّ شيء وتولّد لديّ الانطباع البارد بأنَّ ليس ثمة حلّ لأي مُشكلةٍ كانت.

قلقٌ فظيع جعل أصغر حركاتي ترتجف. أحسستُ بالارتياب والخوف من أنْ أفقد صوابي، لا جنوناً. جسدي كان صرخةً دفينة. وقلبي ظلَّ يخفق كما لو كان يتكلَّم. حافياً قطعت بخطواتٍ واسعة ومُصطنعة، حاولتُ عبثاً أن أجعلها مُختلفة، المسافة الطولية الصغيرة للغرفة، والمسافة القطرية الفارغة للغرفة الداخلية التي يوجد بابها في الركن المؤدّي إلى ممرّ المنزل. بحركاتٍ غير مُتماسكة وغير مضبوطة، لامست الفراجين الموضوعة فوق الخزانة. دحرجت أحد الكراسي، وبيدي دفعتُ آخر ليترنَّحَ على الحديد الحادّ لقدم السَّرير الإنجليزيّ. أشعلتُ سيجارة، دخَّنتُها بلا وعي، وفقط عندما رأيت رماداً يسقط على رأس السرير - كيف؟ كما لو لست الذي وضعه هناك؟ - أدركتُ أنني كنت ممسوساً، أو ما يشبه ذلك، وأن وعيي الذي يُفترض تملُّكي له، قد غاص في الهاوية.

استقبلتُ بشارة النهار، بالقليل من الضّوء البارد الذي يمنح الأفق المنجلي زرقةً بيضاء، مثل قبلة امتنانٍ للأشياء، لأنَّ ذلك الضوء، ذلك النهار الحقيقي، حرَّرني ممّا لست أدري، منحني قوة شيخوخةٍ مجهولة، باتجاه احتفالات طفولةٍ زائفة، وحمى الراحة المتسوِّلة لحساسيتي الطافحة. آه، أي صبيحةٍ هذه التي توقظني على بلادة الحياة، وحنانها الأكبر! إنني أبكي تقريباً. ناظراً إلى الشارع الضيق العتيق ينجلي أمامي وتحتي، وعندما تكشف الستارات الحديدية لدكان الزاوية ذلك الكستنائيّ القذر في الضوء المرتشح

بعض الشيء يحسّ قلبي بانشراح حكايةٍ عن جنيات حقيقية. ويبدأ في امتلاك وثوقية عدم الإحساس.

من أيّ صباح هذه المرارة! وأيّ ظلالٍ تتناءى؟ وأيّ غوامض تكمنُ هناك؟ لا شيء: ضجيج الترام الأوَّل مثل فوسفورٍ سيضيء عتمة الروح، والخطوات العالية لأوَّل مارٍّ هي الواقع الملموس الذي يقولُ لي، بصوت صديق، لا تكن هكذا.

من يعيش مثلي

رتابةُ حياتي الخامدة الشبيهة بغبارٍ أو قذارةٍ متجمّعةٍ على سطح انعدام التغيير تبدو لي في أمسّ الحاجة إلى التنظيف.

هكذا مثلما نغسل الجسد، علينا أن نغسل المصير، أن نغيِّر حياتنا مثلما نغيّر الثياب. لا لننقذ الحياة، مثلما نأكل وننام، ولكن لأجل تكريس ذلك الاحترام المستقل عنا والذي بالإمكان تسميته تخصيصاً: نظافة.

ليست القذارة لدى كثيرين قابلية إرادية، وإنما هي بمثابة استخفافٍ من الذكاء. كما أنَّ الخُمود والحيوية لدى الكثيرين ليسا شكلاً من أشكال الرغبة في الحياة، أو تنازلاً طبيعياً عن عدم الرغبة فيها، وإنما هو انطفاءٌ للذكاء في أنفسهم، وتعبير تهكّميّ تلقائي عن المعرفة.

ثمة قذرون تشمئز منهم قذارتهم الخاصة، لكنهم لا يتخلون عنها لذلك الحد نفسه من الإحساس الذي يجعل الشخص المرعوب عاجزاً عن تلافي الخطر. ثمة قذرون بحكم المُصادفة مثلي، ممّن لا يبرحون التفاهة اليومية بفعل جاذبية ذلك العجز ذاته. إنها طيورٌ مُفتتنةٌ

بغياب الأفعى؛ ذبابٌ يطير عبر الجذوع بدون أن يرى شيئاً حتى يجد نفسه في المُتناول اللزج للسان الحرباء.

هكذا أنقِّلُ رويداً رويداً لاوعيي الواعي، على غصن شجرة الاعتيادي. هكذا أنقّل قدري السائر على قدمين، لأنني عاجزٌ عن السير، هكذا أنقّل زمني المتواصل، لأنني غير قادرٍ على مواصلة أيّ شيء. لا ينقذني من الرتابة سوى هذه التعليقات التي أخطّها. يسرني توفر زنزانتي على واجهاتٍ زجاجيةٍ من داخل قضبان النافذة، وبأحرفٍ كبيرة أكتب على الزجاج، في غبار الضروريّ، اسمي، أكتب التوقيع اليومي لكتابتي مع الموت.

مع الموت؟ لا، ليس مع الموت. مَن يعيش مثلي لا يموت: ينتهي، يذوي، يتيبَّس. المكان حيث كنت سيبقى خالياً منه هو، في الشارع الذي عبرته هو الذي سيبقى غير مرئيٍّ هناك، المنزل حيث أقمت يقطنه اللا - هو. هذا كلُّ شيء، ونسميه لا شيء؛ لكن ولا حتى تراجيديا النفي هذه بإمكاننا تقديمها مصحوبةً بالتصفيق، إذ لا نعرف ماذا تكون إنْ لم تكن هباءً، نباتياتٌ للحقيقة مثلما للحياة، الغبار المتجمّع بكثرة من داخل كما من خارج الزّجاج، أحفاد القدر وربائب الله، الذي تزوج الليلة السرمدية عندما ترمَّلتْ هي من العماء الذي منه ولدنا.

(بعد 1923)

لو كنت آخر

في الكمال الضوئي للنهار يركد الهواء المُفعم بالشمس. إنه ليس الضغط الراهن للعاصفة المُقبلة، توعّك الأجسام اللاإرادية، التعكُّر الغامض للسماء الزرقاء حقاً، بل هو السبات المحسوس

للفراغ، الريشة التي تلامس الوجه المنوَّم. هو الصيف، والريف المثير للرغبة حتى لدى غير عاشقي الريف.

لو كنت آخر، أفكّر، لكان هذا اليوم يوماً سعيداً بالنسبة إليّ، سأحسّ به بدون أن أفكر فيه. سأنهي بفرحٍ مسبقٍ عملي العادي: الذي يبدو لي في سائر الأيام اعتيادياً على نحوٍ رتيب. سأستقلّ الترام صوب بنفيكا، مع أصدقاء محدَّدين. سنتناول وجبة غذائنا في عزِّ الشمس، وسط الحدائق. والفرح الذي سيغمرنا سيشكل جزءاً من المشهد...

لكن، لأنني أنا من هو، سأستمتع بالقليل من ذلك المشهد الآخر الذي أتخيله. أجل، بعدئذٍ تحت العريش أو الشجر سيأكل هو - أنا ضعف ما آكل، وسيشرب ضعف ما أجرؤ على شربه، وسيضحك ضعف ما أستطيع التفكير فيه من الضحك. بعدئذٍ هو، والآن أنا. أجل، لقد كنت آخر، للحظةٍ معينة: رأيت، عشت، في آخر، ذلك الفرح الحيي والإنسانيّ بالوجود كحيوانٍ بأكمام قميص. إنه ليومٌ عظيم هذا الذي جعلني أحلم هكذا! الكلّ زرقةٌ وجلالٌ في الأعالي مثل حلمي العابر بأن أكون تاجراً مع الرغبة فيما لست أدري من عطل في نهاية النهار.

1932-7-2

أرى نُجوماً كثيرة

عندما يحلّ الصيف أميل إلى التسلي، يبدو أنَّ ضوء الساعات الصيفية، على حدّته، ينبغي أن يدغدغ مشاعر مَن لا يعرف من هو. لكنه يحرمني من دغدغته، ثمة تعارضٌ مفرط بين الحياة الخارجية المتفجرة وما أحسه وأفكره بدون أن أعرف كيف أحسّ ولا كيف

أفكّر: الجثة غير المدفونة لأحاسيسي. لديّ انطباعٌ عن حياتي في هذا الوطن العديم الشّكل المدعوّ كوناً، تحت طغيانٍ سياسي، يسيء إلى الجوهر الخفيّ لروحي ولو لم يضيّق عليّ الخناق مباشرة. وحينئذٍ يصعد إليّ، خفية، الاشتياق المُسبق إلى المنفى المُحتمل.

أشعُرُ بحالة نومٍ أكيدة. لكنه ليس النوم الذي يجلب مثل كلّ المنامات، حتى المرضية منها، الامتياز الفيزيقي للطمأنينة، ولا النوم الذي يَجلب - بحكم نسيانه المؤقت للحياة وبصدفة مجلبته للأحلام - في الصينية التي يأتي عليها، إلى أرواحنا القرابين الوديعة لتنازلٍ كامل. كلا: هذه نومةٌ لا يسعفها الرقاد، نومةٌ تحطّ بثقلها على الجفون بدون أن تغمضها، وتجمع في حركةٍ أحسّ أنها مكونةٌ من غباءٍ وتمنّع مَقْرن الشفتين الجاحدتين. هذه نومةٌ تشبه تلك التي تضغط بلا جدوى على الجسد في التسهدات الكبرى للروح.

فقط عندما يحلّ الليل، أحسّ، لا بالفرح، وإنما باستراحةٍ أحسّها سارّة، لأن ثمة استراحات غيرها سارة بدورها، بالقياس إلى الحواس. حينئذٍ يتجاوز النوم بلبلة الأفول الذهني الذي أنتجه هذا النوم، فيتخفّف، ويشفّ، ويكاد يضيء. أعيش، للحظة، أمل أشياء أخرى. بيد أنَّ أمد ذلك الأمل قصير. وما يطرأ هو ضجرٌ لا نومٍ ولا أمل، إفاقةٌ رديئة لمن لم يتوصّل إلى النوم. ومن خلال نافذة غرفتي، أرى، يا لروح الجسد المُنهكة، كثيراً من النجوم، لا شيء، لكن مع كثيرٍ من النُجوم...

1934-6-9

بفضل الذكرى

الشمّ حاسة بصرٍ شاذ. يستدعي مشاهد عاطفية بواسطة رسمٍ مباغتٍ يأتي من اللاوعي. مرات كثيرة أحسست بهذا. أمُرُّ بأحدَ الشوارع. لا أرى شيئاً، أو بالأحرى. أرى كلَّ شيء، أرى كما يرى كلّ الناس. أعرف أنني أمضي عبر شارعٍ موجودٍ بالفعل بجانبين مكونين من منازل مُختلفة ومشيدة لأجلِ كائنات بشرية. أمرّ بأحد الشوارع. من إحدى المخابز تنبعث رائحةٌ تبعث على الغثيان لحلاوتها: وإذا بطفولتي تنبعثُ من أحد الأحياء البعيدة، وإذا بمخبزةٍ أخرى تنبعث من مملكة الجنيات التي هي كلّ ما فقدناه. أمرّ بأحد الشوارع أشمّ فجأة، فواكه اللائحة المائلة للدكان الضيّق؛ فإذا لحياتي القصيرة في البادية، لا أدري الآن متى ولا كيف، أشجارٌ في نهاية الممر، مع طمأنينةٍ تُفعمُ قلبي وقد أضحى طفلاً على الدوام. أمرّ بأحد الشوارع. فتبلبلني، على غير توقّعٍ مني، رائحةٌ مُنبعثةٌ من درج بائع كتب: أوه ثيساريو، ها أنت تظهرُ أمامي، وها أنا سعيدٌ في النهاية لأنني رجعت، بفضل الذكرى، إلى الحقيقة الوحيدة التي هي الأدب.

أمامي صفحتان

أمامي توجد الصفحتان الكبيرتان من الكتاب الثقيل؛ أرفع من انحناءتي فوق المكتب العتيق، بعينيّ الكليلتين، روحاً أكثر كللاً من العينين، أبعد من اللاشيء الذي يمثله هذا كله، من المخزن، حتى شارع Dos Douradores، حيث تصطفّ الرفوف المنظمة، المستخدمون المنتظمون، النظام الإنساني وطمأنينة ما هو عامي. في النافذة ثمة ضوضاء ما هو مُختلف، ضوضاءٌ مُبتذلة، مثل السكينة الموجودة جنب الرفوف.

أضع عينين جديدتين على الصفحتين البيضاوين اللتين وضعتْ عليهما أرقامي المحترسة أرباحَ المجتمع[1]. وبابتسامةٍ أحتفظ بها لنفسي، أتذكر أنَّ الحياة التي تمتلكها هاتان الصفحتان بأسماء الأقمشة، ببياضاتها، وبالسطور المسطّرة بالمساطر، وبالحروف، تضمّ كذلك، كبار الملاحين، كبار القديسين، وشعراء كلّ العُصور، جميعهم هنا بلا كتابة، كلّ السلالة الشاسعة المطرودة من سجلّ الذين منحوا العالَمَ قيمة.

في سجلّ النسيج نفسه الذي لا أدري ما هو، تنفتح لي أبواب الهند وسمرقند، وشعر الفرس، الذي لا ينتمي إلى هذه الجهة أو تلك، برباعياته، ذات البيت الثالث اللامقفى، يمنح دعماً مديداً لطمأنينتي. لكنني لا أنخدع، أكتب، أجمع الحسابات، بينما الكتابة تتواصل على يدي مستخدم المكتب هذا.

(1929؟[2])

استيقاظةُ مدينة

منذ ما قبل الصباح الباكر، وعلى عكس العادة الشمسية لهذه المدينة المضيئة، حوّل الضباب البيوت المتكاثرة، الفضاءات، أعمال الأرض والبناءات إلى رداءٍ خفيفٍ ظلّت الشمس تذهّبه باطراد، لكن مع وُصول ساعة ما قبل منتصف النهار، بدأ الضباب الرّطب ينسحب ويجفّ في بخار الظلال المحجبة. وحوالى العاشرة

(1) الحديث هنا واضح عن مهنته كمساعد محاسب.
(2) نشر في *Saluçao*, Editora, no 4, 1929، موقّعاً باسم بيسوا ومنسوباً إلى برنارد سوارش.

صباحاً لم يكن هناك سوى زرقةٍ رديئةٍ واهية تدلّ على أنَّ الضباب كان موجوداً.

من انفلات الغبشة انبعثت ملامح المدينة. فإذا بالنهار ينبلج مثل انفتاحةِ نافذة. كان ثمة تبدّل خفيف في ضجيج كلّ شيء. تلوينٌ أزرق نفذ إلى أحجار الشوارع والروائح اللاشخصية للمارين. كانت الشمس دافئة، لكن مع رطوبةٍ دافئةٍ متَّصلة. أما الضباب المتواري فقد كان يتقطر على نحوٍ غير مرئيّ.

إنَّ استيقاظة مدينة ما سواء وسط الضباب أو وفق مشهدٍ آخر، شكّلتْ دوماً بالنسبة إليّ مصدر تسليةٍ أكثر من الشروق في الحُقول، ذلك أنَّ انبعاثاتٍ شتى تظهر، ويغدو بالإمكان توقّع الكثير من التفاصيل المُفاجئة، عندما تتذهّب الأعشاب، نتوءاتُ الجينات، راحات أكفّ الورقات، أولاً بضوءٍ غسقيّ ثم بضوءٍ رطب، ثمَّ بنورٍ ذهبيٍّ ناصع، والشمس تضاعف تأثيرها على النوافذ، على الجُدران، على السّطوح، [. . .] عندما في الصباح [. . .] لكثيرٍ من الوقائع المتنوّعة معاينة شروقٍ في الحُقول تفعل بي خيراً فقط؛ أما الشروق في المدينة فخيراً يفعل بي وشراً، لذلك فهو يُسدي إليّ أكثر من معروف. أجل، لأنَّ للأمل/ الأكبر/ الذي يجلبه لي، مثل الآمال كلها، تلك المرارة البعيدة والملتاعة، مرارة أن يتكشّف عن سراب. صباح القرية حقيقة؛ صباح المدينة وعد. الأول يجعلك تعيش؛ الثاني يجعلك تفكر. وأنا عليّ أن أحسّ دائماً مثل الملاعين الكبار أنَّ للتفكير أفضلية دائمة على العيش.

1931-9-11 /10

يا لأيّامي

بعد ليلةٍ نمناها سيئاً، لا بُدَّ أن نفقد الكثير في أعين الآخرين. فالنوم الذي فرّ منا يأخذ معه ما يجعلنا إنسانيين. ثمة غيظ مكتوم فينا يبدو، ماثلاً في الهواء اللاعضوي الذي يُحيط بنا. إننا نحن، في النهاية، مَن نتبادل الرفض وبيننا نحن وبين أنفسنا تجري دبلوماسية العراك الأخرس.

اليوم عبر الشارع مضيت أجرجر القدمين أجرجر العياء الكبير. الروح عندي مُختزلة في خصلة مقيّدة، وما كنته وما أنا إياه، نسي اسمه. لا أملك للغد سوى أرقي، وغموض يصنع لحظات صمت داخل حديثي الباطني.

آه، حدائق الغير الكثيرة، حدائق مألوفة بالنسبة إلى كثيرين، أجمات عجيبة تخصّ أولئك الذين لن يعرفوني أبداً! أتقوقع داخل تهجّداتي الخاصة كمن لم يجرؤ البتة على أن يكون مستغنى عنه، وما أتأمله ينتفض في آخر المطاف على هيأة حلم.

دارةٌ[1]؛ أرملةٌ أنا، هي دَيريّةُ ذاتها، مسحورةٌ من أشباحٍ حيية وخفية. أوجد دائماً في الغرفة المُجاورة، أو توجد هي، وثمة ضجاتٌ هائلة لأشجارٍ مُحيطةٍ لي. أشرد فأجد؛ أجد لأنني أشرد. يا لأيامي وأنا طفل، وأنتم أنفسكم ترتدون المريلة.

ووسط هذا كله، أمضي عبر الشارع، نؤوماً من تسكّعي مثل ورقة، ما من ريحٍ بطيئةٍ إلا وتكنسني من الأرض... جفناي يثقلان عليّ في القدمين المجرورتين. أريد أن أنام لأنني أسير. فمي مغلقٌ كما لو كان مهيأ لتُضرب الشفتان. تسكّعي باء بالفشل.

---

(1) الحفاظ على صيغة التأنيث هنا لا تخفى على العارفين إيحاءاته المخصوصة.

أجل، لم أنم، لكن هكذا أفضل، ولو لم أذق النوم البتة من قبل ولا الآن، إنني أنا حقاً في هذه الديمومة الصدفوية والرمزية لوضع المخدوع بنصف الروح هذا. ذلك الشخص أم ذاك كلاهما يحدق فيّ باسغرابٍ كما لو كان يعرفني. أحسّ بأنني أنظر إليهما بمحجرين أحسهما تحت الجفنين الملامسين لهما، ولا أريد أن أعرف أنَّ العالم موجود.

النَّوم يُراودني، الكثير من النوم، النوم كُلّه.

1931-7-2

عدسةٌ باردة

لقد أراد الشريك الرأسماليّ في هذه الشركة والمريض دائماً، في جهةٍ غير محدّدة، أراد لا أدري بدافع أيّ نزوةٍ أوحى بها تخفف مرضه، الحصول على صورة فريق موظفي المكتب. وهكذا اصطففنا، جميعاً، قبل أمس، بإشارةٍ من المصوّر المرح، قبالة الجدار الأبيض القذر الذي يفصل، بخشبٍ هشّ، المكتب العمومي عن المكتب الخاص بالمدير فاسكيز. في الوسط، وقف المدير فاسكيز نفسه؛ وفي كلا الجانبين؛ وفق توزيع محدَّدٍ في البداية وغير محدَّدٍ من بعد، وقفت الأرواح الإنسانية الأخرى التي تجتمع هنا جسمانياً في سائر الأيام من أجل غاياتٍ صغيرةٍ لا يعلم قصدها النهائي سوى الآلهة.

عندما وصلت اليوم إلى المكتب متأخراً بعض الوقت، ناسياً في الحقيقة حدث الصورة الفوتوغرافية المُلتقطة مرتين، التقيت بموريرا مبكراً على غير توقع، وبأحد المستخدمين منحنيين بتكتُّم على شيئين مسودين، تعرفت عليهما فوراً على حين غرة، باعتبارهما التجربتين

التحميضيتين الأوليين للصورتين. لكن، في النهاية، تبين أنَّ الأمر يتعلَّق بصورتين للقطةٍ واحدة فقط هي تلك التي كانت الأفضل.

لقد عاينتُ حقيقة رؤيتي لنفسي محشوراً هناك، كما هو مُفترض، كان أول مَن بحثت عنه هو أنا بذاتي، لم أمتلك البتة فكرةً نبيلة عن مظهري الفيزيقي، لكن لم يسبق لي أن أحسستُ به عديم القيمة مثلما حدث لي عند مقارنتي إياه بأوجه شخصيات أخرى معروفة جداً لدي، في الجرائد اليومية. في الصورة أبدو بهيأة يسوعيٍّ سوقيّ. وجهي النحيف اللامعبِّر خالٍ من أمارات الذكاء ومن الحدة ومن كلّ ما يمكن أن يعلو به فوق حركة المدّ الميت للأوجه الأخرى. ثمة أوجهٌ معبرةٌ حقاً. المدير فاسكيز هو على علّاته - الوجه المتسع الهادئ والصارم، النظرة الثابتة المكتملة بالشارب المتصلِّب. إنها الطاقة، وألمعية الرجل - في نهايات الحسابات المبتذلة، المكرّرة مراراً كثيرةً من آلاف الرجال في العالم أجمع - مكتوبة في تلك الصورة مثل جواز سفرٍ سيكولوجيّ. المندوبان التجاريان يبدوان مدهشين، المستخدم، بدوره يبدو بصورةٍ حسنة، متأخراً وراء كتف موريرا. وماذا عن موريرا؟! رئيسي موريرا، لبُّ رتابة الاستمرارية، إنه يبدو أكثر أهميةً مني بكثير. حتى الخادم - أنتبه بدون أن أستطيع كبح إحساسٍ أحاول أن أفترض أنه ليس حسداً - يمتلك ملامح ثقةٍ على وجهه، تعبيراً مباشراً يتفوّق على انطفائي الفارغ، انطفاء أبي هوْلٍ من ورقٍ مُهمل.

ماذا يعني هذا؟ أيّ حقيقةٍ هذه التي لا تخدعُ شريطاً؟ أيُّ يقينٍ هذا الذي تعزّزه عدسة باردة؟ مَن أنا حتى أكون هكذا؟ مع ذلك... ماذا عن شتيمة المجموعة؟

- «أنت بدوت جيداً جداً»، يقول موريرا فجأةً ملتفتاً، فيما

بعد، نحو المستخدم، «أهو وجهه ذاته، إيه؟» فيُجيبه المستخدم موافقاً بفرحٍ رمى به إلى القمامة.

1930-4-5

غُيوم...

غُيوم... اليوم أمتلك وعياً بالسماء، إذ منذ أيام لم أنظر إليها لكنني أحسّها، عائشاً في المدينة وليس في الطبيعة التي تحتويها. غيوم... غيوم... هي اليوم الواقع المركزيّ وهي تشغل بالي كما لو أنَّ استخدام السماء كان من المخاطر الكبرى المُحدقة بمصيري. غيوم... تمر من العارضة إلى Castelo[1]، من الغرب إلى الشرق، في صخبٍ متفرّقٍ وعارٍ، رثة تبدو في طليعة ما لست أدري؛ بعضها نصف - أسود، نعم، وأكثر إبطاءً، تتأخر لتصبح مكنوسةً من قبل الريح الجسور، سوداء من بياضٍ قذر، نعم، كما لو كانت ترغب في البقاء، تسودّ من القدوم أكثر ممّا من الظل الذي تشرعه الشوارع كفضاءٍ مصطنعٍ بين الخطوط المُغلقة للمنازل.

غُيوم... موجودٌ أنا بدون أن أعرف أنني موجود وسأموت بدون أن أريد الموت. إنني الفاصل بين ما أنا إياه وما لست إياه، بين الحلم وبين ما صنعته الحياة بي، وأنا القياس المجرّد والجسدي بين أشياء ليست في حقيقتها بشيء، لكوني كذلك لا شيء. غُيوم... لكم ثمة من لاطمأنينة في حالات إحساسي، كم ثمة من غمٍّ في تفكيري، كم من لاجدوى في رغباتي! غيوم... غيومٌ تمرّ على الدوام، بعضها يبدو كبيراً، لأنَّ المنازل ما كانت لتسمح برؤيتها لو كانت أقلّ حجماً

---

(1) Castelo de Sao Jorge يقع على ربوةٍ باتجاه شرق لشبونة.

ممّا تبدو، وهي في طريقها لاحتلال السماء بكاملها؛ بعضٌ آخر بحجمٍ غير واضح، لعلهما غيمتان يمكن اجتماعهما في واحدةٍ ستنشطِرُ إلى اثنتين، بدون أي اتجاهٍ في الهواء العالي فوق السماء المتعبة؛ ثمة غيومٌ أخرى صغيرة لا تزال، تبدو لُعباً لأشياء. . ، كراتٌ مختلفة للعبةٍ باطلة، باردة، باتجاه ناحية عزلةٍ كُبرى.

غيوم. . . أستنطق ذاتي جاهلاً إياها. لم أقُم بأيّ عملٍ نافع ولن أقوم بما يُمكن تبريره. لقد استهلكتُ حصتي من الحياة التي لم أضيّعها في الاعتراض الغامض على اللاشيء، محوّلاً إلى شعرٍ نثريّ الأحاسيس غير القابلة للنقل والتي بواسطتها أجعل الكون المجهول كوني الخاص. لقد ضقت ذرعاً بي، موضوعياً وذاتياً. ضقتُ ذرعاً بكلّ شيء، وبكلّ الكل. غيوم. . . الكل غيوم. . . فوضى من الأعالي، أشياء هي اليوم وحدها واقعية بين الأرض الفارغة والسماء العديمة الوجود؛ ضبابٌ مكثفٌ بتهديداتٍ ذات لون مغيب، قطع قطنٍ وسخة في مستشفى ليس له جدران. غيوم. . . هي مثلي، عبورٌ مشوهٌ بين السماء والأرض، بمذاق زخمٍ لامرئي، مرعدٌ أو غير مرعد، تزين بالأبيض أو تُعتّم بالأسود، خيالات المدى، بعيداً عن صخب الأرض وسكينة السماء. غيوم. . . غيومٌ تمرّ، تواصل المرور دائماً، ستمرّ دوماً مواصلةً مرورها، في التفافٍ متقطعٍ لخصلاتٍ معكرة، في تمدُّدٍ مُنْبتٍّ لسماءٍ مزيفة متفكّكة.

1931-9-15

ما من مهرب

ثمة لحظاتٌ يُتعبنا فيها كلّ شيء، حتى ذاك الذي يريحنا. ما يُتعبنا يُتعبنا لأنه يُتعبنا؛ ما يريحنا يتعبنا لأنَّ فكرة نيله تُتعبنا. ثمة قنطٌ

يسكن الروح تحت مستوى كل قلقٍ وكلّ ألم، قنطٌ لا يعرفه، فيما أعتقد، إلا أولئك الذين يتجنبون أنواع القلق والآلام الإنسانية، ولهم من الديبلوماسية مع أنفسهم ما يتيح لهم تفادي ضجرهم الخاص بدون أن يعني ذلك تحولهم إلى كائناتٍ محصنةٍ ضدّ العالم، إنهم، في لحظةٍ معينةٍ من وعيهم بأنفسهم، لا يعانون من وطأة هذه الحصانة، فالحياة بالنسبة إليهم أصبحت قلقاً معكوساً، وألماً مفتقداً.

أجد نفسي الآن داخل لحظةٍ من تلك اللحظات، وأكتب هذه السطور كمن يريد أن يعرف بالأقل أنه يعيش. لقد اشتغلتُ مثل شخصٍ منوّم، مجرياً حسابات خاصة بإجراءات النوم، مواصلاً الكتابة طوال إغفاءتي. طيلة اليوم شعرتُ بما يثقل العينين والصدغين، شعرتُ بثقل النوم في العينين، بضغطٍ حتى خارج الصدغين، وبوعي هذا كله في المعدة، فيما يشبه الغثيان والخور.

يبدو لي العيش خطأً ميتافيزيقياً فادحاً من المادة، زلّةً من زلات العماء. لا أنظر إلى النهار، كيما أرى ما يمكن أن يمنحنيه من عزاء، كاتباً إياه هنا بأسلوبٍ وصفيّ. لأغطي بالكلمات الفنجان الفارغ لعدم رغبتي، لا أبصر النهار، وأجهل بظهري المُنحني، ما إذا كانت الشمس موجودةً في الخارج أم لا، في الشارع الحزين ذاتياً، في الشارع المقفر... أجهل كلّ شيء والصدر يؤلمني. لقد كففتُ عن العمل ولا أرغب في التحرُّك من هنا. أنظر إلى النشافة البيضاء المُتسخة، التي تتمدَّد ملصقةً من الجهتين فوق المكتب المائل. أنظر بتيقُّظٍ إلى الخطوط الممتصّة الممحوّة فيها... أرقامٌ هنا وهناك. رسوم للاشيء من صنع تسلياتي. أنظر إلى هذا كلّه نظرة قرويٍّ إلى نشافات، بانتباه من يرى أشياء جديدة، بالدماغ الخامد كله من وراء المراكز الدماغية المنتجة للنظر.

لديّ من النوم الباطني ما يفوق طاقة استيعابي. ولا أرغبُ في شيء، لا أفضّل شيئاً، ليس ثمة مهرب.

1930-6-12

للوصول إلى الحقيقة

ما من مشكلةٍ لها حلّ. لا أحد منا يجد حلاً للعقد الغوردية؛ جميعنا إمّا نعدل عنها وإما نقوم ببترها. فجأةً بواسطة الإحساس نقرِّر الفصل، في مشكلات الذكاء، إما تعباً أو خجلاً من استخلاص النتائج، أو بفعل الحاجة اللامعقولة إلى الآخرين وإلى الحياة. ما دمنا عاجزين عن معرفة كل معطيات مسألةٍ ما، فلن نستطيع أبداً حلّها.

للوصول إلى الحقيقة تنقصنا معطياتٌ كافية وقضايا ذهنية تستنفد معالجة تلك المعطيات.

1916-7-18

تراجيديا غامضة

لقد ذهب اليوم/ يقولون/ ، بصفةٍ نهائية، خادم المكتب إلى مسقط رأسه، ذلك الرجل نفسه الذي اعتدتُ أن أعتبره جزءاً من هذا البيت الإنساني، وإذاً، جزءاً مني ومن العالم الذي هو عالمي. لقد مضى، عند التقائنا في الممر، بمصادفةٍ منتظرة للوداع المُنتظر، عانقته بخجل، وقد امتلكتُ ما يكفي من شجاعةٍ لأمنع نفسي من البكاء الذي كانت عيناي المتَّقدتان ترغبان فيه من دوني.

ما من شيء كان ملكاً لنا، ولو عبر أحداث المُعايشة أو النظر العابرين، إلّا وأصبح جزءاً منا لأنه كان شيئاً في ملكنا. الذي مضى

اليوم، إذن، إلى أرضٍ غاليسيةٍ أجهلها، ليس خادم المكتب: بل قطعةً حيوية، بصرية وإنسانية، من ماهيتي الإنسانية. اليوم تمَّ الانتقاص مني. لم أعد شخصُ كل يوم نفسه. خادم المكتب مضى.

كلّ ما يحدث في المكان الذي نعيش فيه، إنما يحدث فينا نحن، كل ما ينتهي فيما نراه إنما فينا نحن ينتهي أو يزول. كل ما كان، لو عشناه كما كان، فمنّا نحن انتزع بالذات عندما انقضى ومضى. لقد مضى خادم المكتب بلا رجعةٍ مضى.

أحسّ بالمكتب العالي أكثر ثقلاً، أكثر شيخوخة، أقل مطاوعة وأشرع في مواصلة كتابة أمس. غير أنَّ تراجيديا اليوم الغامضة، تقطع، بتأملاتٍ يجب أن أسيطر عليها بالقوة، السير التلقائي للكتابة كما ينبغي. لا أملك شجاعةً لمواصلة العمل، إلا لأنني أستطيع، بفتورٍ نشيط، أن أكون عبداً لذاتي نفسها. خادم المكتب مضى إلى غير رجعة.

أجل، غداً أو في يومٍ آخر، أو متى شاء جرس الموت أو الحياة المجرد من الصوت، كذلك أنا سأكون مَن لم يعُد موجوداً هنا، سأكون الكتاب المنقول المستغنى عنه الذي سيحتفظ به في الخزانة الواقعة أسفل السلّم. أجل، غداً، أو عندما يقولها القدر، ستكون هناك نهايةٌ حتمية لكلّ ما تظاهر من داخلي بأنه أناي. أسأمضي إلى مسقط رأسي؟ لا أدري إلى أين سأمضي. اليوم، التراجيديا تبدو مرئية... يا إلهي، يا إلهي، خادم المكتب إلى غير رجعةٍ مضى.

1931-12-16

سطح الحواس الراكد

توجد إحساساتٌ هي بذاتها منامات، تحتلّ مثل الضباب كلّ شسوع الروح، لا تدعنا نفكر، لا تدعنا نعمل، تحُولُ بيننا وبين أنْ نكون. هنالك بعض من الوسن يبقى قائماً فينا كأننا لم ننم بالفعل، وهنالك سبات من شمس النهار يدفئ السطح الراكد للحواس، إنها لسكرة كوننا لا شيء، والرغبةُ عبارةٌ عن سطلٍ مسكوب في الزريبة بالحركة غير المؤلمة للقدم أثناء مرورها.

ثمة نظر، لكن من غير رؤية. الشارع الطويل الذي يغلي بدويبات بشرية هو بمثابة لافتة مقلوبةٍ الكلمات فيها متحركة بدون أنْ تشكِّل معاني معيّنة. البيوت هي بيوت وحسب. إمكانية منح معنى لما يرى تضيع، لكن حقيقة ما هو بالفعل مرئيةٌ جداً، أجل.

الطرقات في باب المستودع تدقّ بغرابةٍ قريبة، تدقّ متباعدةً جداً، لكلّ واحدةٍ صدى خاص بلا فائدة. ضجيج العربات يبدو من طينةِ يوم عاصفيّ. الأصوات من الهواء تخرج، لا من الحناجر. منهكاً يبدُو النهر في طرف المشهد.

ليس ضجراً ما نحسّ، ليس حزناً. إنه رغبةٌ في النوم عبر شخصيةٍ أخرى، رغبةٌ في النسيان بسخاء ومغالاة. لا نحسّ بشيء، بالأقدام التلقائية المنتمية إلينا التي تمضي ضاربةً بخطاها الأرض، في مسيرةٍ لاإرادية، أقدامٌ تحسّ داخل الأحذية. حول العينين، وكما الأصابع إذ توضع في الآذان، ثمة اختناق داخل الرأس.

يبدو أنَّ الأمر يتعلق بزكام في الروح. ومن الصورة الأدبية لهذا الوضع المرضي تولد أمنية لَو أنَّ الحياة كانت عبارةً عن نقاهة، وفكرة النقاهة تستدعي الضيعات الريفية للضواحي، لكن هنالك في الداخل، حيث البيوت البعيدة عن الشارع والعجلات. أجل، ليس

ثمة إحساس بأي شيء، أمضي واعياً، بالنوم فقط مع استحالة منح الجسد اتجاهاً آخر، منحه الباب الذي منه يجب الدخول. كلّ شيءٍ يمضي. . .

خفيفةً مثل شيءٍ يبدأ، أتت رائحةُ النسيم البحرية، من فوق التاج، لتتبدَّدَ وسخةً فوق بدايات منطقة Baixa ثمة حركة جزرٍ منعشة، مع خدرٍ باردٍ لبحرٍ فاتر. لقد أحسستُ بالحياة في المعدة، والشم تحوّل عندي إلي شيءٍ موجود وراء العينين. غيمات متباعدةٌ عالية، من رمادي يتفتت إلى أبيض زائف. الجوّ كان عبارةً عن تهديدٍ سماويٍّ جبان، مثل وعيد عاصفةٍ غير مسموعة مصنوعة من هواءٍ وحسب.

كان ثمة ركودٌ في طيران النوارس نفسه، كانت تبدو مثل أشياء أخفّ من الهواء، متروكة فيه من لدن أحدٍ ما. لا شيء يختنق. المساء كان يهبط بلا طمأنينةٍ منا وإلينا؛ والهواء يُنعشُ الأجواء بشكلٍ متقطّع.

يا للأمنيات المسكينة التي امتلكتها ذات يوم، وليدة الحياة التي كان ينبغي أن أمتلكها! إنها شبيهةٌ تماماً بهذه الساعة وهذا الهواء، ضبابٌ بلا ضباب، تشنُّجاتٌ ممزّقة لعاصفةٍ زائفة. لديّ رغبةٌ في الصراخ، لأجل أن أضع حداً للمشهد وللتأمّل. غير أنَّ هناك انحساراً في هدفي، والجَزر عرّى الحلكة الموحلة التي توجد هنالك في الخارج والتي لا أراها إلا بواسطة الشم.

ثمة كثيرٌ من التناقض في الرغبة بالاكتفاء بذاتي! كثيرٌ من الوعي التهكمي في الأحاسيس المفترضة! كثيرةٌ هي تشابكات الروح مع الأحاسيس، والأفكار مع الهواء والنهر، لأجل أن أقول فقط إنَّ الحياة تؤلمني في الشم وفي الوعي، ولعجزي عن أنْ أعبر، على

نحوِ ما عبرت تلك الجملة البسيطة والجامعة لكتاب جوب: «إنَّ روحي متعبة من الحياة».

1930-4-21

(المطر)

وأخيراً، على ذروة عتمة السطوح اللامعة، يلمع الضوء البارد للصباح مثل عذابٍ من عذابات يوم القيامة. إنّه مرّةً أخرى الليل الشاسع للضوء الذي يتفاقم، مرّةً أخرى الرعب الدائم نفسه: النهار، الحياة، المنفعة، التخيُّل، النشاط الذي لا دواء له. إنها مرّةً أخرى شخصيتي الفيزيقية، المحسوسة، الاجتماعية القابلة للنقل بواسطة كلماتٍ لا تقول شيئاً، القابلة للاستعمال عبر حركات الغير وعبر الوعي الغيري. إنني أنا مرةً أخرى، ولست أناي على علاته. أمضي، مع بداية ضوء الضباب الذي يملؤ الفجوات بعتماتٍ رمادية - حسناً بعيداً عن الغوامض، يا إلهي! - أمضي حاساً بعدم قدرتي على الحفاظ على ملاذ كوني مطروداً، ملاذ عدم نومي، لكن مع قدرتي على أن أكون نائماً، ملاذ مُضيِّي حالماً، بدون أن أعرف أنَّ ثمة حقيقة ولا واقعاً، بين حرارةٍ منعشةٍ لثيابٍ نظيفة وجهلٍ مطبق إلا بما يعزي وجود جسدي. أمضي حاساً بهروبِ لاشعوريٌّ مني، لاشعوريّ السعيد الذي معه أستمتع بوعيي، بهروب إغفاءة الحيوان التي بها أرصد الأشياء، ما بين جفْني هرّ يتشمَّس، وحركات منطق مخيلتي السخية. أمضي حاساً بغوصي في فيوض الظلّ، والأنهار البطيئة تحت أشجار الرموش، ووشوشات الشلالات الضائعة بين وهوهة الدم البطيء في الأسماع والاستمرارية الغامضة لهطول المطر. أمضي مضيّعاً حتى واقع كوني حياً.

لا أدري إن كنتُ نائماً أم أحسني كذلك فقط. لا أنام المسافة/ الفاصل الحقيقي، لكنني أراقب، كما لو كنت بدأتُ أفيق من نومٍ لم أنمه، الأصوات الأولى للحياة في المدينة، والتي تصعد، مثل طفرة، من البئر الغامضة، هنالك في الأسفل، حيث توجد الشوارع التي خلقها الله. هي أصواتٌ فرحة، مصفاةٌ عبر حزن المطر الذي يتساقط، أو ربما أن ما تساقط - لا أسمع صوته الآن - هو وحده الرمادي المفرط للضوء المنغلق حتى أبعد مدى، في ظلال ضوءٍ واهن، لا يكفي هذه الساعة الصباحية التي لا أدري كم هي الآن - هي أصواتٌ فرحةٌ متفرقة وتؤلمني في صميم إحساسي، كما لو أنَّ أحداً جاء معها يدعوني إلى امتحانٍ أو تحقيق. كلُّ نهارٍ يبدو لي، فيما لو سمعته يطلع من خلال سريري جاهلاً إيّاه، حاملاً حدثاً كبيراً يخصني لن أمتلك المكانة الجديرة لمواجهته. كلّ يوم، لو أحسسته ينهض من سرير الظلال، بحركة سقوط ثيابٍ من السرير عبر الشوارع والأزقة، إنما يأتي ليستدعيني للمثول أمام محكمة. كلّ يوم يأتي هو بمثابة محاكمةٍ لي. والمُدان الدائم الموجود بداخلي يمسك بالسرير مثلما بالأم التي فقدها، ويداعب الوسادة كما لو أنَّ المربية تحميه من الناس.

القيلولة الهنيئة للدويبة الكبيرة تحت ظلّ الأشجار، التعب القدمي الرثيث وسط العشب العالي، سبات الزنجي في العشية الباردة والنائية [.]، حلاوة التثاؤب الذي يثقل الأعين الرخوة [،] كلّ ما يداعب النسيان عندما يكون ثمة كرى، طمأنينة استراحة الرأس، مستنداً، بقدمٍ أمام الأخرى، إلى درفتي النافذة، المداهنة المجهولة للنوم.

أريد أن أنام، أن أوجد نائياً بدون أن أعرف، أن أكون

مطروداً، أن أعيش النسيان المطلق بجسدي الخاص؛ أن أمتلك حرية العيش بلا شعور، ملاذ بحيرةٍ منسيّة محبوساً وسط أجماتٍ خضراء، في الأقاصي الفسيحة للغيضات.

أن أكون هباء بنفسٍ خارجي، ميتةً خفيفة تعقبها إفاقةٌ مصحوبة باشتياق وطراوة، تنازلاً من أقمشة الروح لثياب النسيان.

آه. ومن جديد. أسمع، مثل احتجاج مستأنف الصرخة المفاجئة للمطر تبلِّل الكون المجلّى. أحسّ ببرودةٍ حتى العظام المفترضة، كما لو كنت خائفاً. وأبكي، متكتماً، فارغاً، إنسانياً مع ذاتي وحدها في القليل من الضباب المتبقي لي، أبكي، أجل، أبكي من العزلة ومن الحياة؛ وحزني التافه يرقد مثل عربةٍ بلا عجلات عند حافة الواقع وسط روث النسيان، أبكي كلَّ شيء في غمرة فقدان الحضن، موت اليد التي أُعطيتُها، الساعدين اللذين لم أعرف كيف انزرعا فيّ، الكتف الذي لن أستطيع امتلاكه أبداً. . . والنهار الذي يطلع بصفةٍ نهائية، الحزن الذي يصعد بداخلي مثل الحقيقة الفجة للنهار، الأشياء التي حلمت بها، وتلك التي فكرت فيها، وما تمّ نسيانه بداخلي، هذا كله، يختلط عبر ملغمة ظلال، خيالات وتأنيبات، في الأثر الذي تمضي عبره العوالم ويسقط وسط أشياء الحياة مثل بقايا عنقود عنب، التُهِمَ في زاوية الشارع من لدن الصغار الذين سرقوه.

صخبُ النهار يزداد فجأة، مثل صوت جرسٍ يُنادي. داخل الدار يسمع صوت فرقعة المزلاج الناعم للباب الأول الذي يفتح صوب الكون. أسمع خُفَّيْن في ممشى وهمي يؤدّي إلى قلبي. وبحركةٍ مُفاجئة كما لو من شخصٍ يقتل في النهاية، ألقي من الجسد الصلب بالثياب العميقة للسرير الذي يؤويني. لقد استيقظت. صخب

المطر يتلاشى باتجاه ما هو أعلى من الخارج اللامحدود. أحسّني أكثر سعادة. لقد اكتمل شيء هنالك أجهله. أنهض، أقترب من النافذة، أفتح قائمتي النافذة، بتصميمٍ قديم. يسطع نهارٌ من مطرٍ ناصعٍ يُغرق عينيّ في نورٍ مُغشًّى بالبخار. أفتح حتى الدرفتين الزجاجيتين. والهواء الندي يُرطِّب جلدي الدافئ. ويهطل المطر أخيراً، نعم، أقلّ بكثير ممّا كان، ولو أنّه هو نفسه! أريد أن أنتعش، أحني العنق أمام الحياة كما لو أمام نير شاسع.

(1923)

عبارات

أثناء تجوالي، ألَّفت جُمَلاً متقنة لم أتذكرها لدى عودتي إلى البيت. لا أدري إن كانت شعريةُ تلك الجمل المتعذّر وصفها، ستشكّلُ جزءاً ممّا كانته، أم جزءاً من انعدام وجودها مكتوبةً على الورق.

* * *

الإحساس القياميّ بالحياة.

* * *

خيط حرير

الكلّ باطلٌ ولا معقول. هذا يكرّس حياته ليجني مالاً يدّخره، وليس لديه أبناء يورثهم ذلك المال ولا أملاً في سماء تحفظ له قيمته. وذاك يكرّس مجهوده للحصول على الشهرة ليموت بعدئذٍ، بدون أن يُؤمن بتلك الاستمرارية الحياتية التي تجعله يتعرَّف على شهرته. وآخر يستهلك حياته للحصول على أشياء لا تروقه في الواقع (. . .).

هنالك من يقرأ لأجل المعرفة اللامُجدية. هنالك من يستمتع بالعيش اللامُجدي أيضاً.

في أحد التراموايات، أمضي، متفحصاً على مهل، وفق عادتي، كلّ تفاصيل الأشخاص الموجودين أمامي. التفاصيل، بالنسبة إليّ، أشياء، أصوات، جُمل. في لباس هذه الفتاة التي توجد قبالتي، أحيل اللباس إلى القماش الذي صُنع منه، والشغل الذي صنعوه به - أراه كلباس لا كقماش - والتطريز الخفيف حول الجزء المحيط بالعنق الذي يفصلني عن خيط الحرير الذي طرّز به، والشغل الذي تمّ تطريزه. وعلى الفور، ومثل كتابٍ أوّليّ في الاقتصاد السّياسيّ، امتدّت أمامي المصانع والأشغال؛ المصنع حيث صنع القماش؛ من لونٍ أكثر قتامة، الخيط الحريري الذي أحيط موضعه بجانب العنق بأشكالٍ صغيرة موشاة؛ وأرى فُروع المصانع، الآلات، العُمّال، الخياطات، عيناي المتحوِّلتان إلى الداخل تنفذان إلى المكاتب، أرى الوكلاء يحاولون التظاهر بالهدوء، في المكتب، أواصل حسابات هذا كلّه. أرى، هنالك، الحيوات المنزلية لمن يحيون حياتهم الاجتماعية في تلك المصانع وتلك المكاتب... العالم أجمع يتمدَّد أمام عيني فقط لأنني أمتلك أمامي تحت العنق الأسمر لوجه ما هنالك في الجانب الآخر، تطريفةً خضراء قاتمة على الأخضر الناصع لثوبٍ ما.

كلّ الحياة الاجتماعية مضطجعة أمام عيني.

أتوجّس، فيما وراء هذا كلّه، غراميّات، حميميات، أرواح كلّ الذين يعملون كي تكون هذه المرأة أمامي في الترام، حاملةً، حول عنقها الفاني، الرثاثة الملتوية لخيط حريرٍ أخضر قاتم منسوجٍ من اخضرارٍ أقلّ قتامة.

أُصابُ بدوار، مقاعد الترام، المصنوعة من تبنٍ مشبّكٍ دقيق، تأخذني إلى جهاتٍ قصية، تضاعفني إلى صناعات، وعمال، منازل عمال، حيوات، وقائع، وكلّ شيء.

من الترام أخرج منهكاً ومسرنماً، لقد عشتُ الحياة بكاملها.

1931؟

نُعومة

في النصاعة الكبرى للنهار، هدوء الجلبات مصنوعٌ بدوره من ذهب. ثمة نعومةٌ فيما يحدث، لو قيل لي إنَّ حرباً حدثت، سأقول لا حرب هناك. في يومٍ كهذا، ما من شيءٍ يمكن أن يعكِّر صفو هذه النعومة الشاملة.

فلسفةٌ بلا تفكير؟

لقد مرّت شهورٌ على آخر ما كتبت. بقيت داخل حلمٍ من أحلام العقل بواسطته كنت شخصاً آخر في الحياة، إحساسٌ بسعادةٍ مجازية تواتر انتيابه لي. لم أوجد، آخر كنتُ، بدونما تفكيرٍ عشتُ.

اليوم، عدت، بغتةً، إلى أناي أو ما أحلم أنه أناي. كانت فترة تعبٍ كثير، بعد عملٍ بلا تعويض. وضعت رأسي بين يدي، غارزاً كوعَيَّ في المكتب العالي المائل. وبالعينين مُغمضتين التقيتُ بي ثانية.

في حلمٍ زائف سحيق، تذكرت كلّ ما كنته، بوضوحٍ مشهديّ لا مزيد عليه رأيتُ كيف علا فجأةً أمامي، في الجهة الواسعة من الضيعة القديمة، حيث برز البيدر فارغاً، في مركز النظر.

أحسستُ على الفور بلا جدوى الحياة. الرؤية، الإحساس،

التذكر، النسيان: كلها اختلطت لدي، مع ألم غامض في الكوعين، بالضجة المشوشة للشارع القريب والضجات الصغيرة للشغل الهادئ في المكتب الساكن.

عندما وجَّهت نظرتي المُتعبة المُفعمة بعوالم ميتة نحو ما رأيته هناك، واضعاً يدي بأعلى المكتب، كان أوّل شيء رأيت هو الدبور (ذلك الأزيز الأجنبي عن المكتب) مستقراً فوق الدواة. لقد تأمَّلته من عمق الهاوية، غافلاً ومستيقظاً. كان من زرقةٍ قاتمة ذات لونٍ أخضر، وله بريقٌ كريه، لم يكن كريهاً. إنها الحياة!

مَن يدري مَن أكون بالنسبة إلى القوى العليا، من آلهة أو شياطين الحقيقة التي عند ظلالها نهيم، غير تلك الذبابة البراقة التي تقف للحظة أمامهم؟ ملاحظةٌ يسيرة؟ ملاحظةٌ أشير إليها قديماً؟ فلسفةٌ بلا تفكير؟ ربما. غير أنني لم أفكّر: فقط أحسست. أحسستُ جسدياً، مباشرة، برعبٍ عميق و... [...] كنت ذبابة عندما قارنتُني بالذبابة. أحسستُني ذبابة حينما افترضتُ إحساسي بأنني ذبابة. أحسستني روحاً في ذبابة، ذبابةً نِمْتُ. أحسستُ تماماً أنني ذبابة. وفي الوقت نفسه أحسستُ بأناي ذاتها وذلك كان الرعب الأكبر. لاإرادياً، رفعتُ العينين إلى السقف كأنَّ قاعدةً عُليا ستهوي من السماء عليّ لتسحقني تماماً مثلما بإمكاني أنا أنْ أسحق تلك الذبابة. لحسن الحظ، كانت الذبابة، عندما خفضتُ عيني قد اختفت بدون أن يُسمع لها طنين. كان المكتب القسري قد بقي مرّةً أخرى بدون فلسفة.

1932-3-16

منذ مدّةٍ طويلة - لا أدري أأياماً استغرقت أم شهوراً؟ - لم أدوّن أيّ انطباع، لم أعد أفكّر، وإذن فأنا غير موجود. لقد نسيت مَن أكون؛ لا أعرف كيف أكتب لأنني لا أعرف كيف أكون. آخرَ كُنْتُ من خلال غفوة مائلة. أن أعرف أنني لا أتذكر معناه أن أستيقظ.

لقد أغمي عليّ أثناء فترةٍ من حياتي. أعود إلى رُشدي فاقداً لذاكرة مَن كنته، وذاكرة مَن كُنته تعاني من عطبٍ مميت. يوجد فيَّ مفهومٌ مشوّش لبُعدٍ مجهول، مجهودٌ تافه من لدن الذاكرة بحثاً عن ذاكرتها الأخرى. لا أنجح في استئناف وجودي. إنْ كنت عشت بالفعل، فلقد نسيت معرفة ذلك.

لا، ليس لكون هذا اليوم الأوّل من الخريف الحساس - أو أيّام البرد الذي يرتدي بدلة الصيف الميت القليل الضوء - يمنحني، بشفافيةٍ مستلبة، إحساساً، بعزمٍ ميت أو إرادةٍ مُصطنعة لا. ليس لأنَّ في هذه المسافة المتبقية من أشياء مفقودة، بقية مشوشة من ذاكرةٍ لا مُجدية. إنَّ الوضع أكثر إيلاماً من ذلك، إنه الضجر، ضجر تذكُّرِ ما لا يُتذكّر، إنه خمود ما أضاعته الذاكرة بين طحالب وأسلات، على ضفة ما لستُ أدري.

أعرف أنَّ للنهار، مُنَقّى وساكناً، سماءٌ ثابتة وزرقاء أقلّ زرقة من الأزرق العميق. أعرف أنَّ الشمس، الأقل ذهبية ممّا كانت، تذهّب بانعكاساتٍ ندية الجدران والنوافذ. أعرف أنَّ هناك، ما دامت الريح مُنعدمة وكذلك النسيم الذي يذكّرنا بها أو يُنسينا فيها - برودة تنام مُستيقظةً في المدينة اللامحدَّدة. أعرف هذا كلّه - بدون تفكيرٍ ولا رغبة، ولا نوم لديّ إلا عبر التذكر ولا نوستالجيا إلا باللاطمأنينة.

أتماثل للشفاء، عقيماً ونائياً، من الداء الذي لم أصَب به. خفيفاً أميل فطرياً من استيقاظتي، إلى ما لا أجرؤ عليه. أيّ حلمٍ حرمني المنام؟ أيّ مداهنةٍ منعتني من الكلام؟ ما أحسن أن أكون آخرَ مع هذه الجرعة الباردة من الربيع القوي! كم سيكون جيداً أن أستطيع بالأقل التفكير خيرٌ لي من الحياة، بينما في البعيد، في الصورة المسترجعة، تنحني الأسلات الخضراء المزرقّة، هنالك في الضفة، من غير ما ريح!

كم مرات تأملتُني شاباً ومنسياً، متذكراً مَن لم أكُنه! والمشاهد التي لم أرها قط كانت أخرى؛ كانت جديدةً بدون أن تكون هي المشاهد التي رأيتها حقيقة. ماذا يهمني؟ لقد بلغتُ نهايتي عبر مصادفاتٍ وفجوات. وفيما تبدو نضارةُ النهار مشتقةً من الشمس نفسها، ترقد الأسلات القاتمة للضفة باردةً في الغروب الذي لا أراه.

1932-9-28

عربةٌ لا وُجود لها هنا

هناك مراراتٌ باطنية لا نعرف، لما تحتويه من تسرباتٍ ودقائق، إنْ كان مصدرها الروح أم الجسد، إنْ كانت القلق الناجم عن الإحساس بتفاهة الحياة، أم القابلية الرديئة الناجمة عن هوّةٍ عضويةٍ ما: معدة، كبد، دماغ. كم مرَّاتٍ تلبّد فيها وعيي المتبذل بذاتي بترسّبٍ كريه لتأسّنٍ قلق! كم مرات آلمني وجودي ذاته، مع غثيان بلغ حداً من الالتباس فقدتُ معه القدرة على تمييز ما إذا كان الأمر يتعلق بحالة ضجرٍ أم بإرهاص بتقيؤ! كم مرات...

روحي اليوم كئيبة، كئيبةٌ حتى الجسد. كلي إيلام، ذاكرةً، عينين وذراعين. ثمة نوعٌ من الروماتيزم في كل ما تتكون منه

كينونتي. لا يؤثر فيّ الوضوح المنقى للنهار، السماء ذات الزرقة الهائلة الصافية، حركة المدّ المتوقفة من نورٍ مبثوث. لا تُلطّفني في شيء الهبّة الطرية الخفيفة؛ الخريفية كما لو أنَّ الصيف لم ينس بعد، حين تكون للهواء شخصيةٌ مميزة. لا شيء يعني أيّ شيء لديّ. إنني حزين، لكن ليس ذلك الحزن المحدَّد، ولا حتى الحزن غير المحدد. حزينٌ هنالك في الخارج، في الشارع المزروع بالتوابيت.

هذه التعابير لا تترجم بالضبط ما أحسّ، إذ لا شيء بلا شك، يمكن أن يترجم بالضبط ما يحسّه أحد. لكنني أسعى بكيفيةٍ ما إلى أن أعطي الانطباع بما أحسّ، خليطٌ من أشكال متنوعة من أناي ومن الشارع الغيري الذي - باعتبار ما أراه أيضاً وفق طريقةٍ باطنية لا أعرف كيف أحلِّلها - ينتمي هو بدوره إليّ، ويشكِّل جزءاً مني.

أحببتُ أن أعيش مختلفاً في بلدان مختلفة. أحببتُ أن أموت آخر وسط رايات مجهولة. أحببتُ أن أكون إمبراطوراً في حقبٍ غابرة، أفضل من هذه الحقبة لأنها ليست منها، ملموحةً بنظرةٍ خاطفة وملونة... رغبت في كلّ شيء كلّما أمكنني تحويل كينونتي إلى مسخرة، لأنني بالكينونة التي أنا إياها عبارةٌ عن مسخرةٍ بالفعل. أحببتُ، أحببتُ... لكن دائماً ثمة شمسٌ عندما تسطع الشمس، والليل لا يكون إلا عندما يُقبلُ الليل. توجد المرارة دائماً عندما تؤلمنا المرارة والنوم عندما يهدهدنا النوم. دائماً لاوجود إلّا لما هو موجود، لا لما ينبغي أن يوجد، ليس لأنه أحسن أو أسوأ وإنما لأنه آخر. دائماً...

عبر الشارع المليء بالصناديق. يمضي الشحانون منظفين الشارع، واحداً واحداً، بضحكاتٍ وبذاءات، يمضون واضعين الصناديق في العربات. من أعلى نافذتي في المكتب أواصل النظر

إليهم، بعينين متباطئتين بجفنين نائمين، وإذا بشيءٍ غامضٍ، غير قابلٍ للفهم، يشُدُّ ما أحسّه إلى عمليات الشحن التي أشاهدها، إحساسٌ مجهول يصنع من كلّ ضجري هذا أو قلقي أو غثياني صندوقاً ويرفعه على كتفي مَنْ يتمازح بصوتٍ عالٍ، فوق عربةٍ لا وجود لها هنا. وضوء النهار، الساكن كالمُعتاد، الضوء المائل، لأنَّ الشارع ضيّق، منتشرٌ حيث يرفعون الصناديق - ليس فوق الصناديق الموجودة في الظلّ، وإنما فوق الزاوية - هنالك في النهاية، حيث الشاحنون يقومون بعدم القيام بشيء على نحوٍ لا سبيل إلى تعيينه.

1933-11-2

مُلاحظات عابر سبيل

منذ توقّفت الحرارة، ظلّت خفة المطر تنمو بصوتٍ مسموع، ليبقى في الهواء ذلك الهدوء الذي لم يمتلكه هواء الحَرِّ. تلك السكينة الجديدة التي وضع الماء فيها نسيمةً واضحةً جداً كانت بهجة ذلك المطر اللين الذي بلا عاصفة ولا ظلمة، حتى إنَّ الذين بلا مطريات ولا معاطف واقية يمرّون ضاحكين وهم يتحادثون بخطواتهم السريعة عبر الشارع اللامع.

اقتربت، أثناء فترة تراخٍ، من نافذة المكتب المفتوحة - ساعَدَ الحرُّ على فتحها والمطر لم يعمل على إغلاقها - فرأيْتُ بانتباه ولامبالاة، أنَّ ما انتهيت من وصفه بإتقان قبل أنْ أراه إنما هو طريقي الخاصة. أجل، من هناك يمرّ فرح العامة، متحادثين ضاحكين للمطر الخفيف، بخطواتٍ سريعةٍ أكثر ممّا هي مستعجلة، في النهار الصافي الذي احتجب.

لكن فجأة، ومن زاويةٍ كانت موجودةً هناك، وقع بصري على

رجلٍ مسنٍّ وبائس مسكين لا مُتَّضع، كان يمشي نافد الصبر تحت المطر الذي خفّ هطوله. . . نظرتُ إليه بانتباهٍ هو غير الانتباه الشارد الذي نعيره للأشياء، بل ذلك الانتباه المحدّد الذي نعيره للرموز. كان رمز لا أحد؛ لذلك كان مستعجلاً. كان الرمز لمن ليس بشيء؛ ومن ثم معاناته. لقد كان يُشكّل جزءاً، لا ممّن يحسون بَاسِمين بالبهجة المزعجة للمطر، وإنما من المطر نفسه - فاقد الحسّ، إلى حدّ الإحساس بالواقع.

لم يكن هذا، هو ما أردتُ قوله مع ذلك. بين مراقبتي لعابر السبيل الذي غاب فوراً عن ناظري، لعدم مواصلتي النّظر إليه، بين الخيط الرابط لهذه الملاحظات اندسّ عنصرٌ من عناصر التّسلية. وفي عمق انفصالي عن المشهد، أسمع بدون إصغاءٍ منّي، الأصوات الصّاخبة للشّاحنين، هنالك في عمق المكتب عند بداية المخزن، وأرى بدون نظر، حبال رزم الطرود البريدية، ممرورةً مرتين، بالعُقَدِ مضاعفةً حول رزم الورق الداكن السميك، في الطاولة جنب النافذة المطلّة على الدهليز، بين النكات والنمائم.

أن نرى معناه أننا رأينا: Ver es haber visto.

1932-6-11

توقّع

أوه أيها الليل الذي تهبُ النجوم فيه النور، أوه أيها الليل، الذي وحده بحجم الكون، اجعلني، جسداً وروحاً، جزءاً من جسدك، فلأنفقدْ أنا بتحوّلي ضباباً خالصاً ولأغدُ ليلاً كذلك، بدون أحلام تغدو نجوماً لدي، ولا شمس متوقعة يسطع نور توقّعها من المستقبل.

مصنفو الأشياء، رجال العلم الذين يتكوّن علمهم من التصنيف وحسب، يجهلون، عموماً بأنّ ما يقبل التصنيف لانهائي وإذن فتصنيفاتهم باطلة، لكن ما يتكوّن منه ذهولي يوجد خارج التصنيفات المعروفة، أشياء تنتمي إلى عالم الروح والشعور الموجودين داخل فجوات المعرفة.

الواقع، لأنني ربما أفكر زيادةً على اللزوم أو أحلم زيادةً على اللزوم، لا أفرّق بين الواقع الموجود والحلم الذي هو الواقع غير الموجود، وهكذا أقحم في تأملاتي عن السماء والأرض أشياء لا تسطع من شمسٍ ولا توطأ بأقدام - أعاجيب منفلتة من التخيُّل.

أتذهّب بأشكال غُروبٍ مفترضة، لكن المفترض يوجد حياً داخل الافتراض. أبتهج لنسماتٍ متخيلة، لكن المتخيّل يُعاش عندما يتخيل. أملك روحاً صالحة لفرضياتٍ متعدّدة، لكنها فرضيات تملك روحاً خاصة بها، وتمنحني الإحساس بأنها كذلك.

لا وجود لمعضلة سوى الواقع ذاته، وهي معضلة حيّة غير قابلةٍ للحلّ. ماذا أعرف أنا عن الفرق بين شجرةٍ وحلم؟ بإمكاني أنْ ألمس الشجرة؛ أعرف أنني أملك الحلم. ما هذا، في الحقيقة؟

ما هذا؟ أنا من يستطيع، وحيداً في المكتب الخالي، أنْ يحيا متخيلاً بلا مضرة من الذكاء. لا أعاني من انقطاعات التفكير بجانب المكاتب المتروكة وقسم الإرساليات بورق ولفّات الحبال. الآن لست جالساً على مقعدي العالي، وإنما على كرسي مورييرا ذي الساعدين المستديرين. ربما بتأثيرٍ من المكان أبدو دائم الشرود. أيام الحر المتفاقم تجلب النعاس؛ أغفو بدون أن أنام لنقصٍ في الطاقة. ولذلك أفكّر بهذه الطريقة.

1932-7-25

يوم عيدٍ مشكوك فيه

منذ بدأت قطرات المطر الأخيرة في الاتساع أثناء سقوطها على السطوح، وبدأت زرقة السماء في الانعكاس ببطء على المركز المبلَّط للشارع، اكتسى ضجيج السيارات بغناءٍ آخر، أعلى وأبهج، وسمع صوت انفتاح النوافذ في وجه الشمس. حينئذٍ، وفي الشارع الضيق، ومن عمق الركن القريب، انبثق نداء أول بائعٍ لليانصيب، ودوَّى في الفضاء المُضاء صوت المسامير المدقوقة في جوارير الدكان المُجاور.

كان يوم عيدٍ مشكوك فيه، يوم عيدٍ مشروع، لكن من غير أنْ يحظى بالانتباه، كان ثمة هدوء وأشغال جنباً إلى جنب، وأنا لم يكن لديّ ما أعمله. استيقظت باكراً وتأخرت في تحضير نفسي لأكون موجوداً. ظللتُ أنتقل من جانبٍ إلى آخر في الغرفة وأحلم بصوتٍ جهيرٍ بأشياء خالية من أيّ ترابطٍ أو إمكان - حركات كنت قد نسيت القيام بها، مطامح مستحيلة لا وجهة لها، محادثات كاملة ومستمرة... وفي هذا الهذيان الخالي من الأبّهة والسكينة، في هذا الإرجاء الذي بلا أملٍ ولا غاية، استنفدت خطواتي الصباحَ الطليق، وكلماتي العالية، الملفوظة بصوتٍ خفيض، كانت ترنّ متعددةً في دير عزلتي.

لو تأملت صورتي الإنسانية بانتباهٍ خارجيّ لَبَدَتْ مشتقّةً من سخافة التعامل مع ما هو خارجي باعتباره باطنياً. لقد وضعتُ، فوق الثياب الخفيفة للنوم المهجور، معطفاً بالياً، يصلح لهذه التهجدات الصباحية. خُفيّ الباليان ممزقان، خاصةً خفّ القدم اليسرى.

وباليدين داخل جيبي سترة Postuma قطعتُ جادّة غرفتي

بخطواتٍ طويلةٍ وحاسمة، محققاً بالهذيان اللامجدي حلماً مماثلاً لأحلام جميع الناس.

القطرات الثقيلة المتراكمة من المطر السابق لا تزال تسمع، من خلال الرطوبة المفتوحة لنافذتي الوحيدة. البرودة الدالة على المطر المتساقط لا تزال موجودة. السماء كانت، مع ذلك، ذات زرقةٍ فاتحة، والغيوم المتبقية من المطر المهزوم أو المتعب تنسحب صوب Castelo متخلّيةً عن الطرق المشروعة للسماء كلها.

إنها لفرصةٌ مناسبة للإحساس بالسعادة، لكن ثمة شيءٌ يغمّني، قلقٌ مجهول، رغبةٌ غير محدّدة في شيءٍ غير محدّد. إحساسي بأنني حيّ ربما جاءني متأخراً. وعندما أطللتُ من النافذة العالية جداً على الشارع الذي رأيته بدون أن أراه، أحسستُني فجأةً واحداً من تلك الخرق الرطبة المخصَّصة لتنظيف أشياء متّسخة توضع على النافذة لتجفّ، لكنها، تنسى، ملفوفةً، على الجدار الذي تمضي ملطّخةً إياه ببطء.

1929-12-25

سقوط منسول من ماءٍ مضيء

السكون المتولّد عن صخب المطر يتمدد في رتابةٍ رمادية، عبر الشارع الضيق الذي أنظر إليه. أنام مستيقظاً واقفاً، أمام الواجهة الزجاجية التي أستند إليها استنادي إلى كلّ شيء. أبحث بداخلي عن نوع الأحاسيس التي أمتلكها أمام هذا السقوط المنسول من ماءٍ مضيء بقتامة يبرز من الواجهات الوسخة، وكذلك، من النوافذ المفتوحة، ولا أعرف ما أحسّه، لا أعرف ما أُريد أن أحسّ، لا أعرف ما أفكّر ولا أعرف ماهية كينونتي.

كلّ المرارة المتأخرة لحياتي تنزع، أمام عينيّ الخاليتين من الإحساس، بدلة الفرح الطبيعي التي ترتديها في المصادفات المطوّلة لسائر الأيام. أتحقَّق من أنني على كثرة لحظات فرحي وسروري، حزينٌ على الدوام. وبداخلي في خلفية مشهدي الباطنيّ يوجد مَن يقوم بدور المحقق، كمن يطلّ عليّ مستنداً إلى النافذة، ومن أعلى كتفي أو حتى رأسي، ينظر بعينين أكثر باطنيةً من عينيّ، إلى المطر المُتثاقل، الذي متموجاً، يصقل بحركته الهواء الدامس الرديء.

أنْ نتخلى عن كلّ الواجبات، حتى تلك التي لا تتطلّب منّا تطليق كل البيوت، حتى تلك التي لم تكن واجباتنا نحن، أنْ نعيش من الملتبس ومن البقايا، وسط أرجوانيات الجنون الكبرى، والملامح المزيفة للعظمات المحلومة... أريد أنْ أكون شيئاً لا يحسّ بثقل المطر الخارجي، ولا بمرارة الفراغ الباطني... أنْ أتيه بلا روح ولا تفكير، مجرّد إحساسٍ أجوف في طريقٍ يحيط بجبال، ووديان غائرة وسط منحدراتٍ ملساء، طريق قصي، شاسع، ومشؤوم... أنْ أنفقد بين مشاهد كاللوحات...

ثمة هبّة ريحٍ خفيفة لا أحسّها من خلف تلك النافذة، تمزِّق النزول المستقيم للمطر إلى اختلالاتٍ هوائية. تضيء أيّما جهة لا أراها من السماء، ألاحظ ذلك، إذ من وراء الزجاج نصف الممسوح للنافذة المُجاورة، أرى الآن على نحوٍ مشوش، ما لم أره حتى الآن؛ التقويم المعلّق في الجدران، هنالك في الداخل.

يتوقّف المطر، وتبقى منه عجاجة من الماسات صغيرة جداً، كما لو أنَّ شيئاً ما يشبه شرشفاً كبيراً أزرق، ينفض، في الأعالي، ما علق به من تلك الفضلات. ثمة إحساسٌ بأن جزءاً من السماء قد استعاد زرقته الآن. بالإمكان رؤية التقويم بوضوحٍ أكبر، من النافذة

المقاربة، إنه يحوي وجه امرأة، وما تبقى بسيط إذ بإمكاني تذكّره، وصنف معجون الأسنان هو أشهر الأصناف.

لكن فيمَ كنت أفكر قبل أن أضيع في النظر؟ لست أدري، إرادة؟ مجهود؟ حياة؟ بِتَنَام متعاظمٍ للضوء أحسّ أن السماء أصبحت زرقاء بكاملها تقريباً، لكنّ ما من طمأنينة - آه، ولن تتحقق أبداً! - في أعماق قلبي، البئر الهرمة في النهاية، للضيعة المبيوعة، ذكرى طفولةٍ محبوسة ومغبرة في قبو منزل الغير. وما من طمأنينة - ويا ويحي! لا وجود حتى للرغبة في امتلاكها...

1931-3-14

انفراجٌ واسع

لا أدري لماذا - ألاحظ ذلك بغتةً - أنا وحيدٌ في المكتب، كنت قد توجَّست ذلك، من غير تحديد، في جانبٍ من جوانب شعوري بذاتي كان ثمة انفراجٌ واسع، ما يشبه تنفساً أعمق برئتين مُختلفتين.

إنَّ هذا لَمِن الأحاسيس المُدهشة التي يمكن أن تواتينا بواسطة مصادفة أو بالأحرى مفارقة التوافقات والأخطاء: أنْ نوجد في منزلٍ عاد يخصّ الغير مكتظ بالصخب. يواتينا، فجأةً إحساسٌ بتملّكٍ مُطلق، بهيمنةٍ سهلةٍ وواسعة، بطمأنينةٍ وانفراجٍ واسع - كما قلت -.

ما أفضل أن نكون وحيدين مع رحابتنا الخاصة! أنْ نستطيع التحدّث بصوتٍ عالٍ مع أنفسنا، أنْ نتجوَّل بدون مضايقات من أنظار الغير، أن نستريح إلى الوراء في هذيانٍ بلا نداء! كلّ بيت، حينئذٍ، يتحوّل إلى حقل، كلّ مسكنٍ يمتلك اتساع ضيعة.

كلّ هذا الصخب لا يعنينا، كما لو كان ينتمي إلى كونٍ قريب،

لكن منفصل ومستقل عنا. نحن، في النهاية، مُلوك. / هذا ما نتوق إليه جميعاً، والأكثر دهمائيةً منا - مَن يدري - أقوى من أكثرنا امتلاكاً للذهب الزائف/ . في لحظةٍ من اللحظات نبدو نحن أصحاب معاشاتٍ من الكون، ونعيش، مكتفين بالشبر الممنوح لنا، بلا احتياجات ولا شواغل.

آه، لكنني أتعرف، في تلك الخطوة الصاعدة على السلم، على ذلك الذي سيقطع عليّ عزلتي الساهية. إمبراطوريتي الضمنية سوف يجتاحها البرابرة إذن. ليس لأنّ تلك الخطوة تُخبرني بهذا الذي سيأتي، ولا أنا بمتذكرٍ خطوة هذا أو ذاك ممّن أعرفهم. كلا، ثمة غريزةٌ أكثر صمماً في الروح تجعلني أعرف أنَّ الذي يصعد السلّم آتٍ لا محالة إلى هنا، وإن كان الآن مجرد خطوات، على السلم الذي ألمحه فجأةً لأنني أفكّر فيمن يصعده. نعم، إنه أحد المستخدمين. يتوقف، يصيخ إلى الباب، يدخل. أرى كلّ ذلك. ويخاطبني لدى دخوله: «أوحيدٌ أنت، يا سيّد سوارش؟»، فأجيب: «نعم، منذ مدّة. . .» وحينئذٍ يقول هو، متجرداً من السترة مركّزاً نظره على الأخرى البالية الموضوعة على المشجب: «ما أقسى الضّجر الذي على المرء أنْ يقاسيه بوجوده وحيداً هنا، وعلاوةً على ذلك. . .» «ضجرٌ كبير، لا ريب في ذلك»، أجيب أنا. «حتى إنه ليجعلك تنام على طول»، يقول هو، وقد ارتدى البدلة البالية، واتجه صوب المكتب. «أجل يجعلك تنام»، أوافق مبتسماً. بعدئذٍ، مادّاً يدي صوب القلم المنسي أعود من جديد، إلى العافية الغفل للحياة العادية.

1933-3-29

حركات

يقولون إنَّ السّأم هو مرض الخاملين، أو أنه يصيب فقط أولئك الذين ليس لديهم ما يفعلون. غير أنَّ هذا المرض الروحي أدقُّ وأخفى في الحقيقة: إنه يصيب مَن لديهم قابليةٌ للإصابة به، وهو أقلّ رأفةً بالعاملين أو المتظاهرين بالعمل (وهو ما يعني الشيء نفسه في هذه الحالة) مقارنةً بالخاملين الحقيقيين.

لا يوجد ما هو أسوأ من التعارض بين الإشراق الطبيعي للحياة الداخلية، وقذارة وروتينية الحياة، ولو لم تكن قذارةً في الواقع. مفعول السأم يتفاقم حينما لا يفتقر إلى مبررٍ للخمول. ضجر الأبطال الكبار هو الأسوأ على الإطلاق.

لا أعني ذلك الضجر الناجم عن عدم الرغبة في عمل شيء، وإنما أعني ذلك المرض الأعظم المتمثّل في الإحساس بألّاشيء يستحق منا أيّ مجهود، وبذلك كلّما دعت الحاجة إلى مزيدٍ من المجهود كان الإحساس بالضّجر أكبر.

كم مرات أرفع عن الكتاب الذي أكتبه رأسي الخالي من العالم أجمع! الأجدر بي أن أكون عاطلاً، لا أفعلُ شيئاً، وألا يتوجّب عليّ فعل أيّ شيء، لأنني سأستمتع بذلك الضجر ولو كان واقعياً. ما من راحةٍ في ضجري الراهن، ما من نُبل... خمودٌ هائل في كلِّ ما آتيه من حركات...

1939-9-18

على ضفة النهر

أحياناً، أقضي ساعات، في Terreiro do Paço[1]، على ضفة النهر، أتأمّل الفراغ. قلقي يصرّ على دفعي إلى مبارحة تلك السكينة، فيما يصرّ خمولي على حبسي فيها. حينها، أتأمل، في سباتٍ فيزيقي، شبه شهوانيّ، تقريباً على غرار ما تسترجع وشوشة الريح أتأمل أصواتاً، في/ الشراهة المستديمة لرغباتي الغامضة،/ في التقلب الدائم لشهواتي المستحيلة. إنني أعاني، أساساً، من مرض القدرة على المعاناة. ينقصني شيء لا أرغب فيه فأعاني لأنَّ ذلك ليس معاناة بالضبط.

الرصيف، المساء، رائحة البحر، جميعها تدخل، مجتمعة، في تركيبة قلقي. نايات الرعاة الخرافيين ليست بأكثر نعومة من خلوّ هذا المكان من النايات ذلك أنه يستحضرها.

الغزليات الرعوية القصيَّة، بجانب الجداول، تؤلمني من الداخل في هذه الساعة المتشابهة، (. . .).

جولييت وروميو

ما يبعث الغثيان في روحي ليس الجدران المبتذلة لغرفتي المبتذلة، ولا المكاتب البالية للمكتب الأجنبي عني، ولا بؤس الشوارع الوسيطة لـ Baixa التي ألفتُ المرور بها، لا. ليس هذا هو ما يولّد الغثيانَ في روحي المتغثّية باستمرار، من الحياة اليومية المهينة، بل الأشخاص المحيطون بي يومياً. والأرواح التي على جهلها بي، تتعرَّف عليّ كلّ يوم بالمُعايشة والحديث، هي التي تضع

(1) ساحة في لشبونة تُعرف كذلك باسم: Praça do Comércio.

في حنجرة الروح غصّة النفور الفيزيقيّ؛ القذارة الرتيبة لحياة هؤلاء، الموازية لخارجية حياتي، وعيهم الباطني بكونهم أشباهي، هو الذي يخلع عليّ بزة المُدان، ويضعني في زنزانة المحكوم بالأشغال الشاقة. ويجعلني منتحلاً ومتسولاً.

أحياناً يغدو مجرّد تفصيلٍ صغير لما هو سوقيّ في وجوده الخاص والمستقلّ موضوعاً لاهتمامي، فيكون لديّ ميلٌ كامل إلى معرفة قراءة هذا التفصيل كاملاً وبوضوح. حينئذٍ أرى - كما قال فييرا عن وصف دو سوسا[1] - المشترك والعام متفرِّداً، وأكون شاعراً بتلك الروح التي بواسطتها أوجد النقد الإغريقيُّ العصر العقلاني للشعر، لكن هنالك كذلك لحظات، ومنها هذه التي تحاصرني الآن، أحسّ فيها بذاتي أكثر من إحساسي بالأشياء الخارجية، فيتحوّل كلّ شيء عندي إلى ليلٍ ممطرٍ موحل، ضائعٍ في نقطة انحراف بين قطارين من قطارات الدرجة الثالثة.

أجل، إنَّ خصوصيتي المتمثّلة في حرصي على أنْ أكون موضوعياً على الدوام، مضللاً بذلك تفكيري، تعاني، مثل كلّ الخصوصيات، بل وحتى مثل كلّ الآفات، من نقصٍ في الإثبات. لذلك أسائل نفسي بالذات كيف أمكنني أنْ أتجاسر على امتلاك جِبن الوُجود هنا، بين هؤلاء الناس، بهذه المساواة التامة معهم، بهذه المشاكلة الحقيقية مع وهم قمامتهم جميعاً. أتصوّر من خلال سطوع منارةٍ نائية كلّ الحلول التي معها يغدو التخيُّل امرأة: الانتحار، الهروب، التنازل، الحركات الكبرى للأرستقراطية الفردانية، مسرحيات حيواتٍ بدون مسرح.

---

(1) فراي لويس دو سوسا (Frei Luis de Sousa): كاتبٌ برتغاليّ من القرن السابع عشر.

لكن جولييت الواقع المثالية أوصدَت في دمي على روميو الخيالي النافذة العالية للّقاء الأدبي، هي خاضعةٌ لأبيها؛ هو خاضعٌ لأبيه. تتواصل المشاجرة بين العائلتين[1]: ينزل الستار على ما لم يحدث؛ وأنا أصلح البيت - تلك الغرفة حيث ربة المنزل الوسخة غير الموجودة هناك، الأبناء الذين نادراً ما أراهم غداً - بياقة سترة مستخدم تجاري مرفوعة فوق عنق شاعر، مع الجزمتين المبتاعتين دائماً من المتجر نفسه متفادياً، لاشعورياً، برك المطر البارد، ومهموماً بعض الشيء، خالطاً ما بين نسياني الدائم للمعطف المائي ونسياني كرامةَ الروح.

1930-2-5

برودة.. قلقٌ صغير

الريح الغريبة بدَّدتها الغيوم المنفردة المتباعدة في السماء كلها. ثمة انعكاسات لجميع الألوان، انعكاساتٌ ناعمة، تغطي تنويعات الهواء العالي، تطفو غائمةً في أهوال العلوّ. في قمم السّطوح المستوية، نصف الملوّنة، نصف المُظلّلة، تتخذ الأشعة الأخيرة المُتباطئة للشمس الآفلة أشكالاً لونيّة غير أشكالها ولا هي من الأشياء المُستقرة فيها. هدوءٌ فسيح فوق المستوى الصاخب للمدينة الجانحة للهدوء بدورها. الكلّ يتنفّس ما هو أبعد من اللون والصّوت، باستنشاقٍ عميقٍ وهادئ.

في الأشياء المُلوّنة التي تراها الشمس، تبدأ الألوان في اكتساب درجاتٍ من لونها الرّماديّ. ثمة برودةٌ في تنويعات تلك

(1) حرفيّاً أي بين عائلة روميو وعائلة جولييت.

الألوان. ثمة قلق صغير ينام في الوديان المزيَّفة للشوارع. ينام ويهدأ. وشيئاً فشيئاً وفي أقلّ السّحب العليا انخفاضاً، تشرع الظلال في التَّحوّل إلى انعكاسات؛ في تلك الغيمة فقط التي تطير نسراً أبيض فوق ذروة كلّ شيء، تحتفظ الشّمس، من بعيد، بذهبها الضاحك.

كلّ ما سعيت إليه في الحياة، تخلّيت عن السعي إليه أنا بنفسي. إنني كالباحث شارداً عن شيء نسي، وسط الحلم، ما هو. إنَّ الحركة الراهنة لليدين المحسوستين الباحثتين، نابشتين، منحيّتين، مرتبتين تغدو أكثر واقعية من الشيء الغائب المبحوث عنه. إنهما، بيضاوان وطويلتان، بخمس أصابع لليد الواحدة بالضبط.

كلّ ما كان ملكي، يشبه هذه السماء العالية التي هي نفسها على تنوّع مظاهرها، مجرّد أسمالٍ من هباء ممسوسة بنورٍ سحيق، نتف من الحياة زائفة يُذهّبها الموتُ من بعيد، بابتسامته الكئيبة المقدودة من حقيقةٍ كاملة. أجل كلّ ما امتلكتُ، هو ما لم أعرف البحث عنه، أنا سيّد المُستنقعات الفيوداليّ في السماء، والأمير المقفر لمدينةٍ من قبور فارغة.

كلّ ما أنا إياه الآن، أو ما كنته، أو ما أفكّر فيه بخصوص ما أنا إياه أو ما كنته، يفقد فجأة - في أفكاري هذه وفي الاختفاء المُباغت لنور الغيمة العالية - السرّ، الحقيقة، الصّدفة التي أخفتها الحياة ربّما في مناطق سفلية أجهلها. هذا ما تبقى لديّ، وعلى السطوح العالية، يكفّ الضوء عن تقطير يديه المجبولتين من شلال، وأمام الأنظار ينبثق في وحدة السّطوح، الظلّ الحميم لكلّ شيء.

قطرةٌ غامضة مرتعشة، تضيء النجمة الأولى في الأقاصي.

1931-10-7

عالياً يمضي كلّ شيء

أريد الوصول إلى تلك الحالة من الانتشاء التي تتيحها الخلوة الصوفية، بدون التشدُّد الذي تنطوي عليه؛ أن أكون المنخَطِف [. . .] الصوفيّ أو [. . .] بدون تعلّم: أن أمضي مرور الأيام في تخيّل فردوس. . . هذا كلّه تعرفه الروح جيداً، لو عرفت معنى ألّا تعرف.

عاليةً تمرّ الغيوم الساكنة فوق المكان الذي أوجد فيه، جسداً وسط ظلّ، عالياً يمرّ كلّ شيء. . والكلّ يمرّ في الأعالي كما في السفح، بدون غيم يمنح شيئاً آخر غير المطر، بدونما حقيقة تمنح ما هو أكثر من الألم. . . أجل، كلّ ما هو عالٍ، يمرّ عالياً فيمرّ؛ كلّ مرغوبٍ فيه قصياً يوجد وقصياً يمرّ. . . أجل، الكل، كل شيء غَيْريٌّ، الكل غيري والكلّ يمضي.

ماذا يهمني أن أعرف عن الشمس أو المطر، عن الجسد أو الروح، أنا الذي كذلك سأمضي؟ لا شيء، ما عدا الأمل في أن يكون الكلّ لا شيء، وإذن، كلّ شيء هو لا شيء.

1934-6-26

أحسّ وأنسى

أجل، إنها الريح الغربية، أصل إلى منفذ شارع Alfandega[1]، شريداً أو مشتّتاً وإذ أَتَبَيَّنُ Terreiro do Paço. أرى بوضوح السماء الغربية العارية من الشمس، سماءٌ بزرقةٍ مخضرة ضاربةٍ إلى الرماديّ الأبيض، حيث في الجانب الشمالي، فوق جبال الضّفة الأخرى،

---

(1) يوجد في ساحة التجارة باتجاه شرق لشبونة.

تتاهب غيمةٌ بلونٍ ورديٍّ ميت. ثمة سكينةٌ هائلة لا أملكها تنتشر ببرودٍ في الهواء الخريفيّ المجرّد. ولافتقاري إليها، أعاني من المُتعة المُبهمة لافتراض وجودها لديّ. لكن ليس هناك، في الواقع، سكينةٌ ولا حاجة إلى سكينة: هناك سماءٌ فقط، سماءٌ بكلّ الألوان الباعثة على الإغماء: أزرق ميالٌ إلى البياض، اخضرار لا يزال مشوباً بزرقة، رماديّ ممتقع ما بين زرقةٍ وصفرة، تلوينات معتمةٌ قصيّة لألوان غيومٍ لَيست غيوماً، معتمة باصفرار، من حمرةٍ كاملة. وهذا كلّه عبارةٌ عن مشهدٍ ينطفئ في لحظة امتلاكه نفسها، فاصلٌ بين لاشيء ولاشيء، فاصلٌ مجنّح، مُقامٌ هنالك في الأعلى، بتلوينات بين ما هو سماويّ وما هو مُضجر، ما هو ممدَّد وما ليس بمحدّد.

أحسّ وأنسى. نوستالجية الكل في الكل، تجتاحني مثل أفيون من خلال الهواء البارد. لديّ انجذابٌ للرؤية باطنيّ ومُصطنع.

باتجاه جوانب مرفأ المصبّ[1]، حيث انحجاب الشمس المتوارية أكثر فأكثر، يأفل النّور في بياضٍ أدكن يميل إلى زرقةٍ مخضرَّةٍ باردة، في الهواء ثمة خدرٌ مما لا ينال أبداً. عالياً يهيمن السّكون على مشهد السماء.

في هذه الساعة التي أحسّني فيها متنقلاً عبر مركب، أريد امتلاك المكر الكامل للقول، النزوة الحرة لأسلوبٍ ما. لكن لا. فالسماء وحدها هي كلّ شيء، نائية وفارغة، وما أحسّ به، وهو أحاسيس كثيرة ومتحدة ومشوّشة، ليس غير انعكاس لتلك السماء الفارغة في بحيرةٍ تخصّني: بحيرةٌ منعزلة بين منحدراتٍ كثيفة، خرساء، نظرة ميت حيث العلوّ يتأمل منسياً.

---

(1) مصبّ نهر التاج (Tejo).

لطالما أثقل عليّ الإحساس بما أحسّ الآن، الإحساس لمجرّد الإحساس فقط، بلا طمأنينة الوجود هنا، بالحنين إلى شيءٍ آخر لم يعرف من قبل، بريح الأحاسيس كلّها، باصفراري مظلّلاً، بكآبتي الرمادية داخل شعوري الخارجي بي.

آه، مَن سينقذني من الوجود؟ ليس الموت ما أريد، ولا الحياة: بل ذلك الشيء الآخر الذي يسطع في عمق القلق مثل ماسةٍ مُحتملة في جوف مغارةٍ لا يمكن الهبوط إليها. إنه كلّ عبء وكل قلق هذا الكون الواقعي والمستحيل، هذه السماء، التي هي راية جيشٍ مجهول، وهذه التلوينات التي تزداد شحوباً في الهواء الخياليّ، حيث التنامي المتخيل للقمر يبزغ في بياضٍ كهربائيٍّ ساكن، مرسوماً في البعيد واللامحسوس.

إنها الحاجة إلى إلهٍ حقيقيّ هو الجثمان الفارغ للسماء العالية والروح المحبوسة: أيها السجن اللانهائي لأنك لانهائيّ الهروب منك متعذر.

16 و17 أكتوبر 1931

لقد وصلت

لقد وصلت إلى تلك النقطة التي أصبح فيها الضجر شخصاً قائم الذات، خيالاً مجسداً لمعايشتي لذاتي نفسها.

(1932؟)

دروس

قاعدة الحياة هي الحياة ذاتها التي يمكن، بل وينبغي أن نتعلمها من ومَع العالم كلّه. ثمّة كثيرٌ من أشياء الحياة الجديّة بإمكاننا تعلّمها

من الدجالين وقطاع الطرق، ثمة فلسفاتٌ يزودنا بها الأغبياء، دروس ثبات وأصول تأتينا من المُصادفة والاعتباط. كلّ شيءٍ موجود في كلّ شيء.

في لحظات تأملٍ شديدة الوضوح، كتلك التي أتقمّص فيها دور مراقبٍ متشرد في الشوارع مع بداية المساء، يبدو لي كلّ شخصٍ حاملاً لإشعارٍ معيّن، كلّ منزلٍ يقدّم لي جديداً، كلّ لافتةٍ تحوي إعلاناً لأجلي.

جولتي الصامتة هي بذاتها محادثة متواصلة، ونحن جميعاً، أناساً، بيوتاً، أحجاراً، لافتات وسماء، عبارةٌ عن حشدٍ كبيرٍ صديق، يتعامل بالكلمات على قدم المساواة في الموكب الأعظم للقدر.

1932؟

فوانيس ميتة

في الظلال الغامضة الآيلة للزوال قبل أن يذوب المساء في الليل، أستمتع بتسكُّعي من دون تفكيرٍ في الحالة التي آلت إليها المدينة، وأسير كأن لا علاج لأيّ شيء. الكآبة المشتتة التي تصاحبني تعجب المخيلة أكثر ممّا تعجب الحواس. متسكعاً، أتصفَّح بداخلي، بدون أن أقرأ، كتاباً باطنياً متناثراً ذا مشاهد سريعة، بخمولٍ أمضي مشكلاً عنه فكرةً لا تكتمل أبداً.

ثمة من يقرأ بالسّرعة نفسها التي ينظر بها، ويستنتج بدون أن يكون قد رأى كلّ شيء. هكذا أستخرج من الكتاب المتصفَّح في الروح حكايةً غامضة، وذاكرات أناً آخرَ متشرّدٍ، بشوارع تتوسطها حدائق، وأشكالاً حريرية متنوعة تمرّ، تمر.

... بتزامنٍ أمرّ، عبر الشارع، عبر المساء وعبر القراءة المحلومة، والطرق التي أمرّ بها تمَّ المرور بها بالفعل. أتغرّب وأستريح، كما لو كنت على ظهر سفينةٍ في أعالي البحار.

فجأةً، أضواء الفنارات الميتة في الامتدادات المضاعفة لشارعٍ طويلٍ ومتعرّج. تتضاعف كآبتي مثل انهيار مدوٍّ. ذلك أنَّ الكتاب قد انتهى. ثمة فحسب، في اللزوجة الهوائية للشارع المجرّد، خيط إحساسٍ خارجيّ، مثل لعاب القدر الأبله، يرشح في ضمير الروح.

حياةٌ أخرى للمدينة تبدأ مع حلول الليل. ثمّة روحٌ أخرى لمن ينظر إلى السماء. أواصل السير قلِقاً قَلَقاً رمزياً، حاسّاً بالأشياء إحساساً لاواقعياً. إنني أشبه ما أكون بحكايةٍ تمَّت روايتها من طرفٍ ما، بطريقةٍ بلغت حداً من الإجادة جعلني أبدو شخصاً من لحم ودم، يسير في بداية فصل هذا العالم الرواية: «في هذه اللحظة، بالإمكان رؤية رجلٍ يتقدّم ببطء عبر شارع...».

ما علاقتي أنا بالحياة؟

1931-7-13

(مشهد المطر)

طوال الليل، وخلال ساعات، انخفض صرير الأمطار، طوال الليل. وأنا نصف مستيقظ، الرتابة الباردة لم تكفّ عن مضايقتي بإصرارٍ عبر زجاج النافذة. تارةً دوران الريح، يجلد الهواء العالي والماء يتموّج مصوّتاً ويمرِّر يدين سريعتين عبر النافذة؛ تارةً صوتٌ أصمّ فحسب يجلب النوم للخارج الميت. روحي كانت هي روحي المعتادة دائماً، بين المَلاءات مثلما بين الناس، حاساً بوجود العالم على نحوٍ مؤلم. في تلك الساعة بدا النهار لا محدداً مثلما السعادة.

. . . الصوت الطارئ لعربةٍ متأخرة يتنامى، قافزاً على الأحجار بعنف، من أقصى الشارع إلى أقصى النوم الغامض الذي لم أكُن قد ظفرت به تماماً بعد. من حينٍ إلى حين، يضرب باب أحد الطوابق. أحياناً كانت ثمة بقبقةٍ سائلة لخطوات، ملامسة ثياب مبلَّلة لذاتها. مرةً وأخرى، حينما كانت الخطوات تتقوّى وتتكاثر، كان الصوت يعلو وتبدأ الهجمات. بعدها، عاد السّكون، مع الخطوات التي انطفأت، وتوالى المطر بغزارة.

لو فتحت عيني النوم المصطنع، على الجدران المرئية معتمة في غرفتي، لَطَفَتْ أجزاء من منامات ينبغي عليّ أن أنامها، من أضواء غامضة، خطوطٍ معتمة، أشياء من عدم كانت تنخفض وتعلو. الأثاث، لطخ على نحوٍ مبهم الضباب الفارغ. الباب كان معلماً بشيءٍ ليس بأكثر بياضاً أو سواداً من الليل، لكنه مختلف. أما بخصوص النافذة، فأنا وحدي الذي سمعتها.

جديداً كان المطر، سيالاً، متنوعاً، أمام صوته تراجعت اللحظات إلى الوراء. عزلة روحي اتّسعت، تجرجرت، اكتسحت ما أحسستُ به، ما أحببته، ما لن أحلم به. الأشياء الغامضة، المشاركة، في ظلال سهادي أضحى لها مكانها وألمها الخاصّ في أغوار كآبتي.

(يومٌ ممطر)

الهواء ذو اصفرارٍ خفيّ، مثل صفرةٍ ممتقعة مرئية من خلل بياضٍ وسخ. صفرة الهواء الرمادي بالكاد. لشحوب الرمادي، مع ذلك، اصفرارٌ في كآبته الكابية.

دائماً في الحاضر

أحيا دائماً في الحاضر. المُستقبل، لا أعرفه. الماضي، لم يعُد في ملكي. يثقل عليّ الواحد كما يثقل عليّ تحمل الكلّ، يثقل عليّ الآخر كما يثقل واقع لا شيء. لا أملك آمالاً ولا نوستالجيات. ماذا يمكنني أن أتوقّع من حياتي غداً، على معرفتي بما كانته حياتي حتى اليوم - بعكس ما كنت أتوق إليه بخصوص أشياء كثيرة وأحايين كثيرة - سوى أن تكون ما لا أتوقّعه، وما لستُ أرغب فيه، وما يحدث لي من الخارج حتى من خلال إرادتي؟ لا أملك شيئاً في ماضيّ لأتذكّره بالرغبة اللامُجدية في تكراره. لم أكُن قطّ سوى أثرٍ وشبح لأناي. ماضيّ هو كلّ ما لم أتمكّن من جعله واقعاً. ولا حتى انطباعات اللحظات الماضية تتبدى لي نوستالجية: ما نحسّه رهين باللحظة؛ وبمرورها تطوى صفحة ويستمرّ التاريخ، التاريخ وليس النصّ.

يا ظلاً قصيراً داكناً لشجرةٍ مدينية، يا صوتاً خفيفاً لماءٍ يسقط في المستنقع الكئيب، يا خضرة العشب المتناسق - لحديقةٍ عمومية لحظة الشفق تقريباً - أنتم[1] في هذه اللحظة، أنتم الكون بتمامه بالنسبة إليّ، لأنكم المحتوى الممتلئ لإحساسي الواعي. لا أريد من الحياة أكثر من أنْ أحسّها تضيع في هذه الأماسي الطارئة، على صوت أطفال الغير الذين يلعبون في هذه الحدائق المسيَّجة بكآبة الشوارع المحيطة بها، وبالأوراق الملتفّة فيما وراء الأغصان العالية للأشجار الهرمة حيث النجوم تولد من جديد.

1930-6-13

---

(1) تعمّدتُ جعل ضمير الخطاب بصيغة الجمع العاقل للوفاء بالتشخيص المطلوب.

فاصل

قنديلٌ مجهول من وراء إحدى النوافذ يضيء عالياً في العزلة الليلية. في المدينة التي أراها، كل ما تبقى متعتِّم، عدا حيث تعلو ملتبسة الانعكاسات الواهنة لضوء الشوارع، جاعلةً ضوء قمرٍ شاحب يطفو هنا وهناك. في حلكة الليل، المنازل نفسها، تبرز قليلاً، ألوانها المباينة، أو تلويناتها: ثمة فحسب فروق مبهمة، سيُقال إنها مجردة تضفي اختلالاً على المجموع المتعدِّد.

هنالك خيط لا مرئي يجمعني بصاحب القنديل المجهول. ليس هو الظرف المُشترك المتمثّل في كوننا مستيقظين معاً: لا يوجد أي تعاملٍ ممكن بيننا بهذا الصدد. لأنني بوجودي أمام النافذة في الظلام، لن يكون بمقدوره هو رؤيتي أبداً. إنه شيءٌ آخر، يخصّني وحدي، يمسك قليلاً بإحساس العزلة، هو الذي يشاطرني الليل والسكون، هو الذي يختار ذلك القنديل كنقطة ارتكاز لأنه نقطة الارتكاز الوحيدة الموجودة. يبدو أنه هناك لأنه مُضاء بالظلمة الشديدة التي تلفّ الليل. يبدو أنه وجد لأكون أنا مستيقظاً، حالماً بالضباب، وبما يضيئه الضباب.

كلّ ما هو موجود موجودٌ لوجود شيء آخر معه. لا شيء كائن. الكلّ موجود كينونياً: ربما هكذا أفضل كنت. أحسّ أنني لن أوجد، في هذه اللحظة - لن أوجد، بالأقل، على النحو الذي أوجد به، بهذا الوعي الراهن بي، والذي لكونه وعياً ولكونه راهناً هو في هذه اللحظة كلياً أنا -، لو أنَّ ذلك القنديل لم يكن مضاء أبعد من هناك، في جهةٍ أخرى، قنديلٌ لا يظهر شيئاً في امتياز علوٍّ مزيّف. أنا أحسّ بهذا لأنني لا أحس شيئاً. أحسّ هذا لأنه لا شيء. لا شيء، لا

شيء، جزءٌ من الليل والسكون اللذين أنا معهما (مشتقّ)[1] من باطل، من سلبيةٍ مطلقة، من محض فاصلٍ عارض، من فضاءٍ بيني وبيني، من نسيانٍ ما من إله مجهول. . .

1933-9-8

منذُ زمنٍ طويل

لم أكتب شيئاً منذ زمنٍ طويل. مرّت شهورٌ بدون أن أعيش، مستغرقاً أمضي. بين المكتب والفلسفة، بين الفلسفة والمكتب في تأسّنٍ باطنيّ من تفكيرٍ وإحساس لا يعرف الكلل: ففي التعفُّن ثمة اختمار.

لا تكمن المشكلة في أنني لم أكتب منذ زمنٍ طويلٍ وحسب، بل في أنني لم أكن حتى موجوداً. أخالني أحلم فقط. الشوارع شوارع بالنسبة إلي. أقومُ بأعمال المكتب بوعي مكرَّس للعمل فحسب، لكن لو قلت إنَّ ذلك يتم بدون تسلية فلن أكون قد أجدتُ التعبير: فوراء ذلك أوجد أنا، نائماً، بدلاً من أن أكون متأمّلاً، غير أنني دائماً أكون شخصاً آخر خلف العمل الذي أقوم به.

أنا غير موجودٍ منذ زمنٍ طويل. إنني هادئٌ جداً، لا أحد يميِّزني عمّن أكون أحسستني الآن أتنفّس كما لو كنت أجرّب شيئاً جديداً أو متأخراً. أبدأُ في امتلاك وعي بامتلاكي للوعي. ربما أستيقظ غداً من أجلي بالذات، فأستأنف مجرى وجودي الخاص لا أدري إنْ كنت بذلك، سأكون أكثر سعادةً أو أقلّ. لا أعرف شيئاً، أرفع الرأس/ رأسي متجوّل/ ، وأرى، عبر منحدر Castelo،

(1) زائدة للتوضيح.

الغروب المقابل يتوهّج في عشرات النوافذ بانعكاسٍ عالٍ لنارٍ باردة. حول تلك الأعين من اللهب القاسي يصطبغ المُنحدر كلّه بالنعومة في آخر النهار. بإمكاني، على الأقل، أن أحسّني حزيناً، وأن أشعر مع حزني هذا بالصّخَب المُباغت للترام العابر وقد مرَّ الآن - مرئياً بواسطة السمع -، بالصوت العرضي للمتحادثين الشبان، والوشوشة المنسية للمدينة الحيّة.

لقد تخلّيت عن أناي منذ وقتٍ طويل.

1931-1-8

نهاية نهار

أحياناً أفكّر، بمتعةٍ حزينة، فيما لو كتب ذات يوم لهذه العبارات التي أكتبها، في مستقبلٍ منذ الآن لا أنتمي إليه، أن تحيا مقرونةً بالثناء، فَسَأكْتَسِبُ في النهاية الناس الذين «يفهمونني»، العائلة الحقيقية التي سأولد فيها وفيها سأغدو محبوباً، لكن بعيداً عن الوصول إلى الولادة فيها، سأكون قد متّ من زمنٍ طويل. سأغدو مفهوماً في الصورة المطبوعة فقط، حين لا يكون بإمكان الحبّ أن يعوّض مَن مات تلك المجافاة التي وحدها كانت من نصيبه عندما كان على قيد الحياة.

ذات يوم ربما يدركون أنني، أكملت، كما لم يفعل أيّ شخصٍ آخر، واجبي منذ الولادة كترجمانٍ لجانب من قرننا هذا؛ وعندما يفهمون ذلك عليهم أن يسجّلوا أنني لم أكن مفهوماً في الحقبة التي عشتها، وأنني عشت، مع الأسف، بين أشكالٍ من الجفاء واللامبالاة، وأنه من المؤسف أن يكون هذا ما حدث لي. والذي يكتب هذا سيكون، في الحقبة التي يكتبه فيها، غير فاهمٍ ولا مدرك،

مثل مَن يحيطون به، لشبيهي في هذا الزمن المُستقبلي، ذلك لأنَّ الناس فقط يتعلمون من أجدادهم الذين ماتوا. ووحدهم الموتى من نعرف تعليمهم القواعد الحقيقية للحياة.

في العشية التي أكتب فيها، توقّف المطر، مسرّة الهواء منعشةٌ للجلد. النهار آيلٌ للانتهاء، لا في الرماديّ، وإنما في زرقةٍ شاحبة. زرقةٌ غامضة تنعكس، حتى، في أحجار الشارع. يؤلم العيش، لكن من بعيد. لا يهمّ أن نحسّ، واجهةٌ أو أخرى تُضاء.

في نافذةٍ أخرى عالية هناك أناسٌ يشاهدون انقضاء الأعمال. المتسوّل الذي يلامسني لا بدّ أن يُصاب بالذهول لو عرفني.

في الأزرق الأقلّ شحوباً والأقل زرقةً الذي يلتمع في المباني، تميل ساعة النهار اللامحدَّدة أكثر قليلاً نحو المساء.

رويداً رويداً، تهبط خفيفة، نهاية النهار الأكيدة[1]... خفيفة، تنزل موجة الضوء الذي انقطع، كآبة المساء اللامجدي، ضبابٌ بلا غيمة ينفذُ إلى قلبي. خفيفاً، ناعماً يسقط الشحوب اللامحدَّد اللامع للمساء/ المائي/ - خفيفاً، ناعماً فوق الأرض البسيطة والباردة. خفيفاً يسقط، رمادٌ لامرئي، رتابةٌ ممضة، ضجرٌ بلا راحة.

(بعد 1919)

سمومٌ ضرورية

عندما أنهي عملاً معيناً أبقى بلا حراك، مجمّداً وحزيناً. لأنَّ نزوعي الفطريّ إلى الكمال يثنيني عن الإنهاء؛ ويثنيني حتى عن البداية. غير أنني أتلهى بالقيام بما أقوم به. وما أتوصّل إليه موجودٌ فيّ، وهو ليس من عمل الإرادة، وإنما نتاج التّخلي عنها. وأبدأ

---

(1) جُملة محذوفة.

لأنني لا أقوى على التفكير؛ وأنتهي لأنني لا أقوى روحياً على التَّأجيل، هذا الكتاب هو ترجمان جُبني.

إنَّ السّبب الذي يجعلني مراراً أوقف تفكيراً ما بإقحام مقطعٍ من مشهدٍ خارجيّ سرعان ما يندمج بصيغةٍ من الصّيغ في المخطط الواقعيّ أو المُفترض لانطباعاتي، هو أنَّ هذا المشهد بمثابة منفذٍ، منه أهرب من معرفتي بعجزي الخلاق. إنني بحاجةٍ، وسط بَوحي الذاتي الذي يشكّل كلمات هذا الكتاب، إلى محادثة شخصٍ آخر على الفور، وأتّجه صوب النور الذي يحومُ على سطوح المنازل التي تبدو مبلّلة بوجوده بمحاذاتها؛ صوب الاهتزاز الرّطب للأشجار العالية للمُنحدر المديني، والتي تبدو قريبة، في احتمال انفراجٍ أخرس؛ وصوب ملصقات المنازل الشديدة الانحدار، ذات النوافذ التي من خلالها تذهب الشمس الرطبة نشاءً رطباً.

لماذا أكتب، إن لم أكتب بشكلٍ أفضل؟ ماذا سأكون إنْ لم أنجح في كتابة ما أكتب؟ إنني عاميّ طموح، أحاول تحقيق ما أطمح إليه، لا أجرؤ على الصمت كمن يحترس من غرفةٍ معتمة. إنني مثل من يقدّرون الوسام أكثر من المجهود ويستمتعون بالمجد في الحنبل.

أن أكتب، بالنسبة إليّ، معناه أن أحتقر نفسي؛ لكن لا أستطيع التخلي عن الكتابة. الكتابة مثل المُخدّر الذي يثير اشمئزازي ومع ذلك أتناوله، مثل بليةٍ أحتقرها وأحيا فيها وبها. ثمة سمومٌ ضرورية، ومنها ما هو شديد الرفاهة ومكونٌ من مقومات الروح، أعشابٌ مأخوذةٌ من زوايا خرائب الأحلام، خشخاشٌ أسود معثورٌ عليه جنب القُبور [. . .]، أوراقٌ طويلةٌ لأشجارٍ داعرةٍ ترجّ الأغصان في الجنبات المسموعة للأنهار الجحيمية للروح.

أن أكتب، معناه أن أفقد ذاتي. أجل، غير أنَّ الجميع يفقدون ذواتهم، لأنَّ الكلّ، كلَّ شيء، فقدانٌ أكيد. لكنني أفقد ذاتي بدونما فرح، لا كما يفقد النهر مجراه في المصبّ وهو ما من أجله وجد النهر، وإنما مثل البحيرة التي يخلِّفها المد البحري في الشاطئ بدون أنْ يعود ماؤها أبداً إلى البحر.

شبحٌ وفردوس

حتى لو أردت أن أبدع، (. . .)

الفنُّ الحقيقي الأوحد هو ذاك المتمثل في البناء، لكن المجال الحديث لا يسمح مطلقاً بظهور سمات بناءٍ في الروح.

لذلك تطوَّر العلم. إنَّ الشيء الوحيد الذي يحتوي اليوم، على بناء، هو عبارةٌ عن آلة. البرهان الوحيد على وجود تسلسل هو البرهان الرّياضيّ.

القدرة على الإبداع تحتاج إلى نقطة ارتكاز، إلى عكّازة الواقع.

الفنّ علم. . .

يعاني إيقاعياً.

لا أستطيع القراءة، لأنّ وعيي النقدي المفرط التوقُّد لم يُظهر لي غير العيوب، والنواقص واحتمالات التحسّن. لا أستطيع الحلم، لأنني أحسّ الحلم على درجةٍ من الحيوية بحيث يبدو لي شبيهاً بالواقع نفسه، ممّا يجعلني أحسّ على الفور بعدم واقعيّته؛ وهكذا تختفي قيمته. لا أستطيع أن أتلهى بالتأمل البريء في أشياء الرجال، لأنّ قلق تعميق التفكير لا يمكن تفاديه في هذه الحالة، ولأنّ اهتمامي يتوقف وجوده على هذا القلق، فهو إمّا عليه أن يموت على يديه وإمّا أن يتلاشى.

لا أستطيع أن أتلهى بالتأمل الميتافيزيقي، لأنني أعرف زيادة على اللزوم، أنَّ كلَّ المنظومات يمكن تبريرها والدفاع عنها، وأنَّها كلها ممكنة على صعيد التفكير النظري؛ ولكي أستمتع بالفن النظري لبناء المنظومات، أنا بحاجةٍ إلى أن أنسى أنَّ هدف التأمل الميتافيزيقيّ هو البحث عن الحقيقة.

أريد ماضياً سعيداً بتذكُّره أغدو سعيداً؛ بدون أن يكون لي أيّ شيءٍ في الحاضر يفرحني أو يعنيني، سواء في الحلم أو في فرضية مستقبلٍ يكون مختلفاً عن هذا الحاضر، أو أن أمتلك ماضياً آخر غير ذلك الماضي - مضطجعاً حياتي، - شبحاً شاعراً بفردوسٍ لم يسبق لي أن وجدت به قط، جثةً مولودة من أمنيات...

سعداء أولئك الذين يعانون، لكن بوحدةٍ وتماسك! أولئك الذين يثيرهم القلق لكنه لا يجزِّئهم، والذين يؤمنون، ولو بعدم الإيمان، يستطيعون القعود أمام الشمس بدون تفكيرٍ خفيّ.

(قبل 1929)

لا بالنَّظر ولا باللمس

على غرار الطلب الذي وجَّهه ديوجين إلى الإسكندر، كان لديّ طلبٌ واحد من الحياة هو ألّا تحرمني الشمسَ. كانت لدي رغبات، لكنني حرمت من حق امتلاكها. ما لقيته كان من الأجدر أن ألقاه واقعياً. إنه الحلم (...).

مترددٌ في كلّ شيءٍ أنا، أحياناً كثيرةً بدون أن أعرف لماذا، مرات كثيرة أبحث، كما لو عن خطٍّ مستقيم خاصٍّ بي أتمثّله ذهنياً كخطّ مستقيم مثاليّ، عن أقصر مسافةٍ ممكنة بين نقطتين. لم أمتلك فن ممارسة الحياة بنشاط قط. لقد أخطأت دائماً الحركات التي لا

أحد يخطئ بشأنها؛ الأفعال التي من أجل القيام بها يولد الناس، جاهدت أنا باستماتة لكي لا أقوم بها. أتمنى دائماً أن أحقِّق ما حققه الغير تقريباً بدون أيّ رغبة. بيني وبين الحياة زجاجٌ معتمٌ على الدوام، لم أعرف من خلاله شيئاً لا بالنظر ولا باللمس؛ لم أعِشْ لا تلك الحياة ولا ذلك المخطط، لقد كنت الهذيان الحيّ لما أحببت أن أكونه، من إرادتي انطلق حلمي، هدفي، كان دائماً الخيال الأول لما لم أكُنْهُ قط.

لم أعرف البتة إن كانت حساسيتي مفرطةً بالنسبة إلى ذكائي أو بالعكس. لقد نبذت دائماً أحدهما، أو ربما هما معاً، أو أنها الثالثة التي نبذتها[1].

سيّد العالم

إنني أكثر هرماً من الزمن ومن الفضاء لأنني واعٍ. الأشياء مشتقة مني؛ الطبيعة بتمامها [...] من إحساساتي.

أبحث - لا أجد، أريد، ولا أستطيع.

بدوني، تولد الشمس وتغيب؛ بدوني يسقط المطر وتتأوه الريح. الفصول ليست موجودةً لأجلي، ولا مجرى الشهور، ولا مرور الساعات.

سيد العالم، موجودٌ بداخلي، سيّد الأراضي التي لا يمكن أن أحملها معي، (...).

---

(1) واضحٌ أنَّ هذا العنصر غير وارد في السياق المقصور على عنصريّ الحساسية والذكاء فهل يتعلق الأمر بسهوٍ من المؤلّف؟

هكذا كنت..

لقد مررت أجنبياً بينهم، لكن ما من أحدٍ رآني كذلك. لقد عشتُ جاسوساً بينهم، ولا أحد، حتى أنا، أرتاب في كوني كذلك. جميعهم حسبوني قريباً لهم: ما من أحدٍ عرف أنهم غلطوا بحقي منذ الولادة. هكذا، كنت مماثلاً للغير بدون مشابهة، أخاً للجميع بدون أن أكون من العائلة.

أتيتُ من أرضٍ عجيبة، من مشاهد أجمل من الحياة، لكنني عن الأراضي لم أتحدَّث إلّا مع نفسي، وعن المشاهد المرئية في الحلم، لم أعطِ خبراً قط. خطواتي كانت تشبه خطواتهم على الأرضيات الخشب والبلاطات، لكن قلبي كان نائياً، رغم أنه كان يخفق قريباً، سيداً مزيفاً لجسدٍ منفيّ وغريب.

ما من أحد تعرَّف عليّ في قناع مماثلتي للغير، ولا عرف قطّ أنه كان مجرد قناع، إذ ما من أحدٍ علم بوجود مقنّعين في هذا العالم. ما من أحدٍ افترض وجود آخر بجانبي، هو أنا في النهاية. اعتبروني على الدوام متطابقاً مع ذاتي.

لقد استقبلوني في منازلهم، أيديهم صافحت يدي، شاهدوني أمرّ عبر الشارع كما لو كنت هناك؛ لكن أنا الحقيقي لم يكن قطّ في تلك الصالات، مَن به أحيا لا يملك يدين ليصافح الآخرين، مَن أعرفه فيّ لا شوارع لديه ليمرّ منها. . .

جميعنا نحيا بعداء ومجهولين؛ جميعاً نعاني متجاهلين ومنكرين. بالنسبة إلى البعض، مع ذلك، هذه المسافة بين كائنٍ ما وما هو إياه لا تنجلي البتة بالنسبة إلى البعض، فيما تبدو مضاءةً من حينٍ إلى آخر بالنسبة إلى آخرين، بالرّعب أو القلق، بواسطة برق لا

حدود له؛ لكن ذلك اليقين المؤلم وذلك اليومي الحياتي موجودان بالفعل بالنسبة إلى آخرين.

أن نعرف مَن نحن ليس شأننا نحن، لأنّ ما نفكره وما نحسّه هو دائماً ترجمة ما، ما نريده لم يكن موضع رغبتنا - أن أعرف هذا كلّه في كلّ دقيقة، أن أحسّ هذا كلّه في كلّ إحساس، ألن يكون معناه أن أكون أجنبياً داخل روحي ذاتها، منفياً في أحاسيسي الخاصة؟

غير أنَّ القناع الذي كان ينظر خامداً، ويتكلم في الزاوية مع رجلٍ بلا قناع في هذه الليلة من نهاية الكرنفال، مدّ يده أخيراً مودِّعاً وهو يضحك. الرجل الطبيعيّ واصل طريقه نحو اليسار، عبر الزقاق الذي كان موجوداً في إحدى زواياه. القناع - اتجه إلى الأمام، واختفى وسط ظلال ومصادفات الأضواء، في وداعٍ نهائيّ وغير ذي صلة بما كنت أفكّر فيه. حينئذٍ فقط تنبّهت إلى أنَّ في الشارع ما هو أكثر من المصابيح المُضاءة، ثمة ضوء قمرٍ غامض، يعكِّر المكان الخالي منها، خفياً، أصمّ، مفعماً بالهباء مثلما الحياة...

1933-4-7

شيطان الواقع

فجأةً، كما لو أنَّ قدراً مداوياً شفاني من عمى مزمن بطريقةٍ مباغتة، أرفع الرأس، عن حياتي الغفل، نحو المعرفة الواضحة بكيفية وجودي، فأرى أنَّ كلَّ ما قمت به، كل ما فكرت به، كل ما كنته، هو خداعٌ وجنون. أتعجّب ممّا توصلت إلى عدم الانتباه إليه. أستغرب ما كنته، وأرى أنني، في نهاية المطاف، لستُ أنا.

أنظر، كما لو في تمدُّدٍ للشمس مكسِّرٍ للغيوم، إلى حياتي الماضية؛ وألاحظ، بذهولٍ ميتافيزيقي، كيف أنَّ كلّ حركاتي، الأكثر

يقينية، أفكاري الأشدّ وضوحاً، وغاياتي الأكثر منطقية، لم تكن، في النهاية، غير سكرٍ متصلٍ منذ الولادة، غير جنونٍ طبيعي، وتنكّرٍ بلا حدود. . . لم أكن الممثل، بل حركاته وحسب.

كلّ ما فعلته، فكّرتُه، ما كنته، هو سلسلةٌ من خضوعٍ وتبعية، إما لكائنٍ مصطنع حسبته مني، لأنني مثّلته خارجياً وإما لثقل ظروفٍ افترضتُ أنها الهواء الذي كنت أتنفّسه. إنني، في هذه اللحظة من الرؤية، متوحّدٌ مفاجئ منفيٌّ مجهول وجد نفسه مواطناً دائماً حيث هو. في أكثر الأمور الباطنية التي شغلت تفكيري لم أكن إياي.

حينئذٍ، يهجم عليّ، ذعرٌ تهكميّ، يأسٌ يتخطى حدود فردانيتي الواعية. أعرف أنَّ وجودي خطأ وضِلّةٌ، وأنني لم أعش قط، أنني وُجدت فقط لأنني شغلت الوقت بالوعي والتفكير. وإحساسي بي هو إحساس من يفيق بعد نومةٍ مليئةٍ بأحلام واقعية، أو إحساس المحرَّر من إحدى العواصف، من بصيص ضوء السجن الذي أصبح مألوفاً لديه.

يثقل عليّ، يثقل عَليَّ حقيقةً، مثل عقوبةٍ ثقيلة، هذا المفهوم المباغت لفرديتي الحقيقية، تلك التي أمضي مترحلاً عبرها دوماً فيما يشبه الإغفاء بين ما أحسّه وما أراه.

من العسير جداً وصف أحاسيسنا حينما نحسّ أنها موجودةٌ واقعياً، وأنَّ الروح كيانٌ واقعي، لا أعرف بأيّ مفرداتٍ إنسانية يمكن أن نعرفها بواسطتها. لا أدري إنْ كنت أعاني من الحمّى، كما أحسّ، أم أنني قد تخلّصت منها لكوني من نوام الحياة الكبار.

أجل، إنني، أذكر، مثل مسافرٍ يجد نفسه فجأةً في مدينةٍ غريبة بدون أن يعرف كيف وصل إلى هناك؛ أذكر تلك الحوادث المُفقِدة للذاكرة. . لقد كنت آخر خلال زمنٍ طويل - منذ الولادة إلى الوعي

- وها أنا أستيقظ الآن في منتصف الجسر، مطلاً على النهر، عالِماً أنني موجودٌ على نحوٍ أكثر رسوخاً ممّا كنت حتى هذا المكان، لكن المدينة تبدو لي مجهولة، الشوارع جديدة، والداء بلا علاج. أنتظر، إذن، مطلاً على النهر، أن تمرّ بي الحقيقة، وأن تستعيدني فارغاً وخيالياً، ذكياً وطبيعياً.

كانت لحظة من اللحظات، وها قد مرت الآن. ها أنا أرى الأثاث المُحيط بي، رسوم الورق العتيق في الجدران، الشمس على النوافذ المغبرة. لقد لمحتُ الحقيقة لهنيهة. هنيهة وعي الرجال الكبار بالحياة. أذكر أفعالهم وكلماتهم، ولا أدري إنْ لم يكونوا بدورهم قد أغواهم شيطان الواقع. عدم المعرفة في ذاته حياة. المعرفة السيئة في حدّ ذاتها هي التفكير. المعرفة في ذاتها، فجأةً، كما في هذه اللحظة المجلوة تعني الامتلاك الفجائيّ لمفهوم الجوهر الباطني الفرد، الكلمة السحرية للروح، لكن ضوءاً مفاجئاً يبدِّد كلّ شيء، يستنفد كلّ شيء، يعرينا كليةً حتى من أنفسنا.

لقد كانت مجرّد لحظة، ورأيت ما رأيت. بعدها، لم أعرف حتى قول ما كانته. وأخيراً، حلّ النوم، لأنني، لا أعرف لماذا، أعتقد أنَّ الإحساس هو النوم.

1930-2-29

مراوح مقفلة

إنني مقتنعٌ تماماً بأنني لا أعرف الاستيقاظ البتة. لا أدري ما إذا كنت أحلم وأنا أعيش، أم أعيش وأنا أحلم، أم أنَّ الحلم والحياة يوجدان فيّ مختلطين، ومتقاطعين، بحيث يتشكّل منهما وعيي على نحوٍ متداخل.

أحياناً، في أوج حياتي العملية، التي أحسني فيها، وفي كامل الوضوح، تماماً مثل الآخرين، ينتابني إحساسٌ غريب؛ لا أدري إن كنت موجوداً بالفعل، أحسّ كما لو أنَّ حلماً غيرياً يشكِّلني جسدياً، وأنني يمكن أن أكون شخصيّةً روائية، أتحرك في الأمواج المديدة لأسلوبٍ مصنوع في الحقيقة من سردٍ كبير.

لقد تنبّهتُ أحياناً كثيرة، إلى أنَّ شخصيات روائية معينة تمتلك بالنسبة إلينا تعبيراً لا يستطيع البتة امتلاكه معارفنا وأصدقاؤنا، ومَن يبادلوننا الحديث والإصغاء في الحياة المحسوسة والواقعية. وهذا ما يجعلني أتساءل عمّا إذا لم يكن كلّ شيء، في هذا العالم بمجموعه، سلسلة من تدخلات واندماجات أحلام وروايات، كما لو في صنيديقات داخل صناديق وهذه بدورها داخل صناديق أكبر وهكذا، بحيث يغدو الكل عبارةً عن تاريخ يحوي تواريخ وتواريخ، كما في **ألف ليلة وليلة**...

حينما أفكّر[1] يبدو الكلّ غير معقول، يبدو كلّ شيء غريباً؛ حينما أرغب، فإن الراغب هو كلّ شيءٍ موجود بداخلي. دائماً عندما يوجد بداخلي فعل أعرف أنني لم أكن إياي. عندما أنام يبدو لي أنهم يكتبونني. عندما أحسّ، يبدو لي أنهم يرسمونني. أحسّ أنني لو أحببت لَبَدَا لي أنهم يضعونني في سيارة، مثل بضاعةٍ مُرسَلة، وأنني أتقدّم بحركةٍ تبدو لي خاصةً بي إلى حيث لم أرغب أن أذهب إلّا بعد الانوجاد هناك.

لَكَمْ هو ملتبس كل شيء! كم يبدو النظر أفضل من التفكير، والقراءة من الكتابة! ما أراه يمكن أن يخدعني، لكنني أحسبه في

---

(1) نقلتُ صيغة الماضي إلى الحاضر لتشخيص المقصود بطريقةٍ أفضل.

حوزتي. ما أقرؤه يمكن أن يحزنني، لكن لا يكدرني افتراض أن أكون كاتبه. لَكَمْ يغدو كلّ شيءٍ مؤلماً لو فكرنا به واعين بتفكيرنا، ككائناتٍ روحيةٍ مُنحَت ذلك التمدُّد الثاني للوعي والذي بواسطته نعرف ما نعرف! لا أستطيع التخلي عن التفكير على هذا النحو بالرغم من النعومة القصوى للنهار.. التفكير أو الإحساس سيان! أيّ شيءٍ ثالث يوجد وسط المشاهد الموضوعة هنالك جانباً؟ ملالات الغروب واللامبالاة، مروحاتٌ مقفلة، التعب الناجم عن كوني قد أُجبرت على أن أعيش.

1931-12-20

الكتابة

الكتابة ذاتها فقدت المُتعة بالنسبة إلي. لقد ابتُذل كثيراً فعل منح التعبير للانفعالات وتجويد العبارات التي أكتبها كمن يكتب أو يشرب، بانتباهٍ أكثر أو أقل، إنما نصفُ مستلب ولا مبالٍ، نصفُ مستيقظٍ وبدون حماسٍ ولا تألّق.

الحياة

أن أنظّمَ حياتي بطريقةٍ تبدو معها لغزاً بالنسبة إلى الآخرين، بحيث أنّ أفضل مَن يعرفنا، بالكاد لا يتعرف علينا عن قرب قياساً إلى الآخرين. هكذا فصلت حياتي، تقريباً بدون أن أفكّر في ذلك، لكنني ضمَّنتها الكثير من الفن الغريزي الذي أضحى بالنسبة إليّ جزءاً غير واضحٍ تماماً من كلية فردانيتي الخاصة.

إستيتيقيا المكر

الحياة تضرّ بالتعبير عن الحياة. لو أنني عشت تجربة حبٍّ كبير، ما كان بمقدوري البتة أن أحكي عنه.

أنا بنفسي لا أدري إن كان أناي المفترض من لدني، في هذه الصفحات الملتوية، موجوداً بالفعل أم مجرّد مفهومٍ إستيتيقيٍّ وزائف كوَّنته عن نفسي. إستيتيقياً أعيش في شخص آخر. لقد نُحِتت حياتي مثل تمثالٍ من مادةٍ لا تنتمي إلى كينونتي، أحياناً لا أتعرّف عليّ، خارجياً جداً وضعتني أمام ذاتي، على نحوٍ فنيٍّ خالص استخدمت وعيي بذاتي نفسها. مَن أكون أنا خلف هذا الواقع؟ لا أدري. ينبغي أن أكون أحداً ما. وإذا لم أسعَ إلى أن أعيش، وأعمل، وأحسّ، فذلك لأجل ألّا - صدقوني جيداً - أعكِّر الخطوط المصطنعة لشخصيتي المفترضة. أريد أن أكون مثل مَن كنت أريد أن أكونه ولست إياه. لو تنازلت لتحطمت. أريد أن أكون عملاً فنياً، بالروح على الأقلّ، ما دمت غير قادرٍ على أن أكونه بالجسد. لذلك نحتْتُني بهدوء وانخطاف وتموضعت، في مدفأة، بعيداً عن الأجواء الباردة والأضواء الصريحة - حيث تزدهر، وردة مكري الفارغ بجماليةٍ معزولة.

أفكّر أحياناً كم سيكون جميلاً أن أتمكن، [...]، أحلامي، أن أخلق حياة متصلة، تجري خلال أيامٍ بكاملها، مع مدعوين متخيلين، مع أناسٍ مخلوقين، وأن أواصل هذه الحياة المصطنعة متألماً مستمتعاً. هنالك ستحدث لي مصائب؛ أفراح كبرى سوف تنهال عليّ. وما من شيء يخصّني سيكون واقعياً. سيكون لكل شيءٍ منطق، منطقٌ رائع، وكل شيء سيسير وفق إيقاع كذبٍ متنعِّم، وسيحدث كلّ شيء في مدينةٍ من صنع روحي، ضائعةٍ حتى محطة

قطارٍ هادئ، بعيد جداً. . . والكل واضح لا مناص منه كما في الحياة الخارجية، لكن بإستيتيقيا موت الشمس.

ساعاتٌ أقحوانية

أبحثُ عني فلا أعثر عليّ، أنتمي إلى ساعاتٍ أقحوانية، واضحةٍ في مسافة من جرات. يجب أن أجعل من روحي شيئاً تزينيّاً.

لا أدري أي تفاصيل زائدة/ مفخمة/ ومنتقاة تحدِّد شكل روحي. عشقي للزخرفي موجودٌ بلا شك، لأنني أحس فيه شيئاً مطابقاً لجوهر روحي.

الابن الذي لم أكنه

أعترف، لا أدري بكآبةٍ أم بدونها، بالجفاف الإنساني لقلبي. إنّ أي نعتٍ مهما كان هو أكثر من قيمة من أي بكاءٍ واقعي للروح. معلمي فييرا. [. . .]

لكنني أحياناً أكون مختلفاً، وأبكي بدموع، بدموعٍ ساخنة، بدموع مَن لا أمّ لهم؛ وعيوني المتقدة بتلك الدموع الميتة، داخل قلبي تتّقد.

لا أتذكر أمي. توفيت عندما كنت في عامي الأول. كل ما في حساسيتي من تشتتٍ وقسوة يأتي من غياب ذلك الدفء ومن الحنين اللامجدي للقبلات التي لا أتذكرها. أنا مزيّف. لقد استيقظتُ دائماً في أحضان الغير، مُهدهَداً باللامبالاة.

آه، إنها نوستالجيا الآخر الذي كان يمكن أن أكونه تدِّمرني وترعبني! أي آخر سأكون أنا لو كانوا منحوني الحب الذي يأتي من البطن حتى القُبل في الوجه الصغير؟

أنا كل تلك الأشياء، بالرغم من عدم رغبتي فيها، في العمق المبهم لحساسيتي المنحوسة. ربما يكون لنوستالجياي للابن الذي لم أكُنه الدور الأكبر في لامبالاتي العاطفية.

أخبروني فيما بعد، أنَّ أمي كانت جميلة، ويقولون إنهم عندما قالوا لي ذلك لم أقل أنا شيئاً. كنت حينها راشداً عقلاً وروحاً، غير عابئ بالعواطف والكلام لم يكن قد أصبح بعد خبراً في صفحات أخرى يصعب تخيّلها.

والدي الذي كان يعيش بعيداً، قُتل عندما كنت في الثالثة عشرة ولم يسبق أن تعرَّفت عليه قط. ما زلت لا أعرف لماذا كان يعيش بعيداً. لم أهتم قطّ بمعرفة ذلك. أذكر خبر موته. . . كانوا ينظرون أذكر، من حينٍ إلى آخر إليّ. وأنا بالنظر أجبتهم، وقد أدركتُ الأمر بغباء. بعدئذٍ تناولت طعامي باحتشامٍ أكبر، إذ ربما، لأنهم، بدون أن أراهم، استمروا في النظر إليّ.

عواء

لا يعرف ما إذا كانت نهاية النهار معنا تنتهي بمرارةٍ لامجدية أم أنّ ما نحن إياه باطل وسط الظلال، وليس ثمة سوى السكون الأكبر بلا بطّ وحشي يخيم على البحيرات حيث ترفع الأسلات صلابتها الباعثة على الإغماء. لا يعرف شيء، ولا الذكرى مجرد ذكرى، تبقى من حكايات الطفولة، ولا حتى مداعبة السماوات المستقبلية تبقى، نسمة يتفتح فيها الانطباع بهيأة نجوم. المصباح النذوري يهتز في المعبد الذي ما من أحدٍ يسير فيه، لا يعرف الاسم المكتوب قديماً في الجذع، ومزايا المجهولين ذهبت، مثل ورقٍ أسيء تمزيقه، عبر الشواع المشحونة بريحٍ هائلة، إلى مصادفات الحواجز التي

أوقفتها. آخرون سوف يطلّون من النافذة نفسها كغيرهم؛ الذين نسوا الظلّ السمج، الحانّين إلى الشمس التي لم تكن في متناولهم ينامون؛ وأنا نفسي، المتجرئ بلا حركات على الكلام؛ سأنتهي بلا تبكيتات ضمير، وسط أسلاتٍ مغمورةٍ بالمياه، ملطّخاً بوحل النهر القريب والتعب الرخو، تحت فصول خريفية هائلة، في تخوم مستحيلة. وسأحسّ، من خلال الكل، كصفير ضجر عار، بروحي من وراء الهذيان - الزعيق العميق والخالص، لا مُجديةً في عتمة العالم.

1931-9-15

مجرّد ظلّ

سيّالاً ينتهي النهار بين أرجوانيات فارغة. لا أحد سيقول لي مَن أكون، ولن يعرف مَن كنت. لقد نزلت من الجبل المجهول إلى الوادي الذي أجهله، وخطواتي، في المساء البطيء، كانت آثاراً متروكةً في فرجات الغابة. الذين أحببتهم نسوني في الظلّ. ما من أحد عرف شيئاً عن المركب الأخير. في مكتب البريد لم يوجد أيّ خبر عن الرسالة التي لن يكتبها أحد.

كلّ شيء كان مزيفاً إذن، لم تُحَك الحكايات التي كان قد رواها آخرون، ولا أعرف شيئاً على وجه اليقين عن الذي رحل في الماضي، في المركب المختلق، ابن الضباب المستقبلي والحيرة القادمة. بين المتأخرين في الوصول لديّ اسم، وهذا الاسم مجرّد ظلّ مثل كلّ شيء.

1931-9-16

كيف

إنها الساعة التي أقوم فيها بآخر مجهودٍ للنظر إلى حياتي. أراني وسط صحراء شاسعة. أعبّر حرفياً عمّا كنته أمس، أسعى إلى أن أفسِّر لنفسي ذاتها كيف وصلت إلى هنا.

حل

... الذهول الذي يضرّ بقدرتي على القلق. لقد أمضيت، مع أنني لست ميتافيزيقياً، بالفطرة، أياماً من قلقٍ حادّ، وحتى ميتافيزيقي، مع الحيرة إزاء المعضلات الميتافيزيقية والدينية...

وجدت أنَّ الحل الذي توفَّر لديّ للمعضلة الدينية كان يتمثّل في إيجاد حلٍّ لمشكلةٍ انفعالية بمفردات العقل.

(قبل 1913)

يحدُثُ أحياناً

يحدث لي أحياناً، ودائماً تقريباً بصورةٍ مباغتة، أن يبرز وسط إحساساتي تعبٌ رهيب من الحياة إلى حدٍّ لا يمنح إمكانية اختلاق فعلٍ للسيطرة عليه. الانتحار، يبدو علاجاً غير مضمون؛ الموت، حتى مع افتراض توفُّر اللاشعور به، يبقى أقلّ من المطلوب. إنه تعبٌ تواق، لا إلى الكفّ عن الوجود - وهو ما يمكن أو لا يمكن أن يكون محتملاً - وإنما إلى شيء أكثر فظاعةً بكثير وأبعد غوراً، إلى الكفّ حتى عن كوني قد وجدت، وهو ما لا توجد أي طريقة لإمكانية أن يكون.

أعتقد أنني أستشفّ، أحياناً، في التأملات الغامضة بوجهٍ عام للهنود بعضاً من هذا التوق الأشدّ سلبية من العدم، لكن إما أنَّ حدة

الإحساس تنقصهم لكي يرووا هكذا ما يفكرونه، وإما أن ما ينقصهم هو مضاء الفكر لكي يحسوا بما يحسّونه. والمسألة، تتمثل في أنَّ ما أستشفه لديهم لا أراه. ذلك أنني أحسب نفسي أوّل مَن وهب الكلمات لا معقولية هذا الإحساس الذي لا علاج له.

وأنا بتحويله إلى مكتوب أعالجه، أجل، بلا أسى، إنْ كان عميقاً بحقّ، إنْ لم يكن غير إحساسٍ محض، لكن بتدخّلٍ من الذكاء، كيما لا يكون هناك علاجٌ تهكُّمي في التعبير عن هذا الإحساس.

أمراض الذكاء، مع الأسف، أقلّ إيلاماً من أمراض الإحساسية، وهذه، مع الأسف أقلّ من أمراض الجسد، أقول «مع الأسف»، لأنّ الكرامة الإنسانية تقتضي العكس. لا يوجد إحساسٌ مقلق بالغيبي والخفيّ يمكن أن يؤلم مثلما يؤلم الحب، الغيرة، أو النوستالجيا التي يمكنها أن تخنق على نحو ما يفعل الخوف الحاد، وتتحول كالغضب أو الرغبة، لكن بالمقابل كذلك ما من ألم من تلك الآلام التي تحطِّم الروح باستطاعته أن يكون ألماً واقعياً تماماً مثل ألم الأضراس، أو القولون، أو ألم الولادة. بحيث أننا مخلوقون لكي يسمو الذكاء بانفعالات وأحاسيس معيَّنة فينا فوق غيرها، ويحطّ منها أيضاً إذا ما مدّ تحليله بالمقارنة بينها جميعاً.

أكتب مثل مَن ينام، وحياتي كلها عبارةٌ عن وصلٍ بحاجةٍ إلى إمضاء.

داخل قفص الدجاج الذي منه سيمضي إلى الموت، يغني الديك أناشيد للحرية لأنهم منحوه يومين إضافيين.

دميةٌ من نشارة

لقد عاينتُ الإغماء التدريجي لحياتي، الغرق البطيء لكلّ ما أردتُ أن يكون. يمكنني القول، بتلك الصراحة التي لا تحتاج إلى أنَّ تكلّل بالزهور للتدليل على موتها، بألّا وجود لشيءٍ أحببته أو حلمت به ولو للحظةٍ واحدة فقط، لم يتهشَّم تحت النوافذ مثل غبارٍ بهيأة حجر، يسقط من أصيص طابقٍ عالٍ. يبدو أنَّ القدر نفسه قد سعى دائماً، أولاً، إلى إيقاعي في حبّ ذلك الشيء الذي هيأه بنفسه لكي أكتشف في اليوم الموالي بأنه لم يكن ولن يكون في متناولي.

متفرّجٌ ساخر من نفسي ذاتها، ومع ذلك، لم أفتر قط، عن معاينة الحياة. ومنذ أن عرفت، اليوم، بحدسٍ مسبق خيبة كل آمالي الغامضة، وأنا أكابد المتعة الخاصة لامتزاج الألم بالأمل، امتزاج المر بالحلو. إنني استراتيجيٌّ سوداوي، يخط، وقد خسر كل المعارك، على ورق خططه، تفاصيل انسحابه المحتوم، عشية كلّ معركةٍ جديدة من معاركه.

لقد طاردني، مثل كائنٍ شرير، قَدَرُ عدم قدرتي على الرغبة بدون أن أعرف ماذا عليّ ألّا أرغب فيه. عندما أرى في الشارع لحظة، وجه فتاة في سنّ الزواج، ولو غير مبالٍ، أستمتع للحظة بافتراض كونها لي، ودائماً، على بُعد عشر خطوات من حلمي، يحدث بالتأكيد أن تلتقي تلك الفتاة برجلٍ سرعان ما أرى أنه زوجها أو عشيقها. الرومانطيقي لا بد أن يخلق من هذا الوضع تراجيديا مكتملة؛ الشخص الشاذ سوف يحسّ بالوضع كما لو كان فصلاً كوميدياً؛ غير أنني، أنا، أخلط الأمرين، إذ إنني رومانطيقيٌّ في ذاتي وشاذٌّ بالنسبة إلى ذاتي، وأقلب الصفحة صوب سخريةٍ أخرى.

بعضٌ يعتبر الحياة بدون أمل مستحيلة، آخرون بالأمل يرونها

فارغة. الحياة بالنسبة إليّ، أنا الذي اليوم بلا أمل ولا يأس، محض صورةٍ خارجية تحتويني أنا، وتحتوي ما أشاهده كما لو في فرجةٍ خالية من التعقيد، مصنوعة فحسب لتسلية الأعين: رقصٌ بلا ترابط، حركة الورق في الريح، غيوم يبدّل ضوء الشمس ألوانها، تخطيطات الشوارع القديمة، مصادفةٌ في أماكن غير مناسبة من المدينة.

إنني، في الجزء الأكبر مني، النثر نفسه الذي أكتبه أتنامى في حقب ومقاطع، أضع علامات الوقف، وفي التوزيع الطليق للصور، أرتدي، كالأطفال، هيأة ملكٍ من ورق الجرائد، أو، بالكيفية التي أصنع بها إيقاعاً من سلسلةٍ من الكلمات، أزين الرأس، مثل المجانين، بزهورٍ يابسة ستستمرّ حيةً في أحلامي. و، فوق كلّ شيء، هادئ أنا مثل دميةٍ من نشارة، تحرك رأسها من حينٍ إلى حين، لامتلاك شعورها بذاتها، لكي تجعل جلجل أعلى قبعة المنقار (الجزء المكمل للرأس نفسه) يقرع بشيءٍ ما، بحياةٍ تقرع جرس الموتى، إشعارٌ صغير بالمصير.

كم مرات، مع ذلك في عزّ نهار هذا السخط الهادئ، صعد إلى إحساسي الواعي شيئاً فشيئاً، الشعور بالفراغ والضجر من التفكير على هذا النحو! كم مرات، أحسستُ، كمن يسمع متكلماً من خلال أصواتٍ تتوقف ثم تعود لتبدأ من جديد، بالمرارة الجوهرية لهذه الحياة الغريبة عن الحياة الإنسانية: حياةٌ لا يحدث فيها شيء عدا ما يحدث في الوعي بها! كم من مرات، لم أتبيَّن، حال استيقاظي مني، المنفى الذي أنا إياه، كم كان من الأفضل أن أكون لا أحد، أن أكون السعيد الذي يمتلك، على الأقل المرارة الواقعية، الفرحان الذي يشعر بالتعب بدلاً من الشعور بالضجر، الذي يتألم بدلاً من افتراض أنه يتألم، الذي يقتل، نعم، بدلاً من أن يموت!

لقد تحوّلت إلى صورة في كتاب، إلى حياةٍ مقروءة. ما أحسّه (بدون رغبةٍ مني) إنما أحسه لأجل أن أكتبه باعتباره محسوساً به. ما أفكر به يصبح كلمات من بعد، مختلطاً بصور تفسده، مفتوحاً في إيقاعات هي شيء آخر، أي شيء. من كثرة معاودتي تركيب ذاتي، تهدّمت. لقد سبرتُني مراراً ثم رميت بالمسبار؛ أحياناً مفكراً فيما إذا كنت عميقاً أم لا، بدون مسبارٍ آخر غير النظرة التي يعرضها، في مرآة البئر العالية، وجهي ذاته الذي يتأملني وأتأمله.

أنا نوعٌ من ورق اللعب القديم والمجهول، الوحيد الذي تبقَّى من ورقٍ مفقود. لا معنى لي، لا أعرف لي قيمة، لا أملك ما أقارن به ذاتي كيما أجدني،... وهكذا، في الصور المتوالية التي أصفني فيها - ليس بدون صواب، لكن مع بعض الأكاذيب - أبقى مستقراً ثابتاً في الصور أكثر ممّا في ذاتي، جاعلاً من الروح مدادي، صالحاً فحسب للانكتاب بها، لكن الاستجابة تتوقَّف فأتخلى من جديد عن الكتابة. وأعود فيّ إلى ما أنا إياه، ولو لم يكن بشيء. وبعض من دمع بلا نحيب يتقد في عيني الثابتين، بعض من قلق لم أمتلكه، يهيج بفظاظة حنجرتي الجافة، لكن واها، لا أدري أي بكاءٍ بكيت، إن كنت قد بكيت بالفعل، ولا لماذا لم أبكِ ما لم أبكه. الخيال يرافقني كظلي. والنوم هو ما أرغب فيه.

1931-9-2

نرسيس أعمى

أعترف اليوم أنني فشلت؛ أندهش أحياناً لكوني لم أتوقّع فشلي هذا. ماذا كان لديّ من مؤهلات تسمح بتوقّع الظفر؟ لم أمتلك القوة العمياء للظافرين أو الرؤية الثاقبة للمجانين...

كنت متألقاً، حزيناً مثل يومٍ بارد.

أمتلك المقومات الروحيةَ للبوهيمي، تلك التي تدع الحياة تمضي كشيء يفلت من اليد في الوقت نفسه الذي تظلّ فيه إشارة امتلاك الحياة راقدةً في مجرّد فكرة إبداء الإشارة. غير أنني لم أمتلك البديل/ الخارجي/ للروح البوهيمي: سهولة تعرية الانفعالات الفورية والمنبوذة. لم أكن قط سوى بوهيميٍّ معزول، وهو أمرٌ غير معقول؛ أو بوهيمي صوفي، وهو أمرٌ غير ممكن.

ثمة ساعات، فواصل عشتها، ساعات أمام الطبيعة، منحوتةً في رقة العزلة، ستظل على الدوام كأوسمةٍ بالنسبة إليّ. في تلك اللحظات كنت أنسى كلّ أهدافي في الحياة، كلّ اتجاهاتي المبتغاة. لقد استمتعتُ بكوني لا شيء، بامتلاك صفاءٍ روحي، ينزل في الحضن الأزرق لتطلعاتي. لم يسبق أن استمتعتُ قط، ربما، بساعة/ لا تمحى/ ، مستثناة من العمق الروحي للفشل والخمول. في كلّ ساعاتي الحرة ألم ينام، يزهر غامضاً، خلف جدران وعيي، في بساتين أخرى، لكن عبير ولون تلك الأزهار الكئيبة اجتازا الجدران حدسياً، فيما ناحية وعيي الأخرى التي هناك، حيث أزهرت الورود، لم تتخلَّ أبداً عن الوجود، في السر المعتم لكينونتي مظلَّلةً في تهويمة عيشي.

في بحرٍ باطنيّ انتهى نهر حياتي. كلّ الأشجار، المحيطة بأرضي المحلومة، كانت تعيش فصل خريف. هذا المشهد الدائري هو إكليل أشواك روحي. أسعد لحظات حياتي كانت أحلاماً، وأحلام كآبة، وأنا في بحيراتها أراني مثل نرسيس أعمى أستمتع بالبرودة القريبة للمياه، شاعراً بانحنائه عليها، بواسطة رؤيةٍ مسبقة وليلية مسارة للأحاسيس المجردة، معيوشة في زوايا المخيِّلة باحتراس أمومي..

أعرف أنني فشلت. أتلذّذ بالشهوانية اللامحدَّدة للفشل كمَن يمنح تقديراً فارغاً لحمّى حَبَسَتْهُ.

قُنوط

أحسُد الناس جميعاً لكونهم ليسوا أنا. من بين كلّ المستحيلات احتلَّت هذه الرغبة الصدارة دائماً، وهي التي شكّلت أكثر من غيرها داخل قلقي اليومي، بَرَمي بجميع الساعات الكئيبة.

إنَّ إنجازي لعملٍ من الأعمال الإبداعية ثم اكتشافي لمساوئه بعد تأليفه، هو أحد مآسيَّ الروحية الكبرى، خاصة عندما أكتشف أنَّ ذلك العمل هو أفضل ما أمكنني إنجازه، لكن لجوئي إلى كتابة عملٍ معين، مع معرفتي المسبقة بأنه لا بد أن يكون ناقصاً وفاشلاً، بل وملاحظتي ذلك أثناء عملية الكتابة: هو أقصى حالات التعذيب والإذلال الروحي. أنا لا أحسّ بعدم الرضا عن الأشعار التي أكتبها وحسب، وإنما أعرف أنَّ الأشعار التي عليّ أن أكتبها لن تنال رضاي بدورها. أعرف ذلك فلسفياً، وجسدياً.

لماذا أكتب إذن؟ لأنني، أنا الداعي إلى التنازل والانسحاب، لم أتعلّم بعد ممارسة هذا التنازل على أتمّ وجه. لم أتعلّم التخلي عن النزوع إلى الشعر والنثر. عليَّ أن أكتب كما لو كنت أنفذ عقاباً. والعقاب الأكبر هو معرفتي بأنّ ما أكتبه باطل فاشل وغير يقينيّ.

مذ كنت طفلاً، كتبت أشعاراً. كتبت أشعاراً رديئةً جداً، لكنني، أحسبها جيدة. لن أعاود الإحساس أبداً بالمتعة الزائفة لإنجاز عملٍ متقن. ما أكتبه اليوم أفضل بكثير. هو، ربما، أحسن ممّا يستطيع أن يكتبه أفضل الكتّاب. غير أنه يظلّ أبداً دون مستوى ما أحس، لا أدري لماذا، ما كان بإمكاني - أو ربما ما كان عليّ -

أن أكتبه. أبكي من أجل الأشعار الرديئة لطفولتي كما لو من أجل طفلٍ ميت، ابن مات، آخر أمل اختفى.

(بعد 1914)

الزمن! الماضي!

إحساسي بالزمن دائماً مصحوبٌ بأملٍ هائل. مع رجة لا تخلو من مغالاة كما لو كنت أتخلى عن شيءٍ ما. الغرفة الفقيرة المكتراة حيث أمضيت بضعة شهور، طاولة النزل الريفي حيث/ أمضيت/ ستة أيام، قاعة الانتظار الكئيبة نفسها في محطة السكة الحديد حيث صرفت ساعتين بانتظار القطار: أجل لكن عندما أترك أشياء الحياة الطيبة، وأفكر بكل حساسية أعصابي، أنني لن أراها أبداً مرة أخرى ولن أمتلكها البتة، على الأقل في تلك اللحظة المحدَّدة والمضبوطة حينئذٍ تؤلمني تلك الأشياء المتخلى عنها إيلاماً ميتافيزيقياً. تنشق لي هاوية في الروح فيما هبّةٌ باردة من إحدى لحظات الإله تلفَح وجهي الممتقع.

الزمن! الماضي! [. . .] ما كنته وما لن أكونه أبداً بعد! ما كان لي وما لن أعاود امتلاكه! الموتى! الموتى الذين أحبوني في طفولتي. حينما أستدعيهم، تلفّ البرودة روحي بكاملها وأحسني مُقْصَى من قلوبٍ معينة، وحيداً في ليل ذاتي، باكياً، مثل متسوِّل، السكون المقفل للأبواب كافة.

دُموع

الله خلقني لأكون طفلاً، وأبقاني على الدوام طفلاً، لكن لماذا جعل الحياة تعاملني بسوء وسلبني اللعب، ثم تركني وحيداً مع تسليتي، أعصر بيدين واهنتين جداً المنديل الأزرق المتَّسخ للدموع

المستديمة؟ إن كنت لا أقوى على العيش إلّا مداعَباً، فلماذا ألقوا بحبي جانباً؟ آه، كلما رأيت في الشارع طفلاً يبكي، طفلاً مبعداً عن الآخرين، تألَّمت بكلّ الرعب المتهور لقلبي المستنفد. أتألم بكلّ قامة الحياة المحسوسة، واليدان اللتان تلويان طرفي المنديل يداي، والأفواه المعوجة بالدموع الحقيقية أفواهي، والضعف ضعفي، والعزلة عزلتي، وابتسامات الحياة الراشدة التي تمضي تستنفدني مثل أضواء فوسفورٍ مفروك في النسيج الحساس لصدري.

ذلك الفصل من التخيُّل

تختلط عليّ الأمور كلها. أكون مفكراً، فأحسبني أتذكر: لاهياً أرى بوضوح ما لا أراه واعياً.

أدير ظهري للنافذة الرمادية، ذات الزجاج البارد الملموس بالأيدي. وأحمل معي، بفعل سحر الظل، فجأةً، دواخل المنزل العتيق، الذي يصيح الببغاء في الفناء المجاور له؛ وعيناي تنعسانني من جراء العيش الذي لا علاج له.

إنها تمطر منذ يومين، من السماء الرمادية والباردة. يسقط المطر باللون الذي يغمّ الروح. منذ يومين... إنني حزين ممّا أحس، وأفكر في ذلك عند النافذة وعلى إيقاع الماء الذي يتقطر والمطر الذي يهطل. صدري منقبض والذكريات تتحوّل إلى أحاسيس مضجرة.

لدي رغبةٌ كبرى في النوم، رغم انعدام النوم، وانتفاء الرغبة والحق في امتلاكه. قديماً، عندما كنت طفلاً سعيداً، كان هناك صوت ببغاء أخضر يحيا في بيت الغناء المجاور.

فكرت في هذا الببغاء لأنني حزين ولأن الطفولة البعيدة

تسترجعه؟ كلا، لقد فكرت فيه بالفعل لأن صوت ببغاء يصيح عرضاً في فناء المسكن القريب.

(. . .) ذلك الفصل من التخيل (الذي) نسميه (ال) واقع.

من يدري!

الأكاديمية النباتية للسكينات. . . اسمك الرنان مثل الخشخاش المنثور. . . البرك. . . عودتي. . . القس المجنون الذي فقد عقله في القداس. . . هذه الذكريات من وحي أحلامي. . . لا أغمض العينين لكنني لا أبصر شيئاً. . . الأشياء التي أراها ليست هنا. . . مياه. . .

خضرة الأشجار هي الآن، في واحدةٍ من فوضى التشابكات، جزءٌ من دمي. الحياة تدقّ لدي في القلب النائي. . ./ أنا لم أخلق لما هو واقعي، والحياة شاءت المجيء لرؤيتي/

التعذيب المستديم للمصير! من يدري إن كنت سأموت غداً! من يدري ألّا يحدث لي اليوم شيءٌ مرعبٌ لروحي!. . . أحياناً، عندما أفكّر في هذه الأشياء، يرعبني الظلم الأعلى الذي يجعلنا نمتلك الأعين الصافية لعدم معرفتي بالحوادث التي لا بد أن يواجهها عدم يقيني.

أميراتٌ بلا أديرة

في تجويفات الشاطئ على ضفة البحر، بين غابات وحقول الضفة، مِن لايقينية الهاوية الفارغة صعد تقلُّب الرغبة الموقدة. لن يتوجّب علي أن أُخيَّر بين عزلة الحقول وصخب المدينة.

سحر الكلمات معزولة، أو مجتمعة حسب تطابق الإيقاع، برنّاتٍ باطنية وأصوات متباعدة في لحظة تقاربها نفسها، أُبَّهة

العبارات الموضوعة وسط معاني العبارات الأخرى، مكر البقايا، الأمل في الغابات، ولا شيء أكثر من سكينة البرك وسط ضيعات طفولة حيلي. . .هكذا، بين جدران الجسارة العبثية، في صفوف الأشجار وفي انتفاضات ما يذوي، ثمة شخصٌ آخر لم أكنه سوف يسمع من الشفاه الحزينة الاعتراف المرفوض بأفضل اللجاجات. . .

لكن، من جديد، في خلاصة السّحر، عاليةً تدوي الصيحات المنطفئة، والكلاب تدور حول صفوف الأشجار المرئية. لامعقولاً كمثل حداد كان كل شيء، وأميرات أحلام الغير كن يتجولن بلا أديرة على نحوٍ غامض.

1929-3-22

يوماً بيوم

يوماً بيوم، أدوِّن، في سجلات روحي الخسيسة الانطباعات التي تشكِّل المادة الخارجية لوعيي بي، أصبها في كلماتٍ شاردة، تهرب مني بمجرد كتابتي إياها، وتمضي مستقلّةً عني، عبر أعشاب الصور، وأسلاك المفاهيم، ودروب الالتباسات. هذا لا يفيدني في شيء، إذ لا شيء يفيدني في شيء، لكنني أهدئ نفسي بالكتابة، كمن يتنفّس على نحوٍ أفضل بدون أن يبارحه الداء.

ثمة من يتلهى بكتابة خطوطٍ وأسماء لا معنى لها في. . . هذه الصفحات هي كلابات لا شعوري الذهني بذاتي نفسها. أخطّها بسبات أحاسيسي، مثل قطٍّ تحت الشمس، ثم أعيد قراءتها أحياناً، بذهولٍ غامض متأخر، كما لو أنني بصدد تذكر شيء أنا دائم النسيان له.

عندما أكتب، أزور ذاتي بجلال. لديَّ صالاتٌ خاصة، متذكَّرة

من لدن آخَر في فجوات التمثيل، حيث يستهويني تحليلُ ما لست أحسّ، وأختبرني كما لو كنت أختبر لوحةً في الظل.

قبل الولادة، فقدتُ قصري القديم. مفروشات قصري النبيل بيْعت قبل أن أوجد أنا. بيت أجدادي ما قبل حياتي أصابه الدمار، في لحظاتٍ معينة فقط، عندما يولد ضوء القمر فيَّ من فوق أسلات النهار، تجمّدني نوستالجيا الجوانب التي تتحوَّل فيها البقية الدرداء من الجدران سوداء في مواجهة السماء ذات الزرقة المعتمة الضاربة إلى البياض الميال إلى اصفرارٍ لبَنيّ.

دوران

لكن الإقصاء الذي فرضته على نفسي من أهداف الحياة وحركاتها، والقطيعة التي حاولت تحقيقها في اتصالي بالأشياء قادتني بالضبط إلى ذلك الذي حاولتُ الفرار منه. أنا لم أرغب في الإحساس بالحياة، ولا في ملامسة الأشياء، عارفاً، بتجربة مزاجي إزاء عدوى العالم الخارجيّ، أنَّ الإحساس بالحياة كان دائماً مؤلماً بالنسبة إليّ. لكنني عند محاولتي تفادي ذلك الاتصال بالعالم، حكمتُ على نفسي بالعزلة، وبانعزالي، فاقمتُ من حساسيتي المفرطة. لو كان بالإمكان قطع الصلة بالكامل مع الأشياء لوافق ذلك تماماً حساسيتي، لكن تلك القطيعة الكاملة لا يمكن تحقيقها... وهكذا، وبمفاقمتي لحساسيتي بواسطة العزلة، جعلت أقل الأحداث شأناً تُحدث فِيَّ الأثر الذي تُحدثه الكوارث. لقد أخطأتُ السبيل المناسب للهروب. اخترتُ الهروب، بواسطة، لفٍّ غير مريح، صوب المكان نفسه الذي كنت فيه، مع تعب السفر ومع رعب الحياة هناك.

لم أفكّر البتة في الانتحار باعتباره حلاً، لأنني أبغض الحياة بسبب عشقي لها. لقد صرفتُ وقتاً طويلاً في محاولة إقناع نفسي بهذا الخطأ المؤسف الذي أحيا فيه مع ذاتي نفسها. وباقتناعي به، ظللتُ متوعكاً بَرِماً، وهو ما يحدث لي دائماً عندما أقتنع بشيء، لأنّ الاقتناع هو دائماً عندي، فقدانٌ لوهمٍ من الأوهام.

لقد قتلتُ الإرادة بقسوة تشريحيّ لها. مَن سيُعيدني إلى طفولة ما قبل التشريح، بل حتى ما قبل الإرادة!

في حدائق حلمي الميت، إغفاءة المستنقعات تحت الشمس العالية، حيث ضوضاء الحشرات المحتشدة في اللحظة، يُثقل عليّ العيش مثل ألمٍ فيزيقيّ ينبغي أن ينتهي.

قصورٌ نائِيَةٌ جداً، غاباتٌ منخطفة، الممرات الضيقة في البعيد، الظرافة الميتة للقواعد الحجرية للأبهات الميتة، الظرافة التعسة، بهرجةٌ ضائعة. أيتها الرغبة التي أهملتها. ليتني استطعتُ استرجاع المرارة التي بها حلمت بك!

طمأنينةٌ زرقاء

أيُّ ملكةٍ متغطرسة ترعى بجانب بحيراتها ذاكرة حياتي الراحلة؟ كُنت خادم الحَوريات[1] غير الكافية في الساعات الطائرة لطمأنينتي الزرقاء. سفنٌ نائية أكملت مشهد البحر المتموّج من خلال سطوحي، وفي غيوم الجنوب أضعتُ روحي، مع مجذافٍ تركته يهوي إلى القاع.

---

(1) مغرس الحور، طريقٌ محفوف بأشجار الحور.

وزنابق ضفاف الأنهار البعيدة، الباردة والمهيبة، في مساءٍ أبدي في عمق قاراتٍ حقيقية.

حقيقية، ولا شيء غير ذلك.

بعدئذٍ جاءت الحياة

كنت دائماً حالماً متهكِّماً، لا يفي بعهوده الباطنية. لقد استمتعتُ دائماً، مثل آخر أجنبي، بالهزائم التي تكبَّدْتها هذياناتي، باعتباري شاهداً عرضياً على ما فكرت أن أكونه. لم أؤمن قط بذاك الذي اعتقدتُ. لقد ملأت يدي بالرمل، وأسميته ذهباً، ثم فتحتهما لينسرب منهما كلّ ما ملأت. العبارة كانت الحقيقة الوحيدة. ما إنْ تُقال العبارة حتى يغدو كل شيءٍ منجزاً؛ ما تبقى هو الرمل الذي كان على الدوام.

لولا أنني كائنٌ حالمٌ دائماً، ونزّاعٌ إلى العيش في اغترابٍ مستديم، لكان بإمكاني أن أدعوني واقعياً، أي فرداً تحوَّل العالم الخارجي بالنسبة إليه إلى/ وطن/ مستقلّ. لكنني أفضّل ألا أمنحني اسماً، أن أكون ما أنا إياه مع التباسٍ أكيد وأن أمتلك لأجل ذاتي نفسها شكوك عدم معرفتي بالاحتياط للأشياء.

أشعر أنني مجبرٌ على أن أحلم باستمرار وإذن ولأنني لست ولا أريد أن أكون أكثر من متفرجٍ على ذاتي نفسها، عليّ أن أمتلك أفضل فرجة أستطيعها. هكذا أشيِّد من ذهبٍ وحرير، في صالاتٍ مفترضة، منصة زائفة، خشبة قديمة، حلماً مصنوعاً يجري وسط لعبة أضواء ناعمة وموسيقى خفية.

أحتفظ، باطنياً، مثل ذكرى قبلةٍ لذيذة، بالذكرى الطفولية

لمسرحٍ تمثّل فيه الخشبة الزرقاء والقمرية سطيحةً لقصرٍ لا وجود له. رسمت أيضاً، حديقةً شاسعةً محيطةً بالمكان، واستهلكت الروح في عيشي ذلك كله كما لو كان واقعياً. الموسيقى، التي كانت تصدح ناعمةً في تلك المناسبة/ الذهنية/ لتجربتي الحياتية، حوَّلت ذلك المشهد المسرحي المجاني إلى حمى واقعية.

الخشبة كانت زرقاء وقمرية على نحوٍ نهائي. لا أذكر، مَن قام بالتشخيص فوق تلك الخشبة، لكن العمل المسرحي الذي أضعه في المشهد المتذكر يخرج اليوم لي من أشعار فرلين وPessanha[1]؛ ليس بالعمل الذي نسيته، الذي جرى في المقصورة الحية فيما وراء ذلك الواقع ذي الموسيقى الزرقاء. لقد كانت الرقصة التنكرية، الشاسعة والقمرية رقصتي السيالة، وكذلك الفاصل الموسيقي الذي من فضةٍ وزرقةٍ مختومة.

بعدئذٍ جاءت الحياة. تلك الليلة حملوني للعشاء لدى الأسد. ما زلت أتذكّر طعم شرائح اللحم في فم النوستالجيا - شرائح، أعرفها لأنني أتخيلها، كما لا يفعل ذلك اليوم أحدٌ مثلي. والكل يتداخل - طفولة - معيشة على مسافة، وجبةٌ ليلية لذيذة، خشبة مسرح قمرية، فرلين مستقبل وأنا حاضر - في منحرفٍ ملتبس، ضمن فضاءٍ مزيّف بين ما كنتهُ وما أنا إياه.

1931-10-16

---

(1) Camilo Pessanha (1867-1926): شاعرٌ رمزي برتغالي مهم وأحد رواد الشعرية البيسوية.

بيقين من يأتي من أعماق العالم

عندما جئت إلى لشبونة للمرة الأولى، كان في الطابق الفوقي للمبنى الذي أقمنا به، صوت لبيانو من آنسةٍ تتعلّم عليه العزف لم أرها قط. أكتشفُ اليوم عبر مجريات تسرباتٍ أجهلها، أنني ما زلت أمتلك، في مستودعات الروح، التي أسمع صوت انفتاحة بوابتها السفلية، ما زلت أمتلك السلالم الموسيقية مكررة، معزوفة بأنامل الآنسة التي هي اليوم سيدةٌ أخرى، إمّا ميتة أو محبوسة في مكانٍ أبيض حيث مسودّة تخضر أشجار السرو.

مجرّد طفلٍ كنت يومها، واليوم لم أعد كذلك؛ الصوت مع ذلك، مماثلٌ في التذكُّر لذلك الذي كان حقيقة، ويمتلك - هو دائم الحضور لو تخلى عن تظاهره بالنوم - العزف البطيء نفسه، الإيقاعية الرتيبة نفسها. وتجتاحني عندما أتأمله أو أحسه كآبة مديدة مقلقة هي كآبتي الخاصة.

لا أبكي طفولتي الضائعة؛ أبكي كون الكلّ، كل شيء ومن ضمنه طفولتي، يضيع. إنه الانفلات المجرد للزمن، الذي هو زمني، والذي يؤلمني في الدماغ الفيزيقي للدورة المتكررة، اللاإرادية، للمقامات المعزوفة على البيانو الفوقي، المجهول والنائي على نحوٍ رهيب. إنه السرّ كله، سرّ ألّا شيء يبقى من طرقات الأشياء المتكرِّرة التي لا ترقى إلى أن تصبح موسيقى، لكنها ضربٌ من النوستالجيا، في العمق اللامعقول لذاكرتي.

أرى بواسطة انتصاب بصري، وبطريقةٍ لا محسوسة، الصالة الصغيرة التي لم أرها قط، حيث المتعلمة التي لم أتعرف عليها البتة لا تزال، تربط، أصبعاً بأصبع، المقامات المتساوية دوماً لما أضحى الآن في خبر كان؛ أرى، أواصل النظر أكثر، أعاود البناء بالنظر.

وكلّ سكنى الطابق الفوقي، النوستالجي اليوم بخلاف أمس، يغدو خيالياً تماماً من خلال تأملي اللامبالي.

على أنني أفترضني كائناً مجازياً داخل هذا كله، معتبراً أنَّ النوستالجيا التي أحسّها ليست تماماً نوستالجياي، ولا هي مجردةٌ تماماً، وإنما هي الإحساس الاعتراضي على خاصيةٍ ثالثة لا أعرف ما هي، من أجل أن تغدو هذه الإحساسات التي هي حالاتٌ أدبية لدي، حَرْفيَّةً تماماً لدى البعض كما سيقول فييرا.

داخل أحاسيسي المفترضة أتألم وأقلق، والنوستالجيات تدوخ عيني بتأثيرٍ منها، إنني بواسطة التخيُّل والآخرية، أحسّها وأفكِّر فيها.

ودائما، بيقينٍ يأتي من أعماق العالم، بثباتٍ ميتافيزيقي، ترن، ترن، ترن، مقامات من تدرس البيانو، في العمود الفقري لذاكرتي. إنها الشوارع القديمة بأناسٍ آخرين، هي اليوم الشوارع المختلفة نفسها؛ إنهم أشخاصٌ موتى هؤلاء الذين يتحدّثون إلي، عبر شفافية انعدام الحاجة إليهم اليوم؛ إنها وخزات ضميرٍ جراء ما فعلته وما لم أفعله، ضوضاء جداول الليل، ضوضاء هنالك في الأسفل، في الدارة الساكنة.

لدي رغبةٌ في الصراخ داخل الرأس. أريد أن أتوقف، أن أسحق، أن أحطم تلك الأسطوانة الغرامافونية المستحيلة التي تصدح بداخلي، في منزل غيري، معذّبةً إياي تعذيباً لا يمكن لمسه. أريد أن أصدر أمراً للروح بالتوقف - كي تعمل هي - [. . .] تمضي إلى الأمام وحدها وتتركني وشأني. أفقد صوابي لأنني مجبرٌ على أن أسمع. . . وفي النهاية أنا هو أنا، في دماغي الحساس في جلدي المشعر، في أعصابي التي من زهرة جلد، تعزف رنانة مقامات البيانو المرعب و/ الشخصي/ لتذكُّراتنا.

ودائماً، دائماً، كما لو في جزءٍ من الدماغ الذي يغدو مستقلاً، تعزف، تعزف، تعزف المقامات هنالك في الأسفل، هنالك في الأعلى، من أوّل منزلٍ في لشبونة أتيتُ للعيش فيه.

1931-12-3

وحدي هنا

لو أمكنني ذات يوم، بامتلاكي لحياةٍ آمنة بشكلٍ ثابت، أن أكتب وأنشر ما أكتبه بحرية، لما تخليت - أعرف ذلك - عن نوستالجياي تجاه هذه الحياة غير المأمونة التي بالكاد أكتب فيها ولا أنشر. سوف أحتفظ بهذه النوستالجيا، ليس فقط لأن تلك الحياة المبتذلة - أعني هذه - ستغدو ماضياً وحياةً لم تعُد في متناولي، ولكن لأن في كلّ نمطٍ من أنماط العيش صفةً خاصة ومتعة مميزة، وعندما يتم الانتقال إلى نمطٍ حياتيٍّ مغاير، ولو كان أحسن من سابقه، فإنَّ تلك النوعية وتلك المتعة المميزة تخلفان بافتقادهما فراغاً وإحساساً بالنقص.

لو تمكّنتُ ذات يوم من حمل صليب رغبتي إلى الجلجلة المناسبة لاكتشفتُ جلجلةً أخرى في قلب تلك الجلجلة، ولظللتُ دائم الحنين للفترة التي كنت فيها تافهاً، مبتذلاً وناقصاً.

أشعر بالنوم. كان اليوم مثقلاً بالعمل اللامجدي في المكتب الخالي تقريباً. ثمة مستخدمان مريضان والآخرون لا يوجدون هنا. وحدي هنا، باستثناء الخادم البعيد عني. لدي نوستالجيا لفرضية امتلاك يوم نوستالجي وحتى هذه النوستالجيا تبدو لا معقولة. أكاد أطلب من الآلهة أن يحفظوني هنا كما لو في خزانة، في منجى من مرارات الحياة ومباهجها أيضاً.

مجرّد ديكور

كلّ ما ليس أناي ليس سوى مشهدٍ وديكور خارجي. إنَّ أيّ رجل، حتى ولو تمكّنت من التعرّف عليه بواسطة التفكير باعتباره كائناً حياً مثلي، قد امْتَلَكَ دائماً بالنسبة إلي أهميةً أقلّ من شجرة، إنْ لم تكن الشجرة أجمل، لكن هذا كلّه اكتسى دائماً حركات إنسانية - التراجيديات الجماعية الكبرى للتاريخ أو لما يصنعونه منه - مثل إفريزات ملونة، فارغة لروح من يمرون بها. لم أتأثر قط بما يمكن أن يجري من أحداث تراجيدية في الصين، فهي مجرد ديكورٍ بعيد ولو أنه من دمٍ وطاعون.

أتذكّر، بحزنٍ ساخر، مظاهرةً عمالية، نُظّمت بجديةٍ أجهل كنهها (يصعب عليّ دائماً أن أتصور إمكانية توفر الجدية في الشؤون الجماعية، مُعتبراً أنَّ الفرد وحده مع ذاته هو الكائن الوحيد الذي يحسّ). كانت جماعةً محتشدةً سائبة من - مغفلين - متحمسين مرَّت منادية بأشياء متباينة أمام لامبالاتي الغيرية. أحسست فجأةً بغثيان. لم يكن المتظاهرون حتى متسخين بما فيه الكفاية. الذين يعانون معاناةً حقيقيةً لا يشكلون تجمعاً. ما يُعانى يُعانى منفرداً.

ما أبشعهُ من تجمّع! يا لافتقاره للإنساني وللألم! لقد كان المتظاهرون واقعيين ومع ذلك غير معقولين. لا أحد سيصنع منهم فضاء لرواية، مشهداً لوصفٍ ما. يجرون كما تجري الأوساخ في نهر، نهر الحياة، لقد اعتراني النوم لرؤيتهم، نومٌ مقزّز وسامٍ.

العزلة والرفقة

لأجل أن أفهم، هدمت ذاتي. أن تفهم معناه أن تنسى الحب. لا أعرف قولةً تتضمن من المغزى ومن زيف المغزى في آنٍ واحد

أكثر ممّا تتضمنه قولةُ ليوناردو دافينشي بأنَّهُ لا يمكن أن نحب أو نكره شيئاً إلّا بعد فهمنا له.

العُزلة تحزنني؛ الرفقة تخنقني. وجود الآخر بجانبي يضلل أفكاري؛ أتسلى - حالماً - بحضوره تسليةً خاصة لا يفلح معها كلّ تنبهي التحليلي في تحديد هذا الحضور.

روحٌ من طينتي نفسها

لقد طبعتني العزلة بطباعها وصيَّرتني على غرارها. حضور الآخر - ولو كان شخصاً واحداً فقط - يؤخر تفكيري. إذا كان الاتصال بالآخر يمثّل محفزاً للتعبير والقول بالنسبة إلى الإنسان السويّ، فهو بالنسبة إليّ على العكس محفّزٌ مضادّ أو بالأحرى ضدّ محفّزٍ إن كتب لهذه الكلمة أن تحيا في الاستعمال اللغوي. إنني قادرٌ، عند وجودي لوحدي، أن أتصوّر الكثير من العبارات البارعة، والإجابات السريعة لأسئلةٍ لم يقُل بها أحد، بحس معاشرة ذكي ومتألق تجاه لا أحد؛ لكن هذا كله يتلاشى عندي حينما أكون أمام آخر فيزيقي، أفقد الذكاء، أفقد القدرة على الحديث، وبعد مضي ربع ساعة، لا أحسّ بشيءٍ سوى النوم. أجل، الكلام مع الناس يجلب لي الرغبة في النوم. وحدهم أصدقائي الشبحيون والمتخيلون، وحدها محادثاتي الحلمية تمتلك واقعاً حقيقياً وملموساً، ففيها يكون للروح حضورٌ أشبه بصورةٍ في مرآة.

بالإضافة إلى ذلك، تثقل عليّ كثيراً فكرة أن أكون مجبَراً على أيّ اتصالٍ بالآخر. دعوةٌ بسيطةٌ لتناول العشاء مع صديقٍ تُحدث لدي قلقاً يصعُب تحديده. فكرة أداء واجبٍ اجتماعيّ مهما كان - الذهاب إلى جنازة، التباحث مع أحدهم في شأنٍ من شؤون

المكتب، الذهاب إلى المحطة لانتظار شخصٍ ما، معروف أو نكرة - وحدها تلك الفكرة تعكّر لدي أفكار يوم بكامله، وأحياناً أظل منشغلاً منذ العشية نفسها، ثم أنام سيئاً تماماً، بينما الحدث الواقعي، عندما يحدث، هو عديم الدلالة بصفةٍ مطلقة ولا يفسّر أي شيء بالنسبة إليّ؛ والحدث يتكرَّر وقوعه وأنا لا أتعلّم أبداً ما ينبغي أن يُتعلم.

«عاداتي اكتسبتها من العزلة لا من الرجال»؛ لا أدري إن كان روسو، أو سيننكور، هو من قال هذا. لا بد أنه ذو روحٍ من طينتي نفسها؛ عن سلالتي، ربما لن أستطيع الحديث.

التفكير هو العيش

إنَّ ما يولّد عندي، فيما أعتقد، الإحساس العميق الذي أعيشه على نحوٍ مغاير للآخرين، هو أنّ الأغلبية تفكر بالإحساس بينما أنا أحسّ عبر التفكير.

بالنسبة إلى الإنسان العاميّ الإحساس هو العيش والتفكير هو معرفة العيش. بالنسبة إليّ، التفكير هو العيش أما الإحساس فليس بأكثر من مُغذّ للتفكير.

ولأنَّ قدرتي على الحماس عموماً ضعيفةٌ ومحدودة، فإنها بالطبع متوفرة فيمن هم على النقيض من مزاجي أكثر ممّن هم من طينتي الروحية نفسها. في الأدب لست معجباً سوى بالكلاسيكيين الذين أعتبر نفسي أقلّ الكتاب شبهاً بهم. لو أُلزِمتُ بأن أختار لقراءةٍ وحيدة بين شاتوبريان وفييرا، لاخترتُ فييرا بدون تردّد.

كلما كان أحدهم أكثر مغايرةً لي، بدا أكثر واقعية لأنه أقل ارتباطاً بذاتيتي. ولذلك، لأنّ تلك الإنسانية العادية التي أحتقرها هي

موضوع دراستي المتيقِّظة، لذلك أحبها لأنني أكرهها، تروقني رؤيتها لأنني أمقُت الإحساس بوجودها. المشهد الطبيعي، المدهش كلوحة، هو (بالنسبة إلي) على العموم غير مريح مثل سرير.

1930-4-13

أبواب اللامحدّد

أتمنى أنْ أضع قانون عطالةٍ للمتفوقين (الممتازين) في المجتمعات الحديثة.

بعدم توفّره على أناسٍ ذوي حساسية وذكاء متميزين سوف يتمكن المجتمع من حكم ذاته بذاته تلقائياً. على هذا النحو عرفت المجتمعات البدائية حياةً سعيدة قليلاً أو كثيراً.

إنه لمِن المُحزن أن يؤدي نفي المتفوقين من المجتمع إلى موتهم، لأنهم لا يعرفون كيف يشتغلون. ولربما ماتوا ضجراً، لعدم وجود فضاءات من البلادة بينهم. غير أنني أتحدّث من زاوية علاج مسألة السعادة البشرية.

كلّ متفوقٍ يعلن عن نفسه في المجتمع سيكون مصيره النفي إلى جزيرة [. . .] المتفوقين، الذين سيتم إطعامهم مثل الحيوانات المحبوسة في أقفاص، من لدن المجتمع العادي.

ثقوا بي: لو لم يوجد أناسٌ أذكياء تمكنوا من وضع الإصبع على مكامن الخلل الإنسانيّ، لما كان بإمكان الإنسانية أن تنتبه إلى هذا الخلل. هكذا تعتبر الكائنات الحساسة المتفوقة مسؤولة عن معاناة وآلام الآخرين.

ما دمنا نعيش في مجتمع، فإنَّ الواجب الوحيد للمتفوقين هو أن يُخفّضوا إلى هذا الحد الأدنى من مشاركتهم في حياة العشيرة.

لا ينبغي أن تقرأ الجرائد، أو فلتقرأ فقط لمعرفة ضآلة قيمة ما يقع من أحداث: لا، لا أحد يتخيل المتعة التي أنتزعها من الجريدة الإذاعية الموجزة للأقاليم. الأسماء وحدها الأسماء مجرّدة تفتح لي أبواب اللامحدد.

إنَّ الوضع الشَّرفي الأسمى بالنسبة إلى رجلٍ متفوق هو ألا يعرف من هو رئيس دولة بلده، ولا ما إذا كان يعيش في ظلّ نظامٍ ملكيّ أم جمهوريّ.

ينبغي أن يكون موقفه كله مركزاً حول موضعة الروح على نحوٍ لا يسبب معه مرور الأشياء والأحداث أيّ مضايقةٍ لها. وإذا لم يفعل ذلك، فعليه لكي يهتم بشؤون نفسه أن ينشغل بالآخرين.

(1914؟)

دموعٌ مُمَوسقة

لأننا نمتلك، عارفين أو جاهلين، نوعاً من الميتافيزيقا، كذلك نمتلك أيضاً، شئنا أم أبينا، أخلاقاً معيّنة. شخصياً أخلاقيتي شديدة البساطة: عليّ ألّا أفعل بأيّ كان لا شراً ولا خيراً. ألّا أفعل شراً بالغير، لا لأنني أعترف للآخرين بالحق نفسه الذي أؤمن به لنفسي، بألّا يضايقني أحد، ولكن لأنه يبدو لي أنَّ ثمة من الشرور الطبيعية ما يُغْني عن المزيد من الشرّ الذي نضيفه إليها. إننا جميعاً نعيش في هذا العالم، على ظهر سفينةٍ أقلعت من ميناء نجهله صوب ميناء لا نعرف عنه أيّ شيء؛ ينبغي أن نمتلك الواحد منا تجاه الآخر القدر الضروري من اللطافة التي يستلزمها السفر. الأمر الثاني هو ألّا أُسْدي خيراً لأحد، لأنني لا أعرف ما هو الخير، ولا إن كنت أفعله عندما يبدو لي أنني أفعله. هل أعرف كم من أضرار أقترف إذ أمنح

صدقة؟ هل أعرف أنا كم من أضرارٍ ألحق بالغير إذ أربّي أو أعلّم؟ في الشّك، أحبس نفسي. ويبدو لي، بالإضافة إلى ذلك أنَّ المساعدة أو التوضيح الممكن تقديمُهما للغير، هما، بمعنى من المعاني، اقترافٌ للشر بالتدخّل في حياة هؤلاء الغير. إنَّ الطيبة هي محضُ نزوةٍ مزاجية: لا يحق لنا أن نجعل من الآخرين ضحايا لنزواتنا، ولو كانت نزوات تفيض إنسانيةً وحنواً. المنافع أشياء تفرض فرضاً؛ كذلك أمقتها ببرود.

إنْ لم أفعل الخير للغير بدافع الأخلاق، فأنا كذلك لا أطلب أن يفعل ذلك بي. إنْ وقعتُ مريضاً، فإنّ أثقل ما يثقل عليّ هو أن أجبر أحداً على الاعتناء بي، الأمر الذي أمقت أن أتولى القيام به نحو الغير. لم يسبق لي أن زرتُ صديقاً مريضاً قط.

في حالات العيادات التي تلقيتها أثناء مرضي، أحسستُ دائماً بكل زيارة بمثابة إزعاج، شتيمة، اغتصاب غير مبررٍ لحميميتي الخاصة. لا أحبّ أن أوهب أيّ شيء؛ يبدو أنَّ ذلك، يجبرني على أن أقوم بالردّ بالمثل...

إنني شخصٌ اجتماعي بطريقةٍ موغلة في السلبية، إنني اللاإذاية مجسّدة بالكامل. لكنني لست بأكثر من ذلك، لا أريد أن أكون أكثر من ذلك، لا أستطيع أن أكون أكثر من ذلك. لديّ تجاه كلّ ما هو موجود نوع من الحنوّ البصريّ، حبٌّ نابع من الذكاء، لا شيء في القلب. ليس لدي إيمانٌ بشيء، ولا أمل في شيء، ولا نزوع إحسانيّ نحو أيّ شيء. أكره حدّ الغثيان والإغماء كلّ المخلصين وكل أنواع الإخلاص والنساك وكل أنواع النسك، أو قبل ذلك بالأحرى، إخلاصات كلّ المخلصين، ونسكيات كل النساك. وذلك الغثيان يغدو فيزيقياً عندي تقريباً حالما يتعلق الأمر بنساكٍ نشطين في

ساحة الفعل، عندما يسعون إلى استمالة ذكاء الغير، وتحريك إرادة الآخرين، أو العثور على الحقيقة أو إصلاح العالم.

أعتبرني سعيداً لأنني بلا أقرباء اليوم. هكذا تخلّصت من الواجب الثقيل المتمثل في ضرورة محبّة الغير. لا اشتياقات لديّ إلّا أدبياً. أتذكّر طفولتي بالدموع، لكن بدموعٍ مُموسقة، فيها يتهيأ النثر الآن للانكتاب. أتذكرها كشيءٍ خارجيّ ومن خلال أشياء خارجية؛ أتذكر فحسب الأشياء الخارجية. ليس هدوء السهرات الليلية ما يبعث فيّ مشاعر التأثر تجاه الطفولة التي عشتها في تلك السهرات، بل نظام مائدة الشاي، أكداس الأثاث في المنزل، الوجوه والحركات الفيزيقية للأشخاص. الحنين الذي لديّ هو حنينٌ للوحات. لذلك تؤثر فيَّ طفولتي كثيراً مثل طفولة أيّ شخصٍ آخر: كلتاهما تنتمي إلى الماضي الذي لا أعرف ما هو، كلتاهما ظاهرتان بصريتان خالصتان أحسّهما بالتنبه الأدبي. أتأثر، نعم، أتأثر، لكن ليس لأنني أتذكر، وإنما لأنني أرى.

لم أحبّ أحداً قط. ما أحببته أكثر من سواه هو أحاسيسي الخاصة - أوضاعٌ تأثريةٌ واعية، انطباعات سمع مستيقظ، عطورٌ هي في الواقع طريقةٌ لجعل إنسانية العالم الخارجي تتحدث إليّ، تحدثني عن أشياء من الماضي (من السهل تذكرها بالروائح) - أي، بمنحي ذاتي، واقعية وعاطفية أكثر ممّا للخبز المطهوّ هنالك داخل المخبزة الغائرة، مثل ذلك المساء البعيد الذي عدت فيه من جنازة خالي، الذي كان يحبني كثيراً، وأنا أحسّ بتحسّنٍ حانٍ لم أدرِ مِمَّ.

هذه هي أخلاقي، أو ميتافيزيقاي أو أناي: عابر سبيل بالنّسبة إلى كلّ شيء أنا - حتى بالنسبة إلى روحي ذاتها - لا أنتمي إلى أي شيء، لا أشتهي شيئاً، لستُ بشيء: مركزٌ مجرّد لأحاسيس

لاشخصية، مرآة هَوَت حاسّةً صوب تنوع العالم. بهذا لا أدري إن كنتُ سعيداً أم شقياً؛ ولا حتى ذلك يهمني[1].

1931-9-18

نفسانيتي

أحياناً كثيرة ألجأ كيما أسلي نفسي - لأنه لا شيء يبعث على التسلية مثل العلوم، أو الأشياء ذات النكهة العلمية مستخدمة لأغراضٍ تافهة - بطريقةٍ وسواسية إلى دراسة نفسانيتي من خلال الشكل الذي يتصرف به الآخرون معي من خلالها. إنَّ المُتعة الناجمة عن هذا التكتيك العقيم والمؤلمة أحياناً، نادراً ما سببت لي الحزن.

أحاول، على العموم، دراسة الانطباع الذي أُحدِثُه لدى الآخرين، مستخلصاً ما ينبغي من نتائج.

إنني، عموماً، مخلوقٌ يستلطفه الآخرون، يستلطفونه، حتى باحترامٍ غامض ومستطلع، لكن اللطافة التي أبتعثها لديهم عارية من القوة والإثارة. ما من أحدٍ سيغدو صديقي بشكلٍ حقيقي. لذلك بإمكان الكثيرين معاملتي باحترام.

ليس بدافع الطيبة

لاختبار آلامي الخاصة، أوظف الحزن الغيري وذلك الخبث الملتبس الذي يجعل آلام الآخرين تدخل الفرح على القلب الإنساني. وأحملهما بعيداً لأستمتع بهما كما لو كنت آخر، كلما أحسستني بائساً أو مثيراً للهزء، ويحدث أحياناً بواسطة تحوّلٍ في

(1) نشر هذا المقطع في: *Descobrimento*, revista de cultura, no 3, 1931.

الأحاسيس شاذ وغرائبي، ألّا أحسّ ذلك الفرح الخبيث والإنساني جداً تجاه آلام الغير، تجاه مسخراتهم وسفالتهم، لا يعتريني الإحساس بالألم، وإنما بانزعاجٍ إستيتيقي وبغضبٍ ملتبس. ليس بدافع الطيبة، ولكن لأنَّ من يتحول إلى مسخرة لا يغدو كذلك فقط بالنسبة إليّ وإنما بالنسبة إلى الآخرين أيضاً، وأنا يغيظني أن يصبح أيٌّ كان مسخرة بالنسبة إلى الغير، يؤلمني أن يضحك أيّ حيوان من النوع الإنسانيّ على حساب حيوانٍ آخر، لكن لا يغيظني أن يضحك الآخرون على حسابي، لأن ثمة احتقاراً عميقاً ومصفَّحاً من داخلي صوب ما هو خارجيّ.

لقد وضعتُ حواجز مشبَّكة عالية جداً، أشدّ مناعةً من أيّ سور، لتسييج حديقة كينونتي، على نحوٍ يتيح لي مراقبة الغير بطريقةٍ مضبوطة، مُقصياً إياهم تماماً ومُبقياً آخرين سواهم.

اختيار صيغٍ لتفادي الفعل، شكَّل دوماً موضع عنايتي ووسواس حياتي.

لا أخضع للنظام ولا للرجال: أقاوم بخمود. النظام بإمكانه فقط أن يحتاج إليّ في فعلٍ من الأفعال. وما دمت لا أقوم بشيء، فلا شيء بمقدوره انتزاعه مني. اليوم لم تعُد الأنظمة تُمارس القتل، وبالكاد بإمكانها مضايقتي؛ إذا كان هذا هو ما يحدث اليوم، فعليّ أن أحضن روحي أكثر وأن أعيش بعيداً جداً داخل أحلامي، لكن هذا لم يحدث قط. لم يحدث أن ضايقني النظام البتة. أعتقد أنَّ الحظ أحسَنَ التصرّف.

عشتُ مُنعزلاً

لقد امتلكت نوعاً من الموهبة لأجل الصداقة، لكنني لم أمتلك أبداً أصدقاء، لأنهم ينقصونني، ولأن الصداقة التي تصوّرتها كانت خطأً من أحلامي، لقد عشتُ منعزلاً على الدوام، وكلما كنت أكثر عزلة امتلكتُ وعياً أكبر بذاتي.

(يومياتٌ ثاقبة)

حياتي، تراجيديا فاشلة تحت وطأة الآلهة، ولم يتمّ تشخيص سوى الفصل الأول منها.

أصدقاء، لا أحد. فقط بعض المعارف الذين يعتقدون أنهم يعاملونني بلطف والذين قد يحسّون ربما بالشفقة إذا ما دهسني قطار وتمَّ دفني في يومٍ ممطر.

النتيجة الطبيعية لابتعادي عن الحياة كانت هي اعتقادي أنَّ الآخرين عاجزون عن الإحساس بما أحسّ.

ثمة هالةٌ من برود تلفّني، هالة من ثلج تصدّ الغير عني. لم أتوصل بعد إلى عدم المعاناة من عزلتي. لَكَم هو عسيرٌ الوصول إلى ذلك الامتياز الروحي الذي يحوِّل العزلة إلى استراحةٍ بلا غمّ ولا معاناة.

لم أقبل بالصداقات التي عرضت عليّ، وما كنت لأقبل بالحب لو عرض عليّ، وهو ما لن يحدث أبداً. بالرغم من أنني لم أمتلك البتة أوهاماً بخصوص ما كان يقوله عني أصدقائي، فقد عانيت دائماً من خيبة الأمل معهم: لَكَمْ هو معقّدٌ ومرهف قَدَرُ معاناتي. لم أشك قط في غدر الجميع بي؛ وأنا مندهشٌ دائماً، مع ذلك، من كونهم

غدروا بي فعلاً. كل ما كان متوقعاً حصوله بالنسبة إليّ بدا غير متوقّع لدى حدوثه.

ولأنني لم أكتشف البتة فيّ مزايا تجذب أحداً، لم أستطع إطلاقاً تخيّل أحد يحسّ بالانجذاب إليّ...

لا أستطيع تصوّر أن أكون موضع تقدير بسبب الشفقة، لأنني وإن كنتُ من الناحية الفيزيقية أخرق وغير مقبول الخلقة، فإنني لا أمتلك ذلك القدر من التقبض العضوي الذي يُدخلني في فلك شفقة الغير، ولا تلك الظرافة التي يستولدها عندما لا تكون مستحقّة بجلاء؛ وما يستحق الشفقة لدي، ليس بإمكانه الحصول عليها، لأنه لا وجود لشفقةٍ من أيٍّ نوعٍ نحو معطوبي الروح. وبذلك وقعت في ذلك الفخ الخطير: فخ الاحتقار اللامرئي للغير محفوفاً بلطافة لا أحد.

كلّ حياتي كانت رغبةً في أن أتكيّف مع هذا بدون أن أحسّ بإفراطِ بِنُيُوْءَته وخساسته.

من اللازم توفر قدرٍ من الشجاعة الفكرية لكي يعترف الفرد، أي فرد، ببسالة بأنه لا يعدو أن يكون خرقةً إنسانية، جهيضاً على قيد الحياة، مجنوناً لا يزال خارج حدود الجواني، لكن لا مناص مع ذلك من روحيةٍ أكبر لخلق تكيّفٍ صحيح مع المصير الشخصي، والقبول وبدون تمرّد ولا استكانة، بدون أيّ حركة، ولا نية حركة، باللعنة العضوية التي فرضتها عليّ الطبيعة. أن أرغب في عدم معاناة هذا كلّه معناه أن أرغب في الكثير. لأنَّ الإنسان لا يسعه قبول الشّر، معتبراً إياه خيراً، ومسمياً إياه خيراً؛ فبقبوله به كشرّ ليس بإمكانه ألا يتألّم من جراء كونه شراً.

مصيبتي كانت هي الإدراك من الخارج، خارج الذات: مصيبتي

كانت هي سعادتي. لقد رأيت كيف يراني الغير، فاحتقرت نفسي، ليس لأنني تعرفت فيّ على مزايا أستحقّ الاحتقار بسببها، ولكن لأنني تحوّلت إلى رؤية نفسي كما يراني الغير فأحسستُ باحتقارٍ مماثلٍ لذلك الذي يحسُّونه نحوي. لقد عانيت من إذلال معرفتي بي. ولأن هذا العذاب خالٍ من النبل ولن يعقبه نشور، لذلك لم أتمكّن سوى من المعاناة وحدها مع الخساسة القصوى لهذا كلّه.

لقد أدركت أنَّ من المستحيل أن يحبني أحد، ليس بسبب الافتقار إلى الحسّ الجماليّ، ولكن لأن استلطافهم لي لم يَعْدُ أن يكون نزوة مبالاة من الغير بي.

أن ننظُر إلى أنفسنا جيداً وإلى كيف ينظر الغير إلينا؛ أن ننظر إلى هذه الحقيقة وجهاً لوجه! وفي النهاية، صرخة يسوعٍ في الجلجلة، عندما رأى، وجهاً لوجه، حقيقته هو: إلهي، إلهي، لماذا تخلّيتَ عني[1]؟

في كلّ جهات الحياة

في كلّ جهات الحياة، في كلّ الأوضاع والمعايشات، اعتُبرت دخيلاً من قِبَل الجميع. أو على الأقل اعتبرت شاذاً على الدوام. ودائماً بين الأقارب مثلما وسط المعارف عوملت كما لو كنت أجنبياً. لا أقول إنني كنت كذلك عن قصد ولو لمرةٍ واحدة، وإنما كنت كذلك على الدوام بسبب موقفٍ تلقائي من أمزجة الغير.

---

(1) نُشر هذا النص في مجلة *Mensagem* عدد 1، أبريل 1938، بعد ثلاث سنوات تقريباً من وفاة بيسوا (30 نوفمبر 1935) منسوباً خطأً إلى النديد: فيسنتي غيدس (Vicente Guedes).

لقد عوملت بلطافة، في جميع الجهات ومن طرف الجميع. . . لكن اللطافة التي عوملتُ بها كانت دائماً خاليةً من المودة. بالنسبة إلى مَن هم أكثر حميميةٍ اعتُبرتُ دائماً بمثابة ضيف، عومل معاملةً طيبة لأنه ضيف، ولكن دائماً بالاهتمام المُعار للغريب وبانعدام المودة المستحقّ للدخيل.

لا أشكّ في أنَّ هذا كله ممّا يتصل بموقف الغير مشتقٌّ أساساً من باعث/ جوهري/ يخص مزاجي الخاص. إنني بسبب برودة تواصلي أجبر الآخرين لاإرادياً على تأمُّل طينتي القليلة الإحساس.

. . . لطافات الغير تتأخر في القدوم، وإنْ قَدِمَتْ فقليلاً ما تدوم. أما المودات فلا تصل البتة. الإهداءات لا عهد لي بها أبداً. أمّا الحب فقد بدا دائماً بالنسبة إليّ مستحيلاً. . .

لا أدري إن كنت أعاني هذا، إن كنت أقبل به كقدرٍ لا مبالٍ لا ينبغي معه لا المعاناة ولا/ التقبل/.

دائماً كنت تواقاً إلى أن أحظى بالإعجاب. دائماً آلمتني لا مبالاة الغير. باعتباري يتيماً من يتامى الحظ، أمتلك، مثل كل اليتامى، الحاجة إلى أن أكون موضوعاً لمودة أحدٍ ما.

لقد عانيتُ دوماً من جوع تحقيق هذه الحاجة. ولطالما كيَّفتُ نفسي مع ذلك الجوع اللامُجدي الذي لا أدري أحياناً إنْ كنتُ أحسّ معه بالحاجة إلى الأكل.

بهذا أو بدونه، تؤلمني الحياة.

الآخرون لديهم من يكرّس نفسه لهم. أنا لم أحظَ البتة حتى بمن فكَّر في تكريس نفسه لي. . .

أعترفُ بقدرتي على استثارة الاحترام، لا المودّة. وللأسف

الشديد، لم أقُم بأيّ شيء لتبرير ذلك الاحترام الأولي ممّن أحسّ لأنه لن يصل أبداً إلى احترامي حقاً.

أفكّر أحياناً أنني أرغب في المُعاناة. لكنني، في الحقيقة، أفضّل شيئاً آخر.

لا أملك مزايا الرئيس ولا مزايا التابع. لا أملك لا هذه المزايا ولا تلك النقيضة لها.

ثمَّة آخرون، أقلّ ذكاءً مني، أقوى مني بكثير.

ينظمون حياتهم بشكل أفضل بين الناس؛ يديرون بمهارةٍ أكبر ذكاءهم. أملك كلّ المزايا الضرورية للتأثير في الآخرين، ما عدا فنّ ممارسة ذلك التأثير، أو حتى الرغبة في أن أرغب في ذلك.

إذا ما أحببتُ ذات يوم، فلن أكون محبوباً.

حسبي أن أحبّ شيئاً كي يموت. قدري، مع ذلك، لا يملك قوة أن يغدو مميتاً لأجل لا شيء...

1917-9-18

طعمٌ آخر

بالنسبة إلى مَن يعيش في الأحلام، ماذا يمكن أن يمثّل حب امرأةٍ فيّ سوى حلم من الأحلام...

لقد جرَّبتُ العشق مثل شيللي [...] قبل أن يوجد الزمن: لم يكن للحب المؤقّت بالنسبة إليّ طعمٌ آخر سوى تذكّر ذاك الذي افتقدته.

وحدها الفكرة

ليس الحبّ ما يستحقّ العناء، بل ما يحيط بالحبّ. . .

كبت الحبّ يضيء ظواهره بوضوحٍ أكبر من التجربة ذاتها. ثمة بُتُوليات تنطوي على عقلٍ كبير. . . أنْ تمتلك معناه أن تكون مملوكاً، أيّ أن تفقد ذاتك. وحدها الفكرة تصل، بدون أنْ يلحقها فساد، إلى معرفة الواقع.

النَّظر والسَّمع

أنْ تتصفى، لا لكي تغدو نبيلاً، ولا قوياً، وإنما فقط لتكون ذاتك أنت.

أن تتنازل عن الحياة حتى لا تتنازل عن ذاتك نفسها. المرأة، منبعٌ جيد للأحلام. لا تمَسَسْها أبداً. تعلَّم فصل الأفكار عن الشَّهوة واللذة. تعلَّم أن تستمتع في كل شيءٍ بما تستثيره من أفكارٍ وأحلام. ذلك لأنه ما من شيءٍ هو ما هو: الأحلام دائماً هي الأحلام. لذلك أنت بحاجةٍ إلى عدم المساس بأيّ شيء. حلمك لو مسسته يموت؛ الموضوع الممسوس سيحتلّ إحساسك.

النَّظر والسَّمع هنا الشيئان الوحيدان النبيلان اللذان تحويهما الحياة. الحواس المتبقية عاميةٌ وجسدية. الأرستقراطية الوحيدة تتمثَّل في عدم لمس الأشياء بتاتاً، ألّا تقترب من الأشياء: ذلك هو الموقف الأنبل.

الحُبّ الرومانطيقيّ

كلّ شخصٍ ينتمي إلى هذا العصر بدون أن يكون قزماً أو قروياً على مستوى الأخلاق أو الفكر، لا يحبّ عندما يحبّ إلّا على النمط

الرومانطيقيّ. الحبّ الرومانطيقي هو نتاجٌ متطرّف لقرونٍ متعاقبة من التأثير المسيحيّ؛ وسواء بالنظر إلى جوهره، أو إلى تتابع تطوره، يمكن أن يفهم بالنسبة إلى، من لا يدركه مقارناً إياه بثوبٍ، أو بدلة، بكون الروح أو الخيال قد صنعاه كي ترتديه المخلوقات. . .

لكن البدلة، أيّ بدلة - لأنها ليست خالدة - تدوم ما قُدِّر لها أن تدوم؛ وبعد مدّةٍ وجيزة، تحت ثوب المثاليّ الذي نشكّله والذي يتلاشى بسرعة، ينبعث الجسد الواقعي للشخص الإنسانيّ الذي نلبسه إياه.

الحبّ الرومانطيقيّ، إذن، طريقٌ لانجلاء الأوهام. وهو لا يكون كذلك إلا عندما يقرّر الإحساس بانجلاء الأوهام، متقبِّلاً منذ البداية، أن يغيّر المثال، أن ينسج باستمرار، في ورشات الروح، بدلات جديدة يتجدد بها استمرار مظهر الكائن الذي يرتديها.

ضجيجٌ معقَّد

أمضيت يومين أو ثلاثة أيام فيما يشبه بداية الحبّ. . .

أن أتقدَّم في المسار نفسه معناه الدّخول في المجال المغناطيسي حيث تبدأ الغيرة، التهيّج. في قاعة الانتظار العاطفية هذه توجد كلّ نعومة الحبّ بدون عمق تجربته - متعةٌ خفيفة، إذن، عطر رغباتٍ مبهم؛ إذا كانت العظمة الكامنة في تراجيديا الحبّ تبقى بهذا بعيدة المنال، فإنَّ ما ينبغي الانتباه إليه بالنسبة إلى عالم الجمال هو أنَّ التراجيديات أشياءٌ جديرة بالملاحظة، لكن تجربتها مزعجة. إنَّ ما تزرعه المخيّلة ذاتها منتهكٌ دوماً بما تزرعه الحياة.

أخيراً، سيفرحني لو توصّلت إلى إقناع نفسي بأنَّ هذه النظرية ليست هي ما هي، ضجيجٌ معقَّد أبثّه في مسمع ذكائي، تقريباً لأجل

ألّا أعير انتباهي إلى أنه ليس ثمة في العمق من شيء سوى كآبتي وعدم أهليتي للحياة.

(نهر التّملّك)

كوننا جميعاً مختلفين هي بديهيةٌ من بديهيات طبيعتنا. نبدو من بعيد فقط، إذن، بأننا لسنا نحن. الحياة موجودةٌ، لذلك، من أجل غير المعينين؛ فقط يمكن إذ لا يمكن أن يتساكن ويتعايش سوى أولئك الذين لا يمكن أبداً تعريفهم وهم/ لا أحد/ .

كلُّ واحدٍ منا عبارةٌ عن اثنين، وعندما يلتقي شخصان، يتقاربان، ويتّحدان، من النادر أن يتمكَّن الأربعة من أن يكونوا متفقين، إذا كان الشخص الحالم داخل كلّ شخصٍ عمليّ في حالة خصامٍ متكرّرة مع الشخص العملي الفاعل، فكيف لا يكون على خصامٍ دائم مع الشخص العملي والشخص الحالم في الآخر؟

نحنُ عبارةٌ عن قوى لأننا حيوات. كلُّ واحدٍ منا يتمدَّد نحو ذاته نفسها بِسُلَّمٍ في الآخرين. إذا كنا نملك تجاه أنفسنا الاحترام لكوننا ذوي أهميّة، [. . .] كلّ اقترابٍ هو بمثابة حرب. الآخر هو الحاجز دائماً بالنسبة إلى ذاك الذي عنه يبحث. مَن ليس يبحث عن شيء هو وحده السعيد؛ إذ وحده الذي لا يبحث يجد. لأنَّ عدم بحثه يعني أنه يمتلك ما يجعله سعيداً (كما أنَّ عدم التفكير هو الجانب الأفضل من امتلاك الغنى).

أنظرُ إليكِ، بداخلي، أيتها الخليلة المفترضة، وقد اختلفنا قبل أن توجدي. عادة الحلم بوضوح لدي تمدّني بمفهومٍ مضبوط عن الواقع. من يحلم بإفراط يحتاج إلى أن يمنح واقعيةً معيّنةً للحلم. من يمنح الواقعية للحلم عليه أن يمنح هذا الحلم التوازن الذي يميز

الواقع. من يمنح الحلم توازن الواقع يعاني من واقعية الحلم مثلما من واقعية الحياة (ومِن لا واقعية الحلم جنباً إلى جنب مع واقعية الإحساس بالحياة الواقعية).

إنني بانتظارك، في هذيانٍ من هذيانات غرفتنا ذات البابين، وأحلم بك آتية وفي حلمي تدخلين إليّ من الباب الأيمن؛ إذا كنت عندما تدخلين من الباب الواقع يساراً، ففي ذلك ما يدلّ على وجود اختلافٍ بينك وبين حلمي. كلّ المأساة الإنسانية تكمن في هذا المثال الصغير عن كيف أن أولئك الذين نشاطرهم التفكير ليسوا هم أولئك الذين نفكر فيهم.

في الاختلافات يفقد الحب الهوية... الحب يبغي التملك، يبغي أن يضمّ إلى ملكيته ما ينبغي أن يبقى خارج أي تملك... أن تحب معناه أن تسلم ذاتك لمن تحب. كلما كان الاستسلام أكبر، يكبر الحبّ، لكن التسليم الكامل إنما هو أيضاً تنازلٌ كامل للآخر.. لذلك كان الحبّ هو الموت، أو النسيان، أو التنازل. [...]

في سطيحة القصر القديمة، المشيّدة على البحر، سوف نتأمّل في سكون الاختلاف القائم بيننا. أنا كنت أميراً، وأنت أميرة، في السطيحة المُقامة عند شاطئ البحر. حبنا ولد من لقائنا، مثلما ولد الجمال من لقاء القمر مع المياه.

الحبّ يبغي التّملّك، لكنه لا يعرف ما هو التملّك. إذا لم أكن أنا ملك ذاتي فكيف سأكون لك أو تكونين لي؟ إن كنت لا أملك كينونتي الخاصة، فكيف لي أن أمتلك كينونةً غيرية؟ إذا كنت مختلفاً مع ذلك الذي أنا تامّ التطابق معه فمن أين لي أن أكون متطابقاً تماماً مع ذلك الذي أنا مختلفٌ عنه؟

الحبّ صوفيةٌ تتمرن على مستحيلٍ لا يصبح الحلم به حقيقةً إلّا عندما يكون متحققاً بالفعل.

ميتافيزيقيٌّ هو الحب، لكن الحياة كلها ميتافيزيقا ملغّزة، بضوضاء الآلهة مع الجهل بالهزيمة كطريقٍ وحيد.

أسوأ مكر يلحقه بي/ انحطاطي/ هو عشقي للنوستالجيا وللوضوح. لقد اعتقدتُ دائماً بأنّ ما يملكه عابرٌ شاب من جمال ومن إيقاعٍ سعيد يفوق في أهليته كلّ ما يوجد بداخلي من أحلام. وإنني لأتابع أحياناً بفرحٍ نابع من شيخوخةٍ في الروح - بدون حسد ولا أمل - الأزواج الصدفويين الذين تجمعهم العشية وهم يسيرون متأبطين أذرع بعضهم بعضاً نحو الشعور/ اللاوعي للشباب. أستمتع بمرآهم مثلما أستمتع بحقيقةٍ من الحقائق، بدون تفكير فيما إذا كانت تعنيني أو لا تعنيني. لو قارنتهم بي، لاستمررتُ في الاستمتاع بمرآهم، لك على نحو من يستمتع بحقيقةٍ تجرحه، مُضيفاً إلى ألم الجرح الوعي بفهم الآلهة.

إنني نقيض الروحانيين/ الرمزيين/ ، الذين يعتبر كلّ كائنٍ بالنسبة إليهم، ظلاً لواقعٍ هو بذاته ظلّ بالكاد. بالنسبة إليّ كلّ شيء هو نقطة إقلاع بدلاً من أن يكون نقطة وصول. بالنسبة إلى عالم الباطن الكلّ ينتهي في الكلّ؛ أما بالنسبة إليّ فالكل يبدأ في الكلّ. أنا مثلهم أتصرّف بوحيٍ من التناظر والإيحاء الباطني، لكن الحديقة السرية التي تلهمهم النظّام وجمال الروح، لا تذكّرني سوى بالحديقة العليا حيث يمكن أن تكون، بعيداً عن الناس، تلك الحياة السعيدة التي لا يمكنني أن أكونها. كلّ شيء يوحي إليّ، لا بواقع.

ابتسامة

«أحبك فقط كحلمٍ واحد»، يقولون للمرأة المحبوبة، في أشعار لا يبعثون بها أبداً إليها، أولئك الذين لا يجسرون على أن يقولوا لها شيئاً. هذه الـ«أحبك فقط لحلمٍ واحد، لمجرّد واحد» هي بيتٌ من قصيدةٍ قديمةٍ لي. أدوّن تذكري بابتسامة، ولا أعلّق بشيء حتى بالابتسامة.

دائماً

أشكالُ الودِّ كلُّها سطحيةٌ لديّ، لكن عن صدق. لقد كنت ممثلاً على الدوام، وبجدية. دائماً كلما أحببت، تظاهرت بأنني أحببت، ولنفسي أنا تظاهرتُ بالحبّ.

رسالة لن تصل

أختبرها لدى مثولها في فكرتي بذاتها.

حياتها (. . .)

هذا ليس بحبي أنا؛ هذه حياتها هي فقط.

أحبها كما أحبّ الغروب أو ضوء القمر، مع الرغبة في أن تدوم اللحظة، لكن بدون أنْ تمثّل لي أكثر من الإحساس بامتلاك اللحظة.

لو

لو أنَّ حياتنا كانت وجوداً دائماً أمام النافذة، لو هكذا مكثنا، مثل دخانٍ ساكن، ممتلكين دوماً لحظة الشفق نفسها موجعاً منعرج الجبال، لو بقينا هكذا، دائماً، بل أبعد من الديمومة! لو أمكننا، بالأقل، من هذه الجهة من المستحيل، أن نظلَّ هكذا، بدون أن

نقترف أي فعل، بدون أن تقترف شفاهنا الذاوية المزيد من الكلمات!

أنظر كيف الأفق يزداد قتامة!... الهدوء/ الواضح/ لكل شيء يملؤني حنقاً، يملؤني بشيء هو المرارة الموجودة في طعم الإلهام. تؤلمني الروح... لطخة بطيئة من دخان تتصاعد لتتبدد هنالك في البعيد... ضجر قلقٍ يحملني على عدم التفكير فيك...

يا لعدم جدوى الكلّ، نحن والعالم والسرّ الكامن في كلينا!

أنتيروس[1]
(العاشق المرئيّ)

لديَّ تصوّرٌ سطحيّ وتزييني لا أكثر عن الحب العميق واستخدامه النافع. إنني منذورٌ للأهواء البصرية. أحتفظ بالقلب موفوراً مكرساً لأكثر المقاصد لاواقعية.

لا أذكر أنني أحببت سوى «اللوحة» الخارجية الخالصة لأحدٍ ما - حيث دور الروح مقصورٌ فحسب على جعل ذلك الخارجي حركياً وحياً - وهي بهذا مختلفة، عن اللوحات التي يرسمها الرسامون.

هكذا أعشق صورة امرأةٍ أو رجل، لجمالها أو لجاذبيتها، أو لنبلها - بدونما رغبة أو تفضيل جنسٍ على آخر - وتلك الصورة تبهرني، تأسرني، تستولي عليّ. غير أنني لا أريد أكثر من أن أراها، ولا [...] لصعوبة الوصول إلى معرفة ومحادثة الشخص الواقعي الذي تبرزه تلك الصورة في الظاهر.

---

(1) أنتيروس: هو أخ إيروس في الأساطير الإغريقية. كان رمزاً للحب المُتبادل.

أعشق بالنظر، لا بالتخيل. إذ لاشيء أتخيله بخصوص تلك الصورة التي تأسرني [...] لا يعنيني أن أعرف من يكون، وماذا يعمل، وماذا يفكر ذلك المخلوق الذي يمنحني - لكي أراه - مظهره الخارجيّ.

إنَّ التنوّع اللامحدود للأشخاص والأشياء التي يتكون منها العالم بالنسبة إليّ هو معرض صورٍ لانهائي، لا تعنيني البتة بواطنه. لا تعنيني لأن الروح هي دائماً نفسها في كلّ مكان؛ تمظهراتها الشخصية هي المختلفة بالكاد، وأحسن ما فيها هو ما يدفع صوب الحلم، صوب الأشكال والإشارات، وبهذا تدخل في الصورة التي تأسرني [...].

هكذا أحيا، بالنظر الخالص، الخارج المنشِّط للأشياء والكائنات، لا مبالياً، مثل إله عالمٍ آخر، بالمحتوى: بجوهرهم هم. أتعمق الكينونة الخاصة في تمدُّدها، وعندما أنشد العمق، ففي ذاتي وفي تصوري للأشياء أبحث عنه. ماذا يمكن أن تمنحنيه المعرفة الشخصية بالمخلوق الذي أحبه هكذا مثل ديكور؟ خيبة الأمل؟ كلا، إذ ما دمت أعشق فيه المظهر وحده بدون أيِّ استيهامات، فإن بلادته أو تواضعه لا يسلباني شيئاً، لأنني لم أتوقع شيئاً سوى المظهر الذي لم يكن عليّ توقعه، لكن المعرفة الشخصية ضارة لأنها لامُجدية، والمادي اللامجدي ضار على الدوام. ليس من الضروري أن أعرف اسم المخلوقة حتى عندما أكون بصدد تقديم نفسي لها[1].

المعرفة الشخصية تستلزم أن تكون لي أيضاً، حرية التأمل التي

---

(1) حوَّلت الصيغة الاستفهامية الإنكارية للجملة في الأصل إلى صيغة إثبات تيسيراً للفهم.

تبتغيها نوعية عشقي. ليس بمقدورنا أن ننظر ونتأمل في حرية مَن نعرفه معرفةً شخصية.

إنَّ قدري الطبيعي باعتباري متأمِّلاً غير محدد وعاشقاً لتمظهرات الأشياء - موضِّعاً للأحلام، عاشقاً بصرياً لأشكال ومظاهر الطبيعة - ليس حادثاً من تلك الحوادث التي يسميها الأطباء النفسانيون الاستمناء النفسي، ولا هو ممّا يدعونه الشبق. أنا لا أمارس التخيّل، كما في الاستمناء النفسي؛ لا ترتسم في أحلامي أي صورةٍ محسوسة للمعشوقة التي أراها أو أتذكرها: لا أتخيل لها أي شيء، وخلافاً للعشاق المجانين الذين يؤمثلون معشوقتهم وينقلونها خارج دائرة الإستيتيقا المحددة: لا أريد شيئاً ممّن أعشق، ولا أتصور عنها ما يزيد عمّا يمنحنيه مَرْآه للعينين وللذاكرة المباشرة والخالصة.

(رسالة)

منذ شهورٍ عديدة وأنا أدمن النظر إليها بثبات، بالنظرة المرتبكة والودود نفسها دائماً. أعلم أنها انتبهت للأمر. وإذاً فلابد أن يبدو لها غريباً كون تلك النظرة، لعدم خلوها تماماً من الخجل، لا تفترُّ أبداً عن أيّ معنى.

متيقظة دائماً، غامضة كما لو كانت مسرورة بكونها فحسب تعبيراً عن كآبة ذلك... لا أكثر... وداخل تفكيرها هي في ذلك - مهما كان الإحساس الذي صاحب تفكيرها فيّ - ينبغي أن تكون قد تفحَّصت جيداً نواياي الممكنة. لا بد أنها قد فسرت لنفسها، بدون ارتياح، بأنني خجولٌ من طينةٍ خاصة وأصيلة، أو من أي شاكلةٍ لها صلة مصاهرةٍ بالجنون.

أنا، يا سيدتي، لست، أثناء النظر إليك، لا بالخجول تماماً،

ولا بالمجنون حقاً. إنني شيءٌ مختلف، كما سأعرض لك بدون أملٍ في أن تعتقدي بما أقول. كم مرات تمتمت لكينونتك التي أحلم بها: قومي بواجبك كخابيةٍ لامجدية، كقدحٍ خالص.

في غمرة شوقي للمثال الذي أحببتُ تكوينه عنك، تنبهت إلى أنك كنت متزوجة! اليوم الذي اكتشفتُ فيه هذا كان يوماً تراجيدياً في حياتي. لم أمتلك أيّ شعور بالغيرة نحو زوجك. لم أفكّر قط فيما لو كنت أمتلك هذا الشعور. لقد امتلكت ببساطةٍ اشتياقاً لفكرتي عن حضرتك. لو عرفت ذات يوم هذا اللامعقول: أنَّ امرأةً في لوحةٍ كانت متزوجة، فسيكون ذلك بالذات مصدر ألمي.

أوَأريد أن أضاجعها؟ أنا لا أعرف كيف يُفعل ذلك. وبالرغم من أنني قد أكون قد بُليتُ بالوصمة الإنسانية لمعرفة ذلك، فكم سيكون مخزياً أن أفكر ولو في مساواتي بزوجها!

أن أضاجعها؟ ذات يوم لو مرَّت بمفردها عبر شارعٍ معتم، سيكون بإمكان أيّ معترضٍ أن يُخضعها ويضاجعها، بل وحتى أن يخصبها تاركاً وراءه وجه خلفه الأخْيَف. إذا كانت مضاجعتها تعني تملّك جسدها، فأيّ قيمةٍ توجد في ذلك؟

ألا أرغب في مضاجعة روحها؟... كيف يقع ذلك؟/ ثم أيمكن أن يوجد شخصٌ حاذقٌ وعاشق يضاجع ذلك «الروح»/ (...). أن يكون زوجها ذلك... أيريد أن أتنزل إلى مستواه؟

كم ساعات أمضيتها في معايشة سريةٍ لفكرتي عن حضرتك! لكم تبادلنا الحب داخل أحلامي! لكن حتى هنالك، أقسم لك لم أحلمني أبداً مضاجعاً إيّاك. إنني رهيفٌ وعفيف حتى في أحلامي. أحترم حتى فكرة امرأةٍ جميلة.

(رسالة)

أنا لم أعرف أبداً كيف أروّض روحي كي تجعل جسدي يضاجع جسدك. إنني لأصطدم، داخل ذاتي، حتى عندما أفكّر في هذا بحواجز لا أراها، وأقع في أشراكٍ لا أعرف ماهيتها. وهو ما لن يحدث لي لو رغبت في مضاجعتها بالفعل!

لأنني - أكرِّر ذلك - سأكون عاجزاً عن محاولة فعل ذلك، وحتى عن تكييف نفسي على الحلم بفعل ذلك.

هذه هي، يا سيدتي، الكلمات التي عليّ أن أكتبها على هامش علامة نظرتك المستفهمة على نحوٍ لاإراديّ. في هذا الكتاب أولاً، ستقرئين هذه الرسالة الموجّهة إلى حضرتك. إذا لم تعلمي أنها موجهةٌ إليك، فسأسلِّم بأن الأمر هكذا. إنني أكتب لأجل أن أتسلى أكثر ممّا لأجل أن أقول لك شيئاً... وحدها الرسائل التجارية تكون لها وجهةٌ محددة. جميع الرسائل الأخرى يجب، على الأقلّ بالنسبة إلى الإنسان الأعلى، أن تكون موجَّهةً فحسب منه وإليه وحده.

ليس لديّ المزيد من القول، أعتقد أنني أنظر إليك بكلّ ما في جعبتي من إعجاب. سيسرّني أن تفكري فيّ أحياناً.

عشيقاتٌ مستحيلات

لقد تلذَّذتُ مرتين بالألم الناجم عن إذلال العشق، حدث ذلك في مراهقتي تلك التي أحسّها بعيدة، حتى لتبدو لي شيئاً مقروءاً، قصّةً حميمةً نسجت لي.

من أعالي الحاضر، ناظراً إلى الوراء، نحو ذلك الماضي الذي لا أعرف تعيينه قريباً كان أم بعيداً، يبدو لي أنَّ تجربة انجلاء الأوهام التي حدثت لي فجأةً كانت نافعةً تماماً.

لم يكن ذلك بشيء، عدا ما حدث لي. في المظهر الخارجيّ للشّأن الباطني فيالق إنسانيّة مرّت من أشكال التعذيب نفسها، لكن (. . .).

لقد امتلكت في وقتٍ مبكّرٍ جداً، بواسطة تجربة حساسيةٍ وذكاء، متزامنة وموحدة، تصوراً عن أنَّ حياة التخيل، مهما بدت سقيمة، هي التي تلائم الأمزجة التي من طينة مزاجي نفسها. إنَّ صور ومشاهد تخيلي يمكن أن تُتعِب لكنها لا تؤلم ولا تُخزي. بالنسبة إلى العشيقات المتخيلات ستبدو لهنَّ الابتسامة المُصطنعة، ألم الحبّ، حيل المداعبات كلها من قبيل المتخيلات. إنهن لا يتخلَّين عنا أبداً، ولا نحن نشعر بأي وجهٍ بحاجتنا إليهن.

مصادفةٌ ماكرة

مرةٌ واحدةٌ فقط كنت محبوباً بالفعل. الملاطفات، تَلَقَّيتُها دوماً ومن الجميع. لم يكن من السهل حتى بالنسبة إلى أكثر الناس عابريةً في الشوارع أن يتعاملوا معي بفظاظة أو حتى بنوعٍ من البرود. بعض الملاطفات التي تلقيتها كان بإمكانها، بمساعدةٍ مني - مرةً واحدة على الأقل - أن تتحول إلى حبٍّ أو ودّ. لم أمتلك البتة الصبر أو الاهتمام من جانب الروح ولو حتى لاستخدام ذلك المجهود الضروري.

في بداية ملاحظتي لهذا الفتور فيَّ اعتقدتُ بوجود داعٍ من دواعي الخجل في روحي. لكنني اكتشفت من بعدُ انتفاء ذلك الداعي؛ كان لدي ضجرٌ في العواطف، مختلف عن الضجر من الحياة، وجزع من الاتصال بأيّ إحساس متّصل، وخاصةً عندما كان يتوجب عليّ أن أضمّ هذا الإحساس إلى مجهودٍ متصلٍ بدوره.

لأجل ماذا؟ كنت أفكّر بداخلي ما لا يفكّر. أملك ما يكفي من نفاذ البصيرة، ما يكفي من الحساسية السيكولوجية لكي أعرف «كيف»؛ أما معرفة «كيف الـ كيف» فقد كانت دائماً تفلت مني. ضعف إرادتي تحوّل دوماً ليغدو ضعفاً في رغبة امتلاك الإرادة. هكذا جرى لي مع العواطف مثلما مع الذكاء، ومع الإرادة ذاتها، ومع كل ما هو حياة.

لكن في تلك المرة التي حملتني فيها مصادفة ماكرة على الاعتقاد بأنني أحببتُ، وعلى التأكد حقاً من أنني كنت محبوباً بدوري، في تلك المرة بقيت أولاً، مرتبكاً ومشدوهاً، كما لو أنني فزت بجائزةٍ سمينة بواسطة عملةٍ غير قابلة للتحويل. بقيت، بعدئذٍ، إذ لا أحد يمكن أن يكون إنسانياً بغير أن يكون كذلك بالفعل، بقيت مزهواً بعض الشيء؛ غير أنَّ هذا الانفعال الذي سيبدو طبيعياً تماماً لم يدُم سوى لحظة وجيزة. بعده حلَّ إحساسٌ يصعب تعريفه، لكن منه برزت بشكلٍ مُفزعٍ مشاعر الضجر، الإذلال والتعب.

أحاسيس الضجر، أجل، كما لو أنَّ القدر ألزمني بمهمة أشغالٍ ليليةٍ مجهولة. الضجر، كما لو أنَّ واجباً جديداً - واجب مبادلةٍ مرعب - قد فرض عليّ من قبل سخرية امتيازٍ مخصوص، لا يزال عليّ أن أعاني من متاعبه بتقديم الشكر للقدر على إنزاله بي. الضجر، أجل، كما لو أنَّ معاناة الرتابة اللاواعية للحياة لم تكن كافيةً لي، حتى أضيفت إليها الآن الرتابة القسرية لإحساسٍ محدد.

وماذا عن الإذلال، أجل، الإذلال. لقد تأخرت في التنبه إلى مصدر إحساسٍ ذي باعث غير مبرّر بما يكفي في الظاهر. الحب كان لا بد من أن يظهر بداخلي ما دمت تنبّهت إلى أنني صرت محبوباً. كان عليّ أن أكون مزهواً لكون إحداهن تحدق بثباتٍ في وجودي ككائنٍ محبوب. بيْد أنني، بمعزلٍ عن اللحظة القصيرة للزهوّ الحقيقي

والذي ما زلت لا أعرف إن كان زهواً بالفعل أم استغراباً - فإنَّ الخزي كان هو الإحساس الذي تلقيته مني. لقد أحسستُ بأنني تلقيت نوعاً من المكافأة موجَّهة إلى آخر - مكافأة، أجل مكافأةٌ قيِّمة لمن يستحقها بالطبع.

لكنه التعب، التعب فوق كل شيء: التعب الذي يتجاوز الضجر، فهمت حينئذٍ عبارة لشاتوبريان دائماً كنت بسبب نقصٍ في التجربة، أظنها من إنشائي. يقول شاتوبريان عن روني بأنه «كان يُتعِبُه أن يصبح محبوباً» On le fatiguait en l'aimant[1]. اكتشفت، مندهشاً، أنَّ هذه العبارة تقدّم تجربةً مطابقةً لتجربتي، ومن ثمَّ لا يمكن لي أن أنكر حقيقتها.

يا لِعَناء أن تكون محبوباً! يا لِعَناء أن تكون موضوعاً لحزمة عواطف الغير! أن تُحوِّل من ينبغي أن يُرى حراً، حراً على الدوام، إلى حمّال مسؤولية الاستجابة لتلك العواطف، مع اللياقة التي تقضي بعدم الوقوف بعيداً، كيما لا يفترض بأنَّ الأمر يتعلّق بتنصّلٍ ممّا ينبغي أن تجود به روح المحبّ؛ عناء تحويلنا لوجودنا إلى شيءٍ متوقفٍ كلية على العلاقة بإحساسٍ غيريّ! عناء أن نمارس الإحساس، حتمياً، وأن نحب، قليلاً، حتمياً، حتى ولو من غير مبادلةٍ من الآخر.

لقد مضى ذلك الحدث العرضي الظلّي مني مثلما جاء. اليوم لم يبقَ منه شيء، لا في ذهني، ولا في عاطفتي. لم يحمل لي أيَّ تجربة لم يكن بإمكاني استمدادها من قوانين الحياة الإنسانية التي بداخلي تُقيم معرفتها الغريزية لأنني إنسان. لم تمنحني ولو متعة واحدة أسترجعها بحزن. لديّ انطباعٌ بأن ما جرى لي يتعلق بشيءٍ

(1) هكذا وردت بالفرنسية في الأصل.

قرأته في مكانٍ ما، حدثٌ طارئ لشخصٍ آخر، روايةٌ قرأت نصفها الأول، بدون أن أشعر بالحاجة إلى قراءة نصفها الثاني - إذ إنَّ ما وقفت عنده كان كافياً، وبالرغم من أنها بذلك بدت مفتقرةً إلى المعنى، فإنه لم يعُد بإمكاني أن أمنح المعنى للجزء الذي كان ينقصني، مهما كان تعقيده.

بالكاد فَضَل لديّ امتنان تجاه مَن أحبتني. بيد أنه امتنانٌ مجرّد، منذهل، صادرٌ عن الذكاء أكثر ممّا عن العاطفة. أشعر بالغمّ لكون أحدهم قد أحسَّ بالحزن بسببي، ولا يوجد ما يبعث فيّ الحزن سوى هذا وحده دون غيره.

لن يكون أمراً طبيعياً أن تقودني الحياة إلى لقاءٍ آخر مع العواطف الطبيعية. أكاد أرغب في تجدُّد هذا اللقاء كي أرى كيف سأحسّ بتلك التجربة الثانية، من بعد مروري بكلّ ذلك التحليل الواسع للتجربة الأولى. محتملٌ أن أحسّ بأقل ممّا أحسست؛ محتملٌ أيضاً أن أحسّ بأكثر ممّا أحسست. لو شاء القدر منحي هذه التجربة، فليمنحها. تجاه العواطف، أحسّ بالفضول. تجاه الأفعال، كيفما كانت، لا أحس بأيّ فضول.

(موتُ الأمير)

لِمَ لا تكون هناك حقيقةٌ أخرى مغايرةٌ كلية (لهذا الواقع)، بدون آلهة، بدون أناس، بدون علل؟ لم لا يكون كلّ شيءٍ شيئاً لا نستطيع حتى تصور عدم تصورنا له؟ لغزاً ينتمي كلية إلى عالم آخر؟ لم لا نكون نحن - أناساً، آلهة وعالَماً - أحلاماً يحلمها أحدٌ ما، أفكاراً يفكرها آخر، موضوعة دائماً خارج ما هو موجود؟ ولم لا يكون ذلك الآخر الذي يحلم أو يفكر أحداً لا يحلم ولا يفكر، فيكون هو نفسه

واحداً من رعية الجحيم أو الخيال؟ لِمَ لا يكون الكلّ شيئاً آخر، ولا شيء، وما ليس بالشيء الوحيد الذي على قيد الوجود؟ في أيّ جهةٍ أنا حيث أرى هذا كشيءٍ يمكن أن يكون؟ على أيّ جسرٍ أمرّ، حيث من تحتي لأنني مفرط العلو، توجد أضواء جميع مدن العالم الآخر وغيوم الحقائق المهشَّمة المداجية التي تطفو من فوق وجميعها جادة كما لو في البحث عمّا يمكن أن يُحتوى؟

لديّ خوفٌ بدون أحلام، وأرى بدون أن أعرف ما أراه. ثمة سهولٌ هائلةٌ محيطة بكل شيء، وأنهارٌ من بعيد، وجبال. . . لكن في الوقت نفسه ليس ثمة شيءٌ من هذا، وأنا في لحظة البداية، بداية الآلهة وبرعبٍ هائلٍ من أن أرحل أو أبقى، ومن أين أقيم وماذا أكون. وهذه الغرفة أيضاً حيث أصيخ لرؤيتك لي هي شيءٌ أعرفه ويبدو أنني أراه؛ وكلّ هذه توجد مجتمعةً، ومنفصلة، وما من واحدةٍ منها لها ما للأخرى التي أراها إن كنت أرى حقاً.

لأجل ماذا أعطوني مملكةً أمتلكها إنْ لم يكن لي الحقّ في امتلاك مملكةٍ أفضل من هذه الساعة التي أنا فيها بين ما لم أكُنْه وما لن أكونه؟

1932-10-5

على شاطئ البحر

خلال ساعاتٍ مجهولة، عشتُ لحظاتٍ متتابعة بدون أيّ علاقة، في النزهة التي ذهبتُ إليها ليلاً على الشاطئ المُنعزل للبحر. كلّ الأفكار التي من أجلها عاش كثيرون، كلّ العواطف التي كفَّ عن معايشتها الناس، مرَّت جميعها بذهني، مثل موجزٍ للتاريخ، في تأملي المبتذل هذا عند شاطئ البحر.

لقد عانيت بداخلي، ومعي، تطلعات الحقب كافة، ومعي تجوّلتْ على شاطئ البحر، طمأنينات الأزمنة كلها. كلّ ما رغب فيه الرجال ولم يحقّقوه، ما اقترفوه من قتلٍ لدى تحقيقه، كلّ ما كانته الأرواح بدون أن يفصح عن كينونتها أحد: من هذا كله تشكّلت الروح الحساسة التي بها تجوّلت ليلاً على شاطئ البحر. وما استغربه العشاق من معشوقيهم، وما أخفته الزوجة على الدوام عن زوجها، وما فكرت به الأم بخصوص الابن الذي لم تمتلكه، وما امتلك الشكل فقط من خلال ابتسامةٍ أو مصادفة، في زمنٍ غير هذا الزمن أو عبر عاطفةٍ يحتاج إليها، كلّ هذا صاحبني وعاد معي في تجوالي على شاطئ البحر.

نحن مَن لسنا بنحن والحياة سريعة وكئيبة، صخب الأمواج في الليل هو من صخب الليل؛ وكم من أناسٍ سمعوه في روحهم ذاتها، مثل الأمل الراسخ الذي يتحطم في الظلام كضجةٍ صمّاء من زبدٍ عميق! كم من دموعٍ سفحها الذين امتلكوه، كم من دموعٍ أضاءها الذين حققوه (الأمل)! وكل هذا، أثناء جولتي على شاطئ البحر، أعاد إليّ غوامض الليل ونجوى الهاوية. يا لكثرتنا! ما أكثر ما ننخدع! أيّ بحارٍ تصطخب فينا، في ليل كينونتنا نحن، عبر الشواطئ التي نستشعرها في فيضانات الانفعال! ذاك الذي أضعناه، ذاك الذي ما كان ينبغي أن نضيعه، ذاك الذي حققناه وابتعث فينا الرضى خطأً، ما أحببناه وفقدناه، وبعدما فقدناه، وجدنا، إذ أحببناه بحُكم امتلاكنا له، أننا لم نحبه حقاً، ما نعتقد أننا نفكر به عندما نحسّ؛ ما كان مجرد ذكرى وحسبناه نحن عاطفة؛ والبحر عبَرَ الكل واصلاً إلى هناك، صاخباً ورطباً، من العمق الهائل لليل كله، ليتهيّج، بِرِقّةٍ في الشاطئ، في المرور الليلي لنزهتي على ضفة البحر...

مَن يعرف حتى ما يفكره، أو مَا يرغب فيه؟ مَن يعرف مَن هو بالنسبة إلى ذاته نفسها؟ كم من أشياء توحي بها الموسيقى ونعرف أنها لا يمكن أن تكون؟ كم من أشياء يذكّرنا بها الليل، فنبكي، بدون أن تكون قد وجدت قط! مثل الصوت المنفرد للسكينة المضطجعة على امتداد الشاطئ، ينفجر التفاف الموجة ثم يهدأ وثمة سيلان لعابٍ مسموع على الشاطئ اللامرئي.

كم أموت إذ أحسّ بكلّ شيء! كم لديّ من إحساسٍ لو هكذا - تسكّعت، لا جسدياً وإنسانياً - بالقلب الساكن مثل شاطئ، وكلّ بحر الكلّ، في الليل الذي نحياه، يخفق عالياً، هازئاً، ثم يهدأ في جولتي الخالدة على شاطئ البحر![1].

رعوية بيدرو

لا أذكر أين رأيتك ولا متى. لا أدري أكان ذلك في لوحةٍ أم في حقلٍ واقعي، بجانب الأشجار والأعشاب المعاصرة للجسد؛ لربما رأيتك في لوحة... لا أدري متى حدث هذا، أم أنه حدث واقعياً - إذ يمكن ألّا أكون قد رأيتك حتى في لوحة - لكنني أعرف بكلّ ما في ذكائي من إحساس أنَّ تلك كانت اللحظة الأكثر طمأنينةً في حياتي.

أتيتِ، بُقَيْرةً خفيفةً، بجانب ثور وديع وضخم، متمهِّلَين عبر الخط العريض للطريق. من بعيد - بدا لي - رأيتك، ووصلتما حتى محاذاتي ثم مررتما. بَدَوْتِ غير منتبهةٍ إلى حضوري. مضيت ببطءٍ

(1) نُشر هذا المقطع في *Presença* عدد 27، يونيو - يوليو 1930، ص 3، موقّعاً باسم فرناندو بيسوا منسوباً إلى برنارد سوارش.

مهتمة ولا مبالية معاً بالثور الكبير. نظرتك فاقدة الذاكرة منطوية كانت على صفاءٍ هائل لحياة الروح؛ وعيك بذاتك كان قد تخلى عنك. في تلك اللحظة لم تكوني بأكثر من (. . .).

حينما رأيتك، تذكرت أنَّ المدن تغيرت بينما البوادي دائماً هي نفسها. إنهم يسمّون الأحجار والجبال توراتية، بالطريقة نفسها التي كانت عليها تلك المنتمية إلى العصور التوراتية.

في الخيال العابر لصورتك المجهولة أستحضر الحقول كافة، وكل السَّكينة التي لم أمتلكها تأتي إلى روحي عندما أفكر فيك. لمشيتك تمايلٌ خفيف، تموّجٌ يتعذَّر تعريفه،/ في كلّ حركةٍ من حركاتك استقرّت فكرة طائر/ - كانت لديك لبلاباتٌ مُتشابكة عند (. . .) لنصفك الأعلى. صمتك. كان المساء قد حلّ، فيما ثغاء قطعان متعبة، يطنطن، عبر المنحدرات/ الشاحبة/ للحظة - صمتك كان أغنية الراعي الأخير الذي، ظلّ بسبب نسيانه في قصيدةٍ رعوية لم يكتبها قط فرجيل، ظلَّ مغتبطاً إلى الأبد، مخلّداً في الحقول، يا شبحي. لربما كنت تبتسمين؛ لأجلك فقط، لأجل روحك، ناظرةً إلى ذاتك في مرآة فكرتك، باسمة. غير أنَّ شفتيك كانتا هادئتين مثل المنظر الجانبيّ للحقول، والحركة التي لا أذكرها، ليديك القرويتين مكللةٌ بأزهار الحقول. حدث ذلك في لوحة، أجل، هنالك رأيتك، لكن من أين جاءتني فكرة رؤيتي إياك تقتربين ثم تمرين بجانبي وأنا أواصل السير، بدون عودةٍ إلى الوراء، كي أتمكّن من رؤيتك على الدوام حتى الآن؟ الزمن يتوقف كي يسمح لك المرور، وأنا أحبك عندما أريد موضعتك في الحياة أو فيما يشبه الحياة.

دائماً هناك صراع في هذا العالم، بدون حسمٍ ولا نَصْرٍ، بين مَن يهوى ما ليس له وجود لأنه موجود، ومَن يهوى ما هو موجودٌ لأنه لا وجود له. دائماً، دائماً ستوجد هوّةٌ بين من ينكر ما هو فانٍ لأنه فانٍ وبين من يحبّ الفاني لأنه يتمنى ألّا يموت أبداً. أرى ذلك الذي كنته في الطفولة في تلك اللحظة التي انقلب فيها مركبي المُهدى في بركة الضيعة، ولا توجد فلسفاتٌ تعوّض تلك اللحظة، ولا أسباب تفسر لي لماذا حدث ذلك. أتذكر، وأعيش. أي حياةٍ أفضل تملك أنت كي تهبنيها؟

- ولا واحدة، ولا واحدة لأنني كذلك أذكر.

آه، أذكر جيداً! كان ذلك في الضيعة القديمة وفي ساعة السهرة؛ بعد الخياطة والحبك، جيء بالشاي، وقطع الخبز المحمص، والنوم الجيد الذي كان عليَّ أن أنامه. أعطني هذا مرةً أخرى، على علاته مثلما كان، مع الساعة الحائطية التي كانت تتكتك في العمق، واحتفظ لنفسك بجميع الآلهة. ماذا يعني بالنسبة إليّ أولمب[1] لا يحسن تقديم محمّصات الماضي إلي؟ ما علاقتي بآلهةٍ لا يملكون ساعتي القديمة؟

لعلّ كلّ شيءٍ مجرد رمزٍ وظلّ، لكنني لا أحب الرموز ولا أحب الظلال. أعِدْ لي الماضي واحتفظ بالحقيقة. هب لي مرةً أخرى الطفولة وخُذْ معك الله.

تحدِّثني عن رموزك! إنْ بكيتُ ليلاً، مثل طفلٍ خائف، فلا رمز من رموزك يأتي لمداعبة كتفي ولهدهدتي حتى أنام. لو ضعتُ في

(1) مجمع الآلهة عند الإغريق.

الطريق، فأنت لا تملك مريم عذراء مُثلى تأتي لتأخذ بيدي. متعالياتك تبعثُ فيَّ البرودة. أريد بيتاً في العالم الآخر. أتحسب أنَّ أحداً يملك في الروح عطشاً للميتافيزيقيات أو الأسرار أو الحقائق العُليا؟

- ممّ يتكون ذاك الذي يملك عطشاً في تلك الروح؟

- من شيءٍ يشبع كلَّ ما تشكلت منه طفولتنا.

من الدمى الميتة، من الخالات العجائز الغابرات. تلك الأشياء هي ما يتشكَّل منه الواقع بالرغم من كونها ماتت. ما علاقة الخوارقي بي؟

- هناك شيء... أكانت لديك خالاتٌ عجائز، وضَيْعةٌ قديمة وشاي وساعةٌ حائطية؟

- لا لم يكن لديّ ذلك. سيسرني لو امتلكت ذلك. وأنت هل سبق لك أن عشت على شاطئ النهر؟

- أبداً. ألم تعرف ذلك؟

- بلى، لكنني اعتقدت... لماذا لا تعتقد بما يفترض؟

- ألا تعلم أنَّ هذا الحوار في حديقة القصر، فاصلٌ قمريّ، وظيفةٌ نقوم فيها بتسلية أنفسنا بينما الساعات تمرّ بالنسبة إلى الآخرين؟

- أعلم بالطبع، لكنني أحكّم العقل...

- حسناً: أما أنا فلا. التفكير المنطقي هو أسوأ أنواع الحلم، إذ هو ما تنقله إلى حلمنا انتظامية الحياة التي لا وجود لها، أي أنه، لا شيء على نحوٍ مُضاعف.

- لكن ما معنى هذا؟

(واضعاً اليد على الكتف الأخرى، ومطوقاً إياه بذراعي)
- أي، بنيّ، ما معنى لا شيء؟

كلّ يوم

كلّ يوم تحدُث في العالم أشياء لا تفسّرها القوانين التي نعرفها عن أشياء كلّ يوم، ما إنْ يتحدَّث عنها خلال لحظةٍ معيّنة، حتى تنسى، والسّر نفسه الذي أتى بها يأخذها بعيداً، ليتحوَّل السر إلى نسيان. هذا هو قانون ما ينبغي أن ينسى لأنه لا يمكن أن يكون مفسَّراً. على ضوء الشمس، يستمرّ العالم المرئي في وجوده العادي. الغيريُّ يترصدنا من خلال الظلّ.

أحياناً، في الليل...

أين يوجد الله، ولو لم يكن موجوداً؟ أريد أن أصلي وأبكي، وأتوب عن جرائم لم أقترفها، أن أستمتع بكوني معفواً عني بمداعبةٍ ليست أمومية تماماً.

أريد حضناً لأجل البكاء، لكن حضناً هائلاً، لا شكل له، شاسعاً مثل ليلة صيف، وقريباً مع ذلك، دافئاً، أنثوياً، بالقرب من أيما نار.. أن أستطيع هناك بكاء أشياء لا يمكن التفكير فيها، بكاء خطايا لا أعرف ما هي، حنانات أشياء لا وجود لها، وشكوكٍ كبيرةٍ مستثارةٍ بفعل مُستقبلٍ لا أدري ما هو...

أريد طفولةً جديدة، مربيةً عجوزاً أخرى، وسريراً صغيراً أنْتَهي إلى النوم فيه، بين حكايا تهدهد، سمعاً رديئاً، بانتباهٍ يغدو فاتراً، من أشعةٍ اخترقت شعوراً فتيةً شقراءَ مثل القمح... وهذا كلّه كبيرٌ

على الدوام، خالدٌ جداً، نهائيٌّ على الدوام، بقامة الله الفريدة، هنالك في العمق الحزين والوسنان للواقع الأخير للأشياء.

أريد حضناً أو مهداً أو ذراعاً دافئاً حول عنقي... صوتاً خفيضاً يغني ويبدو راغباً في أن يدفعني إلى البكاء... ضوضاء النور في البيت... حرارةٌ في الشتاء... تيهان ناعم لوعيي... وبعدئذٍ، بلا ضجيج، نومة هادئة في فضاءٍ هائل، مثلما القمر يدور وسط النجوم...

عندما أضع جانباً [...] وأنزوي في أحد الأركان، باحتراسٍ مفعم حباً - برغبةٍ في منحهن قبلات - لعبي، الكلمات، الصور، العبارات - أبقى صغيراً جداً وعاجزاً، وحيداً جداً في غرفةٍ كبيرةٍ جداً وحزينة، حزناً لا حدود لعمقه!...

بعد كلّ شيء. مَن أكون أنا عندما لا ألعب؟ يتيمٌ بائسٌ مهجور في شوارع الأحاسيس يرتجف برداً في زوايا الواقع، وعليه أن ينام في درج الكآبة ويأكل من الخبز المُهدى من لدن الفنتازيا. عن الأب أعرف الاسم؛ حدثوني عن أنَّ اسمه الله، لكن الاسم لا يمنحني فكرةً عن أيّ شيء، أحياناً، في الليل عندما أشعر بي وحيداً، أناديه وأبكي، وأكوّن فكرةً عنه يُمكن أن تُحبّ... لكن بعدئذٍ أفكّر بأنني لا أعرفه، وبأنه ربما ليس هكذا، ربما ليس أبداً ذلك الأب المُتخيّل لروحي...

متى سينتهي هذا كلّه، هذه الشوارع التي أجرجر بؤسي فيها، وهذه الدرج حيث أعرج ببردي حاساً بيدي الليل بين أسمالي؟ لو أنَّ الله أتى ذات يومٍ ليبحث عني ويحملني إلى بيته ليمنحني الدفء والود... أحياناً أفكر بهذا وأبكي بفرحٍ عبر الشارع الأوراق تسقط على الرصيف... أرفع عيني فأرى النجوم التي لا معنى لها

البتة. . . ومن هذا كله أبقى أنا بالكاد، طفلاً مسكيناً منبوذاً، ما من حب قَبِل بتبنيه، ولا ممّن قَبِل به رفيق ألعاب.

أشعرُ بكثيرٍ من البرد، متعبٌ جداً أنا في مُنْتَبِذِي أمضي، للبحث عن أمي، أيتها الريح احمليني عبر الليل إلى البيت الذي لم أعرف. . . عُد لتمنحني، أوه أيها السكون [. . .]، روحي وأغنيتي التي بها كنت أنام.

أحيا وأحلم

لا أنامُ أبداً: أحيا وأحلم، أو بالأحرى أحلم في الحياة وفي النوم الذي هو حياةٌ أيضاً. لا يوجد انقطاعٌ في شعوري: أحسّ بما يحيط بي حينما لا أكون قد نمتُ بعد، أو حينما لا أنام كما ينبغي؛ حينئذٍ أدخل في الحلم منذ أن أشرع في النوم بالفعل. هكذا، أنا تمدُّد صور مستمر، اتصالات وانقطاعات تتظاهر بكونها برانية، بعضها متموقع بين الناس والضوء إنْ كُنْتُ مستيقظاً، وبعضٌ يتخذُ موضعه ما بين الأشباح واللا - ضوء الذي يُرى، إن كنت نائماً. في الحقيقة لا أعرف كيف أميز شيئاً عن آخر، ولا أجرؤ على الجزم بما لو لم أكن نائماً في حال يقظتي وبما لو لم أكن مستيقظاً عندما أنام.

الحياة عبارةٌ عن كبّة صوف شبّكها أحدهم. ثمة بداخلها معنى معين، لو كانت منشورةً وموضوعةً طولياً، أو بالأحرى مطويةً تماماً. لكنها بالنظر إلى ما هي عليه معضلةٌ بلا كبةٍ ملائمة، تشبّك بلا مكان.

أحسّ هذا الذي سأكتبه فيما بعد، ذلك أنني أمضي حالماً بالجمل التي سأعبّر عنها، عندما أحس، من خلال ليلةٍ من نصف - منام، جنباً إلى جنب مع مشاهد أحلام مبهمة، صخب المطر هنالك

في الخارج جاعلاً المشاهد تلك أكثر إبهاماً ممّا كانته. إنها كشافات ما هو فارغ، ارتعاشات هاوية، ومن خلالها ينزلق، بلا جدوى، الأنين الخارجيّ للمطر المتواصل، التفاصيل الغزيرة لمشهد السمع. الأمل؟ لا شيء من السماء اللامرئية يهبط بصوت حداد ماء ترسله الريح أستمر في النوم.

في الطريق المشجّر بالحَور في الحديقة حدثت، بلا شك، تراجيديا كون الحياة قد حدثت. كانا اثنين وكانا وسيمين ويرغبان في أن يكونا شيئاً آخر؛ الحبّ حبسهما في ضجر التعلُّق بالمستقبل، أما نوستالجيا ما كان ينبغي أن يكوناه فقد كانت ابناً للحب الذي لم ينعما به. هكذا، على ضوءِ قمرِ الغابات القريبة، التي كان القمر يتصفى من خلالها، كانا يتجولان، يداً في يد، بلا رغباتٍ ولا آمال، عبر الصحراء الخاصة للنزهات المهجورة. كانا طفلين تماماً، ولم يكونا كذلك حقاً. وجولةً بجولة، كانا شبحين بين شجرةٍ وأخرى، يجتازان بلا ورقٍ مقصوص ذلك المشهد المنتمي للاأحد. وهكذا تلاشَيا في ناحية البرك، وهما أكثر فأكثر اتحاداً وانفصالاً، وصمت المطر المُبهم الذي يتوقَّف آتٍ من الفوارات التي إليها يمضيان. إنني الحب الذي استمتعا به ولذلك أعرف كيف أسمعهما في الليل الذي لا أنام فيه، كذلك أعرف كيف أعيشُ تعيساً.

1932-5-2

من حميميةٍ وألفة

امتلاك سيجارٍ غالٍ تدخنه وعيناك مغمضتان هو علامة الثراء.

كمن يزور مكاناً أمضى فيه أيام الشباب، أعود بسيجارةٍ رخيصة إلى مكان حياتي الذي اعتدتُ فيه تدخين السجائر. ومن خلال

النكهة الخفيفة للدخان يعود الماضي، كل الماضي إلى الحياة الثانية. ستكون النكهة عذبةً حقاً في أحاسيس مقبلة. مسكّر شوكولاتة بسيط قادرٌ على تحطيم الأعصاب أحياناً بتفاقم الذكريات التي تستثيرها الطفولة! وبين أسناني المغروزة في الكتلة الغامضة واللينة أكسر/ متلذذاً/ سعادتي الصغيرة الحيية، سعادات رفيق فرحٍ لجنديٍّ من رصاص، لفارسٍ من قصبٍ صدفوي ما هو إلّا طفولتي بالذات. تصعد الدموع إلى عيني ويمتزج بطعم الشوكولاتة طعم سعادتي الماضية، طفولتي الراحلة، وأنا أنتمي بتلذذٍ إلى نعومة آلامي.

طقسي التذوقي هذا لا يفتقر على بساطته إلى السمو، غير أنَّ دخان السيجارة بالذات هو ما يُعيد لديّ بروحيةٍ أكبر، بناء اللحظات الماضية. بالكاد يقارب وعيي امتلاك حنك. لذلك [. . .] يستدعي لديّ الساعات التي متّها، يجعل القصية جداً حاضرةً، ملفوفة بالضباب حال استرجاعها، وأكثر أثيرية عندما أجسدنها. مجرد سيجارة منتولية، مجرد سيجارٍ رخيص، بإمكانهما أن يسكرا من حميمية وألفة بعض لحظاتي الخاصة. بأي معقوليةٍ ثاقبة مرة أخرى [. . .] لماضٍ يبدو منتزعاً من القرن الثامن عشر بسبب بُعده الماكر والمتعب، لَكَم يبدو قروسطوياً على الدوام بالنظر إلى ما لم يكن ممكناً تفادي فقدانه.

إنها

إنها الميتة الأخيرة للقبطان نيمو، بعد قليل سأموت أنا أيضاً.

إنها طفولتي الماضية كلها أضحت في هذه اللحظة ممنوعةً من أن تتمكّن من الاستمرار.

كما أنَّ هناك من يشتغل بدافع الضجر، كذلك أكتب أحياناً لأنني لا أجد ما أقوله. إنَّ الهذيان الذي يضيع فيه بالطبع من لا يستعمل التفكير، أضيع أنا فيه بواسطة الكتابة... عبر النثر وحده. وثمة الكثير من الإحساس الصادق، والكثير من العاطفية المشروعة التي أستخرجها من وجودي خالياً من أيّ إحساس.

ثمة لحظاتٌ يمتلك فيها الخلو من الإحساس بالعيش كثافة شيء إيجابي، لدى كبار رجال الفعل، وهم القديسون. لكونهم يعملون بإحساسهم كاملاً وليس فقط ببعضٍ منه. إنَّ هذا الإحساس بكون الحياة هباءً يقود إلى اللانهائي، لذلك يتكللون بالليل والنجوم، ويَدَّهنون بالسكينة والعزلة. لدى كبار رجال اللافعل، الذين أنتمي بحياءٍ إلى طرازهم، الإحساس نفسه يقود إلى المصغر اللامتناهي؛ أحاسيسهم تتمدَّد، مثل المطاط، كيما ترى مسام استمراريتهم الزائفة الواهنة.

وثمة آخرون، في هذه اللحظات، يعشقون الحلم، مثل الرجل العاميّ الذي لا يفعل شيئاً ولا يترك غيره يفعل، إنه الانعكاس المحض للوجود الجنسي للنوع الإنساني.

الامتزاج بالله هو الحلم بعينه، كذلك النيرفانا، كائناً ما كانته وفق التعريفات الموضوعة لها؛ حلمٌ هو التحليل البطيء للأحاسيس، سواءً كان مستعملاً كحلم ذري للروح، أو غفوةٍ تشبه موسيقى الإرادة، أو جنساً تصحيفياً بطيئاً للرتابة.

أكتب مؤجلاً إياي في الكلمات، كما لو في واجهاتٍ زجاجية لا أراها، وما تبقى هو نصف إحساسات، أشباه تعبيرات، مثل ألوان

قماشات لم أرَ ما هي، تناغماتٌ مبرزة مكونة، ممّا لستُ أدري.
أكتب مهدهداً إياي هدهدة أمٍّ مجنونة لابنٍ ميّت.

وجدتُ نفسي في هذا العالم ذات يومٍ مجهول، ومنذ ولادتي، عشتُ حياتي بلا إحساس. عندما سألتُ عن المكان الذي كنت فيه، خدعني الجميع، والجميع بدا متناقضاً. عندما طلبت منهم أن يفسروا لي ما عليَّ أن أفعله، جميعهم قدموا لي كلاماً مزيفاً، وكل واحدٍ منهم حدثني عن أشيائه هو. أجل، لعدم معرفتي بي وبما حوالي، توقفت في الطريق، الجميع اندهش لعدم مواصلتي السير إلى حيث لا أحد يعلم ماذا يوجد هنالك، أو لعدم عودتي إلى الوراء، أنا الذي استيقظتُ في المفترق، جاهلاً المكان الذي منه أتيت. رأيت كيف كنت داخل مشهدٍ مسرحيّ ولم أعرف الدور الذي كان يؤديه الآخرون. فوراً رأيتُني مرتدياً لباس غلام، ولم يمنحوني الملكة، وقد لاموني على عدم امتلاكها. رأيتُني حاملاً بين يدي الرسالة التي ينبغي تسليمها، وعندما أخبرتهم أنَّ الورق كان على بياض، سخروا مني. وإلى حدّ الآن لا أدري إن كانوا يسخرون مني لأنّ كل الأوراق كانت بيضاء أو لأنَّ كلّ الرسائل يمكن التكهن بفحواها.

وأخيراً، جلستُ على حجر المفترق كما كنت في البيت الذي كان ينقصني. وشرعتُ لوحدي، في صنع مراكب من ورق بالأكذوبة التي منحونيها. ما من أحدٍ رغب في تصديقي ولا حتى ككاذب، وأنا لم أمتلك بحيرة أسبر فيها غور الحقيقة.

كلماتٌ عاطلة، ضائعة، استعاراتٌ سائبة، يقيدها ضجرٌ مبهم إلى ظلال... قنديلٌ مطفأ يلمع ذهبه في الظلام بفعل ذاكرة الضوء المطفأ... كلماتٌ معطاة، ليس للريح، بل للأرض، متروكة للمرور عبر الأنامل بسخاء، كورقاتٍ يابسة سقطت من شجرةٍ خالدة...

نوستالجية بركات ضيعات الغير. . . حنان ما لم يحدث قط. . .

العيش! العيش! على الأقل مع شبهة ما إذا كان عليّ النوم جيداً في سرير بروسبينا.

1931-3-10

أسَألُ ما تبقّى

في واحدةٍ من إغفاءاتي الخالية من النوم، أعاود قراءة بعض الصفحات التي ستشكل، كلها مجتمعة، كتاب انطباعاتي اللامجنَّس. ومن هذه الصفحات يصعد مثل رائحة شيء نعرفه، انطباع رتابةٍ قاحل. أشعر حتى عندما أقول إنني دائماً مختلف، بأنني قد قلت دائماً الشيء نفسه؛ بأنني أكثر شبهاً بذاتي نفسها ممّا أرغب في الإقرار به؛ وأنني، بعد كل الحسابات، لم أمتلك فرح الربح ولا انفعال الخسارة. إنني خلوٌّ تامٌّ لذاتي نفسها من توازنٍ إرادي يكتسحني ويوهنني.

مظلمٌ كلّ ما كتبته. قد يقال إنَّ حياتي، حتى الذهنية، هي يومٌ ممطر بطيء، كل ما فيه معتم وخامل، امتيازٌ فارغ ورشد منسي. .

كل مجهودي الخجول من أجل تسجيل أصغر الانطباعات، مثل آلة أعصاب، عن حياتي الشخصية المتوقدة ذهب عبثاً مثل دلوٍ مقلوب سال ماؤه على الأرض. لقد صنعت برسوم زائفة إمبراطوريةً من فخاخ. قلبي الذي عوَّلت عليه في الأحداث الكبرى للنثر المعيش، يبدو لي اليوم، مكتوباً في مسافة هذه الصفحات المقروءة من جديد بروحٍ أخرى، مضخّة بستان الأرياف، مركّبة من الغريزة، ومشغَّلة بدافع الخدمة. لقد غرقت بغير عاصفةٍ في البحر الذي كان بإمكاني أن أقف فيه على قدمي.

وإني لأسأل ما تبقى بداخلي من وعي في هذه السلسلة الملتبسة من الفواصل وسط أشياء لا وجود لها، أسأل فيما أفادني تحبير الصفحات تلوَ الصفحات بتعابير حسبتها تعابيري، وبأحاسيس أحسستها كما لو كانت مفكرة، بأعلام وبيارق هي، في النهاية، أوراقٌ مخصوبة بلعاب ابنة المتسول تحت أفاريز السطح.

أسأل ما تبقى مني ماذا أتت تفعل هذه الصفحات اللامجدية، المكرَّسة للزبالة والضياع، والمفتقدة، قبل أن تكون، بين الأوراق الممزقة للقدر.

أسأل وأواصل السؤال، أكتبه وأعيد صوغه في جملٍ جديدة، مضاعفاً إياه بأحاسيس جديدة. وغداً سأعاود في ترنيمة كتابي الأبله، كتابة الانطباعات اليومية لعدم اقتناعي ببرودٍ تام.

تستمر الأمور على ما كانت عليه. الدومينو ملعوب، واللعبة مكسوبة أو خاسرة، القطع الآن مقلوبة واللعبة المنتهية هي للأسود.

طاولة

والأقحوانات توهن حياتها الواهنة في حدائق معتمة مقفلة. المغالاة اليابانية بامتلاك بُعدين اثنين وحسب. الوجود في ألوان عبر شفافياتٍ مغشاة بالأوجه اليابانية في الأكواب.

طاولةٌ موضوعة من أجل شايٍ رصين، محض ذريعةٍ لمحادثاتٍ لامجدية بالكامل - امتلكت على الدوام بعضاً من موجودٍ حي ومن فردانيةٍ لها روحها الخاصة، إنها شكل، جهاز مكتمل التركيب. أليست خلاصة خالصة للأقسام التي تكونها؟

ظاهر الحديث باطله

لا أترك أبداً لمشاعري أن تعلم بما سأمنحها من أحاسيس.. ألعب بأحاسيسي مثلما تفعل أميرةٌ ضجرة بقططها المنتفضة والشريرة.

أغلق فجأةً بداخلي أبواباً يفترض أن تمرّ منها أحاسيس قصد الانتقال إلى طور الإنجاز. أبعد فجأةً عن طريقها الأشياء الروحية التي ستسِمُها بإشاراتٍ معينة.

عباراتٌ صغيرة بلا معنى، مدسوسة في المحادثات التي نفترض حفاظنا على تجاذبها، تأكيداتٌ لا معقولة مصنوعة [...] من تأكيداتٍ أخرى لم تعُد تعني شيئاً بذاتها.

نظرتك تحمل بعضاً من موسيقى معزوفة بجانب مركب، في النصف الغامض من نهرٍ ذي غيضات في الضفة المقابلة...

- لا تقل عن ليلةٍ مقمرة إنها باردة. أكره الليالي المقمرة قد يتصادف بالفعل وجود من يعرف موسيقى في الليالي المقمرة...

- هكذا يمكن أيضاً.. وهو أمرٌ جديرٌ بالرثاء..، طبعاً يوجد.. لكن نظرتك تملك فعلاً الرغبة في الحنين إلى شيءٍ ما.. ينقصها الإحساس المعبّر.. أجد في زيف تعبيرها كمّا من الأوهام التي امتلكتها.

- أتحسب أنني أحسّ أحياناً بما أقول، وحتى، بالرغم من كوني امرأة، بما أقوله بالنظرة...

- ألستِ قاسيةً مع ذاتك؟ أو نحسّ بالفعل ما نفكر أننا نحسّه؟ أَلِمُحادثتنا هذه، مثلاً، مظاهر واقعية؟ كلا إنها لن تكون مقبولةً في روايةٍ من الروايات..

- بكثيرٍ من الصدق.. أنا لا أملك اليقين المطلق بأنني أحادثك

فعلاً.. لاحظ.. بالرغم من أنني امرأة. فقد ألزمت نفسي بأن أكون صورة في كتاب انطباعات لرسامٍ مجنون.. توجد فيّ تفاصيل واضحة بإفراط، تمنح، أعرف ذلك، الانطباع بوجود واقعيةٍ مفْرِطَة ومتصنّعة. يبدو لي أنَّ الشيء الوحيد الجديد بامرأةٍ عصرية هو أن توجد على هذا النحو المثالي: أن تكون مجرَّد صورة. عندما كنت طفلة أحببتُ أن أكون ملكةً في أيما ورق لعب قديم ممّا كان متوفراً في منزلي.. لقد عثرت على تلك الوظيفة: وظيفة الشعارية الشفافة حقاً.. لكن عندما يكون المرء طفلاً تأتيه تطلعاتٌ أخلاقية من قبيل هذه، لكن فقط فيما بعد، في السن التي تغدو فيها كل رغباتنا لاأخلاقية، نُقبل على التفكير بجدية في تلك الأمور.

- أنا، لأنني لا أحادث الأطفال أبداً، أصدّق غريزتك الفنية.. أتعلمين، بينما أتحدث الآن بالذات، أريد إنفاذ المعنى الباطني لتلك الأشياء التي أتحدث عنها.. أتسامحينني؟

- ليس عن كل ما قلت.. لا ينبغي مطلقاً اكتساح المشاعر التي يتظاهر الآخرون بامتلاكها.

إنها دائماً حميمية زيادة على اللزوم.. أتظن أنه يؤلمني الخوض في هذه المسارّات الحميمة التي إن كانت كلها مصطنعة، فهي تمثل مِزَقاً حقيقية من روحي المسكينة؟.. في العمق، صدِّقني ما يؤلم أكثر هو ما لسنا إياه واقعياً، ومآسينا الكبرى تحدث في الفكرة التي نكوِّنها عن أنفسنا.

- هذا صحيحٌ جداً.. لماذا ينبغي أن يُقال؟ لقد أهنتني. لماذا نحرم حديثنا من لاواقعيته الثابتة؟ على هذا النحو يبدو أننا بصدد محادثة حقيقية، تدور جنب مائدة شاي، بين امرأةٍ جميلة ومتخيّل أحاسيس.

أجل، أجل.. الآن يحين دوري في طلب الصفح.. لكن أنت ترى أنني كنت مأخوذةً فلم أنتبه في الواقع إلى أنني تلفَّظت بشيءٍ معقول لنغير الموضوع.. يا له من مساء يا لها من أبدية! لا تغضب مرّة أخرى.. أعلم أنَّ عبارتي هذه لا تحمل مطلقاً أيّ مدلول.

لا تطلبي الصفح، لسنا بصدد محادثة.. كل حديثٍ جيّد ينبغي أن يكون مونولوغاً بين اثنين.. ينبغي، في النهاية، ألّا نمتلك اليقين بما كنا قد تحادثنا بالفعل مع شخصٍ ما أو أننا تخيلنا كلية تلك المحادثة.. أفضل المحادثات وأكثرها حميمية، وخاصة تلك الأقل غريزية أخلاقياً، هي تلك التي يجريها الروائيون بين شخصيتين روائيتين داخل رواياتهم.. على سبيل المثال...

- بحق ربّك! أكيد أنّك لن تقدّم لي مثالاً.. ذلك يتم فقط في دروس النحو؛ لا أدري إن كنت تتذكر إن كنا قد قرأنا شيئاً بالفعل.

- هل قرأت مرةً نحواً ما؟

- أنا، أبداً. لقد كان لدي نفورٌ عميق من معرفة كيف تقال الأشياء.. (هل تنبهت بعدُ إلى الاستحالة العذبة لكوننا نتحادث عن الموضوع؟). الفعل هو العنصر الأشد تنفيراً في كلّ القواعد، الأفعال.. هي الكلمات التي تمنح المعنى للجُمل.. كلّ جملةٍ نتلفظها لا بدّ أن تمتلك معاني متعددة.. الأفعال! ثمة صديقٌ لي انتحر منذ مدة - في كل مرّة أجري محادثةً مطولة بعض الشيء مع أحدهم أتسبب في انتحار صديق - حاول أن يكرس حياته كلها للقضاء على الأفعال..

(لماذا انتحر!)

- مهلاً، ما زلت لا أعرف.. لقد حاول أن يكتشف ويرسخ

صيغةً لعدم إتمام الجمل بدون أن يبدو أنه يفعل ذلك. . قصدت القول بأنه كان يبحث عن ميكروب الدلالة. . لقد انتحر. . ، بالفعل، لأنه انتبه ذات يوم إلى المسؤولية الجسيمة التي سيحملها على عاتقه. . ثم وضع حداً للمشكلة برصاصةٍ في الدماغ. . .

- آه، لا . . أبداً. . ألا ترى أنَّ المسدس لا يمكن أن يكون هو الوسيلة؟

- إنَّ رجلاً من تلك الشاكلة لا ينتحر أبداً بمسدس. . حضرتك تملك القليل من الفهم للأصدقاء الذين لم تمتلكهم قط. . هذا عيبٌ كبير، أتعرف؟. . إنَّ أفضل صديقاتي: فتاةٌ حلوة أنا اخترعتها.

- أعلاقتكما على ما يُرام؟

- إلى حدٍّ معين. . لكن تلك الفتاة، لا تتصور، (. . .)

المخلوقان اللذان كانا جالسين إلى مائدة الشاي لم يجريا على وجه اليقين تلك المحادثة. لكنهما كانا شديدي الانضباط وعلى أحسن هندام إلى حدّ الشعور بالأسى لأنهما لم يتحدثا بالفعل على هذا النحو.

لذلك كتبت هذه المحادثة لكي أجعلها في متناولهما. . إنَّ موقفهما، حركاتهما الصغيرة، طفولية نظراتهما وابتسامتهما في لحظات المحادثة التي أجراها كلانا معاً عبَّرت بوضوح عمّا تظاهرتُ بالتصريح به من إجابات. . عندما سيمضيان ذات يوم كلاهما، متزوجين بلا ريب، كلٌّ في طريقه [. . .] فيما لو نظرا إلى هذه الصفحات، أظنُّ أنهما سيتعرفان على ما لم يقولاه قط وما لن يقولاه من أنني شاكرٌ لهما حسن إعرابهما، ليس فقط لما هما عليه فعلياً، وإنما لما لم يرغبا البتة في أن يكوناه ولا عرفا ما كاناه. . .

لو يقرآني، سيعتقدان أنَّ هذا هو في الواقع ما قالاه. في ظاهر الحديث الذي تبادلاه افتُقدتْ عناصر كثيرة. [...] افتُقد عطر اللحظة، عبير الشاي، دلالة مسألة باقة الـ [...] التي كانت تضعها هي على صدرها.. كل ذلك الذي كوّن جزءاً من حديثهما، نسيا أنْ يذكراه، لكن هذا كله كان موجوداً هناك وما أفعله أنا، هو عمل مؤرخٍ أكثر من كونه عمل أديب. لقد أعدتُ بناء الحديث، مكملاً.. وذلك هو مبرري وعذري، في التنصُّت متيقظاً إلى ما لم يقولاه وما لا لم يريدا قوله أبداً.

علامات

الإحساسات تولد مُحلَّلة.

مصافاةٌ بين الإحساس والوعي بالإحساس، وليس بين الإحساس و«الفعل». قاعدة الحياة، إخضاع الكلّ بعبودية. الزواج، جيّد لأنه مصطنع. الخداع واللامعقول هما علامة كلّ ما هو إنسانيّ.

نسيمٌ غامض... سكونٌ هائل

عندما نحيا على نحوٍ ثابت في المجرد - في مجرد الفكر أو مجرد الإحساس المعقلن - لا تتأخر أشياء الحياة الواقعية التي ينبغي أن نحسّ بها أكثر من سواها، في التحوّل ضد تفكيرنا أو رغبتنا، إلى أطياف.

خبر مرضٍ أو موت حتى أقرب أصدقائي لا يُحدث لدي أكثر من انطباعٍ غامض، غير أكيد، منطفئ، يُخجلني الإحساس به. وحدها الرؤية المباشرة للحادث، لمشهده تحملني على الانفعال. لفرط تعيّشي من التخيل، استنفدت القدرة على الخيال، أو بالأحرى

على تخيُّل ما هو واقعي. بعيشنا ذهنياً ممّا ليس له وجود وما يمكن أن يوجد، ننتهي إلى عدم القدرة على التفكير فيما يمكن أن يكون موجوداً.

قيل اليوم إنَّ صديقاً مسناً قد حمل إلى المستشفى، لإجراء عملية، صديقاً لي لم أره منذ زمنٍ طويل، لكنني أتذكره. وبصدقٍ دائماً، بما أفترض أنه الحنين أو الشوق. الانطباع الإيجابي الواضح والوحيد الذي أمتلكه كان هو الإزعاج الحتمي الذي سيُحدثه لدي واجب الذهاب إلى عيادته مع المراوحة الساخرة بين عدم امتلاك الصبر للقيام بواجب العيادة، والندم على عدم القيام بها.

ليس أكثر.. من كثرة السير مع الظل، تحوَّلت أنا بذاتي إلى ظلّ، في كل مكان ممّا أفكره وأحسّه وأحياه. الحنين إلى السويّ الذي لم أكُنه قط، يدخل إذن في صميم جوهر كينونتي، لكن هذا مع ذلك، هو وحده ما أحسّه. الصديق الذي ستُجرى له العملية لا يثير فيَّ شخصياً أي حزن، لا يحزنني شخصياً كل الأشخاص الذين ستجرى لهم عمليات جراحية، ولا جميع الذين يتألمون ويُقاسون في هذا العالم. أحسّ بالحزن، فقط، لعدم معرفتي كيف أكون حاسّاً بالحزن.

وفي اللحظة ذاتها، أجدني مفكراً في شيءٍ آخر، على نحوٍ لا يمكن تفاديه، بفعل واقعٍ لا أعرف ما هو.

وحينئذٍ، وكما لو كنت أهذي، يختلط لدي ما لم أتوصل إلى الإحساس به، وما لم أستطع أن أكونه بحفيف أشجار، وهدير مياه تجري صوب البرك، بضيعةٍ ليس لها وجود.. أجاهد كي أحسّ، بَيْد أنني ما عدتُ أعرفُ كيف يتم الإحساس. لقد تحوّلت إلى ظلّ لنفسي ذاتها، نفسي التي أسلمت لها كينونتي. وبعكس السيد بيتر

شليمل[1] في الخرافة الألمانية فأنا لم أبعْ ظلي للشيطان، وإنما بعت روحي. أتألم من عدم قدرتي على التألم. أأعيش أنا أم أتظاهر بالعيش؟ أنائمٌ أنا أم مستيقظ؟ ثمة نسيمٌ غامض، ينبعث نسيمٌ غامض، ينبعث بارداً من حرّ النهار، يجعلني أنسى هذا كلّه.. لحسن الحظّ جفناي يراودهما النوم.. أحسّ هذه الشمس ذاتها تذهّب الحقول التي لا أوجد فيها والتي لا أرغب في أن أوجد فيها.. من قلب ضجيج المدينة ينبعث سكونٌ هائل.. يا لنعومته.. بل يا لنعومة هذا السكون، ربما لو كنت أنا قادراً على الإحساس[2].

1934-6-19

أخطئ ما أريد

من المآسي الكبرى لحياتي - ولو أنها من تلك التي تحدث في الظلّ والخفاء - عدم قدرتي على الإحساس بأيّ شيء بالطبع. أنا قادرٌ على أن أحب وأن أكره، مثل الجميع، وأن أرتاب وأن أتحمس مثلهم؛ لكن، لا حبي، ولا كراهيتي، لا ارتيابي، ولا حماسي هي بالضبط ما هي إياه. إما لأن عنصراً ينقصها وإما لأنها تحوي عنصراً زائداً على الحاجة. الحقيقة أنَّ ما أحسّه لا يتطابق مع الحياة.

«الشياطين» المدعوة حواسيب، تعاني من تحديدات الحساب ومن التدقيق الأناني. فتبدو وكأنها أشياء أخرى. أما «الشياطين» المدعوّة تدقيقات فيلاحظ التفكيك نفسه للغرائز الطبيعية. بالنسبة إليّ

---

(1) بيتر شليمل (Peter Schlemihl) في الواقع هو بطل رواية تحمل العنوان نفسه لـ: (Adelbert von Chamisso) (1781-1838).

(2) يبدو أنَّ هذا النص كان قد أعدّ للنشر، موقعاً من طرف فرناندو بيسوا ومنسوباً إلى برنارد سوارش.

يلاحظ وجود الاختلال نفسه في التوافق الإحساسي، لكنني لست حاسوباً، ولا مدقّقاً. لا أملك عذراً للإحساس بطريقةٍ سيئة، بالغريزة أفسد ما هو غريزي فيَّ. لاإرادياً أخطئ ما أريد.

وَهَن، دوار

الحياة يمكن أن تكون محسوسة كغثيانٍ في المعدة، وجود الروح نفسها، مثل تشنجٍ عضلي. أحزان الروح، عندما تحسّ بحدّة، تحدث غثيانات، من بعيد، وتحدث الألم بالنيابة.

إنني، واعٍ بذاتي في يوم يبدو فيه ألم كوني واعياً، مثلما يقول الشاعر:

وهن، دُوار
وهمةٌ مضجرة.

1930-7-17

عالم المُستقبل

أحياناً أفكّر بارتياح في الإمكانية المستقبلية لجغرافيةٍ خاصة بوعينا بذواتنا. المؤرخ المستقبلي لأحاسيسنا الخاصة، حسب وجهة نظري، سيكون قادراً على أن يختصر في علمٍ مضبوط موقفه إزاء وعيه بروحه ذاتها. ما زلنا، في هذه اللحظة، في بداية هذا الفن الترويضي الصعب - أقول الفن لأنه ما زال كذلك؛ كيمياء الأحاسيس في وضعها الخيميائي حتى الآن. عالم الغد هذا سوف يعاني من وسواسٍ خاص تجاه حياته الداخلية.

سوف يخلق من ذاته نفسها الأداة المدققة كيما يختزلها ليحلِّلها. لا أرى أيّ صعوبة جوهرية في صنع أداة ضبط وتحديد

لأجل استعمالها للتحليل الذاتي، أداةٌ من شمع ونحاس من الفكر الخالص. أعني شمعاً ونحاساً بالمدلولِ الواقعي الحقيقي للشمع والنحاس، لكن من معدن الروح. وربما على هذا النحو ينبغي أن تكون هذه الأداة. سوف يقتضي الأمر، ربما، الاتفاق حول فكرة جهاز أو أداةٍ ضابطة للحصول على تحليلٍ باطنيٍّ صارم. وسيكون من الضروري بالطبع اختزال الروح في عنصرٍ ماديّ واقعيّ ضمن بعضٍ من الفضاء الذي توجد فيه. وهذا كلّه يتوقّف على الشحذ الأقصى لأحاسيسنا الباطنية التي بإمكانها، لو أوصلناها إلى حيث ينبغي أن تكون، أن تكشف أو تخلق فينا، فضاءً واقعياً مثل الفضاء الذي توجد فيه الأشياء المادية، فضاءٌ هو، علاوةً على ذلك، لاواقعي كشيءٍ محسوس.

ربما لن يكون هذا الفضاء الأدبي الآن سوى بعدٍ جديد للفضاء الآخر. عسى البحث العلمي في المُستقبل يتوصل إلى اكتشاف أنَّ الكلّ عبارةٌ عن أبعاد للفضاء الواحد، الذي ليس، لذلك، لا بمادي ولا روحي. سوف نعيش داخل أحد الأبعاد باعتبارنا جسداً، وفي الآخر باعتبارنا روحاً. ربما هنالك أبعادٌ أخرى حيث نحيا أشياء أخرى واقعية تماماً فينا دون أن نعي. يحلو أحياناً أن أتحرى، بواسطة التأمل اللامجدي، نهاية المدى الذي يمكن أن يقود إليه هذا البحث.

ربما سنكتشف أنَّ ذلك الذي ندعوه الله، والذي يوجد بجلاء في مستوى آخر خارج المنطق أو خارج الواقع الفضائي والزمني، إنما هو نمطٌ من أنماط وجودنا، إحساسٌ من أحاسيسنا نحن في بُعدٍ آخر من الكينونة. لا يبدو لي هذا مستحيلاً. الأحلام نفسها ربما ستكون بدورها بُعداً من الأبعاد التي نحيا داخلها، أو تقاطع بُعدين

اثنين؛ وكما أنَّ الجسد يحيا في العلوّ، في التمدّد، وفي الطول، كذلك أحلامنا، مَن يدري، قد نحيا في المثالي، في الأنا وفي الفضاء، بحكم تمثيليته المرئية، في المثال، لكونه يمثل بُعداً آخر غير المادة؛ وفي الأنا، لأنه يمثل البعد الباطني فينا. إنَّ الأنا الخالص، أنا كلّ واحدٍ منا، هو بعدٌ إلهي، ربما. كلّ هذا يبدو معقداً وفي الآن نفسه قابلاً للانجلاء. الحالمون الراهنون هم ربما الرائدون الكبار لعلم المُستقبل، لكن هذا لم يحِن أوانه بعد.

من هذه الأمور أصنع ميتافيزيقا كاملة أحياناً، بالقصد التدقيقي والمتحوّط لمن يشتغل حقاً في ميدان العلم الذي طالما كدتُ أخالني أمارسه بالفعل كما أوضحتُ ذلك من قبل. الأمر الجوهريّ هو أنني لا أشعر بأيّ زهو من هذا، لأن الزهو مُضرٌّ بالتجرُّد التام للدقة العلمية.

بحرٌ ميّت

الأشياء البسيطة، بل الأشدّ بساطة، يحوّلها عيشي لها إلى أشياء بالغة التعقيد. مجرّد توجيه تحية الصباح لأحدهم يصيبني بالخجل. يجفّ صوتي كما لو أنَّ ثمة جسارة غريبة في التلفظ بـ«صباح الخير» بصوتٍ عالٍ. إنه ضربٌ من الخجل من الوجود - لا توجد تسميةٌ أخرى - /

التحليل المزاجي لأحاسيسنا يخلق نمطاً جديداً من الإحساس سيبدو مصطنعاً لمن يمارس التحليل بواسطة الذكاء وحده، وليس بالإحساس.

لقد كنت عديم الجدوى طيلة حياتي من الناحية الميتافيزيقية،

جدّيّاً كنت في لَعِبِي. . . كان هناك قَدَرٌ نَهّاشٌ يَتَسلّى جيداً معي وبداخلي.

أريد امتلاك أحاسيس من حرير أو من ديباج! امتلاك انفعالاتٍ قابلة للوصف على هذا النحو.

يصعد إلى الروح، ندمٌ كأنه إله لكلّ ما تمّ اقترافه، تأثرٌ أصم دامع بسبب تعذيب الأحلام في جسد من يحملها. . وأكره مِنْ غير كراهية كلّ الشعراء الذين كتبوا أشعاراً/ كل المثاليين الذين حوّلوا مثالهم إلى واقع، وكلّ أولئك الذين حققوا ما أرادوا.

أتسكّع بلا هدف عبر الشوارع الهادئة، أمشي حتى أُنهك الجسد بتوافقٍ مع الروح، يؤلمني حتى ذلك الحدّ من الألم الذي يتحوَّل فيه الإحساس إلى متعة، إلى شفقةٍ أموميةٍ بذاتها ولذاتها، مموسقة غير قابلة للتعيين.

أن أنام! أن أتنوم! أريد أن أهدأ! أن أكون شعوراً مجرداً من التنفّس الساكن، بدون عالم، بدون كواكب، بدون روح - بحرٌ ميت من انفعالاتٍ تعكس غياب النجوم!

أجنحةٌ من ذهب

. . . مثل غريقٍ يغوص على مرأى من جزرٍ عجيبة، في تلك البحار المذهبة بالبنفسج نفسها حيث عشت أحلامي في أَسِرَّةٍ سحيقة.

أفترض أنَّ ما يسمونه المنحطّ هو الذي أوجد فيَّ، كتحديدٍ خارجيٍّ لروحي، ذلك البريق الحزين لشذوذٍ زائف، ذلك البريق الذي يُجَسْدِنُ في كلماتٍ غير متوقعة روحاً قلقة وأُلعبانية. أشعر أنني هكذا، وأنني غريبٌ وسخيف. لذلك أبحث، بواسطة محاكاةٍ لفرضية

الكلاسيكيين عن إيجاد رموزٍ على الأقل، لرياضياتٍ تعبيرية للأحاسيس التزيينية لروحي المستبدلة.

لا أدري، عند مستوى معيّن من التأملات المكتوبة، أين يقع مركز اهتمامي - أفي الأحاسيس والانطباعات المشتتة التي أسعى إلى وصفها، مثل نجاداتٍ مجهولة، أم في الكلمات التي بها وفيها أتيه فأرى أشياء أخرى. تتشكل فيّ تداعيات أفكار، صور، كلمات - الكل ساطعٌ ومنبثّ وأنا أردِّد قول ما أحسّه وما أفترض أنني أحسه؛ لست بقادرٍ على تمييز ما توحي به الروح ممّا تلفظه من مشاهد على الأرض، ولا حتى ما إذا لم يكن في وسع صوت كلمةٍ وحشية، أو إيقاع عبارةٍ موضوعة، تخليصي من وضعٍ أضحى ملتبساً ومن إحساسٍ كلّه توثب، وكذا تحريري من التفكير والكلام. وهذا كلّه ممّا ينبغي أن يخلق فيَّ إحساساً باللاجدوى والفشل والمعاناة لا يزيد على أن يمنحني أجنحةً من ذهب. كلما تحدثت عن الصور، ربما بغرض إدانة سوء استعمالها، تتولد عندي صورةٌ جديدة؛ كلما لُذتُ بذاتي كيما أنبذ ما لا أحسّ، أجدني متورطاً بالذات فيما لا أريده من أحاسيس، وما نَبَذْتُه يصبح إحساساً مبرَّزَ التطاريز؛ وإذ أفقد، دفعةً واحدة، في النهاية الثِّقةَ بِجُهُودي، راغباً في التخلُّص من التيهان تأتي عبارةٌ كلاسيكية، نعتٌ فضائيٌ بسيط، ليجعلاني أرى بغتة، مثل نورٍ شمسي، أمامي بوضوح، الصفحة المكتوبة منومة، وحروف مداد قلمي تبدو خريطة لا معقولة لعلاماتٍ سحرية. وأتركني كما أترك القلم والسترة.. بعيداً، بعيداً، وسيطاً شيطانياً، منتهياً كغريقٍ يغوص ويغوص... إلخ.

منحوتات

أن نجعل تأثيرية الحواس والانفعالات شكلاً أدبياً خالصاً، عندما تتلطف مصادفة بالظهور؟ أن نحوِّلها إلى مادة طيفية لكي ننحت بها منحوتات من كلمات سيالة و[. . .].

حدة

. . . الحدة المؤلمة لأحاسيسي، حتى المشتقّة من الفرح، بهجة الحدة القصوى لأحاسيسي، ولو كانت من حزن كلها.

أبعد مِنْ...

أنا طوع كلّ الأحاسيس الجارحة أبعد من دافع الجرح ذاته، غيور على كلّ شرائع اللامعقول والـ (. . .).

تربية عاطفية

إنّ الخطوة الأولى بالنسبة إلى مَنْ يَجْعَلُ مِنَ الحُلْمِ حياةً، ومن تَعهّد إحساسه في مدفأة ديانةٍ أو سياسةٍ، هي الإحساس بأصغر الأشياء مفرطة الغرابة، هذه هي الخطوة الأولى، والخطوة الأولى ليست ببساطة سوى هذا بالذات. أن تعرف كيف تدسّ في مذاق كوب شاي المتعة القصوى التي يجدها الشخص العادي فقط في المسرات الكبيرة الناجمة عن الطموحات والرغبات المشبعة فجأة بالكامل أو من الأشواق المنطفئة على حين غرة، أو بالأحرى من الممارسات الجسدية للحبّ، أن أعرف كيف أعثر في منظر الغروب وفي تأملات تفصيل زخرفيّ ذلك الإحساس البَرم بالأشياء الذي ينتج فقط ما يؤلم ويتذوق - ذلك القرب، قرب الشيء من الإحساس،

والذي وحدها الأحاسيس الجسدية (اللمس، الذوق، الشم) قادرة على نَحتِهِ عند وصوله إلى الوعي، أن أستطيع تحويل الرؤية الباطنية، مسمع الحلم - كل الحواس المفترضة وكل الإحساس المفترض - إلى ملتقيات ملموسة مثل حواس موجّهة صوب ما هو خارجي: أختار هذه، وأفترض جملة من التناظرات، من ضمن الأحاسيس التي أتوصَّل كمربي أحاسيس إلى شحنها بالتوتر حتى تعطي مفهوماً محدداً وقريباً ممّا أسعى إلى قوله.

غير أن الوصول إلى هذه الدرجة من الإحساس يُحمّل عاشق الأحاسيس العبءَ الفيزيقي لما يحسّه، وهو ينوء بالضغط المؤلم لما هو خارجي، ولما هو داخلي كذلك أثناء لحظة التنبّه على هذا النحو يتحقق رجل الإحساس من أن الإحساس بإفراط إذا كان أحياناً مجلبة للمتعة بإفراط، فهو أحياناً أخرى معاناة طويلة على نحو مفرط، وهو يتحقق من ذلك بالفعل، لأن الحالم الكبير محمول على القيام بالخطوة الثانية في معراج صعوده صوب ذاته. سأترك جانباً الحديث عن الخطوة التي يمكن أو لا يمكن أن يقوم بها، والتي ستحدّد، حسب استطاعته أو عدم استطاعته خطوها، هذه الطريقة أو تلك من طرائق المشي التي سيسلكها حسب قدرته أو عدمها بالانعزال بالكامل عن الحياة الواقعية... لأنني أفترض إن فُهِم جيداً ما بين سطور ما أحكيه، أن على الحالم، سواء استطاع أم لم يستطع الاعتزال والتفرُّغ لذاته، بقليل أو كثير من الحدة، أن يركّز وجوده حول عمله الأساسي المتمثل في إيقاظ الوظيفة المرضية لأحاسيسه بخصوص الأشياء والأحلام. إنّ مَن يتحتّم عليه العيش وسط الناس فعلياً ومع وجود إمكانيَة اختزال الحميمية التي لا بد أن تجمعه بهم إلى الحدّ الأدنى (الحميمية هي المضرة وليس مجرد الاتصال) عليه

أن يُجمِّد أو يُصفِّح بالأحرى السطح الخارجي لتعايشه مع الآخرين كيما لا تتمكن أي حركة أو سلوك أخوي أو اجتماعي موجّه إليه من النفاذ إلى الداخل. يبدو هذا كثيراً، بيْد أنه قليل في الحقيقة.

فالناس من السهل إبعادهم: يكفي ألّا ندعهم يقتربون منا. في الختام، أتجاوز هذه المسأله وأعود إلى ما كنت بصدد تفسيره.

إنَّ خَلْقَ حِدَّةٍ وتعقُّدٍ فوريين للأحاسيس الأكثر بساطة وحتمية يقود إلى زيادة مفرطة في اللذة التي ينتجها الإحساس، وكذلك إلى تصعيد درجة الألم الناجمة عن الإحساس. لذلك ينبغي أن تكون الخطوة الموالية للحالم هي تجنب الألم، لكن لا ينبغي له أن يتجنبه مثل رواقي أو أبيقوري: بالتخلي عن العيش، إنه بهذا سيغدو محصناً ضد اللذة كما ضد الألم على السواء، ليُصبح مؤهلاً بالتالي للإحساس بالألم على نحو زائف، أي بامتلاكه، عند الشعور بالألم، تلك المتعة اللامميزة العامية. ثمة طرق شتى للوصول إلى ذلك الوضع. إحداها تتمثل في العكوف بمغالاة على تحليل الألم، عكوف متزامن مع إعداد الروح مسبقاً ومعها حاسة المتعة لممارسة الإحساس وحده وليس التحليل؛ إنه سلوكٌ ممارستُه أكثر سهولة من الحديث عنه بالنسبة إلى المتفوقين. ينبغي تحليل الألم والتعوُّد على الاستسلام له دائماً عندما يجيء، بانتظار أن يحصل هذا غريزياً، سيُضيف التحليل إلى كلّ ألم متعة التحليل ذاته. وعندما تتفاقم سلطة وغريزة التحليل الباطني تمتصّ تمرينات الألم فجأة كل شيء والألم نفسه يغدو مجرد موضوع غفل للتحليل.

ثمة طريقة أخرى، أكثر مضاء وصعوبة، وهي الاعتياد على تجسيد الألم في صورة ذهنية معينة. ابتكار أنا آخر يتحمَّل فينا عبء معاناة ما نعانيه. ثم فيما بعد خلق سادية باطنية، كلها مازوخية،

تستمتع بألمها هي كما لو كان ألمَ آخر. هذه الطريقة - مظهرها الأول، المقروء، يجعلها تبدو مستحيلة التحقُّق - ليست بالسهلة بتاتاً، لكنها بعيدة عن أن تشكِّل صعوبات بالنسبة إلى المدربين على الكذب الداخلي. يا لمذاق الدم يا لطعم الداء، يا للمرارة الغريبة لمتعة قصية متردية يرتديها الألم والمعاناة لدى بلوغ هذا المستوى من الترويض العالي للباطن: يتصاهر الألم مع قمة التشنجات المُضجِرة المقلقة. تمتلك المعاناة المديدة البطيئة، ذلك الاصفرار الحميم للسعادة المبهمة للنقاهات المحسوس بها بعمق. وإن تصفية للباطن تمارَس بمرضية ولا طمأنينة كاملة تُقرِّب ذلك الإحساس المعقد إلى القلق الذي تسببه الملذات لأنها سريعة الزوال وإلى التوعك الذي تبعثه الملذات ممّا يسبق التَّعَبَ المتولِّد عن التفكير في التعب الذي سوف تستثيره.

ثمة نهجٌ ثالث لإرهاف الآلام في الملذات، ولتحويل الوساوس والهواجس إلى فراشٍ وثير. ويتمثل في منح أحاسيس الضجر والآلام، بواسطة استخدامٍ مغيظ للانتباه، حِدَّةً كبرى تجلب، بفعل غلوها الخالص، لذة المغالاة الخالصة، وكذلك توحي بواسطة العنف، إلى من كرَّس للذة نفسه بالتعود والتربية، باللذة المؤلمة لأنها بلا حدود، وبالمتعة المتغلغلة في الدم لأنَّ جروحها بليغة.

وعندما تُسْتَخْدَم هذه الطرائق الثلاث مجتمعة كما هو الشأن لديّ - أنا المُصفِّي المغالي للإفراطات الزائفة، المهندس الذي شيد أبنيته من أحاسيس مرهفة بمضاء الذكاء - وبالتنازل عن الحياة، وبالتحليل المُمِضّ وبالألم المحض - وعندما أخضع ألماً أحسُّ به على الفور، وبدون إبطاءٍ للتحليل حتى حدود الاستحالة، مموضعاً إياه داخل أنا خارجي مطلق الخارجية، ومدفوناً فيَّ حتى أوجّ كينونته ألماً، حينئذٍ

أحسّني أنا الظافر حقاً والبطل، حينئذٍ تتوقف الحياة بين يدي، والفن يرتمي تحت قدمي.

هذا كله إنما يُكَوِّنُ فقط الخطوة الثانية التي ينبغي للحالم أن يخطوها باتجاه حلمه.

الخطوة الثالثة، التي تقود إلى عتبة المعبد - مَن سواي عرف كيف يخطوها؟ - تكلف كثيراً لأنها تتطلب ذلك الجهد الداخلي الأصعب بكثيرٍ من المجهود الذي تتطلبه الحياة، لكنه يقدم تعويضات للروح لن تستطيع الحياة أبداً تقديمها. الخطوة الثالثة تلك تعني - بعد أن تستخدم المراحل أو الطرائق الثلاث مجتمعة حتى الاستنفاد - الانتقال إلى الإحساس الفوري بواسطة الذكاء الخالص، مصفى بواسطة التحليل الأعلى كيما ينحت في شكلٍ أدبيّ ويتخذ هيأة وصورة خاصة. . . حينئذٍ أكون قد حوَّلت اللاواقعي إلى واقعي ومنحت العسيرَ المنال ركيزةً خالدة. حينئذٍ أكون أنا المتوَّج إمبراطوراً داخل أناي.

لا ينبغي أن تعتقدوا أنني أكتب للنشر، ولا للكتابة نفسها، ولا حتى لأصنع فناً. أكتب لأنّ الأمر هكذا، بدافع المغالاة القصوى في الدقة، المغالاة اللامنطقية مزاجياً. (. . .) من تربيتي لأوضاع الروح. لو أمسكت بواحدٍ من أحاسيسي ونسلته حتى أتمكن به، من نسج الواقع الجواني الذي أسميه غيضة الجنون، أو السفر اللامنجز أبداً، فلتكونوا واثقين من أنني سأفعل ذلك، لا لكي أجعل النثر يتألق ويرتعش، ولا حتى لكي أستمتع أنا بهذا النثر - ولو أنني أرغب في ذلك أيضاً، في تلك الحذاقة النهائية المُضافة، مثل إنزال بديع للستارة في مشاهدي المحلومة - وإنما لكي أمنح بَرّانيَّةً كاملة لما هو جوّاني، ولكي أنجز على هذا النحو ما لم يتمّ إنجازه، مُصرِّفاً المتناقضات،

وواهباً الحلم الخارجي أقصى طاقة على الحلم الخالص؛ مجمد الحياة وحابسها أنا، مشذّب الزوائد، الخادم العليل لروحي الملكة، أقرأ للشفق، لا القصائد الموجودة في كتاب حياتي، المفتوح فوق ركبتي، وإنما القصائد التي أمضي خالقاً إياها ومتظاهراً بقراءتها، وهي بدورها تتظاهر بسماعي، بينما المساء، هنالك في الخارج لا أدري أين ولا كيف يُشيعُ فوق هذه الاستعارة المرفوعة بداخلي بواقعيةٍ مطلقة حلاوة النور الواهي والأخير لنهار روحيٍّ غامض.

(خليط)

يا للثمل الخفيف للحمى الناجمة عن همٍّ ناعمٍ بارد ونفّاذ عبر العظام المتألمة وساخن في العينين تحت الصدغين النابضين. أحب ذلك الحزن حُبَّ عبدٍ لطاغيةٍ معشوق. إنه يمنحني تلك السلبية المقهورة المرتجفة التي ألمح من خلالها رؤى، وأبدّل زوايا أفكار مُبلبلاً داخل مشاعر شتى مُحرَّفة.

التفكير، الإحساس، الرغبة، تصبح كلها شيئاً واحداً ملتبساً. التصورات، الانطباعات، الأشياء المتخيّلة والواقعية يختلّ نظامها مثل خليطٍ من صناديق مقلوبة على الأرض.

1915؟

توأمٌ سيامي

هكذا أنا حساس وعديم الجدوى، قادرٌ على اقتراف أعنف النزوات، خيرة وشريرة، نبيلة وخسيسة، لكن ليس أبداً بإحساسٍ يدوم طويلاً، وينفذ حتى جوهر روحي. كلّ ما بداخلي نزّاعٌ إلى أن يكون على الفور شيئاً آخر، إنه جزء الروح مع ذاتها، كما لو مع

طفلٍ مزعج؛ إنها لاطُمَأْنِينَةٌ متنامية ودائماً هي نفسها. يهمني كلّ شيء وما من شيء يحبس ويوقف اهتمامي. منتبهاً إلى الكلّ أحيا حالماً على الدوام؛ أتفحص أضأل التعابير الوجهية لمن أحادثه، ألتقط التنغيمات الميليمترية لتعبيراته الكلامية؛ غير أنني لا أصيخ إليه، لدى سماعي إيّاه، تفكيري منصرفٌ إلى شيءٍ آخر، وما لا أنجح في الإمساك به من محادثتنا هو فكرة ما تبودل فيها من أقوال، سواء من طرفي أم من طرف محادثتي. هكذا، أجدني مراراً أعيد للشخص ما سبق أن أعدته على مسمعه من قبل، أسأله من جديد عمّا سبق أن أجابني عنه: كأنني قادرٌ على أن أصف في أربع كلماتٍ فوتوغرافية المظهر العضلي الذي تحدَّث به عمّا لا أتذكره، الانحناءة السمعية - بالعينين - تلك التي تلقّى بها الحَكْيَ الذي لا أتذكر أنني حكيته له. إنني اثنان وكلاهما يحتفظ بالمسافة، توأمٌ سيامي غير ملتصق.

عيد ميلاد

المزيد من التفكير.

يوم عيد الميلاد إنسانية، «واقع» عيد الميلاد، أجل، داخل كينونتي. الانفعال، مضى مثلما جاء. لكن خلال لحظةٍ معينة عايشت أماني وانفعالات أجيال لا تحصى، بالتخيلات الميتة لسلالة متصوفة ميتة.

عيدُ ميلادٍ بداخلي!

مجرّد أصوات

الأحاسيسُ الأشدُ إيلاماً، الانفعالات الأمضّ هي تلك المتميزة بلاجدواها، قلق الأشياء المستحيلة، بالضبط لأنها مستحيلة، الشوق

الجزوع إلى ما لم يوجد قط، الرغبة فيما كان ينبغي أن يكون، الحزن من عدم كوننا آخرين، عدم الرضى بوجود العالم، كلّ حالات وعي الروح هذه تخلق فينا مشهداً مؤلماً، غروب شمسٍ دائم لما نحن إياه. إحساسنا بنا حينئذٍ هو عبارةٌ عن حقلٍ قاحل عند الإمساك، حقل كئيب من أسلاتٍ منتصبة عند قدم نهرٍ بلا مراكب تسوّد وتَسْودُّ بجلاءٍ وسط هوامش مُقصاة.

لا أعلم إن كانت هذه الأحاسيس جنوناً بطيئاً متولِّداً عن الغم المتأصل، أو تذكراتٍ لأي عالمٍ آخر وجدنا فيه قديماً - تذكرات متقاطعة ومختلطة. لا معقولة في الصورة التي نراها بها لكنها ليست كذلك في الأصل لو كنا عرفناه. لا أدري إن كانت قد وجدت بالفعل تلك المخلوقات التي كُنّاها، والتي نشْعر اليوم بامتلائها الكبير، من خلال ظلها الذي هو نحن، بكيفيةٍ ناقصة بالطبع بعد أن فَقَدَتْ رسوخها القديم مُجسّدين إياها سيئاً عبر البُعدين الوحيدين للظلّ الذي نحياه.

أعرف أنَّ هذا التفكير المتولّد عن الإحساس يؤلم الروح حدّ الحنق. إنَّ استحالة تجسدنا في شيءٍ ينتمي إلينا يثقل كاهلنا مثل إدانةٍ معلنة لا نعرف أين ولا ماذا ولا بحقّ من.

لكن ما يبقى من الإحساس بهذا كله هو الاستياء من الحياة ومن حركاتها كافة، هو التعب المسبق للرغبات ولكل أشكالها، استياءٌ مجهول من الانفعالات كافة. في ساعات الضجر النافذ هذه يستحيل أن نغدو حتى في الأحلام، عاشقين، أو أبطالاً، أو سعداء. كلّ هذا فارغ، حتى من فكرة كونه موجوداً. كل هذا قد قيل في لغةٍ أخرى، غير قابلةٍ للفهم بالنسبة إلينا، مجرد أصواتٍ مقطعية لا شكل لها بالنسبة إلى الإدراك. الحياة خاوية، الروح خاوية، العالم خاوٍ. كلّ

الآلهة يموتون بموتٍ أكبر من الموت. الكل فارغٌ أكثر من الفراغ ذاته. الكل عبارةٌ عن عماء اللاشيء.

وإذ أفكر هذا لأرى، إنْ كان بوسع الواقع قتلي ظمأً - أبصر فحسب مساكن لا تعبِّر عن شيء، وجوهاً لا معبرة، كذلك الإشارات. الكل ميت، الحجر، الأفكار، الأجساد. كلّ الحركات متوقفة، لا شيء يقول لي شيئاً. لا أتعرف على أي شيء، لا لأنني أستغرب الأشياء ولكن لأنني لا أعرف ما هي. لقد ضاع العالم. وفي عمق روحي - باعتبارها الواقع الأوحد لهذه اللحظة - ضيقٌ حاد وخفيّ، حزنٌ يشبه صوت من ينتحب في غرفةٍ مظلمة.

1931-9-3

شيء

نَفَس موسيقي أم حلم، شيء ما يبعث على الإحساس، شيء يدعو إلى عدم التفكير.

يا لعبء الإحساس! عبء ألّا مفر من الإحساس.

1930؟

لو أغمضت عيني

للإحساس بالنقاهة - خاصةً فيما لو مورس الإحساس/ بصورةٍ سيئة/ داخل أعصاب المرض السابق للنقاهة - بعض من فرح حزين.

ثمة خريفٌ يقيم في عمق التفكير، أو بعبارةٍ أفضل، شيء من بدايات ربيع، يبدو، في حالة عدم سقوط أوراق، هو الخريف، في الهواء وفي السماء.

للتعب خبرته الكبيرة المؤلمة قليلاً. نحسّ أنفسنا على هامش الحياة، ولو أننا في داخلها، كما لو كنا في شرفة المنزل الذي نعيش. متأملون نحن بدون تفكير، حاسّون بدون توفّر إحساسٍ محدّد. الإرادة تلتزم الهدوء، إذ ما من حاجةٍ إليها.

حينئذٍ يحدث أن تصعد ببطء إلى منصّة الوعي، ذكرياتٌ معينة، تمنيات، رغباتٌ مبهمة، مثل سائرين مبهمين ملموحين من أعلى الجبل. ذكريات أشياءٍ تافهة، تمنيات أشياء لم يسبِّب عدم تحقُّقها أي ألم، رغبات لم تمتلك عنف الفطرة، ولم تستطع أبداً أن ترغب في أن تكون.

عندما يتوافق النهار مع هذه الأحاسيس، كما هو الحال اليوم، - يومٌ نصفُ غائم، رغم الصيف، مع ريحٍ باردة تقريباً - يهيمن ذلك الوضع الروحي الذي فيه نفكر ونحسّ ونحيا هذه الانطباعات. الذكريات والتمنيات والرغبات لا تكون أجلى ممّا هي عليه، لكن ما يحدث هو أنَّ الإحساس يكون أقوى والحصيلة الملتبسة تثقل، على القلب، بصفةٍ غير معقولة.

ثمة بعضٌ من الأقاصي بداخلي في هذه اللحظة، إنني حقاً موجودٌ في شرفة الحياة، لكن ليس تماماً شرفة هذه الحياة. أنا موجودٌ فوق ذروتها، ناظراً إليها من حيثما أراها. إنها ترقد أمام نظري، نازلةً درجاً ومنزلقات، مثل مشهدٍ طبيعيٍّ مختلف، الدخان المنبعث من المنازل البيضاء، لقرى الوادي. لو أغمضتُ عيني، سأستمرّ في النظر، لأنني لا أرى شيئاً. لو فتحتهما، لما جاوزت حدّ الرؤية، لأنني لم أرَ شيئاً. أنا كلي حنينٌ غامض مجهول، مديد لا مفهوم للحاضر.

1932-7-16

في ضيافة الوعي

بداخلي كانت حدّة الأحاسيس دائماً أقلّ من حدة الوعي بها.
لقد عانيت دائماً من الوعي بكوني أعاني أكثر من معاناة امتلاكي للوعي.

حياة أحاسيس انتقلت، منذ البداية، إلى صالات التفكير، وهنالك عشت دائماً بانفتاح أكبر المَعْرِفَةَ التأثيرية بالحياة.

وكما أنَّ التفكير، عندما يضمّ الإحساس، يصبح أكثر استلزاماً له، كذلك نظام الوعي الذي انتقل ما أحسستُ به للعيش فيه جعل طريقتي في الإحساس أكثر يومية، أكثر وبائية، أكثر تألقاً.

مأساتنا الوحيدة

أنا من تلك الأرواح التي تقول النساء إنهن يعشَقنها ولا يتمكن من التعرف أبداً عليها عندما يلتقين بها. أعاني رقّة مشاعري بانتباهٍ لا مبالٍ، أمتلك كلّ المزايا المحبوبة لدى الشعراء الرومانتيكيين، وحتى افتراض الخلو من تلك المزايا يؤهلني في الواقع لأكون شاعراً رومانتيكياً. أجدني موصوفاً في العديد من الروايات، كبطلٍ لتشابكاتٍ شتى؛ لكن ما هو جوهريّ في حياتي، كما في روحي، هو أنني لست بطلاً على الإطلاق.

لا أملك فكرةً عني، حتى ولا تلك المتمثِّلة في عدم وجود فكرة، عن ذاتي نفسها. إنني رحالةٌ داخل جغرافية وعيي بذاتي./ قطعان ثروتي الباطنية ضلَّت الطريق منذ البداية/.

مأساتنا الوحيدة تكمن في عدم إدراكنا لذواتنا كمأساويين. لقد تمكَّنت دائماً من رؤية معايشتي للعالم بجلاء. لم أشعر قط بوضوحٍ بحاجتي إلى التعايش معه؛ لذلك لم أكن سوياً قط.

المعضلات كافة غير قابلةٍ للحلّ. إنَّ الداعي، جوهرياً إلى وجود معضلة ما هو عدم وجود حلٌ لها. البحث عن معطى معناه عدم وجود أي معطى، أن نفكِّر معناه ألّا نعرف كيف نمارس الوجود.

(مليمترات (أحاسيس أشياء صغرى))

لأنَّ الحاضر قديمٌ جداً بحكم أنَّ ما سبق وجوده في الماضي كان عبارةً عن حاضر، لذلك لديّ تجاه الأشياء كافة لكونها تنتمي إلى الحاضر، شغف تاجر الخردوات.. وحُميّا جامعي الأشياء النادرة، متخطياً مَن بإمكانه تخليصي من تصوّراتي الخاطئة بتفسيراتٍ علميةٍ معقولة وحتى حقيقية.

إنَّ الأوضاع المتعددة التي تتخذها فراشةٌ تطير في الفضاء هي بالنسبة إلى عينيّ المنذهلتين أشياء متعددة تمكث، مرئية، في الفضاء. إنَّ ذكرياتي البعيدة تظلّ حيةً إلى حدّ (...).

وحدها الإحساسات الصغرى، أشدّ الأشياء ضؤولةً تستأثر بمركز اهتمامي الحاد. لعل هذا مردّه إلى شغفي بتوافه الأمور، هوسي بالتفاصيل - أو بالأحرى - لا أدري، أنا لا أحلِّل أبداً هذه الأمور - لأنَّ التفصيل الصغير، لعدم امتلاكه أي أهميةٍ على الإطلاق اجتماعية كانت أو عملية يملك استقلالاً مطلقاً عن أية ارتباطاتٍ قذرةٍ بالواقع. الصغير يعادل عندي اللاواقعي. اللامُجدي جميل لأنه أقل واقعية من المجدي الذي يستمر ويتمدَّد، فيما التافه العجيب، الممجِّد المتناهي في الصغر، يبقى حيث هو، دون أن يغدو ما هو إياه، حُراً يحيا ومستقلاً. اللامجدي والتافه يفتحان في حياتنا الواقعية أبعاداً لإستيتيقا متَّضعة. كم من أحلام وعذوبات

عاشقة استثارها في روحي مجرّد وجودٍ عديم الدلالة لدبوسٍ مغروز في شريط! كم هو بئيسٌ مَن لا يعزف أهمية هذه الأمور!

بعدئذٍ، من بين الأحاسيس النفاذة الإيلام حتى اللذة، يبرز قلق المغيَّب، باعتباره أشدّ هذه الأحاسيس تعقيداً واتساعاً. والمغيب لا يشف كثيراً كما في تأمّل الأشياء الصغرى التي، لعدم تحركها، تتوقف حيث هي متيحة له أن يتجلى من خلال شفوفها الخاص. من الصعب امتلاك الإحساس بالمغيب من خلال تأمل معركة، كذلك التفكير في اللامعقولية المتمثلة في وجوه أناس، ومجتمعاتٍ وصراعات فيما بينها هو ممّا يمكن أن يمدّد داخل ذهننا راية اكتساح المغيَّب أكثر بكثير من مجرد تأمل حجيرةٍ جامدة في طريقٍ ما، لأنها، لعدم إثارتها لأي فكرةٍ زائدة كونها موجودةً ليس بإمكانها استثارة أيّ فكرةٍ أخرى... طوبى للهنيهات، للمليمترات، ولظلال الأشياء الصغرى، الأكثر مسكنةً من الأشياء، الهنيهات، (...) المليمترات - يا لانطباع الدهشة والجسارة الذي يُحدِثُه فيّ وجود هذه الأشياء، الواحد جنب الآخر متقاربين جداً، في شريطٍ متري. أحياناً أتألم وأستمتع بهذه الأشياء. لدي/ زهو فظ/ بهذا.

إنني لوحةٌ فوتوغرافية شديدة الحساسية، كل التفاصيل تنطبع فيّ بتفاوت مشكِّلة جزءاً من كل. منشغل فحسب بذاتي. العالم الخارجي بالنسبة إلي عبارةٌ عن إحساسٍ بالطبع. لا أنسى أبداً ما أحسّ.

1914؟

اشتباكات

سيئٌ أن نعرف أنَّ المؤلِّف الذي لن يكتب أبداً سيكون سيئاً. غير أنَّ الأسوأ سيكون بالذات ذلك العمل لا يكتب البتة. ما ننجزه يبقى، بالأقل، منجزاً.. لعله عملٌ بائس لكنه موجود، مثل النبات المسكين في الأصيص الوحيد لجارتي الكسيحة. هذا النبات هو مسرتها، وأحياناً مسرتي أنا أيضاً. ما أكتبه، عارفاً أنه سيئ، بإمكانه أن يوفِّر لحظات تسلية من صلب عملي السيئ بالنسبة إلى هذه الروح المكدرة أو تلك المحزونة. قد يكفيني هذا أو لا يكفيني، لكنه يفيدني بكيفيةٍ ما، وهكذا هي الحياة.

ثمة ضجر، فقط يحوي مسبقاً إرهاصاً بمزيدٍ من الضجر؛ ثمة حزنٌ متولد عمّا سيُضاف غداً من حزنٍ إلى خزان أحزاني، حزنٌ ناجمٌ عمّا توفر اليوم من أحزان - اشتباكات كبرى بلا نفعٍ ولا حقيقة، اشتباكاتٌ كبرى...

... حيث منكمشاً في مقعد انتظارٍ بالمحطة الصغيرة، ينام احتقاري في معطف خمودي...

... عالم المشاهد المحلومة،... معرفتي وحياتي..

عَبَثاً يغمني أو يدوم بداخلي وسواس الساعة الراهنة. أعاني من جوعٍ ناجمٍ عن تمدُّد الزمن، وأريد أن أكون ذاتي بلا شروط.

شتائم الحياة

أعيد، بتيقُّظ، قراءة كلّ ما كتبت، مقطعاً مقطعاً، فأجده عديم الجدوى وأرى أنه كان يجدر بي ألّا أكتب البتة ما كتبت. إنّ للأشياء المنجزة، إمبراطوريات كانت أم عبارات، ذلك الجانب الأسوأ، لكونها قد أنجزت من الأشياء الواقعية ألا وهو معرفة أنها زائدة. مع

ذلك، ليس هذا ما أحسّه وما يؤلمني فيما أنجزته، في هذه اللحظات التي أعاود فيها القراءة. مايؤلمني هو أنه لا يستحق الجهد المبذول لإنجازه، وأنَّ الوقت الذي أضعته فيما كتبته لم أغنمه إلّا بتوهُّمي - انجلى الوهم الآن - إنه يستحق أن ينجز.

الطموح أو الرغبة هما ما يحثنا على السعي وراء الأشياء كلها، لكن موقفنا في النهاية لا يخرج عن إحدى حالين: إمّا أن نفشل في تحقيق المسعى وحينئذٍ نغدو مساكين وإمّا أن نخال أننا نجحنا في تحقيقه، فنصبح مجانين أثرياء.

ما يؤلمني هو أنَّ الأحسن ضار، وأنَّ الآخر، لو كان لدي، وهو ما به أحلم، لكنت أنجزته بطريقةٍ أفضل. كل ما ننجزه في الفن وفي الحياة هو نسخةٌ ناقصة مما فكرنا في إنجازه. أتنكر ليس فقط للكمال الخارجي وإنما للإتقان الداخلي أيضاً؛ لا تخذلنا قاعدة ما ينبغي أن يكون وحدها، بل كذلك قاعدة ما اعتقدنا بإمكانية وجوده. فارغون نحن، ليس من الداخل وحسب وإنما من الخارج أيضاً. منبوذو الأمل والوعود نحن.

بأيّ همة روحٍ متوحِّدة صَنَعْتُ الصفحات واحدةً تلو أخرى عائشاً مقطعاً مقطعاً السحر المزيف لا لما كتبت، وإنما لما افترضت أنني كتبته! تحت مفعول أي سحرٍ ساخر توجّت نفسي شاعراً لنثري في اللحظة المجنحة التي تدفق فيها لديّ النثر بأسرع من حركات القلم، مثل تعويض خدَّاعٍ عن شتائم الحياة! وفي النهاية، ها أنا الآن، أرى، معاوداً قراءتي، دمياتي ممزقة، والتبن مستخرجاً من أحشائها، وهي مفرغة بدون أن تكون...

غريب، أنا الذي فطرت على الضجر، لم يحدث لي أن تأملت فحواه. إنني أحيا هذا اليوم، حقاً ذلك الوضع الروحي البَيْن البَيْن الذي تنعدم فيه الرغبة في الحياة وفي غيرها. وأستخدم بالتذكر الفجائي لعدم تفكيري قط فيما كُنته عبر الحلم، طوال تأملاتٍ نصف انطباعية، التحليل شبه المصطنع لأيما شيء.

لا أدري، في الواقع، ما إذا كان الضجر مجرد مواصلة صاحية لإغفاءة التائه. أم أنه شيءٌ آخر، أكثر نبلاً في الحقيقة من ذلك الخدر. يعتريني القنط بتواتر غير أنه لا يخضع لقواعد ظهورٍ معينة، بإمكاني تمضية يوم أحدٍ خامدٍ بلا قنط، وقد يحدث أن أعانيه فجأةً، مثل ضبابةٍ خارجية، في أوج عملٍ متيقظ. لم أتوصَّل إلى إيجاد علاقةٍ بينه وبين وضعي الصحي جيداً أم سيئاً؛ لم أصل بعد إلى معرفته كنتاج عللٍ موجودةٍ في الجانب الجلي مني.

القول بأنه قلقٌ ميتافيزيقيٌّ متنكر، وأنه خيبة أملٍ كبيرةٍ مجهولة، وأنه قصيدةٌ صماء للروح البارزة ضجرةٌ من النافذة المطلة على الحياة - القول بهذا أو بما يماثله، يمكن أن يضفي تلوينات على الضجر، مثل التلوينات التي يضفيها طفلٌ على رسومه غير أنني لا شيء يناسبني أكثر من صوت كلماتٍ يحدث صدى في كهوف التفكير.

القنط. . . التفكير بدون أن نفكّر، مع معاناة التعب الناجم عن عملية التفكير؛ الإحساس بدون حدوث إحساس، مع قلق معاناة الأحاسيس؛ هذا كلّه موجودٌ في القنط بدون أن يكون قنطاً، وبدون أن يكون سوى شرحٍ مطوّلٍ أو ترجمة. في الإحساس المباشر، كما لو فوق أنقاض قصر الروح يرتفع الجسر المتحرك، لا يبقى بين القصر والأراضي، سوى مشاهدتهن بدون قدرةٍ على اجتيازهن. ثمة

إمكانية عزلتنا نحن في ذواتنا نفسها، بيد أنَّ ما يفصل هذه العزلة متأسِّن مثلنا نحن، ماءٌ وسخ يحيط بلامبالاتنا. القنط. . . أن نعاني بدون معاناة، أن نرغب بدون رغبة، أن نفكر بدون منطق. . . كما لو كنا ممسوسين من شيطانٍ سلبي، مسحورين من لا شيء. يقولون إنَّ السحرة الصغار، يصنعون لنا صوراً، يحمّلونها أسوأ المعاملات التي بفعل انتقال نجومي، تنعكس علينا نحن. القنط إنما يأتيني، من الإحساس المستبدل لهذه الصورة، من الانعكاس الخبيث لسحريات شيطانٍ من الجنيات، ليس من داخل خيالٍ من خيالاتي، ولكن عبر ظلّ هذا الخيال. ففي ظلي الباطني، في برّانيَّة باطنية روحي، تلصق الأوراق أو تغرز الدبابيس. إنني مثل الرجل الذي باع ظله أو بالأحرى، مثل الظلّ المبيع لرجل.

القنط. . . أعمل كثيراً. أقوم بما يدعوه أخلاقيو الفعل بواجبي الاجتماعي. أقوم بذلك الواجب، بدون مجهودٍ كبير وبدون لامبالاةٍ ملحوظة. لكن، أحياناً في غمرة العمل، وأحياناً أخرى في عزّ الراحة، تنتقل إليّ من روحي مباشرة مرارة فتور تُشعرني بالتعب لا من العمل ولا من الروح، ولكن من ذاتي نفسها.

لماذا أتعب مني طالما لم أفكر في ذاتي؟ ولِمَ أتعب من أي شيءٍ آخر لم يكن البتة موضوعاً لتفكيري؟ سرّ الكون، لغزه النازل لحسابي؟ الألم الكوني للعيش وقد تخصص فجأةً داخل روحي الوسيطة؟ لماذا نرفع كثيراً، منزلة مَن لا يعرف من هو؟ إنه إحساسٌ بالخواء، جوعٌ بدون رغباتٍ في الأكل، إحساسٌ نبيل هو مثل أحاسيس الدماغ والمعدة، الناجمة عن الإفراط في التدخين أو سوء الهضم.

القنط. . . هو ربما، في العمق، عدم رضا الروح الباطنية لأننا

لم نزوِّدها بإيمانٍ أو عقيدة، إنه أسى الطفل الحزين الذي هو نحن حميمياً، لأننا لم نشترِ له اللعبة الإلهية. القنط هو ربما الافتقار إلى الأمان بالنسبة إلى من يحتاج إلى يدٍ تقوده بدون أن يحسّ بوجودها، في الطريق الحالك للإحساس العميق، أكثر ممّا في سكينة ليل عدم القدرة على التفكير، في طريق عدم المعرفة بالإحساس...

القنط... من يمتلك آلهةً لا يعرف القنط أبداً. القنط هو الافتقار إلى ميثولوجيا. بالنسبة إلى مَن لا يملك معتقدات، حتى الشك يصبح متعذراً، حتى التشكك يفتقر عنده إلى القوة الكافية ليكون شكاً. أجل، ذلكم هو القنط: هو في الروح فقدان القدرة على الخداع، وهو في التفكير، الحاجة إلى السلم العديمة الوجود قصد الصعود بثقةٍ إلى الحقيقة.

1931-12-1

لست متشائماً، أنا حزين

ليس بإمكاني حتى برسمي ظلالاً من الألوان على ذلك الزجاج إخفاء ضجيج حياة الغير في الجانب الآخر عن نظري.

لكَم هم محظوظون صناع نظم التشاؤم؟ إنهم لا يحتمون فحسب بكونهم قد صنعوا شيئاً ما، ولكن يُسرون أيضاً بالمفسّر والمشروح، وينضوون تحت لواء الألم الكوني. أنا لا أشتكي من جراء هذا العالم. لا أحتجّ باسم الكون. لست متشائماً. أنا أعاني وأشتكي لكنني لا أدري ما إذا كان الشر الموجود كامناً في المعاناة وما إذا كان التألم إنسانياً بالفعل. ماذا يهمني أن أعرف إنْ كان ذلك أكيداً أم لا؟

أنا أعاني، ولا أدري أأستحقّ ما أعانيه.

لست متشائماً، أنا حزين.

لستُ ساخطاً، لأنَّ السخط مقصورٌ على الأقوياء؛ لا أتنازل لأنَّ التنازل من شيم النبلاء؛ لا أصمت لأنّ السكون فضيلة الكبار. وأنا لست قوياً، ولا نبيلاً، ولا كبيراً. أتألم وأحلم. أتشكّى لأنني ضعيف، لأنني فنان، أتسلى بإضفاء الموسيقية على شكواي وحسبي بتنظيمي أحلامي أن تبدو جميلةً لتفكيري.

أتأسف فقط لكوني لست طفلاً، حتى أتمكّن من تصديق أحلامي؛ ولكوني لست مجنوناً، حتى أتمكَّن من الابتعاد عن أرواح جميع الذين يحيطون بي، (...).

أخذي الحلم مأخذ الواقعي، ومعايشتي الأحلام بإفراط، مَنحي حتى الشوك للوردة المزيفة لحياتي المحلومة التي حتى الأحلام فيها لا تروقني، لأنني أجدها حافلةً بالعيوب.

(بعد 1913)

مرمر

سيطلقون على قدرتي على العيش عبقرية، وعلى جبانتي (...) نعومة.

لقد وضعت نفسي - إله مذهّب صحبة آخر مزيّف - في مذبحٍ من ورقٍ مقوى ملوّن كيما يبدو من مرمر.

قبل أن يجفّ الصيف

قبل أن يجف الصيف ويحلّ الخريف في الفاصل الحار حيث الهواء ثقيل والألوان مليّنة، يحدث أن ترتدي المساءات بدلةً حسّاسة من مجدٍ زائف. بحيث تمكن مقارنتها بتلك الخدع التي تبتكرها

المخيّلة حيث الاشياقات فيها من هباء، ومع ذلك تستطيل وتتمدَّد لا متعينة مثل آثار مخور مراكب تشكّل الحية المديدة المتوالية نفسها.

في هذه العشيات يملؤني، مثل بحرٍ في أوجّ مده، إحساسٌ أسوأ من القنط، لكن لا يستوعبه اسمٌ آخر غير القنط - إحساسٌ بحزنٍ لا مكان له، بغرق الروح بكاملها. أحسّ أنني ضيعت إلهاً خدوماً، وأنَّ جوهر الكل كلّ شيء قد مات. أمّا الكون الحساس فهو بالنسبة إليّ جثة أحببتها عندما كانت حيةً ترزق؛ لكنها الآن أضحت هباءً في النور الدافئ للغيوم المُضاءة.

قنوطي يتَّخذ مظاهر مرعبة؛ قنطي عبارةٌ عن خوفٍ مكين. عرقي ليس بارداً، لكن وعيي بعرقي مصابٌ ببرودٍ عقيم. لا أعاني من وعكةٍ فيزيقية، عدا أنّ توعك الروح كبير إلى حدّ أنه يمرّ عبر مسام الجسد مصيباً إياه هو ذاته بالبرود.

ما أهول هذا القنط، ما أهول هذا الرعب! رعب الوجود على قيد الحياة، إنني لا أستطيع تصوّر الشيء الذي يمكن أن يحوّله إلى مسكّنٍ، أو ترياق، أو بلسمٍ أو نسيان. النوم يرعبني مثلّ كل شيء. كذلك الموت. المشي والتوقف في الآن نفسه يمثلان الاستحالة نفسها. أن تنتظر ولا تؤمن بشيء هو مرادفٌ للبرود والرماد. إنني عبارةٌ عن رفٌّ مملوءٍ بقوارير فارغة.

ومع ذلك؛ أيّ شوقٍ للمستقبل سيعروني لو تركت عيني المبتذلتين تتلقيان التحية الميتة للنهار المضيء الذي يتوارى؛ يا لجنازة الأمل الجليلة تمضي عبر السكون المذهب للسماوات الهامدة! أي مواكب لخواءات وهباءات مجيدة تمتد في زرقة مجسّمة سوف تغدو شاحبة عبر السهول الفسيحة للفضاء المبيض!

لا أعرف ما أريد أو ما لا أريد. لقد تخلَّيت عن معرفة ما يُراد، عن معرفة كيف تُراد الأشياء، عن معرفة الأحاسيس أو الأفكار التي بواسطتها نعرف أننا نريد، أو نرغب في أن نريد.

لا أعرف مَن أنا ولا ما أنا إياه. مثل شخصٍ مدفون تحت سورٍ منهار، أرقد تحت الخواء الراقد للكون بتمامه. وهكذا أمضي، عبر أثري أنا بذاتي، حتى يحلّ المساء...

آهٍ، للقمر العالي لهذه الليالي الهادئة، الدافئة من قلقٍ ولا طمأنينة! للسلام المشؤوم للبهاء السماويّ، للسخرية الباردة للهواء الدافئ، الأزرق المسودّ الملبَّد بنصاعة البدر وخفر النجوم.

1931-8-22

(نتف من سيرة ذاتية)

في البداية كانت التأملات الميتافيزيقية مصدر تسليتي، وبعدئذٍ الأفكار العلمية. لقد كانت مجلبة في النهاية لـ (...) الاجتماعية. بَيْدَ أنني لم أجد في أي ميدانٍ من ميادين بحثي عن الحقيقة ما يخفِّف عني ويمنحني الأمان. لقد قرأتُ القليل بخصوص هذه الانشغالات. ولكن في القليل الذي قرأت، أتعبتني كثرة النظريات، والمفارقات المثبتة في أفكارٍ مطوّرة وكلها، بالقدر نفسه من الاحتمالية متماشية مع قدر من الانتقائية في الأفعال التي تمتلك القدرة على أن تختزل الأفعال كافة. لو رفعت عيني المتعبتين عن الكتب المقروءة أو لو سرَحت بعيداً بأفكاري المشوشة صوب العالم الخارجيِّ، فلن أبصر سوى مسألة واحدة تدحض كل الجدوى الكامنة في القراءة والتفكير، وتنتزع بتلات جدوى فكرة المجهود واحدةً تلو الأخرى: إنه التعقد اللانهائي للأشياء، المجموع الشاسع (...)، التعذّر، المديد

للعناصر القليلة نفسها التي يمكن اعتبارها أساسيةً في خطاطة أي علمٍ من العلوم.

ضد الإحساس بالفضيحة

الاستياء الناجم عن عدم العثور على أيّ شيء يتحول شيئاً فشيئاً هو ذاته إلى لُقيةٍ واكتشاف. أكتشف نظاماً ولامنطقاً في عالم الأشياء توصلت فقط من خلالهما إلى ارتيابيةٍ تفتقر حتى إلى منطقٍ خاص تبرر به نفسها. لم أفكر قط في علاج لوضعي هذا - لماذا يتوجب عليّ أن أتعالج من هذا؟ وما معنى أن أكون معافى؟ وهل أنا متيقنٌ من أنّ وضعي الروحي هذا ينتمي بالضرورة إلى المرض؟ ومَن ذا الذي يعطينا ضمانة كون المرض، لو صحَّ أنَّ الوضع مرضي، ليس بأكثر مرغوبية، ومنطقية أو أكثر (...) من الصحة؟ وإذا كانت الصحة مفضَّلة على المرض، فلماذا أنا مريض لو لم يكن بفعل باعثٍ طبيعي، وإذا كنت كذلك بالطبع، فلماذا عليّ معاكسة الطبيعة التي لأجل غايةٍ ما، إنْ كانت لديها غايات، جعلتني بالتأكيد مريضاً؟

لم أعثر أبداً سوى على حججٍ للعطالة والكسل. يوماً بعد يوم يتصفى أكثر فأكثر بداخلي - الوعي المظلم بخمولي كمنسحب من الحياة. دَيْدَني هو البحث عن وسائل للعطالة. خلاصي يتمثَّل في الهروب من كلّ مجهود يخصّني، من كل مسؤوليةٍ اجتماعية - لقد نحتت في هذه المادة من (...) التمثال المفكّر فيه لوجودي.

لقد تخليت عن قراءات، عن نزواتٍ صدفوية لهذا النمط الجمالي للحياة أو ذاك. من القليل الذي قرأت تعلّمت كيف أجلب وأنتقي العناصر الصالحة للحلم فقط. ومن القليل الذي عاينت ورأيت، تعلّمت كيف أستخرج ما يمكن استخراجه فقط، في انعكاس/ بعيداً/

و (. . .)، تمديده أكثر بداخلي. لقد أجهدت نفسي، لأنَّ جميع أفكاري، كلّ الفصول اليومية لتجربتي أمدّتني بالأحاسيس وحسب. صنعتُ توجهاً إستيتيقياً. ووجهت تلك الإستيتيقا بما يجعلها فرديةً على نحوٍ خالص. جعلتها مقصورةً عليّ لوحدي.

اجتهدتُ بعدئذٍ، في مجرى لذِّيتي الخاصة، في انتحال الحساسيات الاجتماعية، وشيئاً فشيئاً حصَّنت ذاتي ضدّ الإحساس بالفضيحة، علمتُني كيف أفقد الحساسية إزاء نداءات الغرائز، والامتصاصات (. . .).

لقد اختصرت إلى الحدّ الأدنى اتصالي بالآخرين. عملتُ كل ما أستطيع لكي أفقد كلّ ميل إلى الحياة، (. . .)، ثم من الرغبة في المجد تجرّدت شيئاً فشيئاً، كمن يتعرى في حالة إعياءٍ قصوى لكي يستريح.

حسبي فنجان قهوة

من دراسة الميتافيزيقا، (. . .) انتقلتُ إلى الانشغالات الروحية الأشدّ عنفاً لأجل توازن الأعصاب. أمضيت ليالي مرعبة منحنياً على مؤلفات المتصوفة والقباليين، تلك التي لم أمتلك قط الصبر اللازم على قراءتها بالكامل بطريقةٍ أخرى غير القراءة المتقطعة المرتجفة و(. . .).

طقوس وبراهين الـ. . .، رمزية (. . .) القبالة والمعبديين (. . .) - عانيت خلال زمن طويل تجربة القربى من كلّ ذلك. وقد غصَّت حمى أيامي بالتأملات السامة، بالحوافز الشيطانية للميتافيزيقا - السحر (. . .) والخيمياء - واستخلصتُ باعثاً حيوياً مصطنعاً من إحساسٍ مؤلم وتنبُّئي بوجودي دائماً كما لو على حافة معرفة السرّ

الأعلى. ثم ضعت في أنساقٍ للميتافيزيقا، ثانوية، ومبهمة. أنساقٌ مكتظة بالتشابهات المشوّشة، بمكائد موجهة للإدراك، ترتب مشاهد ملغزة حيث انعكاسات المافوق طبيعي تبتعث الغوامض في المحيطات.

شيّختني أحاسيسي... استنفدت ذاتي مستمتعاً بالأفكار... حياتي تحولت إلى حمى ميتافيزيقية، مكتشفاً على الدوام معاني خفية في الأشياء، لاعباً بنار المشابهات السرية،... الجلاء الكامل، التوليف السويّ لأجل (...).

سقطت في تمردٍ دماغيّ معقَّد، حافل باللامبالاة. بأي مكانٍ لُذْتُ؟ يخيّل إليّ أنني لم أُلذ بأيّ مكان. لقد تخليت عن شيءٍ ما لا أدري ما هو.

رَكّزْتُ رغباتي ووضعت لها حدوداً، حتى أتمكن من إعدادها على نحوٍ أفضل. لأجل الوصول إلى اللانهائي الذي أعتقد بإمكانية الوصول إليه. من اللازم أن نتوفر على ميناء، ميناءٍ واحدٍ أكيد، نقلع منه صوب اللامتعين.

أنا اليوم متنسِّك في ديانتي الخاصة بي. حسبي فنجان قهوةٍ وسيجارة كيما تعوّضني أحلامي جيداً عن الكون ونجومه، عن العمل، عن الحب، وحتى عن الجمال والمجد. لست بحاجةٍ تقريباً إلى حوافز. لديّ أفيونٌ في الروح.

أي أحلامٍ لديّ؟ لا أعلم. لقد جاهدتُ لبلوغ نقطةٍ لا أعرف فيها موضوع تفكيري، ولا بماذا أحلم، ولا أي رؤى تَعنُّ لي. يبدو لي أنني أحلم أكثر فأكثر - من مكانٍ أبعد فأبعد، وأنني أحلم باطِّراد - أكثر فأكثر، بما هو غامض، وغير محدَّد، وبما هو غير حساس من الرؤى.

لا أملك بخصوص الحياة نظريات. لا أعلم أرديئةٌ هي أم جيدة، لا أفكر بالأمر. قاسيةٌ وكئيبة تبدو لعيني، مع أحلامٍ لذيذة تتوسّطها. ماذا يهمني ما تمثّله بالنسبة إلى الآخرين؟

حياة الآخرين تفيدني فحسب في أن أجعل كلّ واحدٍ منهم يعيش الحياة التي تبدو لي ملائمةً في أحلامي.

نسيم

أيُّ مداعبةٍ غامضة، - سوف تبدو أكثر نعومة كلما كفَّت عن أن تكون مداعبة - يحملها النسيم الملتبس للمساء إلى الوجه والإدراك. أعلم فقط أنَّ الضجر الذي أعانيه يلائمني بشكلٍ أفضل، خلال لحظةٍ معينة، مثل ثوبٍ تخلت قرحةٌ ما عن لمسه.

ما أبأس الحساسية التي يتوقف ظَفَرُها بالسكينة على حركةٍ صغيرة من الفن! لكن هكذا هي الحساسية الإنسانية كلها؛ وأنا لا أعتقد برجحان كفة المال المغنوم بغتة، أو الابتسامة المتلقاة فجأة، في ميزان الكائنات، وهما يعنيان بالنسبة إلى الآخرين ما عناه بالنسبة إلي، في هذه اللحظة، المرور الخفيف لنسيمٍ متقطع.

بإمكاني التفكير في النوم. بإمكاني أن أحلم بالحلم. أرى بجلاء أكبر موضوعية الأشياء كافة. أستخدم براحةٍ أكبر الشعور الخارجي للحياة. وهذا كله، بالفعل، لأنَّ تغيراً في الهواء، لدى وصولي إلى الزاوية، يدخل المسرَّة على سطح الجلد.

كلّ ما أحببناه أو فقدناه - من أشياء، كائنات، ودلالات - يحتكّ بجلدنا واصلاً هكذا إلى شغاف الروح، والحدث بالنسبة إلى الله هنا، ليس بأكثر من النسيم الذي لم يحمل إليّ شيئاً ما عدا

التخفيف المفترض، واللحظة المواتية وإمكانية إضاعة كلّ شيء بسخاء.

خبرٌ صغير

لا أعرف عدد الذين سيتأملون بالنظر الجديد بشارعٍ مقفر بمن فيه من الناس هذه الطريقةَ في القول التي تريد أن تقولَ أيّ شيء، وذلك ما تريده بالفعل. إنَّ شارعاً مصغّراً ليس بشارعٍ لا يمرّ به أحد، وإنما هو كذلك لأن الذين يمرون، يمرون عبره كما لو كان خالياً. لا توجد أيّ صعوبةٍ في إدراك هذا الأمر بمشاهدته مرَّةً واحدة: فالحمار لا وجود له بالنسبة إلى مَن لا يعرف أكثر من الحمار.

الإحساسات تتطابق، بداخلنا، مع درجات وأنماط إدراكنا لها. ثمة أشكال فَهْم تمتلك أشكال كونها مفهومة.

ثمة أيام، يتصاعد فيها بداخلي، كما لو من أرضٍ تنتمي إلى الغير، إلى رأسي الخاص، ضجرٌ واستياء من العيش لا يبدو لي غير محتمل لأنني في الواقع أتحمله. إنه اختناقٌ للحياة يعشِّش في الذات، إنها رغبتي في أن أكون شخصاً آخر تتغلغل في كلّ المسام، خبرٌ صغير بالنهاية.

(1932؟)

خجلٌ ذهنيّ

ما أعانيه فوق كلّ شيء، هو التعب، وهو تلك اللاطمأنينة التي هي توأم التعب حينما يفتقر إلى أيّ مبرر لكي يكون سوى ما هو عليه. لديّ ارتيابٌ باطني في الحركات التخطيطية، خجلٌ ذهني من

الكلمات التي عليّ أن أتلفّظ بها. كلّ شيءٍ يبدو محكوماً مسبقاً بالإخفاق.

يا للضجر اللامحتمل لكلّ هذه الوجوه، الغبية عن ذكاءٍ أو غباء، المضحكة حتى الغثيان لكونها سعيدةً أو شقية، المرعبة لأنها موجودةٌ لأنها موجودةٌ بالفعل، حركة بحرٍ مفصولة عن الأشياء المعيشة التي لا تنتمي إليّ...

(1932؟)

موت موت

الموت هو نحن. وهذا الذي نحسبه حياة، هو حلم الحياة الواقعية، هو موتُ ما نحن إياه حقاً. موت نحن موت. الموتى يولدون، لا يموتون. العوالم مستبدلة بالنسبة إلينا، عندما نعتقد أننا نحيا، نكون في الحقيقة ميتين؛ سوف نحيا عندما نحتضر.

تلك العلاقة الكائنة بين الحلم والحياة هي نفسها القائمة بين ما ندعوه حياة وما ندعوه موتاً، إننا نيام، وهذه الحياة عبارةٌ عن حلم، ليس بمعنى مجازي أو شعري، ولكن بمعنى حقيقي.

كل ذلك الذي نعتبره غاية أنشطتنا العليا، مندرجٌ في الموت، بل هو موتٌ كله. ما هو الأمر الأمثل إنْ لم يكن الاعتراف بأنَّ الحياة لا تصلح لشيء؟ ما هو الفن إنْ لم يكن نفياً للحياة؟ التمثال أي تمثال هو جسدٌ ميت، نُحِتَ لتأمل الموت، من مادةٍ قابلةٍ للفساد. حتى اللذة نفسها، التي بدت انغماساً في الحياة، هي غوصٌ في ذواتنا قبل كلّ شيء، هي تقويضٌ للعلاقات بيننا وبين الحياة، هي ظلُّ موتٍ مهيّجٌ.

العيش بذاته عبارةٌ عن موت، لأننا لا نملك يوماً يُضاف إلى

حياتنا بدون أن نفقد فيها يوماً آخر أقلّ يلتهم هذه الحياة.

نحن نعمر الأحلام، نحن ظلالٌ منشورة عبر غاباتٍ مستحيلة، حيث الأشجار عبارةٌ عن منازل، عادات، أفكار، مثاليات وفلسفات.

لا تحاول العثور أبداً على الله، لا تسعَ أبداً، حتى إلى معرفة أنه موجود، فلتمض من عالمٍ إلى عالم، من تجسّدٍ إلى تجسّد، دائماً مع الوهم الممالق، دائماً مع الخطيئة المداعبة.

الحقيقة، لا مطلقاً، التوقف كلا، أبداً! الاتحاد مع الله، أبداً! لا تعِش البتة في سلامٍ تامٍّ دائماً، عِشْ بالقليل منه، دائماً بالرغبة وحدها في السلام!

خوفان

... وأنا الذي أكره الحياة بحياء، أخشى الموت بافتتان. لدي خوفٌ من ذلك العدم الذي يمكن أن يكون شيئاً آخر، ولدي خوفٌ منه كعدم وكأي شيءٍ آخر، كما لو أنَّ بالإمكان اجتماع الباطل والرهيب فيه، كما لو أنهم حبسوا لديّ في التابوت التَّنَفُّسَ الخالد لروحٍ مجسدة، كما لو أنهم كانو يجلدون الأزلي هناك بقوة المحبس[1]. فكرة الجحيم التي لا يمكن أن تكون قد اخترعتها سوى روح شيطانية. تبدو لي مشتقةً من غموض هذا الطالع - لكونها مشكَّلةً من مزيج خوفين مختلفين يتناقضان ويتنابزان.

(بعد 1923)

---

(1) Clausura: محبسة في دير محرم دخوله لغير الإكليروس.

راية الظفر

لأجل الشسوع الممكن للهاوية: هاوية كلّ شيء، أحمل معي على الأقل، مجد خيبة أملي كما لو كان مجد حلمٍ كبير، أحمل إشراقة عدم حسبانه راية هزيمة - موضوعة مع ذلك، في اليدين الضعيفتين، لكنها رايةٌ مجرورة من وحل ودم الضعاف... رايةٌ مرفوعة إلى الأعلى، آناء غوصنا في الرمال المتحركة، لا أحد يعلم إنْ كانت مرفوعةً كاحتجاج، أو كتحدٍّ، أو كإشارة يأس... لا أحد يعلم، إذ ما من أحدٍ يعلم شيئاً، والرمال تبتلع مَنْ يملكون راياتٍ مثلما تبتلع مَن لا يملكها...

والرمال تغطي كل شيء، حياتي، نثري، خلودي.

أحمل بداخلي الشعور بالهزيمة مثل راية الظفر.

قيامةٌ من غم

أحزان أرواحنا هي دائماً مشتقةٌ من فواجع الكون. عندما تحلّ فينا، تضيع حوالينا الشمس وتتكدر النجوم. في كلّ روحٍ مشبعة إحساساً لا بد أن يصل اليوم الذي يتحول فيه القدر لديها إلى قيامةٍ من الغم - انقلاب السماوات والعوالم على غمها.

أن تشعر بأنك الأعلى ثم ترى ذاتك معاملاً من القدر باعتبارك أدنى حتى من الوضعاء - مَن ذا الذي يستطيع أن يركبه الكبر من كونه إنساناً في وضعٍ كهذا الوضع.

لو أمكنني ذات يوم أن أقتنص إشراقة تعبيرٍ كبرى تختزل الفن كله بداخلي، لكتبت تأليهاً كاملاً للنوم. لا أعرف في حياتي كلها لذةً كبرى غير القدرة على النوم. الانطفاء الكامل للحياة وللروح، أريد

كبريائي

كبريائي صعقها العميان وخيبتي داسها المتسولون.

يومٌ بلا تاريخ ولا ماهية

تعب الذكاء المجرد هو الأشد رعباً من كلّ أنواع التعب، إنه لا يملك ما للتعب الجسدي من ثقل، ولا يسلب الطمأنينة على نحو ما يفعل تعب الإحساس. إنه ثقل الإحساس بالعالم، عدم القدرة على التنفس بالروح.

حينئذٍ، كل الأفكار التي أحسسنا فيها بالحياة، كما لو أنَّ الريح ترصَّدتها، كما لو كانت غيوماً، كل المطامح والمقاصد التي وضعنا كلّ أملنا في استمرارها تتمزق، تنشق، تنأى متحولةً إلى رماد ضباب، إلى خِرَقٍ لِمَا لَمْ يكن له وجود ولا بإمكانه أن يوجد. وبعد الهزيمة تنبثق العزلة السوداء القاسية للسماء المقفرة المرصعة بالنجوم. لغز الحياة يؤلمنا. . . أحياناً يأتينا مثل شبح لا شكل له، فترتجف الروح لأسوأ المخاوف - الخوف من التجسُّد المشوه للاكينونة - أحياناً أخرى يكون وراءنا، مرئياً فحسب عندما ننعطف لنرى، وإذا بالحقيقة التي نجهلها كلها ماثلة في رعبه العميق جداً.

بيْد أنَّ هذا الرعب الذي يشلّني اليوم، هو أقلّ نبلاً وأكثر قضماً للذات. إنه رغبةٌ في عدم الميل إلى امتلاك فكر، رغبةٌ في ألّا أكون قطّ موجوداً على أيّ نحوٍ من الأنحاء، تلاشٍ واعٍ لكلّ خلايا الجسد والروح. إنه الشعور المباغت بالانوجاد محبوساً في زنزانةٍ لانهائية.

إلى أين بالتفكير في الهروب، طالما أنَّ الزنزانة هي الكل؟

وحينئذٍ فقط تخطر ببالي الرغبة الجامحة، اللامعقولة، في نوعٍ من شيطانيةٍ سابقة على الشيطان، وذلك بأن أتمكن ذات يوم - يوم بلا تاريخ ولا ماهية - من إيجاد مهربٍ نحو ما يجاوز الله بحيث يكفّ أعمق ما في ذواتنا، لا أعرف كيف، عن تشكيل جزءٍ من الكينونة أو اللاكينونة.

1930-3-23

مثل طفلٍ عليل

بالنسبة إلى مخلوقاتٍ من شاكلتي أعرف بالحدس عدم إمكانية تلاؤمها مع أي وضعٍ من الأوضاع المادية الملموسة، عدم وجود أي حالةٍ من حالات الحياة تجد لها حلاً لصالحها. وإذا كنت اعتزلت الحياة لهذه الأسباب، فإنَّ الحياة ذاتها قد ساهمت في اعتزالي إيّاها. وإذا كان من شأن هذه العوامل أن تمنع الناس العاديين من تحقيق المكاسب، فإنها فيما يخصني، تعطي مردوداً معاكِساً وغير متوقّع.

من هذه الملاحظة، يولد لدي، أحياناً شعورٌ مؤلم بعداوة إلهيّة.

يبدو لي أنَّ ترتيباً واعياً للوقائع يجعلها مضرَّةً بي هو وحده الكفيل بجعل سلسلة الكوارث المميزة لحياتي ممكنة الحدوث بالفعل.

ينجم عن هذا كله، أنني لا أحاول الإفراط في أيّ مجهود. ليأتِ الحظ، إنْ شاء، كي يكون بجانبي. أعرف زيادةً على اللزوم أنَّ أكبر جهودي لا يحقق النتيجة التي يتوصل إليها الآخرون. ولذلك تخليت عن الحظّ، بدون أن أتوقع منه الكثير. لأجل ماذا؟ رواقيتي نابعةٌ من احتياجٍ عضويّ. أنا بحاجةٍ إلى أن أتحصَّن ضد الحياة.

ولأنّ كل رواقيةٍ لا تعدو أن تكون أبيقوريةً صارمة، كذلك أرغب، كلما كان ذلك ممكناً، في أن تكون تعاستي مصدراً لتسليتي. لا أدري إلى أيّ حدّ أنا قادرٌ على الوصول إلى ذلك. لا أدري إلى أي حدّ سأتوصل إلى شيء، لا أدري إلى أيّ مدى يمكن التوصل إلى أي شيء...

حينما يحقق الآخر ظفره، لا بفضل مجهوده الخاص، وإنما بحتمية الأشياء، لا أظفر أنا ولن أظفر بشيء، لا بواسطة تلك الحتمية ولا بفضل ذلك المجهود الخاص.

لعلي ولدت روحياً في أحد أيام الشتاء القصيرة. فقد تغلغل الليل بسرعةٍ في كينونتي. أستطيع تحقيق حياتي فقط في أجواء الخيبة والإهمال.

في العميق، لا شيء من هذا ينتمي إلى الرواقية. في الكلمات وحدها توجد نبالة معاناتي. أرفع عقيرتي بالشكوى مثل طفلٍ عليل، أغتاظ دوماً مثل ربة بيت. حياتي تافهة على الدوام حزينةٌ على الدوام.

حسبي النظر

الأشياء الواضحة الصريحة تبعث فينا السلوى، كذلك الأشياء تحت الشمس. رؤية الحياة وهي تمرّ تحت نهارٍ أزرق تعوضني الكثير من الأشياء. أنسى على نحوٍ لا محدَّد أكثر ممّا أستطيع أن أتذكر. قلبي الشفاف والأثيري ينفذ إلى اكتفائية الأشياء بذاتها، حسبي النظر الشغوف. أنا لم أكن أبداً شيئاً آخر غير نظرةٍ لاجسدية، مجردة من الروح كلها عدا بعض هواءٍ غامض مَرَقَ.

زائفٌ كل ما هو فعل، حرباً كان أم منطقاً، وكل ما هو تنازلٌ زائف كذلك.

ليتني أستطيع ألّا أفعل شيئاً وألّا أتنازل عمّا أفعل! سيكون ذلك، لو كان، بمثابة تاجٍ لأحلام مجدي، ومركز سكون عظمتي.

أنا لا أعاني، بالكاد. احتقاري لكلّ شيءٍ كبيرٍ جداً إلى حدّ أنني أحتقر ذاتي نفسها؛ ولأنني أحتقر آلام الغير، أحتقر كذلك آلامي وهكذا أسحق تحت وطأة احتقاري معاناتي الخاصة.

آه، لكن معاناتي تتفاقم هكذا... المعاناة الشديدة يمكن أن تولد الرغبة في أن أغدو محظيّ الألم. هكذا (...).

(فاصلٌ مؤلم)

تُتعبني الأشياء كلها، حتى تلك التي لا تتعبني، مسراتي كلها مؤلمة مثل آلامي. ليتني كنت طفلاً يضع مراكب من ورق في بركة إحدى الضيعات الريفية بمظلةٍ خشنة من تشابكات عريشةٍ تصنع فتحات من ضوء وظلٌ أخضر في الانعكاسات المعتمة للماء الضحل.

بيني وبين الحياة بِلّوْرٌ رقيق. ولست بقادرٍ على مسّها، بسبب رؤيتي وإدراكي الجليين جداً لها.

أو عليّ أن أعقلن كآبتي؟ لأجل ماذا، طالما العقلنة تتطلب مجهوداً؟ مَن هو حزين ليس بمقدوره بذل المجهود.

لستُ بقادرٍ حتى على التخلي عن تلك الحركات المبتذلة الدالة على الحياة والتي طالما رغبتُ في التخلي عنها. التخلي يحتاج إلى جهد، وأنا لا أمتلك الروح المحفزة على بذل الجهد.

كم من مرات أحزنني ألّا أكون أنا مشغل تلك السيارة، أو

سائق ذلك القطار؛ إنَّ حياة أيّ شخص آخر عامّي مفترض، تغريني بأن أرغب في أن تكون حياتي فقط لأنها ليست بحياتي.

وخوفي من الحياة لا يماثل خوفي من الأشياء. إنَّ مفهوم الحياة ككل لا يثقل على كاهل تفكيري.

أحلامي عبارةٌ عن ملاذٍ بليد. مثل مطريةٍ موجَّهة للاحتماء من شعاع.

لَكَم أنا خامد، كم أنا مسكين، لكم أفتقر إلى الحركات والأفعال!

... كلّ سبل أحلامي ستقود إلى تجليات الغم.

حتى أنا الحالم دوماً، تأتيني بعض اللحظات التي يهرب الحلم فيها مني؛ حينئذٍ تبدو الأشياء واضحةً بالنسبة إلي، فينزاح ضباب ما يحيط بي. وكلّ النتوءات المرئية تجرح بحدة جلد روحي. كل القساوات المرئية تؤذي ما بداخلي من قساوات.

كل أعباء وضغوط الأشياء تثقل عليّ من داخل الروح.

حياتي هي جَلدي الدائم بحياتي نفسها.

سبات الليل.. تحت الشمس

أن أعيش الحياة خفيةً وببرود، في نداوة الأفكار، قارئاً، حالماً، ومفكراً في الكتابة، حياةٌ تتميز بما يكفي من البطء لكي أكون دائماً على حافة الضجر، وبما يكفي من التأمل لكي أسقط أبداً في شراكه. أن أحيا تلك الحياة بمنأى عن الانفعالات وفي مشبوبية الأفكار. أن أستمر تحت الشمس، مذهّباً، مثل بحيرةٍ معتمة محاطةٍ بالأزهار. أن أمتلك في الظلّ، نبالة تلك الفردية العليا المتمثلة في عدم مطالبة الحياة بشيء. أن أكون، في تقلبات العوالم وانكفاءاتها،

شبيهاً بغبار زهور تبتعثها ريحٌ مجهولةٌ في هواء المساء كيما يدعها سبات الليل تنزل في مكان المصادفة، مبهمة داخل الأشياء العليا. أن أكون هذا كله مع امتلاك معرفةٍ يقينية، لا فرحاً ولا حزناً، معرِّفاً بشمس شعاعها ونجوم بعدها. ألّا أكون أكثر من ذلك، ألّا أمتلك أكثر، ألّا أرغب فيما هو أكثر... موسيقى الجائع، أغنية الأعمى، رفات الجوّاب المجهول، آثار الجمل اللامُحمَّل تائهاً في الصحراء...

بالتخيل أفكر

على سطح التعب عندي يطفو ما يشبه هالةً ذهبية فوق المياه عندما تغادرها الشمس الغاربة. أرى كيف أنَّ البحيرة التي تخيّلت وما أراه في تلك البحيرة هو أناي. لا أعرف كيف أفسر هذه الصورة، أو هذا الرمز، أو هذا الأنا الذي أتجلى به، لكن ما أنا متأكدٌ منه هو أنني أرى، كما لو كانت الرؤية متحققة فيّ واقعياً، أرى شمساً من وراء الجبال، ترسل أشعة تضيع فوق البحيرة التي تتلقاها بذهبٍ معتم.

من مساوئ التفكير تنبُّهنا لحظة عملية التفكير إلى أنَّ الذين يفكرون بالمنطق ساهون دوماً، ومن يفكرون بالعاطفة غاطون في النوم، والذين يفكرون بالإرادة ميتون. أما أنا فأفكر، بالتخيل وكلّ ما يفترض أن أحويه من منطق، أو قلق، أو حافز، يتحول إلى عنصرٍ دخيل لا مبالٍ وقصيّ، مثل هذه البحيرة الميتة بين الصخور حيث الشمس الأخيرة ممتدةً تطفو.

لقد ارتعشت المياه، لأنني توقفت. وانسحبت الشمس، لأنني تأملت الأشياء. أغمض العينين البطيئتين والممتلئتين أحلاماً، ولا

يوجد بداخلي غير منطقة بحرية حيث الليل بدأ يكفّ عن أن يكون نهاراً في انعكاسٍ كستنائيٍّ معتم لمياه تنبجس الطحالب منها.

لأنني كتبت، لم أقل شيئاً. الانطباع الذي لديّ هو أنَّ ما يُوجَدُ يُوجَدُ دائماً في جهةٍ أخرى، فيما وراء الجبال، وأن ثمة أسفاراً كبرى يتوجب القيام بها، لو امتلكنا روحاً عداءة.

لقد تيبَّست، مثلما الشمس في مشهدي هذا. لم يبقَ، ممّا قيل أو شوهد سوى ليل أُحْكِمَ إغْلاقُه، مكتظ ببريق ميت لبحيرات، في سهول بلا بطّ وحشي، سهول ميتة، سيالة، رطبة ومشؤومة.

1932-3-28

في اللباس المُهمل

... في اللباس المهمل لأحاسيسي الملتبسة...

ثمة كآبةٌ من غسق، مصنوعة من أتعاب وكراهيات مصطنعة، ضجر...، ألمٌ يشبه شهيقاً محبوساً أو حقيقة مدركة. يتمدَّد في الروح الشاردة هذا المشهد المشكل من تخليات متتالية - جولات حركاتٍ مهجورة، كثافاتٌ عالية لأحلام لم يتمّ حتى الحلم بها جيداً، تناقضات، مثل جدران تفصل بين طرق خالية، افتراضات، مثل برك قديمة بلا مضخة حية، الكل ينشبك ويتمرأى بئيساً في الأسمال الكئيبة لأحاسيسي الملتبسة.

هباءٌ مرئي

ثمة تهويدةٌ للتنبُّه الإرادي، لا أعرف كيف أفسر كنهها، تهجم عليّ باستمرار، إن أمكن أن نَصِفَ شيئاً بالغ الخفاء بكونه يهاجم أحداً ما. أمضي عبر أحد الشوارع كما لو كنت في وضع جلوس،

وانتباهي، متيقِّظاً لكلّ شيء، لمَّا يَزَلْ يمتلك خمول استراحة جسدٍ بكامله. لن أكون قادراً على أن أحول انتباهي على نحوٍ واعٍ عن عابر سبيل معاكس. لن أكون قادراً على الجواب بكلمات، أو حتى، بأفكارٍ من داخلي، عن أي سؤالٍ عرضي وجِّه إلى صُدفويَّتي المتطابقة. لن تكون لدي القدرة على امتلاك رغبة، أو أمل، أو أي شيء يمثل حركةً ما، لا من قبل إرادة كينونتي الكاملة، ولكن حتى من الإرادة الجزئية والخاصة لكل عنصرٍ من العناصر التي أنا قابلٌ للتحلل فيها. لن أكون قادراً على أن أفكر، أن أحسّ، أن أريد. ومتشرداً أمضي، أتقدَّم. لا شيء في حركاتي (أنتبه إليها لأن الآخرين لا ينتبهون) يجعل من حالة الجمود التي أسير عليها قابلاً للملاحظة. هذا الوضع، وضع الافتقار إلى الروح، الذي لا بد، بالتأكيد، أن يكون مريحاً بالنسبة إلى رجلٍ جريء، ليس قط بمريح، بل وحتى مؤلم، بالنسبة إلى إنسان - يمضي ماشياً عبر الشارع.

إنه الشعور بثَمَل من خمود، بسُكرٍ من دونما فرح، إنه داءٌ من غير حتى حلمٍ بالشفاء، إنه موتٌ زؤام.

أن نعتبرَ غمنا الأكبر كحادثٍ لا أهمية له، ليس فقط في حياة الكون، ولكن في روحنا ذاتها، هو المنطلق إلى المعرفة. أن نضع هذا في الحسبان في منتصف ذلك الغم نفسه هو المعرفة كاملة. في اللحظة التي نتألم فيها يبدو الألم الإنساني لانهائياً. لكن لا، حتى الألم الإنساني هو لانهائي بالفعل، إذ لا وجود لأي وضع إنساني بإمكانه أن يكون لانهائياً، حتى ألمنا ليس بأكثر من كونه ألماً نحسه نحن.

كم مرات، تحت وطأة قنط يكاد يغدو جنوناً، أو غمة تبدو مجاوزةً لما هي إياه، أتوقف، مرتاباً، وقبل أن أتمرَّد، أرتاب، لدى توقفي قبل أن أتألم الألم، ألم عدم معرفتنا بسرّ هذا العالم، ألم

كوننا غير محبوبين من أحد، ألم عدم إنصاف الآخرين لنا، ألم تضييقهم الخناق علينا، ألم الأضراس، ألم الأحذية المضغوطة - أين نحسّ بأنفسنا أكبر، كلما كنا مع الآخرين، أم في عموم كل من هو موجود؟

بالنسبة إلى البعض ممّن يبادلونني الكلام والإنصات، أبدو شخصاً عديم الحساسية، وأنا، مع ذلك، أشدّ حساسية - أعتقد - من أغلبية الناس. إنني أعرف أنني حساس، حساسٌ يعرف جيداً معنى الحساسية.

آه، ليس صحيحاً كون الحياة مؤلمة وليس بمؤلم تفكيرنا في الحياة. الصحيح هو أنّ ألمنا يغدو جدياً وخطيراً عندما نتكلّفه تكلفاً. لو كنا أسوياء، لمضى مثلما جاء، ولاختنق مثلما ولد. الكل عبارةٌ عن هباء، وألمنا منه.

أكتب هذا تحت ضغط قنط يبدو أكبر مني، أو لعله بحاجةٍ إلى ما هو أكبر من روحي لكي يجد له مستقراً؛ تحت ضغط الأشياء كلها وكلّ ما يختفي ويغرقني؛ ضغطٌ نابعٌ من إحساسٍ فيزيقي وليس من فهم الغير الذي يشوشني ويسحقني. لكنني أرفع الرأس صوب السماء الزرقاء الغيرية، أعرض وجهي لاشعورياً للريح الباردة، أرخي جفني بعد ما رأيت ما رأيت، أتَنَاسَى الوَجْهَ بعدما أحسستُ ما أحسست، لا أشعر بأيّ تحسن، لكن أحسني مختلفاً. رؤيتي لذاتي تحرّرني مني. أبتسم تقريباً، لا لأنني فهمتُني، ولكن، بتحوّلي إلى آخر، تخليت عن إمكانية فهمي لأناي. في أعالي السماء، الشبيهة بهباءٍ مرئي، يبدو مرور غيمةٍ متناهية الصغر بمثابة نسيانٍ أبيض للكون بتمامه.

1933-4-5

كل الفرص

الفرصة المنتهزة مثلها مثل المال الذي ليس بأكثر من فرصةٍ منتهزة. الفرصة، بالنسبة إلى رجل الفعل، هي فعلٌ من أفعال الإرادة وأنا لا تهمني الإرادة. الفرصة، بالنسبة إلى مَن يوجد على هامش الفعل، هي أغنية الافتقار إلى أغنيات. الفرصة ينبغي أن تكون محتقرة بتلذُّذ، موضوعة عالياً بمنأى عن أي انتهاز.

أن أمتلك فرصةً لـ. . - في ذلك - الخلاء سوف يُنْصَبُ تمثال التنازل عن كل الفرص. آه أيتها الحقول الواسعة تحت الشمس، المشاهد الذي من أجله أنتنّ على قيد الحياة من خلال الظلّ بتأملكن.

كحول الكلمات الكبيرة والعبارات الواسعة التي ترفع مثل الأمواج من نَفس إيقاعها ثم تتحطم باسمة، في سخرية حيات من زبد وفي البهاء الكئيب للظلال.

ما يؤلم الروح

لا أحد عرّف حتى الآن، ماهية القنط، بلغةٍ قابلة للفهم بالنسبة إلى مَن لم يختبره. ذاك الذي يدعوه البعض قنطاً ليس بأكثر من ملل، أو توعك، هنالك بعض ممّن لا يزالون يسمّون التعب قنطاً. بيْد أنَّ القنط، وإن اتصل بالتعب، والتوعك، والملل، فإنَّ اتصاله بها شبيه باتصال الماء بالهيدروجين والأوكسجين اللذين يتكون منهما. إذ هو يتضمَّنهما بدون أن يماثلهما.

إذا كان البعض يعطي القنط معنى محصوراً وناقصاً، فثمة مَن يعطيه دلالة تجاوزه وتتخطاه بشكل من الأشكال - وذلك حينما تخلع صفة القنط على الاستياء الباطني والروحي لتنوع العالم ولايقينيته.

وما يحدث هو أننا نشرع الفم، تعبيراً عن حالة تثاؤب، ما يحدث هو عدم القدرة على الرؤية، وهو ما يعني التعب - كل هذه الحالات ليست البتة قنطاً؛ ولا هي أيضاً الشعور العميق بفراغ الأشياء، الذي بواسطته يتحرَّر الطموح المحبط، والتوق الخائب ينهض، مكوناً في الروح البذرة التي منها يولد المتصوِّف أو القديس.

أجل، القنط، هو الضجر من العالم، هو التوعّك الدائم من كوننا أحياء، هو تعب كوننا قد عشنا؛ الضجر، هو عن حق الإحساس الجسدي بالفراغ المعقد للأشياء. بيد أنَّ القنط هو أكثر من هذا، هو الضجر من العوالم الأخرى موجودة كانت أم غير موجودة؛ هو وعكة كونك مجبراً على أن تعيش، ولو كنت آخر، وإن على نحوٍ آخر، وإن في عالمٍ آخر؛ وهو التعب، لا من أمس واليوم وحسب، ولكن من الغد كذلك، ومن الخلود، إن وجد، ومن العدم، إن كان هو الخلود. ليس خواء الأشياء والكائنات وحده ما يؤلم الروح عندما تحسّ القنط: بل هو كذلك خواء أي شيءٍ آخر، غير الأشياء الكائنات، خواء الروح ذاتها التي تحسّ الخواء، والتي تحسّ ذاتها خاوية، والتي من ذاتها تغتاظ وتتنصّل.

القنط هو الإحساس الفيزيقي بالخواء الذي هو كل شيء. الملول، والمتوعك، والمتعب، يحسون بأنفسهم سجناء زنزانةٍ ضيقة، المغتاظ من ضيق الحياة يحسّ بنفسه مكبَّلاً في زنزانةٍ هائلة، لكن القانط يحس نفسه سجيناً بحريةٍ مبتذلة في زنزانةٍ لانهائية. بالنسبة إلى الملول، أو المتوعك المزاج، أو المتعب ثمة احتمال أن تنهار أسوار الزنزانة عليهم فتدفنهم جميعاً. بالنسبة إلى المغتاظ من صغر العالم يمكن أن تسقط عنه القيود، فيلوذ بالهروب؛ أو يبقى متألماً من عدم قدرته على انتزاعها، ومع الإحساس بالألم قد يتمكن

من معاودة العيش بدون اغتياظ، لكن أسوار الزنزانة اللانهائية غير قادرةٍ على دفننا، لأنها غير موجودة؛ ولأن القيود التي لم يضعها أحد في أيدينا ليس بإمكانها حتى أن تحملنا على العيش بألم.

وهذا هو ما أشعر به أمام الجمال الهادئ لهذا المساء الآيل إلى نهاية لا نهاية لها. أنظر إلى السماء الزرقاء الصافية، حيث الأشياء الغامضة الوردية، مثل ظلال غيوم، بمثابة رئةٍ لا محسوسة لحياةٍ مجنَّحة وقصية. أخفض عيني صوب النهر، حيث الماء، مرتعشاً ارتعاشات خفيفة، هو من زرقة تبدو متلألئة آتية من سماء أعمق. أرفع عيني إلى السماء من جديد، وهناك، وسط ما ينسل ملوناً بغموض، من غير أسمالٍ في الهواء اللامرئي، تتبدى طبقة متجمِّدة من بياض مغشى، كما لو أنَّ للأشياء أيضاً هناك في علوها وابتذاليتها، قنوطَها المادي الخاص، ضرب من استحالة أن تكون ما هي إياه، جسدٌ لا وزن له من خيبةٍ وبرم.

لكن ماذا؟ ماذا يوجد في الهواء العالي غير الهواء العالي الذي ليس بشيء؟ ماذا يوجد في السماء غير لون ليس بلونها؟ ماذا يوجد في تلك الخرق الأقل من غيوم - أرتاب في أنها هناك - سوى انعكاسات ضوئية لشمس مخضعة؟ ماذا يوجد في هذا كله سواي؟ آه، بيدَ أنّ القنط هو ذلك بعينه، ذلك وحده. ذلك لأنه لا يوجد في هذا كله - سماء وأرضاً، وعالماً - سواي!

1932-9-28

أبداً

أبداً تحت ضوء الشمس التي لا وجود لها، وضوء القمر الذي ليس بإمكانه أن يكون..

حياء متعال

المسألة التي أطلبها اليوم أكثر من أي وقتٍ مضى لأعرف روحي هي كوني مُبدعَ لامباليات. أتمنى، أكثر من أي شيءٍ آخر، لو أنَّ موقفي من الحياة لعب دور المربي للآخرين كيما يحسوا أكثر فأكثر لحساب ذواتهم، وأكثر فأكثر وفق القانون/ الديناميكي/ للجماعية...

يبدو لي أنَّ ممارسة التربية بذلك التطهير الروحي، الذي لو تحقَّق ما كان لعدوى الابتذالية أن تتفشى، هي المهمة البيداغوجية/ الجوانية/ المناسبة التي رغبت في القيام بها. إذ عندما سيقرؤني الآخرون سيتعلمون - شيئاً فشيئاً كما يستلزم الأمر - ألّا يجربوا أيّ إحساس اتجاه نظرات الغير وآرائهم، وقد كان من شأن تلك المهمة أن تكلِّل التأسُّن اللاهوتي لحياتي بما يفيض عن الحاجة.

لقد مثَّلتْ فيَّ استحالة الفعل على الدوام مرض إثيولوجيا ميتافيزيقية. القيام بحركةٍ معينة شكّل بالنسبة إلى إحساسي بالأشياء، عنصر تكديرٍ للكون الخارجي؛ مجرد أن أتحرك أعطاني دائماً انطباعاً بأنني قد أنتهك النجوم وأربك السماوات. لذلك اكتسبت الأهمية الميتافيزيقية لأدقّ الحركات مُبَكِّراً، نتوءاً مدهشاً بداخلي. لقد اكتسبتُ إزاء الفعل، أيّ فعل، ريبةً من حياءٍ متعالٍ يمنعني، منذ اعتدتُ تمعُّنه داخل وعيي، من امتلاك علاقاتٍ بارزة مع العالم المحسوس.

1915؟

ضدّ الفعل

لقد بدت لي الحياة العملية على الدوام أقل أشكال الانتحار رحمة. كما أنَّ الفعل، أي فعل، مثّل بالنسبة إليّ عقاباً عنيفاً للحلم

الذي يسبق هذا العقاب. دائماً بدا لي التأثير في العالم الخارجي، تبديل الأشياء، أو تغيير الكائنات، أو التأثير في الناس، مشتقاً من طينة أكثر سديمية من طينة كلّ النزوات. كذلك مثلت التفاهة الملازمة لجميع أشكال الفعل، ومنذ طفولتي، أحد المقاييس المفضّلة أكثر من غيرها من لدن لامبالاتي حتى بذاتي. ما الفعل إلّا موقف مناوئ لصاحبه. التأثير يبدأ بالخروج من البيت.

دائماً كلما تأملتُ - بانطلاقي من أنَّ الواقع الماديّ هو سلسلة إحساسات فحسب - لامعقولية وجود أشياء شديدة التعقيد في بساطتها مثل، التجارب، الصنائع، العلائق الاجتماعية والعائلية، وغير قابلة للفهم على نحوٍ محزن إزاء الوضع الباطني للروح بالنسبة إلى فكرة الحقيقة...[1].

موضوعية

لقد نتج عن إحجامي عن المساهمة في وجود العالم الخارجي، تكوُّن ظاهرةٍ نفسيةٍ غريبة.

لدى إحجامي داخلياً عن الفعل غير مكترثٍ بالأشياء، أتوصَّل إلى رؤية العالم الخارجي، عندما ألاحظه بموضوعيةٍ صحيحة. ولأنه ما من شيء يهم أو يقود إلى امتلاك حقّ تغييره، لذلك لا أسعى البتة إلى تغييره.

وهكذا أصل إلى (...).

---

(1) جملة مطولة غير مكتملة في الأصل.

كل..

كل جهد يُبذل جريمة، لأن كل حركةٍ هي حلمٌ خامد.

(إستيتيقيا اللامبالاة)

ما ينبغي على الحالم أن يحاول الإحساس به أمام الأشياء، هو اللامبالاة الجليّة التي تبتعثها فيه كشيء من الأشياء.

عليه أن يعرف، بسليقةٍ فورية، كيف يستلّ من كلّ موضوع أو حادث ما يمكن أن يمتلكه من قابليةٍ للحلم، مميتاً كلّ ما ينطوي عليه من واقعية - وهنا يوجد ما لا بد للعارف من أن يسعى إلى تحقيقه في ذاته.

ألّا يحسّ بصدقٍ أبداً أحاسيسه الخاصة، عليه أن يرتفع بظفره الشاحب حتى نقطة النظر بلامبالاة إلى مطامحه الخاصة، قلقه ورغباته؛ أن يتجاوز مسراته وأحزانه كمن يمرّ بما لا يعنيه...

التحكُّم الأعلى في ذاته لن يتأتى إلّا بلامبالاته التامة بذاته نفسها، بأن يكون، روحاً وجسداً، سواء في المنزل أو الضيعة، حيث ما شاء لنا القدر أن نقضي حياتنا.

أن يعامل أحلامه الخاصة ورغباته الحميمة بشموخ، En grand seigneur[1]، (...)، مبدياً رهافة باطنية خاصة بعدم التوقف عندها. أن يمتلك الحياء من ذاته نفسها؛ أن يحسّ بأننا لسنا وحدنا في حضورنا الحي، وأننا شهودٌ على أنفسنا نحن، ومن الأهمية بمكان بسبب ذلك أن نعامل أنفسنا كما لو كنا إزاء مخلوقٍ غريب، وفق قاعدةٍ خارجية مدروسة وهادئة، لامبالية بحُكم نبالتها، وباردة بحُكم لامبالاتها.

---

(1) هكذا وردت بالفرنسية في الأصل.

لأجل ألّا ينحطّ قدرنا أمام أعيننا، حسبنا أن نعتاد عدم امتلاك طموحات، ولا أهواء، ولا رغبات، ولا آمال، ولا دوافع، ولا قلاقل. لكي نتوصَّل إلى هذا، لنتذكر دائماً بأننا موجودون في حضرة أنفسنا، أننا لسنا وحيدين أبداً، حتى يتسّنى لنا أن نكون على هوانا. وهكذا سنتحكّم فيما لدينا من أهواء ومطامع لأنّ المطامع والأهواء هي علامة عدم أخذنا الحيطة؛ لن تكون لدينا رغبات ولا آمال لأن الرغبات والآمال هي إشاراتٌ دَنِيَّةٌ وغير لائقة؛ كما لن تكون لدينا دوافع ولا قلاقل داخلية لأنها علامة تهوّرٍ ورعونة، والتهور هو الفظاظة في أعين الآخرين، ونفاد الصبر هو دائماً فظاظةٌ أكيدة.

الأرستقراطي هو ذلك الذي لا ينسى أبداً أنه لوحده؛ لذلك كانت الأعراف والبروتوكولات خاصية الأرستقراطيات. فلنجعل الأرستقراطي فينا باطنياً، لننتزعه من الصالونات/ ومن الحدائق/ ثم فلنسلمه إلى روحنا ووعينا بأننا موجودون. لتكن معاملتنا دائماً لأنفسنا وفق بروتوكولات وأعراف، وبإشاراتٍ مدروسة وموجهة لأجل - (الـ) - آخرين.

كل واحدٍ منا هو حارةٌ بكاملها، [...]، من المناسب على الأقل إذن أن نجعل حياة هذه الحارة أنيقة ومتميزة، ولتهيمن على احتفالات أحاسيسنا الدقة والحيطة، و[...] اللطافة متحفظة في مآدب تفكيرنا. باستطاعة الأرواح الأخرى أن تقيم حاراتها القذرة والبائسة حول حارتنا؛ لنحدِّد بوضوح أن تنتهي وأين تبدأ حارتنا. وليكن كل شيءٍ من واجهة المنازل حتى مخادع حياءاتنا، نبيلاً وهادئاً، مشيداً بتقشفٍ وبساطة. علينا أن نعرف كيف نعثر لكلّ إحساس على الشكل الهادئ لتحققه. أن نختزل فعل الحب بالكاد في ظلٍّ شاحب لما يمكن أن يكون حلماً بحب، إلى فاصلٍ مرتعش

بين وشوشة موجتين ينعكس عليهما ضوء القمر. أن نحوِّل الرغبة إلى شيءٍ لامُجدٍ وغير مؤذٍ، إلى ما يشبه ابتسامةً رقيقةً للروح وحدها مع ذاتها؛ أن نجعل منها شيئاً لا يمكن التفكير في تحقيقه أو التلفظ به. أما الكراهية، فلنُنَوِّمْها كما نُنَوِّمُ أفعى محبوسة، ولنطلب من الخوف أن يحتفظ من حَرَكَاتِهِ فقط بالاحتضار في النظرة.

على الورق

لو وُجِدتْ في الفن وظيفة مكمِّل، لكانت لي في حياتي وظيفة. . .

أن آخذ مؤلفاً من وضع الغير، وأن أشتغل فحسب لتحسينه وإكماله. على هذا النحو، ربما، ألفت **الإلياذة**. . .

ما لست أريد هو المجهود الضروري للخلق الأولي!

لكم أغبط أولئك الذين يكتبون روايات، يبدؤونها ويؤلفونها، وينهونها! أحسن تخيل الروايات، فصلاً فصلاً، وأحياناً بجمل الحوارات التي بين الحوارات، غير أنني لن أحسن تجسيد أحلام الكتابة تلك على الورق [. . .].

توفقنا المريب

مرّ عليّ زمن كانت تغيظني فيه الأشياء التي أضحت اليوم مثار ضحكي. ومن هذه الأشياء التي أكاد أتذكرها كل يوم، إصرار الناس العاديين والفاعلين في الحياة على الضحك من الشعراء والفنانين. لا يفعلون ذلك دائماً، كما يزعم مفكرو الصحف، بنوعٍ من الاستعلاء. مرات كثيرة يفعلون ذلك، عن محبة، لكن كمن يداعب طفلاً دائماً، أو شخصاً غريباً على الطريق الصحيح للحياة.

كان هذا يغيظني من قبل، لأنني كنت أفترض، على غرار السذَّج، وأنا ساذجٌ حينئذٍ، أنَّ تلك الضحكة الموجهة إلى انشغالات الحلم والكتابة كانت انبعاثاً لانطباعٍ باطني بالتفوق بَيْد أنها تعبيرٌ عن اختلافٍ فحسب. وإذا كنت أعتبرها من قبل، مثل شتيمة، لأنها تنمّ عن استعلاء، فأنا أحسبها اليوم مجرد تشكيكٍ غير واعٍ؛ وكما أنَّ الرجال الكبار يسلمون أحياناً كثيرة بوجود مضاءٍ روحي لدى الأطفال أحدّ ممّا لديهم، كذلك هم يعترفون لنا، على النحو نفسه، نحن الذين نحلم ونكتب، بخاصية الغرابة أو ما شاكلها. أريد الاعتقاد، أحياناً كثيرة، بأنَّ الأكثر ذكاءً بين أولئك الناس، يتبيَّنُون تفَوُّقَنَا، وحينئذٍ يتضاحكون باستعلاء لكي يُخْفُوا اكتشافهم لتفوقنا المريب.

لكن تفوقنا هذا لا ينطوي على أيّ تفوقٍ خاص كما يعتقد الكثير من الحالمين. الحالم ليس متفوقاً على الإنسان الفاعل لأنّ الحلم أعلى منزلةً من الواقع. لا. إنَّ تفوق الحالم يتمثَّل في أنَّ الحلم هو أكثر عملية بكثيرٍ من العيش، وفي أنَّ الحالم يستخلص من الحياة متعة أكثر شسوعاً وتنوعاً ممّا يتحقق لرجل الفعل...[1].

ولأن الحياة جوهرياً حالةٌ ذهنية، وكلّ ما نفكره أو نفعله، هو صالحٌ لنا طالما رأيناه كذلك، فإن مسألة المعيارية والتقويم متوقفةٌ علينا نحن. الحالم هو مرسل بطاقاتٍ توزع في مدينة روحه الخاصة على النحو نفسه الذي توزّع به البطاقات البريدية في الواقع الفعلي. ماذا يهمني إنْ كان ورق عملة روحي غير قابلٍ للتحويل إلى ذهب، إن لم يوجد أبداً أيّ ذهبٍ في الخيمياء المزيفة للحياة؟ وبعدنا جميعاً سيأتي الطوفان، لكن بعدنا جميعاً فقط. أحسن الناس وأسعدهم هم

(1) ثمة عبارة ملتبسة وناقصة وغير قابلة للترجمة العربية.

هؤلاء الذين بمعرفتهم لوظيفة كل شيء، يصنعون الرواية قبل أن تكون مصنوعة، ومثل ميكيافيلي يرتدون بدلات البلاط لكي يكتبوا جيداً في خفاء.

1930-5-15

متعة

متعة أن نمتدح أنفسنا بأنفسنا...

فاصلٌ مؤلم

لا أجد سلواي حتى في الزهو. بماذا عليّ أن أزهو وأنا لست خالق ذاتي. وحتى لو وُجد فيّ ما يحملني على الزهو، فسأعمل كلّ ما في وسعي لإحباط زهوي.

أضطجع حياتي. ولا أعرف القيام حتى بحركة النهوض من النوم، إلى حدّ أنني فاقِدٌ حتى داخل الروح معرفةَ القيام بأي مجهود.

صناع النظم الميتافيزيقية، الـ (...) التفسيرات البسيكولوجية هم الأسوأ معاناة. ما معنى أن ننظم، أن نفسر، سوى (...) وأن نبني؟ وهذا كله - أن نشكِّل، أن نرتب، أن ننظم، - ليس إلّا مجهوداً مبذولاً -...

لست بمتشائم. سعداؤُهم أولئك الذين يتوصلون إلى ترجمة معاناتهم إلى الكوني. أنا لا أعلم حالة العالم أَحزينٌ هو أم مريض ولا يعنيني ذلك لأن ما يعانيه الآخرون يبدو لي مضجراً وغير جديرٍ بالاكتراث. عندما يتباكون أو يتأوَّهون وهو ما يغيظني ويزعجني، لا أكترث حتى بهزّ كتفي - يا لعُمق ثقل احتقاري لهم - من أجل معاناتهم.

لكنني ذلك الذي يعتقد أنَّ الحياة نصفها نور ونصفها الآخر ظلال.

ولست بمتشائم. لستُ أشكو رعب الحياة. أشكو رعب حياتي وحدها. الحدث الوحيد المهم بالنسبة إليّ هو حدث وجودي على قيد الحياة، حدث معاناتي وعدم قدرتي على الحلم بالأشياء كلها من خارج إحساسي بمعاناتي.

المتشائمون حالمون سعداء. يشكلون العالم على مقاس صورتهم هم، وهكذا، ينجحون في المكوث في البيت. بالنِّسبَة إليَّ ما يؤلمني أكثر من سواه هو الفرق الموجود بين ضجيج العالم وبهجته وبين كآبتي وصمتي الملول.

لا بد أن تكون الحياة، مع كل آلامها ووساوسها وتقلباتها، طَيِّبَةً ومفرحة، مناسبةً كما لو لسفر عجول بالنسبة إلى من يمضي بصحبة أحد (ويمكن أن يراه[1]).

ليس بمقدوري، حتى الشعور، على الأقل، بمعاناتي كعلامةٍ على عظمة. لا أعرف ماهيتها. لكنني أتألم لأحقر الأشياء، تجرحني الأشياء الشديدة الابتذال والتي لا أجرؤ على شتمها بفرضية إمكانية امتلاكي عبقريةً ما.

بهاء ريحٍ غريبةٍ جميلة، جمالها يُحزنني. دائماً أردِّد أمامها، كم من فرحٍ ينبغي أن يستشعره مَن هو سعيدٌ برؤية هذا البهاء!

وهذا الكتاب هو أنيني الخاص، بعدما كتبته، لم يعد *SÓ*[2] (وحدي) الكتاب الأكثر كآبةً في البرتغال.

---

(1) عبارة ملتبسة ومشكوكٌ فيها في الأصل.

(2) *SÓ* هو عنوان كتابٍ شهير للشاعر البرتغالي أنطونيو نوبري (Antonio Nobre) (1867-1900)، الطبعة الأولى منه ظهرت عام 1892.

بجانب ألمي، كل الآلام الأخرى تبدو لي ضئيلة أو مزيفة. إنها آلام أناسٍ سعداء، آلام أناس يحيون ويتشكون. آلامي هي آلام مَن يجد نفسه سجيناً في الحياة، مُبعداً...

بيني وبين الحياة...

على نحوٍ أرى معه كلّ ما يُحزن. وكل ما يُفرح لا أحسّه. ولقد تنبهت إلى أنَّ الشرير يرى أكثر ممّا يحس. والفَرِح يحسّ أكثر ممّا يرى. إذاً لا بد، مع عدم التفكير، وعدم الرؤية من تحقق نوعٍ من الرضى، شبيه بما لدى المتصوفة والبوهيميين/ والأنذال/ ، لكن في النهاية، يدخل الجميع، إلى البيت إما من نافذة الملاحظة أو من باب التفكير.

إحساس قيامي

بعدما فكّرت في أنَّ كلّ خطوةٍ خطوتها في حياتي كانت اتصالاً مستمراً برعب الجديد، وأنَّ كل شخص عرفته كان فلذةً جديدة حية من المجهول وضعتها بنفسي فوق طاولتي من أجل فحصٍ تأمليّ يوميّ مذعور، بعد هذا كله قررتُ أن أحجم عن كل شيء، ألّا أتقدم باتجاه أي شيء، أن أختزل إلى الحدّ الأدنى أفعالي، أن أتجنب إلى أقصى حدٍّ ممكن إمكانية أن يلتقي الآخرون بي، وأن أغدو موضوعاً لحدثٍ من الأحداث، وأن أهذِّب عزلتي وانسحابي. لكَم يرعبني فعل العيش ويعذبني.

اتخاذي قراراً بإتمام شيءٍ ما، أو الخروج ممّا يبعث على الريبة أو الالتباس يدخل عندي في باب الكوارث الكونية. أحسّ الحياة في حالة قيامة أو كارثة. كل يوم، يزداد لديّ عجزي حتى عن القيام

بمجرد إشارات صغيرة لكي أدرك ذاتي ضمن أوضاعٍ واضحة في الواقع.

حضور الآخرين - غير المتوقّع في كلّ لحظة من الروح - يبدو لي كل يوم أكثر إيلاماً وإكراباً. الحديث عن الآخرين يصيبني بالقشعريرة. أدنى اهتمام لهم بي يدفعني إلى الفرار، نظراتهم إليّ، تبعث فيّ الارتعاش. أجل (. . .).

إنني على الدوام في حالة دفاع. أشكو الحياة وأشكو الآخرين. لا أستطيع النظر إلى الحياة وجهاً لوجه. نور الشمس ذاته يحبطني ويحزنني. فقط في الليل، وفي الليل وحيداً مع ذاتي، غريباً، منسياً، مفقوداً - منقطع الصلة بالواقع والمنفعة - أعثر حقاً على ذاتي وأجد عزائي.

لدي برودةٌ من الحياة. كل وجودي كهوف رطبة وسراديب لا نور فيها. أنا الهزيمة الكبرى لآخر جيشٍ مدافع عن الإمبراطورية الأخيرة. أعرف في النهاية ما كانته حضارة قديمة مهيمنة. إنني وحيد ومهجور، أنا الذي قد يبدو متعوداً على قيادة آخرين. لا صديق لي، لا دليل، أنا الذي قادني دائماً آخرون.

بعضٌ مني يلتمس فيّ رأفةً دائمة - وينتحب عليّ كما لو على جسد إله ميت، بلا مذابح في هيكله، عندما زرع القدوم البريء للبرابرة الفتوةَ في الحدود وجاءت الحياة تطالب الإمبراطورية بحساب ما فعله بأفراحها.

دائماً أرتاب في كونهم يتحدّثون عني. لقد فشلت في كل شيء. لم أجرؤ على شيء حتى على التفكير في أن أكون؛ لم أحلم حتى بالتفكير فيما أتمناه لأنني وجدتني في الحلم نفسه متعارضاً مع

الحياة، حتى على مستوى وضعي الرُّؤْيَوي باعتباري حالماً وحسب.
ما من إحساس واحد يحملني على رفع رأسي عن الوسادة التي أدفنها بسبب عدم قدرتي على تحمل جسدي، ولا تحمل فكرة أنني عائش، أو حتى الفكرة المطلقة للحياة.

لا أتكلم لغة الواقع. ووسط أشياء الحياة أترنح مثل مريض ينهض للمرة الأولى على قدميه بعد طول مكثٍ على السرير. في السرير فقط أحسني في الحياة الطبيعية. عندما تعتريني الحمى، أحسّ بالارتياح، كما لو كنت شيئاً طبيعياً (...) بالنسبة إلى وضعي مسنداً. مثل شعلةٍ أمام الريح، أرتعش ويعتريني الدوار. في الهواء الميت للغرف المغلقة فقط أتنفس الحياة الطبيعية.

ولا مجرد حنين تبقّى لديّ الآن لمحارات ضفاف البحار. لقد تُقْتُ إلى أن تكون روحي محبوسةً في دير وألّا أكون أنا بالنسبة إلى أناي، بأكثر من خريف على الخلاءات اليابسة، بدون/ حياة حيّة/ أكثر من انعكاسٍ حي مثل ضوءٍ ينتهي في عتمة المستنقعات، بدون جهدٍ أو لون غير الالتماعة البنفسجية - منفى نهاية الريح الغربية فوق الجبال.

في العمق، ليس ثمة من متعة أخرى سوى تشريح الألم، وما من لذة سوى التعرُّج السيّال والموجع للأحاسيس عندما تتفتت وتتفكّك - خطواتٌ خفيفة في الظل الملتبس، ناعمةً تترى في السمع، ونحن لسنا حتى بقادرين على العودة لكي نعرف ممّن نحن، أغانٍ غامضة بعيدة، لم نحاول الإمساك بكلماتها، حيث يهدهدنا المسكوت عنه في صميم ما تقوله تلك الكلمات ولا يقينية المكان الذي أتت منه؛ أسرارٌ دقيقة لمياه شاحبة، تملأ الفضاءات بالأقاصي الخفيفة (...) والليلية؛ أجراس عرباتٍ نائية، عائدة إلى أين؟ وأية

أفراح هنالك في الداخل لا تُسمع هنا متغافية في السبات الفاتر للمساء حيث الصيف يغدو خريفاً[1]. ماتت أزهار الحديقة، وثمة أزهارٌ أخرى ذاوية - أقدم وأنبل في الاصفرار الميت للسر والصمت والنسيان. حيات الماء التي تظهر في المستنقعات لها مبررها للظهور في الأحلام. أهو نقيق الضفادع البعيد؟ أوه يا حقلاً ميتاً بداخلي! أوه يا طمأنينةً قروية مرّت بي في الأحلام! أوه يا حياتي اللامجدية مثل قرويٍّ عاطل ينام على حواشي الطرقات مع عبير المروج نافذاً إلى روحه مثل ضبابة، بصوتٍ شفاف وبارد، عميق ومفعم بإدراك ألّا شيء في الأشياء كلها، مرتبك بشيء، ليلي، مجهول، مترحل ومهدود تحت الشفقة الباردة للنجوم.

أتابع مجرى أحلامي، صانعاً من الصور دُرَجاً لصورٍ أخرى، ناشراً، مثل مروحة، الاستعارات الطارئة في لوحاتٍ كبيرة لرؤيةٍ باطنية؛ أنزع عني الحياة كما أطرح بدلةً غير ملائمة. أختفي بين الأشجار بعيداً عن الطرقات. أضيع، وأنجح، أثناء لحظات تَكِرُّ بخفّة، في نسيان مذاق الحياة، وفي ترك [. . .] من ضوء ومن ضوضاء، والانتهاء واعياً في أحضان الأحاسيس اللاِمجدية، مثل إمبراطوريةٍ منهارة، مع وجود مدخلٍ محفوف بأعلام وطبول النصر في مدينةٍ نهائية كبرى حيث لن أبكي اللاشيء، ولن أرغب في شيء ولن أطلب الكينونة حتى من ذاتي نفسها.

يؤلمني أديم زرقات المستنقعات التي خلقتها في أحلامي. شحوب القمر الذي أتبيَّنُه في مشاهد الغابات شحوبي. خريف السماوات الآسنة الذي أتذكره ولم أشاهده قط هو تعبي، أرزح

(1) هذه ترجمة تقريبية لعبارات وردت غير واضحة في الأصل.

تحت ثقل حياتي الميتة، كل أحلامي خاوية، كلّ ما لَدَيَّ لم يكن لي، في زرقة سماواتي الباطنية، في الجريان المُرْتَجِ لأنهار الروح أمام النظر، في الهدوء الفسيح والمضطرب لقمح السهول التي أراها ولا أراها.

فنجان قهوة؛ مع تبغ تدخنه، وشذاه يعبر عيوننا المغمضة تقريباً في غرفةٍ معتمة... لا أريد من الحياة سوى أحلامي وهذا... أقليل هو؟ لا أدري؟ هل أعرف أنا ما هو قليل وما هو كثير؟

لَكَم يحلو لي أن أكون آخر، هنالك في المساء الخريفي... أفتح النافذة. كل ما يوجد هناك في الخارج ناعم، لكنه يحزنني مثل ألم غير محدد، مثل إحساس غامض بالاستياء.

وثمة شيء أخير يجرحني، يمزقني، ويفتِّت روحي بالكامل. هو أنني أنا، في هذه الساعة، عند هذه النافذة، أمام هذه الأشياء الكئيبة والناعمة، كان ينبغي أن أكون صورةً جامدة، جميلة، مثل صورةٍ في لوحة - وأنا لست تلك الصورة، ولست حتى غيرها...

الساعة التي تمرّ وتنسى... الليل، الذي يأتي، الذي ينمو، الذي يهبط فوق الكلّ ولا ينهض أبداً لتكُن هذه الروح جُثوتي على الدوام، ولتكن (...) مطلقاً في الظلمات، وأنا لا أفكر أبداً في أن أعيش حاساً وراغباً.

الواقع الأوحد

... وهناك احتقارٌ بغيض وعميق لكل العاملين من أجل الإنسانية، وكل الذين يحاربون من أجل الوطن ويهبون حياتهم في سبيل الحضارة...

. . . احتقارٌ مفعم بغضاً لهم جميعاً، أولئك الذين يجهلون أنَّ الواقع الأوحد بالنسبة إلى الفرد منا هو روحه ذاتها. وما تبقى - العالم الخارجي والآخرون - هو مجرد كابوس لاجَمَاليٍّ، مثل منتوجات أحلام عسر هضم الروح.

كراهيتي للمجهود أي مجهود خارجي تبلغ حدّ الرعب - من كل أشكال المجهود العنيف. والحرب، والعمل المنتج والحيوي، مساعدة الآخرين (. . .) كل هذا لا يبدو لي سوى نتاجٍ للوقاحة، (. . .).

وإزاء الواقع السامي لروحي، كل ما هو نافع وخارجي يغدو مبتذلاً أمام العظمة العليا والخالصة لأكثر أحلامي تواتراً وحياة، أحلامي الأكثر واقعيةً من سواها.

أنقاض

إنه لمن النبل أن تكون خجولاً، ومن المبهر ألّا تحسن أي عمل، ومن العظمة ألا تمتلك أهليةً للعيش. وحده القنط الذي هو انسحابٌ وبُعدٌ، والفن الذي هو ازدراءٌ للحياة العملية، وحدهما يذهّبان بنوع الرضى المتماثل (. . .).

النيران الكاذبة التي يولدها تعفُّننا هي بالأقل علامة نورٍ في عتماتنا.

وحدها الكارثة الأولى والقنط المحض الناجم عن الكوارث المتوالية، بعدها، شعارنا في الحياة مثلما هم سليلو الأبطال الأسطوريين القدامى.

أنا بئر إشارات ارتسمت جميعها في دخيلتي، بئر كلمات لم ترد

ببالي تصنع منعرجات على شفتي، بئر أحلام نسيت أن أحلمها حتى النهاية.

أنا أنقاض بناياتٍ لم تكن أبداً بأكثر من أنقاض، وقد تجنّب أحدهم، في أوْجِ تشييدها، التفكير في مَن شيّدها.

لا نستطيع أن نتناسى الحقد على الذين يستمتعون لأنهم يستمتعون، ولا أن نغفل احتقار من هم فرحون، لأننا لم نعرف كيف نكون فرحين مثلهم. . . ذلك الحلم الزائف، ذلك الحقد الواهن ليسا سوى دعامةٍ فظة وقذرة للأرض التي يستند إليها، متشامخاً وفريداً، تمثالُ قنطنا، شبحٌ معتم وجهه عبارة عن ابتسامة منيعة محاطة بهالةٍ غامضة من السرّ.

طوبى لمن يأتمنون أحداً على حياتهم!

حنينٌ حقيقي

حلاوة عدم امتلاك أسرة ولا رفقة، ذلك المذاق الناعم الشبيه بمذاق المنفى، الذي نحسّ فيه أنفسنا مع الاعتزاز بالنفي، نتذوق بلذةٍ متقلبة القلق الغامض لوجودنا بعيدين - كل هذا أستمتع به بطريقتي اللامبالية، ذلك أنَّ من التفاصيل المميّزة لوضعي الروحي أن التنبه لا يجب أن يحظى برعايةٍ مفرطة، وحتى الحلم ينبغي أن ينظر إليه بتشامخ وبذلك الوعي الأرستقراطي بكوننا نتيح له فرصة الوجود. إيلاء الحلم أهمية زيادة على اللزوم، سيكون معناه إيلاء أهمية مفرطة، في نهاية المطاف، لشيء أصبح منفصلاً عنا، فَفقَد بذلك الحق المطلق في حساسيتنا تجاهه.

للصور المتخيّلة من البروز والصحة ما لا يتوافر للصور الواقعية.

عالمي المتخيّل كان دائماً العالم الحقيقي الوحيد بالنسبة إليّ. لم أمتلك قط غراميات شديدة الواقعية، ومفعمةً دماً وحياة كما امْتلكْتُها مع الصور التي ابتكرتها بنفسي. يا للأسى! أشعر بحنينٍ حقيقي إليها لأنها، عابرات، مثل الآخرين.

مشاريع

يا للوضوح الذي أملي به، العبارات التي لم أكتبها، والمشاهد التي لن أستطيع أبداً وصفها، وأنا منحنٍ، لا منتمٍ، سوى من بعيد، إلى الحياة. أنقش جملاً كاملة، كلماتٍ مضبوطة واحدةً تلو الأخرى، حبكاتٍ درامية تملى عليّ مشيّدة في الروح، أحسّ بالحركة العروضية والشفهية لقصائد كبرى في جميع الألفاظ، و(. . .) مثل عبدٍ لا أراه، يتبعني في العتمة، لكن ما إن أخطو خطوةً واحدة، من الكرسي الذي أرقد فيه وسط أحاسيس منجزة تقريباً، صوب الطاولة التي أريد الكتابة عليها، حتى تفرّ الكلمات، وتموت المشاريع الدرامية على الفور، فلا يبقى من الرباط الحي الذي وحّد الهسهسة الإيقاعية غير حنين قصيّ، غير بقية من شمس على جبالٍ بعيدة، غير ريح ترفع الأوراق بجانب العتبة المقفرة، غير قرابة لم تكتشف قط، غير فجور الآخرين، غير المرأة التي ينبئنا حدسنا بأنها ستلتفت ناظرةً إلى الوراء، بدون أن تكون قد وُجدت أبداً.

المشاريع امتلكتُها جميعاً. **الإلياذة** التي ألّفتها تحتوي على بواعث ذات منطق خاص، على تسلسلٍ عضوي في أجزائها ما كان هوميروس بقادرٍ على تحقيقه لعمله. الإتقان المدروس لأشعاري وكلماتي تبدو معه دقة فرجيل فقيرة وقوة ملتون واهية. الهجائيات الأليغورية التي نظمتها تتفوق جميعها على سويفت من حيث التدقيق

الرمزي للتفاصيل المحددة بإتقان. كم من فرلين[1] كنت وكم من هوراس.

ودائماً كلما نهضت من الكرسي، حيث لم يحدث مطلقاً، في الحقيقة، أن حلمتُ بهذه الأشياء، أجِدُ لَدَيَّ المأساة المضاعفة لمعرفتي ببطلانها ومعرفتي بأنها لم تكن جميعها أحلاماً، وأنَّ شيئاً منها قد بقي في العتبة المجردة لتفكيري وإياها في أن نكون...

لقد كنت عبقرياً في الأحلام أكثر ممّا في الحياة. هذه هي مأساتي. كنت العدّاء الذي سقط تقريباً عند خط الوُصول، وكان الأول، قبل سقوطه.

سماء وحيدة وزرقاء

أن نعيش من الحلم ولأجل الحلم، هادمين الكون ومعيدين بناءه، بنوعٍ من التسلية، من شأنه أن يمنحنا تعلقاً أكبر بلحظة حلمنا. أن نفعل هذا بوعي، بوعي شديد يمنح لاجدوى و(...) فعله. أن نتجاهل الحياة بالجسد كله، أن ننفقد في الحياة الواقعية بكل حواسنا، أن نتنازل عن الحب بالروح كلها. أن نملأ بالرمل الفارغ أباريق ذهابنا إلى النبع ثم نريقها لكي نعود إلى ملئها وإراقتها من جديد بلاجدوى.

أن ننسج أطواقاً من أجل أن ننقضها، بعد الانتهاء من نسجها، نقضاً تاماً وبأقصى دقةٍ ممكنة.

فلنأخذ الألوان ولنخلطها على حاملة الألوان بدون قماش أمامنا لنرسم عليه. أن نجلب حجراً لكي نقطعه بالإزميل بدون أن يكون

(1) بصيغة الجمع في الأصل.

لدينا إزميل وبدون أن نكون نَحَّاتين. أن نجعل الأشياء كلها عبثاً، أن نجعل من ساعاتنا العقيمة كلها لا مجدية. أن نلعب خفية مع وعينا بالعيش.

لننحت في سكونٍ فارغ جميع أحلامنا عن الكلام. أن نُوَسِّن في سبات تام كلّ أفكارنا الفاعلة.

لننصت إلى الساعات قائلة لنا إننا نعيش بابتسامة رضية ملحدة. لننظر إلى الزمن يرسم العالم ولنعثر على اللوحة المرسومة، التي ليست مزيفة وحسب، بل خاوية.

لنفكر بعبارات متناقضة، متكلمين بصوتٍ عالٍ، بأصوات هي أصوات وهي كذلك ألوان ليست في حقيقتها بألوان. لنقُل ونفهم، ما هو متعذر تماماً على الفهم - لنمتلك الوعي بعدم امتلاك الوعي، وبأننا لسنا فعلاً نحن. ولنشرح هذا كله بواسطة حاسةٍ خفية متناقضة لكون الأشياء تمتلك في مظهرها جانباً - آخر وإلهياً، وألّا نبالغ في الإيمان بتفسيرنا حتى لا نضطر إلى التخلي عنه. وفوق هذا كله، ومثل سماءٍ وحيدة وزرقاء، هنالك رعب العيش منبوذاً ومجنوناً.

بيْد أنّ المشاهد المحلومة هي بالكاد بخار مشاهد معروفة وضجر الحلم بها يكاد يكون كذلك بِحَجْمِ ضجر النظر إلى العالم.

(بعد 1913)

لحظة الحلم

بالنسبة إلى ما تبقى، أنا لا أحلم ولا أعيش سوى الحياة الواقعية. كل الطيور هي طيورٌ من أحلام طالما وُجِدتْ فينا القدرة على الحلم بها. ما يهلك الحالم هو انتفاء الإحساس بالحياة لحظة

الحلم؛ (. . .) هو انتفاء الأحلام لحظة ممارسة الحياة. لقد صهرت في لونٍ من ألوان السعادة جمالية الحلم وواقعية الحياة. مهما تملَّكْنا ما نحلم به، فليس بالإمكان أبداً تملك حلمٍ من الأحلام على نحو ما نفعل بمنديلٍ موضوع في الجيب، إو إذا شئنا، مثلما تملك لحمنا ذاته.

مهما عِيشَتِ الحياة بامتلاء [. . .] وأفعال مظفّرة، لن تختفي أبداً (. . .) من الاتصال بالآخرين، والاصطدام بعوائق، مهما ضَؤلت، والإحساس بمضيّ الزمن.

أن نقتل الحلم معناه أن نقتل أنفسنا. أن نبتر روحنا. الحلم هو في الواقع معطى منيع بحوزتنا يتعذر اختراقه.

الكون، الحياة - واقعيَّين كانا أم مجرد وهم - هما في متناول الجميع، الجميع بإمكانه أن يرى ما أراه، وامتلاك ما أمتلكه - أو على الأقل بإمكانه أن يدرك رؤيته و(. . .).

لكن ليس بمقدور أحد سواي أن يشاهد ما أحلم، ولا أحد، سواي، يستطيع امتلاك حلمي وإذا كانت رؤيتي للعالم الخارجي، تختلف عن كيفية رؤية الآخرين له، فلأنها ناجمةٌ عمّا أضعه من حلمي في رؤيتي له بدون إرادة مني وعمّا يلتصق بعيني ومسمعي من غشاوة أحلامي.

أحلامي

أحلامي: لأنني أحسهم أصدقائي في الحلم، معهم أمشي. عيبهم آخر، (. . .).

(يد طفل تلعب ببكرات من قطن... إلخ)[1]

أنا لم أفعل شيئاً قط سوى الحلم، فيه وبه وحده تركَّز معنى حياتي. لم أمتلك أبداً انشغالاً حقيقياً آخر غير حياتي الباطنية. الآلام الكبرى لحياتي تختفي كلها، عندما يكون بمستطاعي، لدى فتحي النافذة المطلّة على شارع حلمي، أن أنسى ذاتي في رؤية حركته الخاصة.

لم أسعَ أبداً إلى أن أكون سوى حالم. والذي حدَّثني عن العيش لم أعِرْه أبداً انتباهي. لقد انتميتُ على الدوام إلى ما لم يوجد حيث أوجد أنا وإلى ما لم أستطع أبداً أن أكون. كل ما لم يكن لي، مهما صَغُر شأنه، امتلك دائماً نوعاً من الشاعرية بالنسبة إلي. لم أحب أبداً غير لاشيء. لم أرغب قط سوى فيما لم أتمكن من تخيله. لم أطلب أبداً من **الحياة**، سوى أن تمرّ عليّ بدون أن أشعر بها. أما الحب فبالكاد طالبته ألّا يكفّ أبداً عن كونه حلماً بعيداً. في مشاهدي الطبيعية الجوانية، اللاواقعية جميعها شَكَّلَ البعيد منها دائماً مصدر انجذابي، والمجاري التي تختفي - تقريباً في مسافة مشاهدي المحلومة - امتلكتْ عذوبةَ حلمٍ ذي علاقة بالأجزاء الأخرى من المشهد - إلى حدّ أنه كان بإمكاني حتى أنا أن أعشقهن بتأثير تلك العذوبة. هوسي بخلق عالم زائف ما زال يصاحبني، ولن يفارقني إلّا عندما أموت، أرتب اليوم في أدراجي بكَراتِ حبال وبيادق شطرنج - بفيل أو فرس يبرز مصادفة - لكن أشعر بالأسى لعدم قيامي... وأرتب في خيالي، بارتياح، كمن يستدفئ بالنار في الشتاء، صوراً تقيم، ثابتة وحية، في حياتي

(1) ورد هذا العنوان بالإنجليزية في الأصل.

الداخلية. لدي عالم أصدقاء بداخلي، بحيوات خصوصية، واقعية، محددة وناقصة.

بعضهم يلاقي صعوبات، بعض منهم يحيا حياةً بوهيمية، وضيعة. ثمة آخرون هم تجار جوالون. (لقد كان من مطامحي الكبرى على الدوام إمكانية أن أحلمني تاجراً جوالاً - هو حلمٌ لا يمكن أن يتحقق مع الأسف - !). آخرون يعيشون في قرى ومدن صغيرة، هنالك صوب حدود/ برتغال/ موجودة بداخلي؛ يأتون إلى المدينة حيث ألتقيهم وأتعرف عليهم مصادفة، وأفتح لهم ذراعي بحرارة. وعندما أحلم هذا، وأراني ألتقي بهم، أبتهج بكاملي، وأتحمَّس، تتحقق ذاتي، وعيناي تتألقان، أفتح ذراعي، فأحسّ السعادة الواقعية، اللاتُضاهى.

آه، لا توجد اشتياقات أكثر ألماً للنفس من الاشتياقات للأشياء التي لم توجد قط! ما أحسه عندما أفكر في الماضي الذي كان لي في الزمن الواقعي، عندما أبكي على جثة حياة طفولتي الماضية...، هذا نفسه لا يبلغ درجة الحرارة المؤلمة والمرتعشة التي أبكي بها لاواقعية الصور المتواضعة لأحلامي، الصور الثانوية نفسها التي أذكر أنني أبصرتها مرةً واحدة، بالمصادفة، بالرجوع إلى زاويةٍ من رؤاي، بالمرور من بوابة شارعٍ اجتزته في ذلك الحلم.

إنَّ الغيظ النابع من أنَّ النوستالجيا لا يمكن أن تعود إلى الحياة أبداً إنما هو احتجاجٌ دامع ضد الله خالق الاستحالات. ذلك يحدث عندما أتأمل كيف أنَّ أصدقاء أحلامي، الذين قاسمتهم تفاصيل كثيرة لحياةٍ مفترضة، وجرت بيني وبينهم محادثات متألقة، في مقاهٍ متخيَّلة، لم ينتموا في النهاية، إلى أيّ فضاء يتيح لهم أن يكونوا، واقعياً، مستقلين عن وعيي بهم!

أوه، للماضي الميت الذي أحمله معي ولم يكن له وجود قط إلّا في داخلي! للحدائق، لبساتين التفاح، لصنوبر الضيعة التي لم توجد سوى في حلمي! عطلاتي المفترضة، نزهاتي عبر حقلٍ لم يوجد أبداً! أشجار جانب الطريق، الممرات، الأحجار، القرويون العابرون. . . كل هذا الذي لم يخرج البتة عن نطاق الحلم، محفوظٌ في ذاكرتي مؤلماً إياي، وأنا، الذي أمضيتُ ساعات بهذه الأشياء، أمضي، بعدئذٍ، أتذكّر لساعات أحلامي عنهن، وما أحسّه، في الحقيقة هو النوستالجيا، ما أبكيه هو ماضٍ مخصوص، ما أبصره هو حياة - واقعية ميتة، ممددة بجلال في تابوتها.

المشاهد والحيوات التي لم تكن داخلية بالكامل موجودة كذلك. ثمة بعض اللوحات، بدون شكل فني بارز، بعض المنقوشات على جدران عايَشْتُها ساعات طويلة - تتحول إلى واقعٍ باطنيّ. هنا يغدو الإحساس مختلفاً، جارحاً و/ حزيناً/ . يحرقني عدم وجودي هناك داخل تلك اللوحات، واقعية كانت أم غير واقعية. ألّا أكون أنا، على الأقل، لوحةٌ أخرى إضافية، مرسومة جنب تلك الغابة على ضوء القمر المجسم في منقوشةٍ صغيرة في غرفةٍ نمتُ فيها وأنا صغيرٌ جداً! ألّا أستطيع التفكير بأنني محجوبٌ هناك، في الغابة، عند ضفة النهر، عبر ذلك الضوء القمري الخالد (بالرغم من أنه رُسِمَ بطريقةٍ سيئة)، ناظراً إلى الرجل الذي يمرّ في قاربٍ أسفل انحناءة الصفصاف! حينئذٍ، يؤلمني تماماً عدم قدرتي على الحلم بشكلٍ كامل. ملامح نوستالجيتي كانت شيئاً آخر. إشارات قنوطي كانت مختلفة. الاستحالة التي عذبتني دوماً تنتمي إلى نمطٍ آخر من الغم. آه، أليس لهذا كله معنى عند الله، تحقُّق متوافق مع روح رغباتنا. لا أدري أين أتجه، عبر زمن عمودي موحد

الجوهر باتجاه نوستالجيتي وهذياناتي! لو لم يكن هناك، على الأقل بالنسبة إلي وحدي، فردوسٌ مصنوع من هذا كله! ألا يكون بإمكاني اللقاء بالأصدقاء الذين حلمت بهم، والتجول في الشوارع التي خلقتها، والاستيقاظ، وسط جلبة الديوك والدجاجات والهمهمة الصباحية للمنزل، في الضيعة المفترضة... وكل هذا منظَّم بطريقة أكثر إتقاناً من الله، موضوعٌ في ذلك النسق المضبوط لكي يمارس وجوده، على الشكل المحدد لكي أمتلكه أنا، بحيث حتى أحلامي نفسها لا تصل سوى إلى [...] الوعي بالفضاء الباطني الذي تتسلى به تلك الوقائع.

أرفع رأسي من فوق الورق الذي أكتب عليه... ما زال الوقت مبكراً. بالكاد مرَّ وقت الزوال واليوم يوم أحد. لعنةُ العيش، داءُ كوني واعياً، ينفذ إلى جسدي ويُبلبلني. آه، لو توجد جزرٌ للمعذبين، أشجار حور عتيقة، غير معثور عليها من آخرين، لأجل المنعزلين داخل الأحلام! ضرورة أن نعيش، على ضآلة ما نعيشه، وأن نقوم بما لا بد من أفعال، ضرورة الاحتكاك بأناسٍ آخرين، واقعيين بدورهم، في الحياة! ضرورة أن أكون هنالك كاتباً هذا كله، لأن كتاباتي إياه ضرورية بالنسبة إلى الروح، وحتى هذا، ليس بمقدوري حتى أن أحلم به، وأن أعبّر عنه بدون كلمات، وحتى بدون وعي، بواسطة عملية بناء للذات مشكلة من موسيقى وإغماء، إلى حد أنَّ عيني اغرورقتا بالدمع لمجرد إحساسٍ بتعبيري عن ذاتي، كما أنَّ أناي ازدهى، مثل نهرٍ مسحور، بفعل انحداراتٍ بطيئة لذاتي نفسها، أكثر فأكثر صوب اللاوعي والسحيق، بدون أي إحساس ما عدا/ الله/ .

قسمٌ ثانٍ

ما يراه الحالم

عادة الحلم وطريقته هي الشيء الأكثر تأصلاً فيّ. إنَّ ملابسات حياتي، مذ كنت طفلاً وحيداً أو هادئاً، بجانب قوى أخرى ربما، شكَّلتني من بعيد، بموروثات غامضة، قد جعلت من روحي، بجرحها المشؤوم تياراً دائباً من هذيانات شتى. كل ما يتشكَّل منه أناي يكمن في هذا، وحتى ذلك الذي يبدو فيّ أبعد ما يكون عن متناول الحلم، ينتمي بلا شك إلى روح مَن شُغْلُهُ الأوحد هو الحلم، مُصعَّداً إلى أعلى درجاته.

أريد لحساب متعتي الخاصة في تحليل ذاتي، أن أضع في كلمات بقدر ما توفره لي من راحة، الأنساقَ الذهنية التي هي في داخلي مجرد نسقٍ واحد، أنساقاً لحياةٍ مكرَّسة للحلم وحده، أنساقاً لروح متعهّدة فقط لممارسة الحلم.

بنظري إلى ذاتي من خارج، كما أفعل دائماً تقريباً، أبدو عديم الأهلية للفعل، مبلبلاً إزاء مجرد فعل القيام بخطوات وإصدار حركاتٍ معينة، غير صالحٍ لمحادثة الغير، بدون ألمعيةٍ باطنية لأتسلى بما يستدعي جهداً ما في روحي، ولا قدرة فيزيقية لكي أطبِّق أي ميكانيزم خالص للتسلي بالعمل.

إنه لمن الطبيعي أن أكون هكذا. الحالم يفهم مسألة كونه على النحو الذي هو عليه. كلّ أشكال الواقع تكدِّرني. كلام الغير يغرقني، في غمٍّ فظيع. واقع الأرواح الأخرى يثير مفاجأتي على نحوٍ ثابت. الشبكة الشاسعة لما أراه من أفعالٍ لامدركة تبدو لي وهماً باطلاً، بدون أيّ تماسكٍ معقول.

لكن من الخطأ البليغ بخصوص ذاتيتي الاعتقاد بأنني أجهل بسيكولوجيا الغير، وأنني أخطئ في إدراك بواعث وخبايا أفكارهم الإدراك الجلي الصحيح.

ذلك لأنني لست بحالم، بل أنا بالحصر حالمٌ وحسب. عادةُ الحلم الوحيدة لدي زودتني بوضوحٍ استثنائي في الرؤية الباطنية. لست أبصر فحسب بجلاء مرعب ومشوش أحياناً صور أحلامي وديكوراتها، ولكنني أرى بالوضوح نفسه، أفكاري المجرَّدة مجسمة، عواطفي الإنسانية - ما تبقى لدي منها - بواعثي السرية، مواقفي النفسية إزاء ذاتي نفسها. وأجزم بأنني أرى أفكاري المجردة ذاتها، أراها فيّ، أراها برؤيةٍ باطنية واقعية في فضاءٍ باطني. وهكذا، تغدو منعطفاتي مرئيةً تماماً في أدقّ تفاصيلها.

لذلك، أعرف نفسي معرفة كاملة، ومن خلال معرفتي الكاملة بي، أعرف الإنسانية كلها تمام المعرفة. ما من دافعٍ خفيّ، ولا من مقصدٍ نبيل لم يلتمع برقّةٍ في روحي؟ أعرف جيداً الإشارات التي يتعيَّن بها كل دافع وكل نزوع. أعرف أصحابها، من خلف الأقنعة التي تستخدم الأفكار السيئة، جيدةً كانت أم لامبالية حتى بداخل أنفسنا. أعرف جيداً ما يصرّ بداخلنا على خداعنا. وهكذا أعرف أغلبية الذين أراهم أفضل ممّا يعرفون أنفسهم. أحياناً كثيرة أجتهد في سبر أغوارهم، وبذلك أتملّكهم. أكتسح النفسانية التي أشرحها

لأن فعل الحلم لدي يستلزم التملك. وهكذا يتبدى كم هو طبيعي أن يكون الحالم الذي أنا إياه، هو التحليليّ الذي أستكشفه.

من بين الأشياء القليلة التي تحلو لي قراءتها، هنالك الأعمال المسرحية. الأيام كلها تتعاقب في مسرحياتي. وأنا أعرف في العمق كيف تبرز روحٌ من الأرواح في عرض لـ Mercator أتسلى قليلاً، مع ذلك، بهذا؛ فأخطاء المسرحيين دائماً كبيرة وشديدة الابتذال. لم أرتح قط لأي مسرحية. ولأنني أعرف السيكولوجية الإنسانية بوضوحٍ بَرْقي يسبر كل الزوايا بنظرةٍ واحدة، فإن التحليل الفظ لكُتاب الدراما وأبنيتهم المسرحية تجرحني، والقليل الذي أقرأه من هذا الجنس يكدِّرني مثل لطخة حبر تعترض سيولة الكتابة.

الأشياء هي مادة أحلامي؛ لذلك أستعمل انتباهاً فائق التيقُّظ إزاء تفاصيل خارجية معينة.

لكي أمنح أحلامي الوضوح المطلوب، أحتاج إلى معرفة الكيفية التي بها أضحت المشاهد الواقعية وشخوص الحياة اليومية تشبهنا نحن. لأن رؤية الحالم ليست مثل رؤية الذي ينظر إلى الأشياء. ففي الحلم، ليس المعيار هو وقوف النظر على ما هو مهم أو غير مهم لشيءٍ ما من أشياء الواقع. الأهم في الحلم هو فقط ما يراه الحالم. الواقعية الحقيقية لشيء ما هي فحسب جزءٌ من أجزائه؟ ما تبقى هو الضريبة الثقيلة التي تؤدّى للمادة مقابل الوجود في الفضاء. وعلى نحوٍ مماثل لا وجود في الفضاء، لأي واقعية لظواهر معينة هي في الحلم ذات واقعية ملموسة. إنَّ غروباً واقعياً هو دوماً طارئ وعابر. أما مشهد غروب يجري في الحلم فثابت وخالد. مَن يعرف الكتابة هو الذي يعرف كيف يرى الأحلام بوضوح وكيف يرى في الأحلام الحياة، الحياة على نحوٍ لامادي، مستخرجاً لها صوراً بآلة الهذيان،

حيث أشعة الماضي، واللامجدي، والمحدّد تنعكس سوداء على لوحة الروح.

هذا الموقف الذي قادني إليه عيشي الدائم في عالم الأحلام يجعلني أبصر الجانب الحلمي من الواقع. إنَّ رؤيتي للأشياء تلغي دوماً ما لا يستطيع حلمي استخدامه من أشياء. وهكذا أحيا دائماً في الأحلام. حتى عندما أعيش في الحياة ذاتها. النظر إلى غروب داخلي أو إلى غروب في الخارج هو شيءٌ واحد بالنسبة إليّ. لأنني أرى الأشياء بالطريقة نفسها، ولأن رؤيتي مفصّلة بالتساوي.

لذلك، فإن الفكرة التي أكوّنها عن ذاتي هي فكرة ستبدو للكثيرين خاطئة. وهي خاطئة، على نحو من الأنحاء. لكنني أحلم بذاتي نفسها وأختار مني ما هو قابلٌ للحلم، وأصوغ ذاتي وأعيد ترتيبها بكلّ الأشكال الممكنة حتى أكون على ما يرام أمام ما أتطلبه مما أنا إياه وما لست إياه. أحسن طريقة للنظر إلى شيء معين، أحياناً، هي إلغاؤه، بيْد أنه يبقى قائماً، لا أعرف كيف أفسِّر الأمر، مصنوعاً من مادة نفي وإلغاء؛ هكذا بإلغائي لفضاءاتٍ كبرى من كينونتي داخل إطارٍ ذاتيّ، أحوِّلها إلى واقعي الباطني الخاص.

كيف لم أنخدع، حينئذٍ بأنساق الأوهام التي كونتها عن ذاتي؟ لماذا النسق الذي ينتزع لأجل واقعية تجاوز الواقع، مظهراً من مظاهر الواقع أو صورةً من صور الأحلام ينتزع كذلك، ليكون أكثر واقعية، انفعالاً أو تفكيراً ما، فيجرِّده، إذن من كلّ ما يحويه من نبلٍ أو طاقةٍ خالصة، حينما، وهو ما يحدث دائماً تقريباً، لا يكون بالفعل ما هو إياه. ألاحظ أنَّ موضوعيتي مطلقة، بل هي الأكثر إطلاقية من كل الموضوعيات، أخلق الموضوع المطلق، بخاصيات الإطلاقية في صميم تطلّبه. أنا لم أهرب من الحياة، باتجاه السعي

إلى إيجاد فراشٍ وثير لروحي، لقد غيرت الحياة فحسب، فعثرت في أحلامي على الموضوعية نفسها التي وجدتها في الحياة. أحلامي - هذا ما سأبحثه في صفحةٍ أخرى - تحيا مستقلة عن إرادتي وكثيراً ما تجرحني وتؤلمني. كثيراً ما يُحزنني ويُخجلني ما أكتشفه فيَّ من خصال إلى حدّ الفزع.

الهذيان اللامنقطع ينوب عن الانتباه. لقد انتقلتُ إلى توليف الأشياء المرئية محلومةً حتى بعد استبدالها بأحلامٍ أخرى أحملها بداخلي.

وأقوم وأنا في حالة شرودٍ قصوى بما أسمّيه رؤية الأشياء في الحلم، محفَّزاً بهذيانٍ مستديم وانشغال متصل بمرور أحلامي، ضاماً ما أحمله إلى الحلم الذي أراه يتقاطع مع الواقع وقد تجرَّد من المادة بصفةٍ مطلقة.

ومن ثمة أتتني الحذاقة التي اكتسبتها من متابعة أفكارٍ متعددة في وقتٍ واحد، ملاحظة الأشياء مع الحلم في الوقت نفسه بشؤونٍ شديدة التباين، ومن وجودي حالماً في وقتٍ واحد بغروبٍ واقعي على نهر التاج وبنهارٍ متخيل في محيطٍ هادئ باطني؛ والشيئان المحلومان يتداخلان، الواحد في الآخر، بدون أن يختلطا حتى على مستوى الموقف التأثري المختلف الذي يستثيره كلّ منهما، وأنا، في هذه الحالة في وضعٍ شبيه بمن يشاهد مرور الكثير من الناس في الشارع حاساً بداخله أرواح الجميع - وهو ما ينبغي أن أحقِّقه ضمن إحساسٍ موحد - في الوقت نفسه الذي أرى فيه الأجساد المختلفة - لا بد أنها شوهدت في أوضاعٍ مختلفة - وهي تتقاطع في الشارع العامر بحركات الأقدام.

(بعد 1914)

(خرافة إمبراطورية)

تخيُّلاتي أشبه ما تكون بمدينةٍ في الشرق، تركيبتها الواقعية في الفضاء تمتلك تَرَفِيَّة سطح سجادةٍ نفيسة وناعمة. الدكاكين التي تلوّن شوارعها تبرز بوضوح فوق عمقٍ أجهله. مثل تطريزات بالأصفر أو الأحمر على أنسجةٍ صريحة الزرقة. / التاريخ كله/ يتقدّم، من تلك المدينة ترفرف حول مصباح أحلامي فراشةٌ مسموعة بالكاد في عتمة الغرفة. لقد عاشت تخيلاتي وسط الأبهة مرةً أخرى وتَلَقَّتْ من يدي الملكات حلي سهرات عصورٍ قديمة. رَمْلاتُ وجودي تَدَثَّرَتْ بسجاداتٍ باطنية وبأنفاسٍ من عتمة، الطحالب طفت على جنبات أنهاري. لذلك كنت أروقة حضارات مفقودة، حُمَّى تَوْرِيقَاتٍ في أفاريز بائدة، اسودادات أبدية في تثنيات أعمدةٍ غابرة، صواري سفنٍ غريقة في عهودٍ سحيقة، درجاً لعروشٍ صريعة؛ براقع لا تحجب شيئاً، أشباحاً مرفوعةً عن الأرض مثل دخانٍ مقذوفٍ. مشؤومة كانت فترة ملكي عامرةً بالحروب على الحدود المبعدة عن السلام الإمبراطوري لقصري. قريباً كنت على الدوام من الصخب الملتبس للاحتفالات البعيدة، دائماً ثمة مواكب احتفالية تمرّ تحت نوافذي؛ لكن ليس ثمة ولا سمكات من ذهب مجسدة في مسابحي، ولا ثمرات تفاح على شجرات تفاحي، ولا حتى مجرد أكواخ بائسة من تلك التي يحيا فيها آخرون بسعادة، أو دخان مداخن واقعة فيما وراء الأشجار، تنوّم بالأشعار اللُّغْزَ القلق لوعيي بي.

(استهلال؟)

عليّ أن أختار ما أكره - إمّا الحلم الذي يبغضه ذكائي، أو الفعل الذي تنفر منه حساسيتي؛ إما الفعل، الذي لم أخلق له، وإما الحلم الذي لم يُخلق له أحد.

وما يحدث بالفعل، ما دمت مبغضاً لكليهما؛ هو أنني لا أختار لا هذا أو ذاك: لكن لأنّ عليّ في ظروفٍ معينة، أن أحلم أو أفعل، لا مناص، لذلك أخلط هذا الشيء بذاك.

حزن الشاعر

مَن يقرأ صفحات هذا الكتاب السابقة لهذه، سوف يتكون - ولا ريب، لديه انطباع بأنني رجلٌ حالم. سيكون مخدوعاً إن تصوَّر ذلك، فلكي أكون حالماً أحتاج إلى المال.

الكآبات الكبرى، الأحزان المفعمة قنوطاً لا يمكن أن توجد إلّا في وسطٍ مرفَّه مفرط الترف. ثمة Egeus de Poe الغارق لساعات وساعات في ذهولٍ مريض، داخل قصرٍ قديم، هنالك فيما وراء أبواب الصالة الكبرى حيث ترقد الحياة، مع قهرمانات لا مرئيين يديرون شؤون الإقامة والطعام.

يستلزم الحلم الكبير ظروفاً اجتماعيةً معينة. ذات يوم مفتوناً بالحركة الإيقاعية لما كتبت، سأتذكر شاتوبريان، لن أتأخر في تذكُّر أنني لم أكن فيكونتا، ولا بريتونيا. وحالما ظننتني حاساً بما تحدثت عنه، لم يتأخر شَبَهٌ ما بِرُوسُو في الظهور لدي لأنني لم أمتلك امتياز أن أكون نبيلاً وقشتالياً أو حتى أن أكون سويسرياً وصعلوكاً.

لكن ثمة، في النهاية، كون بكامله في شارع دورادوريس. كذلك الله هنا يوفر لنا اللغز الدائم للعيش. لذلك، إذا كانت الأحلام التي أسْتجْلِبها، بئيسةً، مثل مشهد العربات والصناديق، فإنها مع ذلك هي كلّ ما أملك، وهي كل ما أستطيع أن أكون.

الأشياء بلا شك، إنما تحدُث في مكانٍ آخر، لكن حتى من خلال هذا الطابق الرابع المطلّ على المدينة بالإمكان التفكير في

اللانهائي. في لانهائيٍّ ذي مخازن في الأسفل، أكيد، إنما مع نجوم في النهاية. . . هذا ما أفكر فيه، في نهاية المساء هذا، جنب النافذة العالية، مصحوباً بعدم رضى البورجوازي الذي لست إياه وحزن الشاعر الذي لن أستطيع البتة أن أكونه.

ليل الهاوية

بُؤْسُ وَضْعي لا تعوقه هذه الكلمات المزاوجة التي أشكِّل بها، شيئاً فشيئاً، كتابي العرضي التأملي. باطلاً أحيا في عمق كلّ عبارة، مثل غبرةٍ قابلةٍ للتفسُّخ في عمق الكأس التي لم أشرب سوى الماء منها. أكتب أدبي كما أُدَوِّنُ تقييداتي: باحتراز ولامبالاة. أمام السماء الشاسعة المهشمة، أمام لغز أرواح كثيرة، ليل الهاوية المجهولة والنحيب، نحيب عدم فهم أيّ شيء في العالم، أمام هذا كله، ما أكتبه في كتاب صندوق الحسابات وما أكتبه في ورق الروح هذا هي أشياء محددة بالتساوي عند شارع Dos Douradores، ولدى الفضاءات الكبرى للكون.

هذا كله مجرد حلم وخيال ظل. . . أيهما الأفيد الحلم بالأميرات أم الحلم بباب مدخل المكتب؟ كل ما نعرفه هو انطباعنا نحن، وكل ما نحن إياه هو انطباع الغير عنا، ميلودراما لذواتنا نحن، بإحساسنا، نشكل داخل متفرجينا النشيطين، وآلهتنا بـ (. . .).

(الكومندان)

لا شيء يكشف ويفسر تفسيراً باطنياً كاملاً جوهر تعاستي الفطرية مثلما يفعل نمط الهذيان الذي أختاره باستمرار بَلْسَماً لِبَرَمِي بالوجود. يمكن أن أختزل جوهر ما أرغب فيه فقط فيما يأتي: أن

أنام الحياة. شغوفٌ أنا بالحياة بما يزيد على الحاجة حتى أرغب في أن أعيشها؛ راغبٌ أنا زيادة على اللزوم في عدم عيشها حتى أمتلك تجاهها رغبة في أوانها.

هذا ما سأتركه مكتوباً، أفضل أحلامي الأثيرة. في الليل، أحياناً، بالمنزل الهادئ لأن ذويه تركوه أو أنهم لاذوا بالصمت، أغلق زجاج نوافذي، وأقفلها بالمغاليق الثقيلة؛ [. . .] أتكئ، - داخل بدلةٍ بالية، على المقعد العميق، ثم أغرق في حلم كوني كومنداناً محالاً على المعاش في نزلٍ قروي في ساعة ما بعد العشاء. . .

أفترض أنني ولدت هكذا. لا يعنيني شباب الكومندان المتقاعد، ولا الأهداف العسكرية التي جعلته يرقى حتى التحول إلى رغبتي هذه. الكومندان الذي أفترضه، مستقلاً عن الزمن وعن الحياة، ليس لاحقاً لأي حياةٍ من حيواته، لا يمتلك ولم يمتلك أشباهاً؛ إنه موجودٌ بالكامل في حياته تلك في ذلك النزل الريفي، متعباً من المحادثات عن النوادر التي جرت له مع الرفقاء في المماطلة.

1919-10-8

تعال

عبر درج الأحلام وعبر متاعبي انزلْ من لاواقعيتك، انزلْ وتعالَ لتحلَّ محل العالم.

مسرحٌ هو كل شيء

لا شيء يثقل على النفس مثلما تثقل عواطف الغير - ولا كراهية الغير. لأن الكراهية أكثر تقطعاً من المودة؛ ولأنها عاطفةٌ كريهة، فهي تتجه، بغريزة من يحسها، إلى أن تكون أقل تواتراً، لكن

الكراهية والحب معاً يضايقاننا؛ كلاهما يبحث ويسعى إلى عدم تركنا وحيدين.

النموذج الأمثل بالنسبة إليّ هو أن أعيش كلّ حياتي داخل مشروع رواية، مستريحاً في الحياة - أقرأ عواطفي، أعيش احتقاري الدائم لها. بالنسبة إلى من يعيش من التخيلات، تغدو مغامرات بطل في رواية مغامراته هو. لا توجد مغامرةٌ تعادل مغامرة أن تحب Lady Macbeth حباً حقيقياً ومباشراً؛ . . .

لا أدري أي اتجاه يأخذ هذا السفر الذي أجبرت على القيام به بين ليل وآخر، برفقة الكون بتمامه. أعرف أنَّ بإمكاني الاستغراق في القراءة لكي أتلهى. أعتبر القراءة كطريقة أكثر بساطة للتسلي بهذا السفر أو ذاك، ومن حينٍ إلى آخر، أرفع العينين عن الكتاب الذي من خلاله أحسّ، وأرى، حقيقة، مثل أجنبيّ، المشهدَ الهاربَ - حقول، مدن، رجال ونساء، مودات واشتياقات - وهذا كله ليس بالنسبة إليّ بأكثر من فصلٍ من فصول استراحتي، ليس بأكثر من تسليةٍ خاملة أريح فيها عيني من فرط القراءة.

ما نحمله فقط هو بالفعل ما نحن إياه - لأن ما تبقى، ينتمي، لكونه قد تمّ إنجازه، إلى العالم بأسره. لو تمكنت من تحقيق حلم من أحلامي، لتملَّكتني الغيرة منه، سيكون حينها قد خانني بانتقاله إلى مجال التحقُّق. لقد حققت كل ما شئت من أحلام، يقول الضعيف، مفترياً؛ والحقيقة أنه قد حلم نبوئياً بكل ما حقَّقَتْهُ الحياةُ بواسطته، لا بما حقّق هو من الحياة. نحن لا ننجز شيئاً. الحياة تقذفنا مثل حجر ونمضي مع ذلك عبر الهواء قائلين «من هنا أمضي متحركاً».

كائناً ما كان هذا الهذيان المدلَّل تحت الشمس وتحت إلماعات

النجوم، لن تؤلمنا معرفة أنه هذيان؛ إذا كانت الحياة هي ما يوجد فيما وراء أبواب المسرح، فسنحيا؛ وإذا كان الموت وحده هناك، فسنموت؛ أما المسرحية فلا علاقة لها بهذا كله.

لذلك، لا أشعر أبداً بأنني قريبٌ جداً من الحقيقة، مثلما يحدث لي عندما أذهب، ونادراً ما أفعل، إلى المسرح أو السيرك: أعرف حينئذٍ أنني أشاهد في النهاية التصوير المتقن للحياة. والممثلون والممثلات، المهرّجون والمشعوذون يبدون عبارة عن أشياء قيِّمة وتافهة مثل الشمس والقمر، مثل الحب والموت، الطاعون، الجوع، الحرب لدى الإنسان. مسرحٌ هو كل شيء. آه، أوَأريد الحقيقة؟ سأتابع مع الرواية...

شغف

أمتلك، باعتباري كائناً ذا نشاطٍ ذهني هائل، شغفاً عضوياً وحتمياً بالمُرسَّخِ والمعلوم. أكره الحياة الجديدة والمكان المجهول.

سماء صيفٍ ميّت

الحياة سفر تجريبي، بصفةٍ لاإرادية، إنه سفرٌ للروح بواسطة المادة، ولأنّ الروح هي التي تسافر، لذلك بداخلها وفيها تتمّ الحياة. ولذلك، ثمة أرواح متأملة عاشت على نحوٍ أكثر حدة واتساعاً. وأكثر صخباً من تلك التي عاشت حياتها خارجياً وحسب. والحصيلة تؤكّد ذلك كله. فما أحسسناه هو ما عشناه. هنالك مَن يلوذ بالحلم كما لو بشغل محسوس. عندما نفكر أكثر نعيش الحياة بكثافة وغنى أكبر.

من يوجد منزوياً في ركن الصالة يراقص الراقصين كافة. يرى

كل شيء، ولأنه يرى كل شيء، فهو يعيش كل شيء. ولأن الكلّ في المحصِّلة الأخيرة، ما هو إلّا إحساسنا نحن بالأشياء، لذلك لا يوجد فرقٌ بين الاتصال بجسد أو الاكتفاء برؤيته، أو حتى، مجرَّد تذكُّره. أنا أرقص، إذن، عندما أشاهد الرقص. وأقول، مع الشاعر الإنجليزي عندما حدَّثنا - مستلقياً على العشب - عن تأمُّله وضعية ثلاثة حصادين: «ثمة ما يستحصد، والمستحصَد هو أنا».

هذا كله الذي، أقوله مثلما أحسّه، يأتي متلائماً مع التعب الكبير الذي بلا سببٍ في الظاهر، والذي نزل عليّ بغتة هذا اليوم. لست متعباً وحسب، بل مفعماً مرارة، وهذه المرارة مجهولة العلة بدورها. إنني، لشدّة كربي وغمي، على حافة البكاء - لا بدموع تذرف، بل بدموع تردع، دموع مرض مستفحل في الروح، وليس بفعل ألمٍ محسوس.

لكَم عشتُ من حيوات بدون أن أحياها! يا لكثرة الأفكار التي تأملتها بدون أن أمارس التفكير! إنني لأنُوْء بثقل عوالم من عنف حبيس، ثقل مغامرات مقترفة بدون أي حركة. إنني متخم ممّا لم أمتلكه وما لن أمتلكه أبداً، ضَجِر من آلهة لم يوجدوا، أحمل معي جراح جميع المعارك التي تجنَّبتها. جسدي منهكٌ بفعل الجهد الذي لم أفكر في القيام به.

قاتم، أخرس، باطل... السماء العالية هي سماء صيف ميت، ناقص. أنظر إليها كما لو لم تكن هناك. أنَوِّمُ ما أُفَكِّرُه، لقد قُذف بي ماشياً، أعاني بدون أنْ أحس. نوستالجيتي الكبرى مشتقة من لا شيء، هي لا شيء، مثل السماء العالية التي لا أراها، والتي أنا ناظرٌ إليها على نحوٍ لاشخصي.

1932-3-26

عزاءٌ مصطنع

كل تلك الحوادث البائسة لحياتنا التي كنا فيها مضحكين، أو جديرين بالاحتقار، أو مرتبكين ينبغي أن نعتبرها، على ضوء رباطة جأشنا الباطنية، مثل وعثاء السفر. نحن في هذا العالم، باعتبارنا مسافرين، اختياراً أو قسراً ما بين اللاشيء واللاشيء أو ما بين الكل والكل، ما نحن إلّا مسافرون لا يجب أن يولوا أهميةً زائدة لحوادث المسافة، ولرضوض الطريق. لا أدري إن كنتُ أتعزى بهذا لأنني أجد فيه عزائي بالفعل، أو لأنه هو يحوي ما يبعث على العزاء، لكن العزاء المصطنع يغدو حقيقياً لديّ ما لم أفكّر فيه.

علاوةً على ذلك، ثمة الكثير ممّا يعزي النفس! هنالك السماء الزرقاء العالية، الصافية والهادئة، حيث تطفو على الدوام غيومٌ ناقصة.

ثمة النسيم العليل، الذي يحرك الأغصان الصلبة للأشجار، في الحقل، - إنَّ تعلق الأمر بالحقل -؛ والذي يهز الثياب المنشورة، في الطوابق الرابعة، أو الخامسة، إن تعلق الأمر بالمدينة. ثمة الحرارة أو البرودة. . .، ودائماً في العمق، يأتي [. . .] بنوستالجيته أو أمله، وابتسامةٍ سحرية على نافذة العالم، ما نرغب فيه منادين، مُنادين باب ما نحن إياه، مثل متسولين، ليسوا في حقيقتهم سوى المسيح.

1933-12-23

رأيت ما لم أر

فكرة السفر تثير فيَّ الغثيان

لقد رأيتُ كلّ ما لم أره قط.

لقد رأيت كل الأشياء التي ما زلت لم أرها بعد.

الضجر ممّا هو جديد باستمرار، الضجر من الاكتشاف، خلف الاختلاف الزائف للأشياء والأفكار، الهوية الدائمة لكلّ شيء، التشابه المطلق بين المسجد والمعبد والكنيسة، تماثل الكوخ والقصر، الجسد نفسه، المتوَّج ملكاً والجسد المتوحش العاري، التطابق الأبدي للحياة مع ذاتها. التوقف الكلي، أحيا لأجل أن أتحرك فقط، لكلّ ما يمر.

المشاهد كلها محض تكرارات في سفر نقوم به في قطار مضجر ولا مُجد بين التسلي بالمشهد والتسلي بالكتاب الذي سيسليني لو كنت شخصاً آخر.

لدي تجاه الحياة غثيانٌ ملتبس يزداد بروزاً مع كلّ حركة.

القنوط ينتفي بالنسبة إلى المشاهد التي ليس لها وجود فقط، في الكتب التي لن يتوجب عليَّ قراءتها أبداً. الحياة بالنسبة إليّ، إغفاءةٌ لا تصل إلى الدماغ الذي أحافظ عليه حراً كيما أستطيع أن أكون فيه حزيناً على هواي.

آه فليسافر أولئك الذين ليس لهم وجود! بالنسبة إلى مَن ليس بشيء، ينبغي أن يكون جريان النهر حياة، لكن بالنسبة إلى من يفكرون ويحسون، ومن هم متيقظون على الدوام، فإنَّ هستيريا القطارات والسيارات، والسفر، تحرمهم النوم واليقظة.

من أيما سفر، مهما كان قصيراً، دائماً أعود كما لو من نومٍ مليء بالأحلام - مع التباس أحاسيس متلاصقة ثملاً برؤى ما لم أره.

لأظفر بالراحة، تنقصني عافية الروح، لأكون قادراً على الحركة، ينقصني شيء يوجد ما بين الروح والجسد؛ ما يستعصي لديّ ليس الحركات، وإنما الرغبة في امتلاك الحركات.

أحياناً كثيرة تصادف أن رغبت في عبور النهر، في عبور الدقائق العشر من Terreiro do Paço إلى Cacilhas[1] لكن دائماً كان يتملّكني ما يشبه الخجل من كثرة الناس، ومن ذاتي نفسها، ومن الغاية من العبور ذاته. مرة أو مرتين اجتزت إلى هناك، أحسستُ دائماً بالاضطهاد، ولم أضع قدمي على الأرض إلّا عندما قفلت عائداً من حيث أتيت.

عندما يتقوى الإحساس ويتعمَّق، يصبح التاج هو المحيط الأطلنتيكي، وCacilhas تصبح قارةً أخرى، أو حتى كوناً آخر.

أسفار

أو عليَّ أن أسافر؛ لأجل السفر حسبي أن أوجد. أذهب من يوم إلى آخر من محطةٍ إلى محطة، في قطار جسدي، أو قدري، مطلاً على الشوارع والساحات، وعلى الحركات والوجوه، المتماثلة دائماً والمختلفة دائماً، مثل المشاهد كلها.

عندما أتخيل، أرى. لو سافرت هل سأقوم بأكثر من فعل الرؤية؟ وحده، الوهن الأقصى للمخيِّلة يبرِّر ضرورة التنقُّل من أجل الإحساس. «باستطاعة أيّما طريق، حتى طريق Entepfuhl تلك، أن تمضي بك حتى نهاية العالم». غير أنّ نهاية العالم، منذ انتهى معاوداً البدء من حيث أتى، هو نفسه Entepfuhl الذي منه تمَّت الانطلاقة.

إنَّ نهاية العالم، في الواقع، مثل بدايته، ما هي إلّا تصورنا

(1) Cacilhas: توجد في الجانب الآخر من نهر التاج وهي مشهورةٌ بمطاعمها الشعبية المختصة في ثمار البحر.

نحن عنه. ففي دواخلنا نحن تمتلك المشاهد مشهديتها. لذلك فأنا إذ أتخيلها، أخلقها من جديد؛ وإذ أخلقها، تغدو موجودة. أراها مثلما أرى الآخرين. لماذا السفر إذن؟ إلى مدريد، برلين، فارس، الصين، القطبين المتجمدين. أين أوجد أنا؟ أولستُ داخلي ذاتي أوجد؟ وداخل نمط وجنس أحاسيسي الخاصة؟

الحياة هي ما نصنعه نحن بالحياة. الأسفار هي المسافرون. ما نراه ليس هو ما نراه، بل هو ما نحن إياه.

الرحالة الأكبر

الرحالة الوحيد ذو الروح الحقيقية الذي عرفته كان هو الفتى العامل في المكتب الواقع في مبنى آخر حيث كنت مستخدماً فيه. لقد كان ذلك الفتى مهووساً بجمع منشورات الدعاية السياحية للمدن، والدول وشركات النقل؛ كانت لديه خرائط - بعضها منزوعٌ من الجرائد، وبعض كان يطلبه من هنا وهناك -؛ كانت لديه قصاصات ليوميات ومجلات، صور مشاهد طبيعية، صور لتقاليد غرائبية، رسوم مراكب وسفن. كان يقصد الوكالات السياحية، باسم مكتبٍ خيالي مفترض، أو ربما باسم أيّ مؤسسة موجودة بالفعل، قد تكون تلك التي يعمل بها، ويطلب منها ملصقات وكتيبات عن أسفار سياحية إلى إيطاليا، إلى الهند، منشورات أسفار متبادلة بين البرتغال وأستراليا.

لم يكن الرحالة الأكبر وحسب، لكونه الرحالة الحقيقي الذي عرفته: لقد كان كذلك أحد أسعد الأشخاص الذين أتيح لي اللقاء بهم. أشعر بالأسى لعدم معرفتي بما آلَ إليه أمره، أو أنني، في الواقع، أفترض وجوب شعوري بالأسى؛ إذ لا شيء أشعر به الآن

بالفعل، بعد مرور عشر سنوات أو أكثر، على الزمن القصير الذي عرفته فيه، لا بد أنه أصبح رجلاً بليداً يقوم بواجباته بالكامل، متزوجٌ ربما، مع سندٍ اجتماعي لما لا أدري - ميت، في النهاية، في حياته ذاتها. ويمكن حتى أن يكون قد سافر جسدياً بالفعل، هو الذي طالما سافر بروحه.

أتذكر بغتة، لقد كان يعرف تمام المعرفة خطوط السكك الحديد التي يتمّ منها السفر من باريس إلى بوخاريست، والخطوط الحديد التي تقودك إلى كل أنحاء إنجلترا.

ومن خلال التلفّظات المغلوطة للأسماء الغريبة للمدن والعوالم، تتجلى يقينية عظمته الروحية. اليوم، لا بد أنه ميت على قيد الحياة، لكنه قد يتذكر، ذات يوم، وهو مسنّ أنّ الحلم ببوردو بدلاً من النزول بها ليس هو الأفضل فحسب، بل هو الحقيقي.

وحينئذٍ كان لا بد لهذا كله من تفسيرٍ آخر، وهو نفسه ما كان ليكون سوى مقلد شخص ما. أو... أجل، أعتقد أحياناً، باعتبار المسافة الشاسعة بين ذكاء الأطفال وغباء الكبار، أننا مصحوبون خلال طفولتنا بروحٍ حارسة، تعيرنا ذكاءنا النجومي. ثم فيما بعد ووفقاً لقانون علوي، تتخلى عنا، ليس بدون أسى، كما تتخلى أمهات الحيوان عن لداتها النامية، عن العلف الذي هو مصيرنا.

عوالم وهمية

ثمه علمٌ للمعرفة، يسمى علماً على وجه التخصيص، وثمة علم للفهم هو الذي يسمى ثقافة، لكن ثمة أيضاً علم خاص بالحساسية.

علم الحساسية هذا لا صلة له بتجربة الحياة. تجربة الحياة لا تُعَلِّمُ شيئاً، مثلما التاريخ لا يخبرنا بشيء. التجربة الحقيقية تتمثَّل في

تقليل وتقييد الاتصال بالواقع وفي مضاعفة تحليل ذلك الاتصال.
على هذا النحو، تتوسع الحساسية وتتعمَّق، إذ داخل أنفسنا يوجد كلّ شيء؛ يكفي أن نبحث وأن نجيد البحث.

ما معنى أن نسافر، ولأيّ شيء يصلح السفر؟ الغروب هو الغروب في كل مكان؛ ليس امتيازاً أن نذهب لرؤيته في القسطنطينية.

ألأجل الإحساس التحريري الذي تولده الأسفار؟ باستطاعتي أن أحسّ به بانتقالي من لشبونة إلى بنفيكة، وأن أحسّ به بحدةٍ أكبر ممّا يحس به المنتقل من لشبونة إلى الصين، ذلك لأن الانعتاق إذا لم يكن موجُوداً فيَّ، فهو ليس موجوداً، بالنسبة إليّ، في أي مكان. كل طريق «قال كاريل»، «حتى طريق Entepfuhl هذه، يمكن أن تقودك حتى نهاية العالم»، لكن طريق Entepfuhl، لو توْبعت كلها، حتى النهاية، لا بد أن تعود بك إلى Entepfuhl، التي كنا فيها مِنْ قَبْلُ هي نفسها نهاية العالم الذي سنمضي إلى البحث عنه.

يفتح كوندياك كتابه الشهير «مهما صعدنا من مرتفعات ومهما نزلنا من منخفضات، لن نغادر أبداً مجال أحاسيسنا». لن نغادر ذواتنا أبداً. لن نبلغ الآخر البتة إلّا بأن نغدو آخرين بواسطة الخيال الحساس لذواتنا نحن. المشاهد الحقيقية والواقعية هي تلك التي نخلقها نحن، إذ هكذا، لكوننا آلهة ما خلقناه، نراها كما هي بالفعل، كما خلقت حقاً. لا تهمني أي رحلة من رحلات العالم السبع؛ الرحلة الثامنة هي رحلتي التي أقطعها الآن.

مَنِ اجتازَ البحار كلَّها إنما اجتاز فحسب رتابته الذاتية. لقد عبرت بحوراً أكثر ممّا عبر الناس كافة. ورأيت من الجبال أكثر ممّا يوجد في الأرض من جبال. ومررتُ بمدنٍ أكثر من كلّ المدن الموجودة. والأنهار الكبرى للعوالم الوهمية سالت كلها، مُطْلَقَةً،

تحت بصري المتأمل. لو سافرت، لما التقيت سوى بالنسخة الواهية لما سبق لي رؤيته بدون حاجةٍ إلى سفر.

البلدان التي يزورها الآخرون، يزورونها مجهولين ومغتربين، أما البلدان التي زرتها، فَقَدْ كنت فيها، فضلاً عن المتعة الخفية للمسافر المجهول، صاحب الجلالة الذي يحكم هنالك، والشعب وتقاليده، والتاريخ الكامل لذلك البلد وللبلدان المتبقية. المشاهد نفسها المساكن نفسها، شاهدتها لأنني كُنْتُها، صانعاً إياها إلهياً من مادة تخيّلي.

أنا الكون

التنازل هو التحرُّر. ألّا ترغب معناه أنك قادر.

ماذا باستطاعة الصين أن تمنحُنيه زيادة على ما أغدقته عليّ الروح من عطايا؟ وكيف بإمكان الصين منحي شيئاً، طالما أنني بروحي وحدها يمكن أن أرى الصين، إن كنت سأراها؟ بإمكاني الذهاب للبحث عن الثروة في الشرق، لكن ليس عن ثروة الروح، لأن ثروة روحي هي أنا، وأنا موجود حيث أوجد، بالشرق أو بدونه.

العاجزون عن الإحساس هم الذين يسافرون حسب تصوري. لذلك تجدهم دائماً شديدي الفقر مثل كتب التجارب والرحلات، التي تستمد قيمتها فقط من القدرة التخيلية لكاتبها. فإذا كان كاتبها واسع المخيلة، بإمكانه أن يفتننا بالوصف الدقيق، والفوتوغرافي لمشاهد تَخَيَّلَهَا، أكثر ممّا بوصفه القسري للمشاهد التي رآها أو افترض أنه رآها. نحنُ جميعاً قصيرو النظر، إلّا إذا اتجهت الرؤية نحو الداخل، وحده الحلم يرى بالنظر.

في العمق، ثمة شيئان، فيما يخص تجربتنا الأرضية: الكوني، والخصوصي. أنَّ نصف الكوني معناه أنَّ نصف ما هو مشترك بين الأرواح والتجارب البشرية - السماء الواسعة، مع النهار والليل المتعاقبين بداخلها؛ جريان الأنهار - كلها تجري بالمياه الدافئة والباردة نفسها؛ البحار، الجبال الممتدة المحتفظة بجلال العلو في سر الأعماق؛ الحقول، الفصول، المنازل، الوجوه، الحركات؛ البدلة والابتسامة؛ الحب والحرب؛ الآلهة، الفانون والخالدون؛ الليل الذي لا شكل له، أصلُ العالم؛ القدر، الوحشي الذهني الذي هو الكل... عندما أصف أشياء كونية كهذه، أتكلم مع الروح بالمعجم البدائي والإلهي، باللغة الآدمية التي يفهمها الجميع. ولكن بأي لغةٍ فوضوية ومتشظية سأكتب عندما أصف Elevador de Santa Justa[1]، وكاتدرائية Reims وبزات الجنود...، والطريقة التي يتلفظ بها البرتغالي المقيم في Tras-os-Montes؟ هذه الأشياء هي ممّا يحدث في السطح؛ يمكن أن نحسّ بها بواسطة المشي وليس بالإحساس. ما هو كونيّ في Elevador de Santa Justa هو الميكانيكية التي تسهل العالم، وما هو حقيقي في كاتدرائية Reims ليس كاتدرائية Reims، وَلَكِنْ الجلال الديني للأبنية المكرَّسة لمعرفة أعماق الروح الإنسانية. ما هو خالد في بزات الجنود هو التلفيق الملون للبدلات، والمعجم الإسباني الذي يخلق نوعاً من البساطة الاجتماعية التي هي بطريقتها الخاصة ضرب من التعري. ما هو كونيّ في الملفوظات المحلية هو الجرس المنزلي لأصوات الناس

---

(1) يقع في الجهة الشرقية لـ Rua de Santa جنب Rua do Carmo يؤدي إلى الجهة العلوية من المدينة.

الذين يحيون بعفوية التنوع الحي للكائنات المجتمعة، التتالي الملون للطرائق، الاختلافات القائمة بين الشعوب، والتنوع الشاسع للبلدان.

عابرون خالدون نحن عبر ذواتنا نفسها، وليس ثمة مشهد سوى ما نحن إياه. لا نمتلك شيئاً، إذ لسنا بمتملِّكين حتى لأنفسنا. لا شيء لدينا لأننا لسنا بشيء. أي يدين سأمُدُّهُما صوب الكون؟ الكون ليس ملكي: الكون هو أنا. أنا الكون.

(1930؟)

إعجاب

أحب أن أكون مقيماً في الحقل، كيما أستطيع الرضى بالإقامة في المدينة، يعجبني، عدا هذا، أن أوجد في المدينة بالرغم من أنَّ إعجابي في هذه الحالة سيغدو إعجابين اثنين.

المشاهد كلها ليس لها وجود في أي مكان.

الحسد الإلهي

دائماً كلما كان لديّ إحساس سارّ بصحبة آخرين، أحسد الجانب الذي امتلكوه في ذلك الإحساس، يبدو لي إحساسهم بإحساسي نفسه ضرباً من الوقاحة، واقتحاماً لحرمة روحي بواسطة الروح،..

الصعوبة الكبرى المصاحِبَة للإحساس بالزهو الذي يُقدِّمُه لي تأمل المشاهد الطبيعية تتمثَّل في معرفتي المؤلمة بأن أحداً ما بالتأكيد قد سبقني إلى تأملها بنظرة مماثلة لنظرتي.

لكن، ما يهدِّئني ويلطفني، في ساعات مختلفة في أيامٍ أخرى،

هو أنني أسمى من أن أستحقّ شيئاً، أعرف أنَّ الاختلاف قليل الأهمية، وأنَّ آخرين، بالروح نفسها عند النظر، امتلكوا أمام المشهد الطبيعي، طريقة للرؤية، مماثلة لطريقتي.

لذلك أبذل قصارى جهودي في تغيير ما أراه، دوماً، بطريقةٍ تجعلني أمتلك اللحظة الجميلة للرؤية، وخَطَّ مشهد الجبال؛ وفي استبدال بعض الأشجار والأزهار بأشجار وأزهار أخرى، هي نفسها على اختلافها البيِّن؛ وفي رؤية ألوانٍ أخرى ذات أثر مماثل في الغروب - وهكذا أخلق، ممّا هو خارجي، نمطاً خارجياً للرؤية، بتهذيبي وبحركة النظر التي أرى بها الأشياء عفوياً.

هذه، مع ذلك، هي الدرجة الدنيا لاستبدال المرئي. في لحظات حلمي الطيبة والمنبوذة أبتكر المزيد من المشاهد.

أجعل المشهد يمتلك بالنسبة إليّ مفعول الموسيقى، ويستدعي صوراً شتى، عبر ظفر انخطافيّ عسير، عسير لأن المستثير المحفز هو من نفس نسق الأحاسيس التي كان ينبغي أن تستدعيه. ظفري الأقصى تحقق، في ساعة ضوءٍ ملتبسة، عند النظر إلى Muelle de Sodré[1]، لقد رأيت هنالك بوضوح معبداً صينياً بجلاجل غريبة في أطراف السقوف بقبعات غريبة - معبد صيني في الفضاء، في الفضاء الأطلسي، لا أدري كيف، في الفضاء الذي يجعل البُعد الثالث الفظيع يستمر إلى ما لا نهاية. واللحظة تؤلمني حقاً و[. . .] وبعيداً وبذلك الحسد الهائل للواقع. . .

---

(1) رصيف فوق نهر التاج، شرق لشبونة وقريب جداً من Praça do Comércio.

في وقتٍ واحد

ما من مرةٍ سافرت فيها، إلا وكان سفري مديداً شاسعاً، من مجرد سفر بالقطار إلى Cascais[1] أحمل معي تعباً هائلاً، كما لو أنني مررت في ذلك الزمن القصير، بمشاهد أرياف ومدن لأربع أو خمس دول.

من كل منزلٍ أمرّ به، كل شاليه، كل بيت معزول مُجيّر بالأبيض والسكينة، أتصورني أعيش، سعيداً في البداية، ثم ضجراً، ثم متعباً مهدوداً؛ وبعدئذٍ أحس أنني بمغادرتي هذه الأماكن، أحمل بداخلي نوستالجية هائلة للزمن الذي عشته هناك على نحوٍ تغدو معه كل أسفاري حصاداً مؤلماً وسعيداً لمسرات كبرى، وملالات هائلة، ولما لا يحصى من نوستالجيات زائفة.

ولدى مروري، علاوةً على ذلك، أمام منازل، وفيلات، وشاليات معينة، أحيا بداخلي كلّ الحيوات المنزلية في وقتٍ واحد. إنني الأب، الأم، الأبناء، أبناء العم، الخادمة وابن عم الخادمة مجتمعين في الوقت نفسه، بواسطة فني الخاص في الإحساس وفي وقتٍ واحد بأحاسيس مختلفة، وفي معايشتي في الوقت نفسه حيواتِ مخلوقات متنوعةٍ مشاهداً إياها من الخارج وحاسّاً بها في الوقت نفسه من الداخل.

ثلاثة أبعاد

مشاهد لامجدية مثل تلك المحيطة بالفناجين الصينية، تنطلق من العروة وتنتهي فيها فجأة، الفناجين صغيرة دائماً. . . إلى أين تمدّدها

---

(1) منطقة غرب لشبونة.

وبأي (. . .) من صيني، المشهد الذي لم يتمدّد إلى ما هو أبعد من عروة الفنجان؟

بإمكان أرواح معينة أن تحسّ بألم عميق لأنّ المشهد المرسوم في/ مروحة/ صينية لا يحوي ثلاثة أبعاد.

في الحاضر وحده

- حوادث غرق؟ كلا، لم أتعرض لأيّ حادث غرق، لكن لديّ انطباع بأنني في كلّ أسفاري كنت الغريق دوماً، ونجاتي مواراة في [. . .].

- أحلامٌ مبهمة، أضواء ملتبسة، مشاهد حائرة - هنالك ما يتبقى لديّ في الروح من كثرة أسفاري.

لدي انطباع بأنني عرفت لحظات من كلّ الأشكال والألوان، تجارب حب بجميع الطعوم، أنواع قلق من كل الحجوم، لقد جاوزتُ كل الحدود، ولم أشعر أبداً بالاكتفاء، ولم أحلم قط بأنني اكتفيت.

أنا بحاجةٍ إلى ما يدلّ على أنني قد سافرت بالفعل، غير أنّ كل شيء إذ يثبت أنني سافرت فعلاً ينفي أنني عشت. لقد حَمَلْتُ من ناحية إلى أخرى، من شمال إلى جنوب، من غرب إلى شرق، عَنَاءَ امتلاكي لماضٍ ما، لاطمأنينة كوني أعيش الحاضر وحده قاتلاً بداخلي الماضي والمستقبل.

- مررت بضفاف أنهار أجهل أسماءها. على طاولات مقاهي المدن التي زرتها، اكتشفت أنَّ الأشياء كلها تتعرفني، حالماً، غامضاً. لقد وصلت إلى امتلاك الشك في أنني لن أستطيع، لو لم أواصل جلوسي عند طاولة منزلنا العتيق، مسحوراً بأحلامي، لن

أستطيع الجزم بعدم حدوث هذا الذي يحدث، وبأنني لست الآن جالساً هنالك، وبأنّ هذا كله، مع إدراج محادثتي هذه مع حضرتك، ليس مجرد حدثٍ مصطنع ومفترض. ما أنت؟ في حالتك اللامعقولة أيضاً يتعذر الجواب. . .

أسفار، قراءات...

فكرة السفر تغويني بالنيابة، كما لو كانت فكرة مخصَّصة لإغواء شخص آخر غيري. كل الشُّسوع المرئية للعالم تطوف بي التخيل الصاحي، في حركة قنط ملون، أفترّ عن رغبةٍ ما كَمَنْ لا يرغب بعد في الإتيان بأيّ حركة، والضجر المسبق للمشاهد المحتملة، يغمّني، مثل ريح خرقاء، في وردة القلب الذي تأسّن من زمان.

ومثلما الأسفار القراءات، ومثلما القراءات كلّ الأحلام. أحلم بحياة محيطة بكل شيء، وسط العائلية الخرساء للقدامى والمحدثين، مُجَدِّداً أحاسيسي بواسطة أحاسيس الغير، شاحناً ذهني بأفكارٍ متناقضة تناقض المتأملين والمفكرين أو بالأحرى مَن قاربوا التفكير ممّن يشكلون الأغلبية الكاتبة، لكن وحدها فكرة القراءة تستولي عليّ لو تناولت من فوق الطاولة كتاباً من الكتب، الفعل الفيزيقي لعملية القراءة يبطل لدي القراءة. . . وعلى النحو نفسه تتلاشى لديّ فكرة السفر لو دنوت عرضاً من حيث يمكن أن يوجد إقلاع ما. وهكذا أعود من الفعلين الباطلين (السفر والقراءة) اللذين بهما وحدهما أنا ممتلئ يقيناً، أنا الممتلئ خواء بدوري - أعود إلى حياتي اليومية كعابر سبيل مجهول، وإلى أحلامي كحالات أرق يقظة.

ومثلما القراءات كل شيء. . . وإذ أحلم بإمكانية ما قد يقطع حقاً مجرى أيامي، أرفع عيني محتجّاً احتجاجاً ثقيلاً على الجنية،

على تلك المسكينة، مسكينتي التي لو قيِّض لها أن تتعلم الغناء لكانت من الحوريات.

قابليات طَبْعية

الكبرياء هي اليقين الانفعالي للعظمة الشخصية. الاعتزاز هو اليقين الانفعالي بأن الآخرين يرون فينا مثل هذه العظمة أو ينسبونها إلينا، الشعوران، غير مقترنين بالضرورة، وغير متعاطفين بالطبيعة. إنهما مختلفان بالرغم من أنّ اجتماعهما وارد.

الكبرياء عندما توجد لوحدها، بدون أن تمتزج بالاعتداد والاغترار، وهو أمرٌ ممكن ولو أنه نادر الحدوث، تعلن عن نفسها، من خلال الجسارة. مَن يمتلك اليقين بأن الآخرين يولونه أهمية ما، لا تخامره ريبة فيهم. من الممكن توفُّر القيمة الفيزيقية بدون أن يرافقها غرور؛ كذلك القيمة الأخلاقية ممكنة بدونه؛ لكن لا وجود لجسارة بغير اعتداد ذاتي. بالجسارة تدرك الثقة في المبادرة. قد لا تكون الجسارة مصحوبة بأيّ قيمة فيزيقية أو أخلاقية، إذ إن هذه القابليات الطبعية هي من طراز مختلف، ومن ثم فهي لا تقاس بغيرها.

اللاوعي الأعلى

الحياة، بالنسبة إلى أغلبية الناس، عبارة عن إزعاج مضى بدون أن ينتبه إليه، شيء محزن مكون من برهات سارة، الحياة أشبه ما تكون بلحظات نكات يرويها الساهرون على الموتى للتخفيف من وحشةِ سكون الليل والوفاء بواجب السهر. لقد بدا دائماً تشبيه الحياة بوادٍ من دموع شيئاً سخيفاً: إنها وادي دموع، أجل، لكن نادراً جداً

ما تذرف فيه الدموع. قال هايني: «بعد التراجيديات الكبرى، ننتهي دائماً إلى التمخط». باعتباره يهودياً، وكونياً بسبب ذلك، رأى بجلاء الطبيعة الكونية للإنسانية.

لو وعينا الحياة لَما كان بإمكاننا احتمالها. لحسن الحظ، لسنا واعين بها. نحن نحيا بلاوعي الحيوانات نفسه، على الشاكلة التافهة واللامجدية نفسها، وإذا كنا نتوقع الموت، وهو المفترض، بدون وجود ما يؤكد عدم توقع الحيوانات إياه، فنحن نتوقعه مراوغينه بواسطة أشكال نسيان كثيرة، وكثير من التسليات واللامبالاة، بحيث بالكاد يمكن القول إننا نفكر فيه.

على هذا النحو نعيش، وهو أقل بكثير من أن يجعلنا نعتقد بأننا أعلى من الحيوانات. اختلافنا عنها يتمثل في تلك الخاصية الخارجية تماماً، خاصية أننا نتكلم ونكتب، ونمتلك ذكاء مجرداً للتسلي بالملموس، وتخيل أشياء مستحيلة. هذه كلها أفعال صادرة عن جسمنا الأساسي. النطق والكتابة لا يضيفان جديداً إلى غريزتنا الأصلية بالعيش دون أن نعرف كيف. ذكاؤنا المجرد لا يفيد سوى في تشكيل أنساق، أو أفكار نصف - أنساق، تعادل لدى الحيوانات الجلوس أمام الشمس. تخييلاتنا عن المستحيل ليست بفعل الصدفة الخالصة، إذ سبق لي أن رأيت قططاً تنظر إلى القمر، ولا أدري إن لم يكن ذلك عن عشق.

العالم كله، والحياة كلها، نظامٌ واسع من أنماط شتى من اللاوعي مؤسس بواسطة أوعائنا[1] الفردية. هكذا، وكما يتمّ صنع سائل من غازين اثنين، لدى مرور تيار كهربائي عبرهما، كذلك من

---

(1) جمع وعي.

وعيين اثنين - هما الوعي بكينونتنا الملموسة، والوعي بكينونتنا المجردة - يُصنع لاوعيٌ أعلى.

سعيد، إذن، مَن لا يفكر، لأنه يحقق بالغريزة والقدر العضوي ما ينبغي علينا جميعاً أن ننجزه بتدخُّل من القدر اللاعضوي أو الاجتماعي. سعيدٌ مَنْ يشبه المتوحشين، لأنه بذلك وبدون جهد أو تصنع يغدو مَن نحاول جميعاً أن نكونه بِمَجْهودٍ متكلف وافتراضي؛ لأنه يعرف الطريق إلى البيت، الذي لا نصل إليه نحن جميعاً إلّا بواسطة الطرق المختصرة للخيال والعودة؛ ولأنَّهُ يتجذَّرُ مثل شجرة، يكوِّن جزءاً من المشهد ومن الجمال الشامل، وليس مثلنا نحن، أساطير الخطوة، ممثلون صامتون بالبدلة الحية للّانفعية والنسيان.

1933-3-23

ما سآخذه من الحياة

يشكل الإصرار الغريزي على الحياة بواسطة الذكاء بالنسبة إليّ أحد التأملات الأكثر حميمية وثباتاً. التنكر اللاواقعي للوعي يفيدني فقط في إبراز ذاتي بالنسبة إلى الوعي الذي يعرف التنكر.

يحيا الإنسان، من الميلاد إلى الموت، مثل عبد مملوك لخارجية ذاته على غرار الحيوانات. لا يعيش الحياة بكاملها، وإنما يحياها بخمول بملء إرادته وبطريقة أكثر تعقيداً. حياته تسير وفق قواعد لا يعرف أنها موجودة، ولا أن حياته تسير وفقها، وأفكاره، عواطفه، أفعاله، لاواعية كلها - ليس بسبب افتقارها إلى الوعي، ولكن لانعدام وَعْيَيْنِ فيها.

أتابع، بتفكيرٍ شارد، التاريخ العامي للحيوات العامية. وأرى كيف أنها خاضعة تماماً في كل شيء للسليقة اللاواعية، للظروف

الخارجية الغيرية، لدوافع من نمط عائلي ومن حاجةٍ ملحة إليه. . .

كم مرات سمعتهم يتلفظون بالعبارة نفسها التي ترمز إلى تمام اللامعقولية، تمام اللاشيء، تمام الجهل الناطق بحيواتهم. إنها تلك العبارة التي ينطقون بها بصدد أي متعة مادية: «هذا ما سيأخذه الواحد منا من الحياة». . إلى أين سيأخذه؟ ولأجل أي مكان سيأخذه؟ ولأجل ماذا؟ سيكون من المُحزن إيقاظهم من الظلّ الذي هم فيه غارقون بسؤال من هذه الأسئلة. . . مادي تماماً مَن يتحدث هكذا، لأن كل إنسان يتحدث هكذا هو مادي، وإن على نحو غير واعٍ. ما الذي ينوي أخذه من الحياة، وبأي طريقة؟ وإلى أين سيحمل معه أضلاع الخنزير والنبيذ الأحمر وفتاة المصادفة؟ إلى أي سماء لا يؤمن بها؟ إلى أي أرض سيأخذ عدا التفسّخ الذي حياته كلها غائصة فيه خفية؟ لا أعرف عبارةً أكثر مأسوية ولا أكثر تعرية لإنسانية الإنسان من هذه. هكذا ستعبِّر الحيوانات الأدنى من الإنسان عن ملذاتها المسرنمة بتعبيراتها الخاصة بها. ومَن يدري، إن كنت أنا المتحدث لدى كتابتي هذه الكلمات بانطباع مبهم بإمكانية دوامها، لا أعتقد أيضاً بأن ذكرى كوني قد كتبتها هي «ما سآخذه من هذه الحياة» ومثل الجثة اللامجدية للرجل العامي إذ توارى تحت الأرض الغفل، كذلك تنزل إلى النسيان العام والمشترك الجثة اللامجدية أيضاً لنثري المصنوع من إصغاء وتنبُّه. أضلاع الخنزير، الخمر، فتاة الآخر، لماذا أسخر أنا منهن؟

تجمعنا الأخوة في الجهل المشترك، الأشكال المختلفة للدم الواحد، الأنماط المتعددة للإرث نفسه - مَن منا باستطاعته التنصل من الآخر؟ يمكن التنصل من المرأة، لكن لا يمكن التنصل من الأم، ولا من الأب، ولا من الأخ.

ما فوق الممكن

أغلب الناس يحيا بعفوية حياة صورية وغيرية. «أغلب الناس هم أناس آخرون» قال أوسكار وايلد مصيباً فيما قال. بعضهم يستهلك الحياة بحثاً عمّا لا يرغب فيه؛ بعضهم يستخدم الحياة في البحث عمّا يرغب فيه وما لا يفيده في شيء؛ آخرون ما زالوا ضائعين (. . .).

لكن الأغلبية سعيدة وتستمتع بالحياة. . . الإنسان، على العموم، يعيش قليلاً، ودَيْدَنُهُ التَّشكّي. التشاؤم ينعم بقابلية محدودة للحياة كصيغة/ ديمقراطية. المعتزلون هم الذين يندبون شرّ العالم - لا يندبون سوى شرهم الخاص. ليوباردي، أو أنتيرو[1] أليس لديهما معشوق أو عاشق؟ الكون شرّ كله. فينيه (Vigny)[2] هل هو شرير أم يعاني من نقص في الحب؟ العالم عبارة عن سجن. هل يحلم شاتوبريان بما فوق الممكن؟ الحياة الإنسانية قنط كلها. هل يوجد جوب مغطى كله بالفقاعات؟ الأرض مغطاة بالفقاعات. أو تدعس المساميرُ الحزين؟ آه من أقدام الشموس والنجوم.

بعيداً عن هذا كله، باكياً المُحَدَّدَ وحده، وفي أقل زمن ممكن، يموت له الابن الذي سينساه مع جريان السنين، ما عدا في أعياد الميلاد. . .

الحيوية تستعاد وتنتعش. الموتى ظلوا مدفونين. [. . .]

---

(1) يقصد الشاعر البرتغالي (Antero de Quental) (1842-1891).

(2) يقصد الشاعر الفرنسي.

غايات

كل مجهود، كيفما كانت الغاية التي يتجه إليها، يعاني، لدى انجلائه، من التحريفات والإكراهات التي تفرضها عليه الحياة؛ فيتحول إلى مجهود آخر، يخدم أهدافاً أخرى، وينجز أحياناً بالضبط عكس ما كان يسعى إلى إنجازه من ورائه. وحده الهدف الدَّنِيُّ يستحق العناء، إذ وحده الهدف الدني يمكن تحقيقة بالكامل. لو أردت أن أستخدم جهودي في جمع ثروة، بإمكاني جمعها بطريقةٍ من الطرق؛ فالهدف هنا زهيد، مثل كل الأهداف الكمية، شخصية كانت أم غير شخصية، بالإمكان بلوغه والتحقق منه، لكن كيف عليّ أن أنفِّذ مسعاي في خدمة الوطن، أو في ترقية الثقافة الإنسانية، أو تحسين النوع الإنساني؟ ليس في مستطاعتي امتلاك يقين المسلك، ولا يقينيات الغايات؛ (. . .).

ما يغم الروح

قراءة الجرائد اليومية، مُجهدة دائماً من زاوية النظر الإستيتيقية، وكذلك من الناحية الأخلاقية، حتى بالنسبة إلى مَن لا يملك غير القليل من الانشغالات الأخلاقية.

الحروب والثورات - دائماً تقع واحدة منها هنا أو هناك - تأتي، لدى قراءة أثرها، لتُحدث ليس الرعب، بل الضجر. ما يغم الروح بشدّة ليس هو فظاعة كل أولئك الموتى أو الجرحى، وتضحية الجميع الذين ماتوا محاربين، أو غير محاربين؛ إنها البلادة التي تضحي بحيوات وممتلكات فيما لا جدوى منه. كل المثاليات وكل المطامح والمطامعُ هي هذيان قابلات رجال. لا وجود لأي إمبراطورية تستحق أن تُمَزَّقَ لأجلها دُمْيَةُ طفلة. لا يوجد مثال يستحق

أن نضحي في سبيله حتى بقطار ألعاب. أو ثمة بلاد أنفع من أخرى ومثل أسمى من سواها؟ الكل، كل شيء ينتمي إلى الإنسانية، الإنسانية دائماً هي نفسها - متغيرة لكن حافلة بالنقائص، متحركة، لكن من غير تصاعد ولا تقدم. أمام المرور اللامحتمل للأشياء، أمام الحياة التي امتلكناها بدون أن نعرف كيف وسنفقدها بدون أن نعرف متى، أمام العشرة آلاف لعبة شطرنج التي هي الحياة، إزاء ضجر التأمل الذي لا طائل من ورائه لما لا يتحقق أبداً (. . .) - أمام هذا كله ماذا باستطاعة الحكيم أن يفعل سوى أن يطلب العطالة والراحة، وألّا يجبر على أن يفكر في العيش، إذ يكفي أنه مُجبرٌ على أن يعيش، مع حيِّز ضئيل تحت الشمس والهواء، ومع إمكانية الحلم، بالأقل، بأن السكينة موجودةٌ بجانب تلك الجبال.

لا بدّ من فطرة إلهية

التاريخ ينفي الأشياء الثابتة. ثمة فترات من نظام ينحطّ فيها كل شيء وفترات من فوضى يعلو فيها كل شيء. الفترات الانحطاطية تتميز بخصوبة فحولتها الذهنية؛ وفترات القوة، تتميز بضعفها وفقرها الروحي. الكلّ يتمازج ويتقاطع، وما من حقيقة ثمة غير تلك التي نفترض وجودها.

كم من مُثُلٍ نبيلة غاصت في الزبالة! كم من شهوات ومطامع حقيقية ضاعت وسط الجُفاء!

بالنسبة إلي، الآلهة والبشر سواء، في الغموض المديد للمصير غير المأمون. إنهم مصطفون أمامي، في هذا الطابق الرابع المجهول، في متتالية أحلامي، وهم ليسوا بالنسبة إليّ بأكثر ممّا كانوا يمثلونه بالنسبة إلى مَن آمنوا بهم. أوثان الزنوج ذات الأعين

المرتابة والمفزوعة، الآلهة الحيوانية للمتوحشين. . .، رموز المصريين المصورة، آلهة اليونان، آلهة الرومان الصارمين، ميترا، إله الشمس والعاطفة، خيسوس ميسياس سيد الرحمة والختام، معايير شتى لنفس المسيح، قديسون آلهة جدد للمدن الجديدة، جميعهم يتعاقبون أمامي، في المسيرة الجنائزية (حج أم دفن) للخطأ أو الوهم. يمشون جميعاً، وخلفهم، تمشي الظلال الفارغة، والأحلام التي يظنّ أسوأ الحالمين، لكونها ظلالاً في تراب، أنها ستظل ثابتةً في الأرض - مفاهيم بائسة بلا روح ولا جسد من قبيل، حرية، إنسانية، سعادة، المستقبل الأفضل، العلم المجتمعي، كلها تنجر في عزلة الضبابة مثل ورقات محركة قليلاً إلى الأمام بواسطة ذيل معطف ملكي سرقه بعض المتسولين.

لا بد من فطرة إلهية تقينا من امتلاكنا نظريات.

(بعد 1923)

أشياء خارجية

كل ما يقع لنا في الحياة من مُنغّصات - ممّا نخلقه من صور مضحكة، وما نأتيه من حركات سيئة، وما نتخبط فيه من رذائل تحت قناع أي فضيلة كانت - يجب أن يُعتبر كحوادث خارجية خالصة، غير قادرة على التأثير في جوهر الروح. يجب أن نأخذها مأخذنا لآلام الأضراس، أو مسامير الأقدام، كأشياء تضايقنا، أشياء خارجية بالنسبة إلينا بالرغم من أنها جزءٌ منا، أو فلننشغل بما هو حيوي فينا دون غيره.

عندما نصل إلى هذا الموقف الذي هو موقف المتصوفين، سوف نجد أنفسنا محميين ليس من العالم وحسب، بل من أنفسنا

ذاتها، وإذن سنكون قد انتصرنا على ما هو خارجي فينا، ما هو ضدنا لأنَّه عَدوُّنا.

لذلك يقول هوراس، متحدِّثاً عن الرجل العادل، إنه يحافظ على رباطة جأشه رغم أنَّ العالم ينهار من حواليه. الصورة غير معقولة، أما معناها فصحيح. أجل ولو انهار من حولنا ما نتظاهر بأننا إياه، وأن نكون نحن معناه ألّا نملك أي علاقة بتلك الأشياء الخارجية التي تنهار من حولنا.

الحياة ينبغي أن تكون، بالنسبة إلى الممتازين، حلماً يرفض المواجهات كافة.

تأويل

التجربة المباشرة في المهرب، أو المخبأ للمفتقرين إلى الخيال.

بقراءتي للمخاطر التي واجهها صياد النمور، أجد لدي الكثير من المجازفات التي تستحق أن تُخاض باستثناء المخاطرة الفعلية التي لم تكن لتستحق العناء السابق الذي بذل لأجلها.

رجال الفعل هم عبيد لاإراديون لرجال العقل. قيمة الأشياء لا تتجاوز التأويل الذي يضاف إلى الأشياء. ثمة أشخاص، إذن، يختلقون أشياء، كيما يحوِّلها آخرون إلى تأويلات، كيما يجعلونها حية. / أن نحكي معناه أن نخلق، ما العيش إذن سوى أن تكون معيشاً.

بلا تجاعيد

ألّا نخضع لأي كان - لا لشخص، ولا لحبّ، ولا لأيّ فكرة، أن نملك ذلك الاستقلال البعيد المتمثِّل في عدم الإيمان بالحقيقة،

ولا بجدوى معرفتها، إن وجدت - على هذا النحو، يجب أن تمضي، أتصور، الحياة الذهنية الباطنية لمن لا يحيون بدونما تفكير.
في الانتماء تكمن الابتذالية. الإيمان، المثال، المرأة أو المهنة - ليست كلها سوى زنازن وسلاسل. أن تكون هو أن توجد حراً...؛ لا ينبغي أن نغترّ لو انتبهنا إلى أنهم بالحبل يسحبوننا. كلا، لا نريد رباطاً مع أحد حتى مع أنفسنا! نريدنا متحررين منا كما من غيرنا، متأملين بلا ذهول، مفكرين بلا نتائج ولا خلاصات ننتهي إليها، سنعيش متحررين من الله، من الفاصل الصغير الذي تمنحه لذهولنا في الموقف تسليات الجلادين. غداً سنمتلك المقصلة. إن لم نمتلكها غداً سوف نمتلكها بعد غد. نُمضي تحت الشمس استراحة ما قبل النهاية، جاهلين بإرادتنا الغايات والمظالم. الشمس ستُذهِّب جباهنا بلا تجاعيد وستكون للنسيم طراوته بالنسبة إلى من تخلى عن التوقع.

أضع القلم في المقلمة، عائداً عبر المنحدر الذي أعمل فيه.

أحسستُ بكلّ شيء بغتة. وفرحي يعلن عن نفسه بهذه الحركة العصبية التي ليست مني.

من أنا؟

مَن أنا بالنسبة إلى ذاتي؟ أنا مجرد إحساسي بي. قلبي يخوى بغير مشيئته مثل سطل مخرّق. الإحساس؟ التفكير؟ كم هو متعبٌ كل شيء، طالما الكل معرّف ومتعين!

(بعد 1923)

العيش هو عدم التفكير

نحن لا نحب أحداً أبداً. ما نحبه فقط هو فكرتنا عمّن نتوهم أننا نحب. ما نحبه هو مفهومنا عن ذواتنا - أي ذواتنا في تحصيل الحاصل.

هذا صحيح تماماً في كل درجات الحب. في الحب الجسدي نبحث عن لذّاتنا نحن ممنوحة بواسطة جسدٍ غريب. في الحب غير الجسدي، نبحث كذلك عن لذتنا ممنوحةً بواسطة فكرة من أفكارنا نحن. الاستمنائي خسيس، لكنه، في الحقيقة، هو التجسيد الصحيح والمنطقي للعاشق. إنه الوحيد الذي يُرائي ولا ينخدع.

العلاقات القائمة بين روح وأخرى، عبر أشياء متباعدة وغير أكيدة مثل الكلمات الجارية والحركة المتداولة، هي من مادة ذات تعقيد غريب. نحن غرباء عن ذوات بعضنا بعضٍ حتى في الفن الذي نتعارف فيه. يقول الاثنان الواحد للآخر: «أحبك» ويفكران أو يشعران عبر نمطٍ من التبادل، وكل واحد منهما يريد التعبير عن فكرة مختلفة، عن حياة مختلفة وحتى بالمصادفة، عن لون أو عطر مختلف، داخل المجموع المجرد من الانطباعات التي يتكوّن منها نشاط الروح.

أنا اليوم صاحٍ تماماً كما لو لم أوجد قط. تفكيري، مثل هيكل عظمي مجرَّد من القَطع اللحمية لوهم التعبير. وهذه الاهتمامات التي أشكِّلها ثم أتخلى عنها لم تولد من لا شيء - من لا شيء/ على الأقل/ . وجدت في صالة وعيي هذا. ربما خيبة أمل المستخدم في فتاته، ربما في أي عبارة مقروءة في الحوادث العاطفية التي تنقلها الجرائد عن الأجانب، ربما حتى في غثيان ملتبس أحمله معي بدون أن أستطيع تفسيره فيزيقياً. . .

لقد أخطأ معلق فيرجيل، نحن فوق كل شيء مُتعبون وهذا ممّا يمكن فهمه. العيش هو عدم التفكير.

1930-7-25

هو ذا معتقدي

لا أؤمن، بصوت عالٍ، بسعادة الحيوانات، إلا عندما أرغب في الكلام عنها كإطار لإحساس افتراضي. لكي تكون سعيداً من اللازم معرفة ما معنى أن تكون سعيداً. لا وجود للسعادة في نوم بلا أحلام، إلّا في حال استيقاظنا عارفين بأننا نمنا بدون أحلام. السعادة توجد دائماً خارج السعادة.

ما من سعادة إلّا مع المعرفة، لكن معرفة السعادة تعسة في جوهرها؛ لأن معرفتك أنك سعيد هي أن تعرف أنك تمر بالسعادة، وأن عليك، فوراً، أن تخلِّفها وراءك. أن تعرف معناه أن تقتل، في السعادة وفي كل شيء، لكن ألّا تعرف معناه، أنك غير موجود.

وحده المطلق الهيجيلي نجح، على الورق، في أن يكون شيئين اثنين فيَ وقتٍ واحد.

اللا-كينونة والكينونة لا ينصهران ولا يختلطان في حسيات وعلل الحياة: إنهما يُستبعدان، بواسطة تركيب معكوس.

ما العمل؟ هل أعزل اللحظة كما أعزل الأشياء عن سياقاتها فأكون سعيداً الآن، في اللحظة التي أحس فيها بالسعادة، بدون أن أفكر فيما أحس، مقصياً ما تبقى، مستبعداً كل شيء، حابساً تفكيري في الإحساس وحده (. . .)؟

الابتسامة الأمومية الصافية للأرض الملأى، السطوع المقفل للظلمات العليا، (. . .).

هو ذا معتقدي، هذا المساء، صباح الغد سيكون شيئاً آخر، لأنني سأكون آخر صبيحة الغد. أي معتقد سأكون غداً؟ لا أدري، إذ سيكون من الضروري أن أكون غداً لأعرف ذلك. ولا حتى الله الأزلي الذي أؤمن به اليوم سيعرف ذلك لا اليوم ولا غداً، لأنني اليوم أنا وغداً لن يكون هو قد وُجد أبداً.

ليس غير...

منذ اللحظة التي نستطيع فيها أن نعتبر هذا العالم كوهم وكشبح، سيكون بمستطاعنا اعتبار كل ما يقع لنا بمثابة حلم، كشيء تظاهر بأنه موجود لأننا نائمون. وحينئذٍ ستولد فينا لامبالاة ثاقبة وعميقة تجاه كل نكايات ونكبات الحياة. الذين ماتوا تحوّلوا إلى زاوية من الزوايا، لذلك لم نعُد نراهم؛ الذين يعانون أمامنا يمرون؛ لو أحسسنا، فبما يشبه الكابوس نحسّ، لو فكرنا، فعلى غرار هذيان كَنُوْدٍ يأتي تفكيرنا. ومعاناتنا ذاتها لن تكون بأكثر من ذلك اللاشيء الذي هو كل ما في العالم من أشياء. في هذا العالم ننام على الجنب الأيسر وننصت في منامنا إلى الوجود المضطهد للقلب.

ليس غير قليل من الشمس، قليل من النسيم، بضع أشجار تحيط بالمسافة، الرغبة في أن أكون سعيداً، الاستياء من مضي الأيام، العلم دائماً مشكوك فيه والحقيقة يتوجّب اكتشافها... ليس غير، ليس غير... أجل، ليس غير...

لا شيء... كلّ شيء

كلما ازداد تقدّمنا في الحياة، أزدادُ اقتناعاً بحقيقتين متعارضتين. الأولى أنَّ خيالات الأدب والفن تبدو شاحبة أمام

واقعية الحياة. صحيح أنها تمنح متعة أكثر نبالة من متع الحياة كافة؛ لكن هذه الخيالات مثلها مثل الأحلام التي نجرب فيها أحاسيس لا نجدها في الحياة الواقعية، وتقترن فيها أشكال لا وجود لها في الحياة؛ إنها، بالرغم من كل شيء أحلام نصحو منها، لا تشكِّل ذاكرات ولا نوستالجيات نعيش بها بعدئذٍ حياة ثانية.

ولأن مطمح كل روح نبيلة أن تطوف الحياة بكاملها، وأن تجرب الأشياء كلها وكل الأمكنة وكل الأحاسيس المعيشة، ولأن هذا المطمح مستحيل التحقق فإنّ الحقيقة الثانية هي أنَّ الحياة لا يمكن أن تُعاش بالكامل إلّا بصفة ذاتية، وحده رفضنا الحياة يجعلنا نحياها في جوهرها الشامل.

هاتان الحقيقتان غير قابلتين للاختزال. الحكيم يمتنع عن الرغبة في المزاوجة بينهما، ويمتنع كذلك عن التنصُّل من هذه أو تلك. سيكون عليه، مع ذلك، أن يتبع إحداهما، متلهفاً إلى تلك التي لم يتبعها؛ وبإمكانه نبذهما معاً، معلياً فوق قمة ذاته نفسها نيرفاناه الشخصية.

سعيدٌ مَن لا يطلب من الحياة أكثر ممّا تهبه هي تلقائياً، مهتدياً بغريزة القطط التي تطلب الشمس عندما تكون ثمة شمس وعن الدفء حيثما وجد في غياب الشمس. سعيدٌ من يتنازل عن شخصيته بواسطة التخيل، ويستهويه تأمل الحيوات الغيرية، عائشاً، ليس الانطباعات كلها المصاحبة لتأملاته، ولكن المشهد الخارجي لجميع الانطباعات. سعيد، في النهاية، ذلك الذي تنازل عن كل شيء، لا شيء يمكن أن ينتزع أو ينتقص منه.

البدوي، قارئ الروايات، الناسك الخالص النُّسك - هؤلاء الثلاثة هم السعداء في الحياة، لأنهم هم المتنازلون عن شخصيتهم:

الأول، لأنه يحيا على الفطرة، اللاشخصية في جوهرها؛ الثاني، لأنه يحيا من التخيل الذي هو نسيان كله؛ والثالث لأنه كفَّ عن الحياة، وما دام لم يمت فهو نائم.

لا شيء يرضيني، لا شيء يعزيني. الكل - وجد أم لم يوجد - يشبعني. لا أريد امتلاك الروح ولا أريد التخلي عنها. أرغب فيما لا أرغب فيه وأتنازل عمّا لا أملكه. لا أريد أن أكون لا شيء دون كل شيء: أنا الجسر القائم بين ما ليس لي وما لا أريد.

الحزن المهيب

الحزن المهيب الذي يسكن كل الأشياء الكبرى - في القمم كما في الحيوات الكبيرة، في الليالي العميقة كما في القصائد الخالدة.

(بعد 1923)

صور

أرى المشاهد المحلومة بالجلاء نفسه الذي أشاهد به المشاهد الواقعية. لو اتكأت على أحلامي، فعلى شيء ملموس أتكئ. وإذ أرى الحياة تمضي، أحلم، أحلم بأي شيء آخر.

قال أحدهم عن أحد آخر إنّ لصور الأحلام بالنسبة إليه مظهر صور الحياة نفسه. شخصياً لا أوافق على هذا الرأي، بالرغم من أن جملة مشابهة له تنطبق علي. صور الأحلام ليست بالنسبة إليّ معادلة لصور الحياة. إنها موازية لها. لكن حياة - حياة الأحلام والحياة الواقعية - واقع مماثل وخاص، لكنه مختلف. مثل الأشياء القريبة والأشياء البعيدة، صور الأحلام توجد قريبةً مني، لكن (. . .).

(1930؟)

تشتت

جميع حركات الحساسية، مهما كانت لطيفة، هي دائماً انقطاعاتٌ لوضعٍ ما، لا أعرف كنهه، لعله الحياة الباطنية لتلك الحساسية ذاتها. لا تلهينا الانشغالات الكبيرة وحدها، ولكن حتى انفعالات الغضب الصغرى تعكر سكينة نتطلّع جميعاً إليها بدون أن نعي ذلك.

نعيش دائماً خارج ذواتنا. والحياة نفسها عبارةٌ عن تشتّت دائم. لكننا صوب أنفسنا نتَّجه كما لو صوب مركز حوله، نصنع، مثل المواكب السيارة، إهليجات نائية ولا معقولة.

الماء والإسفنجة

أن نسلم بأن الواقع شكلٌ من أشكال الوهم، وأن الوهم شكل من أشكال الواقع أمرٌ ضروري ولا جدوى منه بدرجةٍ متساوية. ينبغي للحياة التأملية، إنْ وُجِدَتْ، أن تعتبر الحوادث الموضوعية كمقدمات قياسية لنتيجة لا يمكن التوصل إليها؛ لكن عليها في الآن نفسه أن تعتبر احتمالات الحلم جديرة بذلك التنبه الذي نوليها إياه والذي به نغدو متأملين.

الأشياء كلها، حسب اعتبارنا لها، إما مدهشة أو مزعجة، إمّا هي كل شيء أو لا شيء،... نظرتنا إليها كل مرة بطريقة مختلفة تجعلها تتجدَّد على الدوام، وتتكاثر ذاتياً. لذلك كان الكون بتمامه طوع الروح التأملية الحريصة على عدم مبارحة قريتها الصغيرة. فاللانهائي موجود في زنزانة كما هو موجود في القفار.

ثمة مع ذلك، حالات من التأمل - وكل المتأملين يبلغونها - يستنفد فيها كل شيء، والكل يغدو شائخاً، الكل تمّت رؤيته، ولو

لمْ يُرَ بعدُ، لأننا إذ نتأمل الأشياء نحوِّلها ونشكِّلها، ودائماً وفق جوهر تأملنا الخاص.

وحينئذٍ نُصاب بالغثيان من الحياة، من المعرفة بدون معرفة، من التأمل بواسطة الحواس وحدها أو التفكير بطريقة ملموسة محسوسة، من داخل الموضوع المفكَّر فيه، كما لو كنا نحن الماء وهو الإسفنجة. وحينئذٍ نمتلك أيضاً ليلنا الطويل، وتعب الاحتفالات كلها يتعمّق لكونه أضحى غباء فكر، هو شديد العمق بذاته. لكنه ليل بلا راحة، بلا قمر، بلا نجوم، ليل هائل كما لو أن الأشياء كلها انقلبت إلى الضِّدِّ: اللانهائي غدا داخلياً ومضغوطاً، النهار أضحى مصنوعاً من بطانةٍ سوداء لبدلة مجهولة.

خيرٌ لنا أن نكون بزّاقة إنسانية تحب وتجهل الحب، أن نكون العلقة، المقرفة بدون أن تعلم أنها كذلك! أن نكون جاهلين الحياة حاسين كالنسيان! أي فصول ضائعة في الآثار المخضرة البيضاء للسفن الذاهبة، مثل لعابٍ بارد لمنجاف عالٍ تحت عيون القمرات العتيقة.

1930-5-14

عندما يأتي الطوفان

لدى وصولنا إلى القمة المقفرة للجبال الطبيعية، يتملكنا الإحساس بالامتياز. نحن أعلى بكل قامتنا، من علوّ كل الجبال. إنَّ أعلى ما في الطبيعة، بالأقل في ذلك المكان، يبقى تحت أخمص أقدامنا. إننا بفضل الوضع الذي نحن فيه، ملوك العالم المرئي. كل ما حولنا يبدو أكثر انخفاضاً: الحياة عبارة عن منحدر يتمّ منه النزول، هضبة ترقد إزاء الشموخ والقمة التي هي نحن.

كل ما فينا عرضيّ وخادع، هذا العلو الذي نملكه، ليس ملكاً

لنا، نحن في العلو لسنا بأعلى من قامتنا. ذلك الموضع الذي نطؤه يرفعنا؛ وإذا كنا أعلى قامة فلأننا كذلك وحسب.

عندما تكون غنياً تتنفس بطريقة أفضل؛ وإذا كنت مشهوراً فأنت تتوفر على حرية أكبر؛ محض امتلاك لقب نبالة هو بحدّ ذاته جبلٌ صغير. الكل مصطنع، لكن حتى المصطنع ليس ملكاً لنا. سيان صعودنا إلى الجبل، أو أخذهم إيانا إليه أو ولادتنا في بيت الجبل.

كبير، مع ذلك، من يتأمل السماء من الوادي أو من الجبل؛ المسافة التي هي فارق بحدّ ذاتها لا تخلق فارقاً. عندما يأتي الطوفان سنكون أفضل حالاً في الجبال، لكن إذا كانت لعنة الله عبارة عن صواعق مثل صواعق جوبيتر، أو عن رياح، مثل التي أنزلها أبولو، فإن الملاذ سيكون هو لا ضرورة صعودنا إلى هناك، والحماية ستتمثّل في انجرارنا حتى السفح.

حكيمٌ حقاً ذلك الذي يملك إمكانات الارتفاع في العضلات ورفض الصعود في المعرفة. إنه يمتلك، بالنظر، كل الجبال؛ ويملك، بالموقع، كل الوديان. الشمس التي تذهِّب القمم، تذهِّبها لأجله أكثر ممّا تذهبها لأجل من يتألم هناك؛ والقصر المنيف وسط الغابات سيبدو أجمل بالنسبة إلى من يتأمله من الوادي مقارنة بمن يقبع محبوساً في صالاته.

بهذه التأملات أتسلى، لأنني لا أستطيع التسلي بالحياة. والرمز يذوب في الواقع عندما أرى، عابراً بالجسد والروح هذه الشوارع الخفيضة المؤدية إلى التاج، أرى المرتفعات الواضحة للمدينة تتألق، مثل بهاء يخصّ الغير/ بأضواء شتى لشمسٍ لم تعُد موجودة في الغرب.

1930-4-14

كل حياة الروح الإنسانية عبارة عن حركة في شبه عتمة. نحن نعيش في ليل الوعي، غير متيقنين ممّا نحن إياه وممّا نفترض أننا إياه. داخل نفوس خير الناس منا يعشش خواء شيء ما، خطأ ما لا تعرف زاويته. نحن عبارة عن شيء يحدث في فترة استراحة عرض ما؛ أحياناً نلمح، من أبواب معينة، ربما خشبة مسرح، العالم كله يكتنفه الغموض مثل أصوات في الليل.

هذه الصفحات التي أدوِّنها بوضوح، عَاوَدْتُ الساعةَ قراءتها متسائلاً: ما هذا الذي كتبت، ولأجل ماذا؟ مَن أكون أنا عندما أحس؟ أي شيء أموته عندما أكون؟

وكمن يحاول تمييز الحيوات في الوادي، من علوّ شاهق، كذلك أنا مستغرق في التأمل فوق إحدى القمم، وأنا، برغم كل شيء، مشهد غامض ملتبس.

في هذه الساعات، التي من جحيم في الروح، أصغر تفصيل أياً كان يضيق عليّ الخناق مثل رسالة وداع.

أشعر بصفة مستديمة أنني على وشك الاستيقاظ، مِنِّي أعاني، مختنقاً بما أتوصل إليه من خلاصات. لو كان في وسع صوتي الوصول إلى جهة ما لصرخت عالياً، لكن ثمة حلم هائل بداخلي، ينتقل من أحاسيس إلى أخرى مثل توالي غيوم من تلك التي تترك عشب الحقول الممتدة أقل سواداً بألوانها المختلفة من شمس وخضرة.

إنني مثل مَن يبحث عن الحظ، غير عارف بالمكان الذي أُخْفِي فيه الشيء الذي لم يقل له أحد ما هو. نلعب الغميضة مع لا أحد. ثمة في مكانٍ ما ملجأ متعالٍ، ألوهية مائعة تدرك بالسمع وحده.

أعاود قراءة هذه الصفحات المجسدة لساعات بائسة، ولطمأنينات أو أوهام صغيرة، لأمانٍ كبيرة موجَّهة صوب المشهد الطبيعي، لأحزان تشبه غُرفاً لا يدخلها أحد، لأصواتٍ ما، لعياءٍ ضخم، وللإنجيل الذي يجب أن يُكتب.

لكلٍّ منا خواؤه، وخواء كل واحد منا هو نسيانه وجود آخرين لهم روحٌ مماثلة لروحه. خوائي عبارة عن بضع صفحات، بضع مقاطع، شكوك معينة. . .

أأعاود القراءة؟ لقد كذبت! لا أجرؤ على معاودة القراءة. لا أستطيع معاودة القراءة. فيمَ ستفيدني معاودة القراءة؟ الذي يوجد هناك هو شخصٌ آخر. لم أعد أفهم شيئاً. . .

1930-4-10

لا

لا ينبغي أن نلمس الحياة ولو برؤوس الأصابع.

لا ينبغي أن نحب ولو بالتفكير.

لا مكان لقبلة امرأة في أحاسيسنا، ولا حتى في الأحلام.

بين محطتين

واليوم، إذ أفكر في الكيفية التي مرت بها حياتي، أحسّني مثل أي حيوان حيّ، منقول في سلة من تلك السلال التي تلوي الذراع، بين محطتين من محطات الضواحي. الصورة سخيفة، لكن حياتي التي وصفتها أسخف منها بكثير. عادةً ما يكون لتلك السلال سدادتان توضعان على الجانبين المقوسين للسلة إذا ما تحرك الحيوان. بيْد أنّ ذراع ناقل الحيوان لا تسمح لشيءٍ ضعيف جداً أن

يرفع بخساسة سوى الأطراف اللامجدية الشبيهة بجناحي فراشة تفقد قواها شيئاً فشيئاً.

لقد نسيت حديثي عني مستخدماً صورة السلة. إنني أرى المشهد بجلاء، وأرى الذراع الغليظة والبيضاء المحروقة للخادمة التي تحمل السلة. لم أتمكن سوى من رؤية ذراع الخادمة وزغبها، لا أحس جيداً - بغتة - إلّا بانتعاش كبير من (. . .) من تلك الأسياخ والشرائط التي تنسج منها السلال وحيث أتحرك أنا هناك، حيواناً منقولاً بين محطتين. أستريح بينهما في مكان يبدو أنه بنك من البنوك حيث يتحدثون هناك، خارج سلتي. وأنام لإحساسي بالسكينة، إلى أن يتم إيقاظي من جديد في المحطة.

1930-4-5

وجعٌ في الرأس وفي الكون

يؤلمني الرأس ويؤلمني الكون. الآلام الفيزيقية، الأشد إيلاماً من الآلام المعنوية، تنشر بواسطة انعكاسٍ للروح، مآسي غير محتواة فيها. تستثير جزءاً من كلّ شيء، بما في ذلك من النجوم كافة.

لا أتناول القربان، لم أتناول القرابين قط، لا أستطيع أبداً تناول القربان وفق تلك الفكرة الزنيمة التي نحن بمقتضاها من حيث كوننا أرواحاً، نتاجُ شيء طبيعي يدعى الدماغ الذي يوجد، بالولادة، داخل شيء آخر مادي يدعى الجمجمة. لا أستطيع أن أكون مادياً، لأنني غير قادرٍ على تحقيق علاقة واضحة - علاقة مرئية بالأحرى - بين كتلةٍ مرئية لمادة رمادية، أو بأي لونٍ آخر، وبين هذا الشيء الذي هو أنا الكائن خلف نظرتي إلى السماوات والمفكر فيها، والمتخيل سماوات لا وجود لها. لكن، ولو لم أقع البتة في هاوية افتراض أنَّ شيئاً ما

يمكن أن يكون شيئاً آخر فقط لأنهما معاً موجودان في المكان نفسه، كالجدار الكبير مثلاً وظلي المنعكس عليه، أو أن تعلق الروح بالدماغ هو أكثر من مجرد تعلقي أنا مثلاً بالسيارة التي أشقّ بها طريقي. مع ذلك أعتقد أنَّ بين ما هو محض روح في ذواتنا وما هو روح الجسد فينا علاقة تعايش يمكن أن تظهر فيها التعارضات، وما يظهر فيها هو أن الشخص الأكثر سوقية يزعج مَن هو أقل سوقية منه...

يوجعني رأسي اليوم، ومن المعدة، ربما، يأتيني الألم، لكن الألم، بانتقاله من المعدة إلى الرأس، سوف يعمل على إيقاف التأملات الموجودة لدي فيما وراء الدماغ. من يغطي لي العينين لا يعميني لكنه يحرمني الرؤية، وهكذا أنا الآن لأن الرأس يوجعني. في هذه اللحظة الرتيبة الفارغة، أرى المشهد بدون قيمة ولا نبالة، مشهد ما يوجد في الخارج وبالكاد أرغب في رؤيته كعالمٍ موجود. لدي وجعٌ في الرأس هذا معناه أنَّ لدي شعوراً بالإهانة موَجّهاً من المادة إليّ، ولأنها ككلّ الإهانات، تغيظني وتدفعني إلى أن أكون على خصام مع العالم كله، مع الموجودين على مقربةٍ مني ولو لم يسيؤوا إلي.

أرغب في الموت، مؤقتاً على الأقل، أرغب فيه لأن الرأس يوجعني فقط. وفي هذه اللحظة وفجأةً، أفكر في مقدار النبل العالي الذي سيعبِّر به واحدٌ من كبار كتاب النثر عن هذا كله؛ سيعرف كيف ينمي، فترة بعد أخرى، المرارة الغفل للعالم؛ أمام عينيه المتخيلتين للفقرات، ستبرز مختلفةً، كل الدراما الإنسانية الموجودة على الأرض ومن خلال نبضات الصدغين المحمومين ستنجلي على الورق ميتافيزيقا كاملة للكارثة. أنا لا أملك النبالة الأسلوبية. يوجعني الرأس لأن الرأس يوجعني. ويؤلمني الكون لأنّ الرأس يؤلمني،

لكن الكون الذي يؤلمني بالفعل ليس هو الكون الحقيقي الموجود لأنه لا يعلم أنني موجود، بل هو ذلك الكون الذي هو مني ولي، والذي، لو أمررتُ يدي على شعري يجعلني أحس أنّ كل خصلات شعري إنما تتألم لأجل أن تجعلني أتألم بدوري.

1932-2-5

البدلة

أحسّني، أحياناً مستثاراً، لا أدري لماذا، بهاجس الموت... هو في حقيقته وعكةٌ غامضة، لم تتجسَّد في ألم محسوس لذلك اتجهت في النهاية إلى اتخاذ طابعٍ روحي، لأنها مشتقة من عياءٍ باطني يحتاج إلى نومٍ أعمق من النوم نفسه - الأكيد هو أنني أشعر كما لو أنني، في نهاية استفحال حال مريض، قد نزعتُ أخيراً بلا عنف ولا نوستالجية، اليدين الواهنتين من فوق الغطاء.

حينئذٍ سأرى أي شيء هو هذا الذي ندعوه موتاً. لا أريد إفشاء لغز الموت الذي لا أدركه، ولكن بإمكاني الحديث عن الإحساس الفيزيقي بالكفّ عن الحياة. الإنسان يعاني من عقدة الخوف من الموت، لكن بكيفيةٍ غامضة؛ الإنسان العادي، مريضاً كان أم شائخاً، نادراً ما ينظر برعب إلى هاوية العدم. وذلك كله بسبب نقص في الخيال. التفكير في الموت باعتباره نوماً غير مناسب بتاتاً. لماذا ينبغي للموت أن يكون نوماً بينما هو لا يشبه الموت؟ الجوهري في النوم هو فعل الإفاقة منه، أمّا الموت، فلا أحد يفيق منه، وإذا كان الموت يشبه النوم، فيجب أن نملك تصوراً بالاستيقاظ منه. ليس هذا هو ما يتصوّره الإنسان العادي: أن يتخيل لحسابه الخاص، الموت مثل نومةٍ لا إفاقة منها، أو أنه لا يعني شيئاً.

الموت، لا يشبه النوم، يقول، إذ في النوم يكون الإنسان حياً ونائماً: لا أدري كيف يمكن أن يقارن أحدهم الموت بالعدم، إذ لا توجد أي إمكانية لامتلاك تجربة بالعدم أو بأيّ شيء يمكن أن نقارنه بالموت.

بالنسبة إليّ، عندما أرى ميتاً، يبدو لي الموت بمثابة رحيل. الجثة تولد لديّ انطباع بدلةٍ تمّ التخلي عنها. ثمة أحدٌ مضى ولم يكن بحاجةٍ إلى أخذ تلك البدلة الوحيدة التي كان يرتديها.

ما الزمن؟

لا أعرف ما الزمن. لا أعرف ما هو قياسه الحقيقي، إنْ كان لديه قياس. أعرف أنّ قياس الزمن بالساعات زائف: لأنه يقسمه تقسيماً خارجياً. كذلك القياس الانفعالي أعرف أنه زائف بدوره: لأنه يجزئ الإحساس بالزمن، وليس الزمن نفسه. القياس الزمني للأحلام قياسٌ مغلوط: ففيها نلامس الزمن، ممططاً تارة، وسريعاً تارةً أخرى، تبعاً لخاصيةٍ نجهل طبيعتها.

أعتقد، أحياناً، أنَّ الكلّ زائف، وأن الزمن ليس سوى الإطار التزييني لما هو غريب. في الذكرى التي لديّ عن حياتي الماضية، تتخذ الأزمنة مستويات وأوضاعاً لا معقولة أبدو أنا من خلالها في لحظة من لحظات عامي الخامس عشر المهيب أكثر فتوة من لحظاتٍ أخرى من طفولتي قابعاً وسط اللعب.

يتشبَّك الوعي عندي جراء التفكير في هذه الأمور. أحسّ أن ثمة خطأً ما في هذا كله؛ غير أنني لا أدري أين مكمن الخلل. كما لو أنني عانيت نوعاً من أنواع الشعوذة، حيث تفطَّنت إلى أنَّ الأمر

يتعلق بخدعة، ولو أنني لم أفهم التقنية، أو الآلية التي نفذت بواسطتها تلك الخدعة.

حينئذٍ، تهجم عليّ أفكار لا معقولة لا أتمكن، من دفعها لأنّ لامعقوليتها تنسحب على كل شيء. أفكر في شخصٍ غارق في التأمل المتمهِّل داخل سيارة مسرعة. بسرعة أو على مهل. أفكر إن كانت السرعتان متساويتين: أعني السرعتين المتماثلتين اللتين يهوي بهما في البحر الرجل المنتحر والرجل الفاقد لتوازنه في الساحة. أفكِّر إنْ كانت متزامنة بالفعل، تلك الحركات، التي تملأ الوقت نفسه، والتي بواسطتها أدخن سيجارة، وأكتب هذا المقطع وأمارس التفكير بكيفيةٍ غامضة.

بخصوص عجلتين في المحور نفسه يمكن أن نفكر أن واحدةً منهما دائماً تتقدم الأخرى، ولو بفارق أجزاء مليمترية.. باستطاعة الميكروسكوب أنْ يُكثِّرَ هذا التجزؤ حتى يجعله غير قابل للتصديق تقريباً مستحيلاً لولا أنه واقعي. ولِمَ لا ينبغي للميكروسكوب أن يكون على صواب بعكس نظرتي؟ أهذه تصورات لامُجدية؟ أعرف ذلك. أهي أوهام تصورات؟ أقرّ بذلك. ما هذا الذي، مع ذلك، يقسمنا بلا قياس، ويميتنا بغير أن يكون له وجود؟ وإنني في هذه اللحظات التي لا أعرف فيها ما إذا كان الزمن موجوداً، أشعر بوجودي كشخصٍ موجود ولدي رغبةٌ حقيقية في النوم.

1932-5-23

لا أحد يفهم أحداً

لا أحد يفهم أحداً. نحن، كما قال الشاعر، جزر في بحر الحياة: بيننا يجري البحر الذي يحددنا ويفصلنا. مع كل الجهد الذي

تبذله الروح في سبيل معرفة روحٍ أخرى، لن تعرف سوى ما تقوله كلمة - ظلّ مشوه على أرض الإدراك.

أحب العبارات لأنني لا أعرف ما تعبّر عنه. إنني مثل معلم سانتا مارتا: أُسرّ بما يمنحونيه. أرى فحسب، وهذا ليس بالقليل. مَن ذا باستطاعته أن يفهم؟

ربما بسبب هذه الارتيابية تجاه ما هو مفهوم ومعقول أواجه شجرة مثلما أواجه وجهاً من الوجوه، ومثلما أرى ملصَقاً أرى ابتسامة ما. (الكل طبيعي، الكل مصطنع، الكل سواء) كل ما أراه هو وحده المرئي بالنسبة إليّ، أكان السماء العالية الزرقاء ذات الاخضرار الأبيض للصباح الذي يتوجب أن يُعاش، أو كان التكشيرة/ المصطنعة/ التي يرتديها وجه مَن يُقاسي أمام الشهود مَوْت من يُحب.

دمى، صور، صفحات تقلب. قلبي ليس معها ولا انتباهي الذي يمرّ بها، مرور ذبابة على ورق. أوَأعرف أنا حتى إن كنت أحس، أو أفكر، أو أوجد؟ لا شيء: ثمة فقط خطاطة موضوعية لألوان، أشكالٍ تعبيرات لكوني المرآة المرتجفة لأنها معروضةٌ لبيع لا نفع له.

الكل في الخريف

من خلف الألوان الشاحبة للصيف المنتهي، برزت، في مصادفات الأماسي، تلوينات أكثر نعومة من السماء الواسعة، لمسات من نسيم بارد يعلن عن مقدم الخريف. لم يكن قد حان أوان اصفرار الأوراق أو سقوطها، ولا حان أوان تلك الغمّة المصاحبة لإحساسنا بحدوث مَوتٍ خارجي، هو موتنا نحن كذلك. لقد بدا كما لو أن الأمر يتعلق بعياء في جهد الوجود، بنعاسٍ مبهم طارئ

على الحركات الأخيرة للفعل. آه، إنها أماسي لامبالاة ممضّة، تجعل المساء يبدأ فينا نحن، قبل أن يحلّ في الأشياء.

كل خريف يأتي هو أقرب إلى الخريف الذي سيكون لنا، وكذلك الصيف؛ لكن الخريف، يذكّر، بما هو خريف، بنهاية كل شيء بينما في الصيف، من السهل، ملاحظة نسياننا ذلك. ليس بعدُ أوان الخريف، لم يظهر بعد في الأجواء اصفرار الأوراق المتساقطة أو الكآبة الرطبة للزمن الذي سيغدو شتاء فيما بعد، لكن ثمة بصيص من كآبة مسبقة، قلقٌ مُرْتَدَى لأجل الرحيل، في الإحساس في صميم الإحساس الذي نحن فيه منتبهون إلى الانتشار الملون للأشياء إلى النبرة الأخرى للريح، إلى الهدوء الأقدم الذي ينسحب، عند نزول الليل، بالحضور الحتمي للكون كله.

أجل كلنا سنمضي، بالكل سنمضي. لن يتبقى شيء ممّا استنفد الأحاسيس أو القفازات، لن يبقى شيء ممّا تبودل من كلام عن الموت وعن السياسة المحلية. وكما أنَّ ضوءاً واحداً يضيء أوجه القديسين وأحذية المارة، كذلك انعدام الضوء نفسه سيترك في العتمة ذلك الهباء الذي سيبقى ممّن كانو قديسين أو مستهلكي أحذية. في الدوامة الشاسعة، كدوامة الأوراق اليابسة، حيث يرقد العالم كله بخمول، تمتلك الممالك أهمية ملابس الخياطات نفسها، وضفائر البنات الشقراوات تسير في الدوران المميت نفسه الذي تسير فيه صولجانات الإمبراطوريات. الكل هباء، وفي ردهة اللامرئي، الذي بالكاد تُظهر فيه بوابته المفتوحة، مواجهة، باباً مغلقاً، ترقص، كل الأشياء، صغيرة وكبيرة - مملوكات لتلك الريح التي تصيِّرهن بلا أيد - كل الأشياء التي شكلت، بالنسبة إلينا وفينا، النظام المحسوس للكون. الكلّ ظلال وغبار مزاح، ما من صوت غير عويل ما تذروه

الرياح. ما من سكون غير ما تتركه الريح. بعضٌ، لأنه أخفّ، يصير ورقات خفيفة، تمرّ عالية عبر إعصار الردهة وتسقط بعيداً عن دائرة مَن هو أثقل وزناً. آخرون، مرئيون تقريباً، من الغبار نفسه، المختلف قليلاً لو رأيناه عَنْ كَثَبٍ فقط، يصنعون من أنفسهم سريراً في الدوامة. آخرون حتى الآن، عبارة عن منمنمات جذوع، سحُبوا دائرياً إلى هنا وهناك. ذات يوم، عند نهاية معرفتنا بالأشياء، سوف تنفتح بوابة العمق، وكلّ ما كنّاه - زبالة من نجوم أم أرواح - سوف يكنس خارج البيت، لكي يعود ما هو موجود إلى البدء من جديد.

القلب يؤلمني مثل جسمٍ غريب. دماغي ينوّم كلّ ما أحسّه. أجل، إنها بداية الخريف الذي يحمل إلى الجوّ وإلى روحي ذلك النور العبوس الذي يمضي مُؤَطّراً بالأصفر الميت الاستدارةَ الملتبسة لغيوم الغرب القليلة. أجل، إنها بداية الخريف، بداية المعرفة الواضحة في الساعة النقية، للنقصان الغفل لكلّ شيء. الخريف، أجل، الخريف الكائن أو الذي سيكون، والتعب المسبق لكلّ الحركات، والخيبة المسبقة لكل الأحلام. ماذا يمكن أن أتوقع وممّ؟ الآن، أمضي، فيما أفكره بخصوص ذاتي، أمضي بين أوراق وغبار الردهة، في المدار أمضي بدونما شعور بأيّ شيء، صانعاً ضجة من حياة في البلاطات النظيفة التي تذهّبها بذهب الختام زَاوِيَةٌ في جهةٍ أجهلها.

كلّ ما فكّرته، كلّ ما حلمته، كل ما فعلته أو لم أفعله - كل هذا - في الخريف يمضي، مثل أعواد الثقاب المستعملة التي تُجدّد الأرض في شتى الاتجاهات، أو مثل الأوراق المحوَّلة مدعوكةً إلى كراتٍ مزيفة، أو مثل الإمبراطوريات الكبرى، وكل الديانات، والفلسفات التي تَلَهَّى بها، لدى صنعها، الأبناء المتهوّمون للهاوية.

كل ما كنته وما كانته روحي، بدءاً من كلّ ما طمحت إليه حتى الدار التي فيها أعيش، من الآلهة الذين امْتَلَكْتُهُمْ حتى المدير فاسكيز الذي كان أيضاً بحوزتي، الكلّ في الخريف يمضي، الكل في الخريف، في الحنان اللامبالي للخريف. الكل في الخريف، أجل الكلّ في الخريف.

1931-9-14

دوامات

دوامات، دوامات، في البطلان السيال للحياة! في الساحة الكبرى لمركز المدينة. يكوّن الماء المتعدِّد الألوان للناس العابرين، بركاً، يفتح جداول، . . . عيناي تتسليان بالرؤية، وأنا أبني هذا المشهد الأخيلي[1] الذي يتطابق، أفضل من أيّ مشهد آخر، مع هذه الحركة الملتبسة، لأنني توقّعت هطول المطر الوشيك.

لدى كتابتي هذه العبارة: Incerto movimentos[2] التي تقول بالضبط ما تجسِّده، فكرت في أنه لن تكون هناك أيّ جدوى من وضعي، في نهاية الكتاب، عندما سأنشره، تحت عبارة «خطأ مطبعي» عبارة «ليس خطأً مطبعياً»، مع تأكيدي على أن: عبارة «A este incerto movimentos» في الصفحة كذا، هي فعلاً بهذه

(1) من Aqueo: نسبةً إلى أخيل أحد أبطال ملحمة **الإلياذة** الهوميرية.

(2) فضّلت هنا إيراد العبارة المعنية كما هي في النص الإسباني لإبراز المقصد: ففي العربية لا يمكن أن نقول: «هذه الحركات الملتبس» فالخطأ المتعمد هنا واضح يتمثل في عدم مطابقة الموصوف الذي هو جمع للصفة التي وردت بصيغة المفرد.

الصيغة، بالصفة مفرد وبالموصوف جمعاً[1]، لكن ما علاقة هذا بما كنت أفكر فيه؟ لا شيء، ولذلك تركتني أفكر فيه.

وسط الساحة، ومثل علب أعواد ثقاب متحركة، كبيرة وصفراء،... تدمدم الترامويات وتطنّ، مصدرةً صفيراً عالياً لدى انطلاقها. حول التمثال المركزي، الحمامات عبارة عن فتات أسود متحرِّك، كما لو بفعل ريحٍ منتشرة. تخطو خُطيات هنا وهناك، أجساماً غليظة على قوائم نحيلة.

إنْ هي إلّا ظلال، ظلال.

يبدو الناس جميعاً، مرئيين من قرب، مختلفين اختلافاً رتيباً. قال فييرا: كان فراي لويس دي سوسا قد كتب «المبتذل بتفرد» هؤلاء الناس متفردون بابتذال، بعكس أسلوب *La vida de Arzobispos*. كل هذا يحزنني، بالرغم من لامبالاتي. لقد جئت للوقوف هنا دونما دافع، مثل كلّ ما في الحياة.

من جهة الشرق، تنهض المدينة رصاصيةً تقريباً، وهي تهجم منخطفةً تقريباً على Castelo. الشمس الشاحبة تبلل بهالةٍ مبهمة هذه الكتلة الضخمة من المنازل المحجوبة من هنا. السماء ترتدي زرقة ضاربة إلى البياض. مطر أمس يتكرر اليوم ربما، لكنه أكثر نعومة. الريح تبدو شرقية... في الجهة الشرقية من الساحة ثمة أجانب أكثر ممّا في الجهة الأخرى...

فجأة، أجدني وحيداً في العالم. أرى كلّ هذا من خلال أعالي سطح روحي. وحيدٌ أنا في العالم. أن ترى الأشياء يعني أنك بعيد وأن ثمة مسافة. أن ترى الأشياء بوضوح معناه التوقُّف عَن الرؤية.

---

(1) تلك هي القاعدة في النحو الإنجليزي.

أن تحلّل ما تراه يعني أنك غريب. كلّ الناس يمرون بجانبي بدون أن يحتكوا بي. لا أملك هواء إلّا فيما يحيط بي. لقد وصل مبلغ إحساسي بعزلتي حداً يجعلني أحسّ بالمسافة الموجودة بيني وبين بدلتي. إنني طفل، يذرع بقميص النوم - حاملاً شمعداناً أسيء إشعاله - منزلاً هائلاً خلاء. حية هي الظلال المحيطة بي - ظلال وليدة للأثاث الجامد والضوء الذي يرافقني. إنها تحوم حولي هنا، تحت الشمس، لكنها بَشَرٌ، بَشَرٌ أحياء.

1930-4-25

سيكولوجيات ميتافيزيقية

كلما كان الإنسان أطول قامة، تحتّم عليه أن يحرم نفسه من أشياء كثيرة. في القمة لا مكان سوى للإنسان وحيداً. كلما كان أكثر إتقاناً، كان أكثر كمالاً؛ وكلما كان أكثر كمالاً، كان أقل آخَرِيَّةً.

هذه التصورات جاءت لترافقني بعد قراءتي في جريدةٍ يومية خبراً عن الحياة الغنية لرجلٍ مشهور. كان مليونيراً أميركياً. وامتلك كل شيء - مال، نساء، حب، هدايا، أسفار - تحف. ليس لأن المال قادرٌ على تحقيق كل شيء، ولكن لأن جاذبية امتلاك الثروة الفاحشة، قادرة بالفعل، على كل شيء.

عندما تركت الجريدة على طاولة المقهى، فكرت في أنَّ المستخدم التجاري الذي يتناول الغذاء كل يوم على المائدة الواقعة في أقصى ركن من المطعم، بإمكانه أن يحقق الشيء نفسه، في مجاله الخاص. لقد امتلك كلّ ما امتلكه المليونير؛ بدرجةٍ أقل، أكيد، لكن بما يتناسب مع قامته. الرجلان معاً حققا الشيء نفسه إذن؛ ما من فارقٍ بينهما في الشهرة، لأنّ الفارق بين مجاليهما يرسِّخ

التطابق كذلك. لا يوجد في العالم بأسره مَن يجهل اسم المليونير الأميركي، غير أنه بالمقابل ما من أحد في ساحة لشبونة لا يعرف اسم الرجل الذي يتغذى الآن في ركنٍ معتم من المقهى.

هذان الرجلان، في النهاية، حققا كل ما تستطيع اليد الوصول إليه عندما يُمَدُّ الذراع؛ ثمة تفاوت في طول الذراع بينهما؛ أما فيما تبقى فهما متساويان. لم أوفَّق قط إلى امتلاك الشعور بالحسد أو الغبطة تجاه هذا النوع من الناس. لقد كنت دائماً أرى أنّ المزية المتفرِّدة تتمثل في تحقيق ما لا يمكن تحقيقه، في العيش حيث لا إمكانية للعيش، في أن أكون أكثر حياةً بعد الموت ممّا أنا في الحياة، وأخيراً، في بلوغ شيء لامعقول، يستحيل بلوغه، وفي تجاوز واقعية العالم ذاتها، على نحو ما تُتَجَاوَزُ الحواجز.

إنْ قيل لي إنَّ لذة البقاء بعد الكفّ عن الوجود ممتنعة سأجيب بأنني، أولاً، لا أعرف إن كان ذلك صحيحاً أم لا، وإذن فأنا لا أعرف حقيقة بقاء الإنسان حياً في هذا الوجود؛ ثم سأجيب بعدئذٍ، بأن متعة الشهرة المستقبلية هي متعة آنية - الشهرة وحدها مستقبلية. وهي متعةٌ باعثة على الزهوّ بما يضاهي ما تبتعثه كلّ أنواع التملك المادي من أشكال الاعتداد والزهو. قد تكون متعتي المجردة، بالفعل خادعة، لكنها تبقى، كيفما كانت ماهيتها، أكثر أريحية من الاستمتاع فقط بما هو موجودٌ هنا. المليونير الأميركي ليس بإمكانه أن يعتقد بالتقدير الكبير الذي ستحظى به قصائده لدى الأجيال القادمة، لأنه لم يكتب قط قصائد من أيّ نوع؛ المستخدم التجاري لا يمكنه أن يفترض افتتان المستقبل بلوحاته؛ لأنه لم يرسم أي لوحات.

وأنا الذي لست بشيء في هذه الحياة العابرة، بإمكاني، مع

ذلك، الاستمتاع برؤية المستقبل وأنا أقرأ هذه الصفحة، لأنني أكتبها بالفعل؛ وبإمكاني أن أتباهى، كما لو بِوَلَدٍ من صلبي، بالشهرة التي سأنالها، لأنني، على الأقل، أمتلك ما يؤهلني لنيلها. وعندما أفكر في هذا كله، عند نهوضي من الطاولة، فبِأُبَّهة باطنية كما لو أنَّ قامتي اللامرئية ترتفع على قمة ديترويت في ولاية ميشغان، وساحة لشبونة بتمامها.

غير أنني أنتبه إلى أنَّ هذه التداعيات التأملية بعيدةٌ عن التأملات التي بدأتُ بها صفحاتي هذه. ما فكرت فيه فوراً هو أنّ مَن عليه أن يبقى حياً لا بد أن يكون غير ذي شأن في هذه الحياة. التأملات كلها سواء لا فرق. المجد ليس بميدالية، وإنما هو قطعةٌ نقدية: تملك الوجه في جانب، والإشارة إلى القيمة في جانبٍ آخر. بالنسبة إلى القيم العليا لا وجود لقطعةٍ نقدية: إنها من ورق وهي دائماً نادرة.

بهذه السيكولوجيات الميتافيزيقية يتسلى الخَجِلُونَ من أمثالي.

1931-2-2

رذيلة

كلّ لذة/ رذيلة/ - لأنّ البحث عن اللذة هو ما يقوم به الجميع، والرذيلة الوحيدة السوداء هي أن تفعل ما يفعله جميع الناس.

منظمو الحفل

إذا كانت ثمة نعمة وهبتنا إياها هذه الحياة، عدا نعمة الحياة ذاتها، تُوجب علينا أن نحمد الآلهة، فهي نعمة جهلنا المتبادَل والمزدوَج: جهلنا أو بالأحرى عدم معرفتنا بذواتنا وعدم معرفة

البعض منا بالبعض الآخر. الروح الإنسانية هاويةٌ مظلمة ودبقة، بئر لا تستعمل البتة في سطح هذا العالم. لا أحد سيحبّ نفسه لو عرفها حقّ المعرفة، وهكذا، لو لم يكن الخواء موجوداً، وهو دم الحياة الروحية، لهلكنا من أنيميا الروح. لا أحد يعرف أحداً آخر، ولحسن الحظ، إذ لو عرفه، لعرف فيه، وإن كان أماً، امرأة أو ابناً، العدو الميتافيزيقي الحميم.

نحن نتفاهم لأننا يجهل بعضنا بعضاً. كم سيكون وضع الكثير من الأزواج السعداء مختلفاً لو استطاع الواحد منهم النظر إلى روح الآخر، لو أمكنهم أن يدركوا، كما يقول الرومانطقيون. عدم معرفتهم بخطر - خطر تافه - ما يقولون. كل المتزوجين في العالم هم أزواج غير متكافئين. لأنّ كل واحدٍ منهم يحتفظ في ذاته، في الحديقة السرية للروح الشيطانية، بالصورة الخفية للرجل المنشود غير الذي تزوجناه، وبالصورة المتغيرة للمرأة السامية التي لم نتمكن من تحقيقها على أرض الواقع. الأزواج الأكثر سعادةً يجهلون في أنفسهم خيباتهم المحجوبة هذه؛ الناس الأقل سعادة لا يجهلونها، لكنهم لا يعرفونها. ووحدها نوبةٌ من نوبات الغضب الاعتيادية، أو خشونةٌ معينة في المعاملة، تستدعي، إلى السطح التلقائي للحركات والملفوظات الشيطان المختفي، والـ حواء القديمة.

الحياة التي نحياها هي لاتفاهمٌ دائم سيال، نصف فرح بين عظمةٍ لا وجود لها وسعادةٍ لا يمكن أن توجد. نحن فرحون لأننا، حتى عند التفكير والإحساس، قادرون على عدم الاعتقاد بوجود الروح. في حفلة الرقص التنكرية التي نحياها، حسبنا متعة بدلة التنكّر التي هي كل شيء في حفلة الرقص. نحن عبيد الأضواء والألوان، في الرقص نتصرف على نحو ما نفعل في الحقيقة، لا

وجود بالنسبة إلينا - ما عدا لو كنا منبوذين في حفلة الرقص - للبرد الشديد في الليل الخارجي، للجسد الفاني تحت أسمال مَن هم على قيد الحياة، لا وجود لكلّ ما نعتقد، أنه جوهرياً نحن، لأنه في النهاية ليس غير الباروديا الباطنية لحقيقة ما لا نفترض أنه موجود.

كل ما نفعله أو نقوله، كلّ ما نفكره أو نحسّه، يحمل القناع نفسه والجبة نفسها. ومهما نزعنا ما نلبس من ثياب، لن نصل أبداً إلى التعري. لأن العري وضع من أوضاع الروح وليس نزعاً للثياب الخارجية. هكذا، مرتدين الجسد والروح، ببدلاتنا نحيا سعداء أو تعساء، أو حتى غير عارفين حقيقة أنفسنا، نحيا الحيِّز القصير الذي منحتناه الآلهة لكي نتلهى به، مثل أطفالٍ يتسلون بألعابٍ جادة.

بغتة يرى أحد الملاعين أو الأحرار منا - ونادراً ما يرى - أنّ كلّ ما يتشكَّل منه كياننا ليس بكياننا، وبأننا ننخدع بما هو حقيقي ولسنا على صواب فيما نعتبره صائباً. وذاك الذي، أثناء فترةٍ وجيزة، يرى الكون عارياً، يخلق فلسفة، أو يحلم بديانة؛ والفلسفة تنتشر والديانة تتعتَّم، والذين يعتقدون بالفلسفة ينتقلون إلى استعمالها كلباس لا يرونه، والذين يؤمنون بالديانة ينتقلون إلى وضعها كقناع يَنْسَوْنَ بعدئذٍ أنه قناع.

ودائماً، جاهلين أنفسنا والآخرين، ومتفاهمين جيداً بسبب ذلك، نغدو عبر حلزونيات الرقصة أو من خلال محادثات الاستراحة، إنسانيين، تافهين، على صوت الجوقة الكبرى للنجوم، تحت النظرات المزدرية والغيرية لمنظمي الفرجة.

وحدهم هم يعلمون أننا مجرد فريسةٍ للوهم الذي خلقوه لنا، لكن ما هي حقيقة ذلك الوهم، ولماذا هو موجود، ولأجل ماذا

منحونا هم الواهمون بدورهم، الوهم الذي منحوناه، ذلك، بالتأكيد، ما لا يعلمه هم أنفسهم.

1931-11-29

شيئان

المنحدر يقود إلى الطاحونة، غير أنَّ المجهود لا يقود إلى شي.
كانت أمسية خريفية، عندما اكتست السماء لوناً بارداً ميتاً، وثمة غيوم تخنق الضوء وسط شراشف من هويني.

منحني القدر شيئين: بضعة كتبٍ للمحاسبة ونعمة الحلم.

كلمات...

أوَفكرت الآن كم نحن لا مرئيون بعضنا بالنسبة إلى بعضنا الآخر؟ أو تأملت الآن كم نحن نجهل بعضنا بعضاً؟ نرانا ولا نرانا. نصغي بعضنا إلى بعضنا الآخر وكل واحدٍ منا يسمع صوتاً موجوداً بداخله هو فقط.

كلمات الآخرين ما هي إلا أخطاء سَمْعِنَا نحن، غرقى إدراكنا الخاص. بأيّ وثوقية نؤمن بالمعنى الذي نضفيه نحن على كلمات الآخرين... نقرأ متلذِّذين بما لفظه الآخرون بدون نية إعطائه أي معنى عميق.

صوت الجداول الذي نفسره [...] المفسرة، صوت الشجر الذي نعطي لحفيفه معنى - آه، يا حبي المجهول، إلى أيّ حدٍّ يمكن أن نكون نحن والفانتازيات هذا كله، والكل من رماد ينزلق على قضبان زنزانتنا!

(بعد 1923)

شلال

الطفلة تعرف أنَّ الدمية ليست واقعية، وهي تعاملها كأنها واقعية إلى حدّ الاستياء والبكاء عليها عندما تتحطم... طوبي لتلك المرحلة العمرية الملتبسة من مراحل الحياة، حينما يبطل الحبّ لغياب الجنس، وحينما يلغى الواقع لحساب اللعب، آخذين الأشياء اللاواقعية مأخذ الواقعي!

لو أنني أعود طفلاً كما كنت لأبقى كذلك على الدوام، بدون أن تهمني القيم التي يهبُها الناس للأشياء ولا العلاقات التي يقيمونها معها. أنا، في صغري، كنت أضع أرجل الجنود الرصاصيين، أحياناً كثيرة، مقلوبةً إلى الأعلى... وهل ثمة دليل واحد منطقي مقنع، يقضي بأنّ الجنود الواقعيين لا يجب أن يسيروا برؤوسٍ مقلوبة؟

الطفل لا يمنح الذهب قيمةً أكثر ممّا للزجاج. وهل الذهب، للحقيقة، أعلى قيمةً من الزجاج؟ - الطفل وبطريقته الملتبسة يستصغر انفعالات الكبار، غضبهم، والنوايا السيئة المرسومة على تعبيراتهم. أوَليست كراهيتنا كلها وكل نوايانا السيئة وكلّ أشكال حبنا لا مُجدية وجديرة حقاً بالاستصغار؟

أوه أيتها الرغبة الطفولية الإلهية واللامعقولة! الرؤية الحقيقية للأشياء التي نكسوها نحن بالمواضَعات بدل أن نراها عارية كما هي، من أفكارنا نحن بدلاً من النظر إليها مباشرة!

ألا يمكن أن يكونه الله طفلاً كبيراً؟ والكون بتمامه، ألا يبدو مجرد لعبة، دوراً لطفل عفريت؟ كم هو لاواقعي، كم (...)، كم (...).

ضاحكاً أرسلت لكم، هذه الفكرة في الهواء، لأرى كيف،

برؤيتها بمنأى عني، تبدو لي فجأةً مرعبةً. مَن يدري إنْ لم تكن تحتوي الحقيقة؟ وتسقط متحوِّلة عند قدمي، إلى غبار وشظايا من غم...

أستيقظ لأعرف أنني موجود...

ضجرٌ عظيم لا متعين يغرغر بادراً خطأ في مسمعي، عبر الشلالات... هنالك في العمق/ البليد/ للحديقة.

الوسيلة الوحيدة

الوسيلة الوحيدة لامتلاك أحاسيس جديدة تتمثَّل في بنائك لروحٍ جديدة. باطلٌ هو الجهد الذي تبذله إنْ كنت تريد الإحساس بأشياء أخرى بدون أن تكون لديك طريقة أخرى في الإحساس، وتريد الإحساس بطريقةٍ أخرى بدون استبدال الروح. لأنّ الأشياء هي مثلما نحسُّها نحن - كم من وقتٍ مضى على معرفتك بهذا بدون أن تعرفه؟ - والطريقة الوحيدة لكي توجد أشياء جديدة، ولكي تحسّ بأشياء جديدة، تتمثل في وجود جِدَّة في الإحساس بها.

أأبدّل الروح؟ كيف؟ اكتشف ذلك أنت.

نحن منذ ولادتنا حتى وفاتنا، نبدِّل روحنا، ببطء، مثلما نبدل جسدنا. بالتوصّل إلى وسيلةٍ لتسريع وتيرة ذلك التغيير، مثل بعض الأمراض الصعبة، وبعض النقاهات، يتبدل جسدنا بسرعة.

لا ينبغي النزول أبداً إلى مستوى إعطاء محاضرات لكي لا يظنّ أنَّ لدينا آراءنا، أو النزول حتى عند الجمهور للحديث معه، إنْ رغب في قراءتنا.

ثم إنَّ المحاضرَ علاوة على ذلك يبدو ممثِّلاً - أي مخلوقاً يحتقره الفنان الجيد، فتى حمالاً للفن.

مفاجآت

الروح الإنسانية هي ضحية حتمية للألم، تقاسي ألم مفاجأة الألم، حتى مع ما تتوقّعه من آلام. الرجل الذي يتحدث طوال حياته عن التقلبات الأنثوية كأمورٍ طبيعية وأصلية، سوف يجرب كلّ ألم المفاجأة عندما يجد نفسه مخوناً في الحب. . . والآخر الذي كل الأشياء بالنسبة إليه خواءٌ وفراغ، سيشعر كما لو أنَّ صاعقة مفاجئة أصابته عندما يكتشف أن الآخرين يعتبرون ما يكتبه سخافة، أو أنّ مجهوده في التعليم عقيم أو أنَّ تأثير عاطفته زائف.

لا ينبغي الاعتقاد بأنّ الرجال الذين يتعرَّضون لهذه البلاوي، ولما يماثلها، قد كانوا قليلي الصراحة فيما قالوه، أو كتبوا عنه، وأنّ تلك المصائب كانت متوقّعة ويقينية. لا وجود لأيّ علاقة بين صراحة التأكيد الذكي المعقلن وفطرية التلقائي. ولعلّ الروح إنما تتلقى مفاجآت من هذا النوع، فقط لأن الألم لا ينقصها، ولأنّ الخزي لا يترك لها مجالاً للمصادفة، ولأنّ الغمّ لا ينقصها كجزء معادل من الحياة. كلنا متساوون في مقدرتنا على الخطيئة وعلى المعاناة. وحده العديم الإحساس لا يصيبه شيء؛ والناس الأكثر سموّاً، والأكثر نبالة، الأكثر فراسة، هم الذين يقعون فريسة لما توقعوه واحتقروه. وهذا ما يدعى الحياة.

خالق المرآة

المفروض ألّا يستطيع الإنسان النظر إلى وجهه. إذ لا يوجد ما هو أشدّ رعباً من ذلك. لقد وهبته الطبيعة نعمة عدم القدرة على النظر إلى وجهه، وكذلك عدم القدرة على النظر إلى عينيه بالذات.

في مياه الأنهار والبحيرات أمكنه النظر إلى وجهه فقط. حتى

الموقف الذي كان عليه أن يتَّخذه كان رمزياً. كان عليه أن ينحني، وأن ينحط لكي يقترف وصمة النظر إلى وجهه.

خالق المرآة سمَّم الروح الإنسانية.

والكل داء عضال

والكل داءٌ عضال.

كسل الإحساس، السخط الناجم عن عدم معرفة القيام بأيّ شيء، عدم القدرة على الفعل، مثل (. . .).

لنجلس هنا

الشيء الأمثل بالنسبة إليّ هو أن أكون كومنداناً متقاعداً. إنه لأمرٌ مُحزن أنني لم أستطع أن أكون على الدوام فقط كومنداناً متقاعداً.

/ تعطُّشي إلى أن أكون كاملاً تركني على هذه الحال من الكرب اللامجدي/.

التفاهة التراجيدية لحياتي

فضولي المؤاخي للقنبرات.

لنجلس هنا. من هنا تبدو أكثر وضوحاً. الشسوع الهائل لهذا العلوّ المهشم يبعث على العزاء. الحياة تغدو أقل إيلاماً عند النظر إليه؛ عبر وجهنا الدافئ، وجه الحياة، تمرّ الإيماءة الصغيرة لمروحة قصيرة.

تلك الشمس

في هذا العصر الفلّزي البربري وحدها عبادةٌ مغالية لقدراتنا على الحلم، وعلى التحليل بإمكانها أن تفيدنا في صيانة شخصيتنا، حتى

لا تتعرض للإلغاء أو التماثل مع غيرها من الشخصيات.

إنَّ ما تنطوي عليه أحاسيسنا من واقعية هو بالضبط ما تنطوي عليه عناصر لامنتمية إلينا. ما هو مشترك في الأحاسيس هو بالذات ما يشكِّل الواقع المشترك. لذلك كانت فردية أحاسيسنا الخاصة كامنة فقط في الجزء الهائل منها. الفرح الذي سأشعر به سيرى الشمس قرمزية ذات يوم.

وتلك الشمس ستكون لي وحدي، لي وحدي!!

حبي

حبي لفتاة صينية من إسمنت.

أسباب: (. . .).

هادئاً يمضي حبنا، على هواها هي، فقط في البُعدين الوحيدين للفضاء.

دليلنا

غريزة الاستعلاء البشرية التي تجعل أكثرنا زهواً، إنْ كان رجلاً حقاً وليس بمجنون، يتحرق، [. . .]، اليد الأبوية التي تقوده عبر لغز العالم وغموضه. كل واحدٍ منا عبارةٌ عن ذرة من غبار ترفعها ريح الحياة، ثم تدعها تسقط بعدئذٍ. علينا أن نلوذ بما يمنحنا الحماية. . . لأنّ الشكل دائماً ملتبس، السماء دائماً قصيَّة والحياة أجنبية دائماً.

أرفعنا وأسمانا ليس بأكثر من أقربنا إلى (ب) ما هو فارغ وما هو ملتبس في كل شيء.

جائزٌ بأن يكون الوهم دليلنا في هذه الحياة، غير أنَّ الوعي بالذات ليس قطعاً دليلنا.

تفسير

الأشياء/ الحديثة/ موجودة في:

1- تطور المرايا

2- خزائن الملابس

لقد تحوّلنا إلى كائناتٍ كاسية، جسداً وروحاً.

ولأنَّ الروح تنتمي دائماً إلى الجسد، فقد تمَّ تثبيت بدلة روحية خاصة بها. تحوّلنا إلى امتلاك روحٍ كاسية بصفةٍ جوهرية، كذلك انتقلنا - بشراً، أجساداً - إلى مستوى حيوانات كاسية.

لا يتعلق الأمر فحسب بكون بدلتنا قد أصبحت جزءاً من ذواتنا، بل كذلك بالخصوصية المعقَّدة لتلك البدلة المتمثِّلة في انتفاء صلتها بعناصر الرشاقة الطبيعية للجسد وحركاته.

لو طلب مني أن أفسِّر ما هي حقيقة وضعي الروحي، بواسطة برهانٍ محسوس، سأجيب بطريقةٍ خرساء مشيراً إلى المرآة، ثم إلى مشجب ثم إلى قلمٍ من حبر.

دناءة

من أكثر الاحتياجات الإنسانية دناءة: الحاجة إلى البوح، وإلى الاعتراف، لأنها تعبِّر عن حاجة الروح إلى أن تكون خارجية.

اعترِفْ، نعم؛ لكن اعترف بما ليس حقيقياً. حرِّر روحك، أجل من عبء أسرارها، بإفشائها؛ لكن كم سيكون رائعاً لو أنَّ السر الذي أفشيته لم تبُح به قط. اكذبْ على نفسك أنت قبل أن تبوح

بتلك الحقيقة. أن تعبّر دائماً معناه أن تعرِّض نفسك للخطأ. أن تتكلم هو أن تكذب ذلك ما أعرفه عن وعي.

ثمة تقنية للحلم، مثلما هو الأمر بالنسبة إلى مختلف الوقائع، من خلال (. . .).

بالحلم

الكسل يكفّر عن كل شيء. عدم قيامنا بأيّ فعل يهبنا كل شيء. التخيُّل هو كل شيء، طالما ألّا شيء يجرّنا إلى الفعل. لا أحد باستطاعته أن يكون ملكاً للعالم سوى في الأحلام. وكل واحدٍ منا، لو عرف نفسه حقّ المعرفة، راغب في أن يكون ملكاً على العالم.

عدم التفكير هو العرش. وعدم الرغبة هو التاج. نحن نتملَّك ما نتنازل عنه، لأننا، بالحلم، نحافظ عليه، كاملاً غير ممسوس.

غايات

امتلاك آراءَ محددة ويقينية، غرائز، أهواء ومزاج مستقر ومعروف، كل هذا من شأنه أن يحوّل الروح إلى واقع، وأن يجعلها مادية وخارجية. العيش هو حالةٌ عذبة وسيالة من الجهل بالأشياء وبفعل العيش ذاته. إنها النمط الحياتي الوحيد الذي يلائم الحكيم وينشطه.

- أعلى درجة في الحكمة هو أن نعرف كيف نتوسط باستمرار بين الذات والأشياء.

- ينبغي أن تكون شخصيتنا محصّنة بتعذُّر النفاذ إليها، حتى من لدننا نحن: من هنا واجب إدماننا الحلم على الدوام، وانضوائنا في عوالم أحلامنا، كيما لا يكون بإمكاننا امتلاك آراء حول أنفسنا.

ويجب علينا الحيلولة، خصوصاً، دون اقتحام الآخرين لشخصيتنا. كلّ اهتمامٍ بنا من لَدُنِ الغير هو فظاظةٌ فريدة. ما يحول دون تحول التحية المبتذلة - كيف أنت؟ - إلى فظاظةٍ غير مبررة هو كونها عموماً وبصفةٍ مطلقة فارغة وغير صريحة.

- أن نحب معناه أن نتعب من وجودنا وحيدين: الحب جبانة، وخيانة لأنفسنا نحن (مهم جداً لسيادتنا ألّا نحب أبداً).

- إسداء النصائح الطيبة هو إهانةٌ لإمكانية الخطأ التي منحها الله للآخرين. وفق كل شيء، ينبغي لأفعال الغير أن تحتفظ بامتياز كونها ليست أفعالنا. طلب النصيحة من الآخرين قد يكون مفهوماً فقط: لأجل أن نعرف كيف نتصرف بعكسها. بتعارضٍ مع الآخَريّة.

شفقةٌ باردة

- الامتياز الوحيد للدراسة، أي دراسة، يتمثل في الاستمتاع بكلّ ما لم يقُله الآخرون.

الفن عزلة. على كلّ فنان أن يسعى إلى عزل الآخرين، وأن يحمل إلى أرواحهم الرغبة في أن يكونوا منعزلين. الظَّفَر الأعلى لأيّ فنان يتحقق، عندما يفضل القارئ عند قراءته أعماله، امتلاك هذه الأعمال، وليس معاودة قراءتها. لا لأن هذا ما يحدث للفنانين المكرسين الكبار؛/ وإنما لأنّ هذه هي الخصيصة العليا (. . .).

أن أكون صاحياً يعني أن أكون مغضوباً عليّ من ذاتي نفسها. الوضع الصحيح للروح فيما يتعلق بالنظر صوب ذاتها هو الوضع/ (. . .) لمن يرى أعصاباً وتردّدات.

الموقف الذهني الوحيد الجدير بكائنٍ أعلى هو موقف شفقةٍ هادئة وباردة تجاه كلّ ما ليس ذاته هو. .

تجسّدات

الحقل هو ذاك الذي لا نوجد فيه هناك، هناك فقط، توجد ظلالٌ حقيقية وغابةٌ حقيقية.

الحياة هي الحيرة بين صراخٍ وسؤال.

/ في الحيرة - الشك - ثمة نقطة نهاية/ .

المعجزة هي كسل الله، أو بالأحرى، الكسل الذي ننسبه إليه، مخترعين المعجزة.

الآلهة هي تجسدات لما لن تستطيع أبداً أن نكونه.

التعب الناجم عن جميع الفرضيات...

ملك الموت

الحرية هي امتلاك إمكانية العزلة. حرّ أنت إنْ استطعتَ الابتعاد عن الناس وبدون أن تجبرك على اللجوء إليهم، الحاجة إلى المال، أو الحاجة الاجتماعية، أو الحب، أو المجد، أو الفضول، تلك الحاجات التي لا يمكن أن تجد غذاءها في الصمت والوحدة. إذا وجدت العيش لوحدك مستحيلاً، فقد ولدت عبداً إذن. باستطاعتك حيازة نبالات النفس والروح كلها: أنت حينئذٍ عبدٌ نبيل، أو عبدٌ ذكي: لست حراً. والمأساة ليست مأساتك أنت، لأنّ مأساة كونك ولدت كذلك ليست من صنعك أنت، ولكن من صنع القدر، والقدر وحده.

آه لك، لو أنَّ عسف الحياة، الحياة ذاتها، يرغمك على أن تكون عبداً. آه لك، إن أرغمتك الفاقة على التعايش المشترك. تلك مأساتك، أجل، مأساتك التي ستحملها طوال حياتك.

عظمة الإنسان هي أن يولد حراً، وهي ما يجعل الزاهد أعلى

مرتبةً من الملوك، وحتى من الآلهة، الذين همّهم القوة، وليس احتقار القوة.

الموت انعتاق، لأنه عدم احتياج إلى آخر. العبد البائس يغدو متحرراً من سطوةٍ لذاته، ومنحه، من حياته المرغوبة والمستمرة. الملك يغدو محرراً من سلطاته التي لا يريد التخلي عنها.

الذين زرعوا حباً يصبحون متحررين من الانتصارات التي يهيمون بها.. الظافرون يبدون متحرِّرين من الانتصارات التي سُخّرت حياتهم لها.

لذلك كان الموت مشرفاً، يُلْبِسُ الجَسَدَ الفقير الفارغ زينات مجهولة. إذ ها هنا يوجد رجلٌ حر، ولو لم يرغب في أن يصير كذلك. ها هنا لم يعُد العبد موجوداً، ولو أنه منتحباً فقَد عبوديّته. مثل ملكٍ تكمن أبّهته العظمى في لقبه كملك، ملك يمكن أن يكون مضحكاً كإنسان، لكنه رفيع باعتباره ملكاً، كذلك الميت يمكن أن يكون مُشَوَّهاً، لكنه الأعلى، لأن الموت منحه الحرية.

متعباً، أغلق، دفَّتي نافذتي، أبعد العالم عني لأمتلك الحرية للحظةٍ معينة. غداً سأعود إلى عبوديتي؛ لكنني، الآن، وحيداً، بدون حاجةٍ إلى أيّ كان، متوجساً فحسب من إمكانية أن يعكر صفو حريتي حُضورٌ أو صوت ما، الآن لدي حريتي الصغيرة.

على الكرسي الذي أتكئ عليه، أتناسى الحياة التي تضطهدني. لا يؤلمني سوى ما آلمني من قبل.

حرية

المال، الأطفال (المجانين) (. . .)

لا ينبغي أن نحسد الثراء، إلّا على نحوٍ أفلاطوني: فالثروة حرية.

مثل إله

المال جميل لأنه يحرِّرنا.

أن أرغب في الموت في بكين دون أن أستطيع تحقيق رغبتي أمر يُحزنني كما لو كان الأمر يتعلق بفكرة مستقبلٍ كارثيّ.

هواة اقتناء الأشياء العديمة النفع هم أكثر حكمةً ممّا يعتقد: إنهم يقتنون أحلاماً صغيرة. إنهم في الاقتناء أطفال. كل الأشياء الصغيرة العديمة النفع يقتنونها بسعادة طفلٍ يأخذ محارات في الشاطئ - وهي السعادة الكبرى الممكنة التي لا تضاهيها سعادة أخرى. لدى الطفل الذي يأخذ محارات في الشاطئ لا توجد البتة محارتان متشابهتان. وسينام بأجمل محارتين في اليد.

وإذا ما أضعناهما أو رميناهما - سنرتكب جريمة حينئذٍ، كأنما سرقنا قطعاً خارجية من الروح، وسنكون قد انْتَزَعْنَا أجزاء حيّة من حلم! - سيبكي الطفل مثل إله سرقوا له الكون المخلوق للتوّ.

قناعات

الحماس فظاظة.

التعبير عن الحماس، هو، أكثر من أيّ شيء آخر، اغتصاب لحقنا في عدم الصدق.

نحن لا نعرف أبداً متى نكون صادقين. ربما لسنا صادقين على الإطلاق. وحتى لو كنا صادقين اليوم، فغداً يمكن أن نكون بعكس ذلك تماماً.

بالنسبة إليّ، لم أمتلك أبداً قناعات. امتلكت دائماً انطباعات وحسب. لن أكون قادراً أبداً على كره أرض رأيت فيها أفولاً فضائحياً.

لا معقول

لِنَتَحَوَّلْ إلى أبي هول، ولو زائف، حتى الوصول إلى نقطة عدم معرفة مَن نحن. لأننا، في الحقيقة، عبارة عن أبي هول زائف، ولا نعرف مَن نحن في الواقع. الطريقة الوحيدة للوجود في وفاق مع الحياة هي أن نكون دائمي اللاتوافق مع أنفسنا. اللامعقول مع أنفسنا. اللامعقول هو (ال) إلهي.

لننشئ نظريات، ولنتأملها بصبر واحتشام - فقط، لكي نتخذ إجراءات مضادّة لها - لنتصرف ونبرِّر أفعالنا بنظريات تُدينها - لنفتح طريقاً في الحياة ولنشرَع على الفور وبطريقةٍ معاكسة في السير عبر ذلك الطريق. ولنمتلك كلّ الحركات وكلّ المواقف لما لسنا إياه وما لا نسعى إلى أن نكونه، . . .

لنشترِ كتباً/ لأجل/ عدم قراءتها؛ لنذهب إلى الحفلات الموسيقية، ليس بقصد سماع الموسيقى، ولا رؤية من يوجد هناك؛ لنقُم بجولاتٍ طويلة بدافع التعب من المشي ولنذهب لتمضية بضعة أيام في الحقل لأنّ الحقل يُضجرنا.

أن نعرف كيف نكون متطيرين لا يزال يُمثِّلُ أحد الفنون المميزة للإنسان المتفوق، إذا ما تحقق بنوعٍ من السموّ.

حتى التفكير، على هذا النحو، هو نوعٌ من الفعل. وحده الهذيان المطلق، حيث لا يتدخّل أيّ عنصرٍ فاعل، وحيث وَعْيُنا بذواتنا نفسه يقع في ورطة - فقط في تلك اللا - كينونة الفاترة والرطبة، يتحقق التخلي عن الفعل بطريقةٍ صحيحة.

ألا ترغب في الفهم، في تحليل. . . أن تنظر إلى نفسك كما تنظر إلى الطبيعة؛ أن تنظر إلى انطباعاتك كما لو إلى حقلٍ من الحُقول - هذه هي الحكمة.

(1914؟)

(ترتيل)

نحن لا نتحقق ولا نحقِّق ذواتنا أبداً.

نحن عبارةٌ عن هاوية تمضي صوب هاويةٍ أخرى - بئر تحدق في السماء.

بحيرة التملك

التملُّك بالنسبة إليّ بحيرةٌ فارغة - كبيرة جداً، معتمة جداً، وضحلة جداً. ماؤها يبدو عميقاً لكثرة ما به من أوساخ.

الموت؟ لكن الموت موجود داخل الحياة. أأموت تماماً؟ لا أعرف عن الحياة شيئاً. أأستمر على قيد الحياة؟ أنا أواصل الحياة.

الحلم؟ نحياه. نحن فقط نحلمه؟ نموت. الموت موجود داخل الحياة.

مثل ظلّي، تتبعني الحياة. والظل يتلاشى فقط حينما يغمر الظلّ كلّ شيء. الحياة لا تتبعنا فقط عندما لا نستسلم لها.

الشيء الأكثر إيلاماً في الحلم هو انتفاء وجودنا فيه. في الواقع. ليس بإمكاننا أن نحلم.

ما هو التملك؟ لا نعرف. كيف نُريدُ حينئذٍ امتلاك ما نريد. تقولون إنكم لا تعرفون ما الحياة وتعيشون... لكن أوَ نعيش بالفعل نحن؟ أن نحيا بدون أن نعرف ما الحياة هل يحسب حياة؟

بحيرة التملك

لا شيء يُدْرَكُ، لا الذرات ولا الأرواح. لذلك لا شيء يُتَمَلَّكُ شيئاً. من الحقيقة إلى المنديل - الكل متعذر. (الملكية ليست سرقة: ليست شيئاً على الإطلاق).

سوسيولوجيا: لا جدوى النظريات والممارسات السياسية.

أن ترى بوضوح

فينا نحن يبدأ حكم العالم. العالم لا يحكمه الصادقون ولا غير المخلصين، العالم يحكمه أولئك الذين يصنعون في أنفسهم إخلاصاً واقعياً بوسائط مصطنعة وأوتوماتية؛ وذلك الإخلاص هو مصدر قوتهم، وهو الذي يمدّ إشعاعه صوب الإخلاص الأقل زيفاً للآخرين. الميزة الأولى لرجل الدولة هي أن يعرف كيف يمارس الخداع جيداً. وحدهم الشعراء والفلاسفة معنيّون بالرؤية العلمية للعالم، إذ هم وحدهم مَن وُهِبُوا نعمة عدم امتلاك أوهام. أن ترى بوضوح معناه ألّا تفعل شيئاً.

على هامش النص

الإنسان الكامل لدى الوثني تمثَّل في كمال الإنسان الموجود بالفعل؛ الإنسان الكامل لدى المسيحي تجسّد في كمال الإنسان الذي لا وجود له؛ الإنسان الكامل لدى البوذي، هو كمال عدم وجود الإنسان.

الطبيعة هي الفرق بين الروح والله.

كل ما يعرضه الإنسان أو يعبِّر عنه هو بمثابة ملاحظةٍ على هامش نص الكون الخامد. من المعنى العام للملاحظة، نستخرج المعنى المفترض للنصّ؛ لكن الشكّ يظل قائماً، فالمعاني المحتملة كثيرةٌ جداً.

معيار الفن

منذ منتصف القرن الثامن عشر، أصَابَ الحضارة الإنسانية تدريجياً مرض رهيب. سبعة عشر قرناً من طموحٍ مسيحي مخدوع بصفةٍ ثابتة. خمسة قرون من طموحٍ وثني مؤجَّل بصفةٍ دائمة - الكاثوليكية كانت قد تصدَّعت كمسيحية، النهضة كانت قد تصدّعت هي الأخرى كوثنية، الإصلاح كان قد توقف كظاهرةٍ كونية. لقد حلّت الكارثة بكلّ الأحلام والخزي بكلّ ما تم تحقيقه من إنجازات، وبؤس العيش بدون حياةٍ لائقة بالجميع، . . .

هذا كلّه مسّ الأرواح كلها فسمّمها. الرعب من الفعل، الذي يجبركَ على أن تكونَ سافلاً في مجتمعٍ خسيس، أغْرَقَ الأرواح كلها. اعتلّ النشاط الأعلى للروح؛ وحده النشاط الديني حافظ على حيويته؛ . . .

في هذه الأجواء ولد الأدب والفن من مقومات ثانويةٍ للفكر - الرومانطيقية؛ وولدت حياةٌ اجتماعية مصنوعة من مقوماتٍ ثانوية للفاعلية الإنسانية - الديمقراطية الحديثة.

الأرواح المخلوقة للقيادة لم تجد بُدّاً من الإحجام. الأرواح المخلوقة للإبداع، في مجتمعٍ توقَّفت فيه القوى الإبداعية، امْتَلَكَتْ في العالم التشكيلي الوحيد المريح عَالَمَ مجتمع أحلامها، امتلكت العقم الاستبطاني لذواتها هي.

نحن نطلق صفة «رومانطيقيون» على الكبار الذين فشلوا وعلى الصغار الذين اشتهروا، على حدٍّ سواء. بينما التشابه لا يوجد سوى في العاطفية الظاهرة؛ لدى البعض تُظهر العاطفية غياب الذكاء نفسه. شاتوبريان وهوجو، وفيني وميشيليه هم ثمارٌ للحقبة نفسها، لكن شاتوبريان روحٌ كبيرة تصاغرت؛ هوغو روحٌ صغيرة تمدَّدت مع رياح

الوقت؛ فيني عبقريٌّ كان عليه أن يلوذ بالفرار؛ مشيليه، امرأةٌ أُجْبِرَتْ على أن تكون رجلاً ذا عبقرية. النزعتان معاً موجودتان متَّحدتين معاً جان جاك روسو أب الجميع. ذكاؤه كان ذكاء رجلٍ خَلّاقٍ، أما الحساسية، فحساسيةُ عبدٍ. وهو يؤكدهما معاً بالدرجة نفسها من التساوي، لكن الحساسية الاجتماعية لديه سمَّمت نظرياته، فيما لم يُفِدْهُ الذكاء سوى في خلق بؤس تعايش بحساسيةٍ مماثلة.

ج.ج. روسو هو الإنسان الحديث، لكنه أكثر كمالاً من أيّ إنسانٍ حديث آخر. من نقاط الضعف التي تسبَّبت في فشله - آه منه ومنا نحن - استخرجَ نقاط القوة التي صنعت نجاحاته. ما رحل منه حقَّقَ الظفر، لكن في رايات ظفره، عندما دخل المدينة، شوهدت مكتوبة [. . .] كلمة «هزيمة». لقد تبقت منه في الوراء، وقد عجز عن الجهد الضروري لإحراز النّصر، التيجان والصولجانات، وعظمة الحكم ومجد الظفر بقدرٍ باطني.

العالم الذي، ولدنا فيه، يعاني من تنازل المتفوقين وعنف الأدنياء. . .

لا يمكن لأي نوعيةٍ رفيعة أن تثبت نفسها حداثياً، إنْ على مستوى الفعل أو على مستوى التفكير، في النطاق السياسي كما في نطاق التأمُّل النظري.

زوال التأثير الأرستقراطي خلق جواً من الفظاظة واللامبالاة تجاه الفنون، حيث لم يعد بإمكان عيار/ الشكل/ العُثور على ملاذ. اتصال الروح بالحياة أضحى أكثر فأكثر إيلاماً. الجهد الضروري لمواصلة الحياة يتفاقم إيلامه، لأنَّ الشروط الخارجية للمجهود أصبحت مبغضةً أكثر من ذي قبل.

انهيار المُثُل الكلاسيكية جعل من الجميع فنانين مستحيلين، أي، فنانين رديئين. عندما كان معيار الفن هو البناء المتين، والمحافظة الدقيقة على القواعد، لم يكن بمستطاع سوى القلة القليلة محاولة الانتماء إلى عالم الفن، غير أنَّ الغالبية الكبيرة من هذه القلة كانوا فنانين جيدين بالفعل، لكن عندما أصبح الفن تعبيراً عن الأحاسيس، بات في مستطاع أيٍّ كان أن يصبح فنَّاناً لأنّ الأحاسيس يمتلكها جميع الناس.

توازن

الله خير الكون، لكن الشيطان كذلك ليس شريراً. بالرغم من كلّ شيء، التوازن الرومانطيقي أَحْكَمُ من توازن فن القرن السابع عشر في فرنسا.

(عُمر الخيام)

قنط عمر الخيام ليس بقنط مَن لا يعرف ما يفعل، إذ، في الحقيقة، لاشيء يُعرفُ أو يُستطاعُ فعله، ذلك هو قنط أولئك الذين ولدوا ميّتين؛ والذين يلجؤون إلى المورفين أو الكوكايين. قنط الحكيم الفارسي أعمق وأنبل. إنه ضجر مَن اختبر كل الديانات وكل الفلسفات، وقال، مثل سليمان: «إني رأيت الكل باطلاً ومثبطاً للعزيمة» أو كما قال ملكٌ آخر، كان إمبراطوراً فيه، وهو يودّع السلطة والعالم: «لقد كنت الكلّ في الكل، لا شيء يستحق العناء».

الحياة، يقول تاردي[1]، هي البحث عن المُستحيل عبر

---

(1) غابرييل تاردي: سوسيولوجي فرنسي من القرن التاسع عشر.

اللامجدي؛ هذا ما كان ينبغي أن يقوله عمر الخيام. لو أمكنه أن يقول.

من ثم يأتي إلحاح الحكيم الفارسي على استهلاك الخمر. اشرب! اشرب! هي كلّ فلسفته العملية في الحياة. وهو لا يدعو إلى الشراب، فرحاً ولا يأساً. الخمر لديه تمتزج بالفرح، بالفعل، وبالحب؛ وينبغي أن نتنبَّه إلى أنَّ الخيام لا يبدي أي اهتمام بالحيوية أو الحب في أشعاره. وتلك الساقية ذات القوام النحيل الّتي تظهر في الرباعيات (مرات قليلة) ليست بأكثر من «الفتاة التي تقدّم الخمر». الشاعر يبدو ممتناً لرشاقتها مثلما لرشاقة خابية النبيذ.

البهجة تتحدث عن الخمر، مثل. . . Dean Aldrich

الفلسفة العملية للخيام تُختزل، إذن، في أبيقوريةٍ ناعمة، مجردة حتى الحدّ الأدنى من الرغبة في اللذة. إنه يكتفي برؤية الورود وشرب الخمر. نسيمٌ ناعم، محادثةٌ لا موضوع لها ولا غاية، قدحٌ من خمر، بضع زهور، هذا وحده دون سواه هو محط الرغبة القصوى للحكيم الفارسيّ. الحبّ يهيّج ويُتعب، الفعل يبدِّد الطاقة ويؤدّي إلى الإخفاق، لا أحد يحسن المعرفة، والتفكير يرهن كلّ شيء. الأجدر بنا إذن، أن نتوقف عن الرغبة أو التوقع، وعن امتلاك الزهو التافه بتفسير العالم، أو الرغبة الغبية في إصلاحه أو حكمه. الكل لا شيء، أو كما تقول الأنطولوجيا الإغريقية، «الكل ناشئ عن اللاعقل».

معلم الغم والخيبة

سنظلّ غير مكترثين بحقيقة أو أكذوبة جميع الأديان، جميع الفلسفات، جميع الفرضيات القابلة للإثبات بلاجدوى تلك التي

ندعوها عُلوماً. لن يهمنا كذلك مصير ما يسمى الإنسانية، وما تقاسيه أو ما لا تقاسيه في مجموعها. الشفقة، أجل، لأجل «القريب»[1] كما يُقال في الإنجيل. وللإنسان الذي منه يصدر الكلام. ونحن جميعاً هكذا، إلى حدٍّ معين: ما الذي يغمنا، ويغمّ أخيارنا؟ عدد الوفيات في الصين؟ لكن ما يؤلم الجزء الأكثر تخيُّلاً فينا، هو الصفعة الظالمة التي شاهدناها موجهةً إلى طفلٍ في الشارع.

الإحسان مع الجميع، الحميمية مع لا أحد. بهذا يفسر فيتزجرالد في واحدة من ملاحظاته بعضاً من أخلاقية الخيام.

يوصي الإنجيل بمحبة القريب: لا يتحدث عن محبة الإنسان أو الإنسانية، التي لا أحد بإمكانه الانشغال بها.

قد يُطرح التساؤل عمّا إذا كنتُ قد تبيَّنت فلسفة الخيام كما هو شأني هنا لأنني كتبتها من جديد مؤولاً إياها. سأجيب بأنني لا أدري. تأتي عليّ أيام تبدو لي فيها تلك الفلسفة هي المثلى، وحتى الفريدة بين كل الفلسفات العلمية. ثم تأتي أيامٌ أخرى تبدو لي فيها باطلة، ميتة ولامُجدية، مثل كوبٍ فارغ. لا أتعرّفُني، لأنني أفكر. ما كنت هكذا لو امتلكت الإيمان؛ كذلك ما كنت لأكون على هذا النحو لو كنت مجنوناً. للحقيقة، لو كنت آخر. لكنت آخر.

فيما وراء أشياء العالم الدنيوي هذه، توجد، بالتأكيد الدروس السرية للنُّظم الأولية، الغوامض الجلية، التي تجسدها، سريةً أو معلنةً، الطقوس العمومية. ثمة ما هو خفيّ أو نصف خفيّ في الطقوس الكاثوليكية الكبرى، سواء في شعائر مارية في الكنيسة الرومانية، أو في شعائر روح القدس في الحركة الماسونية.

---

(1) يقصد ذاته هو.

قال سبنسر إنَّ ما نعرفه عبارة عن محيط كلما ازداد توسعاً، غدا متصِّلاً في نقاط كثيرة بما لا نعرفه. لا أنسى، في هذا الفصل ما يمكن أن يمدّنا به التعليم والاطِّلاع. لا أنسى أيضاً الكلمات المرعبة لأحد معلمي السحر: «لقد رأيت إيزيس»، قال، «لمست إيزيس: لا أدري، مع ذلك، إن كانت موجودة».

الشاعر الفارسي معلّمُ الغمِّ وزوال الأوهام.

الإيمان هو غريزة الفعل.

خارج المُخطط

لقد حدث لي أكثر من مرة لدى تجوالي المتأنّي في شوارع المساء، أن رجّ روحي بعنف مباغت ومكدِّر، الحضور الشديد الغرابة لنظام الأشياء. ليست الأشياء الطبيعية هي ما يؤثر فيّ ويثير فيّ هذا الإحساس: بالعكس، تخطيطات الشوارع، اللافتات، الأشخاص بلباسهم وأحاديثهم، الوظائف، الجرائد، الذكاء الكامن في كلّ شيء. أو بعبارةٍ أفضل، مسألة وجود تصاميم الشوارع، اللافتات، الوظائف، الناس، المجتمع، والكلّ متفاهم ومستمرّ ويفتح طرقاً متواصلة.

أتوقّف عند الإنسان مباشرة، فأراه عديم الوعي مثل كلبٍ أو قط؛ يتكلم انطلاقاً من لاوعي من نمطٍ آخر؛ يتموضع في المجتمع بناء على لاوعي ينتمي إلى نظامٍ آخر أدنى بكثير من ذلك الذي يستخدمه النمل أو النحل في حياته الاجتماعية. وحينئذٍ، يتكشَّف لي، بواسطة نورٍ جليّ، الذكاء الذي يخلق ويميز العالم، أبعد من وجود الأنظمة والقوانين الصارمة الفيزيقية أو الذهنية.

وتستثيرني حينئذٍ، ودائماً كلما كان إحساسي من هذا الطراز،

العبارة القديمة التي تقول: الله هو روح المتوحشين. هكذا عرف مؤلف العبارة العجيبة، كيف يفسّر اليقينية التي تقود بها الغريزة حيوات الحيوانات الدنيا، التي لا يلاحظ لديها أي ذكاء، أو بعض أماراته فقط. لكننا جميعاً حيواناتٌ دَنِيَّةٌ - الكلام والتفكير ليسا بأكثر من غريزتين جديدتين، أقلّ يقينية من الغرائز الأخرى لأنهما جديدتان. أمّا العبارة القديمة للسيكولائي فتتوسّع لتصير: الله روحُ كلّ شيء.

لم أستطِع أن أفهم أبداً كيف يمكن لمن أعار كل اعتبار لمصنع الساعات الكوني الهائل هذا أن ينكر وجود الساعاتي الذي لم ينكر حتى فولتير نفسه وجوده. أفهم، بالنظر إلى وجود جوانب معينة محرّفة ظاهرياً في مخططٍ ما (تنبغي معرفة المخطط بدقة لنعرف إن كانت فعلاً محرّفة) أن يكون جانب من جوانب النقص آتياً من ذلك الذكاء الأعلى. ذلك ما أفهمه، وإن لم أوافق عليه. أفهم بالنظر إلى الشرّ الموجود في العالم، حتى الحدّ الذي لا يمكن القبول معه بوجود الخير اللانهائي لذلك الذكاء الخالق. هذا ما أفهمه، وإن كنتُ لا أقبله. لكن إنكار وجود ذلك الذكاء، ذكاء الله، يبدو لي من قَبيل ذلك التبلُّد الذي كثيراً ما أَمَضَّ جانباً من ذكاء رجال يمكن أن يكونوا متفوّقين في كلّ الجوانب الأخرى، مثل أولئك الذين يخطئون دائماً في عمليات الجمع، أو أولئك الذين لا يتذوّقون الموسيقى، أو الرسم، أو الشعر.

لا أقبل، قلت، لا بمعيار الساعاتي الناقص، ولا بالساعاتي المُفتقر إلى الدقة. لا أقبل بمعيار الساعاتي الناقص لأن تلك التفاصيل المتعلقة بضبط سيرورة العالم، والتي تبدو لنا عبارة عن فلتات وانحرافات لا يمكن أن نعرفها كما هي حقاً بدون معرفةٍ

بالمشروع. نرى المشروع المخطّط بوضوح بكلّ جوانبه؛ نرى أشياء كثيرة تبدو لنا غير مبرّرة، لكن المبرِّر والباعث موجودان بفضل الفحص والتحرّي. لذلك نحن نرى الباعث أو المبرِّر ولا نرى المخطط؛ فكيف سنقول، حينئذٍ، بأنّ أشياء كثيرة توجد خارج المشروع الذي لا نعرف ما هو؟ وهذا يشبه حالة شاعر إيقاعات مرهف يمكن أن يقحم بيتاً ناشزاً إيقاعياً لغاياتٍ إيقاعية خالصة، أي للغاية نفسها التي يبدو أنه انزاح عنها، ولا شك أنَّ ناقداً شديد الاستقامة والصفائية سيعدّ ذلك البيت خطأ عروضياً، كذلك بإمكان الخالق أن يقحم ما يعتبره (إدراكنا) الضيق مُفتقراً إلى الاتساق في السيرورة الجليلة لإيقاعه الميتافيزيقي.

لا أقبل، قلت، بمعيار الساعاتي المُفتقر إلى الدقة. أوافق على أنه برهانٌ يصعب الجواب عليه، لكن ظاهرياً فحسب. لنقل إننا لا نعرف جيداً ما هو الشر، ولا نستطيع لذلك الجزم بأنّ هذا الشيء شرّ أو خير. الأكيد، مع ذلك، هو أنَّ الألم ولو كان فيه منفعةٌ لنا، هو شر في ذاته، وهذا وحده كافٍ لكي يكون الشر موجوداً في العالم. يكفي أن نُصاب بوجع الأضراس لكي نكف عن الإيمان بطيبة الخالق. والآن حسناً، الخطأ الجوهري لهذا البرهان يبدو كامناً في جهلنا الكامل بمخطط الله، وفي جهلنا الكامل أيضاً بما يمكن أن تكونه كينونة اللانهائي الذهني، كشخصيةٍ ذكية. هنالك أمران، وجود الشرّ من جهة، ومبرِّر ذلك الوجود من جهةٍ أخرى. التمييز بينهما دقيقٌ جداً إلى حدّ أنه يبدو سفسطائياً، لكن الأكيد أنه صحيح. وجود الشر لا يمكن إنكاره، لكن شرّ وجود الشر يمكن ألّا يكون مقبولاً. أعرف أنَّ المشكلة قائمة لأنَّ نقصنا قائم.

في الظل

آه، إنه لخطأٌ جسيم ذلك التمييز الذي يصطنعه الثوريون بين البورجوازيين والشعب، أو بين النبلاء والشعب، أو بين الحاكمين والمحكومين. الفرق موجودٌ بالفعل بين المندمجين وغير المُندمجين، وما تَبقّى محضُ أدبياتٍ رديئة. المتسول بإمكانه، إنْ كان مندمجاً أن يصبح ملكاً غداً، غير أنه يفقد بذلك فضيلة أن يكون متسولاً. لقد تخطى الحدود فضيّع الهوية.

إنني أتسلى بهذه التأملات في هذه المكتب الضيق، الذي تطلّ نوافذه السيئة التنظيف على شارعٍ لا يثير البهجة. أتسلى، لأنّ لدي إخواناً هم خالقو وعينا بالعالم - المسرحي الملفّق وليم شكسبير، معلم المدرسة جون ميلتون، الجوال دانتي أليجيري، (. . .)، وحتى - إذا أسعفني الاستشهاد - ذلك اليسوع الذي لم يكن شيئاً مذكوراً في العالم، إلى حدّ أنَّ التاريخ يشكِّك في وجوده. الآخرون هم من نوعيةٍ أخرى - مستشار الدولة جوهان وولفغانغ غوته، السناتور فكتور هوغو، الزعيم لينين، الزعيم موسوليني.

نحن، في الظل، وسط الحمالين والحلاقين نبني الإنسانية.

من ناحية ثمة الملوك بجاههم، الأباطرة بمجدهم، النوابغ بشهرتهم، القديسون بهالتهم، زعماء الشعب بهيمنتهم، العاهرات، الأنبياء والأغنياء. . . ومن ناحيةٍ أخرى نوجد نحن - حمال تلك الزاوية، المسرحي المسفسف وليم شكسبير، حلاق النوادر، معلم المدرسة جون ميلتون، صبي الدكان، الجوال دانتي أليجيري، الذين ينساهم الموت أو يكرسهم وإن كانت الحياة قد نسيتهم بدون أن تكرِّسهم.

المُحيط هو روح الأشياء. لكلّ شيء تعبير خاص به يأتيه من خارجه.

كل شيء هو عبارة عن تقاطع ثلاثة خُطوط، وتلك الخطوط الثلاثة هي التي تشكل ذلك الشيء: كمية معينة من المادة، الكيفية التي نؤولها بها، والمجال الذي توجد فيه. هذه الطاولة، التي أكتب عليها، هي قطعةٌ من خشب، هي طاولة، وهي أثاث من ضمن أثاث هذه الغرفة. انطباعي عن هذه الطاولة، إن شئتُ وصفها، يجب أن يكون مكوّناً من مفاهيم: كونها خشباً، وكوني أسميه كذلك طاولة وأنيط بها وظائف وغايات معينة. ومن حيث كون الأشياء في جوارها الذي يملك روحاً خارجية تنعكس وتندمج وتمنحنا التحوّل والتغيّر. وحتى اللون الذي منح لها وانحلال ذلك اللون، واللطخات والكُسور التي لديها - كل ذلك، جاءها من خارجها، وهو الذي يهبها الروح أكثر من مادتها الخشب. وما هو حميم في تلك الروح، وهو كونها خشباً، أُصبغ عليها من خارج كذلك، وهو الشخصية المميزة لها كطاولة.

أعتقد، إذن، ألّا وُجود لخطأ بشري، ولا أدبي، في إسنادنا الروح إلى الأشياء التي ندعوها جامدة. كون الشيء شيئاً معناه أن يكون موضوعاً لإسناد. قد يكون مغلوطاً قولنا أنَّ الشجرة تحسّ، والنهر يجري، والغُروب حزين أو البحر هادئ. لكننا نرتكب المُغالطة نفسها عندما ننسب الجمال إلى الأشياء. عندما ننسب اللون، والشكل إلى الأشياء ولو مصادفة. هذا البحر ماءٌ مالح. هذا الغُروب هو بداية نقصان نور الشمس في هذا الطول والعرض. هذا الطفل الذي يلعب أمامي، هو تراكمٌ ذهني لخلايا معينة - لكنه عبارةٌ

عن مصنع ساعات من حركات فوق ذرية، كتلةٌ غريبة كهربائية من ملايين الأنظمة الشمسية في منمنمةٍ مصغّرة.

الكل يأتي من الخارج والروح الإنسانية نفسها ليست بالمصادفة غير شعاع الشمس الذي يسطع منفصلاً عن التراب حيث يرقد ركام الروث الذي هو الجسد.

توجد في هذه التأملات فلسفةٌ كاملة، لمن استطاع امتلاك القُدرة على استخلاص النتائج. أنا لا أملك تلك القُدرة، تعنّ لي أفكار لطيفة غامضة، ذات إمكانات منطقية، ثم تتلاشى جميعها في رؤية شعاع شمس يذهّب روثاً شبيهاً بتبنٍ معتم مسحوق برطوبة، في التراب الأسود تقريباً، بجانب سور الأحجار.

أنا هكذا. عندما أريد التفكير، أرى. عندما أريد النزول إلى روحي، أبقى متوقفاً بغتة، منسياً، في بداية السلم الحلزوني العميق، ناظراً من نافذة الطابق العالي إلى الشمس التي تبلّل التكتل المبعثر للسطوح.

1930-4-6

أحياناً أخرى

لقد بدت لي الميتافيزيقا دائماً شكلاً ممدّداً من جنونٍ مستتر. لو عرفنا الحقيقة، لأبصرناها؛ والباقي كله منظومة وضواح. لو أمْعَنَّا التفكير لاكتفينا باستحالة فهمنا للكون؛ أن أرغب في فهمه معناه أن أغدو أقل من إنسان، كوني إنساناً يعني أن أعلم أنَّ الكون غير قابلٍ للفهم.

يقدمون الإيمان لي كحزمةٍ مقفلة في قصعةٍ غيرية. يريدون مني أن أقبل التقدمة، لكن لا يريدون لي أن أفتحها. يحملون العلم إلي،

كسكين في صحن، سأفتح به أوراق كتاب بصفحاتٍ بيضاء. يحملون الشك إليّ، مثل غبرةٍ في علبة، لكن لماذا يأتونني بالعلبة وهي لا تحوي سوى الغبرة؟

لعدم توافر المعرفة، أكتب؛ وأستعمل المصطلحات الكبرى لل/ الحقيقة الغيرية/ مستسلماً لمتطلبات الإحساس. إذا كان الإحساس جلياً وحتمياً، أتحدث، بالطبع، عن الآلهة، فأنا بذلك أؤطّره ضمن الوعي بالعالم المتعدِّد. إذا كان الإحساس عميقاً، أتكلم، بالطبع، عن الله، فأنا بذلك أمَوْضعه في وعيٍ وحيد مفرد. إذا كان الإحساس تفكيراً، أتكلم، طبعاً، عن القدر، فأنا بذلك أسنده إلى الحائط.

أحياناً، إيقاع العبارة نفسه سيستلزم آلهة متعددين وليس إلهاً واحداً؛ أحياناً أخرى سيفرض المقطعان اللفظيان لـ الآلهة نفسيهما، فأبدّل الكون شفهياً حينئذٍ؛ أحياناً أخرى أزن ضرورات قافيةٍ باطنية، أتملى تفكّك الإيقاع، اضطراب الانفعال، فإذا بالشرك أو التوحيد مقولب ومفضّل. تصبح الآلهة مسألة أسلوبٍ وحسب.

1930-5-6

غيمةٌ فوق القمر

كثيرون عرفوا الإنسان، تعريفات تضعه في تعارضٍ مع الحيوان. وفي هذه التعريفات يكثُر ورود استخدام العبارة «الإنسان حيوان». . . «الإنسان حيوانٌ مريض»، قال روسو. وهو على حقّ في قسم معين «الإنسان حيوانٌ متعقّل»، تقول الكنيسة، وهي محقة في جانبٍ معين. «الإنسان حيوانٌ يستخدم أدوات»، يقول كارلايل، وهو محقٌّ كذلك في جانبٍ معين، لكن هذه التعريفات، وما

يشاكلها، هي ناقصة وجانبية دائماً. والسبب بسيطٌ جداً: ليس من السهل تمييز الإنسان عن الحيوان، لا يوجد مقياسٌ أكيد لتمييز الإنسان عن الحيوانات. الحيوات الإنسانية تمضي في اتجاه اللاوعي الباطني نفسه الذي تسير وفقه حيوات الحيوانات. القوانين العميقة نفسها التي تحكم من خارج، غرائز الحيوانات تحكم من خارج كذلك، الذكاء الإنساني، الذي يبدو أنه ليس بأكثر من غريزةٍ قيد التشكُّل، لاواعية تماماً مثل كلّ غريزة...

«الكل يأتي من الظلم»، تقول الأنطولوجيا الإغريقية. وفي الحقيقة، كل شيء من الظلم. خارج الرياضيات التي لا علاقة لها سوى مع الأرقام الميتة والمعادلات الفارغة، ولذلك بإمكانها أن تكون منطقيةً تماماً، خارج ذلك ليس العلم سوى لعب أطفال في الشفق، رغبة في الإمساك بظلال طيور وإيقاف ظلال عشبٍ في الريح.

وإذا لم يكن من السهل العثور على الكلمات التي يمكن أن نُعرِّفَ بها الإنسان ككائنٍ مختلف عن الحيوان، فإنّ من السهل، مع ذلك، - وهنا وجه الغرابة والطرافة - إيجاد الطريقة التي نفرِّق بها بين الإنسان الأعلى والإنسان العامي.

لم أنسَ قط عبارة هايكل، العالم البيولوجي، التي قرأتها في طفولة ذكائي، في الفترة التي يكثر فيها الإقبال على قراءة «الحقائق العلمية» المضادة للدين. هي ذي العبارة أو تكاد: الإنسان الأعلى (عن كانط يتحدّث أو عن غوته فيما أظنّ) بعيد جداً عن الإنسان العاميّ أكثر من بعده عن القرد. لم أنسَ قط العبارة لأنها صائبة. يوجد بيني وأنا دون المفكرين رتبة، وبين قرويٍّ من لاوريس، بلاشك مسافةٌ أكبر ممّا بين ذلك القروي وقطٍّ أو كلب - حتى، لا

أقول قرد - ما من أحدٍ منا، من القط حتى إليّ أنا نفسي، يملك فعلاً الحياة المفروضة عليه، أو المصير الذي كتب له؛ نحن جميعاً مشتقّون ممّا لست أدري، ظلال حركات مصنوعة من شيءٍ آخر، أفعال مجسّدة، تبعاتٌ تملك إحساساً: لكن بيني وبين القروي يوجد فارقٌ في النوعية، ناشئٌ عن امتلاكي للتفكير المجرّد والعاطفة اللامبالية؛ وبينه وبين القط لا يوجد، على مستوى الروح، غير فارقٍ في الدرجة.

الإنسان الأعلى يتميز عن الإنسان الأدنى، والحيوانات المؤاخية له ببساطة، بامتلاكه ميزة التهكُّم.

التهكم هو العلامة الأولى على أنَّ الوعي أصبح واعياً. والتهكُّم يجتاز ملعبين: الملعب المميز بقولة سقراط «أعرف فقط أنني لا أعرف شيئاً»، والملعب المميز بقولة **سانشيز**[1] «لا أعرف إنْ كنت لا أعرف شيئاً». الخطوة الأولى تصل إلى تلك النقطة التي نشكّ فيها في أنفسنا شكاً يقينياً، وكلّ إنسانٍ أعلى يقوم بتلك الخطوة ويصل إلى تلك النقطة. الخطوة الثانية تصل إلى تلك النقطة التي نشكّ فيها في أنفسنا وفي شكنا نفسه، وقليلٌ من الرجال وصلوا إلى تلك النقطة في التمدُّد القصير/ الطويل للزمن، الذي رأينا فيه الليل والنهار يتعاقبان على السطح المتبدّل للأرض.

أن تعرف نفسك معناه أن تضلّ وتهيم، والداعي النبوئي الذي قال: «اعرف نفسك» عرض علينا أشغالاً شاقة أفدح من تلك التي

---

(1) فرنسيسكو سانشيز (1562-1632): برتغالي، كان أستاذاً في جامعة تولوز بفرنسا. كتب عدداً من المؤلفات، من بينها *Quod Nihil Scitur*، الذي يبدو أن بيسوا يشير إليه.

ألقيت على كاهل هرقل، ولغزاً أكثر غُموضاً من لغز أبي الهول. أن تتجاهل نفسك، عن وعي، ذلك هو السبيل الوحيد. تجاهل الذات ضميرياً هو الاستخدام الفعال للتهكُّم. لا أعرفُ شيئاً أكبر، ولا أكثر خصوصية وملاءمة للإنسان الكبير حقاً، من التحليل المتأني للوعي المُلابِس لوعينا، لميتافيزيقا الظلال المستقلة بذاتها، لشعرية غسق انجلاء الأوهام.

لذلك دائماً ثمة شيء يخدعنا، ينفلت منا، دائماً يتأكّلنا تحليل ما، دائماً توجد الحقيقة، ولو كانت زائفة، أبعد قليلاً من الزاوية الأخرى. وهذا هو الذي يرهقنا أكثر ممّا ترهقنا الحياة، التي يتخلى أبداً عن إرهاقاتنا تأملنا إياها ونهمنا اللامُجدي إلى معرفتها. أنهض من الكرسي حيث تسليت بسرد هذه الانطباعات اللامنتظمة لنفسي وحدها. أنهض، وأتجه نحو النافذة، العالية فوق السطوح، من حيث يمكنني أن أشاهد المدينة وهي تذهب للنوم في بدايةٍ بطيئة للسكون. القمر بدرٌ مكتمل، ذو بياضٍ ناصع، يكشف بكآبة الفوارق بين المنازل المحتشدة. وضوء البدر يبدو وكأنه يكشف سرّ العالم كله، والكلّ عبارةٌ عن ظلالٍ مختلطة بنورٍ رديء، فواصل زائفة، لامعقولة. ثمة اختلالاتٌ فيما هو مرئي. لا يوجد نسيم، ويبدو أنَّ السر أكبر ممّا يظن. أشعر بغثيانات في التفكير المجرد. لم يسبق لي أن كتبت قطّ صفحة تكشفني أو تكشف شيئاً. ثمة غيمةٌ خفيفة جداً تسبح فوق البدر مثل مخبأ. جاهلٌ أنا، مثل هذه السطوح. لقد أخفقت، مثل الطبيعة بتمامها[1].

---

(1) نُشر هذا الانطباع في *Presença*، المجلد 2، العدد 32، نوفمبر 1931، ص 8، موقّعاً باسم فرناندو بيسوا ومنسوباً إلى برنارد سوارش.

الزرقة تعاود الظُّهور

النهار كله، بكلّ ما حملته غيومه الخفيفة والدافئة من أسى، كان مملوءاً بأخبار اندلاع الثورة. هذه الأخبار، صحيحة كانت أم زائفة. تشحنني دائماً بيأس خاص، مزيج من احتقار وغثيان فيزيقي. أحسّ بألم مباشر في الذكاء من جراء إيمان البعض بإحداث تغيير ما بواسطة الشغب والتهيّج. العنف، كيفما كان نوعه، كان دائماً بالنسبة إليّ شكلاً مُنْحَلّاً للبلادة الإنسانية. علاوة على ذلك، جميع الثوريين بلداء مثل جميع الإصلاحيين الأقل إزعاجاً وبلادة.

سواء تعلق الأمر بثوري أو بإصلاحي، فالخطأ دائماً هو نفسه. الإنسان بسبب عجزه عن السيطرة على حياته الخاصة وإصلاحها يهرب إلى الرغبة في تغير الآخرين وتبديل العالم الخارجي. كل ثوري، كل إصلاحي هو إنسان هارب من ذاته. أن تحارب معناه أنك عاجز عن محاربة ذَاتِكَ. أنْ تحاول الإصلاح يعني أنك غير قادر على إصلاح نفسك.

الإنسان ذو الحساسية الصحيحة والإدراك السليم، إذا ما انشغل بالشرّ والظلم الموجودين في العالم، يبحث طبعاً عن تغييرهما، أولاً في أقرب من يتجليان فيه لديه، وسيجده متجلياً في كينونته الخاصة، وهو ما سيجعل عمله الإصلاحي لذاته يستغرق حياته كلها.

الكلّ يتوقف، بالنسبة إلينا، على مفهومنا عن العالم؛ تغيير تصوّرنا عن العالم هو تغيير العالم بالنسبة إلينا، هذا العالم الذي لن يكون أبداً بالنسبة إلينا غير ما هو كذلك بالنسبة إلينا. ذلك الصدى الباطني الذي بمقتضاه نكتب صفحة سلسة، وجميلة، ذلك الإصلاح الحقيقي الذي بواسطته نجعل حياتنا الميته حية - تلك الأشياء هي الحقيقة، حقيقتنا نحن، الحقيقة الوحيدة. كل ما تبقى في العالم هو

مجرد مشاهد، إطارات تؤطر أحاسيسنا نحن، تجليدات لما نفكر فيه. وهو كذلك بالفعل، سواء أكان المشهد الملون للأشياء والكائنات - الحقول، المساكن، الملصقات والبدلات - أو المشهد العديم اللون للأرواح المضجرة، والذي يصعد للحظة إلى سطح الكلمات الشائخة والحركات المستنفدة، وينزل مرة أخرى إلى أعماق البلادة الأساسية للتعبير الإنساني.

الثورة؟ التغيير؟ ما أريده شخصياً في الحقيقة، بكلّ حميمية الروح، هو أن تزول الغيوم الواهنة التي تغسل السماء بالرمادي؛ ما أريده هو أن أرى الزرقة تعاود الظهور بينهن، تلك هي الحقيقة الأكيدة والواضحة ولا شيء سواها...

1931-4-8

تحت المظلة

لو تأملتُ بتأنٍّ الحياة التي يحياها الناس، لما وجدتُ فيها اختلافاً عن الحياة التي يحياها الحيوان. هؤلاء وأولئك مقذوفون بلا وعي إلى أشياء هذا العالم؛ كِلا الطرفين يتسلى بالمسافات؛ كلاهما يقطع يومياً المسار العضوي نفسه؛ كلاهما لا يفكر في ما هو أبعد ممّا يفكر فيه، ولا يعيش أبعد ممّا يعيش. القط يتمرغ أمام الشمس وينام هناك. الإنسان يتمرغ في الحياة بكل تعقيداته، وهنالك ينام. لا أحد من الطرفين يتحرَّر من القانون الحتمي للكينونة التي يوجد فيها. لا أحد يحاول أن يرفع عنه ثقل كونه موجوداً. الممتازون من الناس يحبّون المجد، لا كما يحبون خلوداً خاصاً، ولكن كما لو كانوا يحبّون خلوداً مجرّداً، ربما ليسوا طرفاً مساهماً فيه.

تقودني، هذه التأملات المتواترة عندي، إلى إعجابٍ مباغت

بذلك النوع من الأفراد الذين يمقتونني غريزياً. أعني المتصوّفة والزهاد ومَن شاكَلَهم من كلّ الأعمدة. هؤلاء يحاولون بالفعل، ولو في المجرد، التحرّر من القانون الحيواني. هؤلاء يحاولون بالفعل ولو بالجُنون رفض قانون الحياة، والانبطاح أمام الموت بدون التفكير فيه. ويجدّون في البحث، وإن متوقفين بأعلى العمود؛ متطلعون راغبون، وإن في زنزانةٍ لا ضوء فيها؛ يريدون ما لا يعرفون، وإن بالاستشهاد المُعار والمرارة المفروضة.

جميعنا، نحن الذين نحيا كحيوانات أكثر أو أقل تعقيداً، نجتاز الخشبة نفسها كممثلين صامتين، مسرورين بالجلال الفارغ للمسار الذي نجتاز. جميعنا كلاباً ورجالاً، قططاً وأبطالاً، براغيث وعباقرة، نلعب بالوُجود، بدون أن نفكر في ذلك (أفضلنا يفكر في التفكير فقط) تحت الهُدوء الهائل للنُّجوم. الآخرون - متصوفو أيام الشدة والتضحية - يحسون على الأقل، بالجسد وباليومي، بالحُضور السحري للسرّ. إنهم أحرار لأنهم ينكرون الشمس المرئية، إنهم ممثلون لأنهم تخلّصوا من خواء العالم.

إنني تقريباً متصوفٌ معهم، لدى حديثي عنهم، غير أنني عاجزٌ عن أن أكون أكثر من هذه الكلمات المكتوبة بطعم ميلي العرضي. سأظلّ دائماً رجل شارع Dos Douradores، مثل الإنسانية جمعاء. سأكون دائماً، في الشعر أو النثر، مستخدم مكتب. دائماً سأكون، في المتصوف وغير المُتصوف، محلياً وعبداً خاضعاً لأحاسيسي وللساعة التي أمتلكهن فيها. سأكون دائماً، تحت المظلة الزرقاء الكُبرى للسماء الخرساء، مجرّد خادمٍ في شعيرةٍ غير مفهومة، يرتدي لباس الحياة لكي يقوم بأداء الشعيرة، ثم يؤديها، بدون أن يعرف لماذا، حركات وخطوات، أوضاعاً وطرائق، حتى ينتهي الحفل، أو

ينتهي دوري فيه، فأستطيع الذهاب لتناول أشياء الحفل في الأكواخ الكبيرة الواقعة، حسبما يقولون، هنالك في الأسفل، في عمق الحديقة.

1931-6-18

ويهطل المطر

منذ أمكنني الاكتفاء بتأمّل وملاحظة الأشياء، انتبهتُ إلى أنَّ الناس لا يعرفون شيئاً عن الحقيقة، أو أنهم متفقون، على أنَّ مَن يعيش الحقيقة ينبغي أن يكون في الواقع هو الأسمى والأكثر انتفاعاً. العلم الأصح هو الرياضيات التي تعيش داخل سجن قواعدها وقوانينها الخاصة؛ أجل، إنها تصلح، تطبيقاً، لتفسير علوم أخرى، لكنها تفسّر ما تكشفه تلك العُلوم، ولا تساعدها على اكتشافها. في باقي العلوم الأخرى لا يعدُّ يقينياً ومقبولاً إلا ما لا يؤثر على الأهداف العليا للحياة. الفيزياء تعرف جيداً مُعامل تمدّد الحديد؛ لكنها لا تعرف ما هي الحقيقة الميكانيكية لتكوين العالم.

وكلما ازداد صعودنا فيما نرغب في معرفته، ازداد انحدارنا فيما نعرفه. الميتافيزيقا، التي ستغدو الدليل الأعلى، لأنها هي وحدها المتَّجهة صوب الأهداف العليا للحقيقة وللحياة - ليست نظريةً علمية، بل مجرّد ركام من لبنات تشكّل، في هذه الأيدي أو تلك، بيوتاً لا شكل لها ولا بلاط يوحّدها.

ألاحظ كذلك ألّا فرق بين حياة الإنسان وحياة الحيوان سوى في الطريقة التي ينخدع ويجهل بها كل طرف. الحيوانات لا تعرف ما تفعل: تولد، تنمو، تحيا، تموت بدون تفكيرٍ منعكس أو مستقبلي حقاً. كم من أناسٍ يحيون، مع ذلك، بطريقةٍ مختلفة عن الحيوانات؟

جميعنا ننام، بشراً وحيوانات، والفارق موجودٌ فقط في الأحلام، وفي درجة ونوعية الحلم. ربما يوقظنا الموت، لكن لا يوجد جواب بالنسبة إلى هذه المسألة، إلّا الجواب الذي يقدِّمه الإيمان، لدى من يُعد الإيمان عنده امتلاكاً لما يؤمن به؛ والجواب الذي يقدِّمه الأمل، بالنسبة إلى من يعتبر ما يتمناه كأنما في متناول اليد؛ والجواب الذي يهبه الإحسان، بالنسبة إلى مَن يعتبر الأخذ عطاء.

المطر مُتواصل، في هذا المساء الشتائي الحزين، كما لو أنه ظلّ يهطل هكذا برتابة، منذ الصفحة الأولى من كتاب العالم. يهطل المطر فيما أحاسيسي، كما لو أنَّ المطر يخمدها تتخطى منظره الوحشي صوب أرض المدينة، حيث ثمة ماء يجري، وبدون أن يغذي شيئاً، بدون أن يغسل شيئاً، بدون أن يبتعث أي مسرة. ويهطل المطر، وأنا أشعر فجأةً بضيقٍ شاسع من كوني حيواناً لا يعرف ما هو، حيواناً يحلم الفكر والإحساس، خجولاً، مثل كوخ، في جهةٍ فضائية من الكينونة، مسروراً بدفءٍ صغير كما لو بحقيقةٍ أزلية.

1932-12-13

اليقين نفسه، الالتباس نفسه

في كل روحٍ إنسانية، ما لم تكن مشوهة، يوجد الإيمان بالله. في كل روحٍ إنسانية غير مشوّهة لا يوجد إيمان بإلهٍ معيّن. ذلك أنه، موجوداً كان أم مستحيل الوُجود. هو الذي يتحكّم في كل شيء؛ وشخصه، إن كان مشخصاً، لا أحد باستطاعته تعيينه؛ وغاياته، ليس بمقدور أحدٍ إدراكها. وبتسميتنا إياه الله نقول كل شيء، بدون أن نقول أي شيء، لعدم امتلاك كلمة الله لأيّ معنى محدد. إنَّ صفات الأزلي، الكلي القدرة، المطلق العدل والخير التي نلصقها به أحياناً

تَنفكُّ عنه من تلقاء ذاتها مثل كلّ الصفات غير الضرورية لموصوفٍ مكتف بذاته. وهو نفسه الذي لا نستطيع، لكونه لا متعيناً، أن نمنحه صفات معينة، هو الموصوف المطلق للسبب نفسه.

اليقين نفسه، والأسباب نفسها موجودان بخصوص حياة الروح. جميعنا نعلم أننا سنموت؛ جميعنا نحسّ أننا لن نموت. لا الرغبة، ولا الأمل ما يحمل إلينا تلك النظرة إلى العتمة، عتمةُ كون الموت عبارة عن سوء فهم: / إنه تفكير/ منطقٌ مصنوعٌ من الأحشاء، يرفض (. . .).

ذلك ما قلت

لا شيء يكدرني ويثير استحيائي كثيراً مثل الكلمات الاجتماعية ذات الحمولة الأخلاقية، مجرد كلمة «واجب» تبدو لي مزعجة جداً مثل متطفل، لكن مسألة كوننا مطوَّقين بـ«واجب المواطنة» و«التضامن» «الشعور الإنسانوي» تفرقني مثل أوساخ تلقى عليّ من النوافذ، أشعر بالإهانة من مجرد افتراض أنَّ أحداً بإمكانه أن يجعل مصادفة، من تلك التعبيرات ممتلكةً لشيء ما له علاقةٌ بي، وأنْ يجد لها لا قيمة فقط، ولكن حتى مجرّد معنى.

لقد رأيت منذ قليل، في واجهة متجرٍ للعب، أشياء ذكَّرتني بالضبط بحقيقة تلك التعبيرات. رأيت، في بعض الصحون المصطنعة، أطعمة مصطنعة لموائد الدمى. الإنسان كما هو، الشهواني، الأناني الفارغ، صديق الآخرين لأنه يمتلك هبة الكلام، عدو الآخرين لأنه يملك هبة الحياة. ما الذي يمكن أن نقدمه لذلك الإنسان لكي يلهو مع الدمى بكلماتٍ خالية من الصوت والتنغيم؟

الحكم، أي حكم يتأسَّس على أمرين: القمع والخداع. الشر

الكامن في هاتين الكلمتين المغطاتين بالبروق يتمثل في أنهما لا تقمعان ولا تخدعان، بل تسكران، على الأكثر، وذلك شأنٌ آخر.

إنْ كنت أكره شيئاً، فالمصلح أكره. المصلح هو إنسان يبصر الشرور السطحية للعالم فيسعى إلى علاجها مفاقماً من خطورة الشرور الأساسية. الطبيعي يسعى إلى المُلاءمة بين الجسم المريض والجسم الصحيح؛ لكننا نحن لا نعرف ما المريض وما السليم في الحياة الاجتماعية.

لا أستطيع اعتبار الإنسانية سوى كونها شبيهةً بآخر مدارس الرسم التزييني للطبيعة. لا أفرق جوهرياً، بين رجلٍ وشجرة؛ ومن ثم، أفضِّل الأكثر زخرفية، أفضِّل الأكثر إثارةً للاهتمام بالنسبة إلى عيني المفكرتين. لو أنَّ الشجرة تهمّني أكثر، لأحزنني قطع شجرة أكثر من موت إنسان، بعض أشكال اختفاءات الغُروب تؤلمني أكثر ما تؤلمني ميتات الأطفال. إنني الشخص الذي من أجل أن يحسّ لا يحسّ بأيّ شيء.

تقريباً أشعر بالذنب من كتاباتي لأنصاف التأملات هذه، في هذه الساعة التي يصعد فيها من تخوم المساء نسيمٌ خفيف ملون، لا، ليس هو الذي يتلون، بل الهواء الذي يجدف فيه على غير هُدى؛ لكن، كيف تهيأ لي أنَّ النسيم هو نفسه الذي يتلون، ذلك ما قلت، إذ قسراً قلت ما بدا لي، بما أنني أنا الذي قال.

اللاعب الأكبر

العالم مخلوقٌ لمن لا إحساس له. الشرط الجوهري لوجود إنسانٍ عملي يتمثل في غياب الإحساس. النمط الأساسي لممارسة الحياة هو ذلك النمط الذي يقود إلى الفعل، أي، إلى الإرادة.

والآن حسناً، الأمران اللذان يضايقان الفعل هما الحساسية والتفكير التحليلي، الذي ليس في نهاية الحساب، غير التفكير بحساسية. كل فعل، بالنظر إلى طبيعته ذاتها، هو إسقاطٌ للشخصية على العالم الخارجي، ولأن العالم الخارجي مكوّن في القسم الأكبر والرئيس من كائناتٍ بشرية، نستنتج أنَّ ذلك الإسقاط للشخصية إنَّما هو جوهرياً عبورنا إلى طريق الغير، مضايقتنا، تجريحنا ودَوْسنا على الآخرين، وفقاً لطريقتنا في الفعل.

من الضروري، إذن، لكي نفعل، ألّا نندمج بسهولة مع الشخصيات الغيرية، آلامها وأفراحها. مَن يتعاطف مع الغير يتعطل. إنسان الفعل يعتبر العالم الخارجي مركّباً فقط من مادةٍ جامدة - أو جامدة في ذاتها. مثل حجرٍ نمرّ به أو نبعده عن طريقنا...

المثال الأقصى للرجل العملي، هو الاستراتيجي، لأنه يجمع بين التركيز الأقصى للفعل وأهميته القصوى. الحياة كلها حربٌ متواصلة، والمعركة هي، إذن تركيب الحياة. الاستراتيجي هو رجلٌ يلعب بالحيوات كما يفعل لاعب الشطرنج بقطع اللعب. ماذا سيكون من أمر استراتيجيّ الحرب لو فكر أنَّ كل رمية في لعبه تحمل الظلام إلى آلاف البيوت والكرب إلى ثلاثة آلاف قلب؟ ماذا سيكون من أمر العالم لو كنا إنسانيين؟ لو أنَّ الإنسان استخدم إحساسه كما ينبغي، لما وجدت الحضارة. الفن يصلح للهُروب إلى الإحساس الذي تحتّم على الفعل تجاهله. الفن هو القطة الرمادية التي ظلت حبيسةً في البيت لأنَّ الأمر كان كذلك.

أناس الفعل جميعهم متحمسون ومتفائلون لأن الذي لا يحسّ سعيدٌ دائماً. من السهل التعرف على رجل الفعل لأنه دائماً معافى. الذي يعمل حتى لو كان في صحةٍ متردية هو مُعين للفعل؛ قد يوجد

في الحياة، في عموم الحياة، رجل حسابات، مثلي، لكن ليس بمستطاعه أن يكون وصياً على الأشياء أو الناس. الوصاية التسلُّط ينتميان إلى انعدام الحساسية. وحده الفرحان بإمكانه الهيمنة والحكم، لكي تكون حزيناً لا بد من الإحساس.

تسبب المدير فاسكيز اليوم من جرّاء صفقةٍ تجارية عقدها في إفلاس شخصٍ مريض وعائلته. لقد تناسى تماماً وهو يبرم الصفقة أنَّ ذلك الشخص موجود، باستثناء كونه طرفاً تجارياً معاكساً. بمجرد إبرامه الصفقة جاءه الإحساس. بعد ذلك فقط، طبعاً، إذ لو خامرته العواطف قبلئذٍ، لما أمكن للصفقة أن تبرم أبداً.

«أشعر بالحزن إزاء ذلك الشخص»، قال لي. «سيغدو المسكين فقيراً». ثم أضاف، وهو يشعل سيجاراً: «في كل الأحوال، لو احتاج إلى شيء فأنا» - يقصد منحه صدقة - «أنا لا أنسى أنني مدينٌ له بصفقةٍ جيدة وبضع عشراتٍ من الأوراق المالية».

المدير فاسكيز ليس لصاً: إنه رجلُ فعلٍ. مَن خسر الجولة في هذه اللعبة، يمكنه حقاً، أن يعتمد في المستقبل على صدقة المدير فاسكيز المعروف بسخائه.

رجال الفعل جميعاً يشبهون المدير فاسكيز - مديرون صناعيون وتجاريون، سياسيون، رجال أسلحة، مثاليون دينيون واجتماعيون، شعراءٌ كبار وفنانون كبار، نساء وسيمات، أطفالٌ يفعلون ما يشاؤون. العديم الإحساس هو الذي يحكم. لا يفوز إلّا مَن يفكر فقط فيما يحتاجه لأجل تحقيق الفوز. والباقي، وهو عُموم الإنسانية الغفل، من الخاملين، الحساسين، المتقدي الخيال السريعي العطب، الباقي ليس سوى الستارة الخلفية التي تنعكس عليها صورة هذا المشهد حتى انتهاء العرض المسرحي للدمى المتحركة، ليس

سوى السطح ذي المربعات الذي توضع عليه قطع الشطرنج حتى يحتفظ بها اللاعب الأكبر، الذي منخدعاً بشخصيةٍ مزدوجة، يلعب ويتسلى دائماً مع نفسه ذاتها.

1932-1-17

علماء الغيب

أحسستُ دائماً بنفورٍ فيزيقي تقريباً من الأمور السرية - دسائس، دبلوماسية، مجتمعات سرية، خفائية - لقد ضايقني على الخصوص هذان الأمران الأخيران - أو ادِّعاء بعض الناس أنهم يعرفون، بواسطة تفاهماتٍ مع الآلهة أو المعلمين (الشيوخ) أو صناع الكون، (هنالك فيما بينهم دوننا جميعاً) الأسرار الكبرى التي هي ركائز العالم. لا أستطيع الاعتقاد بذلك. لِمَ لا يكون كلّ أولئك الناس مجانين، أو مخدوعين؟ ألأنهم متعدِّدون؟ لكن الهلوسات الجماعية موجودة.

ما يُثيرني فوق كلّ شيء في هؤلاء المعلمين والعارفين بالغيب هو أنهم عندما يكتبون لكي يقصّوا علينا أسرارهم، يكتبون جميعهم بطريقةٍ سيئة. إنَّ إنساناً يعتبر نفسه قادراً على التحكُّم في الشيطان بدون أن يكون قادراً على التحكُّم في اللغة البرتغالية هو أمرٌ يجرح إحساسي. لماذا كانت التجارة مع الشياطين أسهل من التجارة مع النحو؟ مَن يستطيع، بواسطة تمارين طويلة للانتباه والإرادة، التوصل إلى امتلاك رؤى نجومية، لمَ لا يستطيع بتبذيرٍ أقل لهذا المجهود أو ذاك، امتلاك الرؤية النحوية؟ ما المانع الذي يمنع، في عقيدة أو طقوس السحر الأعلى، شخصاً ما من الكتابة - لا أقول بوضوح، إذ يمكن للغموض أن يكون خاصيةً مميزة للقانون الغيبي -، ولكن على

الأقل برشاقة وسلاسة لأنهما ممكنان حتى فيما هو عويص ومستغلق [؟] لماذا يتوجب استهلاك كل طاقة الروح في دراسة لغة الآلهة ولا يحتفظ ولو بجزءٍ حقير لدراسة لون وإيقاع لغة البشر؟ لا أثق في المعلمين الذين لا يستطيعون التعليم في الصف الابتدائي. إنهم بالنسبة إليّ مثل أولئك الشعراء الشواذ الذين لا يستطيعون الكتابة مثل الآخرين. أقبل بأن يكونوا شواذاً؛ سيروقني، مع ذلك، أن يبرهنوا على أنهم كذلك بالتفوُّق وليس بالعجز.

يقولون إنَّ هناك رياضيين عظماء يخطئون في عمليات الجمع البسيطة؛ لكن، المقارنة هنا، ليس مرجعها الخطأ، بل عدم المعرفة. أقبل من عالمٍ رياضي كبير أن يعتبر الرقم 5 حاصلاً لجمع 2+2، ذلك بسبب السهو الذي يمكن أن يحدث لنا جميعاً. ما لست أقبله هو ألّا يعرف ما هو الجمع وكيف يحصل. وهذا هو حال معلمي الغيب في غالبيتهم الساحقة.

مثل بندولٍ نوّاس

العالم، مزبلة القوى الغرائزية، يتألق تحت الشمس بتلويناتٍ براقة من ذهبٍ صافٍ ومعتكر.

رأيي أنَّ الأوبئة، الزلازل، الحروب هي نتاجٌ للقوة العمياء نفسها التي تؤثر حيناً بواسطة ميكروباتٍ غير واعية، وحيناً بواسطة أشعة ومياه لاواعية، وحيناً ثالثاً بواسطة رجالٍ غير واعين. الفرق بين الزلزال والوفيات عندي ليس بأكثر من الفرق بين القتل بسكين والقتل بواسطة خنجر. الوحش الحالّ في الأشياء ينفع كثيراً - يبدو أنه غير مبالٍ بما يترتب عنهما من خيرٍ أو شرّ - في إزاحة صخرة في العلوّ أو إزاحة الحماس أو الطمع من القلوب. تسقط الصخرة،

فتقتل رجلاً؛ الحماس والطمع يسلحان ذراعاً، والذراع يقتل رجلاً.
هكذا هو العالم، مزبلةُ قوى كلها غرائز لمّا تَزَلْ تسطع تحت الشمس بتلويناتٍ براقة من ذهبٍ صافٍ ومعتم.

لوضع حدٍّ لفظاظة اللامبالاة التي تشكِّل العمق المرئي للأشياء، اكتشف المتصوّفة أن خير حلّ يتمثَّل في فضّ العلاقة مع الأشياء. رفض العالم، الابتعاد عنه مثلما عن مستنقعٍ نلتقي عند ضفته. إنكار الواقع المُطلق مثل بوذا، إنكار الواقع النسبي مثل المسيح، إنكار (. . .) راضياً بالحلم فقط عندما لا أكون حالماً، راضياً بالعالم فقط عندما أحلم بعيداً عنه. مثل بندول نَوَّاس، أتحرك دوماً لكي لا أصل البتة إلى أيّ نقطة، ذاهباً فحسب لأجل أن أعود، دائماً سجين حتمية مزدوجة لمركزٍ وحركةٍ لامجدية.

لم أطلب من الحياة سوى ألّا تلزمني بشيء. عند باب الكوخ الذي لم أمتلكه جلست أمام الشمس التي لم توجد قط واستمتعتُ بالشيخوخة المستقبلية لواقعي/ المتعب/ (بلذة عدم امتلاكها بعد).
حسب بؤساء الحياة أنهم لم يموتوا بعد، وأنهم ما زالوا يمتلكون أمل (. . .).

أبديات

المسيح شكلٌ من أشكال العاطفة.

في مجمع الآلهة يوجد مكانٌ للآلهة الذين يقصي بعضهم بعضاً، وجميعهم يملكون العرش والولاية. كلّ واحدٍ منهم باستطاعته أن يكون الكلّ، فهنا لا وجود لأيّ حدود، ولا حتى منطقية، لنستمتع، برفقة خالدين متعددين، بالوجود المتزامن للانهائيات متنوعة وأبديات شتى.

العالم الخارجي

العالم الخارجي موجودٌ مثل ممثل على خشبة المسرح: إنه هناك بيْد أنه شيءٌ آخر.

(1932؟)

خواء الأشياء

كلما كانت فرجة العالم أكثر اكتمالاً، ومدّ وجزر تقلب الأشياء أكثر عمقاً، اقتنعتُ بالوهم الأصلي لكل شيء، بالاعتبار الزائف لأبّهة كلّ الوقائع. وفي هذه التأملات - لا بد أنّ المتعودين على التأمل قد مرت أمام أعينهم المسيرة المتعددة الألوان للعادات والتقاليع، الطريق المعقد للتطورات والحضارات، الالتباس الأبّهي للإمبراطوريات والثقافات - يمثل هذا كله عندي أسطورة ووهماً محلوماً بين الظلال وغياهب النسيان. لكنني لا أدري إنْ كان التعريف الأعلى لكلّ الأهداف الميتة، كامناً في التنازل المنخطف للـ بوذا، الذي، عند إدراكه خواء الأشياء، قال «أنا أعرف كل شيء»، أو في اللامبالاة الخبيرة للإمبراطور Severo عندما قال: «لقد كنت كل شيء، لا شيء يستحق العناء».

(طريقة للحلم الجيد)

- عليكَ بتأجيل كل شيء. لا ينبغي أبداً أن تعمل اليوم ما يمكن أيضاً أن تؤجل عمله غداً.

ليس حتى ضرورياً عمل شيء غداً.

- لا تفكر أبداً فيما ستفعله. لا تفعله.

- عشْ حياتك. لا تدعها تعيشك.

في الصواب وفي الخطأ، في الرخاء وفي الشدة، اعرف كينونتك الخاصة. بإمكانك أن تفعل ذلك حالماً فقط، لأن حياتك الواقعية، حياتك الإنسانية هي تلك التي ليست حياتك وإنما حياة الآخرين. هكذا تستبدل بالحلم الحياة وستحرص فحسب على أنْ تحلم بإتقان. في كلّ أفعال حياتك - الواقعية، منذ الولادة حتى الموت، أنت لم تفعل شيئاً: كنت مفعولاً به؛ أنت لم تعِشْ: كنت معيوشاً فحسب.

تحوَّلْ بالنسبة إلى الآخرين أبا هول سخيفاً. أغلق على نفسك، لكن بدون صفق الباب، في برجٍ من عاج هو أنت ذاتك.

وإذا قال لك أحدهم إنَّ هذا الوضع مصطنع ولامعقول، لا تصدِّقه، لكن كذلك لا تصدّق ما أقوله لك، لأنه لا يجب تصديق أي شيء.

- ازدَرِ كلّ شيء، لكن على نحوٍ لا يسبِّب لك معه الازدراء أي مضايقات. لا تعتبر نفسك أعلى من ازدرائك. فن الازدراء يكمن في هذا بالذات.

(فصل عن اللامبالاة أو ما يشبهها)[1]

كل روحٍ جديرة بذاتها ترغب في أن تعيش الحياة بتطرُّف.

سرور المرء بما يُعطاه أمرٌ ملائم للعبيد. طلبُ المزيد هو من شيم الأطفال. الظَّفر بالمزيد يُلائم الحمقى، لأنّ كل (. . .).

أن نعيش الحياة بتطرف معناه أن نعيشها حتى الحدّ الأقصى، لكن ثمة ثلاث طرائق لنفعل ذلك، وكل روح عالية تتسابق لاختيار

(1) عنوان وضعه المؤلف بالإنجليزية في الأصل.

واحدةٍ منها. الحياة يمكن أن تُعاش للحدّ الأقصى بتملُّكها الأقصى، بواسطة السفر الأوليسي عبر كلّ الأحاسيس المعيشة، عبر سائر أشكال الطاقة الموجهة نحو الخارج. غير أنهم نادرون، في كلّ العصور، أولئك الذين بإمكانهم أن يغمضوا الأعين المفعمة عياء هو جماع كل العياءات، أولئك الذين امتلكوا الكلّ بكل الأشكال.

نادرون أولئك الذين باستطاعتهم، على هذا النحو، أن يرغموا الحياة على أن تستسلم لهم كلية جسداً وروحاً.. لكن هذا ينبغي أن يكون بلا ريب، مطمح كل روحٍ عالية وقوية. غير أنّ تلك الروح إذا اكتشفت استحالة تحقيق هذا المطمح وأنها لا تملك القوى الكافية لاكتساح كل جهات الكلّ، فلديها طريقان أخريان تختار بينهما - واحدة، هي التنازل التام، الامتناع الشكلي، الكامل، مبعدة عن دائرة الحساسية ذلك الذي لا يمكن أن يُمتلك كاملاً في منطقة الحيوية والفاعلية. اللافعل أجدر بالإنسان الأعلى من الفعل بلاجدوى، بتجزؤ، بما لا يكفي، مثل الأغلبية الزائدة اللاعدَّ لها من الناس؛ الطريق الثالثة، طريق التوازن الصحيح، تتمثل في البحث عن التوازن عن الحدّ الأقصى في التناسب المطلق حيث ينتقل الطموح إلى الحدّ من الإرادة والانفعال إلى الذكاء، وحيث يتمّ الانتقال من الطموح إلى عيش الحياة كلها، والإحساس بها كاملة، إلى ترتيب الحياة كلها، إلى ممارستها بتناغم وتنسيق.

نهم المعرفة الذي يعوّض لدى أرواحٍ نبيلة كثيرة نهم الفعل، ينتمي إلى دائرة الحساسية. استبدال الذكاء بالطاقة، تحطيم الحلقة القائمة بين الإرادة والانفعال، تجريد كل حركات الحياة المادية من أي أهمية، هذا ما يملك - إن تحقق - قيمةً أكبر من الحياة التي من العسير تملّكها بالكامل، ومن المحزن تملّكها جزئياً.

ركوب البحر ضروري. قال أبطال الإغريق الأسطوريون. نحن أبطال الحساسية المريضة نقول، الإحساس لازم، أما العيش فليس بلازم.

احتراس

إضاعة الوقت يشكِّل إستيتيقيا خاصة. بالنسبة إلى ذوي الإحساس المرهف، يوجد قانون/ للخمود/ يحوي وصفات لكلّ أشكال التنبُّه. الاستراتيجية التي يُواجه بها مفهوم المصالح الاجتماعية، ودوافع الغرائز، إغراءات العواطف، تتطلب دراسة لا يتحمّل أيّ عالم إستيتيقي ضرورة القيام بها. يتوجَّب على إثيولوجيا مصفّاة من الشكوك أن تتبع/ علم تشخيص/ ساخر لعبوديات الاعتيادي كذلك يتوجّب، تربية وتنمية خفّة التحرّك ضد تدخلات الحياة؛ احتراس (...) يجب أن نحمي أنفسنا من الإحساس بآراء الغير، وبلا مبالاة متراخية علينا أن نُدثّر الروح ضد الضربات الخرساء لوجودنا المتزامن مع الآخرين.

(1912؟)

تصنيف الأحلام

كلّ حركة، مهما صغرت، تمثِّل انتهاكاً لِسرٍّ روحي. كلّ حركة فعل ثوري؛ إنَّ مَنْفيّاً ربما (...) الحقيقية لأهدافنا الحقيقية.

الفعل مرض في التفكير، سرطان في المخيِّلة. الأفعال كلّها ناقصة ومختلّة. القصيدة التي أحلم بها لا تظهر أخطاؤها إلا عندما أحاول إنجازها. (في أسطورة يسوع يوجد مكتوباً؛ الله، لدى تحوّله

إلى إنسان، لا يمكن أن ينتهي إلّا إلى الاستشهاد. الحلم الأعلى يولد الاستشهاد الأعلى).

الظلال المكسورة لورق الشجر، تغريد الطيور المرتعش، سواعد الأنهار الممدودة التي ترجّف أمام الشمس بريقها المطري، الاخضرارات، شقائق النعمان، بساطة الأحاسيس - لدى إحساسي بهذا، أشعر بالحنين، إليها. كما لو أنني عند الإحساس به لم أحسّ به البتة.

الساعات تعود صارّةً، مثل عربة وقت الغروب، عبر ظلال أفكاري. لو رفعت عيني من فوق تفكيري، لاضطرم لديّ مشهد العالم.

لكي نحقِّق حلماً من الأحلام لا بد من نسيانه، من صرف الانتباه عنه. لذلك كان إنجاز الأشياء هو بالذات عدم إنجازها بتاتاً. الحياة مليئة بالمفارقات امتلاء الورود بالأشواك. أتمنى إنجاز قانونٍ سلبي لفوضى الأرواح. تصنيف أحلامي سيكون نافعاً للإنسانية - هذا ما بدا لي - لذلك لم أمتنع قطّ عن محاولة إنجاز هذا التصنيف. فكرة أنّ ما أنجزته يمكن أن تكون قابلة للاستغلال تسيء إليّ وتزعجني.

لديّ منازل ريفية في ضواحي الحياة. أجتاز غياب مدينة فعلياً بين أشجار وزهور هذياني. أصداء حياة حركاتي لا تصلُ إلى عزلتي الخضراء. أنَوِّمُ ذاكرتي مثل مواكب لانهائية. في أقداح تأملاتي وحده الـ [. . .] يشرب الخمرة الشهباء؛ يشربها بعينيه فقط، مغمضاً إياهما، فيما الحياة تمرّ مثل شمعةٍ بعيدة.

النهارات المشمسة تعرف ما لا أملكه. السماء الزرقاء، والغيوم البيضاء، الأشجار، الناي غير الموجود هناك - قصائد رعوية ناقصة

عبر ارتجاف الأغصان... كل هذا هو المعزف الأخرس الذي ألامس من خلاله خفّة أصابعي.

غريبٌ عن كل شيء

لدى تنبّهي، أحياناً، إلى العمل الأدبي، الغزير، أو المصنوع، على الأقل، من أشياء مديدة وكاملة، ومن مخلوقات أعرفها أو أعرف عنها، أحسّ بداخلي بحسدٍ غامض، بإعجابٍ محتقر، بخليط غير متناسق من أحاسيس مختلطة.

إنجاز عملٍ ما كاملاً وبإتقان - جيداً كان أم رديئاً - إنْ لم يكن جيداً تماماً، فهو ليس بالرديء تماماً - يستثير لديّ، ربما، من الغيرة ما لا يستثيره أيّ فعل أو إحساس آخر. إنه مثل ابنٍ من صلبي؛ ناقص ككل كائن إنساني، لكنه من عَمَلِنا نحن تماماً مثل أبنائنا.

وأنا الذي لا تسمح لي روحي النقدية سوى برؤية العيوب، والأخطاء، أنا الذي لا أجرؤ على كتابة غير الشذرات، والمقاطع، ونتف ما ليس له وجود، أنا نفسي، في القليل الذي أكتب لا أخلو كذلك من العيوب.

من الأفضل، إذن، إمّا العمل المكتمل، ولو كان سيئاً وإمّا غياب الكلمات، صمت الروح الكامل المعبر عن العجز عن الفعل.

أفكر فيما لو لم يكن كلّ شيء في الحياة انتكاساً لشيءٍ ما لا أعرف كنهه...

وهكذا لم تكن المسيحية سوى انحطاط نبَوِيٍّ للأفلاطونية الجديدة، المنحطة (...) رومَنة[1] الهلينية المزيفة، وهكذا يغدو

(1) إضفاء الطابع الروماني.

رومانياً في عصرنا (. . .) التغيير المتعدِّد لكلّ الأهداف الكبرى، المتلاقية أو المتعارضة والذي منه ولد عصر الإخفاقات.

لكن ما علاقتي أنا، في الطابق الرابع هذا، بكلّ هذه السوسيولوجيات؟ كل هذا يتحوّل عندي إلى حلم، مثل أميرات بابل، وانشغالنا بالإنسانية أمرٌ تافه، تافه - أركيولوجيا الحاضر.

سأتلاشى وسط الغياب، كغريبٍ عن كل شيء.

كرمةٌ إنسانية منفصلة عن حلم الجدار وسفينة لامجدية بمحاذاة كلّ شيء.

المجد الأعلى

الأشياء ليست كلها زائفة، ما من شيء، يا حبيبتي، سيداوينا من متعة الكذب. مغالاةٌ تدقيقية أخيرة! فساد/ أقصى/! الكذب اللامعقول فتنة ما هو فاسد ومنحرف، مع السحر الأخير والأعلى لكونه بريئاً. فساد النية البريئة - من يفرط، أو (. . .)، المغالاة التدقيقية القصوى في هذا كله؟ الفساد الذي لا يسعى إلى أن يمنحنا اللذة، والذي لا يملك عنف إيلامنا، الذي يسقط أرضاً بين اللذة والألم، لامجدياً وعبثياً مثل لعبةٍ مشوّهة أراد شخصٌ كبير أن يتلهى بها!

وعندما يمنحنا الكذب اللذة، نقول الحقيقة لكي نكذِّبها. وعندما يمنحنا القلق يبدو أنَّ المعاناة لا تعني بالنسبة إلينا لذة ولا . . .

ألا تعرفين، يا حلوة، لذة شراء أشياء ليست ضرورية؟ أتعرفين طعم الطرق، التي ما أخذنا وجهاتها متسلّين، إلّا عن خطأ متعمَّد؟ أي فعلٍ بشري يملك ذُلك اللون الجميل الذي تملكه الأفعال المنحرفة - (. . .) التي تكذب على طبيعتها الخاصة وتكذّب نيتها هي.

روعة تبديد حياة بإمكانها أن تكون ذات نفع، روعة عدم إنجاز عملٍ سيكون جميلاً بالقوة، روعة التخلي في منتصف الطريق عن الوجهة الأكيدة للنصر!

آه، يا حبيبتي، يا لمجد الأعمال المضيعة التي لن تُستعاد أبداً، مجد المقالات التي ليست اليوم سوى عناوين، يا لمجد المكتبات التي احترقت، والتماثيل التي تحطَّمت.

يا لمقدّسي اللامعقول أولئك الفنانين الذين أحرقوا دون نوم عملاً خارق الجمال، أولئك الذين، جعلوا من عملٍ جميل عملاً ناقصاً مشوّهاً، أولئك الشعراء، شعراء الصمت الأقصى، الذين مع قدرتهم على صنع عمل متقن من جميع النواحي، فضّلوا جرأة عدم صنعه بتاتاً.

كم ستكرن الجيكوندا جميلة لو لم يكن باستطاعتنا رؤيتها! أما إذا أحرقها الذي سيسرقها فأيّ فنان سيكون أعظم بالتأكيد من الذي رسمها!

لماذا الفن جميل؟ لماذا هو عديم النفع؟ لماذا الحياة قبيحة؟ لماذا كلها غاياتٌ ومقاصد ومرام؟ جميع طرقاتها تقتضي الذهاب من نقطةٍ إلى أخرى، ليت ثمة طريقاً يبدأ من مكانٍ لا ينطلق منه أحد وينتهي إلى مكانٍ لا أحد يمضي إليه...

جمالية الخرائب! ما لا يصلح لشيء. جمالية الماضي؟ تذكره، لأن تذكره هو جعله حاضراً، وما هو بحاضر، وليس بإمكانه أن يكونه - اللامعقول، يا حبيبتي، اللامعقول. وأنا الذي أقول هذا، لماذا أكتب هذا الكتاب؟ لماذا أعترف بنقصه. بالصمت، سيكون كاملاً؛ بالكتابة سيعتريه النقص والخلل؛ لذلك أكتبه.

وعلاوةً على كل شيء، فبدفاعي عن اللاجدوى، عن اللامعقول

(. . .) - أنا أكتب هذا الكتاب لكي أكذب على نفسي ذاتها، لكي أخون نظرتي الخاصة.

والمجد الأعلى لهذا كله، يا حبيبتي، هو التفكير ربما في أنَّ هذا ليس حقيقياً، وفي أنني أيضاً لا أخاله كذلك.

(1913؟)

الفن

الفنّ تهرّبٌ من الفعل، أو من العيش. الفن هو التعبير الذهني عن الانفعال، المختلف عن الحياة التي هي التعبير الإرادي عن الانفعال. ما لا نملكه أو ما لا نجرؤ عليه، أو ما لا نحققه، بإمكاننا امتلاكه في الأحلام، التي بها نصنع الفن. أحياناً يكون الانفعال قوياً، إلى حدودٍ معينة بحيث لا ترضيه عملية تحويله إلى فعل؛ من الانفعال، من العاطفة الفائضة عن الحاجة، والتي لم تجد لها تعبيراً في الحياة، يتشكّل العمل الفني. بهذا ثمة نمطان من الفنانين: فنانٌ يعبّر عمّا لا يملك وفنان يعبّر عمّا فضل له ممّا امتلك.

عن الحقيقة

البحث عن الحقيقة - أكانت الحقيقة الذاتية للاقتناع الذاتي، أو الموضوعية الواقعية أو الاجتماعية المتعلقة بالمال أو السلطة - تجلب دوماً معها المعرفة الأخيرة بعدم وجودها. الجائزة الكبرى للحياة هي فقط من نصيب الذين اشتروا ورقة اليانصيب مصادفة.

الفن له قيمة لأنه يُخرجنا من هنا.

انتهاك

مشْروعٌ كُلُّ انتهاكٍ للقانون الأخلاقي يمارس بخضوع لقانونٍ أخلاقي أعلى. لا عذر لمن يسرق خبزاً بدافع الجوع، لكن يعذر فنان يسرق عشرة آلاف إسكودو[1] لكي يؤمن لمدة سنتين حياته وطمأنينته، طالما أنَّ عمله يميل إلى هدف [. . .]؛ إنْ كان محض عملٍ جمالي، تسقط الحجة.

من.. إلى

لا اللذة، لا المجد، ولا السلطة: الحرية، وحدها الحرية.

الانتقال من أشباح الإيمان إلى أوهام الحق هو مجرد تبديلٍ للزنزانة. إذا كان الفن يحررنا من الأوثان المكرسة والبالية، فإنه كذلك يحررنا من الأفكار النبيلة ومن الانشغالات الاجتماعية - الوثنية أيضاً.

لغة الروح المثالية

الفن يجعل الآخرين يحسّون بما نحسّ، يعمل على تحريرهم من ذواتهم نفسها، عارضاً عليهم شخصيتهم كمحررٍ خاص. ما أحسّه، في الجوهر الحقيقي الذي به أحسّ، غير قابلٍ للتواصل أو التوصيل بصفةٍ مطلقة؛ وكلما ازداد عمق ما أحسّه، ازدادت لاتواصليته. لكي أنقل، إذن، ما أحسّه إلى الآخر، عليّ أن أترجم أحاسيسي إلى لغته، أي أنْ أقول أشياء معينة كما لو كانت هي ما أحسّه، بحيث عندما يقرؤها هو، يحسّ بالضبط بما أحسسته. ولأن

---

(1) عُملة برتغالية.

هذا الآخر، وفق فرضية الفن، ليس هذا الشخص أو ذاك، وإنما العالم كله، أي أنه مشترك مع كلّ الأشخاص، فإنّ ما ينبغي أن أفعله في النهاية هو أن أحوِّل أحاسيسي إلى إحساسٍ إنساني نموذجي بالرغم من أنني بذلك أفسد الطبيعة الحقيقية لما أحسسته.

كل ما هو مجرد يصعب فهمه، لأنَّ من العسير شدّ الانتباه إليه من طرف مَن يقرؤه. سأقدم لذلك، مثالاً بسيطاً تتجسَّم فيه التجريدات التي شكلتها. لنفترض، بدافعٍ ما، يمكن أن يكون هو التعب الناجم عن إجراء الحسابات أو القَنط المتولِّد عن ضرورة القيام بأيّ عمل، لنفترض كآبة مبهمة من الحياة تحل بي فجأة، غماً من داخلي يكدِّري ويبلبلني. لو لجأت إلى ترجمة هذا الإحساس بعباراتٍ تحيط به عن قرب، لجعلته خاصاً بي دون سواي، وهو ما يجعلني أبعد عن إيصاله إلى الغير، فمن الأجدر والأيسر الاكتفاء بالإحساس به دون كتابته.

لنفترض، مع ذلك، أنني أرغب في إيصال هذا الإحساس إلى آخرين، أي في أن أصنع منه فناً، وإذن فالفن هو التواصل مع آخرين بالتطابق الحميم معهم؛ وإنني لأتساءل متحرياً أيّ إحساسٍ إنساني عامي يملك لون ونمط وشكل ذلك الانفعال الذي أحسّه الآن، لأسبابٍ لاإنسانية وخاصة متمثِّلة في كوني رجل حسابات متعباً ولشبونياً مفعماً ضَجَراً. وأنا متأكد من أنَّ النمط الشعوري العالمي الذي يولد، في الروح العامية، هذا الإحساس هو الحنين إلى الطفولة المفقودة.

أملك مفتاح باب موضوعي. أكتب وأبكي طفولتي المفقودة؛ أتوقَّف بتأثر عند تفاصيل أشخاص وأثاث المنزل الريفي؛ أبتعث سعادة خُلُوِّي من أي حقوق أو واجبات، سعادة كوني حراً لعدم

معرفتي كيف أفكِّر وأحس - وهذا الاستحضار، إنْ كان مصنوعاً جيدا كنثر وكرؤى، سيبتعث في قارئي بالضبط الشعور نفسه الذي أحسسته، والذي لا علاقة له بطفولتي.

أوَكذبت؟ لا، لم أفهم. ذلك أنَّ الكذب، باستثناء الطفولي والعفوي منه، والذي يولد من الرغبة في ديمومة الحلم، هو تصور الغير للوجود الواقعي فقط وهو الحاجة إلى خلق الانسجام بين ذلك الوجود ووجودنا نحن. الكذب ببساطة هو اللغة المثالية للروح، إذ، كما أننا نستعمل كلمات هي عبارةٌ عن أصواتٍ ملفوظة بطريقةٍ لامعقولة، لكي نترجم إلى لغةٍ واقعية أشدّ حركات الإحساس والتفكير حميميةً ودقة، ممّا لا تستطيع الكلمات ترجمته بالقوة، كذلك نستعمل الكذب والخيال ليفهم بعضنا بعضاً وهو ما لا يمكن أن يتحقق أبداً في الواقع.

الفن يكذب لأنه اجتماعي. ثمة شكلان كبيران للفن فقط: واحدٌ يتجه إلى روحنا العميقة؛ والثاني يتجه إلى روحنا اليقظة. الأول يتمثَّل في الشعر. والثاني في الرواية. الأول يقترف الكذب في صميم بنيته. والثاني يبدأ بالكذب في صميم اليقظة. أحدهما يسعى إلى منحنا الحقيقة عبر خطوطٍ منوعة التسطير، تكذب على تلازم الكلام؛ والآخر يسعى إلى تقديم الحقيقة بواسطة واقعٍ نعرف أنه لم يوجد قط.

الخداع نوعٌ من الحب بل هو الحب نفسه. لم أرَ قط ابتسامةً ناعمة أو نظرةً دالّة بدون أن أفكر، فجأة، بصرف النظر عن صاحب الابتسامة أو النظرة، خلف عمق الروح الباسمة أو الناظرة، في الصيرفي الذي يريد شراءنا أو المومس التي ترغب في أن نقتنيها، لكن الصيرفي الذي يشترينا قد أحبّ، على الأقل، شراءنا؛

والمومس، التي نشتريها، قد أحبَّت، على الأقل، شراءنا إياها. لا مهرب لنا، مهما أردنا، من الأخوة الكونية. جميعنا نحب بعضنا بعضاً، والكذب هو القبلة التي نتبادلها.

1931-12-1

الكتابة

الكتابة هي النسيان. الأدب هو الطريقة الأكثر إمتاعاً لتجاهل الحياة. الموسيقى تهدهد، الفنون البصرية تُنشّط، الفنون الحية (مثل الرقص والتمثيل) تُسلي. الموسيقى، تنأى بنا عن الحياة لأنها تجعل منها حلماً؛ الفنون البصرية، بالرغم من كلّ شيء، لا تبتعد عن الحياة - لأن بعضها يستخدم صيغاً مرئية ومن ثم حيوية، بعضٌ آخر يحيا من ينبوع الحياة الإنسانية نفسه.

لا أدري إنْ كان هذا هو حال الأدب. إنَّ روايةً ما هي حكاية ما لم يحدث أبداً، كما أنَّ المسرحية هي روايةٌ معروضة بدون سرد. إنَّ قصيدةً ما هي تعبيرٌ عن أفكار أو مشاعر في لغةٍ لا يستعملها أحد، إذ لا أحد يتكلم شعراً

ذلك الابن

أَوَيحزنني ألّا أحد يقرأ ما أكتب؟ أنا أكتب لأتسلى بالعيش، وأنشر ما أكتب لأنّ تلك هي قاعدة اللعب. لو ضاعت كل كتاباتي غداً، فسَيَعْروني الحزن، لكنني أعتقد حقاً أنه لن يكون حزناً عنيفاً ومجنوناً كما سيفترض، باعتبار أنَّ حياتي ستمضي معها. [...]

الأرض الكبرى ألتي تحفظ الجبال كلها، ستحفظ بأموميةٍ أقل، تلك الأوراق. لا شيء يهمّ، وأنا مقتنع أنَّ ثمة من رأى الحياة بدون

كبير صبر لأجل ذلك الابن [. . .] وبرغبةٍ كبرى في الطمأنينة عندما، سيكون، قد مضى للنوم.

لامبالاة...

[. . .] أشعر بلامبالاةٍ كبيرة تجاه عمله. لقد رأيته. . . لم أستطع البتة الإعجاب بشاعرٍ كان من المُستحيل عليّ أن أراه.

إحالات

قرأتُ باستياءٍ دائم في يوميات إميل الإحالات التي تذكِّر بما نشره من كتب، الصورة تتحطَّم هناك. كم كانت ستكون كبيرة، لولا ذلك!

يوميات إميل تلحق بي الأذى بسببي أنا.

عندما وصلت إلى تلك النقطة التي يقول لي فيها أنَّ ثمرة الروح نزلت عليه مثل شعور الشعور أحسستُ بإحالةٍ مباشرة إلى روحي.
(بعد 1915)

هذه اليوميات

هذه اليوميات التي كتبتها لنفسي، سوف تبدو لكثيرين مغالية في تصنُّعها. غير أن التصنُّع من طبيعتي. بماذا سأتلهى، علاوةً على ذلك، إنْ لم يكن بكتابة هذه الحواشي الروحية! فيما عدا ذلك أنا أكتبها وأجمعها بغير عنايةٍ خاصة. أشغل فكري بالطبع بلغتي المرهفة هذه.

أنا إنسان يعدّ العالم الخارجي بالنسبة إليه واقعاً جوانياً. أحسّ

هذا، ليس على نحوٍ ميتافيزيقي، ولكن بالحواس المألوفة التي نُدرك بها الواقع.

رعونتي أمس أصبحت اليوم نوستالجيةً تقضم حياتي.

لهذه الساعة أديرةٌ خاصة. العزلات حلّ بها المساء. في العيون الزرقاء للمستنقعات، يعكس القنوط الأخير موت الشمس. كنّا أشياء كثيرة ممّا تشتمل عليه الحدائق القديمة، إلى حد أننا كنا نشكل جزءاً من مشهد التماثيل، من التشذيب الإنجليزي للمنتزهات! الثياب، سيوف الزينة، الشعور المستعارة، الاهتزازات والمغازلات تنتمي كثيراً إلى المادة التي صنعت منها روحنا! مَن نحن؟ نافورة ماء بالكاد، في الحديقة الجرداء، ماءٌ مجنح، موجة أقل علواً في محاولة طيرانها الحزينة.

(بعد 1915)

مخلوقات

ثمة مخلوقاتٌ تعاني معاناةً فعلية لأنها لم تستطِع أن تعيش في الحياة مثل السير بيكويك وأن تصافح السير واردل. إنني واحدٌ من هذه المخلوقات. لقد بكيتُ بدموعٍ حقيقية لأجل تلك الرواية لأنني لم أستطِع العيش في زمنها، مع أولئك الناس، الناس الواقعيين.

إنَّ مصائب الروايات جميلة دائماً إذ لا يجري فيها دمٌ حقيقي. ولا يتعفَّن فيها الموتى، ولا النَّتِنُ فيها يطوله النَّتَنُ.

عندما يبدو السير بيكويك مُضحِكاً، فهو ليس مضحِكاً، لأنه كذلك في رواية. مَن يدري إنْ كانت الرواية واقعاً وحياة أكمَل وأفضل من الحياة التي خلقها الله بواسطتنا، ومنا نحن - مَن يدري - الذين وجدنا فقط لكي نخلق ونبدع؟ الـ[. . .] يبدو أنها لم توجد

إلا لكي تنتج أبداً؛ ولا يتكلم ولا يبقى منها سوى الكلمات. لمَ لا تكون تلك الصور الفوق إنسانية واقعية حقاً؟ يؤلمني في الوجود الذهني التفكير في إمكانية أن يكون الأمر هكذا.

ما لا يمكن احتماله

لو كنتُ كتبت الملك لير لاحتملتُ بتأنيب الضمير كلّ حياتي البَعْدِيّةِ. لأن ذلك العمل كبير جداً. كم تبدو عيوبه مضخّمة مشوّهة، حتى الأشياء الصغرى الكامنة بين مشاهد معينة وبين كمالها المحتمل.

الملك لير ليس عبارة عن شمس محجَّبة بالبقع؛ إنه تمثالٌ إغريقي محطَّم. كلّ ما تمّ صنعه مليء بالأخطاء، بالافتقار إلى المنظورات، بالجهالات، بمناطق الضعف. لا أحد يملك الهبة الإلهية لكتابة عملٍ فني من الحجم المضبوط ليكون كبيراً والإتقان التام ليكون جليلاً..

حينما أفكّر في هذا الأمر، ينتاب تخيلي غمّ هائل، يقينٌ مؤلم بعدم القدرة البتة على صنع أيّ شيء جميل ونافع للجمال. لا توجد طريقة ولا منهاج لتحقيق الكمال باستثناء أن نكون الله. أكبر جهودنا يستغرق الكثير من الوقت؛ والوقت الذي يستغرقه يجتاز أوضاعاً مختلفة لروحنا، وكل وضع من أوضاع الروح، بحكم تفرُّده، يعكِّر بشخصيته فردانية العمل. لا نملك سوى يقين الكتابة بشكلٍ سيئ عندما نكتب؛ العمل الكبير الوحيد والمُتقَن هو فقط ذلك الذي لا يمكن أن نحلم أبداً بإنجازه.

واصل الإنصات إليّ وارْثِ لحالي. أنصِتْ إليّ وقُل لي من بعد إنْ لم يكن الحلم لا يساوي أكثر من الحياة. العمل لا يؤدي أبداً

إلى نتيجة. المجهود لا يصل أبداً إلى أي جهة، وحده الامتناع عن أيّ عمل يتميَّز بالنُبل والسمو لأنه وحده يعرف أنَّ الإنجاز دائماً هو الأدنى، وأنَّ العمل المُنجز هو دائماً الظلّ المُضحك للعمل المحلوم به.

لو باستطاعتي أن أكتب، في كلماتٍ على ورق، حوارات شخوص مسرحياتي المتخيَّلة، بحيث يمكن أن تُقرأ فيما بعد بصوتٍ عالٍ، وأن تُسمع بالطبع: تتميَّز تلك المسرحيات بفعلٍ مضبوط غير متقطّع. وبحوارٍ لا ثلمة فيه، لكن ذلك الفعل المسرحي لا يرتسم فيّ طولياً، لكي أتمكن أنا من إبرازه بواسطة الإنجاز، كما أنَّ مادة تلك الحوارات الباطنية ليست من كلمات، حتى أستطيع ترجمتها إلى كتابة.

أحبّ بعض الشعراء الغنائيين لأنهم لم يكونوا شعراء ملحميين أو مسرحيين، لأنهم امتلكوا الحدس الصحيح بألا يرغبوا أبداً سوى في تشخيص لحظة إحساس أو حلم. ما من مسرحية لشكسبير تُحدِث الرضا الذي تُحدثه قصيدةٌ غنائية لهاينه. غنائية هاينه تتميز بالكمال، وكل عملٍ مسرحي - لشكسبير كان أم لغيره - هو دائماً مشوبٌ بالنقص. إمكانية بناء كلٍّ ما، تشكيل شيء يكون شبيهاً بجسدٍ إنساني بتناسبٍ مضبوط بين أجزائه، وبحياة ذات وحدة وتطابق، توحِّد تشتُّت تفاصيل أجزائه!

أنت الذي تسمعني وبالكاد تُصغي إلي. أنت لا تعرف ما معنى تراجيديا! فقدان أبٍ وأم، عدم تحقيق المَجد ولا السعادة، عدم امتلاك صديق ولا حبيب - كلّ هذا يمكن احتماله؛ ما لا يمكن احتماله هو الحلم بشيءٍ جميل لا يمكن إنجازه بالفعل أو الكلمات. الوعي بالعمل المتقنْ، تُخمة العمل المنجَز - ناعم هو مثل حلمٍ تحت ظلّ تلك الشجرة، في الصيف الهادئ.

ما يهمني أكثر

أحياناً، في حواراتي مع نفسي، في العشيات اللذيذة للمخيلة، في الأحاديث المزعجة في غسق الصالونات المفترضة. أتساءل، في فواصل تلك المحادثات. عن بقائي بمفردي مع محاورٍ آخر غير ذاتي، عن السبب الحقيقي لعدم مدّ عصرنا العلمي لإرادة فهمه حتى الشؤون التي ليست اصطناعية.

وثمة سؤال أرجئه دائماً بدافعٍ من خمولي، وهو لماذا لا تُخلق إلى جانب البسيكولوجيا المألوفةً للكائنات الإنسانية بسيكولوجيا موازية أيضاً للصور والهيآت الاصطناعية التي يمضي وجودها في البُسُطِ واللوحات فقط. مَن يحصر الواقع فيما هو عضوي وحسب ولا يفترض وجود روح داخل المنحوتات الصغيرة والمنسوجات يملك مفهوماً بئيساً عن الواقع. حيثما ثمة شكلٌ ما فثمة روح.

ليست تأملاتي هذه مع نفسي ثمرة تَبَطُّل، ولكنها هذرٌ علمي من أيّ نوع كان. لذلك وبدون أن أمتلك جواباً، أضع الممكن في دائرة الكائن وأسلِّم نفسي، بتحليلات باطنية، للرؤية المتخيّلة للأوجه الممكنة لهذه الرغبة/ المنْجَزَة. ما إن أفكِّر في الأمر، حتى يبرز على الفور داخل رؤية روحي علماء منكبّون على صور يعرفون جيداً أنها حيوات؛ مجهريو حياكة يخرجون من السجادات؛ فيزيائيو التخطيطات الواسعة والهزازة؛ كيميائيو فكرة أشكال وألوان اللوحات، جيولوجيو الطبقات الأرضية للقماعيل[1]؛ بسيكولوجيون، أخيراً، - وهو ما يهمني أكثر - يشرحون ويجمعون الأحاسيس التي ينبغي أن تحسّها منحوتة من المنحوتات، الأفكار التي يجب أن تردَ

---

(1) أحجار كريمة منقوشة.

على النفسية الضيقة لصورةٍ في لوحة أو قماش، الدوافع، الأهواء التي بلا كوابح. الشفقات والكراهيات العرضية (. . .) التي تعتري وعياً ما، نوع من اللزوجات والموت في الحركات الخالدة للمنحوتات، في المشاعر العارضة في تصاوير الأقمشة.

الأدب والموسيقى، يلائمان أكثر من الفنون الأخرى رهافات البسيكولوجي بشخوص روايةٍ ما، هي - كما يعرف الجميع - واقعية تماماً مثل أيّ واحد منا. بعض الأصوات يمتلك روحاً مجنَّحة وسريعة، لكنه شديد الحساسية تجاه البسيكولوجيا والسوسيولوجيا. ذلك أنَّ ما يعرفه حتى الجهلة هو أنَّ المُجتمعات تحيا داخل الألوان، والأصوات والجُمل وثمة أنظمة وثورات مهيمنة، سياسات و(. . .) - توجد بإطلاق وبدون ميتافيزيقا - في المجموع الآلي للسنفونيات، في كل مركَّب روائي، في الأمتار المربَّعة للوحة، تستمتع وتتألم وتختلط الأوضاع الملونة لمحاربين، لعشاق أو منخطفين.

عندما يتكسّر فنجانٌ من مجموعتي اليابانية المُختارة، أتخيل أنَّ السبب لا يعود إلى تهور الخادمة بقدر ما يعود إلى الجزء الذي أصاب الصور التي تسكن منعرجات ذلك (. . .) من الخزف؛ لا يسبب لي فزعاً: لقد مُرِّر بيد الخادمة. . . معرفة هذه تعني أن أكون أبعد من [. . .] وبأيّ دقةٍ أعرف هذا!

(العاشق المرئي)

ليس من عاداتي أن أسدّي خيطاً من خيوط الفانتازيا حول تلك الصور التي أتسلى بتأمُّلها. أكتفي فقط برؤيتها، فقيمتها عندي ماثلة في النظر إليها. كلّ ما يمكن أن يُضاف إليها ينتقص منها، لأنه ينتقص من «منظوريتها».

عندما أستغرق في تخيّلاتي حولها، تغدو، حتمياً في نفسي لحظة تخيُّلي إياها، زائفة بالنسبة إليّ؛ وإذا كان المحلوم به يُعجبني، فإنّ الزائف ينفّرني. الحلم الخالص يَفْتِنُنِي، يفتنني الحلم الذي لا يملك علاقةً بالواقع ولا نقاط اتصال به. ويكدِّرني الحلم الناقص المتَّصل بالحياة...

الإنسانية عندي موضوعٌ شاسع مزخرف يحيا بفضل الأعين والآذان، وبواسطة الارتباط بالسيكولوجيا. لا شيء أريد من الحياة سوى أن أعاينها. لا شيء أريد مني غير معاينة الحياة.

إنني أشبه كائناً من عالم آخر يمرّ مهتماً بهذا العالم بدون أن يعرفه أحد. في كلّ الأحوال أعتبرني غريباً عنه. بيني وبينه ما يشبه حاجزاً من زجاج. وأريد ذلك الزجاج ناصعاً لكي أستطيع اختباره بدون وسيط؛ بَيْدَ أنني أريد الزجاج دائماً.

أنْ نرى في الأشياء ما يزيد على ما يوجد فيها يعني بالنسبة إلى كلّ روحٍ علمية التكوين أن ترى تلك الأشياء أقلّ ممّا هي بالفعل. ما يُضاف مادياً إليها، يُنقصها روحياً.

نفوري من المتاحف أعزوه إلى هذا الوضع من أوضاع الروح. المتحف بالنسبة إلي، هو الحياة بتمامها، حيث الرسوم، دائماً متقنةٌ تماماً، وحيث انعدام الإتقان - إن وجد - يمكن أن يكون عائداً فقط إلى نقصٍ في نظرة المشاهد...

كل البنائين

من الأمور الطريفة أنَّ كلّ البنائين الكبار كانوا رجالاً مطبوعين، على الأقل من حيث النَّقاء الخلقي. ميلتون، دانتي، فرجيل، فلوبير،

هوغو نسبياً، سويّ وقوي من حيث درجة الطبع المناسبة لدرجة البناء.

سحابة دخان

غالبية الناس يصيبها المرض من عدم معرفتها بقول ما تراه وما تفكِّر فيه. يقولون لا شيء أشقّ من تعريف سحابة دخان بواسطة كلمات: من الضروري، يقولون، أن نضع في الهواء، باليد خالية من الأدب، الحركة، - الملفوفة تصاعدياً وبنظام، الحركة التي معها يمكن للصورة المجرَّدة للأرصفة أو السلالم أن تبرز للعيون، لكن دائماً عندما نتَّفق على أنَّ القول يعني التحديد، نكون قد عرَّفنا بدون صعوبة سحابة دخان: إنها دائرةٌ متصاعدة لا تبلغ أبداً حدّ الانغلاق. أغلبية الناس، تعرف هذا جيداً، لكنها لا تجرؤ على تعريفه على هذا النحو، لأنها تفترض التعريف ذاته. سأقدم تعريفاً أفضل: هالةٌ من دخان هي دائرةٌ افتراضية تنتشر متصاعدة بدون أن تتحقَّق ملموسياً أبداً. لكن التعريف، مع ذلك لا يزال مجرداً. سأبحث عمّا هو ملموس، وكل شيء سيكون مرئياً: هالة الدخان هي حية بدون حية ملفوفة عمودياً في لا شيء.

الأدب كله ينبني على مجهود جعل الحياة واقعية. الحياة، كما يعرف الجميع. هي لاواقعية بصفةٍ مطلقة في واقعيتها المباشرة؛ الحقول، المدن، الأفكار، هي أشياء خيالية، وليدة إحساسنا المعقَّد بأنفسنا نحن. كل الانطباعات غير قابلةٍ للنقل والإيصال إلّا إذا حولناها إلى أدب. الأطفال أدبيون جداً لأنهم يتكلمون كما يحسّون وليس كما ينبغي أن يحسّ مَن يحسّ بحسب ما يُمليه شخصٌ آخر. سمعت طفلاً، عرفته ذات يوم، يقول، وهو يريد أنه كان على حافة

البكاء - لا ، «لدي رغبة في البكاء» وهو التعبير الذي سيقوله شخصٌ راشد، أي بليد، ولكن: «لدي رغبةٌ في الدموع». وهذه العبارة، الأدبية، بإطلاق، إلى حدّ أنها قد تبدو متصنِّعة إن صدرت من شاعرٍ مشهور، تشير إلى الحضور الدافئ للدموع في الجفون الحاسّة بالمرارة السائلة. «لدي رغبةٌ في الدموع». لقد عَرَّف ذلك الطفل جيداً سحابته الدخانية.

أن نقول! أن نعرف كيف نوجد من خلال الصوت المكتوب والصورة الذهنية! هذا كله هو ما تساويه الحياة: وما يبقى عبارة عن رجالٍ ونساء؛ غراميات مفترضة، وأباطيل زائفة، مفرّات من النسيان، أناس متحركون - مثل دويبات تبرز لدى رفع حجرٍ من الأحجار، تحت الحجر الضخم والمجرد للسماء الزرقاء التي بلا معنى.

1930-7-27

متعة الفن

الفن يحرِّرنا تحريراً خادعاً من دناءة الكينونة. إننا إذ نُعايش أذيّات وشتائم هاملت أمير الدنمارك، نعايش كذلك دناءاتنا.

الحب، الحلم، المخدرات والمسمّمات، هي أشكالٌ أساسية للفن، أو بالأحرى لإنتاج المفعول نفسه الذي ينتجه الفن، لكن الحب والحلم والمخدرات تقود كلها إلى انجلاء الوهم الخاص بكلّ منها. الحلم لا بد أن نستيقظ منه بعد نوم نكون فيه خارج الحياة. وثمن المخدرات يؤدي بانهيار ذلك الوجود الفيزيقي نفسه الذي نشّط وحفز الذات، لكن في الفن لا وجود لزوال الوهم لأنّ الوهم تمّ القبول به منذ البداية. لا حاجة للاستيقاظ من الفن، لأننا لا ننام

فيه، بالرغم من حلمنا فيه. في الفن لا وجود لأيّ ضريبةٍ أو غرامة يتوجب أداؤها مقابل الاستمتاع به.

المتعة التي يقدمها لنا، لأنها ليست متعتنا بشكلٍ من الأشكال، لسنا ملزمين بأداء ثمنها أو الندم عليها.

بالفن يدرك كل ما يستهوينا بدون أن يكون منا - أثر الخطوة، الابتسامة، المقدّمة للآخر، الغروب، القصيدة، الكون الموضوعي.

أن تمتلك معناه أن تفقد. أن تحسّ بدون أن تمتلك ما تحسّه يعني أن تحتفظ به، لأن ذلك معناه اجتلاب جوهر شيءٍ ما.

إستيتيقيا اليأس

لأننا لم نعُد قادرين على استخلاص الجمال من الحياة، علينا أن نبحث على الأقل عن استخلاص الجمال من عدم قدرتنا على استخلاص الجمال من الحياة. لنجعل من فشلنا انتصاراً، شيئاً إيجابياً ومرفوعاً بأعمدةٍ، بجلال وإذعانٍ روحي.

إذا لم تمنحنا الحياة غير صومعةٍ للانعزال، فلنُحاول تزيينها بظلال أحلامنا، رسومنا وألواننا/ مختلطة/ ناحتين نسياننا تحت البرانية الساكنة للحيطان.

لقد أحسستُ دائماً مثل كلّ حالم، أنَّ وظيفتي كانت هي الإبداع. ولأنني لم أعرف قطّ كيف أقوم بمجهود أو أستثير مقصداً، فقد توافق الإبداع لدي دائماً مع الحلم، مع الرغبة أو التمني، ومع الإتيان بحركات، بالحلم بالحركات التي تمنيت أن أستطيع القيام بها.

بالعينين مغمضتين

يبدو لي أنَّ الأدب الذي هو الفن مقترناً بالفكر، والإنجاز بدون لطخة الواقع، ينبغي أن يكون الهدف الذي يجب أن يتَّجه إليه كل مجهودٍ إنساني، إنْ كان إنسانياً بحق، وليس مجرد شيءٍ زائد على ما هو حيواني. أعتقد أنَّ التعبير عن شيء من الأشياء يحافظ على نقاء ذلك الشيء وينزع عنه الرعب. الحقول في التعبير هي أكثر خضرة ممّا هي في الواقع. للزهور إنْ كانت موصوفةً بعباراتٍ تعرّفها في هواء المخيلة، ألوانُ ديمومة لا تسمح بها الحياة الخلوية.

الفعل والحركة يعنيان الحياة، والتعبير أو الكلام يضفي الاستمرارية على الحياة. ما هو واقعي في الحياة إنما اكتسب واقعيته ممّا أضفي عليه من وصف. النُقّاد يشيرون إلى أنَّ القصيدة: قصيدة المنزل الصغير، المقفاة، لا تريد أن تقول شيئاً سوى أنّ ثمة نهاراً جديداً، لكن القول أنَّ النهار جميل أمرٌ صعب والنهار جميل، النهار نفسه، يمضي. علينا، إذن، أن نحتفظ بالنهار الجميل في ذاكرةٍ مزهرة وممتدة. وأن نزرع بالزهور وبنجومٍ جديدة حقول أو سماوات البرانية الفارغة والعابرة.

الكلّ هو ما نحن إياه، والكل سيكون، بالنسبة إلى مَن يتبعوننا في تنوّع الزمن موافقاً لما نتخيّله عنه، أي لما نصنعه به، بخيالنا نحن. أعتقد أنَّ التاريخ، في بانوراماه الباهتة، ليس بأكثر من مرورٍ متصل لتأويلاتٍ شتى، توافق شهاداتٍ ساهية. الروائي هو نحن جميعنا، ونحن نحكي كلّ ما نراه، لأنّ الرؤية معقَّدة مثل كلّ شيء.

لدي في هذه اللحظة كثيرٌ من الأفكار الأساسية، كثيرٌ من الأشياء الميتافيزيقية التي ينبغي أن تُقال، أحسّ بالتعب فجأةً، أقرِّر ألّا أكتب شيئاً وألّا أفكر في شيء بعد الآن، وأن أترك حمى القول

تهبُني الحلم، وأنا أصنع بعينين مغمضتين، مثل قط، احتفالات من كل ما كان بإمكاني أن أقوله.

يا ابن العماء والليل

أهدأ أخيراً. كل ما كان أثراً وتبديداً يمحي من الروح كما لو يكن موجوداً. أبقى وحيداً وهادئاً. الساعة التي مضت هي مثل تلك التي تحوَّلت عندي إلى دين. لا شيء، مع ذلك، يجذبني نحو الأعلى، لا شيء يشدّني إلى الأسفل. أشعر أنني حر، كما لو كففتُ عن أن أكون موجوداً، محتفظاً بوعي ما عشت.

طمأنينتي، أجل، طمأنينتي. سكينةٌ هائلة، ناعمة، تنزل حتى عمق كينونتي. الصفحات المقروءة، الواجبات المنجزة، خطوات وحظوظ العيش - كلّ هذا تحوَّل عندي إلى ظلٍّ غامض، هالةٌ منظورة بالكاد. تحيط بشيء هادئ لا أعرف ما هو. الجهد الذي ضمّنته، تارةً وأخرى، نسيان الروح؛ التفكير الذي دسستُ فيه، تارةً وأخرى، نسيان الفعل - كلاهما يتحوّل عندي إلى ما يشبه حناناً من دون إحساس، وشفقة مبتذلة وخاوية.

ليس هذا بالنهار البطيء والناعم، الغائم والرطب. ليس بالنسيم الناقص، لا شيء تقريباً. ثمة ما هو أكثر قليلاً من الهواء الذي لم يعُد يحسّ الآن. لا، ليس باللون المجهول للسماء الزرقاء هنالك وهنالك.

لا. لا، لأنني لا أحسّ. أرى بدون انتباهٍ ولا وسيلة. أعاين متنبهاً حفلاً لا وجود له. لا أحسّ الروح، لكنني هادئ. الأشياء الخارجية الجلية والساكنة، حتى التي لا تتحرك هي بالنسبة إلي مثلما كان العالم بالنسبة إلى المسيح، عندما من أعالي الكون أغواه

الشيطان. إنها لا شيء، وأعرف أنَّ المسيح لم يقع في الغواية، إنها هباء - الأشياء - ولا أفهم كيف أنَّ الشيطان، الشائخ من كثرة العلم، فكّر بالغواية تلك.

اجري خفيفة، يا حياةً لا تحسّ، يا جدولاً في سكونٍ ثابت تحت أشجار النسيان! اجري لَذْنَةً، يا روحاً جاهلة، يا ضوضاء لا ترى أبعد من الأغصان الساقطة! اجرِ لا مُجدياً؛ اجرِ بلا سبب، يا وعياً خالياً من الوعي، يا بريقاً غامضاً من بعيد، بين خضرة أوراق، لا يعرف من أين أتت وإلى أين تمضي! اجرِ، اجرِ، ودعني أنسى!

هبّةٌ مبهمة ممّا لا أجسر على أن أعيشه، علاجٌ خسيس لما لا يمكن أن يحسّ، ضوضاء لامُجدية لِمَا لَمْ أرد التفكير فيه، أنظر متمهلاً، انظُرْ واهناً، انظُرْ من خلال الزوابع ما ينبغي أن تملكه، ومن المنحدرات ما سوف يعطاك، انظُرْ إلى الظل أو صوب الضوء، يا أخ العالم، انظُرْ إلى الزهرة أو إلى الهاوية. يا ابن العماء والليل، متذكراً، في أي زاويةٍ من زواياك، أنَّ الآلهة قد جاءت فيما بعد، وأنَّ الآلهة أيضاً تمضي.

1931-6-5

مُلحق

(ترتيلة اليأس)

ضُمّي اليدين، وضعيهما بين يدي، أوه يا حبيبتي. أريد، متكلماً بصوتٍ ناعم ومهدهد، مثل معترفٍ بخطاياه، أن أحدِّثك عمّا يبقى ممّا نحقِّقه من رغبةٍ فيما لم نحققه. أريد أن أصلي معك، صوتي مع إصغائك، ترتيلة الـ/ اليأس/ لا يوجد عمل فنان لا يمكن أن يكون أكثر كمالاً. أجود القصائد، مقروءاً بيتاً بيتاً، سيمتلك القليل من الأبيات الخالية من الجودة. القليل من المقاطع المفتقرة إلى الجِدَّة، ولا يمكن أن يكون في مجموعه إلّا في منتهى الكمال.

آه للفنان الذي يُعير انتباهه لهذا، ويفكِّر فيه ذات يوم! لن يعرف عمله البهجة أبداً ولا أحلامه الطمأنينة.

هذا الفنان سيكون شاباً بدون شباب وسيشيخ مستاءاً.

ولماذا الحاجة إلى التعبير؟ سيكون من الأحسن بالنسبة إلى القليل ممّا يُقال، ألّا يُقال أبداً.

لو كان بإمكاني أن أفهم كم هو التنازل جميل، لكنتُ سعيداً على الدوام، على نحوٍ مؤلم!

لماذا أنتِ لا تحبين ما أقول بالأذنين اللتين بهما أسمع ما

أقول. أنا نفسي لو سمِعْتُني أتكلَّم عالياً، لمَا سَمِعَتْنِي الأذنان اللتان بهما أسمعني متكلماً بصوتٍ عالٍ بطريقة الأذن الباطنية نفسها التي بها أسمعني مفكراً كلماتي. قد أخطئ، مصيخاً إليّ، وعليّ - حينئذٍ - أن أسائلني مراتٍ عديدة عمّا أردتُ قوله، كَمْ يخطئ الآخرون فهمي!

من أيّ غباوات قُدَّ فَهمُ الآخرين لنا.

لا يمكن لمن يرغب في ألّا يكون مفهوماً أن يظفر بمتعة رؤية نفسه مفهوماً، للمعقدين فقط وغير المفهومين يحدث هذا؛ والآخرون، - البسطاء، ومَن يستطيع الغير فهمهم، أولئك لا يحسّون أبداً بالرغبة في أن يكونوا مفهومين.

(رواقٌ داخليّ)

في الساعات التي كان فيها المشهد هالةً من حياة، والحلم مجرّد حلم، ألَّفْتُ، آه يا حبيبتي، في سكون الطمأنينة، هذا الكتاب الغريب ببوابات مفتوحة في نهاية ممرّ أشجار حور في منزلٍ مهجور.

لكي أكتب الكتاب قطفت روح كلّ الأزهار، وباللحظات المتلاشية لأغاريد كل الطيور نسجت خلوداً وعطالة. نساجة (. . .)، جلست أمام نافذة حياتي ونسيت أنني عشتُ وكنت، ناسجاً أكفاناً لكي أكفن ضجري في ملاءات كتانٍ نقي مصنوعة لأجل مذابح صمتي، (. . .).

أنا أهديك هذا الكتاب لأنني أعلم أنه جميل وعديم النفع. لا شيء يعلمنا شيئاً، لا شيء يدعو إلى الإيمان، لا شيء يجعلنا نحسّ. جدولٌ يجري صوب هاوية - رماد تبدِّدها الريح. . .

- لقد وضعت روحي كلها في تأليفي غير أنني لم أفكِّر فيه حال

كتابتي له، بل في نفسي فقط، لأنني حزين، وفيك أنت لأنك لا أحد.

لقد أحببتُ هذا الكتاب لأنه سخيف؛ وأريد أن أهبه للغير لأنه عديم النفع؛ ولأنه لا يصلح لشيء، لذلك أريد منحك إياه، أنا أهبك إياه. . .

صلي لأجلي عند قراءتك إيّاه، امنحيني بركة حبك له ثم انسيه مثل شمس اليوم مقارنةً بشمس البارحة (مثلما أنسى نساء الأحلام اللواتي لم أعرف قط كيف أحلمهن). يا برج صمت اشتياقي ليكُن هذا الكتاب ضوء البدر الذي جعلك امرأةً أخرى في ليل السر القديم!

يا نهر النقصان المتألم، ليكن هذا الكتاب المَرْكب المتروك، يمضي عبر مياهه منحدراً لكي ينتهي في بحرٍ محلوم.

يا مشهد الاغتراب والنسيان، ليكن هذا الكتاب كتابك مثل ساعتك، وليقترن بلامحدوديتك مثلما بساعة الأرجوان الزائف.

المُنتظرة العابرة

أنهارٌ تجري، أنهارٌ خالدة تحت نافذة سكينتي. أرى الضفة الأخرى دائماً ولا أعرف لماذا لا أحلم بأن أكون/ هناك/ ، آخر وسعيداً. ربما لأنك وحدك تتسلين، ووحدك تهدهدين ووحدك تنوحين وتحتفلين.

أيّ قداسٍ أبيض أوقفته كي تَمْنَحِيني بركة كونك موجودة؟ في أيّ نقطةٍ متموِّجة من الرقصة تتوقفين فجأة، والزمن بصحبتك، لتجعلي من توقفك جسراً إلى روحي، ومن بسمتك أرجواناً لأبَّهتي؟

أنت تَمُّ طمأنينة إيقاعي، قيثارة ساعاتٍ خالدة، قيثارةٌ متقلبة

لأحزانٍ/ صوفية، أنت المنتظرة والعابرة، التي تجرح وتداوي، التي تُذَهِّبُ بالألم الأفراح وتتوّج بالورود الأحزان.

أي إله خلقك؟ أي إلهٍ محسود من الإله الذي خلق العالم! أنت لا تعرفين ذلك، أنت لا تعرفين أنك لا تعرفينه، أنت لا تريدين معرفة حتى عدم المعرفة. لقد جرّدت حياتك من كلّ غاية، لقد أحطت بهالة اللاواقعية ظهورك، ارتديت بدلة الكمال واللاممسوسية، لكي لا تقبلك الساعات، ولا تبسم لك الأيام، ولكي لا تأتي الليالي لتضع القمر بين يديك كيما تبدين مثل زنبقة.

تساقطي، أوه/ حبيبتي/ ، ورقات، على بتلات أجمل ورودي، وأكمل زنابقي، بتلات أقحوانات (. . .) ذات الشذا الفواح على نغم اسمك.

وأنا سأموت حياتك فيَّ، أوه أيتها العذراء التي لا ترقب أيّ عناق، ولا تبحث عن أيّ قبلة، ولا تُذبل أي فكر.

أيتها الشّعلة

I

أنت ليس لك وجود، أعرف ذلك جيداً، لكن أأعرف يقيناً أنني موجود؟ أنا الذي أوجدك بداخلي، هل سأمتلك حياةً واقعية أكثر منك، أكثر من حياتك التي تحبين؟

أيتها الشعلة المتحوِّلة إلى هالة، إلى حضورٍ غائب، إلى صمتٍ إيقاعي وإلى أنثى، إلى شفقٍ من لحمٍ غامض، إلى قدحٍ منسيّ لأجل المأدبة، بلور/ مرسوم/ بيد رسام، حلم في عصور وسطى لأرضٍ أخرى.

كأس وقربان في احتفالٍ عفيف، مذبحٌ مهجور لقدسيةٍ لا تزال على قيد الحياة، تويج زنبقٍ محلوم في حديقةٍ لم يدخلها أحد. . .

أنت الشكل الوحيد الذي يولد الضجر، لأنك دائمة التغيُّر مع أحاسيسنا لأنك إذ تقبلين فرحنا تهدهدين ألمنا، وأنت بالنسبة إلى ضجرنا الأفيون الذي يلهي والحلم الذي يريح، والموت الذي يصلب اليدين.

يا ملاكاً (. . .) من أي مادةٍ صنعت مادتك المجنَّحة؟ أي حياة تشدّك إلى الأرض، أنت الطيران الذي لا يرتفع أبداً عن الأرض، أنت الصعود المحبوس، حركة انخطافٍ وراحة؟

(نهاية (آخر مقطع))

نحن نخلق - يا مَن هي بالكاد لي - أنت بوجودك، وأنا برؤيتي إياك، فناً مختلفاً عن كلّ فن. من جسدك، جسد خابية عديمة النفع عرفت أنا كيف أستخرج/ روح أشعار جديدة/ وعلى إيقاع موجتك الصامتة عرفت أناملي المرتعشة البحث عن الخطوط الغادرة لنثرٍ ملوَّث بسبب كونه مسموعاً.

أنت الابتسامة الشجية، للُغز المرئي لـ/ شهيقي، الصامت/ للـ. . [. . .] يداك العازفتان على القيثارة تغمضان لي العينين، والجفنين، عندما سأموت أنا من تكريس حياتي كلها لبنائك. وأنت، التي لست أحداً، ستكونين على الدوام، أوه أيتها السامية، الفن المحبوب للآلهة التي لم توجد قط، والأم العذراء والعقيمة للآلهة التي لن توجد أبداً.

من حلمي

سأجعلك من حلمي بك الكائن الأقوى، وحزني، حالما أكلِّم بهاءك، سيمتلك أنغاماً من الشكل، منعرجات من مقاطع شعرية، إشراقات فجائية مثل إشراقات الأشعار الخالدة.

غابة الانخطاف

أعرف أنني استيقظت وأنني لا أزال نائماً. جسدي القديم، المنهك من كوني حياً، يقول لي إن الوقت ما زال مبكراً... أشعر بأنني محمومٌ من البُعد. أغتم، لا أدري لماذا...

في سباتٍ صاحٍ ولارماديّ أتجمد بين النوم والسهد، في حلمٍ هو ظلّ للحلم. انتباهي يطفو بين عالمين ناظراً إلى عمق البحرِ وعمق السماء، وأنا لا أعرف أين أنا ولا بماذا أحلم.

ثمة ريح من ظلال تذرو رماد أهداف ميتة فوق يقظتي. يسقط من سماءٍ مجهولة ندى ضجرٍ فاتر. غمٌّ هائل خامد يلمس الروح من الداخل، ويحركني، مثلما يحرك النسيم رؤوس الأشجار.

في المخدع السقيم الفاتر، يبدو الفجر من هناك بالكاد بخاراً من ظلّ معتم. كلي انبهام هادئ... لماذا ينبغي أن يشرق النهار؟... معرفة إشراقه تكلِّفني الكثير، كما لو أنّ ظهوره تمّ بمجهودٍ خاص مني. أهدئ نفسي ببطء غامض. أتخدر، أطفو في الهواء، بين السهر والنوم، نوعٌ آخر من الواقع ينبعث، وأنا وسطه، غير عارفٍ من أين عدم هذا...

واقعٌ ينبعث، لكنه يطفئ هذا الواقع، واقع هذا المخدع الفاتر، واقع الغابة الغريبة. الواقعان معاً يتعايشان في وعيي المكبّل، مثل دخانين مختلطين.

ومَن هي هذه المرأة التي ترتدي معي بدلة الملاحظ في هذه الغابة الغيرية، لماذا عليَّ أن أسأل نفسي للحظة؟... أنا لا أعرف أن أرغب في معرفة...

المخدع الغامض زجاجٌ معتم من خلاله، واعياً به، أرى هذا المشهد الذي أعرفه منذ زمنٍ طويل، ومنذ زمنٍ بعيد عرفت مع هذه المرأة التي أعرفها واقعاً آخر. عبر لاواقعيتها أحسّ فيّ قروناً من معرفتي بتلك الأشجار وتلك الأزهار وتلك الاتجاهات المنحرفة وكينونتي تلك المتسكِّعة هنالك، كينونتي القديمة المتجلية أمام ناظري، حيث معرفتي بوجودي في ذلك المخدع ترتدي ظلال النظر المعتمة...

من حينٍ إلى حين، وفي الغابة التي من بعيد أراها وأحسّها، ثمة ريحٌ بطيئة تمسح دخاناً، وذلك الدخان هو الرؤية الواضحة والمعتمة للمخدع الذي أنا فيه الآن، ولذلك الأثاث الغامض ولبروده الليلي. بعدئذٍ، تمرّ تلك الريح فتتحول كلها إلى مشهد ذلك العالم الآخر...

أحياناً أخرى، تبدو هذه الغرفة الضيِّقة بالكاد رماداً لضباب في أفق هذه الأرض المختلفة... وثمة لحظات تغدو فيها هذه الأرض التي نطؤها هناك هي هذا المخدع المرئي...

أحلم وأنفقد، من جراء ازدواج كينونتي المشكَّلة من أناي مُضافاً إليه تلك المرأة. ثمة عياءٌ كبير ونارٌ سوداء تستهلكني... ثمة اشتياقٌ سلبي يتمثَّل في هذه الحياة الزائفة التي تضغط علي...

آه يا سعادة مغشاة!... يا مكوثاً دائماً في مفترق طريقين!... أحلم، من وراء انتباهي هنالك حلمٌ آخر معي... ولربما لم أكن أنا سوى حلمٍ من أحلام ذلك الآخر الذي لا وجود له...

ما أبعد الضجر عن ناظري هنالك في الخارج؛ ما أقرب هذه الغابة هنا إلى عيني الأُخريَيْن!

وأنا، الذي أنسى تقريباً ذلك المشهد عندما أكون بعيداً عنه، إنما أحسّ بالشوق إليه عندما أمتلكه، وأبكيه وأتوق إليه عندما أمرّ به...

الأشجار! الأزهار! التخفّي الوارف الظلال للطرقات!...

نتجول أحياناً، تحت أشجار الأرز والخروب ولا أحد منا يفكر في أن يعيش. لحمنا كان بالنسبة إلينا عطراً غامضاً، وحياتنا صدى ضوضاء نبع. تتشابك أيدينا ونظراتنا تتساءل عمّا تعنيه الشهوة والرغبة في تجسيد وهم الحب في اللحم...

في حديقتنا كانت هنالك زهور كل الأشكال... ورود الضواحي الملفوفة، زنابق ذات بياض ميّال للاصفرار، زهور خشخاش تنحجب إنْ لم يجلب احمرارها الانتباه إلى حضورها، بنفسجات في الضفة المجعدة للسطيحات، أذينات الفأر الصغيرة، زهور الكاميليا العقيمات الأريج... و، مندهشين من قمم الأعشاب العالية، نرى زهور عباد الشمس المعزولة، تنظر إلينا بخيلاء.

نحن مسسنا الروح المنظورة كلها بالبرودة المرئية للطحالب وقد امتلكنا، عند مرورنا جنب النخيل، الحدس الأهيف بأراضٍ أخرى. والدموع لدينا صعدت إلى الذكرى، لأننا حتى لم نكن، على سعادتنا، سعداء...

أشجار بلوط مثقلة بقرونٍ معقودة تجعل أقدامنا تتعثر بالملامس الميتة لجذورها. أشجار الموز... ومن بعيد، بين شجرة وأخرى تتدلى في صمت عرائش العناقيد المسوّدة للعنب...

حلمنا بالعيش يمضي أمامنا، مجنحاً، ونحن امتلكنا لأجله

ابتسامةً مماثلة وغيرية، مؤلفة في الأرواح، بدون أن يرى بعضنا بعضاً، بدون أن يعرف الواحد عن الآخر أكثر من الحضور المدعوم بساعدٍ ضد الإحساس المتخلى عنه للساعد الآخر الذي يحسّه.

حياتنا لا تملك داخلاً. كنا خارج ذواتنا وكنا آخرين. كنا يجهل بعضنا بعضاً كما لو أننا ظهرنا لأرواحنا بعد رحلةٍ عبر الأحلام...

كنا قد نسينا الزمن، والفضاء الشاسع أصبح صغيراً داخل انتباهنا. خارج تلك الأشجار القريبة، تلك العرائش المعزولة، تلك الجبال الأخيرة في الأفق، أكان ثمة شيء واقعي؟ جديرٌ بالنظرة المفتوحة المتَّجهة إلى الأشياء الموجودة؟...

في الساعة المائية لنقصنا، ثمة قطرات حلم منتظمة تقيس ساعات لاواقعية... لا شيء يستحقّ العناء، آه يا حبي البعيد، سوى أن نعرف كم هو ناعم أن نعرف ألّا شيء يستحق العناء.

الحركة الساكنة للأشجار؛ الهدوء الساكن للينابيع؛ النفس اللامحدَّد للإيقاع الباطني للأنساغ؛ تغلغل الليل بطيئاً في الأشياء. يبدو أنه أتاها من الداخل كي يمدّ يد التوافق الروحي للاكتئاب البعيد، والقريب من الروح، للسكون الشاهق للسماء؛ سقوط الأوراق الموزون واللامُجدي، قطرات الانخطاف، التي تنقل المشهد كله إلى الأذن فيغتمّ فينا مثل وطنٍ مفقود، هذا كله، مثل حزامٍ محلول، يحيط بنا بشكلٍ غير آمن.

هنالك عشنا زمناً لم يعرف الانصرام، وفضاء لا ضرورة لوجود التفكير فيه. مرور خارج الزمن، تمددٌ يجهل عادات الواقع في الفضاء... يا لها من ساعات! آه يا رفيقة ضجري اللامُجدية، يا لها من ساعات لاطمأنينة سعيدة انتحلت ساعاتنا هناك... ساعات من

رماد الروح، أيام نوستالجية فضائية، قرون جوانية من فضاءٍ برانيّ. . . ونحن لم نسأل لأجل ماذا كان ذلك، ولماذا استمتعنا بمعرفة أنَّ ذلك لم يكن لأجل لا شيء.

نحن كنا نعرف هنالك، بفضل حدسٍ لم نكن نملكه، أنَّ هذا العالم المتألم الذي سنكون فيه اثنين، إن وُجِدَ، كان يقع فيما وراء الخط الأقصى حيث الجبال بخار أشكال، ووراء ذلك الخط لم يكن يوجد شيء. وبالنظر إلى مفارقة معرفتنا بهذا كله كانت ساعاتنا هنالك معتمة مثل كهف في أرض مُتطَيِّرين، وإحساسنا بها، كان غريباً مثل شبح مدينةٍ موريسكية في مواجهة شفقٍ خريفيّ. . .

ضفافُ بحارٍ مجهولة تلامس، في أفق سمعنا، شواطئ لن نتمكن أبداً من رؤيتها، وقد كانت سعادتنا أن نسمع ثم نرى فينا، ذلك البحر الذي كانت بلا ريب تمخره سفن شراعية لأهدافٍ أخرى غير تلك الأهداف النافعة والموجَّهة من الأرض.

انتبهنا فجأة، مثل من ينتبه إلى أنه على قيد الحياة، إلى أنَّ الجو كان مليئاً بتغريد الطيور، وأنَّ التموُّج المفروك للأوراق، مثل عطورٍ سندسيةٍ قديمة، كان أكثر تغلغلاً فينا من إدراكنا بالإنصات إليه.

وهكذا، وضع صخب الطيور، وحفيف الأشجار والعمق الرتيب والمنسي للبحر الخالد حول حياتنا المهجورة هالةً من عدم معرفتنا بها. هنالك ننام مستيقظين أياماً، فرحين بكوننا لا شيء، بعدم امتلاكنا رغبات ولا آمال، بنسياننا ألوان الحب وطعم الكراهية. اعتقدنا أننا خالدون. . .

هنالك نعيش ساعات مفعمة بإحساسات مغايرة بالساعات، ساعات نقصانٍ فارغ كلها كمال بسبب ذلك، ساعات منحرفة في مقابل اليقين المستطيل للحياة. . . ساعات إمبراطورية مودعة،

ساعات ترتدي أرجواناً مستهلَكاً، ساعات هوت إلى هذا العالم من عالمٍ آخر مليء بزهو امتلاك أحزان أكثر لاعقلانية.

وقد آلَمَنَا الاستمتاع بذلك، آلمنا... لأن ذلك المشهد فضلاً عن امتلاكه لصفة المنفى الهادئ، كان يعرف أننا من هذا العالم، كله كان مُنَدَّى بأبَّهة ضجرٍ غامض، كئيبٍ وهائل وفاسد مثل انحطاط إمبراطوريةٍ مجهولة...

الصباح ظلٌّ من ضوء، على ستائر غرفة نومنا. شفتاي اللتان أعرف أنهما شاحبتان، تعرفان عدم رغبتي في امتلاك حياة.

الهواء في غرفتنا المحايدة ثقيلٌ مثل حلواني. انتباهنا الغافي والغافل عن سرّ هذا كله خامل مثل ذيل ثوب مجرور في احتفال وقت الغسق.

لا شوق من أشواقنا يملك مبرِّراً للوجود. وَعْيُنا بُطْلانٌ مُبيّتٌ من فتورنا المجنح.

لا أدري أيَّ زيوت من ظلال معتمة تدهّن فكرتنا عن جسدنا. التعب الذي لدينا هو ظلٌّ لتعبٍ قادم إلينا من البعيد البعيد، مثل فكرتنا عن أنَّ حياتنا موجودة...

لا أحد منا يملك اسماً أو وجوداً معقولاً. لو أمكننا أن نثير الضوضاء حتى نقطة تخيّلنا مقهقهين، لضحكنا بلا شك من اعتقادنا أننا أحياء. البرودة المدفئة للملاءة تداعب أقدامنا (أنت وأنا بالتأكيد) التي يحسّ كلّ منها، بعريه.

لِنُنزِلْ، يا حبيبتي، أوهام الحياة وطرائقها. لِنَلُذْ بكينونتنا نحن... لن نخلع من الإصبع الخاتم السحري الذي إذا حرّكناه، يدعو جنيات السكون والظل وعفاريت النسيان...

وهنا، عند الحلم بالحديث عنها، تنبعث مرةً أخرى أمامنا الغابة

المتكثّرة، لكنها الآن أكثر تكدُّراً من تكدرنا وأشدّ حزناً من حزننا نحن. من أمامها تفرّ، مثل غيمةٍ تتناثر، فكرتنا عن العالم الواقعي، - أعاود امتلاكها في حلمي التائه - تلك التي تحيط بها هذه الغابة الملغّزة...

الأزهار، الأزهار التي عشتها هناك! أزهارٌ عشتها هناك! أزهار تسميها النظرة بأسمائها، لدى التعرُّف عليها، ورحيقها تمتصه الروح، لا منها هي، ولكن من نغم أسمائها... زهور كانت أسماؤها تتلى في ترانيم، جوقات عطورٍ رنانة... أشجارٌ ذات خضرةٍ شهوية تضع ظلّها وبرودتها في أسمائها... ثمار كان اسمها غرزة أسنان في روح لبابها... ظلال كانت بقايا عهود قديمة سعيدة... نصاعات، نصاعات عالية، كانت بسمات أكثر صفاء من المشهد الذي كان يتثاءب عن كثب... يا للساعات المتعدِّدة الألوان!... هنيهات - أزهار، دقائق - أشجار، يا للزمن المحبوس في مكان، زمن ميت من فضاء ومغطى بأزهار، وبعطور أزهار، وبعطور أسماء الأزهار...

يا لجنون الحلم في ذلك السكون الغيري!...

حياتنا كانت حياةً أخرى... حبنا كان عبيراً للحب... عشنا ساعاتٍ مستحيلة، مليئةٍ بكينونتنا نحن... وهذا لأننا كنا نعلم بكلّ ما في لحمنا من لحم أننا لم نكن واقعيين...

كنا لاشخصيين، تجويفات لذواتنا كنا، شيئاً آخر أياً كان... كنا ذلك المشهد المتلاشي في صورته عن ذاته نفسها... ولأنه كان اثنين - في الواقع وفي الوهم - كذلك كنا نحن اثنين، بدون أن يعرف الواحد منهما أنه الآخر، وإن كان الآخر غير الأكيد لا يزال يعيش...

عندما ظهرنا بغتةً أمام تأسّن البحيرات، أحسسنا بالرغبة في البكاء. . . هنالك، كان لذلك المشهد عينان مغرورقتان بالدموع، عينان ساكنتان، مليئتان بسأمٍ من الوجود لا يحصى. . . مليئتان، أجل، بسأم الوجود، بوجوبٍ أن يتجسَّد الوجود في شيءٍ معين، واقعاً كان أم وهماً؛ وقد كان ذلك السأم وطنه وصوته في بكم ومنفى البحيرات. . . أما، نحن السائرين دوماً بدون معرفة ولا رغبةٍ في السير، فقد بدا أننا ما زلنا متخلفين عن ضفة تلك البحيرات، وأنَّ الكثير منّا مكث وأقام فيها مندهشاً مذهولاً. . .

ويا للرعب السعيد والبارد، رعب عدم وجود أحدٍ هناك! ولا حتى نحن، الذين مررنا من هناك، كنا هناك. . . لأننا لم نكن لا أحد. ولا حتى كنا أحداً ما. . . لم نمتلك الحياة الضرورية لكي يميتها الموت. كنا من الوهن والضعة بحيث أنَّ ريح المرور جعلتنا عديمي الفائدة والزمن كان يمرّ علينا مداعباً إيانا مثل نسيم على قمة نخلة.

لم نمتلك عهداً ولا غاية، كل نهايات الأشياء والكائنات مكثت لدينا عند باب فردوس ذلك الغياب. لقد توقفت، كيما نحسّ إحساسها، الروح الغليظة للجذوع، الروح المنتشرة للأوراق، الروح الناضجة للأزهار، الروح المائلة للثمار. . .

وهكذا نموت حياتنا، نموتها منفصلين بتيقُّظ بدون أن ننتبه أننا كنا شخصاً واحداً فقط، وأنّ كل واحدٍ منا كان وهماً للآخر، وكلّ واحد، كان بداخل ذاته، الصدى المحض لكينونته الخاصة. . .

داخل وعيي تبرز ضجات غامضة، واضحة ومتفرقة، تملأ إدراكي لغرفتنا. . . غرفتنا؟ غرفة أيِّ اثنين أقصد، وأنا شخصٌ واحد؟ لا أعرف. الكل ينصهر ويبقى واقع فقط - ضباب يغرق فيه ارتيابي، ينام فيه، فهمي إيّاي، مهدهداً بالأفيون. . .

مثل سقوطٍ هائل تحطّم الصباح، من القمة الشاحبة للساعة. . .
لقد انتهت من الاحتراق، يا حبيبتي، في منزل حياتنا، شظايا أحلامنا. . .

«لننفُضْ أيدينا» من الأمل، لأنه خؤون، ومن الحب، لأنه متعِبٌ، من الحياة، لأنها تُسمِنُ ولا تشبع، وحتى من الموت، لأنه يجلب أكثر ممّا يُراد وأقل ممّا ينتظر.

لنتخلّص أيتها السهرة، من سأمنا ذاته، لأنه يشيخ من ذاته ولا يجرؤ على أن يكون الغمّ كله الذي هو إياه.

لا بكاء، لا كراهية، لا رغبة. لِنُغطِّ، أيتها الصامتة، بكفنٍ من كتان رقيق الصورة الجامدة والميتة لنقصاننا[1].

أشياء مُستحيلة

مررنا، شباناً حينئذٍ، تحت الأشجار العالية والحفيف المبهم للغابة. في الفجوات المنبعثة فجأة من مصادفات الطريق، يحيلها ضوء القمر إلى بحيرات، بينما كانت الهوامش، المتشابكة الأغصان أشدّ حلكة من الليل نفسه. النسيم الغامض للغابات الكبيرة كان يتنفس بصخب وسط الأشجار. تحادثنا عن الأشياء المستحيلة، وأصواتنا كانت جزءاً من الليل، من ضوء القمر ومن الغابة. كنّا نسمعها كما لو كانت أصواتاً أخرى.

الغابة المشبوهة لم تكن تفتقر إلى المسالك. هنالك كانت طرق

(1) نشر هذا النص في مجلة *A Aguia*، العدد 2، المجلد الرابع، عام 1913، ص 38-42، موقّعاً باسم فرناندو بيسوا مع الإشارة إلى مرجع «كتاب اللاطمأنينة، قيد التهييئ». لم يعثر الناشرون على الأصل.

مختصرة نعرفها، تتردَّد خطواتها فيها بين بقع الظلال والاهتزاز المبهم للضوء القاسي والبارد. تحادثنا عن أشياء مستحيلة وكلّ المشهد الواقعي كان مستحيلاً كذلك.

(1913؟)

غابة الانخطاف

كما نمشي مجتمعين ومنفصلين، وسط الانزياحات المباغتة للغابة. خطواتنا، التي لم تكن خطواتنا، كانت تسير متَّحدة، متوافقة، في الطراوة المتفجرة للأوراق، وهي تفرش، مصفرّة ونصف مخضرّة، الأرض اللامستوية. لكنها كانت تسير منفصلة أيضاً لأننا كنا فكرين اثنين، لم يكن يجمعنا غير ما لم نكن إياه واطئاً الأرض المسموعة نفسها.

الخريف كان في بدايته، وبالإضافة إلى الأوراق التي كنا نطؤها، كنا نسمع بصفة مستمرة صحبة الريح المفاجئة، سقوط أوراق أخرى، ضجة أوراق عبر كلّ الأماكن التي مررنا بها. لم يكن هناك من مشهد غير الغابة المكشوفة للجميع. كانت كافية، مع ذلك، كمكان بالنسبة إلى أمثالنا ممّن لم نمتلك في الحياة غير السير المتناغم والمتنوع فوق الأرض الميتة. كان ذلك - فيما أحسب - نهاية نهار، أي نهار، في خريف ككلّ فصول الخريف، في الغابة الرمزية والحقيقية.

أي منازل، أي واجبات، أي رباطات عاطفية تركناها، نحن أنفسنا لن نعرف كيف نقول ذلك. لم نكن حينئذٍ، غير سائرين بين ما نسيناه وما لم نعرفه، فرسان مثال مهجور تسعى بهم أقدامهم، لكن في هذا بالذات، كما في الصوت الثابت للأوراق الموطوءة، وفي

الصوت المفاجئ دوماً للريح الملتبسة، كان يكمُن سرّ ذهابنا أو إيابنا، إذ، لأننا لم نكن نعرف الطريق أو لماذا ضرورة الطريق، كذلك لم نكن نعرف إنْ كنّا بصدد الانطلاق أو الوصول. ودائماً، كان من حوالينا، من دونما مكان محدَّد أو سقوط مرئي، صوت الأوراق المكتومة يُغرق الغابة في نعاس كئيب.

ما من أحد أراد التعرُّف على الآخر، بالرغم من ألّا أحد منا، سيواصل السير بدون الآخر. الرفقة التي بيننا كانت ضرباً من حلم امتلكه كلانا. صوت الخطوات المتناغمة ساعد كلًّا منا على التفكير بمعزل عن الآخر، والخطوات المنعزلة نفسها كانت توقظ كلينا. الغابة كانت كلّها فجوات زائفة، كما لو كانت هي نفسها مزيفة، أو في لحظة التلاشي، لكن التزييف ما كان لينتهي، ولا الغابة لتتلاشى. خطواتنا المتناغمة حافظت على ثباتها، وحول ما كنا نسمعه من الأوراق الموطوءة كان يمر الصوت الملتبس للأوراق المتساقطة، في الغابة المتحوِّلة إلى الكلّ، في الغابة المعادلة للكون.

مَن كنا؟ أكنا اثنين أو هيأتين لشخص واحد؟ لم نعرف ولم نسأل. كان لا بد من وجود شمس هناك. إذ لم يكن الوقت ليلاً في الغابة. لا بد أنّ عالماً ما كان موجوداً كيما تكون الغابة موجودة بالفعل. نحن، مع ذلك، كنا غير معنيين بما كان هناك أو بما يمكن أن يكون، جوالين ومتناغمين ولا متناهين فوق الأوراق الميتة، منصتين مجهولين ومستحيلين لأوراق متساقطة. ليس غير.

وشوشة ريح مجهولة، فظّة تارة، ناعمة تارة، حفيف أوراق جسدية، يعلو طوراً، ويحنو طوراً آخر، ثغرة، شك، غاية تحققت، وهم لم يكن حتى موجوداً: الغابة، السائران فيها، وأنا، أنا الذي لا

أعرف مَن أنا منهما، وهل كنت واحداً أو اثنين أو لا أحد، وقد عاينتُ، بدون أن أشاهد النهاية، المأساة المتمثلة في ألا وجود سوى للخريف والغابة، والريح دائماً مفاجئة وملتبسة، والأوراق دائماً ساقطة أو تتساقط. ودائماً، كما لو أن ثمة بالفعل شمساً ونهاراً في الخارج، دائماً. كانت الرؤية جلية تماماً، بدون أي نهاية، في السكون الصاخب للغابة.

1932-11-28

(سيد الصمت)

أحياناً عندما تنهار وتجفّ لديّ، قوة الحلم، ويصبح حلمي الوحيد التفكير في أحلامي فقط، حينئذٍ، خامداً وحيياً، أتصفَّح الأحلام، مثل كتاب يتصفح ويُعاد تصفّحه بدون أن يمتلك أكثر من كلمات لا يمكن تفاديها. حينئذٍ تحديداً أسأل نفسي عمّن تكونين أنت. أيتها الصورة التي تعبر كلّ مشاهدتي المتأنية لمناظر/ أخرى/ ولبواطن قديمة ولاحتفاليات باذخة من صمت. في كلّ أحلامي ترافقينني سواء بدوت حلماً، أو واقعاً زائفاً. معك أزور جهات هي ربما أحلامك أنت، أراضي هي ربما أجسادك أنت من غياب ومن لاإنسية، هي جسدك الجوهري اللامجسد في هضبة هادئة أو في تلٍّ ذي صورة باردة في حديقة قصر محجوب. ربما ليس لديّ حلم آخر غيرك أنت، ربما في عينيك مقرباً وجهي من وجهك، أقرأ تلك المشاهد المستحيلة، والملالات المصطنعة، تلك المشاعر التي تحيا في ظلّ تعبي وكهوف طمأنيناتي. أليست مشاهد أحلامي طريقتي في عدم الحلم بك؟ مَنْ يدري؟ لا أعرف مَن تكونين أنت، ولكن هل أعرف على وجه اليقين مَن أكون أنا؟ أو أعرف ماهية الحلم لكي

أعرف ما تساويه تسميتي لك حلمي؟ وماذا لو كنت جزءاً مني، أساساً واقعياً؟ وماذا لو كنت أنا الحلم وأنت الواقع، أنا محض حلم من أحلامك وما أنت بالحلم الذي حلمته؟

أيّ نوع من الحياة تملكين؟ أيّ نمط من الرؤية هو نمط الرؤية التي أراك بها؟ صورتك؟ ليست هي نفسها أبداً، غير أنها لا تتغير البتة. وماذا عن جسدك؟ هو نفسه على الدوام عارياً وكاسياً. وضعه جالساً هو وضعه قائماً نفسه. ماذا يعني هذا؟ أوَليس يعني شيئاً؟

حرريني

حياتي كئيبة جداً، وأنا لا أفكر في بكائها، أوقاتي مزيفة بالكامل، وأنا لا أحلم بإقصائها.

كيف لا أحلم بك؟ كيف لا أحلم بك؟

يا سيدة الساعات التي تمر، يا مريم المياه الآسنة والطحالب الميتة، يا أيتها الإلهة الوصية على الصحارى المفتوحة والمشاهد السوداء للأحجار العقيمة...، حرريني من شبابي.

يا معزيةَ مَن لا عزاء لهم، يا دمعة من لا يعرفون البكاء أبداً، يا ساعة لا تدقّ البتة - حرريني من الفرح ومن السعادة.

- يا أفيون كلّ أشكال الصمت، يا قيثارة مخلوقة لكي لا يعزف عليها البتة، يا بلور البُعد والنسيان، اجعليني مبغضاً من طرف الرجال وهزأة بالنسبة إلى النساء.

- يا مداعبة بدون حركة، يا حمامة ميتة تحت الظل، يا تموّج الساعات الممضاة في الحلم/، حرريني من التديُّن لليونته، ومن الإلحاد، لجبروته (...).

- يا زنبقاً يذبل المساء، يا صندوق ورود ذاوية، صمتاً بين مجد ومجد، املئيني بالغثيان من الحياة، بالكراهية لوجودي صحيحاً، بالاحتقار لكوني شاباً.

اجعليني عقيماً ولا مجدياً، يا حامية كلّ الأحلام الغامضة، اجعليني خالصاً بدون سبب لأكون كذلك، ومزيفاً بدون حب مني لأكون كذلك، آه يا ماء الأحزان المعيشة الجاري، ليكُن فمي مشهد ثلوج، وعيناي بحيرتين ميتتين، حركاتي سقوطاً بطيئاً لأشجار شائخة، آه يا ترتيلة اللاطمأنينات، يا قداس أتعاب منتهك، أوه يا تويج الزهرة، أيتها السيالة، آه يا صعوداً!...

(و) من المحزن أن يكون عليّ أن أصلي لك كامرأة، بدل أن أحبك (...) وكرجل، بدل أن أرفع عيني أحلامي مثل شروق - مضاد للجنس اللاواقعي للملائكة التي لم تدخل السماء قط!

(بعد 1916)

سيدة الليل الأوحد

أنت من جنس الأشكال المحلومة، من الجنس الباطل للصور (...).

صور جانبية خالصة أحياناً، موقف خالص أحياناً أخرى، وأخرى حركات بطيئة بالكاد

- أنت حالات، مواقف روحية في/...

لا يعتري حلمي بك أي افتتان جنسي بك، وأنت ترتدين اللباس الغامض لسيدة الصمت الباطنية. نهداك ليسا ممّا يمكن التفكير في تقبيلهما. جسدك كله لحم - روح، لكنه ليس روحاً، بل جسد هو.

مادة جسدك ليست روحية إلا أنها روحانية (أنت امرأة ما قبل السقوط[1])...

رعبي من النساء الواقعيات الممتلكات للجنس هو الطريق الذي منه ذهبت للقائك. بالنسبة إلى نساء الأرض اللائي، لكي (...) عليهن أن يتحملن الثقل المتحرك لرجل معين، من بمقدوره أن يحبهن بدون أن يستبعد الحب من النظرة المسبقة للذة خادمة الجنس (...) مَن بإمكانه احترام الزوجة بدون أن يكون عليه التفكير في أنها امرأة أخرى في وضع آخر من أوضاع المضاجعة؟...

.. أي قرف لا يستثير فينا فكرة الأصل الجسدي لروحنا - لذلك القلق (...) الجسدي حيث يولد لحمنا، ويتشوه، مهما كان جميلاً، من الأصل ويغثينا منذ الولادة.

المثاليون الزائفون للحياة - الواقعية ينظمون أشعاراً للزوجة، يركعون أمام فكرة الأم. مثاليتهم بمثابة لباس حاجب، وليس حلماً خالقاً.

أنت وحدك الخالصة من الشوائب، يا سيدة الأحلام، التي أستطيع تصورها كمعشوقة بدون أن أتورط في الدنس، لأنك لست واقعية. بإمكاني أن أتصورك أماً، لأنك لم تتدنسي أبداً ولا حتى بفظاعة أن تكوني موضوع إخصاب أو ولادة.

كيف لا أعبدكِ وأنتِ وحدك الجديرة بالعبادة؟ كيف لا أتولّه بك وأنت وحدك الجديرة بالحب؟ مَن يدري إن لم أكن بحلمي بك أخالك واقعية في واقع آخر؛ إن لم تكوني من نصيبي هنالك، في عالم مختلف نقي، حيث نتبادل الحب بدونما جسد قابل للمس،

---

(1) لعلّه يقصد الهبوط من الفردوس.

بطريقة أخرى للعناق وأوضاع أساسية أخرى للمضاجعة، من يدري! لم لا تكونين موجودة بالفعل، ولا أكون أنا من خلقك ولا حتى مَن رآك برؤية أخرى، باطنية وخالصة، في عالم آخر وكامل؟ من يدري إن لم يكن حلمي بك هو لقائي ببساطة بك، وحبي لك هو تفكيري فيك، إن لم يكن إزدرائي للحلم ونفوري من الحب هو الاشتياق الغامض الذي انتظرتك به، جاهلاً إياك، وهو التوق الذي أحببتك به بدون أن أعرفك؟

لا أدري حتى ما إذا لم أكن قد أحببتك فعلاً... ربما كنت نتاج نوستالجيتي الخاصة، / يا جسداً من غياب/ ، يا حضوراً من مسافة، أيتها الأنثى، ربما لأسباب غير كونك أنثى.

بإمكاني التفكير فيك عذراء وأماً أيضاً لأنك لستِ من هذا العالم. الطفل الذي تحملين بين ذراعيك لم يكن قط أكثر فتوة لكي يتحتم أن تلوثيه بحملك إياه في بطنك. لم تكوني أبداً مختلفة عمَّن أنتِ إياه؟ فكيف لا تكونين عذراء بسبب ذلك؟ أستطيع أن أحبك وأن أعبدك لأن حبي لا يتملكك وعبادتي لك لا تعبدك.

أعرف اليوم - الخالد وأعرف أن رياحي الغربية محض أشعة من شمسك، ممسوسة بك.

أعرف الشفق اللامرئي وأعرف أن أشواقي وقلاقلي مداد لحيرتك، وظلال لالتباسك.

أعرف الليل - الشامل، كُونِي[1] الليل الأوحد ولْأضِعْ أنا فيك ولأنسَ ذاتي فيك، ولتسطع أحلامي، أنجماً، في جسدك الذي من مسافة ونفي...

---

(1) عُودي.

فلأكن أنا ثنيات معطفك، جواهر تاجك، الذهب الآخر في خواتم أصابعك.

الرماد في مسكنك. ما همّني إن كنت أنا غباراً. ثمة نافذة في غرفتك. ما همني أن أكون أنا فضاءها. ساعة (. . .) ساعتك المائية. لا ضير في أن أمضي أنا إن كُنْتُ لأجلك سأبقى. لا ضير في أن أموت إن كان علي لكوني لك، ألّا أموت. ما ضرني أن أفقدك إن كان فقداني إياك يعني استعادتي لك.

يا محقِّقة الأباطيل، مطاردة عبارات لا ترابط بينها. ليهدهدني صمتك، لينومني (. . .) لتداعبني كينونتك الخالصة ولتهدئني ولتعزيني، أوه (. . .)، إمبراطورة/ الغياب/ ، الأم - العذراء لكل السكينات، يا مسكن الأرواح البادرة، الملاك الحارس للمنبوذين، المشهد الإنساني - اللاواقعي لشدة كآبته - الكمال الخالد.

(سيدة الصمت)

أنت لست امرأة. لا تستثيرين حتى بداخلي شيئاً يمكن أن أحسه أنثوياً. عندما أتحدث عنك فقط تسميك الكلمات أنثى، والتعابير ترسمك امرأة. ولأنّ عليّ أن أكلِّمك بحنو وحلم عاشق، لذلك تعثر الكلمات على الصوت المناسب لمعاملتك كامرأة.

لكنك في جوهرك الغامض، لست بشيء. لا تملكين أيّ واقعية، ولا حتى واقعيتك أنت وحدها. لا أراك، تماماً، ولا أحسّك. لكأنك إحساس موضوعه ذاته وذاته موضوعه، إحساس منتمٍ بالكامل إلى باطنيته الخاصة. أنت دوماً المشهد الذي كنت على وشك أن أتمكن من رؤيته، حاشية الثوب الذي كدت - ولم أستطع - أن أراه، ضائعاً في آنٍ أبدي فيما وراء منعرج الطريق. صورتك

الجانبية هي كونك لا شيء، ومحيط جسدك اللاواقعي يفكّ بجواهر منفصلة طوْقَ فكرة ما يحيط بك. لقد مررت قبل الآن، وقبل الآن مضيت، وقبل الآن أحببتك - الإحساس بأنك حاضرة هو الإحساس بهذا تحديداً.

تشغلين فاصل أفكاري وفجوات انطباعاتي. لذلك لا أفكِّرك ولا أحسّك، غير أن أفكاري تغدو/ أفيونات/ إحساسي بك، وأحاسيسي (...) من استحضارك.

يا قمر الذاكرات المفقودة في المشهد الحالك، قمر الفراغ الناصع لنقصاني الإدراكي...

أنحني على وجهك الأبيض في المياه الليلية للاطمأنينتي، في معرفتي بأنك قمر في سمائي أو قمر غريب غواص، لا أدري كيف تتظاهرين بأنك إياه.

مَن كان باستطاعته أن يخلق النظرة الجديدة التي رأيتك بها، الأفكار الجديدة والأحاسيس التي كان بإمكاني أن أفكِّرك وأحسك بها!

لدى محاولتي لمس معطفك، تتعب تعبيراتي من جراء المجهود الممدَّد لحركات اليدين ويعتري كلماتي عياء متصلب ومؤلم. لذلك يتقوس تحليق طائر يبدو أنه يقترب ولا يصل أبداً، حول ما أردت أن أقوله لك، لكن مادة عباراتي لا تُحسن تقليد مادة أو صوت خطواتك أو أثر نظراتك أو اللون الحزين والفارغ لمنحنى الحركات التي لم تقومي بها البتة.

(نهاية)

لو تحادثت مصادفة مع شخص بعيد، أو لو هطل المطر بالفعل على الأرض، لا تنسي أبداً ألوهيتك الأصلية لحلمي. في الحياة أعرف دائماً ذلك الذي يمكن أن يكون حلماً للمنعزلين وليس ملجأ المحبين أبداً. . . أنجزي عملك، عمل خابية عديمة النفع. ما من أحد يقول عنكِ ما يمكن أن يقوله النهر عن الضفاف الموجودة لتحدّده. . .

لتكن عبقريتك مكرَّسة للاجدوى، وحياتك فناً للنظر إليها، للنظر غير المتطابق مع ذاته أبداً. لا تكوني شيئاً سوى هذا بالذات.

اليوم أنت بالكاد الصورة المختلفة لهذا الكتاب، الساعة المجسدنة والمنفصلة عن الساعات الأخرى. لو كنت متيقناً من وجودك، لأقمتُ ديانة فوق حلم عشقي لك.

أنت ما ينقص الجميع. أنت ما ينقص كل شيء لكي نستطيع التعلق به دائماً. المفتاح المفقود لأبواب المعبد، طريق القصر/ المستور/ ، الجزيرة البعيدة التي لا يسمح الضباب أبداً برؤيتها. . .

رسام نائم

لا أحلم بمضاجعتك، لأجل ماذا؟ ذلك سيكون معناه أن أترجم حلمي إلى فعل سوقي. أن تضاجع جسداً ما يعني أن تغدو مبتذلاً. الحلم بمضاجعة جسد هو ربما أسوأ من مضاجعته، إنه الحلم بأن تكون سوقياً ومبتذلاً - وتلك هي الفظاعة العليا.

لنكن عفيفين ما دمنا نرغب في أن نكون عقيمين، إذ لا شيء يمكن أن يكون أكثر دناءة بإنكارنا لقانون الخصوبة في الطبيعة، من احتفاظنا منا فقط بما يروقنا فيما ننكره. النُّبل لا يوجد مجزَّءاً.

لنكن عفيفين مثل المتنسكين، أصفياء مثل أجساد محلومة، راضين بأن نكون هذا كله، مثل رويهبات مجنونات. . .

ليكن حبّنا صلاة. . . ادهنيني برؤيتك، ولأصنع أنا من لحظات حلمي بكِ سبحة تغدو فيها ملالاتك صلاتي الربانية وقلقي الملائكي. . .

لنمكث هنا أبداً مثل هيأة رجل في واجهة زجاجية قبالة هيأة امرأة في واجهة أخرى. بيننا حيث للظلال أصوات خطوات باردة، تمضي الإنسانية. . . ضوضاء صلوات، أسرار (. . .) تمرّ بيننا، . . . أحياناً يمتلئ الهواء با (. . .) بالبخور. أحياناً أخرى، من هذه الجهة أو تلك، تنضح هيأة تمثال ما بالصلوات. . . ونحن دائماً الواجهات الزجاجية نفسها، بالألوان تصبغها علينا الشمس، في الخِطوط عندما ينزل الليل. . . الحقب لا تلمس صمتنا الزجاجي. . . هنالك في الخارج ستمرّ حضارات، ستنفجر الثورات، وستحتشد الاحتفالات، وستمضي وديعة شعوب. . . ونحن آه يا حبي الرجولي، سنملك على الدوام الحركات اللاامجدية نفسها، الوجود الزائف نفسه، ونفس (. . .).

إلى أن تتقوض الكنيسة ذات يوم، وينتهي كل شيء أخيراً، بعد قرون عديدة، وإمبراطوريات. . .

لكننا نحن الذين لا نعرف الكنيسة، سنواصل العيش، لا أدري كيف، لا أعرف في أي فضاء، ولا أعرف في أي زمن، لكوننا بلوراً خالداً، ساعات من رسم ساذج مرسوم من رسام نائم منذ زمن بعيد تحت قبر غوطي حيث يقيم ملاكان، يغزلان من مرمر فكرةَ الموت بيدين مضمومتين.

إنكار

أصلّي لك يا محبوبتي لأنّ حبي لك أصبح صلاة، غير أنني لا أتصورك كمحبوبة ولا أرفعك أمامي كقديسة.

لتكن أفعالك تمثالاً للتنازل، وحركاتك عموداً للامبالاة كلماتك/ مرايا[1]/ للإنكار.

حيث الماء...

أطواق جواهرك الزائفة أحبَّت معي أفضل ساعاتي. الأزهار المفضَّلة كانت من قرنفل، ربما لأنها لا تحمل معنى الأناقة. شفتاك تحتفيان باعتدال بالسخرية الكامنة في ابتسامتهما. أتدركين جيداً مصيرك؟ إنه مصنوع ليعرف لا لكي يفهم لأن السر المكتوب في حزن عينيك قد ظلَّل شفتيك/ المتنازلتين/ (المتخليتين)/ . وطننا يوجد بعيداً جداً عن الورود. في شلالات حدائقنا كان الماء شفافاً بالسكينة. في التجويفات الصغرى الخشنة للأحجار، حيث الماء المصطفى، كانت ترقد أسرار لنا تعود إلى طفولتنا، أحلام بالحجم الساكن لجنودنا الرصاصيين، الذين كان يمكن وضعهم على صخور الشلال، في الإنجاز الإستاتيكي لعمل عسكري ضخم، لا تنقصه أحلامنا ولا افتراضاتنا.

(1) حرفياً: زجاج.

كتاب اللاطمأنينة أو جامع طوابع البريد[1]

نحن عاجزون عن الحب، يا ولدي. الحب هو أكثر الأوهام جسدية. أن تحب معناه أن تضاجع، اسمعْ. وماذا يضاجع الذي يحب؟ أيضاجع الجسد؟ لكي نضاجعه يتحتَّم علينا أن نمتلك مادته، أن نلتهمه، أن نُدخله فينا...

وتلك الاستحالة ستكون عابرة، لأن جسدنا نفسه عابر ومتغيِّر، ولأننا لا نضاجع جسداً آخر (نضاجع انطباعنا عنه فقط)، ثم، لأننا، ما إن نضاجع ذلك الجسد المحبوب، حتى يغدو في ملكنا، ويكفّ عن كونه آخر، ولذلك، ومع اختفاء الكائن، الآخر، سيتلاشى الحب.

أنضاجع الروح؟ - اصغِ إليّ في صمت - نحن لا نضاجعها حتى روحنا ليست روحنا. فكيف يمكن بالنسبة إلى ما تبقّى مضاجعة روح معينة؟ بين روح وأخرى ثمة هاوية كونهما روحين.

ماذا نضاجع إذن؟ ماذا نضاجع؟ ما الذي يقودنا إلى أن نحب؟ الجمال؟ أو نضاجعه بحبنا له؟ المضاجعة أشدّ ضراوة وهيمنة لجسد ما، لا تمتلك لا الجسد، ولا الروح، ولا حتى الجمال. مضاجعة جسد لذْنٍ لا تعانق الجمال، تعانق اللحم الخلوي والدهني؛ القبلة لا تمسّ جمال الفم، بل اللحم الرطب للشفتين الفانيتين، الجماع نفسه محض اتصال، اتصال مدعوك وقريب، وليس باختراق واقعي، حتى من جسد لجسد... ماذا نضاجع نحن؟ ماذا نضاجع؟

---

(1) هذا مشروع آخر لم يتمكن بيسوا من إنجازه. نشر عام 1913 تحت اسم **تلميحات إلى جامع طوابع البريد**.

انطباعاتنا نحن ربما؟ هل الحب بالأقل مضاجعة منّا لأنفسنا، داخل أحاسيسنا وانطباعاتنا؟ - أهو على الأقل - طريقة للحلم بوضوح، وللحلم بأننا موجودون؟ على الأقل بعد اختفاء الانطباع، تبقى دائماً ذكراه معنا، وهكذا نضاجع بالفعل...

حتى من هذا ينجلي وهمنا. نحن لا نضاجع حتى انطباعاتنا. الذاكرة، في النهاية، هي انطباع الماضي وكل انطباعٍ هو وهمٌ من الأوهام...

أصِغْ إليّ، أصِغْ إليّ دائماً - أصِغ إليّ ولا تنظر عبر النافذة المفتوحة إلى الضفة الأخرى للنهر، ولا الشفق (...) ولا صفير قطار يقطع المسافة (...) - أصِغْ إليّ في صمت...

(مرمدةٌ مائلة، الشفق يسكب علينا زيتاً من (...) حيث الساعات، بتلات الورود، تطفو مشاعة).

أشباح وأكاذيب

أنا لا أمتلك جسدي. كيف يمكنني أن أمتلكه؟ أنا لا أمتلك روحي، كيف يمكنني أن أتملكها؟ أنا لا أفهم روحي، فكيف سأفهم من خلالها؟

انطباعاتنا تمر - كيف نتملّكها إذن -... هل يمتلك أحد نهراً يجري أو ريحاً تهب؟

نحن لا نمتلك لا جسداً ولا حقيقة - ولا حتى وهماً من الأوهام. نحن أشباح من أكاذيب، ظلال من أوهام وحياتي فارغة من داخل ومن خارج. أيعرف أحدٌ حدود روحه، حتى يكون بمقدوره أن يقول: أنا هو أنا؟

لكنني أعرف أنَّ ما أحسّه، أحسّه أنا.

عندما يمتلك أحدهم ذلك الجسد، أيمتلكه مثلما أتملّكه أنا؟ كلا. إنه يتملّك انطباعاً آخر.

أنتملّك شيئاً نحن؟ إذا كنا لا نعرف ما نحن فكيف نعرف ما نتملك؟

الحسوي[1]

في غسق الأنظمة هذا الذي تموت فيه المعتقدات والعبادات يلفّها الغبار، تبقى إحساساتنا هي الواقع الوحيد. الوسواس الوحيد الذي يشغلنا والعلم الوحيد الذي يريحنا هو الإحساس.

ثمة زخرفية باطنية تتقوّى لديّ باعتبارها النمط الأعلى الذي يعطي حياتنا المعنى. لو كان بإمكاني أن أعيش حياتي ملفوفاً في أقمشة الروح لما كان لدي ما آسف عليه.

أنتمي إلى جيل - أو بالأحرى إلى جزء من جيل - فَقَدَ كلّ الاحترام للماضي وكل إيمان أو أمل في المستقبل. لذلك نحيا الحاضر برغبة وجوع مَن لا يملك شيئاً آخر. ولأن أحاسيسنا، وخاصة أحلامنا، لا تملؤها سوى الانطباعات اللامُجدية، حيث نلتقي بحاضر لا يذكّر لا بالماضي ولا بالمستقبل، لذلك نتوجّه مبتسمين إلى حياتنا الجوانية غير مكترثين بالواقع/ الكَمّيِّ/ للأشياء.

لسنا مختلفين ربما عن أولئك الذين همّهم الوحيد في الحياة هو الاستمتاع، لكن شمس انشغالنا الأناني تعيش لحظة الغروب...

نتماثل للشفاء. نحن، على العموم، مخلوقات لم تتعلّم أيّ فن

---

(1) حول الحسوية وهي الحركة الإستيتيقية لجماعة «أورفي» كتب بيسوا صفحات أخرى نشرت كذلك بعد وفاته.

أو مهنة، ولا حتى الاستمتاع بالحياة. بسبب استغرابنا من المعاشرات المطوّلة، نُصاب بالضجر من أفضل الأصدقاء بعد مصاحبتهم لمدة نصف ساعة؛ نشتاق إلى رؤيتهم فقط عندما نفكر في رؤيتهم، وأحسن الساعات التي نصاحبهم فيها هي فحسب تلك التي نحلم فيها بأننا نوجد بصحبتهم. لا أعرف إنْ كان هذا يدلّ على قلة صداقة... الأكيد هو أنَّ الأشياء التي نحبّها أكثر أو نظنّ أننا نحبها، لا تمتلك قيمتها الواقعية بالكامل إلا عندما نحلمها.

لا تعجبنا الفرجات. نحتقر الممثلين والراقصين. كل فرجة هي تقليدٌ منحطّ لما ينبغي أن يحلم وحسب.

لا مبالون نحن - ليس عن فطرة، ولكن بناءً على تربيةٍ للمشاعر تجبرنا على تقبُّلها العديد من التجارب المؤلمة على وجه العموم - تجاه آراء الغير، ودائماً مهذبون معهم، وحتى معجبون بهم أحياناً، بواسطة لامبالاة لا ينقصها الاهتمام، لأنّ العالم جدير بالاهتمام وبالقابلية المستديمة للحلم، ننتقل (...)

بدون أهلية للحب، تُتعبنا مسبقاً تلك الكلمات التي يتحتَّم التلفُّظ بها لنصبح محبوبين. بالنسبة إلى ما تبقّى، مَن منا يبتغي أن يكون محبوباً؟ عبارة «يتعبه أن يكون محبوباً»[1] لروني، ليست شعارنا الصحيح. فكرة أن نكون محبوبين تتعبنا نفسها، تتعبنا حتى الفزع.

حياتي حمى دائمة، عطشٌ دائم. الحياة/ الواقعية/ تزعجني مثل يومٍ حار. ثمة خساسة أكيدة في طريقة الانزعاج ذاتها.

(1914؟)

---

(1) عبارة وردت في روايةٍ مشهورة بالاسم نفسه لشاتوبريان.

مسيرة جنائزية من أجل ملك
بابييرا لويس الثاني

اليوم، جاء الموت، أكثر شحاً من أيّ وقتٍ مضى، في هيأة بائع إلى عتبة داري. أمامي نَشَرَ، بشحٍّ لا مثيل له، بُسُطَ حريرٍ ودمقس نسيانه وسلواه. تبسّم أمام معروضاته بدون أن يهتم برؤيتي إياه، لكن عندما حاولت الشراء، قال لي إنها ليست للبيع. لم يأتِ من أجل أن أرغب في معروضاته، ولكنه جاء بمعروضاته لكي يرغبني فيه. وعن سجاداته قال إنها تلك التي كانت تطؤها الأقدام في قصره السحيق؛ وعن أجواخ الحرير، قال لم يلبس غيرها في قصره الذي من ظلال؛ وعن دمقسه، بأنّ أجود أنواعه عبارةٌ عن شراشف تغطي واجهات إقامته فيما وراء العالم.

ثم بنعومةٍ فكّ رباط الميلاد الذي يشدني إلى عتبتي وقال: «دارك بلا نور» «فلأجل ماذا تريد امتلاك دار؟» وقال لي: «لا خبز في بيتك»، «فبماذا ستُدخل البسمة على مائدتك؟» «حياتك» قال لي «ليس لها رفيق: بمن ستضفي الفتنة على حياتك؟».

«أنا النور» قال، «أنا نور المنازل المطفأة، خبز الموائد الفقيرة، أنا الصاحبة المعتنية بالمتوحدين/ اللامفهومين/ . الحب في إمبراطوريتي غير متعبٍ إذ كله معاناة من أجل تملّكه؛ وهو لا يؤلم لأنّ عدم تملكه أبداً مَجْلَبَةٌ للعياء. يدي تستريح خفيفة على خصلات شعر مَن يفكرون، وينسون؛ على حضني يستند مَنِ انتَظَروا بلا جدوى ثم في النهاية استسلموا».

«حبهم إياي» قال، «لا عاطفية لديه ليستهلكها؛ ولا غيرة ليزيحها؛ ولا نسيان/ ليزيله/ . حب الناس لي أشبه بليلة صيف،

حينما ينام المتسوّلون تحت الندى، ويبدون ظلالاً على حافة الطرقات. من شفتَيَّ الخرساوين لا يخرج غناء شبيه بغناء الحوريات ولا موسيقى مثل موسيقى الأشجار والينابيع؛ غير أنّ حفاوة صمتي مثل موسيقى حائرة، ومداعبات سكينتي مثل خدر هبة نسيم».

«ماذا تملك أنت؟» قال، «ما الذي يشدّك إلى الحياة؟». الحب لا يبحث عنك، المجد لا يسعى إليك، السلطة لا تجدك. المنزل الذي ورثته ورثته متهدِّماً. الأراضي التي استقبلتها، أحرقت السماء/ بواكيرَها/ والشمس وُعُودَها. أنت لم ترَ بئر ممتلكاتك إلّا جافاً. ورقات مستنقعاتك تتعفَّن قبل أن تراها. الأوراق المريضة تغطّي الممرات وأشجار الحور من حيث لم تمرّ قدماك قط.

«لكن في مملكتي، حيث يهمّني الليل وحده، ستملك العزاء، لأنك لن تمتلك النسيان، لأنك لن تمتلك الرغبة؛ ستفوز بالراحة، لأنك لن تمتلك الحياة».

ثم أظْهَرَ لي كم هو عقيم أمل أفضل الأيام، . . . أظْهَرَ لي كيف أنّ النوم لا يداوي لأنّ الحياة تغدو أكثر إيلاماً عندما نستيقظ. وأظهر لي أنَّ الحلم لا يعرف الراحة لأنه مأهول بالأشباح - بظلال أشياء - وببقايا حركات، أجنَّة ميتة للرغبات، غنائم حوادث غرق المعيش.

وهكذا، طوى، وهو أكثر بخلاً من أيّ وقت مضى، سجاداته، التي خلبت عيني، وحريره الذي طمعت فيه روحي، ودمقسه الذي وحدها دموعي انهمرت عليه.

لماذا عليك أن تسعى إلى أن تكون مثل الآخرين، وأنت محكومٌ عليك بذاتك؟ لماذا عليك أن تضحك، إنْ كانت فرحتك ذاتها، عندما تضحك، زائفة لأنها وليدة نسيانك مَن أنت؟ لماذا عليك أن تبكي؟ إنْ كنت تشعر أنَّ البكاء لا ينفعك في شيء؟ . .

إنْ كنت سعيداً عندما تضحك. . .[1]؛ إن كنت سعيداً حينئذٍ لأنك لا تتذكر مَن أنت، أفلَن تكون أكثر سعادةً معي، حيث لن تتذكر شيئاً؟ لو استرحت كما ينبغي، لو مصادفةً نمت بدون حلم، فكيف لن تستريح في فراشي، حيث النوم لا أحلام فيه بتاتاً؟ لو لحظة نهضت لأنك رأيت الجمال، ونسيت ذاتك ونسيت الحياة، كيف لا تنهض في قصري، الذي جماله الليلي لا يعرف اختلافاً، ولا عمراً، ولا موازنة؛ في صالاتي لا توجد ريح تعكِّر الحلوانيين، ولا غبار يغطي الأرائك، ولا ضوء يغشي، شيئاً فشيئاً، المخمل والقماش، ولا من زمنٍ يذبل/ بياض الزخارف البيضاء.

تعالَ إلى أُلْفَتِي التي لا يعتريها التغيُّر؛ تعالَ إلى حبي الذي لا ينضب أبداً! اشرب من كأسي، التي لا تنفد، الرحيق العلوي الذي لا مرارة فيه ولا غل، والذي لا يسكر ولا يكدر. تأمل، من نافذة قصري، ليس صفاء القمر والبحر، اللذين هما شيئان جميلان ولذلك ناقصان، بل الليل الشاسع والأمومي، والتألق المُشاع للهاوية العميقة!

بين ذراعيّ ستنسى الطريق المؤلم الذي حملته إليهما. على حضني لن تشعر بعد بالحب الذي بحثت عنه! اجلس بجانبي، على عرشي، فأنت على الدوام الإمبراطور غير المتوج للسرّ والـ Gaal هنالك صحبة الآلهة ومجمع الأقدار، في المكان الذي لست فيه بشيء، وحيث لن تجد هذه الجهة أو تلك، ولن تحتاج إلى ما ينقصك، ولا حتى إلى ما يكفيك.

---

(1) ثمة كلمة مشكوك فيها تجعل المعنى غير واضح، أجبرتني على الاستغناء عن الجملة بكاملها.

سأكون قرينتك الأمومية، أختك التوأم، سأتزوج كلّ أحزانك، وستجد لديّ كلّ ما بحثت عنه ولم تجده، أنت نفسك ستضيع في كياني الصوفي، في وجودي المعدوم، في حضني الذي تتبدد فيه الآلهة [ ].

يا سيد اللامبالاة والتنازل، إمبراطور الموت والغرق، أيها الحلم الحي تائهاً، أيها الباذخ، بين خرائب ومنافي العالم!

يا ملك اليأس وسط الأبهات، يا سيد القصور التي لا تمنحك الرضا، معلم المغازلات والأبهات التي لا تنجح في إطفاء الحياة! ملك القبور المنتصب، الذي جاء في الليل وعلى ضوء القمر لكي يقصّ حياته للحيوات، فتى الزنابق المنزوعة الأوراق، الرسول الإمبراطوري لبرودة العاجات!

أيها الملك راعي التهجدات، فارس الأحزان المترجّل، بلا جاه ولا قرينة في وضوح الطرقات القمري، أيها السيد في الغابات والمنحدرات، يمضي عبر الوديان، لامفهوماً من البوادي، مخدوعاً عبر القرى، محتقراً عبر المدن!

أيها الملك السيد لقد اصطفاك الموت، شاحباً ومنسيّاً ومجهولاً، متوّجاً بين أحجارٍ مظلمة وشعور قديمة، في عرش ممكن نهائي، لافّاً إياك بثوبه المثالي، بالظلال، بميليشياه العجيبة. . .

فلتأتوا بغلمان، فلتأتوا بعذارى، بعبيد وإماء، احملوا الأقداح، الصينيات، الأكاليل، لأجل المأدبة التي يحضرها الموت. إيتوا بذلك وَلْتَأْتُوا بالأسود، بالرأس مكللاً/ بالريحان/ !

ليكن لفّاحاً ما تحملونه في الكؤوس، (. . .) ولتكُن الصينيات بنفسجية (. . .) من زهورٍ حزينة تذكّر بالحزن.

الملك يمضي لتناول/ العشاء/ مع الموت، في قصره العتيق، على ضفة البحيرة، بين الجبال، بعيداً عن الحياة، غريباً عن العالم.

نسمة انتباه تعتري الجناحين.

... سوف يصل، مع الموت الذي لا يراه أحد والـ (...) الذي لا يصل أبداً، عشقك للأشياء المحلومة كان هو ازدراؤك للأشياء المعيشة.

أيها الملك - البكر الذي احتقر الحب،

الملك - الظلّ الذي احتقر النور،

الملك - الحلم الذي لم يحبّ الحياة!

وسط الضجة الصمّاء للصنوج والطبول، الظل يُبايعك إمبراطوراً!

كان ثمة ضوء ساطع في الغروب قبل ميلادك في هذه الأقاليم التي يهيمن عليها الموت.

توجّوك بأزهارٍ سرية، بألوان مجهولة، بإكليلٍ غريب وضعوه عليك كما لو على إله مخلوع.

اعزفوا، أيها الرُّسُل، من أعلى الشرفات، محيين هذا الصباح العظيم!

ملك الموت سيصل إلى مملكته!

أزهار الجحيم، ورودٌ سوداء، قرنفلات بلون بياض القمر، خشخاش ذو حمرة مضيئة.

لأجلك أيها الموت

ولأجلك أنت، أيها الموت، تمضي روحنا واعتقادنا، أملنا وسلامنا!

سيد الأشياء الأخيرة، الاسم اللحمي للسرّ والهاوية شجِّعني وَعَزِّ مَن يطلبك، بدون أن يجرؤ على طلبك!

الأم - العذراء للعالم الباطل، شكل السقوط اللامدرك، اسحبي وانشري مملكتك على كلّ الأشياء - على الأزهار التي تتوجَّس الذبول، على الوحوش المرتجفة من الشيخوخة، على الأرواح التي ولدت كي تحبّك - بين خطأ ووهم الحياة!...

صناع الفتور نحن، مجتهدون فحسب في تعليم إزالة الأوهام. فضوليو الحياة. نراقب كلّ الأسوار، متعبون سلفاً من معرفة أننا لن نرى شيئاً/ من جديد أو جميل/

نسّاجي اليأس نحن، ننسج الأكفان وحدها - أكفاناً بيضاء للأحلام التي لا نحلمها بتاتاً، أكفاناً سوداء للأيام التي سنموت فيها، أكفاناً رمادية للحركات التي بالكاد نحلم بها، أكفاناً إمبراطورية - من - أرجوان لأحاسيسنا العديمة النفع.

عبر النواطير والوديان والضفاف (...) لـ (...) المستنقعات، الصيادون يصيدون الذئب واليحمور (...) والبط الوحشي أيضاً. نحن نحسدهم، لا لأنهم يقتلون، ولكن لأنهم يستمتعون (ونحن لا نستمتع).

ليكن تعبير وجهنا ابتسامة شاحبة، ابتسامة مَن هو على وشك البكاء، نظرة غامضة، مثل نظرة مَن لا يريد أن يرى، احتقاراً منتشراً عبر كلّ ملامح الوجه، مثل احتقار مَن يزدري الحياة ويعيشها فقط لكي يحتقرها.

وليكُن احتقارنا موجَّهاً نحو مَن يعملون ويصارعون وكراهيتنا لأجل المنتظرين الواثقين والمطمئنين.

(سفر لم يتم قط)

بسبب شفق خريفي غامض رحلت من أجل ذلك السفر الذي لم أقُم به قط.

كانت السماء بقية من دكنة ذهب كئيب، والخط الاحتضاري الجليّ للجبال، امتلك هالة كانت تتغلغل فيه ألوانها الميتة، الملطّفة. من الجانب الآخر للمركب (حيث البرودة أشدّ والليل أنفذ) كان المحيط يرتجف حتى الحدّ الذي يَعْتَمُّ فيه الأفق، وحيث بخار دُجُنَّةٍ طفا - واضعاً عتمات من ليل في الخط/ السائل/ والمعتم للبحر الأقصى - مثل غيمة في يومٍ حار.

كانت للبحر، أذكر، تدرّجات من ظلّ، من خليط تسربات متموِّجة ذات إشعاع غامض والكلّ كان ملغزاً مثل فكرة حزينة في لحظة فرح، لا أدري عن أيّ هاجس بنيوي تفتَّقت.

أنا لم أبحر من ميناء معروف ومحدَّد. ولستُ أعرف اليوم أيّ ميناء كان، لأنني لم أوجد بعد هناك. كذلك، لم يكن الهدف من سفري طلب موانئ غير موجودة - موانئ كانت المدخل فقط - نحو - الموانئ، خلجان أنهار منسيّة؛ مضايق بين مدنٍ لاواقعية لا شك أنكم فكَّرتم، لدى قراءتي، أنَّ كلماتي غير معقولة. ذلك لأنكم لم تسافروا قط مثل سفري.

أوَأبحرت أنا؟ لن أقسم على ذلك. لقد وجدتُ نفسي في جهاتٍ أخرى، في موانئ أخرى، مررتُ بمدنٍ ليست بتلك، ولو أنها هي وتلك الأخرى ليست مدناً على الإطلاق. أو أقسم لكم أنني أنا الذي رحلت وليس المشهد نفسه، وأنني أنا الذي زار أراضي أخرى وليست الأراضي الأخرى هي التي زارتني؟ لا أستطيع ذلك. أنا الذي، لا أعرف ما هي الحياة، لا أعرف إنْ كنت أنا الذي أعيش أم

أنها هي التي تعيشني (كيفما كان المعنى الذي يمتلكه فعل «عاش») أكيد أنني لن أقسم لكم على شيء.

لقد سافرت، أحسب ألّا فائدة في أن أشرح لكم أنني لم أستغرق لا شهوراً ولا أياماً ولا أيّ مدّة من الزمن في سفري.

سافرتُ في الزمن. أكيد، لكن ليس في تلك الجهة من الزمن التي نعدّها بالساعات، بالأيام والشهور؛ بل في تلك الجهة الأخرى سافرت، حيث الزمن لا يُقاس بأيّ معيار. فهو يمرّ بدون إمكانية قياسه، كما لو كان أسرع من الزمن الذي عشنا. قد تتساءلون مع أنفسكم، بالتأكيد عن معنى هذه العبارات. إياكم أن تخطئوا أبداً بهذه الصورة. اصرفوا النظر عن خطأ الاستفهام عن معنى الأشياء والكلمات. لا شيء له معنى.

في أيّ مركب قمت بذلك السفر؟ في بخارٍ ما. أو تضحكون./ أنا أيضاً، ومنكم أضحك أحياناً. مَن سيقول لكم، ولي أنا كذلك، أنني لا أكتب رموزاً لكي تفهمها الآلهة؟

لا يهمّ. سافرت عبر الشفق. لا تزال ترِنُّ في مسمعي الضجة الحديدية لرفع المرساة بالبخار في ذاكرتي. لا تزال تتحرك ببطء، قصد الدخول في وضعها الفاتر، أذرع مرفاع المرساة على ظهر المركب الذي كان ينوء تحت ناظري بالصناديق والبراميل، التي تحطمت فجأة، مأخوذة بواسطة سلسلة، من فوق الجانب الداخلي الأعلى للمركب، حيث ارتطمت، مرتجّة، لِتُسْلِمَ نفسها بعدئذٍ، للدفع تلو الدفع حتى يلقى بها فوق المخزن، إلى حيث، نزلت، بغتة (. . .) حتى الوصول، في عربة صماء من خشب، منسحقة، لكي يتمّ حلّها؛ ومباشرة صعدت السلسلة متحركة في الهواء، فعاد كلّ شيء ليبدأ من جديد، بصورة لامُجدية.

لماذا أقصّ عليكم هذا كله؟ لأنه من غير المعقول أن أقصّ عليكم هذا، علماً أنني قلت أنني عن سفري سأتحدث.

زرتُ قارات أوروبية جديدة، وقسطنطينيات أخرى، ورُحِّبَ بي لدى وصولي/ الشراعي/ في بوسفورات زائفة. أَمِنَ الوصول الشراعي تفزعون؟ ذلك ما قلت بالذات.

البخار الذي أبحرتُ فيه وصل متحوّلاً إلى مركب شراعي إلى المرفأ [. . .] هذا مستحيل. ذلك ما تقوله. لذلك حدث لي.

وصلتنا، في بواخر أخرى، أخبار عن حروب محلومة في هند مستحيلة. ولدى سماعنا الحديث عن تلك الديار اعترانا الحنين إلى ديارنا التي تركناها وراءنا،/ من يدري إنْ لم نكن في ذلك العالم تركناها.

(سفر لم يتم)

وهكذا أختبئ خلف الباب. لكي يراني الواقع عند دخوله. أختبئ تحت الطاولة حيث فجأة أثير الذعر في المستحيل. وحيث أنزع عني، كما لو كنت أفصل ذراعي عن عناق مفترض، الضجرين الكبيرين الآخذين بخناقي - ضجر قدرتي على أن أعيش وحدي ما هو واقعي، ضجر قدرتي على أن أتصوّر لوحدي - المستحيل.

هكذا ينتظر الواقع بكامله. هل انتصاراتي قصورٌ من رمال؟. . . من أيّ مادة إلهية قُدَّت جوهرياً القصور التي ليست من رمال؟

كيف عرفتم أنني بسفري على هذا النحو لم أحقق بالتباس؟. . .

أبتعث طفولتي، وألهو بأفكاري عن الأشياء كما لو كانت جنوداً من رصاص، كنت أصنع منها، وأنا طفل، أشياء تتنافر مع فكرة الجنود.

ثملاً من عثَرَاتي، أضيع عبر لحظات من إحساسي حياً.

(تصريحٌ بالاختلاف)

أمور الدولة والمدينة لا تمارِس أيّ سلطة علينا. لا يهمّنا أن تكون أمور البلاد مُدارة بشكلٍ سيئ أو زائف من قبل الوزراء ورجال البلاط. كلّ هذا يحدث هنالك في الخارج، مثل الوحل في الأيام المُمطرة. لا علاقة لنا بذاك الذي له في الآن نفسه علاقة مباشرة بنا.

وعلى نحوٍ مشابه لا تعنينا الاضطرابات الكبرى، مثل الحرب والأزمات الدولية، طالما أنها لا تدخل بيوتنا، لا تهمنا أبداً الأبواب التي تطرقها. هذا الذي يبدو مستنداً إلى احتقار هائل من الآخرين، يمتلك في الواقع من لدننا تقديراً مَشُوباً بالارتياب.

لسنا طيبين ولا محسنين - لا لأننا بعكس ذلك، بل لأننا لسنا لا هذا الشيء ولا أيّ شيء آخر. الطيبة هي رقة الأرواح الفظّة. وهي تمتلك بالنسبة إلينا أهمية فصل جرى في أرواح أخرى، وبأشكال تفكير أخرى. نراقب بدون أن نكفّ عن الاختبار. وظيفتنا هي ألّا نكون شيئاً.

لو كنا ولدنا في الطبقات المحرومة أو في غيرها ممّا يمكن الهبوط أو الصعود فيها، لكنا فوضويين. لكننا، للحقيقة، مخلوقات ولدت - على العموم - في فجوات الطبقات والتصنيفات الاجتماعية - تقريباً في ذلك الموضع الانحطاطي الموجود بين الأرستقراطية والبرجوازية، دائماً في الموضع الاجتماعي للعباقرة والمجانين الذين يمكن التعاطف معهم.

الفعل يضلِّلنا، لانعدام الأهلية الجسدية والأخلاقية. الفعل يبدو لنا لاأخلاقياً. أشكال التفكير كلها يحطّ منها التعبير بالكلمات التي تحوّلها إلى أشياء تخصّ الآخرين، وتجعلها غير مفهومة بالنسبة إلى مَن يفهمها.

تعاطفنا كبير مع العلوم الباطنية ومع فنون الخفي والمحجوب.
لسنا، مع ذلك، باطنيين. تنقصنا الإرادة الفطرية، وكذلك الصبر على تعهّدها على نحو يحوّلها إلى الأداة الصحيحة للسحرة والممغنطين. نحن نتعاطف مع العلوم الباطنية على الخصوص لأنها قد تعبِّر عن نفسها بطريقة تجعل كثيراً ممَّن يقرؤونها وحتى الكثير ممَّن يحسبون أنهم يفهمونها، لا يفهمون شيئاً. وإنَّ ذلك الوضع الغيبي هو الموقف الأعلى، وعلاوةً على ذلك، هو المنبع الناسخ لانطباعات الغيب والرعب: يرقات ما هو نجومي، الكائنات الغريبة لأجسام مختلفة يستدعيها السحر الاحتفالي في معابده، الحضور اللامجسَّد لمادة هذا المخطط، طافية حول حواسنا المغمضة، في السكون الفيزيقي للصوت الباطني - هذا كله يداعبنا بيدٍ لزجة، رهيبة، في الهجران والعتمة.

لكننا نتعاطف مع الباطنيين عندما يكونون رُسُلاً ومحبين للإنسانية؛ . . . الحجة الوحيدة التي تبرِّر اشتغال الباطني بما هو نجومي تتمثَّل في أنّ عمله مشروط بإستيتيقا عليا وليس بهدف إسداء معروف لأيّ شخص كان.

وحتى بدون وعي منا، يستبدّ بنا ميل تأسّلي إلى السحر الأسود، إلى الأشكال المحظورة للعلوم المتعالية، إلى سادة القدرة الذين باعوا أنفسهم للتناسخ المنحطّ وللعنة الأبدية. أعيننا الضعيفة غير الآمنة، تضيع، بغيرة أنثوية، في المقامات المقلوبة، في الطقوس المعكوسة، في المنعرجات المشؤومة للمنزلة المنحدرة.

الشيطان، يمارس علينا، بدون رغبةٍ منا، إغواء الفحل للأنثى.
حية الذكاء الماديْ التفَّت على قلبنا، مثل التفافها على الصولجان الرمزي لله الذي يعلن: عطارد، يا سيد الفهم.

أولئك الذين ليسوا لواطيين منا سيرغبون في امتلاك «شرف» أن يكونوا كذلك. انعدام القابلية للفعل بكلّ أشكاله يؤنث الشخص على نحوٍ لا يمكن تفاديه. نضيّع وظيفتنا الحقيقية، وظيفة ربات البيوت وسيدات القصور بدون عمل نعمله بسبب تغيير الجنس في تجسُّدنا الراهن. بالرغم من أننا لا نؤمن بهذا الأمر على الإطلاق، فإنّ دم السخرية يعرف كيف يؤدي دوره فينا كما لو كُنّا نؤمن به.

وهذا كله مردّه إلى الضعف لا إلى الشر. نحن نهيم منفردين، بالشر، لا لكونه شراً، ولكن لأنه أقوى وأكثر حدّة، وكلّ ما هو أقوى وأعنف يستميل الأعصاب التي يفترض أنها أعصاب امرأة. Pacca fortite[1] لا يمكن أن تتماشى مع طبعنا، نحن الذين لا نملك القوة، ولا حتى قوة الذكاء التي نملكها بالفعل. التفكير في اقتراف الخطيئة بقوة - هو أقصى ما يمكن أن تساويه تلك الإشارة الثاقبة، لكن ولا حتى ذلك يغدو ممكناً أحياناً بالنسبة إلينا: الحياة الباطنية نفسها تمتلك أحياناً واقعاً يؤلمنا لمجرَّد أنه واقع. وجود قوانين لتداعي الأفكار. مثل كلّ عمليات الروح يمثِّل إهانة لعدم انضباطنا الفطري.

ضريح تذكاري

...

مات من أجل الوطن، بدون أن يعرف كيف ولا لماذا. لقد امتلكت تضحيته مجد بقائها مجهولة. وهب حياته بكلّ نزاهة الروح: بالغريزة وهبها، لا بفعل الواجب؛ حباً للوطن، لا وعياً بالوطن.

---

(1) فلترتكب الخطيئة (أو فلتأثم بقوة) وردت بالإيطالية في الأصل.

لقد دافع عن الوطن كمن يدافع عن أمٍّ نحن أبناؤها بالولادة، لا بالمنطق. مخلصاً للسرّ البِكر، عاش موته غريزياً، كما كان قد عاش حياته. الظلّ الذي اعتاده الآن يتآخى مع الظلال التي التفَّت على أعمدة الحرارة. وفية في اللحم للقسم الذي ولدت عليه.

لم يسقط عبداً لإيمان متّقد، لم يقتلوه محارِباً من أجل دناءة مثلٍ أعلى. متحرِّراً من مسبّة الإيمان ومن شتيمة الإنسانوية، لم يسقط دفاعاً عن فكرةٍ سياسية، أو عن مستقبل الإنسانية، أو عن الدين. بعيداً عن الإيمان بالعالم الآخر، الذي انخدع به مصدقو محمد ومريدو عيسى، بَصُرَ بالموت قادماً إليه بدون أن ينتظر منه الحياة، بصر بالحياة تنفلت منه بدون أن ينتظر حياةً أفضل.

لقد مضى بالطبع، مثلما الريح والنهار، حاملاً معه الروح التي جعلته مختلفاً. ثم غاصَ في الظلّ كمَن يدخل عبر الباب التي وصل إليها. مات من أجل الوطن، وهو الشيء الوحيد الذي نعرف أنه أعلى وأسمى منا.

لم ينعكس في عينيه عندما انطفأت الشعلة التي جعلته حياً على الأرض، لا الفردوس المحمدي أو المسيحي، ولا الغياب المتعالي للبوذي.

لم يعرف أيّ إنسان كان، ولا نحن عرفنا مَن كان. أتمَّ واجبه، بدون معرفةٍ منه بإتمامه. كان مقوداً بما يجعل الورود تزهر وبما يصبغ الجمال على موت الأوراق. ليس للحياة مبرِّر أفضل ولا للموت مكافأة أحسن من هذا.

... للبطولة البسيطة، بدون سماء يكافأ بها الاستشهاد، أو إنسانية تنال بواسطة المجهود؛ للعرق الوثني القديم الذي ينتمي إلى المدينة وخارج تلك التي يوجد فيها الأعداء والبرابرة.

. . . لكن بالعاطفة التي يحبّ بها الابن الأم، لأنها الأم الرؤوم وليس لأنه ابنها (؟).

. . . هو الآن يزور الأقاليم التي لا نور فيها . . .

. . . مجهولٌ هو مثل الغريزة التي أودت به. لم يفكر في أنه سيموت من أجل الوطن؛ من أجل الوطن مات؛ أتمّ واجبه وحسب. مَن لم يمتلك اسماً في الروح، لا ينبغي أن نسأل عن الاسم الذي عرّف جسده. كان برتغالياً، برتغالياً بدون محدِّدات.

مكانه ليس بجانب مؤسسي البرتغال، قامته مختلفة، كذلك وعيه. لا تلائمه صحبة أنصاف الآلهة، الذين بجرأتهم نمَت طرق البحر ووضعت أراضٍ كثيرة في متناولنا.

لا تمثال لديه ولا شاهدة قبرية تحكي عمَّن كان ذلك الذي كاننا جميعاً؛ ولأنه الشعب بكامله، ينبغي أن تكون الأرض كلها قبراً له. في ذاكرته الخاصة يجب أن ندفنه، ومن مثاله وحده نصنع شاهدة له.

فرناندو بيسوا
بطاقة كرونولوجية

1887: الميلاد المفترض لريكاردو رييس.

1888: 13 يونيو: ميلاد فرناندو بيسوا.

1889: 16 أبريل: الميلاد المفترض لألبرتو كاييرو.
15 أكتوبر الميلاد المفترض لألبارودي كامبوس.

1893: موت والده.

1895: ظهور أولى قصائده وهي رباعية مهداة إلى أمه.

1896: يسافر إلى دوربان (جنوب أفريقيا) مع أمه وزوجها الدبلوماسي.

1896-1898: الدراسة الابتدائية.

1901: قضاء العطلة مع العائلة في لشبونة وهو تلميذ في إحدى المؤسسات الثانوية.

1902: يكتب قصيدته الثانية (رباعيات وثلاثية) مهداة أيضاً إلى أمه.

1903: يلتحق بجامعة الكابو.

1905: يعود بمفرده إلى لشبونة ليستقر في منزل جدّته لأبيه، ثم في منزل خالته من بعد.

1906: يسجل نفسه في كلية الآداب بلشبونة.

1907: يترك الدراسة في الكلية بصفة نهائية.

1908: يشرع في مزاولة عمله كمحرر للمراسلات الأجنبية في مؤسسات تجارية للتصدير والاستيراد.

1909-1910: يكتب العديد من السونيتات باسمه الخاص.

1911: يشرع في تنفيذ مخطط لدراسة الفلسفة اليونانية والألمانية والآداب الأوروبية الكبرى. ومن ثم فقد أمضى فترات طويلة من هذه السنة معتكفاً في صالة القراءة التابعة للمكتبة الوطنية.

1912: ينشر في مجلة *A Aguia* أولى مقالاته النقدية للشعر البرتغالي، وهي السنة نفسها التي ولدت فيها فكرة خلق ندّ شعري له ممثل في ريكاردو رييس.

1913: ميلاد بعض القصائد، توطّد صداقته بالرسام ألمادا نيغريروس وبالشاعر ماريو ساكرنيرو.

1914: يوم 8 مارس: يوم تاريخي خارق في حياته الإبداعية: كتابة: نشيد الظفر لكامبوس «مطر مائل» لبيسوا «راعي القطيع» لألبرتو كاييرو.

- 12 يونيو: ظهور أول قصيدة لريكاردو رييس.

1915: تأسيس مجلة **أورفي** مع ساكرنيرو وألمادا نيغريروس.

- 11 يوليو: ساكرنيرو يعود إلى باريس.
- أغسطس: نشاط أدبي محموم لأنداد بيسوا.
- نوفمبر: الموت المحتمل لألبرتو كاييرو.

1916: يفكر بالاستقرار كمنجّم في لشبونة.

- أولى تجاربه في الوساطات الروحية.
- ساكرنيرو يُخبره بواسطة رسالة عن رغبته في الانتحار.
- انتحار ساكرنيرو فعلاً في 26 أبريل في باريس.
- تغيير مستمر لأمكنة الإقامة.

1917: ظهور العدد اليتيم من مجلة.. **المستقبلية البرتغالية**.. متضمنة قصيدة Ultimatum لألبارودي كامبوس.

1918: ينشر قصائد بالإنجليزية.

1919: - ريكاردو ريس يسافر إلى البرازيل.

- موت زوج أمه في بريتوريا.

1920: - ينشر أشعاراً بالإنجليزية ويشرع في كتابة أخرى.

- يكتب رسالته الغرامية الأولى إلى أوفيليا كيروث في الأول من مارس. وفي 28 منه يستقرّ مع أمه العائدة من جنوب أفريقيا بصحبة أبنائها الثلاثة في شارع Colhold Racla حيث أقام حتى وفاته.

1922: ظهور العدد الأول من مجلة **المعاصر** متضمناً بـ «رجل البنك الفوضوي» «بحر برتغالي» ثلاث أغان ميتة (بالفرنسية) و«Lisbon Revisted» بالإنجليزية.

1923: - سنة الخصوبة الإبداعية القصوى لريكاردو ريس.

- يترجم بعض قصائد لإدغاربو إلى البرتغالية.

1924: ظهور «بيان طلبة المدارس العليا للشبونة» ضد ألبارو دي كامبوس الذي ينشر رده المضاد: بيان من أجل الأخلاق.

1925: وفاة أمه.

1926: يدير بمعونة صهره **مجلة التجارة والمحاسبة** التي ظهر منها ستة أعداد ساهم فيها بيسوا بموضوعات اقتصادية تجارية.

1928: ألبارودي كامبوس يكتب قصيدة «تبكريا».

1929: ظهور أول دراسة نقدية حول خرف ف. بيسوا بقلم جاو غاسبار سيمويس.

1930: بيير أوركاد يكتب في مجلة *Contacs* عن لقائه بفرناندو بيسوا.

1932: يتقدم للحصول على منصب محافظ متحف ومكتبة الكونت كاسترو غيمارايه، لكنه يُقصَى لعدم توفره على تأهيل رسمي.

1933: يمرّ بأزمة نوريستينية حادة.

1934: النشاط الشعري لأبارودي كامبوس يتضاعف مقابل الصمت شبه الكامل لرييس وبيسوا.

- حصول قصيدة «رسالة» على جائزة من «الدرجة الثانية» في المسابقة الشعرية التي نظّمها «مكتب الإشهار الوطني».

1935: - 19 نوفمبر: آخر قصيدة لبيسوا تنتهي بهذا البيت:

«اسقني مزيداً من الخمر، لأن الحياة لا شيء».

- 30 نوفمبر: وفاة بيسوا من تشمُّع الكبد.

صدر للمترجم

في الشعر:

- **عشق بدائي**، القاهرة، 1979.
- **باب البحر**، عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1983.
- **سماء خفيضة**، عن دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1989.
- **ترانيم لتسلية البحر**، عن دار المعارف المغربية، الرباط، 1992.
- **شمس أولى**، عن دار المعارف المغربية، الرباط، 1995.
- **قبر هيلين**، عن وزارة الثقافة المغربية، الرباط، 1998.
- **ضوضاء نبش في حواشي الفجر**، وزارة الثقافة، الرباط، 1998.
- **في الثلث الخالي من البياض**، دار توبقال، الدار البيضاء، 2002.
- **الأعمال الشعرية** (9 دواوين) في جزأين، وزارة الثقافة، الرباط، 2003.
- **بين الحبر وبيني**، دار توبقال، الدار البيضاء، 2006.
- **محض قناع**:
  - ـ ط. 1، سليكي إخوان، طنجة، 2009.
  - ـ ط. 2، دار توبقال، الدار البيضاء، 2014.
- **لا أحد اليوم ولا سبت**، دار توبقال، الدار البيضاء، 2012.
- **ربيع الفتيات**، دار توبقال، الدار البيضاء، 2015.
- **تمتع بالمحو**، دار توبقال، الدار البيضاء، 2016.

في النشر:

- **حديث ومغزل**، دار توبقال، الدار البيضاء، 2000.
- **فقاعات حبرية**، منشورات هسبريس، طنجة، 2003.
- **شرفات ومرايا**، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003.
- **بديع الرماد**، منشورات سليكي إخوان، طنجة ، 2004.
- **يونس الخراز: نزوات في الرسم والحياة**، دار عكاظ، الرباط، 2009.
- **عبد الواحد منتصر: المهندس الإنسان**، دار توبقال، الدار البيضاء، 2011.
- **المدينة السعيدة**، بالاشتراك مع المهندس المعماري عبد الواحد منتصر، 2012.
- **بالنوم أو بدونه**، دار توبقال، الدار البيضاء، 2012.
- **من أكون؟**، دار توبقال، الدار البيضاء، 2013.
- **بين القصرين**، منشورات ابن خلدون، طنجة، 2013.
- **رجلٌ مدينة**، منشورات ابن خلدون، طنجة، 2013.
- **الصوت الحتمي**، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، 2014.

في الترجمة:

- **نشيد بحري، مختارات من شعر فرناندو بيسوا:**

  أ - عن هيأة قصور الثقافة القاهرة، 1995.

  ب - عن دار الرابطة، الدار البيضاء، 1996.
- **أنطولوجيا القصة الكولومبية القصيرة**، بالاشتراك مع إبراهيم الخطيب، وزارة الثقافة، الرباط، 1998

- **اللهب المزدوج**، أوكتافيو باث، عن المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1998.
- **مختارات من شعر فرناندو بيسوا II**، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1998.
- **دوائر الجحيم، خوستو، خورخي بادرون**، دار توبقال، الدار البيضاء، 2001.
- **كتاب «اللاطمأنينة» لفرناندو بيسوا:**

  1 - طبعة أولى، وزارة الثقافة، الرباط، 2001.

  2 - طبعة ثانية، المشروع القومي للترجمة - القاهرة، 2008.
- **راعي القطيع** (شعر)، ألبيرتو كاييرو، فرناندو بيسوا، الرباط، 2004.
- **أناشيد ريكاردو ريس** (شعر)، فرناندو بيسوا، وزارة الثقافة، الرباط، 2005.
- **كتاب البرد** (شعر)، أنطونيو غامونيدا، وزارة الثقافة، الرباط، 2005.
- **قصائد ألبارو دي كامبوس**، وزارة الثقافة ،الرباط، 2007.
- **«ديوان الأغاني» وباقي القصائد**، فرناندو بيسوا، وزارة الثقافة، الرباط، 2007.
- **في اليوم والأمس والغد: مختارات من شعر خوان خيلمان**، منشورات المركز القومي للثقافة - القاهرة، 2009.
- **أشياء موضوعة لتجف تحت الشمس للشاعر الإسباني لويس مونيوس**، المركز القومي للترجمة 2010.
- **مولاي أحمد الريسوني: سَبْعَة أعمار لِمَيتة واحدة**، دار توبقال، الدار البيضاء، 2016.

فرناندو بيسوا

كتاب اللاطمأنينة

كتاب اللاطمأنينة ليس بكتاب بالمعنى العادي للكلمة. لقد أنجز فرناندو بيسوا هذا الشيء الرائع المتمثل في كشف الكلام الفلسفي بالتقريب، كي يقيم في طيته كرجل عادي، بل بوسعنا أن نقول كإنسان معين، إنسان يكتب لمدة سنوات هذه اليوميات، ولا ينشر منها شيئاً، أو بعض الشيء، وعلى هذا النحو ويوماً تلو آخر، يجمع رأسمال ذا قيمة لا تصدق، لا يقاس القياس الشائع في النظام المعمول به في الأدب. سيقول ذلك الإنسان، ودائماً في تلك الوثائق، وثائق ألم الوجود في العالم، بفغور مفتوح كالجرح: «الكتابة، بالنسبة إلي، تعني أن أهين نفسي، لكن ليس بمستطاعي الإمساك عنها. الكتابة كالمخدر الذي أشمئز منه، ومع ذلك أتناوله، كالمنكر الذي أحتقر ولكنني أنغمس فيه».

إلى المهدي أخريف يعود شرف التعهد بترجمة **كتاب اللاطمأنينة** وإنجازها الجيد، مقابل مجهود صبور استأثر بكل نشاطه لمدة شهور وشهور. وههنا أريد أن أعرب له عن إعجابي، كما أعبر له عن شكراني إن صح القول، لأنه بعمله هذا يحقق توقاً رُعي بعناية زمناً طويلاً.

سيبقى العمل الرائع الذي أنجزه المهدي، وتبقى اللاطمأنينة إلى نهاية الأزمنة.

إدمون عمران المليح



المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com



ISBN 978-9953-68-810-7